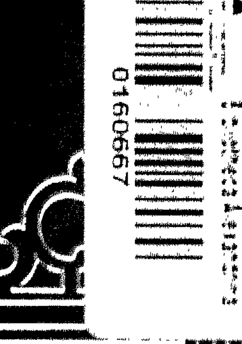
طه حسين

في

ميزان العلماء والأدباء

محمود مهدي الاستانبولي





طه حسين

في

ميزان العلماء والأدباء

طه حسين

في

ميزان العلماء والأدباء

إعداد وتقديم وتعليق

محمود مهدي الاستانبولي

المكتب الاسلامي

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

المكتب الإسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى

تمهيـد

في أوائل الثلاثينات من هذا القرن العشرين ، ظهـر الكاتـب الدكتـور طه حسين ، فحمـل على الإسـلام حملات شرسـة ، وخصّ القـرآن العـظيم بالنقـد والتكذيب سنة ، وعمد إلى نشر أدب الفسق والدعارة والزندقـة تساعـده في ذلك المراكز الإستشراقية والدوائر الإستعمارية ، ودعاة التغريب الذين يسعون لهدم أركان هذا الدّين بمختلف الوسائل الظاهرة والخفية ، من أجل تحطيم أعظم معاقل الدفاع بين المسلمين ، للتمكن منهم والقضاء على معاقل الدفاع فيهم وإفناء شخصيتهم ، ليذوبوا في الحضارة الغربية الفاشلة . . .

فقيّض اللّه سبحانه جماعة من كبار العلماء والأدبـاء ، ندر أن يجـود الزمـن بمثلهم ، للدفاع عن الإسـلام والـرد على هذا الخصـم الشرس والأديب العميل ، بالكشف عن دسه وجهله ، فالقموه حجراً ، وأصلوه ناراً حامية .

ولكن العاصفة هدأت ، ومضى نصف قرن من النسيان على هذه المعركة بين الحق والباطل ، واختفت هذه الردود في زوايا الإهمال ، حتى كأنها لـم تكن !

وبقيت كتب الباطل تسرح وتمرح ، وازداد نشاطها لتفسق في الأرض ، وتنشر الفساد والضلال .

وقد كان المفروض في هذه الدسائس والأكاذيب ان تندثر بعد منية كاتبها ؛ فتموت بموته . ولكن من وراء نشرها والدعاية لها والإنفاق عليها الدوائـر والمراكز التي سبق ذكرها ، لاستمرار دولة الباطل على تمثيل دورها الإجرامي المدمّر . . .

لهذا كلّه سارعت لإنقاذ الموقف ، فأصدرت هذا الكتاب الضخم ، إنتصاراً للحق وحماية للأجيال المسلمة ، جمعت فيه أغلب هذه الردود القوية ، والشموس الساطعة ، والقذائف الرهيبة على الباطل .

إقرأه بتدبر وإمعان ، تطّلع على حقائق مذهلة وآثار قيمة منسية لا توجد في غيره ، مما لا غنى عنه ! . .

وقد سار طه حسين قُدُماً في طريقه هالة من الخداع والتضليل والحماية تحت أسماء التجديد والتقدم العصرية والبحث العلمي ، وظهرت الأجيال الجديدة من الشباب في هذا الجو المطعم بالخرافة الأسطورية ، فلم تستطع أن تتبين وجه الحق ، بعدما رأت ما أطلق عليه عميد الأدب محاطاً بهالة من التبرير والدوي ، فلم تعرف حقيقة الدور الذي قام به في مجال التغريب والغزو الثقافي ، فكان لا بد أن ينطلق للحق لسان ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدفعه ، فإذا هو زاهق ﴾ .

ومن ثم كانت هذه المحاولة السريعة التي نقدمها اليوم بين يدي القارىء . . .

مقدّمة

ما كاد طه حسين المسمى بعميد الأدب العربي ، يرحل من الدنيا ، حتى سارع أنصاره ومحبوه وكثير من طلابه ومن وراء كل ذلك المستشرقون من أعداء الإسلام ، إلى تصنيف الكتب العديدة عن مزاياه وجهاده ليبهروا أصحاب العقول البسيطة ، والنفوس الضعيفة بعظمته المزعومة ويفرضوا على الناس آراءه الإلحادية والهدامة .

ومن هذه المؤلفات كتاب « قاهر الظلام » اطلعت عليه في واجهات بعض المكتبات ، ولم تطاوعني نفسي حتى على تصفحه لما في عنوانه من خداع وتعريض بالإسلام . ومثله كتاب : « طه حسين وزوال المجتمع التقليدي » !

ومما يؤسف له أننا لم نجد من العلماء والأدباء المؤمنين [1] من تصدى لهذا (العميد) ولأتباعه بعد موته كما تصدى العلماء والأدباء الغيارى في حياته في أوائل هذا العصر ، فكشفوا عن تآمره على الإسلام وعلى لغة القرآن وتجنيه على الحقيقة والتاريخ وعبثه بعقول الكثير من السذج والمخدوعين .

وقد أصدرت له بعد موته دور النشر التجارية التي قد تكون مخدوعة بشهرته الواسعة ، أو مدفوعة بالربح المادي ، المؤلفات الكاملة له ، مع مقدمات إضافية عن قيمتها العلمية والأدبية المزعومة ، ناسية أو متناسية تبعتها أمام الله العظيم في تضليل الأجيال ، وهو القائل :﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ .

ولما كان السكوت عن هذه المؤلفات يعد جبناً وهزيمة بل مؤامرة على الإسلام وبُعداً عن الحق وتجنياً عليه ، رأيت من واجبي أن أجمع أقوال أكثر العلماء والأدباء الكبار الذين تصدوا لطه حسين في أوج مجده المصطنع ، وبرهنوا بالحجج الدامغة

(١) من الحق والانصاف أن نذكر الأخ الفاضل والكاتب القدير والمؤلف الجريء، أنور الجندي في مصر، فقد نشر ما يروي الغليل في الرد على طه حسين ، نذكر من ذلك كتابه القيِّم: «طه حسين في ميزان الاسلام». وقد نقلنا منه الشيء الكثير، جزاه الله تعالى خيراً ووفّقه .

والأدلة الساطعة على ضلاله وزيفه ، وحطموا شخصيته الموهومة ، وذلك خدمة للحق الناصع ودفاعاً عن الحِمى المستباح ، وإنقاذاً للأجيال الحاضرة والمستقبلة من أن تقع فريسة للخداع البراق والزائف .

وقد وقعت فعلاً ، وظهرت بوادر ظاهرة رهيبة منذ سنوات ، لا تزال مستمرة، تتلخص بجرأة بعض الكُتاب على القرآن واتهامه بالتناقض، ونعتهم قصصه بالأساطير- كما قال طه حسين من قبل - ووصفهم الله جلّ شأنه بالمكر والتناقض والخداع ، مما لم نكن نعهده من قبل كأمثال صادق العظم[1] في كتابه : «النقد الفكري والديني» وأمثاله وقد ردّ عليه بعض العلماء والكتاب أمثال الأخ المؤرخ والعالم الغيور «محمد عزة دروزة» في كتابه : «القرآن والملحدون» وغيره .

ولو درسنا الأسباب متعقبين الحوادث لوجدنا ذلك نتيجة مؤلفات طه حسين . ومن المؤلم أنّ أحداً - كما أعلم - ممن ردّ على صادق العظم وغيره لم يذكر من قريب أو بعيد أنّ ذلك من نتائج أقوال من سُمي بعميد الأدب فهو المسؤول الأول . . . وخاصة بعد اختفاء آثار كبار العلماء والأدباء الّذين ردوا عليه وأوضحوا مبلغ تجنيه على الحق وبُعده عن الصواب ، الأمر الذي يفيد في ردع الضالين وتنبيه الغافلين وتحذير المبتدئين .

« إن طه حسين لم يكن في الحقيقة إلا بوقاً من أبواق الغرب ، وواحداً من عملائه الذين أقامهم لخدمة مصالحه وتنفيذ مخططاته وترويج حضارته وثقافته ليدفع المسلمين إلى الخضوع له » .

فهو في كتابه (مستقبل الثقافة) يخيل إليك أن حضارة مصر جزء من حضارة البحر الأبيض المتوسط ، وأن صلتها بالإغريق واللاتين أدنى من صلتها بعرب الجزيرة أو عرب السودان ثم هو يذهب مع الخديوي إسماعيل إلى ضرورة جعل مصر قطعة من أوروبا .

والجري وراءه في هذا الضرب من التفكير منتهٍ حتماً إلى سلخ مصر عن عروبتها وإسلامها ، وإلى عزلها عن تاريخها وحضارتها ورسالتها ، وهذا السلخ أو العزل

(١) ومثله آخر ، وهو من نتاج طه حسين ، وقد ردّ عليه الأستاذ محمد أحمد جمال رحمه الله ، مما سنرى تفصيل ذلك في هذا الكتاب .

بعض ما يصبو إليه الغزو الثقافي الوافد مع الاستعمار ، وأثره مدّمر للقيَم التي ظللنا قروناً نحيا بها ، ومضلل للسياسة التي سلكناها مع جيراننا وإخواننا ، فأعزت جانبنا في كل مكان[1] » .

ومن جهالات طه حسين قوله :

« . . . وأنا مع هذا لا أنكر أنَّ الإسلام في مصر له خصائص غير الخصائص التي يجدها الباحث حين يدرس الإسلام في الحجاز او الشام أو في المغرب او في العراق[2] .

إنّ هذا القول خطأ فاحش ، فإنّ الاسلام في أغلب أحكامه يطوّر ولا يتطوّر ، ثابت لا يتغيّر ، وكلّ ذلك من مزاياه ومحاسنه ، ما دام ديناً عالمياً ، يجمع البشرية ولا يفرقها ، ويُوَّحدها ولا يشتتها ، وهذه الخاصة أُمنية كبار المفكرين والعلماء ، لإنقاذ الشعوب من الاختلاف والنزاع نتيجة التباين في التشريعات والتقاليد .

قال العالم المفكّر (ج . دي يويس) تحت عنوان : «العالم الواحد المقبل»[3] .

تنبأ أرنولد توينبي المؤ رخ الحضاري الانكليزي : «أن وجه الكرة الأرضية سوف يتوحد سياسياً في مدى نصف قرن . . . »

وقال أيضاً : «ليس من الضروري أن نعتمد على فلسفة التاريخ المعقدة لنصل إلى هذه النتيجة نفسها ، فإذا استخدمنا المقياس العادي ذا الاعتبار الكبير ، أي سرعة المواصلات ، تبين لنا أن العالم قد تقلّص بخطوات متزايدة مع تقدّم الفن الصناعي ، فإن في استطاعة المرء أن يقوم برحلة حول العالم بسهولة في ثمانية أيام . وقد لا تستغرق هذه الرحلة في المستقبل غير البعيد أكثر من ثماني ساعات عندما يطير بسرعة تفوق سرعة الصوت (وقد تحقق كل ذلك الآن)

وهذا التغيير يؤ ثر تأثيراً جوهرياً على بنيان الدول الغربية ، بل العالم كله في واقع الأمر . . . وتقترب سريعاً المرحلة التي نجد فيها اليد اليُسرى لا تحاول قطع

---

(١) ظلام من الغرب ـ محمد الغزالي ص ٢٣١ ـ ٢٣٢ .

(٢) مستقبل الثقافة ١/ ٩٠

(٣) في كتابه : «مستقبل الحضارة» ص ٢١١ .

اليد اليمنى، لأن الأثنتين جزء من جسد واحد، ومن ثمّ ، فإن الاستمرار في الحرب على نطاق العصر الحاضر، أشبه بطير ينقر قلبه بمنقاره [1].

وهذه الظاهرة والطبيعة الاسلامية في توحيد أتباعها أثارت دهشة أحد كبار ساسة انكلترا في الماضي، فقال: اني لأعجب من الاسلام في توحيد اتباعه ، فان المسلم الهندي أقرب الى المسلم العربي منه إلى الهندوكي الذي عاش ويعيش بجواره عشرات السنين.

وهذا الخطأ الذي وقع فيه طه حسين ، وقع فيه العديد من الأدباء أمثال أحمد أمين ، فقد ذكر في بعض مقالاته « أنّ سبب تغيير الإمام الشافعي (ـ) لبعض مذهبه في مصر عقب رحلته إليها بعد ما ترك بغداد، يعود إلى اختلاف البيئتين» وكل ذلك لا صحة له، وهو نتيجة الجهل.

والسبب الوحيد لصنيع هذا الإمام يعود الى اطلاعه على أحاديث لم يكن سمعها في بغداد، نتيجة تفرق الصحابة في الأمصار بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم خلال الفتوحات الاسلامية [2].

وقد أعلن الشعراني في الميزان أنّ الأئمة لو جاؤوا اليوم لرجعوا عن كثير من آرائهم، فهم أسرى بيد الشريعة.

ومما يبعث في النفس الأسى أنّ هذا الجمع المبارك للسنة لم يُعط ثمراته، فبقي أكثر مقلدة المذاهب حتى المثقفين منهم وأدعياء العلم يتعصبون لمذاهبهم، فلو آتيت كلاًّ منهم ، بكل آية أو حديث يخالف مذهبه، ما تبعه، فإذا لم تكن هذه هي الردة عن الإسلام، فما هي الردة؟! وقد قال الله في كتابه العزيز: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون ! حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا

---

(١) محاضرة ألقاها توينبي بادنبره في شهر اكتوبر عام ١٩٥٢

(٢) وهذا هو السبب الرئيسي لاختلاف أئمة المذاهب ، وقد أعلن كل منهم هذه الحقيقة وصرّح بأنه غاب عنه كثير من حديث رسول الله ﷺ ، كما صرّح أيضاً بأنه يقول القول اليوم ويرجع عنه غداً، ويقوله غداً ويرجع عنه بعد غد، ويراجع من أجل ذلك مقدمة رسالة «صفة صلاة الرسول ﷺ». وكل ذلك نتيجة عدم جمع السنة في عهد الأئمة الكرام الذين بذلوا الجهد لخدمة الاسلام قدر استطاعتهم جزاهم الله تعالى خيراً، ثم جاء علماء الحديث بعدهم فجمعوا السنة كلها بأسلوب علمي منقطع النظير أدهش مفكري الغرب أنفسهم.

تسليماً!!!﴾ وقال سبحانه: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول!! إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ وقال جل شأنه: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة (اي كفر) أو يصيبهم عذاب أليم!﴾

اللهم ردّنا إلى دينك رداً جميلاً حتى نحظى برضاك، ونستحق نصرك الذي وعدتنا...

ولم يكتف طه حسين بما سبق، بل إنه لم يبدُ له في فهمه أن العرب أمة لأن قِوام الدول في زعمه هو المنافع المادية، ولأن تطور الحياة الإنسانية قضى منذ عهد بعيد، بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول[1].

ومعنى ذلك في رأي الدكتور أنّ الأمة الإسلامية التي مدنت العالم وأسست أعظم حضارة في التاريخ بشهادة المنصفين من علماء الغرب ومؤرخيه خلال ما يزيد على عشرة قرون، وكانت مؤسسة على وحدة الدين واللغة، لم تكن أمة في فهم هذا الدكتور، مما لا يقول به أجهل الناس في العلوم الدستورية، مع العلم أن هذه الدولة العظيمة كانت، علاوة على ما تقدم مشتركة في الآمال والآلام والمصير الواحد...

ومثل هذه الأفكار الهزيلة نسمعها في أكثر مقترحات طه حسين، نذكر منها قوله في معرض تقرير دراسة اليونانية واللاتينية لتزاحم العربية لغة القرآن العظيم «.. وإنه لمن المحرج أن نضطر إلى تقرير الأوليات، وأن نعيد القول ونبدأه في أن العلاقة بين مصر واليونان قديمة جداً، وأن اليونان قد صوروا هذه العلاقة فيما كتبوا وأنشؤوا: من أن مصر قد خضعت للسلطان اليوناني والروماني وما نشأ عنهما من النظم عشرة قرون لا نستطيع أن نلغيها من تاريخنا الوطني، ومصادر تاريخها يونانية لاتينية وإن مصر قد اتصلت في عصورها الإسلامية بالبيزنطية من جهة وبأوروبا الغربية من جهة أخرى. ومصادر التاريخ لهذا الاتصال يونانية ولاتينية[2]..

ومما يترتب من قوله: أن من واجب السوريين ما داموا حُكموا قروناً ليست

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ١

(٢) مستقبل الثقافة في مصر ص ١٢

بالقليلة من قبل شعوب قديمة كثيرة ، أن يسارعوا لنبش التاريخ[1] وتعلم لغات تلك الشعوب . . .

ما رأي القارىء مهما كانت ثقافته بمثل هذا الاقتراح ؟

قال هذا الدكتور :

«وأغرب من هذا كله أنّ بين الإسلام والمسيحية تشابهاً في التاريخ عظيماً . فقد اتصلت المسيحية بالفلسفة اليونانية قبل ظهور الإسلام ، فأثرت فيها وتأثرت بها ، وتنصرت الفلسفة ، وتفلسفت النصرانية .

ثم اتصل الإسلام بهذه الفلسفة اليونانية فأثر فيها وتأثر بها فأسلمت الفلسفة اليونانية وتفلسف الإسلام[2]. .

من عجيب أمر طه حسين أنه يتكلم على الدِّين كأنه يتكلم على اليونانية أو الرومانية فتأثرت الثانية بالأولى ، جاهلاً أو متجاهلاً أن الدِّين نظام إلهي يطوّر ولا يتطور ، ويغيرّ ولا يتغيرّ ، يعلو ولا يُعلى عليه . وإذا حصل ذلك فيكون خروجاً عن الدِّين وهكذا حصل ، فإن المسيحية لم تكد تتصل بالفلسفة والوثنية الرومانية حتى أخذت عنها الكثير ، فأخرجتها عن أصلها الصحيح ومثل ذلك حدث بين صفوف المسلمين ، ولكن الفرق واضح في الحالين ، فقد تمّ هذا التحريف بالنصرانية بصلب كتبها المقدسة بخلاف الإسلام ! لأنه تشريع سماوي تكفل الله سبحانه بحفظه ، ولم يتكفل بحفظ غيره ، لأنه تشريع عالمي ! ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أسباب هذا التحريف في قوله : ﴿يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ﴾[3].

كل ذلك بخلاف الإسلام ، فإن الذين تفلسفوا هم بعض المسلمين ، فانحرفوا عن دينهم وضلوا ضلالاً مبيناً ، والمؤسف أن يسمي بعض المغفلين

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٢٣ - ٢٤
(٢) مستقبل الثقافة في مصر ص ١٣
(٣) سورة التوبة، الآية ٣٠

فلسفتهم بالفلسفة الإسلامية ، بينما هي فلسفة يونانية بأحرف عربية [١] كما قال ذلك الفيلسوف رينان ، وقد قال الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى : « إنّ الله لن يغفل عن المأمون لترجمته للكتب الفلسفية ! فلا بدّ أن يعاقبه !! » .

لنستمع إلى الدكتور ، وهو يطالب بالإرتماء في حضارة الغرب ، والذوبان في بوتقته والإنحلال حتى في رذائله ! وإضاعة شخصيتنا الإسلامية التي لا تقوم لنا قائمة بفقدانها :

« . . . ولكن السبيل إلى ذلك واحدة فذة ، ليس لها تعدد وهي : أن نسير سير الغربيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومُرها ، وما يحُب منها وما يُكره ، وما يحُمد منها وما يُعاب » [٢] .

فهل يُتصور أن يقول ذلك مفكر ، فضلاً عن عميد الأدب العربي ! ومن الغريب جداً أن يدعونا طه حسين لتقفي حضارة الغرب بخيرها وشرها ، في وقت يصيح مفكروه وعلماؤه وزعماؤه بنقد هذه الحضارة ويعلنون عن قرب سقوطها !

وأغرب من ذلك أن يعتقد طه حسين وأمثاله أننا بتقليد هذا الغرب وخلع شخصيتنا الإسلامية ، نصبح له شركاء ونكون له أنداداً ، وقد قام غيرنا بهذه التجربة ، فكان نصيبه التأخر والذل ، بل التشريد والتعذيب والإبادة . . . نأخذ مثالاً على ذلك زنوج أمريكا ، فما زادهم التخلي عن شخصيتهم والإقبال على اعتناق حضارة الغربيين وثقافتهم الفكرية وحتى دينهم إلا اضطهاداً وقتلاً وإفناء ! بناء على

---

(١) وقد رد الدكتور عمر فرّوخ على قول رينان هذا ، وزعم أنه تحامل على العرب وانكار لفضلهم مما هو خلاف للحقيقة بدليل تسمية العرب لأرسطو «معلمهم الأول» وذلك في كتابه «عبقرية العرب في العلم والفلسفة» .

ونكران بعض الاوروبيين لفضل العرب جاء في ابداعهم في العلوم ، وذلك من تعصبهم! وقد اعترف المنصفون منهم بهذا الفضل العظيم . أمثال«بريفولت» في كتاب : «بناء الانسانية» فقال :

« لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية ـ ويقصد الاسلامية كما قال فيما بعد ـ على العالم الحديث . . . ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد الى أوروبا الحياة ، بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الاسلامية بعثت باكورة أشعتها الى الحياة الأوروبية ، فإنّه على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوروبي إلا ويمكن ارجاع أصلها الى مؤثرات الثقافة الاسلامية بصورة قاطعة . . . » .

(٢) مستقبل الثقافة في مصر ص ٤٥

المبدأ القديم : « الناس غربيون وبرابرة».

ولله در القائل[1] :

والله لا يُبدي لك الغرب حُرمة ولو رحت في أذياله تتمسحُ
يقول لك الغرب المُدلّ بنابه وقد جئتَ تستجدي رضاه وتمدح

مكانك يا شرقي وارجع بذلةٍ فمن ذا رأى الشرقيَّ للعز يَصلح
ومهما سما الشرقي فالشرق نعجة تسمّن للغرب النهوم وتُذبح

فلا تلتمس عطفاً من الغرب صاغراً ذليلاً فما يحنو القوي ويسمح
ولا تعبد الغربي جهلاً فإنما ستكسب منه كل ذُل وتربح
ألست تراه رابضاً متربصاً يود لو أنّ الصيد يبدو (ويَمْنح)؟

ونظراً لخطورة التقليد الذي يدعونا إليه طه حسين وأمثاله كثيرون - أنقل البحث الموسَّع التالي للعلامة النمسوي محمد أسد (ليوبولد فايس سابقاً) يحدثنا فيه عن أخطار التقليد والارتماء في أحضان الحضارة الغربية ، فإنَّ فيه عبرة للمعتبر ورداً لاذعاً على طه حسين وأمثاله ! وهو من كتاب : « الإسلام على مُفترق الطرق » .

إن تقليد المسلمين - سواء كان فردياً أم إجماعياً - لطريقة الحياة الغربية ، هو بلا ريب أعظم الأخطار التي تُستهدف لها الحضارة الإسلامية . ذلك المرض (ومن الصعب أن نسميه بغير هذا الاسم) يرجع إلى ما قبل بضعة عقود ويتصل بقنوط المسلمين الذين رأوا القوة المادية والتقدم في الغرب ، ثم وازنوا بينهما وبين الحالة المؤسفة في بيئتهم الخاصة ، ولقد كان من جهل المسلمين لتعاليم الإسلام - وذلك راجع في الأكثرية إلى ضيق ناحية التفكير في أولئك الذين نسميهم الفقهاء (وإلى انصراف بعض القادة إلى ملاذهم ومنازعاتهم الشخصية عن خدمة أمتهم وشعوبهم) - أن نشأت الفكرة القائلة بأن المسلمين لا يستطيعون أن يسايروا الرقي

---

(١) الدكتور أمجد طرابلسي

الذي نراه في سائر أنحاء العالم ما لم يتقبلوا القواعد[1] الاجتماعية والاقتصادية التي قبلها الغرب . لقد كان العالم الإسلامي زمناً ما راكداً : فقفز كثيرون من المسلمين إلى الاستنتاج السطحي الخالص من أن النظام الإسلامي في الاجتماع والاقتصاد لا يتفق مع مقتضيات التقدم ، فيجب من أجل ذلك أن يحوَّر حسب الأسس الغربية . هؤلاء الناس « المتنورون » لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن مدى التبعة التي يتحملها الإسلام ، على أنه عقبة في تأخر المسلمين . ثم انه لم يتح لهم أن يروا موقف الإسلام الحقيقي ، أي كما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية ،ولكنهم اكتفوا من ذلك كله بأن رأوا أن تعاليم فقهائهم المعاصرين كانت سداً منيعاً في وجه الرقي ووجه التقدم المادي . ثم إنهم بدلاً من أن يولوا أبصارهم نحو المصادر الأصلية في الإسلام اعتبروا ضمناً أن الشريعة والفقه المتحجر في أيامنا هذه شيء واحد . وقد وجدوا أن الثاني ناقص من عدة وجوه ففقدوا بالتالي كل اهتمام عملي بالشريعة وأحالوها إلى حقل التاريخ والمعرفة المدفونة في الكتب[*]. ثم بدا لهم أن تقليد المدنية الغربية هو المخرج الوحيد من ورطة الانحلال الإسلامي . وأما التبعة في ما وصل إليه المسلمون من تأخر فتقع على عاتق العلماء والشباب المثقفين وعلى عاتق القادة الذين يتاجرون بالدين وبالبلاد ، وليس لأحد من هؤلاء أن يتنصل من هذه التبعة ، فكلهم مسؤولون عن تأخر المسلمين الاقتصادي والسياسي والعلمي في كل مكان .

إن خير المؤلفات الحديثة من ناحية التفكير ـ منها الكتاب القيم

---

(١) و(*) : لله درُّ هذا العالم ، فقد صرَّح بحقيقة هامة جهلها حتى كثير من علماء المسلمين ، وهي وجوب الرجوع الى الكتاب والسنة فيما عدا الأمور الاجتهادية التي تتغيرُ بتغير الأزمان ، والغريب المؤسف أن المسلمين جمَّد كل فريق منهم على مذهبه لا يرى الحق سواه ، وخاصة في القضايا التشريعية والاقتصادية وأبى الأخذ بما صحَّ من المذاهب الأخرى ، كما أوصى بذلك جميع الأئمة رحمهم الله تعالى وأجزل ثوابهم وخاصة بعد جمع السنة الذي كان بعدهم مما كان سبباً في اختلافهم ، وقد قال الشعراني في «الميزان» : لو جاء الأئمة اليوم لرجعوا عن كثير من آرائهم . نذكر مثالاً على ذلك المذهب الحنفي الذي كان سائداً في زمن الدولة العثمانية فقد ظهر فيه أحكام شرعية لا تصلح ، بينما يوجد في المذاهب الأخرى ما صحَّ دليله ، ويتفق مع الزمن ، فرفض شيوخ الأحناف المسيطرين وقتئذ ، واعتبروا ذلك تلفيقاً عليهم من الله ما يستحقون فقد كان ذلك سبباً في ارتماء الحكام في حمأة التشريعات الأجنبية ، وكل ذلك نتيجة الجهل والتعصب الأعمى والاعتقاد بصحة كل ما جاء في المذاهب!

« إسلاملاشمق » (إعتناق الإسلام) للأمير سعيد حليم باشا ـ والتي تقطع بأن الشريعة الإسلامية ليست حجر عثرة في سبيل التقدم الحديث كما ظن بعضهم أخيراً ـ قد تأخرت في الظهور فلم تستطع أن توقف التيار الذي طما على الكثيرين من المسلمين بإعجاب أعمى بالمدنية الغربية . ثم إن القوة على الشفاء في هذه المؤلفات قد بطلت بفعل سيل من الكتابات (وضعها أهلها فيما ظنوا للدفاع عن العقائد الإسلامية) . هذه الكتابات ، وإن لم تنكر التعاليم العملية في الإسلام بصراحة ، فإنها حاولت أن تري أن هذه الشريعة يمكن أن تخضع بسهولة للآراء الاجتماعية والاقتصادية في المدنية الغربية . فتقليد المسلمين للمدنية الغربية كان على ما يظهر مبرراً عند بعضهم ، ولقد كانت الطريق معبدة أمام التخلي تدريجياً عن أبسط مبادىء الإسلام الاجتماعية ـ ولكن دائماً تحت ستار « التقدم » الإسلامي ـ مما يَسمُ اليوم عدداً من أرقى الدول الإسلامية .

وليس ثمة من فائدة في أن نجادل ـ كما يفعل بعض « المتنورين » من المسلمين ـ ونزعم اننا لن نتعرض لعواقب روحية ما ، فيما لو عشنا حسب هذا السبيل أو حسب ذلك ، أو فيما لو لبسنا ثياباً أوروبية أو آسيوية ، أو فيما لو كنا محافظين في عاداتنا أو غير محافظين ، ليس في الإسلام قصر نظر ، ذلك مما لا شك فيه ، ولقد سبق لنا القول في الفصل الأول بأنَّ الإسلام منَّ على الإنسان بمجال واسع ، من وجوه الإمكان ، ما دام لا يفعل ما يناقض الأوامر الدينية . ثم إنه بصرف النظر عن أن كثيراً من الأشياء التي هي في جوهرها جزء من الكيان الاجتماعي ـ كالحرية في المباشرة الجنسية مثلاً أو الربا الذي يعتبر أساساً للجهود الاقتصادية ـ تتنافى مع تعاليم الإسلام منافاة لا تحتمل الأخذ والرد ، فإن الميزة الأساسية للمدنية الغربية ، كما أظهرنا من قبل ، تمنع التوجيه الديني في الإنسان*(١) منعاً باتاً . وإن السطحيين من الناس فقط ليستطيعون أن يعتقدوا أنه من الممكن تقليد مدنية ما في مظاهرها الخارجية من غير أن يتأثروا في الوقت نفسه بروحها . إن المدنية ليست شكلاً أجوفاً فقط ولكنها نشاط حي . وفي اللحظة التي نبدأ فيها بتقبل شكلها تأخذ مجاريها الأساسية ومؤثراتها الفعالة تعمل فينا ، ثم تخلع على إتجاهنا العقلي كله شكلاً معيناً ولكن ببطء ومن غير أن نلحظ ذلك .

---

(١) و(٢) ما أعمق رأي الأستاذ محمد أسد ، وما أصحه ! وما أجهل أغلب المسلمين به في العصر الحديث ، =

ولقد قدر الرسول هذا الاختيار حق قدره حينما قال : « من تشبه بقوم فهو منهم[٢] » . وهذا الحديث المشهور ليس إيماءة أدبية فحسب بل هو تعبير إيجابي يدل على أن لا مفر من أن يصطبغ المسلمون بالمدنية التي يقلدونها .

ومن هذه الناحية قد يستحيل أن نرى الفرق الأساسي بين « المهم » وبين « غير المهم » في نواحي الحياة الاجتماعية ، وليس ثمة خطأ أكبر من أن نفرض أن اللباس مثلاً شيء خارجي بحت وأن لا خوف منه على « حياة الإنسان » العقلية والروحية . إنه على وجه العموم نتيجة تطور طويل الأمد لذوق شعب ما في ناحية معينة . وزي هذا اللباس يتفق مع الإدراك البديعي لذلك الشعب ومع ميوله . لقد تشكل هذا الزي ثم ما فتىء يبدل[٣] أشكاله باستمرار حسب التبدل الذي طرأ على

= فقد ارتموا في هوة الحضارة الغربية الفاشلة وقبلوا تشريعاتها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وكان من نتيجة ذلك ضياع شخصيتهم المسلمة التي خصهم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لما للتقليد من آثار مدمّرة في معركة تحقيق الذات، وقد ألفت كتاباً لا يزال مخطوطاً حول هذا البحث الهام، ولم يقتصر تقليد الغربيين على فقدان هذه الشخصية فحسب، بل غدا المسلمون يعانون الويلات نفسها التي يعاني منها الغربيون، ويقاسون منها المصائب نتيجة الضياع والتمزق والفوضى في جميع شؤونهم الاجتماعية والاقتصادية والتشريعية والجنسية والفنية وغيرها، مما يذكرنا بقول الشاعر:

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم
فقد ضلَّ من كانت العميان تهديه!

(٣) يزعم دوركايم الاستاذ في جامعة السوربون أن الزواج ليس أمراً فطرياً، بل هو عادة اجتماعية يمكن الاستغناء عنه بتحقيق صلات جنسية حسب الرغبة دون ارتباط في تكوين أسرة؟ ويكون مصير الأولاد من واجب الدولة كما هي الحال في تربية اللقطاء . وقد قال موريس ديكويرا متأثراً بنظرية دوركايم المدمّرة: «إني أفضل العشق على الزواج، فالعشق أشبه باشتراكك في مكتبة عابرة، حيث يكون بوسعك انتقاء الكتاب الذي يروقك.»
أما الزواج فمثل امتلاكك كتاباً واحداً تقرؤه وتعيد قراءته حتى. . . تمل (مجلة طبيبك ع ١٩٢).
فهل رأينا أخبث وأقبح من هذا الرأي الخاطىء المدمّر الذي زينه صاحبه بسلسلة من الضلال الفاسد والمنطق الكاذب ، فأين الكتاب الذي ضربه مثلاً من المرأة الزوجة ، ذلك المخلوق المفعم بالعاطفة والحنان الذي لا يمل ، وهو شبه الملاك الذي يخيم على البيت ، والذي بدونه يصبح هذا المأوى حجياً ملتهباً أو كهفاً مظلماً .
ويكذب نظرية دوركايم اليهودي العقل والعلم ، وهذا الغرب نفسه الذي سار بعض فئاته في هذه الطريق المدمّر، وكان من نتائجه وثمراته: هذا الجيل القاسي الشرير مما دعا العلماء والمفكرين المطالبة بالعودة إلى الأسرة. . ونقد آراء دوركايم نقداً لاذعاً.
ويكذب نظرية دوركايم اليهودي العقل والعلم والحقيقة الواقعية حتى عند الحيوانات. جاء في مجلة طبيبك: «حب غريزي، مستأثر، كريم، غامض أحياناً، يرجع بجذوره الى أقدم العصور. . الى

خصائص ذلك الشعب وميوله . فالزي الأوروبي اليوم مثلاً يتفق تماماً مع الخصائص العقلية في أوروبة ، وبلبس الثياب الأوروبية يوفق المسلم من غير شعور

تكوين الأنواع ووجودها على الأرض . . إنه الأمومة التي تسود مملكة الحيوان وتنظم العلاقة بين الأمهات وصغارها.

أمومة، تبدو لنا للوهلة الأولى، مماثلة تماماً لأمومتنا هي التي نجدها في كل «أسرة» حيوانية وكأنها قانون هناك وشرعة تزداد وضوحاً وقوة كلما تقدمنا صعوداً في سلم التطور والارتقاء.

والغريب أن الأب، في بعض أنواع الحيوانات الدنيا، هو الذي يتعهد الصغار ويحبوها بعطفه وحنانه. وثمة أفاع كالناجا يقوم الذكر على مدخل العش المليء بالبيض ديدباناً ساهراً مستعداً أبداً للدفاع عنه دفاع المستميت . ولعل أروع مظهر لعاطفة الأمومة هو الذي يتجلى في طائر الحجل الذي يركض أمام الثعلب ليستدرجه ويبعده عن عشه حيث الفراخ أو البيوض. أما عند الحيوانات اللبونة فليس أبلغ دلالة من هجوم الدب على كل من يحاول الاقتراب من صغيره ليلحق به أذى. أما عندما تبلغ الدبة الصغيرة «سن الرشد» وتصبح قادرة على العيش بمفردها والدفاع عن نفسها، فان الأمومة تخبو في قلب الأمهات ولا تنبثق مرة ثانية إلا في موسم الأجراء (ولادة الجراء) التالي.

وأما الدب الرمادي الذي يعيش في أوروبا فلا تلد أنثاه إلا مرة واحدة كل عامين ولذا يبقى الصغار «في الأسرة» طوال هذه المدة والى ما بعد ولادة الدفعة الثانية حيث يلعب الفوج الأول دور «الأخ الأكبر» بكل إخلاص، ثم لما تكبر الجراء الجدد (مسكن الدب) بالجميع تعمد الأم الى طرد الكبار البالغين من «البيت الأبوي».

والفيلة التي تعيش ستين أو ثمانين سنة تقضي طفولة طويلة أشبه بطفولة الانسان فصغارها تبقى برفقة أمهاتها وقتاً أطول مما تبقى سائر صغار الحيوانات. ولكن أقل من الانسان الذي يحتاج الى والديه فترة أطول مما يحتاجه أي حيوان آخر.

ومن ذلك أنه لو هاجم ثعلب وعلاً صغيراً فإن أم الوعل تنقضي عليه بقوائمها الأمامية التي تشكل سلاحاً حاداً وقاطعاً فلا يلبث الثعلب أن يلوذ بالفرار أو يقضى عليه.

ومهما يكن من أمر فليست رؤية زرافة تلعق صغيرها أو أنثى الغوريللا وهي « تتشتش» فريدها كافية للاقتناع بأن الحب هو قانون الاله السائد، وأن هذه الحركات التي تقوم بها أناث الحيوان وهي في أوج أمومتها لدليل قاطع على أن الأمومة في مملكة العجماوات مماثلة أو موازية للأمومة في دنيا الانسان العاقل.» ـ ع ١٧٩ ـ

ظاهر بين ذوقه والذوق الأوروبي ثم يشوه « حياته » العقلية بشكل يتفق نهائياً مع اللباس الجديد . وبعمله هذا يكون (المسلم) قد تخلى عن الامكانيات الثقافية لقومه وتخلى عن ذوقهم التقليدي وتقبل لباس العبودية العقلية التي خلعته عليه المدنية الأجنبية .

إذا حاكى المسلم أوروبة في لباسها وعاداتها وأسلوب حياتها فإنه يتكشف عن أنه يؤثر المدنية الأوروبية ، مهما كانت دعواه التي يعلنها . وأنه لمن المستحيل عملياً أن تقلد مدنية أجنبية في مقاصدها العقلية والبديعية من غير إعجاب بروحها ، وإنه لمن المستحيل أن تعجب بروح مدنية مناهضة للتوجيه الديني - وتبقى مع ذلك مسلماً صحيحاً .

إن الميل إلى تقليد التمدين الأجنبي نتيجة الشعور بالنقص . هذا ، ولا شيء سواه ، ما يصاب به المسلمون الذين يقلدون المدنية الغربية . إنهم يفاضلون بين قوتها ومقدرتها الفنية ومظهرها البراق وبين البؤس المحزن الذي ألم بالعالم الإسلامي ، ثم يأخذون في الإعتقاد بأنه ليس في أيامنا هذه من سبيل إلا سبيل الغرب . وإنك لترى لوم الإسلام على تقصيرنا نحن زياً شائعاً بيننا اليوم . وأما في أفضل الأحوال فإن أولئك الذين نسميهم عقلاء من بيننا يتخذون موقفاً اعتذارياً ويحاولون أن يقنعوا أنفسهم ويقنعوا الآخرين بأن الإسلام يمكنه بسهولة أن يتشرب روح المدنية الغربية .

وكيما يستطيع المسلم إحياء الإسلام يجب أن يعيش عالي الرأس ، يجب عليه ان يتحقق أنه متميز وأنه مختلف عن سائر الناس ، وأن يكون عظيم الفخر لأنه كذلك . ويجب عليه أن يكد ليحتفظ بهذا الفارق على أنه صفة غالية وأن يعلن هذا الفارق على الناس بشجاعة بدلاً من أن يعتذر عنه بينما هو يحاول أن يذوب في مناطق ثقافية أُخرى على أن هذا لا يعني أنّ المسلمين يجب أن يُصمّوا آذانهم عن كل صوت يأتي من الخارج ، فإن أحدنا يستطيع دائماً أن يتقبل مؤثرات إيجابية جديدة من مدنية أجنبية ما من غير أن يهدم مدنيته ضرورة . والنهضة الأوروبية أحسن مثل في هذا الباب . فقد رأينا كيف أن أوروبة تقبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم

وأساليبه عن طيب خاطر ، ولكنهـا لـم تقبـل المظهـر الخارجـي ولا روح الثقافـة العربية [1]قط ،ولـم تضع استقلالها العقلي أو البديعي على الاطلاق . لقد اتخذت

(١) إنّ هذه الخسارة او الحماقة التي ارتكبتها أوربة في عصر النهضة في عدم قبولها للاسلام، وفيه سعادتها ورقيها ، كانت نتيجة بعض علماء المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية أمثال ابن رشد وإغراء تلامذته من اليهود، فنقلوا للأوربيين العلوم بقوالب يونانية ملحدة كانوا تأثروا بها ـ ويالـلأسف ـ حتى لقبوا ارسطو بمعلمهم الأول ، وله من الجاهليات والأخطاء والإلحاد الشيء الكثير مما لا مجـال لذكره في هذا المقام .

مع العلم أن هؤلا الأوربيين في العصور السابقة، كانوا يعيشون في فراغ عقيدي سحيق، وبغض للكنيسة وثورة عليها لما تدعو اليه من آراء مخالفة للعقل والعلم، وتحريم لأسباب الرقي، فكان من السهل تقبلهم للإسلام إلى جانب العلوم المادية، ما دام يدعو للتقدم

كل ذلك بالإضافة الى ما كان الإسلام العظيم والمسلمون العلماء والفاتحون يتمتعون به من حسن السمعة والإعجاب بخلاف مسلمي اليوم الذين أصبحوا حجابا دون إسلام الغربيين بسبب تأخرهم وضعفهم .

ولقد خسرت أوربه خسارة فادحة نتيجة عدم أخذها بالإسلام الى جانب ما أخذته من علوم المسلمين فجاءت حضارتها مادية لاروحانية فيها ، وكل ذلك يخالف الفطرة الإنسانية ويمحقها. . . ويقودها إلى الإنحراف والضلال ثم إلى السقوط والفناء كما صرّح بذلك كثير من علماء الغرب أنفسهم .

والغربيون على الرغم من صعودهم للأجرام السماوية وغزوهم الفضاء الخارجي، لا يعرفون كيف يمشون على الأرض ويستخدمون خيراتها في سبيل سعادتهم وسعـادة غيرهـم ، بل جعلـوا من هذا الكوكب الجميل جحيماً لا يطاق شنوا فيه الحروب المدمرة وجعلـوا من الإنسـان عدواً وذئبـاً لأخيه الأنسان كل ذلك بتأثير الفلسفة اليونانية التي رضعوها مع العلوم المادية السالفة الذكر

والبشرية بأسرها حتى يومنا هذا تقاسي هول الخطيئة السابقة، ولا نجاة للغرب من كل هذه الأهوال والجرائم إلا باعتناق الإسلام لحلّ جميع مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كما صرّح بذلك كثير من علمائه وقد دخل كثير منهم في دين الله أفواجاً!

زد على ذلك مشكلة رهيبة جديدة ظهرت على مسرح الحضارة الغربية إثـر حرمـان شعـوب هذه الحضارة من الدّين، هي مشكلة الأمراض النفسية التي اكتسحت الغرب بأسره حتى غدت أكثر دوله غناء، أكثرها انتحاراً! وغدت الأدوية المنومة والمخدرة هي مطلب الغربيين الرئيس بسبب ما يعانونه من قلق، وتمزق، وضياع نتيجة الحياة المادية الملحدة والحرمان من الدّين الصحيح

جاء في كتاب: «الاسلام يتحدى» للاستاذ وحيد الدين خان (: ص ١٦٣):

إن سبب الأمراض النفسية التي أشرت إليها، حقيقة جلية اعترف بها علماء النفس، وقد لخص عالم النفس الشهير الاستاذ بانج تجاربه عنها في الكلمات التالية.

«طلب مني أناس كثيرون ، من جميع الـدول المتحضرة مشـورة لأمراضهـم النفسية ،في السنوات الثلاثين الأخيرة، ولـم تكن مشكلـة أحـد من هؤلاء المرضى ـ الـذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم، وهو ما بعد ٣٥ سنة ـ إلا الحرمان من العقيدة الدينية (الصحيحة) ويمكن أن يقال: إنّ

أوروبة من المؤثرات العربية سياداً لتربتها كما فعل العرب حينما استغلوا المؤثرات الهيلانية في أيامهم . ولقد كانت النتيجة في كلتا الحالتين نمواً جديداً عظيماً للمدنية الأصلية ، مملوءاً بالثقة بالنفس وبالإعجاب وما من مدنية تستطيع أن تزدهر أو أن تظل على قيد الوجود بعد أن تخسر إعجابها بنفسها وصلتها بماضيها .

ومما قاله الأستاذ محمد أسد في كلامه السابق عن التقليد «. . . لقد اتخذت اوربة من المؤثرات العربية سيادا لترتبتها كما فعل العرب حينما استغلوا المؤثرات الهيلانية (اليونانية) في أيامهم»

لقد بعد هذا العالم المحقق عن الصواب في قوله هذا! فإن العرب ويالأسف على عكس الأوربيين أقدموا على ترجمة الكتب اليونانية بمختلف أنواعها ولم يقتصروا على العلمية منها كما هو الواجب والوعي! ولم يكتفوا بذلك، بل راحوا - ويالمصيبة والجهل - يؤولون الشريعة لتتفق مع كلام ارسطو الذي اطلقوا عليه المعلم الأول!! على الرغم من حماقاته . . . وقد يقول قائل :

إن المأمون لم يكن هو أول من سارع إلى ترجمة كتب اليونان ، فقد سبقه إلى ذلك خالد بن يزيد بن معاوية ، ويحيى بن خالد البرمكي .

مرضهم لم يكن إلا أنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عمر، ولم يشف أحد من هؤلاء المرضى الا عندما استرجع فكرته الدينية»

وإنها لكلمات جلية «لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» (ق: ٣٧).

ولو أردنا المزيد من الايضاح، فلسوف اقتبس من الأستاذ «ا. كريسي مورسون» رئيس المجمع العلمي في نيويورك سابقاً، قوله :

«إنّ الاحتشام، والاحترام، والسخاء، وعظمة الأخلاق، والقيم والمشاعر السليمة، وكل ما يمكن اعتباره «نفحات إلهية» - لا يمكن الحصول عليها من طريق الإلحاد.

«فالالحاد نوع من الأنانية، حيث يحاول الإنسان الجلوس على كرسي الله «أي يضع التشريعات الفاشلة للبشر، والتشريعات الصحيحة لا يمكن أنْ يضعها الا الله العظيم .

«لسوف تسقط هذه الحضارة بدون العقيدة والدين

«سوف يتحول النظام الى فوضى

«سوف ينعدم التوازن، وضبط النفس

«سوف يتفشى الشرّ في كل مكان

«إنها لحاجة ملحة أن نُقوي من صلتنا وعلاقتنا بالله»

هذا صحيح، ولكن هذين العالمين اقتصرا على ترجمة الكتب العلمية فقد عرّب الأول كتب الكيمياء، وعرّب الآخر كتاب المجسطي في الرياضيات، كل ذلك بخلاف المأمون الذي ترجم كتب الفلسفة اليونانية التي لا تزيد قرائها إلا حيرة وضلالة، وبُعداً عن الحقيقة.

ويحسن ان نذكر بهذه المناسبة رسالة للدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر السابق بعنوان: «الفلسفة والحقيقة» أثبت فيها عجز الفلسفة عن الوصول إلى الحقيقة.

ولعلّ ذلك من اعترافاته في آخر حياته بعد أن خاض غمارها وألّف فيها مثل كتابه: «التفكير الفلسفي في الاسلام» وغيره، وأتخم الأزهر بالمناهج الفلسفية وأشاد بالفلاسفة المسمين مسلمين، وقد كفرهم حتى الغزالي نفسه في كتابه: «المنقذ من الضلال»[1].

---

(١) إن قصة المسلمين مع الفلسفة اليونانية قصة مليئة بالفواجع والنكبات. والغريب - والغريب جداً - أنه لا يزال الكثير من مثقفينا يعتقد أن سبب نهضة المسلمين يعود إلى هذه الفلسفة، مع أنها كانت من أعظم أسباب نزاعهم وبعدهم عن دينهم وضياع مجدهم، وقد تحقق فيم خبر أحد الأحبار:

وتفصيل ذلك - كما رواه العلامة الشيخ محمد السفاريني - « قال العلماء إن المأمون لما هادن بعض ملوك النصارى - أظنه صاحب جزيرة قبرص - طلب منه خزانة كتب اليونان، وكانت عندهم مجموعة في بيت لا يظهر عليه أحد، فجمع الملك خواصه من ذوي الرأي واستشارهم في ذلك، فكلهم أشاروا بعدم تجهيزها إليه إلا واحد، فإنه قال: جهزها إليهم! فما دخلت هذه العلوم على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها!! » لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضنية في عقد الفرقة المرضية ج ١ ص ٩.

ومن الجدير بالذكر أن أولئك النصارى قد طمروا هذه الفلسفة تحت الأرض تخلصاً من شرها لما لمسوه من فسادها وهدمها للدين والفضيلة!

أجل قد تحقق في المسلمين تنبؤ الحبر، فما كاد علماء المسلمين - بعد أن بلغ مجد الإسلام ذروته في القوة والفتح والعلم - يشتغلون بفلسفة اليونان، حتى راحوا يؤولون نصوص الشريعة الإسلامية حتى تتفق مع هذه الفلسفة فمسخوا الإسلام وأخذوا يزعمون أن للإسلام ظاهراً وباطناً ظاهره للعامة، وباطنه للعلماء والحكماء وأخذوا يشتغلون بعلم الكلام يسمونه ظلماً وعدواناً بعلم التوحيد، ولا يكاد يكون فيه من التوحيد إلا الإسم، أما محتواه، فهو الفلسفة - نفسها وقد حرم دراسته كبار علماء السلف وأئمة المذاهب أمثال مالك والشافعي وابن حنبل رضي الله تعالى عنهم.

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - « ما أظن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يعاقبه على ما أدخله على هذه الأمة! ».

ولكن العالم الإسلامي ، وبه ميل متزايد إلى محاكاة أوروبـة وإلى اقتبـاس الآراء والمثل العليا الغربية ، يقطع بالتدرج تلك الصلات التي تربطه بماضيه . وهو

وقد انبرى هذا الإمام انعظيم للفلاسفة المنحرفين المتصفين بالمسلمين الذين نهلوا من حمأة الفلسفة اليونانية وأثبت زيفهم وضلالهم وانحرافهم في كثير من كتبه التي دخل فيها التاريخ ، وحق لكليات الفلسفة في البلدان العربية والإسلامية دراسة آرائه وردوده على الفلسفة اليونانية وعلى الذي اعتنقوها من المسلمين .

ولم ينج من هذا الضلال والإنحراف إلا السلفيون المستمسكون بهدي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذين عصمهم الله سبحانه لتمسكهم بنصوص الشريعة الثابتة ، فكانوا في وجه تيار الفلسفة الجارف وعاصفته الهوجاء كالجبل الأشم ، وكالصخرة الصلدة .

وكان يزيدها مرّ ـ الليالي جدة وتقادم الأيام حسن شباب ! فكانوا يمسكون بكتاب الله وسنة نبيه دون تأويل ولا تعطيل في أسماء الله وصفاته .

ومـن قال إن الشهـب أكبرهـا السنـا
بغـير دليل كـذبتـه الـدلائـل !

وقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الإختلاف الذي سيقع بين المسلمين وعن طريقة النجاة منه فقال :

(ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة !! وهي من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي !) ـ رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة بسند صحيح ـ .

إن أهل القرآن والحديث رحم الله موتاهم وبارك في أحيائهم وأمدهم بقوته وتوفيقه ، هم مصابيح الهدى والدعـاة إلى الرشـاد والتقى ، من عاداهـم هلك ، ومـن تركهم ضل ، وهـم المنصـورون على خصومهم ، بشرهم بذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال :

« لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله ، وهـم ظاهرون على الناس ! » ـ رواه البخاري ومسلم ـ ، وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل وابن المبارك وسفيان الثوري وغيرهم من كبار العلماء بأن هذه الطائفة هم أهل الحديث الذين يتعاهدون مذهب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ويذبون عنه الظلم ، لولاهم لأهلك الناس المعتزلة وأهل الرأي .

حسبهم شرفاً وفخراً أنهم جعلوا السنة نبراساً لهم فكانوا هداة مهديين وغدوا مصابيح الهدى .

نقلاً عن مجلة التمدن الإسلامي مجلد ٣٣ (٩ ـ ١٢) ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

قال الإمام إبن تيمية رحمه الله تعالى :

وقد كانوا يقولون : الإعتصام بالسنة نجاة ، قال مالك رحمه الله : « السنة مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك » وهذا حق ، فإن سفينة نوح إنما ركبها من صدق المرسلين واتبعهم ، وأن من لم يركبها فقد كذب المرسلين . واتباع السنة هو اتباع الرسالة التي جاءت من عند الله ، فتابعها بمنزلة من ركب مع نوح في السفينة باطناً وظاهراً والمتخلف عن اتباع الرسالة بمنزلة المتخلف عن إتباع نوح عليه السلام وركوب السفينة معه .

وهكذا إذا تدبر المؤمن العالم سائر مقالات الفلاسفة وغيرهم من الأمم التي فيهاضلال وكفر ، وجد القرآن والسنة كاشفين لأحوالهم ، مبينين لحقهم ، مميزين بين حق ذلك وباطله . والصحابة كانوا أعلم

من أجل ذلك لا يفقد شيئاً من مركزه الثقافي فحسب ، بل من مركزه الروحي أيضاً . إنه يشبه الشجرة التي كانت قوية حينما كانت بعيدة الجذور في الأرض . ولكن ميول المدنية الغربية أزالت التراب عن جذورها فأخذت هي تنحلّ ببطء لفقد الغذاء فسقطت أوراقها وذبلت غصونها . ولكن عند أسفل جذعها يبرز الخطر الذي يهددها بالسقوط إلى الأرض .

فالمدينة الغربية إذن لا يمكن أن تكون الوسيلة الصحيحة لإيقاظ العالم الإسلامي من سُباته العقلي والاجتماعي ، ذلك السبات الذي أدى إلى إنحلال مظاهر الدين حتى أصبحت عادة مجردة لا حياة لها ولا باعثاً أخلاقياً فيها . فأين يجب على المسلمين إذن أن يبحثوا عن الباعث الروحي والعقلي الذي هم اليوم في أشد الحاجة إليه ؟ إن الجواب عن ذلك سهلٌ سهولة السؤال عنه ؟ بل إنه متضمن في السؤال نفسه . إن الإسلام ـ كما سبقت الإشارة إلى ذلك مراراً ـ ليس « اعتقاداً بالجنان » فقط ولكنه فوق ذلك منهاج ظاهر الحدود تمام الظهور للحياة الفردية والاجتماعية ويمكن أن يهُدم الإسلام باتخاذ المسلمين ثقافة أجنبية تختلف عنه اختلافاً جوهرياً في أسسها الأخلاقية ، وكذلك يمكن أن ينتعش حالما يرجع به إلى الحقيقة الخاصة به ، وتُنسب إليه قيمة هي العنصر الذي يقرر ثم يؤلف كياننا الفردي والإجتماعي في جميع نواحيه .

وفي هذا العالم المملوء بالآراء الجديدة المتصادمة والتيارات الثقافية المتعارضة لا يستطيع الإسلام أن يظل شكلاً أجوفاً. لقد انقضى نومه السحري الذي دام أجيالاً فيجب أن ينهض أو أن يموت . إن المشكلة التي تواجه المسلمين اليوم هي

الخلق بذلك، كما كانوا أقوم الخلق بجهاد الكفار والمنافقين، كما قال فيهم عبدالله بن مسعود: «من كان منكم مستناً فليستن بمن قدمات ـ يقصد الصحابة ـ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة : أولئك أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بدينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . (فتاوى ابن تيمية ٤/ ١٣٧ ـ ١٣٨) .

فأخبر عنهم بكمال بر القلوب، وكمال عمق العلم، وهذا قليل في المتأخرين . . . وأما أحسن ما قاله الامام أحمد. «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم (المصدر السابق ص ١٥٥) .

مشكلة مسافر وصل إلى مفترق طرق : إنه يستطيع أن يظل واقفاً مكانه ، ولكن هذا يعني أنه سيموت جوعاً ، وهو يستطيع أن يختار الطريق التي تحمل فوقها هذا العنوان : « نحو المدنية الغربية »[1] ولكنه حينئذ يجب أن يودع ماضيه إلى الأبد ، أو أنه يستطيع أن يختار الطريق التي كتب عليها : « إلى حقيقة الإسلام » . إن هذه الطريق وحدها هي التي تستميل أولئك الذين يعتقدون بماضيهم وباستطاعتهم التطور نحو مستقبل حي اهـ .

ويقول المؤرخ المعروف آرنولد توينبي : إن هناك نوعين من السلوك تسلكها الأمة عندما تُغلب أمام أمة أخرى أو عندما تقع في وضع خطر يهدد كيانها ،

إما أن تتقوقع على نفسها . . . وهو يعطي مثالاً لذلك من الحركة السنوسية في شمال إفريقية والحركة الوهابية في [2] في الجزيرة العربية .

---

(١) إنّ هذه الحضارة الغربية بهرت وتبهر أكثر المسلمين ، حتى راحت تتحدى الإسلام بنظر كثير من الأجيال الحديثة ، لتقوم مقامه . وانني منذ شهور أجمع المقالات من مختلف الكتب الصحف والمجلات في وصف هذه الحضارة وبيان أخطارها ومساوئها وكيف هي تسير نحو السقوط والكارثة حبة العالم عامة وأصحابها الغربيين خاصة ، فضلا عن ان تتحدى الإسلام!! هذا الدِّين العظيم الذي أسس أعظم حضارة عرفتها البشرية ، وقد حقق لأول مرة في التاريخ : المدينة الفاضلة والجيل المثالي .
كل ذلك أصنعه ، بغية إنقاذ الأجيال الإسلامية من الإفتتان بهذه الحضارة الزائفة والوقوع في شراكها ،

وهي التي يلُح علينا طه حين حسين باعتناقها بخيرها وشرها . . »
وقد رأيت إتماماً للفائدة ، أن أنقل إحدى المقالات في وصف هذه الحضارة الغربية في أعظم دولة في العالم هي الولايات المتحدة الامريكية وهي بعنوان : «مع الخوف تعيش امريكا[1]» مجلة العربي رقم ٢٧٠ إعداد الاستاذ منير نصيف . أنظر صفحة ٥٣٠ من هذا الكتاب .

(٢) إن قول هذا المؤرخ بأن الحركة الوهابية كانت مقوقعة على نفسها هو ظلم للحقيقة وظلم للتاريخ . ولو صح كلامه لخمدت مملكة هذه الحركة واضمحلت . وهذا مصير كل متقوقع من الأفراد والجماعات والدول . . .
ولكن ما نراه من تقدم المملكة العربية السعودية وازدهارها في جميع المجالات يثبت خطأ رأي هذا الكاتب ولعل ما قصده توينبي من القوقعة ، تمسك هذه المملكة بإسلامها العظيم ، وهو الذي مدن العالم ، وأنشأ مدنية دمشق وبغداد والأندلس ، وأنقذ العرب نفسه من همجيته وانحطاطه في العصور الوسطى مما يشهد بذلك العلماء الغربيين فإن كان هذا قصد هذا المؤرخ ، فيكون قد ضل ضلالاً وافترى على الحقيقة والتاريخ ، ولا أظنه كذلك وقد أثنى على الإسلام في أكثر من موضع . . .

أو أن تقلد الأمة الغالبة ـ وهو يعطي مثالاً لذلك من حركة محمد علي باشا في مصر ، وحركة مصطفى كمال [1] في تركيا .

ومع أن ارنولد توينبي يفضل السلوك الثاني على الأول ، إلا أنه لا يوافق عليه أبداً ، بل يعتبره سلوكاً خطراً ، ويقول : بأنه يشبه محاولة تبديل الحصان أثناء عبور نهر جارف ، ذلك لأن التيار سيجرف بذلك الشخص العابر قبل أن يستقر على ظهر الحصان الجديد .

ثم يضيف قائلاً : إن السلوك الثاني يحمل في طياته خاصتين سيئتين .

الأولى : إن هذا السلوك يخلو من الإبداع ، لأنه مجرد تقليد أعمى وهو لا يضيف شيئاً جديداً .

والثانية : إنه يبقى منحصراً في طبقة معينة ، أي أن محاولة التقليد هذه تبقى منحصرة في فئة صغيرة من مدعي الثقافة .

ولكنها لا تصبح حركة جماهيرية ، ولا تنزل إلى صفوف الشعب [2]. اهـ .

ومن أعظم الأدلة على إدانة طه حسين ووجود علامات استفهام في سلوكه وبحوثه ، أنه كان من أعظم أساتذته وموجهيه الأستاذ اليهودي دوركايم .

قال سامح كريم في كتابه « طه حسين في معاركه الأدبية » : « . . . ومن الذين وجهوا فكر الدكتور طه حسين عالم الاجتماع الفرنسي « إميل دوركايم » فقد

(١) يكفي من حركة هذه الطاغية وصف توينبي لها وفساد ومصيرها ، وقد حققت الأيام كل ذلك ، فإن تركيا تعاني الويلات والضغوط من إصلاحاته المزعومة .

(٢) نقلاً عن كتاب الرجل الصنم كمال أتاتورك ص ٩ ـ ١٠ .

كان أستاذه المباشر في « السوربون » والمشرف على رسالته في « فلسفة ابن خلدون » والحق أن نتائج « إميل دوركايم » جرّت عليه بعض المعارك . وقد يلمس القارىء مدى هذه العلاقة في حديثه عنه في الجزء الثالث من « الأيام » حيث يقول عن نفسه بأنه « كان شديد التأثر بدروس الأستاذ « دوركايم » في علم الاجتماع » .

دوركايم هذا هو أول الثلاثة اليهودالذين أفسدواالعالم بنظرياتهم ،وثانيهم : « فرويد » مؤسس النظرية النفسية ، والقائل بأن غريزة الجنس هي كل شيء في حياة الإنسان ، كبتها يؤدي إلى الإنحراف والجنون . . . والإصلاح يكون بنظره ، عن طريق المسارعة إلى إشباع هذه الغريزة بأية وسيلة ممكنة . وقد قال العالم الكبير ألكسيس كاريل في كتابه القيّم : « الإنسان ذلك المجهول » : « لقد أحدث فرويد أضراراً أكثر من التي أحدثها أكثر علماء الميكانيكا تطرفاً !! »

وثالثهم : ماركس مؤسس الشيوعية . . .

ويحسن بنا التحدث قليلاً عن نظرية « دوركايم » الإجتماعية ، لنقف على الجذور التي اعتمد عليها الدكتور طه حسين في دعوته .

فما هي قصة « دوركايم » هذا وما هي نظريته وغاياته .

إن هذا الفيلسوف لا يعترف أن الكيان النفسي للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية بل العكس في نظره هو الصواب . إن الحياة الاجتماعية هي التي تشكل مشاعر الفرد ، وعليه فلا يجوز أن نفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس كله .

إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعية أشياء حقيقية توجد خارج ضمائر الأفراد الذين يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم .

ومما جاء في نظرية دوركايم .

« . . . ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ، ومحبة الأبناء ، وغير ذلك من العواطف .

وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو . ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الانسان (!)

وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخُلقية في ذاتها ، إذ صح هذا التعبير . . ومن ثم فليس من الممكن تبعاً لهذا الرأي ، أن تصبح مجموعة القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها موضوعاً لعلم الأخلاق » [1].

ومن عجيب نظرية دوركايم أنها تقول بوجوب محاربة الدين والأسرة والأخلاق لأنها ليست أصيلة في المجتمعات ، ويزعم أنها تحول دون سعادة الآخرين وتقيد من حرياتهم .

وهذا مخالف للحقيقة العلمية ، فقد جاء في تقرير علمي كامل كتبته إحدى المجلات الغربية « الجنسية » : إن إطلاق الحرية الجنسية وإباحة الخمور لم يحلّ المشكلة (هكذا يقول) وإنما زاد من الملل والعقد النفسية والإنهيارات العصبية ، وجرَّ إلى كوارث اجتماعية واقتصادية وأخلاقية غاية في الخطورة . هكذا تقول مجلة الجنسَ التي تزيّن صفحاتها وغلافها بالصور الخليعة والعارية .

ونظرية دوركايم هذه نظرية سخيفة إلى حد بعيد ، نقدها العلماء الذين عرّفوا الإنسان بأنه حيوان ذو دين ، وأثبتوا قولهم بأنهم لم يجدوا شعباً سواء كان قديماً كالفراعنة والكلدانيين والفينيقيين أو معاصراً كما هي الحال في مجاهل إفريقيا خلا من دين ومن إقامة شعائره (٢) !

---

(١) قواعد المنهج للدوركايم (ص ١٥)

(٢) إن نظرية دوركايم هذه هي إحدى سلاسل المؤامرات اليهودية لتنفير البشر من الدِّين حتى يصبح الناس في فوضى خلقية ، تسير نحو الهلاك ، وكل ذلك من مخططات الصهيونية .

يقول «سؤندر بلوم»: لم نعثر في أي مكان على قبيلة أو شعب ليس له طقوس مقدسة أو أنه لم يؤمن بذات عليا ، إن الذين ادعوا بوجود شعوب وقبائل لا تدين بدين ، إنما استندوا في دعواهم إلى ملاحظات غير صحيحة[1] .

ويقول « بلوتارك » المؤرخ الروماني : من الممكن أن تجد مدناً بلا أسوار ، وبلا ملوك وبلا ثروة وبلا آداب ، وبلا مسارح ، ولكن لم ير إنسان مدناً قط بلا دين ، أو لا يمارس العبادة ، فالدين طابع الإنسان !

ويقول اللواء طه الهاشمي : «الدين مؤسسة اجتماعية لا تستغني عنها أية جماعة بشرية مهما كانت بدائية ، وفكرة الدين مندمجة بالإنسان منذ أول نشأته . وليس بين المؤسسات الاجتماعية مؤسسة تضاهي سلطان الدين في سيطرته على الأفراد وزجرهم وكبح جماح غرائزهم سواء أكان الفرد بدائياً أو متمدناً » .

ويقول (آرنولد توينبي) في كتابه « السعادة والتغيير » : التدين جزء من الطبيعة البشرية للإنسان لا يستطيع أن يعيش بغير دين من نوع ما ، فقد استطاعت الأديان أن تعلم الإنسان أنه ليس حشرة اجتماعية ، ولكنه إنسان ذو كرامة وإدراك واختيار .

ويقول (ماكس موللر) : «إن الدين قوة من قوى النفس وخاصة من خواصها ، وأن فكرة التعبد من الغرائز البشرية التي فُطِر عليها الإنسان منذ نشأته الأولى . وقد بدا للمؤرخين المحققين أن جميع الأقوام المتحضرة والبدوية كانت تؤمن بقوة عليا وَعَبَدَتْها » .

ويقول (بنيامين كونستان) : « إن الدين من العوامل التي سيطرت على

---

(١) ويقول : « ارنست رينان » في كتابه (تاريخ الأديان) .
من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شيء نحبه ، وكل شيء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ، ومن الممكن أن نبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ، ولكن يستحيل أن ينتهي التدين أو يتلاشى بل سيبقى أبد الآباد حجة قاطعة على بطلان المذهب المادي الذي يود أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدينية للحياة الطبيعية .
ويقول (ت .س . اليوت) في كتابه (آراء وملاحظات عن الثقافة) : إن الأديان أساس الثقافة ، وإن كل ثقافة مشتركة بين الناس تنبع من عقائدهم الدينية .

البشر ، وإن التحسس الديني من الخواص اللازمة لطبائعنا الراسخة ومن المستحيل أن نتصور ماهية الإنسان دون أن تتبادر إلى ذهننا فكرة (الدين) » .

ويقول « تايلور » إن الشعوب البدائية مهما انحط إدراكها ، فإن لها شكلاً من دين وقصداً بالدين : (الاعتقاد بإله أعلى وبالحياة بعد الموت)[1].

ونظرية دوركايم نظرية جبرية غير أخلاقية وإنها تدعو إلى الخضوع والذوبان في بوتقة المجتمع مهما كان سلوكه وترفع التبعة عن الأفراد في سلوكهم وتحمل الجماعة الخيالية المسؤولية ، ما دامت مصدر السلوك الفردي الإنساني مما يشجعهم على ارتكاب الموبقات والمفاسد ، ولا يخفى ما في هذا السلوك من خطر .

وهذه النظرية يكذبها التاريخ والواقع ، مما لا مجال لتفصيل ذلك في هذه المقدمة فكم رأينا كثيراً من الدعاة المصلحين عمدوا إلى محاربة مجتمعهم ، وثاروا على مبادئه وتقاليده ، فلو كان الفرد ابن المجتمع وصنيعه وظله ، لما كان مثل هؤلاء الدعاة المصلحين !

هذه هي خلاصة نظرية دوركايم وأهدافه وهي تعطينا المفتاح لمعرفة شخصية طه حسين تلميذ هذا الفيلسوف الذي كان شديد التأثر بدروسه في علم الاجتماع كما قال ذلك عن نفسه . . ودعوته التي نادى بها لا تتعدى حدود آراء دوركايم . ومطالبته بالاختلاط في أوسع معانيه . وما إذاعته لفسق وخمريات أبي نواس وغيره ، وإشاعته لزندقة المعري في مرحلة طيشه ، وما زعمه ببشرية القرآن وعرض سيرة الرسول (ﷺ) بعيدة عن العقل وشمولها بالأساطير ، إلا لتحقيق ما دعا إليه استاذه « دوركايم » من إنكار الدين ونشر الإباحية ، وهدم الأسرة والترويج للإلحاد ، مما سنرى تفصيله في عَرْض العلماء والأدباء لآرائه والرد عليها .

كل ذلك يثبت بكل وضوح أن هذا الدكتور هو صورة طبق الأصل لاستاذه اليهودي ، عاد من جامعة السوربون في باريز وفق مخططات المبشر « زويمر » لاقتلاع

(١) « نقلاً عن كتاب «قضايا العصر في الإسلام» للأستاذ أنور الجندي.

شجرة الإسلام بغصن من غصونها تخلصاً من المعارضة ولنشر سموم ودسائس الصهيونية والاستعمار والارتماء في أحضانهم من أجل ابتلاعنا وإفنائنا .

وما لنا نذهب بعيداً وها هو ذا الدكتور طه حسين نفسه يعلنها صريحة أنه ليس سوى بوق للفيلسوف اليهودي دوركايم ، وهو ما سقنا البراهين عليه . . وذلك نقلاً عن كتاب « تحت راية القرآن » للأديب الكبير مصطفى صادق الرافعي : « إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة ، وكما ينظر إلى الفقه وكما ينظر إلى اللباس ، من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة ، وتقع الجماعة في تطورها . وإذن فالدين في نظر العالم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية ، لم ينزل من السماء ، ولم يهبط به الوحي ، وإنما خرج من الأرض ، كما خرجت الجماعة نفسها .

ورأى « دوركايم » أن الجماعة تعبد نفسها أو بعبارة أدق أنها تؤله نفسها يريد أنها تخترع الإله بفكرها ثم تعبده ، فهي تعبد فكرها وتؤله نفسها وإنها لنصيحة أن يقال الحق للناس : وهو أن الدين في ناحية والعلم في ناحية أخرى وليس إلى لقائهما سبيل .

وممن كشف الستار عن شخصية دوركايم : الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر السابق في رسالته الأخيرة من سلسلة « كتابك » وهي بعنوان : « الحقيقة والفلسفة » نلخص منها الفقرات التالية :

« أحب أن أصف الجو الذي عشته بجامعة « السوربون » في باريز . دخلت الجامعة ، وبدأت الدراسة في علم الاجتماع وعلم النفس ، ومادة الأخلاق ، وتاريخ الأديان . . وكانت هذه المواد يتزعم دراستها الأساتذة اليهود ، أو الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود .

وكانت هذه المواد كلها تسير في تيار محدد هو أنها : « علوم مجتمع » أي أنها لا تتقيد بوحي السماء ، ولا تتقيد بالدِّين على أنه وضع إلهي ، فهي تدرس موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية ، وظواهر إنسانية . . .

هذه العلوم بالذات وفروعها تتعاون ـ في جامعات الغرب ـ لتقود الإنسان ـ متساندة ـ إلى الإلحاد ! . . . لقد أخذ « دوركايم » اليهودي يعمل بمعاول هدامة في كل القيم والمفاهيم الدينية والأخلاقية ، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودي « ليفي بروهل » ينهج منهجه ، ويسير على طريقه في علم الاجتماع وفي علم الأخلاق . وكتاب « ليفي بروهل » : « الأخلاق وعلم العادات » ـ مثل واضح لهذا النوع من هدم القيم ، ومحاولة للقضاء على كل المُثل .

كنت دائماً أردد أن هؤلاء القوم يسيرون في طرق لا تنتهي إلى غاية .
ما هدفهم من ذلك ؟
ما غايتهم ؟

وما كنت أجد الإجابة عن هذا السؤال آنئذ ، لكن عرفت فيما بعد أن هذا هو المنهج اليهودي الذي رسموه بعد تفكير طويل ، والتزموا القيام به بكل الوسائل أو بكل الطرق ، وهو منهج التشكيك في القيم والمُثل والعقائد والأخلاق !

يستخدمون هذا المنهج في المحاولات المختلفة لإفساد المجتمعات وتحليلها أخلاقياً ودينياً ، ويضيفون إليه العمل على إثارة العمال على أصحاب رؤوس الأموال ، وعلى إيجاد الضغائن والفتن بين مختلف الشعوب . والثمرة التي يعملون دائبين على الوصول إليها ، أن تكون المجتمعات شاكة مملوءة بالفتن ، وذلك سبيلهم إلى السيطرة .

إن اليهود يهدفون من وراء كل ذلك إلى السيطرة على العالم ! إنهم يحطمون القِيَم والمُثل حتى لا يكون في المجتمعات قوة من عقائد ، أو قوة من خُلق .

ومن أجل ذلك تعاونوا على أن تكون لهم الكلمة الأولى في الجامعات ، في علم الاجتماع ، وفي علم النفس ، وفي مادة الأخلاق وفي تاريخ الأديان ، وفي الفلسفة » اهـ باختصار .

لعلي ـ ولله الحمد والمنة ـ من أوائل من وجد مفتاح شخصية « عميد الأدب العربي » وقد سعى عملاء الاستعمار والاستشراق لينسجوا حول اسمه هالة من

القداسة والدعاية ، فانطلت على السُذج والمغفلين فجعلوا منه رئيساً للجامعة ، ووزيراً للتعليم بدافع من دوائر الاستخبارات الأجنبية ونفوذها واغرائها ، دون أن نسمع صيحة معارضة قوية !

وهناك مفتاح آخر لشخصية طه حسين فهو بدعوته إلى الصلة الوثيقة بين الغرب ومصر ، « إنه ليس بيننا وبين الأوروبيين فرق في الجوهر ، ولا في الطبع ولا في المزاج ، فإني لا أخاف على المصريين أن يفنوا في الأوروبيين » ودعوته أيضاً إلى تقدير جهد المستشرقين في الدراسات الإسلامية وقوله بعد ذلك « ومن الحق علينا أن تأخذ نصيبها من هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية ، وبين جهود الدول الأوروبية[1] ».

أجل بدعوته إلى كل ذلك يخفف ويزيل الحذر الذي يشعر به المصريون من الاستعمار الغربي ما داموا جميعاً بنفسية واحدة لا فرق بينهم في الجوهر أو الطبع أو المزاج . . .

وهو في الوقت الذي يحبب المصريين بالاندماج بالغربيين ، يحاول أن يختلق الضغائن على الإسلام نفسه حتى لدى المسلمين المصريين أنفسهم وذلك ليزيد من الترويج لدعوته الهدامة والضالة فيقول: «والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها ـ يريد رضا مصر ـ عن السلطان العربي بعد الفتح لم يبرأ من السُخط، ولم يخلُص من المقاومة والثورة (!!) وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة في ظل ابن طولون وفي ظل الدول المختلفة التي قامت بعده»[2].

إنّ هذا القول من طه حسين مدعاة للسخرية والجهل ! فإنّ ابن طولون تركي الأصل مما يعرفه صغار الطلبة ، وقد فصل مصر عن الحكم العباسي العربي مما هو ليس بصالح أرض الكنانة لتعصبه وبغضه للعرب .

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر

(٢) مستقبل الثقافة ص ١٧

فأين هي الشخصية التي استردتها مصر في عهده ؟! وفي عهد الدول المختلفة التي قامت بعده ، فقد كان بعضها تركياً شعوبياً محتلاً أيضاً كالاخشيديين، وبعضها يتنكر للإسلام . .

وشجع ذلك على الحركات الانفصالية في غير مصر أيضاً مما أدى إلى ضعف الدولة العباسية وتمزقها وسبب هجوم الصليبيين وحروبهم المدمرة !

كل ذلك من ذيول ثورة ابن طولون وأمثاله . ولا شك أن كل ذلك يسر طه حسين ما دام يعتبر العرب المسلمين مستعمرين !

وقال هذا الدكتور:

وفي أثناء ذلك كان الإسلام يترجم الفلسفة اليونانية ويذيعها وينميها ويضيف إليها ، ثم ينقلها إلى أوروبا، فتترجم إلى لغتها اللاتينية وتشيع الحضارة في العقل الأوروبي وتبعث فيه القوة والنشاط، وتمكن من أن يعود إلى الإشراق والتألق، في القرن الثاني عشر بعد الميلاد.

لقد غفل طه حسين في كلامه السابق عن سر مجهول، ومجهول جداً خلاصته أن المسمين المسلمين نقلوا إلى الغرب أمرين اثنين:

الاول: العلوم الطبيعية والرياضية، وهي من ابتكارهم على الغالب، فلم يكن لليونانيين هذه العلوم التجريبية والتطبيقية كما يشهد بذلك كثير من علماء الغرب المنصفين وهذه العلوم هي التي كانت أهم أسباب النهضة الأوروبية وحضارة الغرب المعاصرة.

الثاني : كما نقلوا لأوروبة بالإضافة إلى ما سبق عن طريق أمثال ابن رشد وتلامذته من اليهود، الفلسفة اليونانية ، بأساطيرها وإلحادها وتعدد آلهتها وخصومتهم مع البشر مما يبكي ويضحك معاً، الأمر الذي نشاهد آثاره المدمرة في الغرب من فساد وانحلال وشرك. . .

وكم كانت جناية هؤلاء الفلاسفة المسمين مسلمين كبيرة على اوروبة خاصة وعلى العالم عامة بهذا الفعل الشنيع.

وكم كان خليقاً بهم لو تقدموا لهؤلاء الأوروبيين إلى جانب العلوم السابقة بالإسلام، بدلاً من الفلسفة اليونانية الجاحدة والحائرة والمنحرفة، ولو فعلوا ذلك لتغير وجه العالم ولكانت هذه الحضارة الغربية المعاصرة روحانية مؤمنة ، ولنبحث عن عوامل الفناء والتدمير والإباحية والوحشية اليونانية والرومانية التي تحملها إلى جانب تنقيتها التي أصبحت خطراً عليها وعلى العالم مما جعل أرضنا الجميلة جحيماً لا يطاق ، بدلاً من أن يكون موئلاً للحق والخير والحب والسلام. . . الأمر الذي تتوق اليه البشرية اليوم ، التي تعيش اسوأ عصورها وأشقى أيامها على الرغم من أسباب الرفاهية والسعادة المتوفرة. . .

وكل ذلك يدعو المسلمين اليوم إلى تلافي كل ما سبق بعرض الإسلام من جديد حسب أرقى وسائل الأعلام الحديثة على الغربيين الذين يعيشون في القلق والتمزق والضياع ، حتى باتت أكثر الشعوب رفاهية ، كالدول الاسكاندافية والولايات المتحدة، أكثرها انتحاراً.

وقال طه حسين.

فلا ينبغي أن يفهم المصري أن بينه وبين الأوروبي فرقاً عقلياً قوياً او ضعيفاً ، ولا ينبغي أن يفهم المصري ان الشرق الذي ذكره كيبلنج في بيته المشهور: «الشرق شرق، والغرب غرب ولن يلتقيا» يصدُق عليه أو على وطنه العزيز .

أقول: لا أدري إذا كنا ننسب قول هذا الدكتور السابق إلى العمالة ، أو إلى الجهل وغيره . . . حيث زعم بأن كلام كيبلنج لا يصدق على المصري أو على وطنه.

وهو يعلم ـ كما يعلم أبسط مصري وأجهله ،سوء معاملة الإنكليز الوحشية لما

احتلوا أرض الكنانة ، وفيها كبار العلماء والفقهاء والأدباء، فأذاقوهم سوء العذاب والاضطهاد ولم يخرجوا منها إلا بأسنة الحراب ، وكذلك فعل الفرنسيون حين احتلالهم لمصر أيام حملة بونابرت.

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم!!

وليست هذه الأعمال الإجرامية لتقتصر على مصر، بل عمت جميع العرب في جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط الذي يجمع بين شعوب واحدة كما يزعم عميد الأدب العربي...

مع العلم أنّ الشاعر كيبلنج قد لطّف من قوله، وإلا فإن عقيدة الأوروبيين جميعهم منذ عهد اليونان والرومان مبدأ «غربيون وبرابرة».

وقال طه حسين :

«وقد ذكرت في غير هذا الموضع أن الكاتب الفرنسي المعروف بول فاليري أراد ذات يوم ان يُشخص العقل الأوروبي، فرده إلى عناصر ثلاثة : حضارة اليونان وما فيها من أدب وفلسفة وقوة ، وحضارة الرومان ، وما فيها من سياسة وفقه ، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحثٍّ على الإحسان. فلو أردنا أن نحلل العقل الإسلامي في مصر وفي الشرق القريب أفتراه ينحل إلى شيء من غير هذه العناصر التي انتهى إليها تحليل بول فاليري؟

خذ نتائج العقل الإسلامي كلها ، فستراها تنحو إلى هذه الآثار الأدبية والفلسفية والفنية ، التي مهما تكن مشخصاتها فهي متصلة بحضارة اليونان وما فيها من أدب وفن ، وإلى هذه السياسة والفقه اللذين مهما يكن أمرهما ، فهما متصلان أشد الاتصال كما كان للرومان من سياسة وفقه ، وإلى هذا الدِّين الإسلامي الكريم ، وما يدعو إليه من خير ، وما يحث عليه من إحسان . ومهما يقل القائلون، فلن يستطيعوا أن ينكروا أنّ الإسلام قد جاء متمماً ومصدقاً للتوراة والإنجيل.

وإذن فمهما نستقصي، فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل الأوروبي والعقل المصري فرقاً جوهرياً».

أستدرك على هذه العبارة ما يلي:

أولاً: إن تشخيص بول فاليري للعقل الأوروبي ورده إلى العناصر التي ذكرها كذب على الحقيقة وتزوير للتاريخ، وإنكار لما قال العلماء والمؤرخون الحضاريون من الأوروبيين أنفسهم، فإن هذا الكاتب الفرنسي، قد أنكر فضل المسلمين على العقل الأوروبي شأنه شأن المتعصبين والجهلاء من قومه.

ومن المؤسف ـ والمؤسف جداً ـ ان يؤيده طه حسين في دعواه تأييدا مطلقاً.

وإذا لم يكن للمسلمين فضل على نهضة الغربيين، فلماذا لم ينهضوا قبل الإسلام، وهم أقرب الناس من اليونانيين، وقد كانوا في أحط درجات الجهل والانحطاط؟

ثانياً: ولم يكتف طه حسين بهذه الخطيئة فحسب، بل راح يشخص العقل الإسلامي نفسه، فيرده إلى العناصر السابقة التي زعمها الكاتب الفرنسي الذي لم يتجاسر هو نفسه نسبتها إلى المسلمين، بل اكتفى فنسبها إلى الأوروبيين فحسب.

حتى الفقه الإسلامي نفسه راح عميد الأدب ينسبه الى الفقه الروماني الأخرق، كما نسب إلى الإسلام الفلسفة اليونانية، وهو الذي جاء، لحربها ومحو آثارها المدمرة...

وكي ينجو من النقد أخذ يضيف إلى التراث المنسوب إلى الإسلام، وهو من أصل يوناني ـ كما قال ـ بعض مكارم الخير والإحسان... وصلى الله على رسولنا

العظيم القائل في الحديث الصحيح: «إذا لم تستح فأصنع ما شئت».

وأراد أن يثبت طه حسين هراءه فقال: «ومهما يقل القائلون ، فلن يستطيعوا أن ينكروا أن الإسلام قد جاء متمماً ومصدقاً للتوراة والإنجيل».

ولا أدري ما علاقة هذين الكتابين باليونان والرومان؟! وما دليله ان الإسلام جاء مكملاً لهما دوماً، وهو الذي جاء بنسخهما ومحاربة الأغلال التي كانت في التوراة والذُل الذي في الإنجيل في مثل فقرات: «أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم» «ومن ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر ومن تحرك ميلاً فسر معه ميلين ومن أخذ قميصك فأعطه إزارك.»

ثالثاً : إنني أتحدى بول فاليري وطه حسيناً أن يثبتا لنا ما في العقل الأوروبي من آثار المسيحية - وخاصة بعد تحريفها - من دعوة الخير وحث على الإحسان.

مع العلم أنّ الغرب هو ممن تربوا على أيدي الرومان وهمجيتهم وقساوتهم بما درسوه من تاريخهم الأسود، وقد ظهرت آثار كل ذلك في حروب الغربيين الاستعمارية في الشرق... فأين هم من دعوة الخير وحث على الإحسان؟!

وقال طه حسين :

«.. فإذا كنا نريد هذا الاستقلال العقلي والنفسي والذي لا يكون إلا بالاستقلال العلمي والأدبي والفني، فنحن نريد وسائله بالطبع . ووسائله ، أن تعلم كما يتعلم الأوروبي، ولنحكم كما يحكم الأوروبي ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي ، ونصرف الحياة كما يصرفها »..

يحسن للرد على طه حسين ، أن أذكر حديثاً جرى بيني وبين أحد كبار المربين في مصر خلال الوحدة، وقد حضر إلى دمشق، فكان مما قلته له:

إنّ هدفكم الأول والأخير في التربية أن تصبحوا كالغربيين فتأخذوا مناهجهم وتستخدموا مبادئهم.

فقال: نعم

فقلت له: وكم من السنين تحتاجون للوصول الى ما وصلوا إليه؟

فقال : لعل ذلك يحتاج إلى نصف قرن أو أقل.

قلت: وكم تحتاجون إلى مال في سبيل تحقيق ذلك؟

فقال : لم هذا السؤ ال الغريب؟!

قلت: ألست حراً خلال المناظرة والبحث أن أقول وأسأل ما أشاء ؟

قال : بلى.

قال : وذكر مبلغاً كبيراً من المال لا أذكره.

قلت : لنفرض أننا وصلنا إلى ما وصلوا إليه ، وبلغنا ما بلغوه.

قال: وماذا تريد أن تستنتج من ذلك ؟!

قلت : إن هذا الجيل الذي تريدون أن نربي أجيالنا بجسده وعلى نهجه ، بعد انفاق المليارات وانتظار السنين الطويلة هو الجيل الهدام الحالي الذي يشكو منه المصلحون الغربيون أنفسهم ويترقبون على يده سقوط الحضارة وضياع السعادة والأمن والسلام. . . .

فقال هذا المربي الكبير : صدقت !

فما الحل بنظرك .

قلت :

إنّ لدى الإسلام تراثاً تربوياً مجرّباً، أنشأ لنا الجيل المثالي بعلمه وخُلقه وجهاده، فما بالنا نتركه ونستعيض عنه نظاماً غريباً رأينا بأم عيننا نتائجه المدّمرة وعواقبه الهدامة.

اكتفي بهذا، وفيما قلته أخيراً رداً على دعوى طه حسين السابقة بتلقف الحضارة الغربية الفاشلة . . .

وقبل الانتهاء من هذه المقدمة، اذكر القارىء بتقرير رهيب يصف المكر اليهودي الأمريكي لإبادة الجيل المسلم ، وقد جاء فيه بصورة مكشوفة وجوب الإفادة من آراء طه حسين ومؤلفاته .

وقد دعا هذا التقرير إلى وجوب تأليف «لجنة مكافحة الإسلام تنبع من وكالة الأمن القومي الأميركي» .

وقد استعانت هذه اللجنة بعدة شخصيات منها نائب البابا المسؤول عن التبشير مع الجمعيات الدينية، كما استعانت بتقرير الإدارة البريطانية وغيرها من تقارير الدول الاستعمارية في الغرب والشرق .

وقد جاء في توصيات اللجنة السابقة بالحرف الواحد:

«وجوب تسليط الدعاية والإعلام على مجددي الدِّين المزعومين كطه حسين وأمثاله[1]» .

ومما قاله طه حسين تحت عنوان أزمة الضمير العربي «. . . وما هي إلا أن خرجت على الحكم العثماني خروجاً لا لبس فيه، وإذا الحرب بينها وبين الترك تبلغ أقصى عنفها (يشير إلى حرب محمد علي باشا على العثمانيين) وإذا هي تغير على البلاد المجاورة فتستخلصها من الحكم العثماني [2]»

إن هذا الخروج على الحكم العثماني والغارة على البلاد المجاورة التي.يفخر به هذا الدكتور كما افتخر من قبل بابن طولون لم يكن هو من صنيع الشعب المصري ولا بإرادته، وكان وبالاً عليه ولا يُعد بجانبه سوء معاملة الدولة العثمانية شيئاً مذكوراً؛ كل ذلك مع العلم أن محمد علي لم يكن عربياً، بل أعجمياً أيضاً، وقد

(١) نشر هذا التقرير مفصلا في مجلة حضارة الإسلام ع: ٢٠ ٤٤ بين ١٣٩١ (١٩١٩) هوامش مستقبل الثقافة في مصر ص : ٢٤، ٣٦، ٣٨،

---

(٢) عن رسالة كلمات طه حسين ص ٥٩

ذاقت مصر في عهده مختلف أنواع الأضطهاد والتعذيب فقد اطلعت على النص الكامل لقانون مصادرة أسرة محمد علي باشا جاء في خلاصته.

«قرر مجلس الثورة في ٨/ تشرين نوفمبر سنة ١٩٥٣ استرداد أموال الشعب المصري وممتلكاته من أسرة محمد علي وذلك بمصادرة أموال وممتلكات هذه الأسرة عن طريق الوراثة أو المصاهرة، أو القرابة، وكان ذلك في عهد اللواء محمد نجيب، وقد سبق هذا القانون بيان الأسباب الموجبة لجرائم محمد علي وابنه ابراهيم وسائر ملوك هذه الأسرة مما يتفتت له القلب ويشيب من هوله الأطفال من نهب واستيلاء على أراضي المصريين ومواشيهم، وتسخيرهم لمصالح هؤلاء الملوك، وخاصة طاغوتهم الأكبر محمد علي، وكل ذلك علاوة على حوادث القتل والسجن والتشريد للرجال والنساء على السواء.

وقد جاء في هذا النص :

ما من صنف من صنوف العذاب لم يتحمله سكان المدن والقرى في عهد محمد علي، كالقتل ودفن الأحياء، وبتر الأعضاء، ولا سيا، الآذان، وإجلاس الناس على صوانٍ اشتعلت تحتها النيران حتى احمّر معدنها، والقبض على النساء، والإلقاء ببعضهن في الماء حتى يغرقن».

إرجع إلى كتاب الجبرتي، وترجمات أمين سامي المدونة في تقويم النيل وغيرهما.

فما رأي الدكتور طه بكل هذا ولا ندري فيما إذا كان يعلمه أو لا يعلمه.

إن كنت تدري فتلك مصيبة وإن كنت لا تدري فالمصيبة أعظم

ومما يؤسف له ويبعث في النفس الأسى والحسرة أن تماثيل محمد علي وأسرته لا تزال منصوبة في مصر بدلاً من أن تُحطّم وتلقى في المزابل والقمامات! فهل رأينا عاقلاً وواعياً يعظّم جلاديه؟ فيا للغفلة والجهل!

ومن دراسة آثار طه حسين، نتحقق من إمعيته وحرمانه من الأفكار الأصيلة وتقليده لأقوال المفكرين الغربيين مهما انحط مستواها، وقد صرح بهذه الشهادة

مستشرق فرنسي عريق هو لويس ماسنيون فقال : إنني حين أقرأ بحثاً لطه حسين أقول : (هذه بضاعتنا ردت إلينا !)

وقد صح بذلك ما قاله عنه الدكتور محمد محمد حسين وقد ذكرناه في أول هذا الكلام بأن طه حسين « بوق للمستشرقين والمستعمرين . . . » .

وهذه الخطة تصل بهذا الدكتور إلى درجة عدم الأمانة ، فإنه لا يتقاعس عن نسبة آراء غيره له كما فعل في نظرية الشعر الجاهلي .

وليت ما أخذه كان قيماً ، بل سخيفاً وهزيلاً وقد سبقه إلى ذلك مرجليوث مرتكباً من السفسطة والغش والكذب ما ارتكب ، كما شهد بذلك رجل من جنسه هو (آربري)

قال الدكتور زكي مبارك : « . . . هناك رأي مثقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأي الأستاذ مرسيه ، ومن شايعه كالدكتور طه حسين وذلك الرأي يقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية ، والحياة الأولية لا توجب النثر الفني ، لأنه لغة العقل ، وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال وهذا الرأي أعلنه الأستاذ مرسيه في المحاضرة التي افتتح بها محاضرته في مدرسة اللغات الشرقية في باريز منذ أعوام ، ثم أذاعه مطبوعاً في كراسة خاصة . وقد اختطف الدكتور طه حسين هذا الرأي ، وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبته في كتاب (المجمل) » .

وكان بما وصف به الدكتور زكي « طه حسين »: « هذا الرجل لم يكن في جميع أدوار حياته العلمية إلا مرتزقاً يتلمس فتات العلماء كلما نصبوا موائدهم ، أو أوقدوا نارهم . ولم يستطع حتى اليوم أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل ، يشعرهم بأنه من أهل الفكر والبيان .

أسارع فأقرر بأن طه حسين لم يكن يوماً من المفكرين . وإنما هو أديب قليل الفكرة قليل الإطلاع نشأ في أوقات لم يكن يعرف الناس فيها غير المجلات السياسية

وكان النقد فيها قليلاً ، فتظاهر بالعلم فظنه القراء من العلماء » . [1]

وقال الدكتور زكي مبارك :

وقف المستشرق ماسينيون ، يوم أديت امتحان الدكتوراه فقال :

« إنني حين أقرأ بحثاً لطه حسين أقول : « هذه بضاعتنا رُدّت إلينا » وحين أقرأ أبحاث زكي مبارك ، أشعر بأني أواجه شخصية جديدة[2]» .

وقال زكي مبارك أيضاً .

« ومن طريف ما يحسن تقييده أن المستشرقين كانوا يرتابون في شخصية عبد الحميد بن يحيى فلم يهتموا به إهتماماً يذكر في دائرة المعارف الإسلامية ، رأى الدكتور طه حسين أن يقلدهم فزعم أن شخصية عبد الحميد شخصية خرافية كشخصية امرىء القيس وتحدانا أن نثبت أن الجاحظ ذكره في كتبه .

فهالنا هذا التحدي وعدنا إلى كتب الجاحظ نسألها أخباراً عن عبد الحميد فرأينا الجاحظ تحدث عنه في رسائله وكتبه غير مرة وأقبلنا على الدكتور طه نخبره بنتيجة البحث فعاد يتحدث إلى تلاميذه بأن عبد الحميد بن يحيى كان يعرف اليونانية ثم أثبت ذلك في بحث قدمه إلى مؤتمر المستشرقين ويظهر أن الدكتور طه حسين نسي أن يحدث تلاميذه وقراءه عمن دله على مكان عبد الحميد في كتب الجاحظ فليسمح لنا أن نحفظ لأنفسنا هذا الحق ورحم الله ابن الرومي اذ قال :

وعزيز عليّ مدحي لنفسي ... غير أنني جشمته للدلالة
وهو عيب يكاد يسقط فيه ... كل حر يريد أن يظهر حاله

ومن صفاته أيضاً تذبذبه ونفاقه .

قال عنه زكي مبارك : « ظل طول عمره ظلاً من الظلال في عالم السياسة ، ولم يترك حزباً إلا خدمه ، وربح من تقريظه ألواناً من الرسائل الطوال . والاتجا

(١) زكي مبارك بقلم الأستاذ أنور الجندي ص ١٣٠

(٢) زكي مبارك للأستاذ أنور الجندي ص ١٣٢ .

السياسي صورة من الاتجاه العقلي . والرجل الذي يتردد بين المذاهب السياسية لا يبعُد أن يعيش فريسة الحيرة بين المذاهب الأدبية . وقد اتفق للرجل الصالح جداً : طه حسين أن يخدم قبل الحرب ثلاثة أحزاب : وأن يخدم بعد الحرب أربعة أحزاب . وحظه من الثبات في المذاهب الأدبية يشبه حظه من الثبات على المذاهب السياسية : تردد هنا وحيرة هناك .

كيف ينظر الحفدة إلى تاريخ الجامعة المصرية حين يعرفون أن أكبر أستاذ فيها لم تقم أستاذيته إلا بفضل انتهاب آثار المستشرقين »[1] .

ومن صفات طه حسين التي خفيت على الكثيرين حقده على خصومه ومعارضيه فلا يتقاعس عن أذاهم والسعي لحرمانهم من الرزق إذا استطاع كما فعل مع خصمه الدكتور زكي مبارك إذ فصله من الجامعة فقال هذا الدكتور معرضاً بطه حسين : « ليس عيباً أن يجوع المرء ، وإنما العيب أن يكسب الإنسان الرزق على حساب المروءة والرجولة والشرف والكرامة » .

وكان مما قاله أيضاً بهذه المناسبة ، « ١ ـ أطفالي لو جاعوا لشويت طه حسين ، وأطعمتهم من لحمه »[2] .

ومن غريب آراء طه حسين المضحكة والمبكية معاً قوله :

« . . حفظ (يريد الشعب المصري) حضارة اليونان التي تعيش الإنسانية عليها إلى الآن .

---

(١) النثر الفني ص ٦٠ ـ ٦١

(٢) زكي مبارك للأستاذ أنور الجندي ص ١٣٨ وقد ذكر بعضهم الزيادة التالية في العبارة السابقة : «إذا جاز أكل لحم الكلاب ! » راجع ديوان زكي مبارك ص ٢٩ .

سيظل هذا الوطن ـ يريد المصري ـ كذلك، وإن رغمت أنوف، سيظل هو الوطن الذي نشأت فيه الحضارة الإنسانية الأولى وانتشرت معهُ ، وملأت الأرض من حوله نوراً ، وسيظل هو الوطن الذي حفظ الحضارة اليونانية وأتاح للباحثين والعلماء منها كنوزاً لا تُقدر.».

لا شك أن طه حسين يقصد من الثناء على الحضارة اليونانية ، تأييد فكرته الفاشلة الداعية إلى وجوب دراسة لغة هذه الحضارة وإضاعة وقت الناشئة عليها، وصرف الأنظار عن الاهتمام باللغة العربية لغة القرآن الكريم.

ولا أدري ما في الحضارة اليونانية من خير حتى يزعم «أنّ الشعب المصري حافظ عليها، وانتشرت من وطنه، وهي التي ملأت الأرض نوراً. . . بما فيها من كنوز لا تقدر بثمن.»[1]

إنّ هذه الحضارة التي يبشر لها طه حسين، وهي من أصل شرقي من عرب الفينيقيين والمصريين القدماء وغيرهم، تشتمل على أمرين، أحدهما: علوم نظرية أكل الدّهر عليها وشرب، ليس لها فائدة علمية، وثانيهما: فلسفة سخيفة ومدمّرة كانت سبباً في تضليل المسلمين وتفريقهم فرقاً وأحزاباً، مما أدى إلى إضعافهم وذهاب ريحهم!

فمن أين لها، هذا النور، وهذه الكنوز التي لا تقدر بثمن؟

وقد مرّت هذه الحضارة على أوربة قبل مجيء الإسلام فما زادتها إلا ضلالاً وجهلاً ، حتى أنها عبثت بدينها وحولته إلى وثنية إغريقية ورومانية وأعطت للناس فكرة سيئة للإله فزعمت عداوته للبشر وانتقامهُ منهم!! الدعوة للحضارة اليونانية وتضخيم قيمتها يقصد من ورائه هذا الدكتور وأمثاله «أنها القمة التي ليس بعدها قمة . . بل القمة التي يقاس بها الوحي الإلهي ذاته ، فيصدّق أو يُكذّب ـ وهو غالباً تكذّب ! ـ لأنها المحك الذي لا يوجد أصدق منهُ في الوجود!!»

فهي بناء على ما تقدم تقدس العقل على حساب الروح والوحي، ولا يخفي ما

---

(١) كلمات طه حسين ص ٣٠

في ذلك من خطر على البشرية ، وخاصة بعدما اتضح خطأ هذا العقل في كثير من الأمور بسبب عجزه وميله مع الهوى والشهوات في كثير من الأحيان، وتعطيله بتأثير المرض في أحيان أخرى .

كما يقصد هذا الدكتور وأمثاله أيضاً أن الحضارة اليونانية هي منشأ الحضارات ، ولا حضارة أصيلة سواها . وهذا الكلام علاوة على مخالفته للحقيقة، لأن هذه الحضارة من أصل عربي قديم كما كنا ذكرنا ، كما أثبت المؤرخون، فإن الحضارة الإسلامية لا الحضارة اليونانية هي أصل الحضارة الغربية .

يقول بريفولت» في كتاب «بناء الإنسانية : Making of humanity«

«لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة الإسلامية على العالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . . . إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في إسبانيا، لم تنهض في عنفوانها الا بعد وقت طويل على اختفاء الحضارة وراء سحب الظلام، ولم يكن العالم وحده هو الذي أعاد إلى أوربة الحياة . بل إن مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية. فإنه على الرغم من أنهُ ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الأزدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية، بصنورة قاطعة، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون ، وأهم ما تكون، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة ، وفي المصدر القوي لازدهاره: أي في العلوم الطبيعية وروح البحث العلمي»[1] .

وأنقل فيما يلي أيضاً لإثبات جهله أو كذبه ، ما جاء في كتاب : «العرب والحضارة الأوروبية» : لا ينفرد المتعصبون من مؤرخي الغرب بقولهم إن الحضارة الغربية وليدة الحضارة الإغريقية فحسب ، وإنّ فجر عهد إحياء العلوم بزغ على أثر نشر التراث الإغريقي العلمي والأدبي في أرجاء دول الغرب. نعم لا ينفرد أولئك المتعصبون بترويجها بغير وعي، ولكن بعض كتابنا نحن العرب ينافسهم في ترويجها

(١) جاهلية القرن العشرين ص ٣٥ - ٣٦

بغير وعي، وغير معرفة ويدونها حتى في كتب المدارس دون أن يشير بكلمة إلى فضل العرب، وفضل قدماء المصريين[1] على الحضارة الأوروبية الحديثة.

وكل ذلك بخلاف ما أقر به المنصفون من الغربيين، وهو أنّ أوربة مدينة بحضارتها للعرب. والفصل بين الحق والباطل في هذا الموضوع هو مناقشته واقعياً. فمثل هذه المناقشة هي الكفيلة بإحقاق الحق وإزهاق الباطل[2]

. وجاء في هذا الكتاب أيضاً «إننا ننكر أن الفكر الإغريقي هو الذي عاون أوربة على الخروج من ظلمات ذلك العصر، وأطلع فجر نهضتها الكبرى، وآذان بانبثاق العصر الحديث، ونقرر مع المنصفين من المؤرخين الغربيين، وهم قلة، أن تيار اليقظة الأوروبية ابتعد فجأة عن الموارد الإغريقية ـ أو ابتعد الرئيس عنها ـ وعرّج ابتداء من القرى الثاني عشر الميلادي على الموارد العربية. ومن ثمّ ظهرت في أوربة بوادر نهضة علمية أدبية ذات خصائص جديدة شبيهة بخصائص ثقافة العرب[3]. . . »

ونختم هذا الزعم الباطل والفاضح لطه حسين بعبارة موجزة للأستاذ عباس محمود العقاد في مطلع رسالة قيمة له بعنوان: «الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين»:

«وهذه الثقافات الثلاث هي: العربية واليونانية والعبرانية أقدمها في التاريخ هي الثقافة العربية قبل أن تعرف أمة من هذه الأمم باسمها المشهور في العصور الحديثة.

وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الثابت الذي لا يحتاج إلى عناء طويل في

---

(١) وهم من العرب الأوائل ايضا كما ذكرنا ذلك في غير هذا الموضع (م.م)

(٢) ٤٨ و٤٩

(٣) ص ٧

إثباته، ولكنها على ذلك حقيقة غريبة تقع عند الكثيرين من الأوروبيين والشرقيين، بل عند بعض العرب المحدثين (أمثال طه حسين): موقع المفاجأة التي لا تزول بغير المراجعة والبحث المستفيض.

وقد كان ينبغي أن يكون الجهل بهذه الحقيقة هو المفاجأة المستغربة، لأن الإيمان بهذه الحقيقة لا يحتاج الى أكثر من الإطلاع على الأبجدية اليونانية، وعلى السفرين الأولين من التوراة التي في أيدي الناس اليوم. وهما: سفر التكوين، وسفر الخروج، ولا حاجة بعدهما في قراءة بقية الأسفار. فالأبجدية اليونانية عربية بحروفها، وبمعاني تلك الحروف وأشكالها منسوبة عندهم الى قدموس الفينيقي، وهو في كتاب مؤرخهم الأكبر: «هيرودوث» أوّل من علمهم الصناعات...

فيحق العجب ممن يجهل هذه الحقيقة التاريخية المسجلة بالكتابة منذ ألوف السنين، بل بالحروف التي سبقت الكتابة والكتاب.

إلا أن الاشاعة الموهومة كثيراً ما تطغى على الحقيقة المسجلة. ولا سيا الإشاعة التي تحتمي بالصولة الحاضرة، وتملأ الآفاق بالشهرة المترددة وقد أشاع الأوربيون في عصر ثقافتهم وسلطانهم، أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم الى العلم والحكمة.

وقال الاستاذ العقاد في موضع آخر (ص ٢٩) فالأبجدية تسمى عند اليونان بال «ألفانيا» وتبدأ بالألف والباء والتاء، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب.

وقال الاستاذ العقاد (ص ٥٣) تحت عنوان: «ومن العرب الأقدمين تعلم اليونان صناعات الحضارة: يقول هيرودوت في الكتاب الخامس من تاريخه: «والآن نذكر أنّ الفنيقيين الذين جاؤوا مع قدموس، وإليهم ينسب الجفيريون، قد أدخلوا معهم إلى اليونان بعد قدومهم الى بلادهم صناعات كثيرة متنوعة منها صناعة الكتابة التي كانوا يجهلونها على ما أحسب قبل ذلك...»

وقد ظلوا يكتبون السطور من اليمين إلى الشمال كما تكتب العربية اليوم،

وبقيت هذه الطريقة متبعة عندهم . . . قبل أيام بسماتيك في القرن السابع عشر قبل الميلاد.

وقال (ص ٤١) والفلسفة ليست باستثناء من هذه القاعدة العامة في تاريخ الثقافة الشرقية اليونانية، خلافاً لما يظنه القائلون بأن فلسفة اليونان قد نشأت في منبتها نشأة منقطعة عن ثقافة العالم في جملتها.

إن طاليس هو أبو الفلسفة اليونانية كما قال عنه أرسطو الملقب بالمعلم الأول، وقد ذكره في كتاب «ما بعد الطبيعة» وقال عنه : إنه مؤسس الفلسفة.

وفي الأخبار التي جمعها عنه كتاب «المرشد الى من قبل سقراط من الفلاسفة» . . . وأنه أدخل الفلسفة من مصر الى بلاد اليونان . . .

ويقول الكتاب بعد ذلك : . . إن المصادر المختلفة تتنبأ بأنه تعلّم الهندسة من المصريين، وأنه وخلفاؤه كانوا تلاميذ للمصريين والكلدانيين.

اكتفي بهذا القدر من التقديم لهذا الكتاب ، وأترك المجال لردود العلماء والأدباء على طه حسين وكتبه ، جزاهم الله تعالى خيراً لانتصارهم للحقيقة ، ودفاعهم عن الإسلام ، ونفع المسلمين بآثارهم ، وأنقذ الأجيال من إفتراءات المفترين وضلالات المضلين .

المؤلف

(١) أول من سمى ارسطو بهذا الإسم هم الفلاسفة المسمين مسلمين وياللأسف ولم يكتفوا بذلك بل راحوا ـ عليهم من الله تعالى ما يستحقون ـ يؤولون الشريعة لتتفق مع آرائه التي ثبت ضلال وانحراف اكثرها . ونحن لا ننكر أنّ لهؤلاء الفلاسفة وجهاً علمياً رائعاً لا يُنكر وغدوا أساتذة اوربة عصوراً عديدة ، وقد غدوا قنطرة لالحاد الكثيرين من الناشئة، جهلاً منهم بأن العالم في ناحية لا يفترض ان يكون عالما في غيرها، وخاصة في مباحث الغيب المسماة «ما وراء الطبيعة» التي ليس لها مصدر صحيح إلاّ الدِّين . وقد قال بتفكير هؤلاء الفلاسفة حتى الغزالي في كتابه : «المنقذ من الضلال» الذي يشتمل على كثير من الضلال وياللأسف!!

ملاحظة ورجاء

لقد اكتنفت طبع هذا الكتاب بعضُ المشاكل، فحال ذلك دون ذكر ملاحظاتي على آراء بعض الكُتاب الأكارم، كما حال أيضاً دون التعريف بكل منهم ممن استطعنا الإطلاع على ترجمة حياته.

وقد تلافيت هذا في آخر كل بحث حيث يجد القارىء بعده كل ذلك، حسب الأرقام التي ذكر خلال بحثه. فمعذرة

وإني لأرجو ممّن عثر على نقد، أو نقص، أو ملاحظة في هذا الكتاب، أن يتكرّم بالكتابة إلى المكتبة التي تولّت ـ مشكورة ـ طبعه، لأتدارك ذلك في طبعة مقبلة إن شاء الله تعالى وشكراً، والله سبحانه ـ لا يضيع أجر العاملين.

طه حسين

١٣٠٧ ـ ١٣٩٣ هـ = ١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م

من كبار المحاضرين ، جدد مناهج ، وأحدث ضجة في عالم الأدب العربي .

ولد في قرية (الكيلو) من محافظة المنيا في صعيد مصر.

أصيب بالجدري في السنة الثالثة من عمره مما أدى إلى فقد بصره.

درس في الأزهر ثم في الجامعة المصرية وهو أول من نال شهادة الدكتوراه منها عام ١٩١٤ وتخرج من السوربون عام ١٩١٨ .

عين محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ثم عميداً لها ، فوزيراً للمعارف ، عضواً ثم رئيساً لمجمع اللغة بمصر

شغف بالأدب اليوناني وكان غزير الانتاج .

أبرز آثاره

- ذكرى أبي العلاء
- في الشعر الجاهلي
- في الأدب الجاهلي
- الأيام
- حديث الأربعاء
- فلسفة ابن خلدون
- مستقبل الثقافة في مصر

مَدخَــــل

بقلم : أنور الجندي[1]

- ١ -

لمع اسم الدكتور طه حسين لمعاناً خاطفاً في الثلاثينات عندما أصدر كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي حمل معه مجموعة من الآراء الخطيرة[2] التي تعارضت مع أصول الإسلام ومفاهيمه فأحدثت ضجة ضخمة واسعة المدى في الجامعة والأزهر والصحافة . ثم والى الدكتور طه مهاجمته للرأي العام عن طريق الشك الفلسفي وإثارة قضايا الدِّين والحضارة والفكر على نحو بدا معارضاً للأصالة العربية الإسلامية في دعوة جريئة إلى طرح نظريات الفكر العربي في مختلف المجالات . وقد سار الدكتور طه حسين في طريقه ذاك لم يتخلف عنه حتى نهاية حياته فترك ركاماً من الأبحاث والدراسات هي في حاجة إلى إعادة النظر فيها في ضوء الإسلام . ذلك أن الدكتور طه قد ألح إلحاحاً شديداً على أنه يصدر عن الفكر الإسلامي ويشارك فيه بأبحاثه عن القرآن وهامش السيرة وتاريخ الصحابة والفتنة الكبرى .

وجرى في أبحاثه المختلفة مجرى كُتاب الغرب واعتمد أساليبهم ومناهجهم في دراسة أدب العرب وتاريخ الإسلام .

والحق أن الدكتور طه حسين قد اكتسب شهرة واسعة وأنتج إنتاجاً غزيراً

---

(١) طه حسين حياته وفكره في ضوء الإسلام .

(٢) جاء في « المصباح المنير » : « خطر الرجل يخطر خطراً إذا ارتفع قدره ومنزلته ، فهو خطير » ويقال أيضاً في الحقير ! (م.م) .

وكان له نشاطه الواسع في مجال الجامعة ووزارة المعارف بالإضافة إلى مجاله في الصحافة والتأليف . ولا نريد أن نتعجل الحكم على الرجل وآثاره وإنما نود أن نضيء الطريق إلى فهمه بتقديم الوقائع والوثائق المتصلة بحياته وفكره على النحو العلمي الصحيح حتى يجيء الحكم عليه مُنصفاً عادلاً غير مشوب بأقل قدر من التحامل أو التحيز .

- ٢ -

برز طه حسين إلى الناس في ثوب من الضجيج الشديد عندما نشر كتابه (في الشعر الجاهلي) وكشف عن تلك الفكرة التي قدمها والتي كانت موضع أخذ ورد شديدين والتي أعطت طه حسين : ذلك الموقف الذي تردد فيه المثقفون والباحثون بين الحملة العاصفة على الصورة التي كتب بها مصطفى صادق الرافعي والنقد الهادىء الذي كتب به محمد فريد وجدي وكان أخطر قوله : « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي فضلاً عن إثبات هذه القضية التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة ونشأة العرب المستعربة ونحن مضطرون أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهود والقرآن والتوراة من جهة أخرى» .

هذا أقسى ما كتب طه حسين : تكذيب القرآن وإنكار نبوة إبراهيم وإسماعيل ، غير أنه بعد أن صمت طه حسين صمتاً شديداً إزاء الزوبعة العاصفة التي قامت والتي أسرع فغادر البلاد حتى تهدأ .

لم تكد تمر شهور حتى كان حديث طه حسين عن تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية في الشعر العربي وادعاء أن لليهود أثراً في الأدب العربي وهي محاولة خطيرة لها دلالتها متصلة بإنكار إبراهيم وإسماعيل . ولم يمض وقت طويل حتى كتب مقاله عن الدِّين والعلم : عام أو بعض عام .

قال : ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وبين ما وصل اليه العلم[1]

ثم كان في نفس العام بحثه عن الضمائر في القرآن الذي ألقاه في مؤتمر المستشرقين وفيه حاول تفسير القرآن تفسيراً خاطئاً .

وفي نفس الوقت كانت دراساته في كلية الآداب عن القرآن واستقدام كازانوفا ليحدِّث شباب مصر المسلم عن القرآن مثيراً الشُّبهات حول المكيّ والمدنيّ وأثر النصرانية في مكة وأثر اليهودية في المدينة إلى آخر هذه الشبهات العاصفة .

ولم تمر إلا سنوات قليلة حتى أثار طه حسين شبهة تحريق العرب لمكتبة الاسكندرية ونشر بحث المستشرقين في اتهام المسلمين بإحراقها وحملته على أحمد زكي باشا شيخ العروبة عندما حاول الدفاع عن المسلمين .

وفي هذه السنوات كانت محاولة اتهام القرن الثاني الهجري بأنه عصر شك ومجون من خلال دراسته لعدد من الشعراء الماجنين أمثال بشار وأبي نواس ومحاولة تصوير العصر كله من خلال قلة من الزنادقة مغضياً عن أثر عشرات العلماء والفقهاء والدعاة والمصلحين .

---

(١) بينما يقول طه حسين بظهور التناقض الكبير بين نصوص الكتب الدينية ويقصد بذلك القران بصورة خاصة . وبين ما وصل اليه العلم ، إذ يصدر العالم والطبيب الفرنسي موريس بوكاي كتاباً باسم «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» La BIBLE, LE Coran et la Science par Morice Bucaille وقد جاء فيه :

«إن القرآن ، وقد استأنف التنزيلين اللذين سبقاه ، لا يخلو فقط من متناقضات الرواية ، وهي السمة البارزة في مختلف صياغات الكتب السابقة ، بل هو يظهر أيضاً لكل من يشرع في دراسته بموضوعية ، وعلى ضوء العلوم ـ طابعه الخاص ، وهو التوافق التام مع المعطيات العلمية الحديثة ، بل أكثر من ذلك ، وكما أثبتنا ، يكشف القارىء فيه مقولات ذات طابع علمي من المستحيل تصور أن إنساناً في عصر محمد ﷺ قد استطاع ان يؤلفها . . . » ص ٢٨٥

طبعة وترجمة دار المعارف في مصر وقد ضرب هذا المؤلف الأمثلة الكثيرة على ذلك من النظام الشمسي والمجرات وسعة الكون وغزو الفضاء ، وعجائب الأرض بما فيها البحار ، والكهرباء الجوية ، وأصل الحياة ، وأسرار السائل المنوي والجنين . . . وغير ذلك مما يلقم طه حسين وأمثاله حجراً بل حجارة . .

إن هذا القول لطه حسين هو رأي الفيلسوف اليهودي دوركايم كما رأينا في غير هذا الموضع .

وهكذا امتد الطريق بالدكتور طه حسين دون أن يجد حرجاً من معارضة الفكر الإسلامي لآرائه ، وعندما أحس طه حسين أنه أصبح في موقف لا يُحسد عليه كتب هامش السيرة وانتقل إلى معسكر الوفد ، وحاول بذلك خداع البسطاء بأنه يكتب عن سيرة الرسول وأذيع إنه قد عاد إلى الإسلام مع أن كتاب (على هامش السيرة) تهكم صريح وقد كشف أمره صديقه وزميله في مدرسة التجديد : « الدكتور محمد حسين هيكل» الذي قال إن اتجاه طه حسين هذا شديد الخطر ليس على الأدب وحده ولكن على الفكر الإسلامي كله لأنه يعيد غرس الأساطير والوثنيات والإسرائيليات في سيرة النبي مرة أخرى بعد أن نقّاها العلماء المسلمون منها وحرروها من آثارها .

ولم يلبث طه حسين أن دعا إلى الفرعونية ودعا إلى الأخذ بالحضارة الغربية حلوها ومرها ، ما يُحمد منها وما يعاب ، في كتابه (مستقبل الثقافة) الذي كان منهجاً لتغريب التعليم المصري وقد تولى على أثر ذلك مناصب كبرى في وزارة المعارف : المستشار ومراقب الثقافة والوزير بعد ذلك واستطاع خلال ذلك أن يثبت آراءه ومخططاته في التعليم كله ، ثم كانت سيطرته بعد الجامعة ووزارة المعارف على مراقبة الثقافة بالجامعة العربية ورئاسة مجمع اللغة العربية وفي كل هذه المؤسسات له أعماله وآثاره البعيدة المدى في مناهج التعليم والثقافة واللغة .

كل هذا كان يجري واسم طه حسين يُدويّ بالشهرة وبالحديث وبالنقد وبالمعارضة وكان من حوله كوكبة من أوليائه يصورونه بصورة العميد والقائد والزعيم والمفكر والعبقري، ومن ورائه مجموعة ضخمة من كتّاب الغرب ومستشرقيه يذودون عنه ويكتبون عنه ويترجمون له آثاره . ومع ذلك فإن حركة اليقظة الإسلامية ظلت قائمة على الحق منذ اليوم الأول تكشف زيفه وترد خطأه وتبين اتجاهه وتدحض دعواه .

وقد جاءت هذه الأجيال الجديدة فلم تر هذه المعارك ولكنها رأت رجلاً يوصف بأنه عميد الأدب تُحاط آراؤه بهالة من التبريز والدوي ، فقد عاش بعد أن توفي مصطفى صادق الرافعي والمازني وزكي مبارك وهيكل والزيات فاستطاع بهذا

الامتداد في العمر أن يكسب نوعاً من التقدير الذي يشبه القداسة ، والواقع أن الأمر كان غير ذلك تماماً وأن هذه الكوكبة التي عاشت حول طه حسين لم تستطع أن تحول دون كشف زيفه ودعواه وباطله ، ذلك لأن أغلب من سار معه على الطريق في أول الأمر لم يلبث أن عرف حقيقته ودخيلته فانصرف عنه .

وفي مقدمة هؤلاء أعلام الفكر الإسلامي والثقافة العربية في عصره ، وما بالك بالعقاد والمازني وهيكل وزكي مبارك ونجيب البهبيتي وفؤاد حسنين واسماعيل مظهر وتوفيق الحكيم وكلهم أصدقاء عصره وأحباب عهده وأولياء جيله ، قد كشفوا هذا الزِّيف وانضموا إلى رواد حركة اليقظة الذين سبقوا على الطريق .

ولكي نكون على طريق الحق الذي يقتضي الإسلام منا أن نظاهره فإننا لا نتهم طه حسين بشيء ، ولا نحكم عليه ، إلا بعد أن نستعرض وقائع حياته ومفاهيمه وآرائه بالأدلة والأسانيد والوثائق .

- ٣ -

١ - ولعل ترتيب وقائع البحث تقتضينا أن نقدم هذا الثبت الحافل من الدراسات : التي تناولت طه حسين وفكره وآراءه في حياته وفي إبان الوقائع :

محمد الخضر حسين	: نقض كتاب الشعر الجاهلي .
مصطفى صادق الرافعي	: تحت راية القرآن : الرد على الشعر الجاهلي .
محمد فريد وجدي	: نقد كتاب الشعر الجاهلي .
محمد لطفي جمعة	: الشهاب الراصد .
دكتور محمد أحمد الغمراوي	: النقد التحليلي .
إبراهيم عبد القادر المازني	: كتاب قبض الريح (فصول الشعر الجاهلي وحديث الأربعاء ومجنون ليلى) .

الأستاذ محب الدين الخطيب	: ما أعرفه عن طه حسين (كتاب) ونشر ملحقاً بالزهراء - م ٣ ص ٢٦٨ .
إسماعيل أدهم	: طه حسين (كتاب ملحق بمجلة الحديث) م١٢/١٩٣٨ .
محمد الهيهاوي	: جريدة المنبر (إبريل- مارس ديسمبر)(١٩٣٩)
الدكتور محمد غلاب	: مجلة النهضة الفكرية ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ .
عباس محمود العقاد	: مجلة الاثنين ٣/٥/٤٣ ، ٢٦/٤/١٩٤٣ .
زكي مبارك	: جريدة البلاغ ٢٨ يونيه ١٩٣٥ .
حسن البنا	: إن كان هذا حقاً يا دكتور فقد اتفقنا مجلة التعارف. (١٩٣٩)
محمود محمد شاكر	: بحث عن المتنبي وبحث عن الفتنة الكبرى.
ساطع الحصري	: آراء وأحاديث في الوطنية والقومية .
أحمد زكي باشا	: جريدة السياسة ١٩٢٤ .
شكيب أرسلان	: مقدمة كتاب النقد التحليلي .
الدكتور محمد حسين هيكل	: نقد كتاب على هامش السيرة
	: السياسة الأسبوعية.
رفيق العظم	: السياسية اليومية
	: نقد إتجاه طه حسين التاريخي
إسماعيل مظهر	: معركة مرجرات :العصور ج ٦ م ١/ ص ٦٥١
توفيق الحكيم	: مجلة الرسالة ٢ يوليو ١٩٣٤ .
إبراهيم المصري	: أسلوب طه حسين : البلاغ ٢١ يونيه ١٩٣٤ .

دكتور عمر فروخ	: عبقرية العرب
فتحي غانم	: آخر ساعة. يوليو، أغسطس ١٩٥٤.
دكتور علي العناني	: محاضرته عن طه حسين : النهضة الفكرية ٥ ديسمبر ١٩٣٢و٩ مايو ١٩٣٢.
محمد سيد كيلاني	: كتاب فصول ممتعة.
دكتور حلمي علي مرزوق	: تطور النقد والتفكير الأدبي في مصر.
دكتور محمد محمد حسين	: الاتجاهات الوطنية ج٢ ص٣٨٦وما بعدها. مجلة الأزهر: حصوننا مهددة من داخلها عام ١٩٥٦/١٣٧٧ هـ .
محمد محمود بدير	: مجلة النهضة الفكرية ٧ نوفمبر ١٩٣٢ شبهة المسيحية.
دكتور محمد نجيب البهبيتي	: مقدمة كتابه (تاريخ الشعر العربي في القرن الثالث الهجري ـ الطبعة الرابعة ـ مايو ١٩٧٠).
دكتور فؤاد حسنين	: مقدمة كتابه شمس الله تشرق على الغرب.
مجموعة من العلماء	: تقرير الأزهر وتقرير لجنة الوزارة في ٢ نوفمبر ١٩٢٧ و٢ يونيه ١٩٢٨ الفتح م٦ ص٦٥٠.
خليل تقي الدين	: مجلة الأديب : آب ١٩٤٥ .
إيزاك شموس	: السياسة: ٢٢ فبراير ١٩٣٤.
الدكتور ناصر الدين الأسد	: مصادر الشعر الجاهلي.
سامي الكيالي	: طه حسين (جزءان) مجموعة اقرأ.
كمال قلته	: طه حسين وأثر الفرنسية في أدبه.
محمد أحمد عرفة	: نقض مطاعن في القرآن .
جرجس صال	: ما سرقه طه حسين من جرجس صال: الأهرام ٢١ مايو ١٩٢٦ .

ألبير بيزان : (سكرتير طه حسين) مذكراته : الإنذار ٢٥ فبراير ١٩٣٤ .

عبد ربه مفتاح : مقال (الآن وقد عصيت قبل) : الاهرام ١٢ مايو ١٩٢٦ .

(٢) موضوعات أثارت ضجة :

تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية في الشعر العربي : السياسة ١٣ يناير ١٩٢٦ .

حرق كتب طه حسين في سوريا (المقطم ٥/ ٩ و٦/ ٩/ ١٩٣٣) .

نظرات في النظرات (مقالات طه حسين عن المنفلوطي) : العلم آخرمقال ٢٥ نوفمبر ١٩١٠ .

مقال طه حسين عن محمد عبده : الوادي ـ ١١ يوليو ١٩٣٤ .

مقال طه حسين عن أحمد زكي باشا ـ البوادي ـ ٨ يوليو ١٩٣٤ .

مقال أحمد أمين عن طه حسين: الرسالة ـ ١ يونيه ١٩٣٦ .

تحريق مكتبة الاسكندرية ـ ومقال كازانوفا ترجمة طه حسين ١٨ إبريل ، ٢ مايو١٩٣٣ السياسة اليومية .

جريدة كوكب الشرق : بدأ عمل طه حسين في الوفد مارس ١٩٣٣ .

شراء إمتياز جريدة الوادي : يونيه ١٩٣٣ إلى ديسمبر ١٩٣٤ .

آراء غربية للدكتور طه حسين في القرآن في الجامعة: كوكب الشرق ٢٧ مارس ١٩٢٨ .

الضمائر في القرآن (بحث في مؤتمر المستشرقين) : كوكب الشرق ١٥ أكتوبر ١٩٢٨ .

الخلاف بين طه وهيكل : الرسالة ١٧ يونيو ١٩٣٣ .

خطاب المازني الشهير إلى طه حسين عن فصل زكي مبارك من الجامعة : البلاغ ١٩٣٢/١٢/٣١ .

مقال زكي مبارك (لو جاع أولادي) : الصباح ١٩٣٦/١/١٧ .
مجلة الاثنين : حديث طه حسين حول صلته بالصهيونية (١٩٤٦) .
سلامة موسى بقلم طه حسين : الجمهورية ٢٥ ديسمبر ١٩٥٣ .

(٣) مناقشات عن طه حسين في مجلس النواب :

١٣ سبتمبر ١٩٢٦ : كتاب الشعر الجاهلي .
٢٩ يونيو ١٩٢٧ : إثارة موضوع طه حسين .
٥ مايو ١٩٣٠ : إعادة البحث في كتاب الشعر الجاهلي .
١٩٣٩ : النظر في موقف طه حسين .

ونستطيع في سبيل استعراض حياة طه حسين وفكره أن نقدم مجموعة من آرائه توالت على الأيام وأثارت كثيراً من الضجيج والنقد :

١ ـ لأمر ما اقتنع الناس أن النبي يجب أن يكون من صفوة بني هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب .

٢ ـ ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية وبين ما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين ، فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يستطع العلم إلى الآن أن يثبتهما . والعالم الحقيقي ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وكما ينظر إلى اللباس من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة . وتتبع الجماعة في تطورها وتتأثر بما تتأثر به الجماعة أن الدين في ناحية

والعلم في ناحية وليس إلى التقائهما من سبيل ومن زعم غير هذا فهو خادع أو مخدوع .

٣ ـ إن الفرعونية متأصلة في نفوس المصريين وستبقى كذلك بل يجب أن تبقى وتقوى والمصري فرعوني قبل أن يكون عربياً ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها وإلا كان معنى ذلك : إهدمي يا مصر أبا الهول والأهرام ، وانسي نفسك واتبعينا ، لا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطي ، مصر لن تدخل في وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد، وأؤكد قول أحد الطلبة القائل : لو وقف الدين الإسلامي حاجزاً بيننا وبين فرعونيتنا لنبذناه .

٤ ـ خضع المصريون لضروب من البغي والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضاً .

٥ ـ أريد أن أدرس الأدب العربي كما يدرس صاحب العلم الطبيعي علم الحيوانات والنبات ، ومالي أدرس الأدب لأقصر حياتي على مدح أهل السنة وذم المعتزلة . مَن الذي يكلفني أن أدرس الأدب لأكون مبشراً للإسلام أو هادماً للإلحاد .

٦ ـ إن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وكافراً في وقت واحد ، مؤمناً بضميرة وكافراً بعقله فإن الضمير يسكن إلى الشيء ويطمئن إليه فيؤمن به أما العقل فينقد ويبدل ويفكر أو يعيد النظر من جديد فيهدم ويبني ويبني ويهدم .

٧ ـ علينا أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً فناخذ الحضارة خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يُحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب .

***

ـ ٤ ـ

أولا . رفع أحد علماء الأزهر الدعوى العامة أمام النيابة على طه حسين

(١٩٢٦) وجاء الكشف عن سرقة كتابه الشعر الجاهلي من كتاب مقالة في الإسلام جرجس صال (كشف عنها عبد المتعال الصعيدي) .

ثانياً : قررت عصبة العمل القومي في سوريا إحراق كتب طه حسين في ميدان عام لأنه (واحد من الذين يهوّنون أمر العرب ويصغّرون شأنهم ويرفعون الصوت بالدعوة التي يكرهونها ألا وهي الفرعونية) وذلك قوله : (خضع المصريون لضروب من البغي والعدوان جاءتهم من الفرس والرومان والعرب أيضاً) ١٩٣٣ .

ثالثاً : أرسل إليه الأستاذ توفيق الفكيكي من مفكري العراق برقية احتجاج عام ١٩٣٨ قال فيها :

« إن شعاركم الفرعوني سيكسبكم الشنار وستبقى أرض الكنانة وطن الإسلام والعروبة برغم الفرعونية المندحرة» .

رابعاً : كشف الأستاذ محمد محمود بدير عن توزع طه حسين بين الإسلام والمسيحية (النهضة الفكرية - ٧ نوفمبر ١٩٣٢) .

خامساً : إتهام طه حسين بالصداقة اليهودية على أثر إنشاء مجلة الكاتب المصري ومساءلته في مجلة الاثنين ١٩٤٦ .

***

- ٥ -

تعرضت آراء طه حسين إلى نقد النقاد:

الفرعونية والعروبة : دراسة الفريق محمد فوزي .
الشعر الجاهلي : دراسة الدكتور ناصر الدين الأسد .
مستقبل الثقافة : دراسة ساطع الحصري .
الشعر الجاهلي : دراسات فريد وجدي والغمراوي والرافعي ولطفي جمعة

والخضر حسين .

مع المتنبي : دراسة محمود محمد شاكر .

على هامش السيرة : دراسة الدكتور محمد حسين هيكل (يراجع كتابنا المساجلات والمعارك الأدبية) .

***

- ٦ -

أشار الباحثون إلى أن آراء طه حسين نقلت على النحو الآتي :

١ ـ آراؤه في الشعر الجاهلي أخذها عن جرجس صال ومرجليوث .

٢ ـ آراؤه في حديث الأربعاء أخذها عن جورجي زيدان والأغاني .

٣ ـ آراؤه في هامش السيرة اعتمد فيها على الأساطير وكتاب أجنبي .

٤ ـ آراؤه في مستقبل الثقافة : هي جماع ما أورده المستشرقون وكتاب التغريب عن حضارة البحر الأبيض والفرعونية .

هذه كلها مقدمات أردت بها أن أقدم لك هذه الشخصية لترى فيها رأيك في ضوء الإسلام .

***

تعريفات

أنور الجندي

كاتب إسلامي قدير، كثير الاطلاع والاهتمام، يحمل روحاً قوية وحماسة رائعة لبيان مزايا الإسلام، والدفاع عنه، والرد على خصومه. مع بيان مساوىء الحضارة الغربية. وله مؤلفات عديدة قيمة منها: «طه حسين في ميزان الإسلام» وقد نقلت عنه بحوثاً عديدة.

قال عنه صاحب مكتبة دار الإرشاد في تقديم كتابه: «مفكرون وأدباء»:

«لقد تخصص الأستاذ أنور الجندي في دراسة الأدب العربي منذ فجر النهضة الحديثة، وأصدر موسوعة كاملة بلغت ١٨ مجلداً، وما زالت مستمرة في النماء، فهو منذ خمسة عشر عاماً يعمل في هذا المجال، وما زال يوسعه ويعمقه».

وقد تكرّم هذا الأستاذ فكاتبني دون سابق معرفة وطلب مني إرسال نقدي لساطع الحصري واقترح وضعه في كتابه السابق: «مفكرون وأدباء» فاعتذرت، جزاه الله خيراً، ودارت بيننا بعض المواضيع والأفكار عن طريق المراسلات.

نقد كتاب
الشعر الجاهلي

بأقلام :

محمد لطفي جمعة
الأستاذ محمد الخضر حسين
محمد فريد وجدي
محمد الخضري
الدكتور محمد أحمد الغمراوي

تلخيص ناصر الدين الأسد

تلخيص وتقديم :

الدكتور ناصر الدّين الأسد[1]

كان لكتاب « في الشعر الجاهلي »[2] أثر كبير ، ودوي شديد ، فأشرع كثير من العلماء والأدباء أقلامهم وتناولوا الكتاب وما فيه بالنقد والنقض ، وتفاوت نقدهم واختلفت طرائقهم : فاعتدل بعضهم والتزم حدود الموضوع ، ومضوا ينقدون في أسلوب هادىء ولفظ عفّ ، وغلا بعضهم فاشتد واشتط ، وتجاوزوا الكتاب إلى صاحب الكتاب . ونُشر أكثر ذلك في صحف ذلك العهد ، ثم جُمع بعضه في كتب هي : كتاب « نقد كتاب الشعر الجاهلي » للأستاذ محمد فريد وجدي ، وكتاب « الشهاب الراصد » للأستاذ محمد لطفي جمعة ، وكتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » للعلامة محمد الخضر حسين ، وكتاب « محاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي » للأستاذ الشيخ محمد الخضري ، وكتاب « النقد التحليلي في الشعر الجاهلي » للأستاذ محمد أحمد الغمراوي ، وله مقدمة مُفصلة بقلم الأمير شكيب أرسلان ، وفصول كثيرة في كتاب « تحت راية القرآن » للأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

وتخليص النقد الموضوعي في كل تلك الكتب ، ثم تلخيصه ، أمران فيهما من المشقة وبذل الجهد شيء كثير . وسنحاول في هذه الصفحات جمع ما تفرق في تضاعيف هذه الكتب ، وترتيبه في فصول ذات موضوع واحد أو موضوعات متقاربة يجمعها عنوان واحد .

---

(١) مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية

(٢) أصدره طه حسين بهذا الأسم . ثم باسم : «الأدب الجاهلي»

نقد منهج الكتاب وطريقته :

١ ـ فقد أعلن الدكتور منهجه في وضوح حين قال[١]: «أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه « ديكارت » للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث » . فقام بعضهم يُنكر عليه فهم هذا المنهج من أساسه ، ويردّ عليه في صفحات طويلة ، فذهب إلى أن منهج ديكارت لم يكن منهج شك للشك ذاته ، وإنما يتخذ الشك وسيلة لليقين ، وأن خلاصة هذا المنهج ألا يقبل المرء أمراً على أنه حقيقة إلا إذا قامت الدلائل البينة على صحته ، وأن ديكارت مع ذلك كان يُسلِّم بوجود أشياء لا يجادل فيها ، فهو بذلك يكون منهجاً إيجابياً لا سلبياً ، ويستشهد على كل ذلك بقول أحد دارسي تاريخ المذاهب الفلسفية من الفرنسيين[٢] : « وقد آلى ديكارت على نفسه أن لا يقبل المعلومات مهما كانت صفتها وقوة الثقة الملازمة لها ، ما عدا الحقائق الخاصة بالعقيدة فإنه لم يطبق عليها هذه الطريقة » .

٢ ـ ولكن آخرين ردوا عليه من وجه آخر فقالوا : إنه لم يلتزم المنهج الذي أعلن أنه يريد أن يصطنعه ، وهذا صاحب كتاب « في الشعر الجاهلي » على الرغم من قبضه على منهج ديكارت ، ونعيه الاطمئنان إلى ما يقوله القدماء ، قد اطمأن في كثير

---

(١) محمد لطفي جمعة ، الشهاب الراصد : ١٠-٢٥ .

(٢) المصدر السابق : ٢٠ .

من هذا النحو الجديد من البحث إلى ما يرويه صاحب الأغاني وغيره . . . »[1] ، ولكنه بغلوه في تحري أسباب الاختلاق على الجاهليين إلتقط من كتب المحاضرات جميع ما فيها مما يتعلق بالاختلاق ، وبالعوامل التي حملت عليه ، وبالمطامع التي دفعت إليه ، ولـم يسر في ذلك على ما يقضي به عليه مذهـب ديكارت من النقـد والتمحيص ، بل وثق به ثقة مطلقة حملته على إصدار الأحكام جُزافاً . . . »[2] وكان من أصرح ذلك أن الدكتور أورد في كتابه أخباراً وروايات كانت جديرة أن تنال منه بعض عنايته في الوقوف عندها ونقدها وتمحيصها وتبيين زائفها ثم ردّها ، وقد أورد ناقدوه أمثلة كثيرة على ذلك نكتفي بالإشارة إلى بعض أرقام الصفحات التي وردت فيها في كتبهم[3] .

٣ ـ وذهب بعضهم إلى أن مؤلف الكتاب قد جافى الطريقة العلمية ، ولم يؤسس « لنظريته بالتثبت أولاً من الحقائق قبل أن يدخل في دور الفرض . . . »[4] وأنه يبدأ بالفرض ، ثم يبني عليه فرضاً آخر ، ثم ينتهي بالقطع والجزم والثبوت . وقدموا لذلك أمثلة كثيرة منها : أنه يورد ثلاث جمل يُبرهن على الأولى منها بقوله « فليس يبعد ! » وعلى الثانية بقوله :«فليس ما يمنع ! » وعلى الثالثة بقوله :«فما الذي يمنع ! » ويبني على هذه الكلمات الثلاث قوله :« أمر هذه القصة إذاً واضح » ! ويُعقّب الناقد على ذلك بقوله : « نعم قد اتضح بنفي البعد في الأولى ! وعدم المانع في الأخريين ! وما علمنا بمنطق في العالم يكتفي في إقامة البرهان على عدم صحة خبر من الأخبار بأنه لا يبعُد ضده أو أنه لا مانع من ضده ! ». ومن ذلك أن الدكتور طه يحتج في نفي الشعر المستشهد به على القرآن بقوله : « أليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس ونافع بن الأزرق قد وضعت في تكلُّف وتصنّع؟» ثم قال: «بل اليس من الممكن أن تكون قصة ابن عباس هذه قد وضعت في سذاجة وسهولة

---

(١) محمد الخضر حسين ، نقض كتاب في الشعر الجاهلي : ١١

(٢) محمد فريد وجدي ، نقد كتاب الشعر الجاهلي : ٢ .

(٣) انظر مثلا : الخضر حسين : ١٩٩، ٢٠١، ٢٧١ ، ٢٧٦ والخضري : ٣٨-٤١ .

(٤) الغمراوي : ١٤١-١٤٦ .

ويسر ، لا لشيء إلا لهذا الغرض التعليمي اليسير ؟ » فأجابه ناقده بقوله[1] : « بلى ! هذا ممكن ، كما يمكن أن يكون الخبر صحيحاً . . . كما يمكن أن يكون بعضه صحيحاً وبعضه غير صحيح ، كل ذلك ممكن . ولكن الذي يجب أن تجيب عنه هو : بمَ ترجح عندك أن الخبر مكذوب كله ؟ أهو غير معقول ؟ أم هو مخالف لطبائع التعليم ؟ . . . » ومن ذلك أيضاً أن الدكتور طه قال : « وعلى هذا النحو تستطيع أن تحمل كل ما تجد من هذه الأخبار والأشعار والأحاديث التي تضاف إلى الجاهليين والتي يظهر بينها وبين ما في القرآن والحديث من شبه قوي أو ضعيف » . فعقب عليه الناقد بقوله[2] : « من شاء أن ينظر إلى قاعدة تمتد إلى غير نهاية ، ولا تتصل بما يمسكها أن تزول إلا إرادة هذا المؤلف ، فلينظر إلى هذه الفقرة التي تُمثل قلماً يشتهي أن يكتب فينتكس ويرمي بالحديث في غير قياس . كل شعر أو خبر أو حديث يُضاف إلى الجاهليين ويكون بينه وبين آية من القرآن شبه قوي أو ضعيف فهو مصنع ! أليس من الجائز أن ينطق العرب بحكمة فيأتي القرآن بهذه الحكمة على وجه أكمل وأرقى ؟ أمن الحق أن ننكر أن العرب قالوا مثلا : القتل أنفى للقتل ، لمجرد شبهه بقول القرآن : ﴿ولَكُمْ في القصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولي الألباب﴾. أوَ من الحق أن ننكر أن زهيراً قال :

وَمَـنْ هَابَ أسْبَـابَ المَنَـايا يَنلْنَهُ ... وَلَـو رامَ أسْبَـابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

لأن له شبهاً قويًّا أو ضعيفاً بقول القرآن : ﴿أَيْنَمَا تَكُونوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ في بُرُوجٍ مُشَيَّدَة﴾ .

ومما يتصل بهذا أنه ينصُّ على النتائج من غير ذكر للمقدمات ، فهو مثلاً يعقد فصلاً كاملاً عن « الشعوبية ونحل الشعر » ، ولكنه « لم يأت برواية تدل على أن بعض الشعوبيين انتحل (نحل) شعراً جاهليًّا » و « قال المؤلف عن الشعوبية ما شاء أن يقول ، واغترف من كتاب الأغاني قصصاً عن أبي العباس الأعمى وإسماعيل بن يسار ، وقُصارى ما تدل عليه هذه القصص أن الأول كان يهجو آل

(١) الخضري : ٨ .

(٢) الخضري : ٢٥ .

الزبير ، وأن الثاني كان يبغض آل مروان ، وله شعر يفخر فيه بالأعاجم ، وزعم أنه وصل بهذا إلى ما كان يريده من تأثير الشعوبية في انتحال (نحل) الشعر ، ولكنه لم يستطع أن يضرب لك مثلاً يريك كيف انتحلت (نحلة) الشعوبية شعراً جاهليًّا ، فضاق بمنهج ديكارت ذرعاً . . . » وكذلك الفصل الذي عقده عن « السياسة ونحل الشعر » ، فقد تحدث فيه عن الأنصار وقريش والخصومات بينهم ، فعقّب عليه ناقده بقوله[1] :«كل ذلك مفهوم مفروغ منه ، وليس فيه من جديد ، أما الجديد الذي فاجأ به القراء فهو قوله بعد ذكر هذه العصبية : « يستطيع الكاتب في تاريخ الأدب أن يضع سفراً مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير في شعر الفريقين الذي قالوه في الإسلام وفي الشعر الذي انتحله الفريقان على شعرائهما في الجاهلية » . مع أن مقدمته الطويلة لم يوجد بها كلمة واحدة تتصل بأن فريقا من الفريقين اختلق شعراً ونسبه إلى شعرائه في الجاهلية ، وإنما الأحاديث كلها في الشعراء الذين كانوا في أول العهد الإسلامي يتقارضون الشعر ، وفي العهد الذي يلي ذلك » .

٤ ـ ومن جملة ما أخذوه به التناقضُ الذي وقع فيه . فهو يقول : « وهذا البحث ينتهي بنا إلى أن أكثر هذا الشعر الذي يُضاف لامرىء القيس ليس من امرىء القيس في شيء ، وإنما هو محمول عليه ومختلق عليه اختلاقاً » . فيُعقب ناقده بقوله[2] :«ذهب المؤلف في بعض الصحف من كتابه إلى أن هذا الشعر الذي يُنسب إلى امرىء القيس لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون له . وبمقتضى تمسكه بأن امرىء القيس يمني مولداً ونشأةً ، وأن لغة قحطان نازلة من لغة عدنان منزلة اللغات غير العربية ، أن يكون جميع هذا الشعر الذي يُضاف إلى امرىء القيس منحولاً ، فإنا لم نجد شيئاً منه على غير اللغة التي ينظم فيها شعراء نجد والحجاز . ولكن المؤلف يقول في هذه الصفحة : إن البحث ينتهي به إلى أن أكثر هذا الشعر ليس من امرىء القيس في شيء . ومعنى هذا أن في الشعر المضاف إلى امرىء القيس

---

(١) الخضر حسين : ٢١٢ .

(٢) الخضر حسين : ٢٤٧ .

شعراً هو منه في شيء ، وأظن أن المؤلف سيجد كثيراً من المشقة والعناء ليحل هذه المشكلة . . » وقال الدكتور طه أيضاً : « ولا سيما إذا صحت النظرية التي أشرنا إليها آنفاً وهي نظرية العزلة العربية ، وثبت أن العرب كانوا متقاطعين متنابذين ، وأنه لم يكن بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يُمكِّن من توحيد اللهجة » . فتعقبه الناقد بقوله[1] : « أتدري ما هي نظرية العزلة التي أشار إليها آنفاً ؟ هي تلك النظرية التي رماها على أكتاف « الذين تعودوا أن يعتمدوا على هذا الشعر الجاهلي في درس الحياة العربية قبل الإسلام » ، وشن عليها الغارة بنكير لا هوادة فيها . . . أنكر المؤلف نظرية العزلة العربية حين رآها تعترض ما أراده من أن للجاهليين اتصالاً بالعالَم الخارجي ، ووَدَّ في هذا الفصل أن تستقيم له لأنها تؤيد نظرية عدم التقارب بين لغات القبائل العربية » . وقال الدكتور طه أيضاً : «إنه يستثني من النحل قصيدتين لعلقمة مع شيء من التحفظ» ثم يقول:« وصحة هاتين القصيدتين لا تمسّ رأينا في الشعر الجاهلي » فيعقب عليه ناقده بقوله[2] : « ولعله نسي - وأمثاله لا ينسون كثيراً - ما كتبه تحت عنوان الشعر الجاهلي واللهجات حين قال « ومن المعقول جداً أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام ، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة » . ومن المعروف أن علقمة من بني تميم ، والقصيدتان اللتان استثناهما ورضي بقبولهما لا تخرجان عن هذه اللغة الأدبية التي يسميها لغة قريش ، فقبوله لهاتين القصيدتين ينقض أساس ذلك الفصل . . . » .

ومن ذلك أيضاً قول الناقد إن الدكتور طه قد « نَّبهه النقد من أكثر من عام إلى أن ثبوت اختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال ، لو ثبت أنهما كانتا مختلفتين في العصر الجاهلي القريب ، لا يصلح دليلاً على أن أدب يمانية الشمال موضوع ، لأن قبائل اليمن في الشمال كانت هاجرت من الجنوب إلى الشمال منذ أمد بعيد ، فلم يكن

(١) الخضر حسين : ٢٤٨-٢٤٩ .
(٢) الخضري : ٣٢ .

هناك بدّ لمن نشأ في الشمال من ذرياتها أن ينشأ على لغة الشمال ، ويتخذها لغة أدب ولغة خطاب ، فجاء صاحب الكتاب هذا العام يجيب عن هذا بلهجة المستوثق مما يقول.، فهل تدري بماذا أجاب ؟ أجاب بأن هجرة فريق من عرب اليمن إلى الشمال غير ثابتة ! وأن صحة يمانية من انتسب إلى اليمن من قبائل الشمال غير ثابتة ! وإذن يسقط ذلك الاعتراض ! إن من المؤلم حقا أن يلجّ الأستاذ في المماراة إلى هذا الحد . فلا يدرك أن جوابه هذا مسقطٌ كل ما قال ، وأنه إذا صح أن التاريخ القديم والتاريخ الحديث أجمعا على خطأ فلم تكن هجرة ، ولم يكن في الشمال يمانيون ـ لم يكن هناك أدنى شبهة لغوية يمكن أن يعترض بها على صحة كلام مثل امرىء القيس ، إذ يصير امرؤ القيس ومن معه بذلك مضريين ، ويصير من السُّخف أن يُقال بعد ذلك إن كلامهم وشعرهم منحول لأن لغته ليست لغة نقوش حميرية اكتشفت في الجنوب ، حتى ولو كانت لغة النقوش تمثل لغة اليمن في عصر امرىء القيس ـ لكن صاحب الكتاب يدافع عن باطل . . . » وحسبنا ما قدمنا من أمثلة التناقض ، وتجد طائفة أخرى منها إكتفينا بالإشارة إلى أرقام صفحات الكتب التي تشير إليها في الهامش[1] .

٥ ـ وأمر آخر يتصل بمجافاة الطريقة العلمية ، وهو إيراد النصوص على وجه يختلف عما كانت عليه في حقيقتها ، والاستدلال بها على ما لا تدلّ عليه في أصلها لو أوردت كاملة . ومن أمثلة ذلك أن الدكتور طه يقول : « فأما خَلفٌ فكلام الناس في كذبه كثير ، وابن سلام ينبئنا بأنه كان أفرس الناس ببيت شعر . . . . » فالدكتور طه يريد أن يتخذ من كلام ابن سلام حجة على كذب خلف ، ويريد أن يوجِّه قوله « أفرس الناس ببيت شعر » توجيهاً يوحي بأنه لتمكنه وقدرته ومهارته كان قادراً على نحل الشعر ووضعه . ولكن ابن سَلام لم يرد إلى هذا بل أراد نقيضه ! ونصه بكامله هو : « أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر ، وأصدقه لساناً ، كنا لا نبالي إذا أخذنا عنه خبراً أو أنشدنا شعراً ألا نسمعه من صاحبه » . وأي توثيق لخلف أوثق من هذا ؟ ومن ذلك أيضا أن الدكتور يذكر أن أبا عمرو بن العلاء قال : « ما لسان

(١) الخضر حسين : ٣٠٦

حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » ولكن نصَّ ابن سلام هو « ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا » فحذف الدكتور قوله « وأقاصي اليمن » ، ثم غيّر قوله « ولا عربيتهم بعربيتنا » فجعله « ولا لغتهم بلغتنا » والفرق بين ما أورد الدكتور وبين النص الحقيقي فرق كبير له دلالته التي بيَّنها ناقده[1].

ومن ذلك أيضا أن الدكتور طه يُورد شعراً ثم يقول عنه : « والعجب أن أصحابَ الرواية مقتنعون بأن هذا الكلام من شعر الجن ، وهم يتحدثون في شيء من الإنكار والسخرية بأن الناس قد أضافوا هذا الشعر إلى الشماخ بن ضرار » . وقد أورد أحد ناقديه الروايات التي ذكرت هذا الشعر ، فلم يكن فيها إنكار ولا سُخرية ، بل نسبته كلها إلى الشماخ أو إلى أخيه مزرد ، ما عدا خبراً واحداً ذكر أن عائشة حينما سمعت الشعر قالت : « فكنا نتحدث أنه من الجن . . . » وفي آخر الخبر نفسه أن عائشة سألت : من صاحب هذه الأبيات ؟ فقالوا : مزرد بن ضرار ، ولكن مزرداً بعد ذلك أنكر أنها له ! والدكتور طه يكتفي أحياناً بذكر رواية واحدة من روايات متعددة ، فقد أورد قصة فيها نحل الشعر ، وفيها تجريح لأحد رواته ، فعقب عليه ناقده بذكر روايات أخرى تنقضها ، ثم يقول : « أفلا ترى بعد ذلك أن الدكتور اتَّبع الهوى ، فبادر إلى تصديق حكاية سخيفة من غير أن يؤيدها ما يقويها ، وذكرها وحدها دون أن يذكر الروايات الأخرى إرادة أن يخدع عقول القراء ، فيفهموا أن هذه هي الرواية ، فيتبعوه فيما يريد أن يثبته من تجريح الناس وإشاعة السوء فيهم ؟ ألا يدعونا ذلك إلى القول بأنه متعصب لرأي معين يصطاد له من الأقوال ما يؤيده ، تاركاً التحقيق العلمي الذي يوصل إلى الحق أينما كان ؟ »

٦ ـ ومما أخذه به ناقدوه أيضاً أن الدكتور طه « أغار على كتب عربية وأخرى غربية فالتقط منها آراء وأقوالاً ، نظمها في خيط من الشك والتخيل »[2] . « وأن مؤلف الشعر الجاهلي على الرغم من تعظيمه قدر بحثه بوصفه بالحداثة والطرافة والابتداع فإنه لم يبرز فكرة جديدة لامعة ، بل لم يُعنَ بالبحث عناية الذين ألمّوا به

---

(١) الخضر حسين : ٩٩ ـ ١٠٠ ، وانظر ايضا الغمراوي : ١٩٤ .

(٢) الخضر حسين : ٣٢٣ .

من القدماء والمحدثين ، بل أخذ بعض أفكارهم وابتكاراتهم ولم يعرها رونقاً ولا جزالة ، وجرّد من نظريتهم رسالته »[1] . وقد سعى بعض ناقديه إلى الكشف عما أخذه الدكتور من مرجوليوث خاصة ، فوجدوه شيئاً كثيراً ، حتى لقد ذهب بعضهم إلى أن الدكتور طه[2] ـ « أغار على نظرية الشك في الشعر الجاهلي ، ولم يفترق عن مرجوليوث إلا في تسليمه بأن هناك شعراً جاهلياً ، فأخذ أصل النظرية وقوى الشبه التي استند إليها مرجوليوث ، وجعل يقول لك : إنني شككت في الشعر الجاهلي ، ويداعبك بقوله : ألحت في الشك أو قل ألح عليَّ الشك ؛ والحديث في صدق وأمانة خير من هذه المداعبة ». وقال ناقد آخر : « لقد كتب صاحب الكتاب بحثه ليثبت دعوى جديدة وينسبها هو لنفسه وتنتسب في الحقيقة لمرجوليوث ». ولا سبيل إلى الإطالة بإيراد ما ذكروه ، ولا بعَضه ، فقد بسطنا رأي مرجوليوث وبسطنا رأي الدكتور طه حسين ، ثم أشرنا في هامش هذه الصفحة إلى المواطن التي ذكر فيها الناقدون ما رأوا أن الدكتور أخذه من مرجوليوث ، ومن كل ذلك نستطيع أن نستبين أثر مرجوليوث في كتاب الدكتور طه حسين وخاصة في نقطتين أساسيتين لعلهما عماد بحث الدكتور ، وهما : الدليل الديني ، والدليل اللغوي!

***

نقد الأدلة :

وبعد أن عرضنا ، في إيجاز شديد ، ما أخذه الناقدون على منهج الدكتور وطريقته ، نعرض في إيجاز ، لعله أشد من سابقه ، ما نقدوا به أدلته وحججه .

١ ـ فقد ذكر الدكتور طه ، كما مر بنا ، أن الشعر الجاهلي الذي بين أيدينا لا يمُثل الحياة الدينية في الجاهلية ، وأن القرآن ، وهو عنده مرآة الحياة الجاهلية ، يمثل العرب في الجاهلية أمة متدينة قوية التدين . فرد عليه العلامة محمد الخضر حسين ،

(١) انظر مثلا : الخضر حسين : ١٩ ـ ٢٠ و ٢٦٣ و ٣١٥ و ٣٤٦ و ٣٥٢ ـ ٣٥٦ ؛ والخضري : ٨٤ ؛ والغمراوي : ٢٠٠ ، ٣١٣.
(٢) الغمراوي : ١٨٠ .

وبينّ أن « هذه الشبهة مما استلبه المؤلف من مقال مرجوليوث »[1] . ثم أورد ما جاء في مقال مرجوليوث وما جاء في كتاب الدكتور طه ليظهر ما بينهما من تشابه ، وبعد أن عرض لرد إدوارد براونلش على مرجوليوث، قال[2] :«وخلاصة الجواب أن مُعظم شعر العرب كان في الفخر والحماسة وأن المسلمين صرفوا عنايتهم عن رواية الشعر الذي يمثل ديناً غير الإسلام ولا سيما دين اللات والعُزى ، وعلى الرغم من هذا كله وصلت إلينا بقية من الشعر الذي يحمل شيئاً من الروح الديني ، تجده في كتاب الأصنام لابن الكلبي وغيره » . وأما الأستاذ محمد لطفي جمعة فقد وجد أن خير رد على الدكتور طه أن يجمع بعض الشعر الجاهلي الذي يشير إلى الحياة الدينية في الجاهلية ، فجمع طرفاً منه ، لشعراء متعددين[3] . ثم قال[4] : « من العجيب أن المؤلف يدعي أن الشعر الجاهلي كله عجز عن تصوير الحياة الدينية ، وهو لم يتقدم إلينا بدليل ولم يستقرىء دواوين الشعر الجاهلي » . وأما الأستاذ الغمراوي فينكر أن القرآن يصور العرب في الجاهلية أمة متدينة قوية التدين ، ويرى أن هذا « لا ينطبق إلا على أهل مكة والمدينة ومن حولها ، ولا ينطبق على من حولها مثل ما ينطبق عليها . ومكة والمدينة وما حولها ليست هي كل بلاد العرب ، وأهل مكة والمدينة ومن جاورهم لم يكونوا جملة العرب ولا جمهورهم ، فمن الخطأ الواضح إذن أن يجعل الدكتور ما ينطبق عليهم ينطبق على جميع العرب ، وأن يستند في ذلك إلى القرآن » .

٢ ـ وذكر الدكتور طه أيضاً أن الشعر الجاهلي لا يمُثل الحياة العقلية في الجاهلية ، ومضى يصف هذه الحياة العقلية كما رآها في القرآن الكريم ، فالقرآن الكريم « يمثل حياة عقلية قوية ، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن في جهادها حظاً عظيماً . . أفتظن قوماً يجادلون في هذه الأشياء جدالاً يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة ، أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغباوة والغلظة والخشونة

(١) الخضري : ٣٧ ـ ٣٨ .
(٢) الخضري : ٤١ .
(٣) خضر حسين : ٣ ـ ٤ .
(٤) محمد لطفي جمعة : ٢٦ .

بحيث يمثلهم لنا هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين . . . » وقد رد عليه العلامة محمد الخضر حسين بقوله[1] : « في الشعر الجاهلي معان سامية وحكمة صادقة ، ومن يقرؤه خالي الذهن من كل ما قيل فيه يقضي العجب من ذكاء منشئيه وسعة خيالهم ، وإقصائهم النظر في تأليف المعاني والتصرف في فنون الكلام . . . » وأما الأستاذ الغمراوي فيُنكر أيضاً أن يكون القرآن يمثل العرب في الجاهلية أمة مستنيرة لها حياة عقلية قوية ،وبعد أن يتحدث في ذلك يقول[2] : « فأما الحظ الذي أنفقه القرآن في الجهاد بالحجة فعظيم . لكن عظمه لم يكن ناشئاً عن عظم قدرة على الجدال كانت عند المجادلين ، ولا عن حسن بصرهم بمواطن الحجة ، بل كان ناشئاً عن عظم رسوخ ما كان يجاهده القرآن فيهم من اعتقادات وعادات تأصّلت فيهم على مر القرون ، فالقرآن أنفق ذلك الحظ العظيم في جهاد العادة لا في جهاد مقدرة على المخاصمة . . وإنك لو استقريت مواقف المحاجة التي وردت في القرآن لا تكاد تجد فيها موقفاً قابل المجادلون الحجة فيه بالحجة وقارعوا الدليل بالدليل . . . » ويرى أيضاً أن الدكتور طه « استشهد على ما يريد بآيتين اثنتين ليس فيهما شاهد على ما يريد ، وأنه قد ترك كثيراً من الآيات التي تنقض معناه الذي أراد . . . »[3] .

٣ ـ وذكر الدكتور طه أيضاً أن الشعر الجاهلي يمُثل العرب أمة معتزلة تعيش في صحرائها ، لا تعرف العالم الخارجي ، ولا يعرفها العالم الخارجي ، أما القرآن فيصف عناية العرب بسياسة الفرس والروم وصلاتهم بغيرهم من الأمم . وقد ردّ عليه العلامة محمد الخضر حسين بقوله[4] : « وهل يُصدّق أحد أن من يدرسون الشعر الجاهلي يتصورون العرب أمة معتزلة في صحراء . . . » ثم يورد شعراً جاهليًا فيه دلالات على معرفة العرب بالأمم المجاورة وعلى صلاتهم بهم . أما الأستاذ الغمراوي فقد ذكر أن الدكتور طه « ولم يستشهد على ذلك إلا بآيتين اثنتين جرى في

(١) انظر الخضر حسين: ١٧ ـ ٢٠ ، ٢٢ ،٤٧ ، ٧٠ ، ١٠٠ ، ١١٥ ، ١٧٤ ـ ١٧٧ ، ٢١٢ ـ ٢١٣ . ٢٦٩ ـ ٢٧١ .

(٢) الغمراوي: ١٠٠ .

(٣) الخضر حسين: ١٧ ـ ١٨ .

(٤) الغمراوي: ١٠٠ .

تأويلهما على ذلك النحو الذي رأيت . . » بل إنه يرى أنه ليس في إحدى الآيتين « المعنى الذي أراد ولا ظله » . وقد عجب من أن الدكتور يذهب إلى « أن الأدب الجاهلي على ما هو عليه الآن لا يُبين صلة العرب بالعالم الخارجي ، وأن القرآن وحده هو الذي يبينها »[1] ، مع أنه لم يستقرىء الأدب الجاهلي ولم يوازن بين ما فيه وما في القرآن .

٤ ـ وذكر الدكتور أيضاً أن الشعر الجاهلي لا يُمثل الحياة الاقتصادية والخارجية والداخلية لعرب الجاهلية ، وأن في القرآن وصفاً لهما يصورهما فيه . وقد ردَّ عليه العلامّة محمد الخضر حسين بأنه استشهد على الحياة الاقتصادية الخارجية بآية واحدة ليس فيها إلا إشارة موجزة ، وأن في الشعر الجاهلي تفصيلاً لهذه الإشارة وأورد الأستاذ محمد لطفي جمعة من الشعر الجاهلي ما يرى فيه تصويراً لحياة العرب الاقتصادية الداخلية في الجاهلية . أما الأستاذ الغمراوي فيرى أن « الحق أن الأدب الجاهلي لم يخلُ من هذا . والعجب أن يجهل أستاذ الأدب العربي شيئاً مثل هذا ، فلو أنه قرأ القليل المكتوب عن ابن الزبعرى في طبقات ابن سلام لوجد فيه ما لا يقل في دلالته الاقتصادية عن آية لإيلاف قريش »[2] . . . هذا موضوع واحد من الأدب الجاهلي . ولسنا نشك في وجود مواضع أخرى تدل على ما كان هنالك في الجاهلية من إتصال تجاري محدود بين أطراف جزيرة العرب ووسطها . . وكما لم يُلمّ صاحب الكتاب بمواطن الأدب الجاهلي التي تدل على الحياة الاقتصادية الخارجية كما يجب أن يسميها ، كذلك لم يلم بمواطن الأدب الجاهلي التي تدل على ما يسميه الحياة الإقتصادية الداخلية . . وكما تكلّف وإستنتج الحياة الخارجية كلها من آية واحدة في القرآن ، فقد تكلف واستنتج الحياة الاقتصادية الداخلية من تحريم القرآن الربا وفرضه الصدقات[3] . أما عن زعمه أن الأدب الجاهلي كله لم يذكر الربا فنحن على ثقة من أنه هنا أيضاً لم يستعرض الأدب الجاهلي كله فيحكم عليه من هذه الناحية حكماً مبنيّاً على الواقع . ومع ذلك فمثل هذه النواحي إذا ذُكرت في الأدب لا تُذكر

(١) ص : ٤٧ .
(٢) ص : ٤٨ .
(٣) الشهاب الراصد : ٨٥ ـ ٩٢ .

إلا عرضاً ، لأن التجارة وما اتصل بها من رباً أو غيره ليست من الأمور التي تسمو حتى تصير في متناول الشعر والنثر الأدبي في عصرنا هذا فضلاً عن العصر الجاهلي[1] . فإذا كان الأدب الجاهلي قد خلا حقًّا من ذكر الربا فلن يكون في ذلك دليل على أن الأدب الجاهلي موضوع[2] » .

٥ ـ الدليل اللغوي : وقد أفاض الناقدون في نقد هذا الدليل ونقضه ، وذلك لأنه ، لو صح ، لكان أقوى الحجج التي ساقها المؤلف وأدلها على ما يريد أن يصل إليه . العلامة محمد الخضر حسين يرى أن الدكتور طه قد أخذ هذا الدليل من مرجوليوث ، فأورد بعض كلام الدكتور وما يقابله من كلام مرجوليوث في مقالته التي بسطنا فيها القول . وليس من سبيل إلى ذكر جميع ما ردّ به العلامة محمد الخضر حسين ، فقد فصل القول في رده تفصيلاً ، وحسبنا أن نشير إلى بعضه ، قال[3] « أخذ المؤلف يذكر الشاهد الأقوى على اصطناع الشعر الجاهلي ، وهو أن اللغة القحطانية غير اللغة العدنانية ، والشعر المنسوب إلى بعض شعراء اليمن لا يختلف عن شعر العدنانية ، وهذا مما استشهد به مرجوليوث قبله . . لا ننازع فيما دلت عليه الآثار المخطوطة من أن اللغة القحطانية كانت كلغة أجنبية عن العدنانية ، كما أن مرجوليوث والمؤلف لا ينازعان في أن اللغتين اشتد الاتصال بينهما بعد ظهور الإسلام وأصبحتا كلغة واحدة . والذي نراه قابلاً لأن يكون موضع جدال بيننا وبين مرجوليوث والمؤلف هو حال الاختلاف بين اللغتين في عهد يتقدم ظهور الإسلام بعشرات من السنين، فنحن لا نرى ما يقف أمامنا إذا قلنا: إن الاختلاف بين اللغتين قد خفّ لذلك العهد وزال منه جانب من الفوارق ولم تبق القحطانية من العدنانية بمكان بعيد. والذي جعل اعتقادنا يدنو من هذه النظرية . . أن قبول اللغة القحطانية لأن تتحد مع اللغة العدنانية بعد ظهور الإسلام لا يكون إلا عن تقارب وتشابه هيأهما لأن يكونا لغة واحدة ، فإن انقلاب لغة إلى أخرى تخالفها في مفرداتها وقواعد نحوها وصرفها ليس بالأمر الميسور حتى يمكن حصوله في عشرات قليلة من

(١) ص: ١٤٧ ـ ١٤٨ .
(٢) ص: ٥١ .
(٣) ص: ١٤٨ .

السنين». ثم يرى أن العثور على نقوش باللغة الحميرية يرجع تاريخها إلى المائة والخامسة والسادسة للميلاد لا ينقض هذا الرأي، وذلك لأن التقارب بين اللغتين لم تبدأ به القبائل القحطانية والعدنانية في وقت واحد «بل سبقت إليه القبائل المجاورة للعدنانية ثم لأخذ يتدرج فيما وراءها من القبائل... فالوقوف على أثر مخطوط قبل الإسلام بنحو مائة سنة أو ما دونها إنما يدل على أن سكان الناحية التي انطوت على هذا الأثر لم يزالوا على لسان حمير القديم، وهذا لا ينفي أن يكون غيرها من القبائل القحطانية قد ارتاضت ألسنتهم بلغة تشبه اللغة العدنانية. ومن الممكن القريب أيضاً أن يكون أهل المكان الذي عُثر فيه على هذه المخطوطات الأثرية ينطقون باللغة القريبة من اللغة العدنانية، ولكنهم استمروا في الكتابة على لغتهم التي كانت اللسان الرسمي لسياستهم أو ديانتهم، وقد حكى التاريخ لهذا الوجه نظائر..»[1]، وبعد أن يسرد هذه النظائر يستدل على تقارب اللغتين بما يُروَى في السيرة في خطب الوافدين من أهل اليمن على الرسول صلى الله عليه وسلم، «ولو كانت اللغتان مختلفتين في المفردات وقواعد النحو والصرف لم يسهُل على العدناني أو القحطاني فهم لغة الآخر إلا أن يأخذها بتعلم أو مخالطة غير قليلة»[2]. ثم يتطرق إلى عبارة أبي عمرو بن العلاء التي أوردها الدكتور طه، وأصلها «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»، فقال إن الدكتور مسَّ هذه العبارة «بالتحريف مساً رفيقاً» و«حوَّل قوله: «ولا عربتهم بعربيتنا»، إلى قوله: «وما لغتهم بلغتنا»، لقصد المبالغة في الفصل بين اللغتين وليصرف ذهن القارىء عن أن يفهم من قول أبي عمرو: ولا عربيتهم بعربيتنا، أن تلك اللغة عربية وإنما تختلف عن العدنانية اختلافاً يسوغ له أن يقول: وما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا. ومس المؤلف عبارة أبي عمرو بالتحريف مرة أخرى، فقد حذف قوله: «وأقاصي اليمن»[3]، حتى لا يأخذ منها القراء أن لغة غير الأقاصي، وهي القبائل المجاورة للقبائل المضرية، ليس بين عربيتها وبين عربية مضر هذا الاختلاف». «هذا شأن الاختلاف بين

(١) ص: ١٥٢.

(٢) ص: ٥٧.

(٣) ص: ١٥٢.

الاختلاف». «هذا شأن الاختلاف بين اللغتين، أما تشابه الشعر القحطاني والعدناني فله سبيل غير هذا السبيل، والرأي الذي يوافق إجماع الروايات ويؤيده النظر ولا يعترضه البحث الحديث أن الشعراء في جنوب الجزيرة وشمالها أصبحوا من قبل الإسلام ينظمون الشعر بلهجة واحدة أو متقاربة»[1]. ثم يمضي في بيان رأيه هذا وتفصيله. ثم يرد على هذا الدليل من جانب آخر، قال[2] «ومما يتعذر قبوله أيضاً ان يضع غير اليمانيين أشعاراً في لهجة قرشية ويعزوها إلى القدماء من شعراء اليمن دون أن يجدوا من اليمنيين أو ممن يعرف لهجة شعراء اليمنيين من يُنكر صنيعهم، ويناضلون بحجة أن هذا الشعر غير منطبق على لهجة أولئك الشعراء».

ثم ردّ عليه حديثه عن أن لهجات القبائل العدنانية نفسها، وهي مختلفة، غير ظاهرة في هذا الشعر الجاهلي، فقال[3]: « هذه الشبهة علِّقت بذهن المؤلف فيما علق من مقال مرجوليوث، وهي مطرودة بنظرية وجود لغة أدبية يحتذيها الشعراء على اختلاف قبائلهم منذ عهد الجاهلية ».

وأما الأستاذ محمد لطفي جمعة فيقول[4] : « إعتمد المؤلف على أقوال الرواة ثم يُؤكد لنا أن الرواة يضيفون شيئاً كثيراً من الشعر الجاهلي إلى قوم ينتسبون إلى عرب اليمن . . . ويؤيد مخالفة اللغة القحطانية للغة العرب برواية أحد الرواة وهو أبو عمرو بن العلاء، فكأن الرواة الذين كانوا يعملون اختلاف اللغتين من أقدم الأزمنة رووا، على الرغم من عملهم هذا، شعراً كثيراً بالعربية العدنانية وحملوه على شعراء اليمن . . . وهذا الكلام ظاهر البُطلان، والتلفيق فيه لا يحتاج إلى برهان، لأن الرواية الذي يعرف اختلاف الأمتين واختلاف اللغتين إذا أراد الوضع والاختلاق لا يقع في مثل هذا الخطأ المفضوح سيما وأن المؤلف قال في ص ١٢٠ عن

---

(١) ص: ١٥٣.

(٢) ص: ٦٢ - ٦٢.

(٣) ص: ٧٦.

(٤) ص: ١٥٤.

حماد الراوية : أما حماد فرجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ويدخله في شعره . . . أفيعقل أن راوية كحماد العالم باللغات والمعاني والمذاهب يخطىء مثل هذا الخطأ » ثم يقول[1] : « وكيف يثبت لنا المؤلف أن أبا عمرو بن العلاء أراد اختلاف اللغتين في زمن الجاهلية ، وقد عجز المؤلف عن تحديد زمن هذا الاختلاف لعلمه بجواز تطبيق هذا القول على زمن الراوية أبي عمرو نفسه ، فقد قصد بذلك أن اللهجة العربية الحميرية التي كانت شائعة في زمنه في بقايا حمير بلاد اليمن تخالف اللهجة العربية الفصحى . . . وحينئذ يفلت هذا الدليل من يد مؤلف الشعر الجاهلي » . وبعد أن يتحدث المؤلف عن « اللغة الأدبية » التي كان ينظم بها شعراء الجاهلية أورد أبياتاً من الشعر الجاهلي ما تزال تظهر فيها بقايا من اختلاف اللهجات العدنانية .

وأما الأستاذ الشيخ الخضري فبعد أن تحدث عن هذا الموضوع أورد أدلة الدكتور وأشار إلى تحريفه في النص الذي ذكره أبو عمرو بن العلاء - قال[2] : « وأكثر الشعر اليماني إنما هو لشعراء من سبأ كانوا بالشمال ، وإما بالمدينة وإما بالعراق ، وإما بالصحراء الشمالية وإما بالشام ، أولعرب عدنانيين . فالأستاذ يرى بعد ذلك أنه إذا سلمت مقدمته بأنه كان هناك خلاف بين لغة حمير ولغة عدنان ، فإن ذلك لا ينتج شيئاً ، لأن العربية القديمة عربية حمير لم يؤثر شيء من شعرها ، وابن سلام في الطبقات إنما ساق عبارة أبي عمرو في هذا الصدد وهو نفي أن يكون هناك شعر تصح نسبته إلى عاد وثمود . . . » ، ثم يقول عن اختلاف اللهجات[3] : « لا ندري كيف يظهر في الشعر تباين اللهجات ؟ فإن اللهجة كما قدمنا إنما هي ما يرجع إلى الأداء ، والشيء الواحد قد يُؤدَّى بلهجات مختلفة ، وهو هو في حركاته وسكناته ، كما اختلف الأداء في القرآن نفسه ، والقرآن هو هو » . « لا ندري كيف يكون اختلاف اللهجات مؤثراً في الشعر ، في أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام ؟ . . . لا أفهم تأثير الإمالة والتفخيم في بحر الشعر وقافيته . فإن مُفخِّم الألف

(١) ص : ١٥٥ .

(٢) : ١٥٦ .

(٣) ص : ١٥٧ .

ينشد « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » بألف مفخمة كما ينشدها المميل بألف ممالة ، فلا يتغير في البيت حركة ولا سكون ، وهما اللذان تُبنى عليهما تفاعيل الشعر . وكما لا يتغير شيء من ذلك بالإمالة والتفخيم لا يتغير بالإدغام والإظهار . . .[1] » .

وأما الأستاذ الغمراوي فيتحدث عن هذا الموضوع في صفحات متفرقة من كتابه[2] ، وقد عرض لذكر بعض ما قدمناه ثم قال[3] : إن الدكتور طه قد نبهه النقد منذ أكثر من عام إلى أن ثبوت اختلاف لغة الجنوب عن لغة الشمال ، لو ثبت أنهما كانتا مختلفتين في العصر الجاهلي القريب ، لا يصلح دليلاً على أن أدب يمانية الشمال موضوع لأن قبائل اليمن في الشمال كانت هاجرت من الجنوب إلى الشمال منذ أمد بعيد فلم يكن هنا بد لمن نشأ في الشمال من ذرياتها أن ينشأ على لغة الشمال ويتخذها لغة أدب ولغة خطاب . فجاء صاحب الكتاب هذا العام يجيب عن هذا بلهجة المستوثق مما يقول ، فهل تدري بماذا أجاب ؟ أجاب بأن هجرة فريق من عرب اليمن إلى الشمال غير ثابتة ! وأن صحة يمانية من انتسب إلى اليمن من قبائل الشمال غير ثابتة ! وإذن يسقط ذلك الاعتراض ! إن من المؤلم حقاً أن يلجّ الأستاذ في المماراة إلى هذا الحد ، وينزل به اللجاج إلى هذا الدّرك ، فلا يُدرك أن جوابه هذا مسقط كل ما قال ، وأنه إذا صح أن التاريخ القديم والتاريخ الحديث أجمعا على خطأ ، فلم تكن هجرة ولم تكن في الشمال يمانيون ، لم يكن هناك أدنى شبهة لغوية يمكن أن يُعترض بها على صحة كلام مثل امرىء القيس . إذ يصير امرؤ القيس ومن معه بذلك مضريين ، ويصير من السُّخف أن يقال بعد ذلك إن كلامهم وشعرهم منحول لأن لغته ليست لغة نقوش حميرية اكتشفت في الجنوب . . . » .

ويتحدث الأستاذ الغمراوي حديثاً مفصلاً عن اللهجات ، جاء فيه أن الدكتور طه حسين ذكر في الطبعة الثانية من كتابه « أن اللغة الفصحى الموجودة في القرآن والحديث لغة قريش ، فإذا اعترض القارىء بأن هذه اللغة قد كانت تُفهم في غير

(1) ص : ١٥٨ .

(2) انظر ص : ٧٠ ـ ٧٥ ، ٩٠ ، ٩١ ـ ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ـ ١٠٤ ، ٣٠٠ ـ ٣٠٥ ، ٣٦١ ـ ٣٦٢ .

(3) ص : ٧٠ ـ ٧١ .

قريش في قبائل الحجاز ونجد ، كقيس وتميم المضريتين ، والأوس والخزرج اليمنيتين ، وقبائل اليهود في شمال الحجاز ، كان جواب صاحب الكتاب أنك قد عرفت رأيه « في النسب وانتماء هذه القبائل إلى اليمن أو إلى مضر »! يشير إلى رأيه الذي أورده في فصل الأدب الجاهلي واللغة . وغفل هنا كما غفل هناك عن أن إنكاره نسبة تلك القبائل إلى غير قريش يدخلها في قريش ويذهب باعتراضه على الشعر الجاهلي العدناني من طريق اللهجة كما ذهب هناك باعتراضه على الشعر الجاهلي القحطاني من طريق اللغة »[1] .

* * *

نقد أسباب النحل :

ونتقل بعد ذلك إلى عرض آراء النقاد فيما ذكره الدكتور طه حسين من أسباب نحل الشعر الجاهلي ، وقد جعلها الدكتور ، كما مر بنا خمسة : السياسة ، والدِّين ، والقصص ، والشعوبية ، والرواة .

١ ـ السياسة ونحل الشعر :

أجمع النقاد على أن الدكتور طه لم يورد شيئاً من الشعر الجاهلي الذي دعت السياسة إلى نحله، مع أن فصله معقود لهذا، ومع أنه أطنب في الحديث عن المقدمات الظنية والفروض المتخيلة، ولكنه لم ينته بها إلى النهاية التي يدل عليها عنوان الفصل. قال السيد محمد الخضر حسين[2]: «عقد المؤلف الفصل في نحو عشرين صحيفة قضاها في الحديث عن أمر كتب فيه القدماء والمحدثون، وهو شأن العصبية في صدر الإسلام وعهد الأمويين، وما كان من التهاجي بين بعض شعراء الأنصار وآخرين من قريش. . . ولم يستطع المؤلف أن يضرب في هذا الفصل الطويل مثلاً لشعر جاهلي اخترعته نزعة سياسية. . ومن أراد أن يقرر أن من الشعر الجاهلي ما افتعل لغرض سياسي، ويضع لذلك عنواناً يكتبه بأحرف ممتازة، فليأت

(١) ص: ٧١ ـ ٧٢.

(٢) ص: ٧٣.

ولو بمثل أو مثلين واضحين ويريح القارىء من أقوال لا تقع في عين الموضوع فضلا عما فيها من صبغ بعض الوقائع بألوان لا تلائمها . . .» وقال الأستاذ محمد لطفي جمعة : «وقد سوّد المؤلف تسع صفحات في هذه المسألة وحدها (يقصد المهاجاة بين الأنصار وقريش) وعنوان الفصل «السياسة وانتحال الشعر» اسم فخم وعنوان ضخم ، ولكن اللب منعدم والمقصد غامض! . . . أين السياسة من بحثه وأين الشعر المنتحَل ومن واضع الشعر المنحول؟» وقال أيضاً : «إلى هنا ولا نجد في هذا الفصل الطويل الذي عنونه المؤلف «السياسة وانتحال الشعر» يقصد بذلك الشعر الجاهلي شيئاً خاصاً بانتحال ذلك الشعر الجاهلي. . .» وقال الشيخ محمد الخضري إن الدكتور طه قال: «يستطيع الكاتب في تاريخ الأدب أن يضع سفراً مستقلاً فيما كان لهذه العصبية بين قريش والأنصار من التأثير في شعر الفريقين الذي قالوه في الإسلام وفي الشعر الذي انتحله الفريقان على شعرائهما في الجاهلية»، ثم عقّب عليه بقوله[1]: «مع أن مقدمته الطويلة لم يوجد بها كلمة واحدة تتصل بأن فريقاً من الفريقين اختلق شعراً ونسبه إلى شعرائه في الجاهلية، وإنما الأحاديث كلها في الشعراء الذين كانوا في أول العهد الإسلامي يتقارضون الشعر، وفي العهد الذي يلي ذلك». ويقول أيضاً : «وبعد ذلك كله ألم يكن من واجب المؤلف، وهو أستاذ كبير، أن يذكر لقراء كتابه بعض الشعر الذي وضعته قريش في الإسلام ونسبته إلى بعض شعرائهم في الجاهلية وكان الداعي إلى وضعه السياسة؟ إنه لم يذكر شيئاً من ذلك ، وكل كلامه حول الشعر الذي قيل في العهد الإسلامي، وليس لهذا وضع الشيخ كتابه».

٢ ـ الدِّين ونحل الشعر :

قال السيد محمد الخضر حسين[2]: «ينكر المؤلف كل ما يروى من الشعر والأخبار الممهِّدة للبعثة النبوية، وإنكارها على هذا الوجه إنما تسمعه ممن ربط قلبه على نفي النبوة ، إذ ليس من المحتمل عنده أن يقال فيها شعر أو يرد عنها خبر قبل أن يدعيها صاحبها ، أما الذين يعتقدون بأن نبوة أفضل الخَلق حق فمن الجائز عندهم

(١) ص: ٧٣ ـ ٧٤.
(٢) ص: ٩٢.

أن يسبقها شعر أو خبر يتصل بها، وشأنهم أن يُفصحوا عما يريد في هذا الصدد ويضعوه بمنزلته من الوضع أو الضعف أو الصحة، وكذلك فعل علماء الإسلام فحكموا على جانب مما كان من هذا القبيل بالوضع ، كالأخبار والأشعار المعزوّة إلى قُسّ بن ساعدة» . ثم يعرض لما ذكره الدكتور طه من أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية شعر أمية، وأن هذا وحده كاف لأن يضيع هذا الشعر. فرد عليه بأن في الحديث الصحيح أن النبي استنشد رجلاً شعر أمية فظل ينشده حتى أنشد مائة بيت . وقال إنه لو صح أن النبي نهى عن شعره لكان هذا النهي مقصوراً على قصيدة أمية التي رثى بها قتلى قريش في وقعة بدر، «على أنا نجد هذه القصيدة التي يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن روايتها واردة في بعض كتب السير والمغازي، وقد رواها ابن هشام في نحو ثلاثين بيتاً. . . »[1]، وقال الأستاذ محمد لطفي جمعة: يريد مؤلف كتاب الشعر الجاهلي أن يخدع القارىء ويوهمه أن كل ما ورد في الأدب العربي من نثر وشعر عن الجن ووجودها وأخبارها إنما وضع بعد الإسلام وضعاً لتبرير سورة الجن التي جاءت في الكتاب المنزل على أفصح العرب . . . وأن كل ما نسب إلى العرب في أدبهم من هذه الناحية إنما اصطنع اصطناعاً مجاراة للعقيدة التي اقتضتها هذه السورة القرآنية. والحقيقة أن عرب الجاهلية كانوا يعتقدون بالجن ، ونظموا شعراً جاهلياً كثيراً عن علاقة الجن بالشعر والشعراء وذكرنا بعضه في ص ٥٢ من هذا الكتاب، . . . ولم تكن أمة سامية أو آرية تخلو من الإعتقاد بالجن أو الأرواح الخيرة والشريرة». ثم تحدث عن شعر أمية بن أبي الصلت ، ونفى أن المسلمين محوه أو حاربوه، وأورد شيئاً من شعره. . ، وأما الشيخ الخضري، فيعرض لما تحدث به الدكتور طه من أمر الشعر الممهد للبعثة النبوية ، فيقول الشيخ الخضري إن انتظار بعض علماء العرب وكهانهم وأحبار اليهود ورهبان النصارى لبعثة نبي عربي من المسائل التي ذكرها القرآن، «والمؤلف نفسه قال في الصفحة الثامنة من كتابه: وأنا أزعم مع هذا كله أن العصر الجاهلي القريب من الإسلام لم يضع، وأنا نستطيع أن نتصوره تصوراً واضحاً قوياً صحيحاً ، ولكن بشرط ألا نعتمد على الشعر بل على القرآن من ناحية، والتاريخ والأساطير من ناحية أخرى. . . »[2]، وعرض بعد ذلك

---

(١) ص: ٩٤.

(٢) ص: ١٣٩.

لقول الدكتور طه: «وفي سيرة ابن هشام وغيرها من كتب التاريخ والسير ضروب كثيرة من هذا النوع»، فقال الشيخ الخضري[1] «وهذا الكلام غير صحيح، فقد قرأنا هذه السيرة مرارا، ولا سيما فيما يمهد لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم، فلم نجد بيتاً واحدا في الموضوع الذي ذكره، وإنما الشعر الذي رأيناه في فصل عنوانه: أمر الأربعة المتفرقين عن عبادة الأوثان في طلب الأديان، وفي هذا الفصل قطع شعرية كلها في التوحيد وترك عبادة الأوثان». ثم قال[2]: «ذكر الأستاذ بعد ذلك من منحول الشعر ما أورده المفسرون زاعماً أنهم أوردوه لإثبات عربية القرآن! ثم غلا فقال: فحرصوا أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يُثبت أن الكلمة عربية لا شك في عربيتها». فعقب على ذلك بقوله: «وهذه الجملة فيها غلو وفيها خطأ: أما الغلو ففي قوله إنهم استشهدوا على كل كلمة منه؛ بين أيدينا التفسيرات الكبيران اللذان عُنيا بهذا الاستشهاد أتم عناية، وهما تفسير الإمام الكبير أبي جعفر الطبري وتفسير الكاتب العظيم أبي عمر الزمخشري، ومع ما فيهما من الشواهد الكثيرة فإن ادعاء الإستشهاد على كل كلمة لا يؤيده الواقع، إن شواهد الكشاف عددها ٧٢٧ شاهداً، وليس هذا عدد كلمات القرآن... وأما الخطأ ففي ظنه أن هذه الشواهد كلها جاهلية جيء بها لإثبات عربية القرآن! أكثر هذه الشواهد لشعراء إسلاميين، وقليل منها ما هو لشعراء جاهليين أو مجهولين... وليس الإستشهاد لإثبات عربية القرآن كما يزعم، وإنما هو لبيان مفهوم الكلمات التي يعدها الناس أحياناً غريبة، على أن هذا المعنى قد يُلحظ أحياناً، وهو أن القرآن ليس ببدع في اللغة، وإنما جاء بلغة العرب لم تشذّ فيه كلمة عن مناهجهم».

٣ ـ القصص ونحل الشعر:

وقد ذهب هؤلاء النقاد إلى أن الدكتور لم يأت بشيء جديد لم يذكره القدماء، ولكنه زاد عليهم بأن عمَّم وأطلق أحكاماً كلية. قال السيد محمد الخضر

(١) ص: ١٠٠.
(٢) ص: ١٣٦ ـ ١٣٧.

حسين[1] : « كتب المؤلف في القصص ولم يأت بجديد ، وإنما مدّ يده إلى ما تحدث به الكتّاب من قبله وسماه نظرية له ، ثم إنهال علينا بكُليات عرضها ما بين اليمامة وحضر موت . . » وقال الشيخ محمد الخضري[2] : « قد ذكر المؤلف نفسه ما كان من نَقَدَة الآداب أمام هذا الشعر فقال : « وقد فطن العلماء إلى ما في هذا الشعر من تكلف حيناً ومن سُخف وإسفاف حيناً آخر ، وفطنوا إلى أن بعض هذا الشعر يستحيل أن يكون قد صدر عن الذين يُثبت إليهم ». وهذا هو الذي نريد أن نقوله ، وهو أن النقاد في العصور الماضية لم يقصروا في تمييز طيب الشعر من خبيثه ، وقد عبّدوا الطريق لمن يخلفهم حتى لا يزعجهم كذب كاذب ، أو تلفيق مُلفق ، فيرفضون جميع ما روي من الشعر ، كما فعل مؤلف الشعر الجاهلي ، بل يتبعون سيرة أولئك الأسلاف في النقد الأدبي الذي أساسه الرواية والدراية .

٤ ـ الشعوبية ونحل الشعر:

قال العلامة محمد الخضر حسين إن الدكتور طه عقد فصلاً للشعوبية ونحل الشعر الجاهلي ، ولكنه « لم يُقم دليلا على التلازم بينهما ، بل لم يأت برواية تدل على أن بعض الشعوبية انتحل شعراً جاهليًّا . . . »[3] ، وقال أيضاً بعد أن ذكر أن الدكتور أورد قصصاً عن أبي العباس الأعمى وإسماعيل بن يسار « وزعم أنه وصل بهذا إلى ما كان يريده من تأثير الشعوبية في انتحال الشعر ، ولكنه لم يستطع أن يضرب مثلاً يريك كيف انتحلت الشعوبية شعراً جاهليًّا . . »[4] ، وكذلك قال الأستاذ محمد لطفي جمعة : « لا نجد في هذا الفصل ما يدل على انتحال الشعر الجاهلي »، وأما الشيخ محمد الخضري فذهب إلى أن حديث الدكتور في هذا الفصل عن الشعوبية ونحل الشعر الجاهلي قائم على الفرض والتخيل لا على الحقائق ، وبعد أن ردّ عليه قال[5] : « ومتى كان الأمر كذلك ضعُف مقدار هذا

---

(١) ص : ١٥٤ ـ ١٥٧ .
(٢) ص : ١٠ ـ ١١ .
(٣) ص : ١٥ .
(٤) ص : ١٨ .
(٥) ص : ١٦٢ ـ ١٦٣ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ـ ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٨ .

التخيل وسقط الفرض من أساسه ».

٥ ـ الرواة ونحل الشعر

أشار السيد محمد الخضر حسين إلى ما في حديث الدكتور في هذا الفصل ـ وفي غيره من الفصول ـ من تعميم ومبالغة ، وذلك حين قال الدكتور إن الرواة « بين اثنتين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به العرب ، وإما أن يكونوا من الموالي فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالي . . . » وعقب عليه السيد محمد الخضر حسين بقوله[١] : « ويريد من التأثر ـ بطبيعة السياق ـ الوجه الذي يحمل على صنع الشعر وعزوه إلى الجاهلية ، ومعنى هذا نفي أن يكون لطائفة من الرواة خطة ثابتة وهي ألا يتأثروا بشيء من هذه الأسباب تأثراً يستهينون معه بموبقة الافتراء على الناس كذباً . وهذه المبالغة لا تأويل لها إلا أن المؤلف يحب أن يكون هذا الشعر منحولاً » . ثم تعرض لما تعرض له الدكتور من ذكر حمّاد الراوية وخلف الأحمر، وقال إنهما ليسا «مرجع الرواية كلها ولا أن الطعن فيهما طعن في الرواية جميعا»[٢] . ومع ذلك فقد ذكر بعض الروايات التي تطعن في حماد وخلف ونقدها وبينّ ضعف بعضها . ثم ذكر أن الدكتور رمى أبا عمرو الشيباني بالكذب والوضع ، مع أن أحداً من القدماء لم يرمه بذلك حتى إن خصومه قد وثقوه ، ولم يكتف الدكتور بذلك بل قال عنه : «وأكبر الظن أنه كان يؤجر نفسه للقبائل يجمع لكل واحدة منها شعراً يضيفه إلى شعرائها» فقال السيد محمد الخضر حسين إن إيجار عالم كأبي عمرو الشيباني لا يمكن أن يكون قد حدث من غير أن يتنبه له القدماء ويشيروا إليه[٣] وأن الدكتور لم يبن حكمه هذا إلا على الظن والتخيل .

أما الأستاذ محمد لطفي جمعة فقد رد عليه من وجه آخر وذلك قوله[٤] : « وإن كان بعض المتعاصرين والأنداد من الرواة طعن بعضهم في بعض فليس في الطعن حجة أو دليل على صحة التهمة ، لأن اتحاد الحرفة والمنافسة في الشهرة

---

(١) ص : ١٨٨ .
(٢) ص : ٢٠١ .
(٣) ص : ١٨٤ .
(٤) ص : ١٨٥ .

والمزاحمة على نيل الحظوة قد تدفع ببعض الرواة إلى الحسد والغيرة ، لهذا قال الأقدمون « إن المعاصرة حجاب »، حتى إن رواةً ثقاتٍ كالأصمعي وأبي عبيدة وأبي زيد كانوا يتطاعنون ويضعف كل منهم رواية صاحبه ، ولكن المحققين ينزهونهم عن الكذب . . فلا يجوز إذن أن نأخذ بما يقوله الرواة بعضهم في بعض ، وقد عقد ابن جني فصلا في كتابه « الخصائص » على ما يكون من قدح أكابر الأدباء بعضهم في بعض وتكذيب بعضهم بعضاً ، كرواية المفضل الضبي في حق حمّاد ، وهي لم تُمحص ولم تنتقد وإن صح إسنادها فهي أحقاد معاصرة ، فإن كلام الأقران بعضهم في بعض لا يقدح في العدالة ، وهذا رأي علماء الحديث وجاراهم فيه أهل الأدب حتى قالوا : إن المعاصرة حجاب ، كما قدمنا ».

محمد لطفي جمعة

١٣٠٣ - ١٣٧٢ هـ = ١٨٨٦ - ١٩٥٣م

محام، من كبار الكتاب والخطباء والمترجمين . من أعضاء المجمع العلمي العربي . يجيد الفرنسية والإنكليزية وله إلمام بلغات أخرى. وعمل في الصحافة، ولد ونشأ في الإسكندرية .

له آثار أدبية منها :

- تاريخ فلسفة الإسلام في المشرق والمغرب .
- في نقد كتاب الشعر الجاهلي

وله مجموعة كتب مترجمة منها :

- كتاب الأمير لميكيافلي
- وحكم نابليون

تعريفات

محمّد الخضر حسين

١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ = ١٨٧٤ - ١٩٥٨ م

ولد في بلدة نفطة بتونس ، عالم إسلامي ، أديب باحث يقول الشعر . من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة وعمل على تحرير المغرب العربي ، تخرج من جامع الزيتونة ، ودرّس فيه ، رحل إلى دمشق ، ومنها إلى القاهرة وأصبح عضواً في هيئة كبار العلماء وعين شيخاً للأزهر وكان هادىء الطبع وقوراً ودفن في مقبرة أحمد تيمور وله مجموعة من المؤلفات أبرزها :

- بلاغة القرآن .
- مدارك الشريعة الإسلامية
- حياة اللغة العربية .
- نقض كتاب في الشعر الجاهلي
- نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم .

محمد فريد وجدي

١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ = ١٨٧٨ - ١٩٥٤م

من الكتاب الفضلاء الباحثين .

ولد ونشأ في الإسكندرية

أصدر مجلة الحياة .

تولى تحرير مجلة الأزهر .

له آثار أدبية وفكرية رائعة من أبرزها :

- دائرة معارف القرن الرابع عشر (العشرين)

- كنز العلوم واللغة .

- نقد كتاب الشعر الجاهلي .

- المرأة المسلمة : وهو رد على كتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين .

تعريفات

محمد الخضري

١٢٨٩ ـ ١٣٤٥ هـ . = ١٨٧٢ ـ ١٩٢٧م

محمد بن عفيفي الباجوري المعروف بالخضري فقيه، أصولي ، مؤرخ ، أديب خطيب. ولد بالقاهرة وتخرج بمدرسة دار العلوم ، وعين قاضيا شرعيا في الخرطوم بالسودان ، فمدرسا في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة مدة ١٢ سنة ، وأستاذا للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية ، فوكيلاً لمدرسة القضاء الشرعي فمفتشا بوزارة المعارف المصرية وتوفي بالقاهرة في ٨ شوال . من تصانيفه:

أصول الفقه ،
تاريخ التشريع الإسلامي ،
محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية،
نور اليقين في سيرة سيد المرسلين ،
ومحاضرات في بيان الأخطاء العلمية التاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين.

محمّد أحمد الغمراوي

عالم فاضل، احد المؤسسين الأوائل لجمعيات الشبان المسلمين في مصر، تخرج من دار المعلمين العليا ومن جامعة لندن ، عمل مدرساً بكلية الطب في الجامعة المصرية له عدة مؤلفات منها:

كرامة الاسلام

مرشد المتعلم (ترجمة)

النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي.

الشعر الجاهلي والإسلام[1]

بقلم: الأمير شكيب ارسلان

لينظر القارىء في الأسباب التي زعمها بعضهم لتزوير شعر على لسان شعراء الجاهلية لم تقله شعراء الجاهلية . فقد قالوا : إن الإسلام أراد أن يطمس كل ما تقدمه وأن يمحو كل أثر للأديان السابقة كالوثنية واليهودية والنصرانية والصابئة ، فرفع من بين العرب بعد الإسلام الشعر الجاهلي الحقيقي وتبدل به شعراً مصنوعاً مقلداً به نسق الجاهلية كما يزور بعض الناس قطع العاديات يبيعونها على أنها وجدت في أثناء الحفر تحت الأرض وهي في الحقيقة جديدة في هيئة قديم . إنه لم يقل هذا القول كثير من الأوروبيين، بل الجمهور من مؤرخيهم على أن شعر الجاهلية هو شعر الجاهلية ، ولكن قاله بعضهم وتابعهم على ذلك نزر منا حباً بالشهرة وغراماً بالمخالفة . وقد يكون هناك غرض أو مرض لأنه مما لا مشاحة فيه أن العالم الإسلامي يجتاز أزمة إجتماعية شديدة تتجلى أعراضها تارة في الدِّين، وتارة في اللغة ، وتارة في الزي ، وتارة في السياسة ، وهلم جرا.

«لا مصلحة للإسلام في تعفية آثار ما سبقه»

والجواب عن هذا الزعم يطول جداً إلا أنه يتلخص في الأمور الآتية :

الأول : ليس بضروري لإعلاء كلمة الإسلام أن يلتزم المسلمون تعفية كل أثر من آثار الديانات التي سبقته وأن لا يُبقي لها ذكراً ولا عنها خبراً بل مما يزيد في بيان فضل الإسلام وإظهار طوله وقوته أن يعلم الناس أن قد سبقته أديان عريقة وملل طويلة عريضة عميقة وأنه جاء هو ضعيفاً فما زال يقوى ويتمكن بحول اللّه حتى اقتلع تلك الأديان من جذورها ولم يُبق لها أثراً في جزيرة العرب . ولعمري إن حفظ

[1] من مقدمة كتاب النقد التحليلي لكتاب «في الأدب الجاهلي» باختصار.

ذكرى هاتيك الأديان كان ضرورياً لتبيين الفرق بين الحالة السابقة والحالة اللاحقة وليعلم الناظر المتأمل كيف نقل الإسلام العرب من عبادة الشجر والحجر وأصنام العجين إلى عبادة الإله الواحد الذي لا إله إلا هو ، ومن وأد البنات إلى الرحمة ومن البّغاء إلى العفة ، إلى غير ذلك مما كانوا فيه صاروا إلى عكسه . وحسبك أنهم كانوا منحصرين في فيافي الجزيرة وإنهم لم يكن لهم ملك ولا سلطان وكانت تغزوهم الأعاجم في عُقر دارهم وكانت الأحابيش تقتل رجالهم وتستبيح نساءهم في وسط بلادهم فجاء الإسلام وملكهم أعظم أقطار العالم ومكنهم من نواصي الأمم ، فمن الضروري للبرهان على عظمة ما صنع الإسلام من خير للعرب تذكيرهم بالبيئة السابقة الذليلة ، كما أن تراجم الفاتحين الكبار كقيصر والاسكندر ومحمد الفاتح وصلاح الدين ونابليون وكل الغزاة المشهورين لا تتم ولا يظهر بهاؤها ولا يُعرف فضل الذين تحدث عنهم إلا بذكر الملوك والأمم التي قهرها أولئك الفاتحون وبضدها تتبين الأشياء ويا ليت شعري هل يخسر الإسلام أم يكسب إذا قيل أن العرب في الجاهلية كان منهم قبيلة تعبد صنماً من عجين فلما أصابتها مجاعة أكلته وقال الشاعر في ذلك شعراً ، أيطمس الإسلام شعراً يستدل به على مقدار فضله ؟ إن ذلك لغير معقول .

«القرآن ملآن بذكر الديانات السابقة وأخبارها» .

الثاني : كيف يكون الإسلام تعمّد طمس ذكر الأديان السابقة على حين أن القران المجيد الذي هو مشرق الإسلام وينبوع الإيمان ملان بذكر هذه الأديان السابقة وأخبارها وسيرها ريّان بتعظيم أنبيائها وتكفير من خالفهم ، وهو لا يفتأ يخاطب بني إسرائيل ويذكر نوحاً وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى إلى عيسى بن مريم ، وهناك التعظيم الأعظم ، وهناك كلمة اللّه ألقاها إلى مريم ، وهناك ذكر الحواريين ، وهناك ذكر الرهبان والقسيسين وماذا يريد الإنسان من إحياء ذكرى هؤلاء الأنبياء أكثر مما ورد في القرآن الكريم بل القرآن لا يجعل الإسلام ديناً جديداً ولا ملة مستأنفة بل يجعله ملة إبراهيم حنيفاً إنحرف الناس إلى تُرهات ضلال فجاء يردهم منها إلى المحجة وطال الأمد عليهم فقست قلوبهم فجاء يجدد فيهم بشاشة الايمان ويرقرق ماء الحياة . وكما يؤيد القرآن التوراة يؤيد الإنجيل ويقول انه لم ينزل على قلب محمد صلى ﷺ إلا

تصديقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل والحاصل لا يكاد الإنسان يجد في العربي على سعة بحره كلاماً يكيل به مقدار حماقة أولئك القائلين أن الإسلام زوّر على شعراء الجاهلية شعراً لم يقولوه ورفع من بين أيدي الناس الشعر الذي قالوه وذلك ليمحو ذكر كل ملة جاءت قبله وأثر كل عقيدة سبقته ! عندما يكون القرآن شمس الإسلام من أوله إلى آخره لا تكاد تخلو منه صفحة من أذكار هاتيك الملل والنحل لا بل من أخبار الوثنية نفسها التي ذكر القرآن أصنامهاكاللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى وغيرها من الأصنام.

«ما بأيدينا من الشعر الجاهلي خليق بعصره»

الثالث: يقول هؤلاء السُّخفاء إن أولياء أمر الإسلام انما أرادوا ليطمسوا شعر الجاهلية الأصلي تأييداً للاسلام وإخناء على كل شيء خالفه وانهم صنعوا على ألسن شعراء الجاهلية شعراً لم يقولوه وذلك بعد البعثة بقرون ! والحال أنَّا لا نرى هذا الشعر المصنوع الذي يقولون عنه مؤ يداً الإسلام في شيء أفتراهم محوا شيئاً ثم عملوا عنه نسخة أخرى طبق الأصل ؟ فما فائدة هذا العمل اذاً وهو العمل الذي أُرتكب له التزوير الذي لا يعدل إثمه شيء . إننا نرى الشعر المنسوب الى الجاهلية الذي بين أيدينا نتدارسه شعراً خليقاً بالجاهلية تؤخذ منه جميع أوضاع الجاهلية ، ونرى أُولئك الشعراء مشركين ويهوداً ونصارى وكل فئة شعرها تُشتم منه رائحة دينها . وقد نقل المسلمون أشعارهم كما هي بحذافيرها لم يُسقطوا منها شيئاً ولم يخرموا حرفاً .

وكل ما رواه اليسوعيون من تراجم شعراء النصرانية وأشعارهم انما نقلوه عن مؤلفي المسلمين . وليس بصحيح أن أولئك الشعراء لم يكونوا نصارى وأن النصرانية أضافها مؤلف « شعراء النصرانية » اليهم عمداً بل إن قسما كبيراً من أولئك الشعراء كانوا نصارى بلا خلاف ، وقسماً آخر نصرانيتهم لا يمكن الجزم بها وسواء أكان هؤلاء أم هؤلاء فالذين أوصلوا الى الخلف خبر أنهم نصارى أو أن بعضهم مختلف في نصرانيته هم علماء المسلمين وأن من يقرأ السيرة النبوية وتراجم الصحابة كالطبقات الكبرى لمحمد بن سعد يعرف إن رواة صدر الاسلام لم يكونوا

ليعرفوا نشر شيء وطي شيء من الأخبار والآثار فكل ما اتصل بسمعهم نقلوه وأنهم رووا من الأحداث ما يجوز أن يتخذه الخصم حجة عليهم وما يكون في نظر المجادل أقرب إلى الذم منه الى المدح . وما فعلوا ذلك إلا نصحاً منهم في التبليغ ورغبة في التحري ولقد يبلغون من التدقيق أنهم يوردون عشرين أو ثلاثين رواية كل منهـا بأسانيدها الوافية حتى يملأوا بها عدة صفحات لأجل تحرير جملة واحدة قالها أحد السّلف ويمحصوا كيف كانت تلك الجملة وقد تكون الرواية لا تختلف عن الأخرى إلا بكلمة أو حرف وقد يكون المعنى واحداً وقد وصلوا من هذا المدى الى حد أن عده بعضهم إفراطاً وضياع وقت وعابوه عليهم وتهكّموا بهم . ولكن هذا التهكم لا ينفي شيئاً من الحقيقة وهي أنهم نصحوا في النقل وتثبتوا في الرواية ولم يملوا على الناس خيالاتهم وتصوراتهم ولا تعاوروا كلام الناس بتخرصاتهم بل نقلوا ما نقلوه وتركوا الحكم للقارىء وبالإجمال وصلوا من تحرير الرواية إلى سدرة المنتهى، ورموا في أمر التمحيص فيها أبعد شأو المرتمى ، ولذلك عندما أشرت في إحدى مقالاتي إلى أن خلافة الأربعة الراشدين لم تكن ملكا مطلقاً كما ذهب إليه الأستاذ الشيخ علي عبد الرازق واستندت في ذلك إلى الآثار التي بين أيدينا ونوهـت بمـا كان من التـدقيق والأمانة في النقل عند السلف وجاوبني الأستاذ بشيء من التهـكم من هذه الجهـة أمسكت عن اكمال هذه المناظرة وقلت : من يماري في حقيقة كهذه ليس لأحد حيلة في إقناعه وتركته آسفاً على تمسكه برأيه .

الحكم العربي لا يعرف طريقة كم الأفواه وتقييد الأقلام.

الرابع : إن طريقة كم الأفواه وتقييد الأقلام والأخذ على الخواطر بأفواه الطرق وحبس هذا القول واطلاق ذاك مما يُعبر عنه الأفرنج « بالسانسور » غير معروفة إلا للدول المتمدينة والمجتمعات التي استبحر فيها العمران ولم يقـل أحـد إن سكان المضارب وأن القبائل الرّحل ومن اليهم من سكان القرى التي أهلها على حال البداوة يعرفون هذا الضرب من ضبط الأحكام وينزعون هذا المنزع في الإدارة ولا سمعنا أن أميراً او مقدماً من هؤلاء كان يترصّد الأفواه ويأخـذ عليهـا مذاهبهـا ويستعـرض الخطباء ويستنفض الشعراء عما نثـروا ونظمـوا فيعقـل هذه الجملـة ويطلـق تلك

ويقول : « أما هذا البيت فلا ، وأما هذا فنعم الخ». إن هذا لا يكون عند الأمم التي غلبت عليها سذاجة البداوة وكانت قريبة من الفطرة وأفادتها سكنى البرّية تمام الحرية لا سيما العرب المشهورين بالأنفة وإباء الضيم والهيام بالحرية الى الدرجة التي لم تُعرف لقبيل من الدنيا سواهم فتجد خواطرهم وألسنتهم على أنمط مضاربهم ومساكنهم لا تعرف التقيد بشيء ولا تبغي إلا الانطلاق . وكل أحد يعلم مشربهم في رفع الرسوم وإطراح التكلف والجهل بقواعد التعظيم وسنن التشريف المعروفة للأعاجم وانهم كانوا يخاطبون الرسولﷺ والخلفاء بيا محمد، يا أبا بكر ، يا عمر الخ ، وقد تناقش مرة المؤ رخ التركي أنور باشا مع مؤ رخ تركي آخر في المفاضلة بين العرب والعجم فكان ميل المؤ رخ أنور باشا إلى تفضيل العرب وكان هوى الآخر مع العجم وأخذ كل منهما يُدلي بحجته ، فقال أنور باشا لخصمه في الاستدلال على شمم العرب : انظر الى العجم في لقائهم أمراء الدولة وولاتها كيف يخضعون أمامهم وينكسون أبصارهم ويكادون يقعون على الأرض جُثياً ، وقابل ذلك بطور العرب إذا لقَوا رجال الدولة والولاة فإن العربي يُقابل الوزير ورأسه مرفوع ويمد يده لمصافحته قائلاً له : « كيف حالك يا باشا كأنه يُصافح أحد أقرانه . اهـ . وإنك لتجد هذا في كبيرهم وصغيرهم لا يعرفون الذُّل لا ما ظهر منه ولا ما بطن ، ولا يُطيقون طأطأة الرؤ وس ولا يتحملون التكاليف والرسوم عند الأمم المنغمسة في الحضارة نشأوا على هذا من آلاف السنين وأبوا أن ينتقلوا عنه .

قال بيار لوتي الكاتب الافرنسي الأشهر ، وقد سألوه عند احتضاره : أية أمة أحب إليك من الجميع ؟ فأجاب : المسلمون لأنهم نشؤوا على الفطرة الأصلية وعدم استشعار الهيبة . أفمن كانت هذه أنفتهم وهاتيك شدة خنزواتهم ومن كانوا يقولون للخلفاء في وجوههم ما لا يجرؤ أن يقوله تركي أو فارسي لمختار قريته ، ومن كانوا يقولون لعمر : لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا ، ومن كانوا يقولون لمعاوية : إن السيوف التي قاتلناك بها لفي أغمادها، يقال عنهم أنهم أقيموا على السانسور ، وأخضعوا لبدعة كم الأفواه وذلة بيع الضمائر وعقل الالسنة ، وأن هناك شعراً طوي عمداً لئلا يضر بالدّين والدولة، وأن هناك شعراً نشر عمداً

ووضع وضعاً لأجل التمويه على الناس ، لا والله لم تكن هذه أخلاق العرب ولا يقول هذا عاقل ولا كان الخلفاء في صدر الإسلام ممن يتسفلون إلى هذا الحضيض الأوهد ويطوون أقوالاً منشورة وينشرون أقوالاً مكذوبة احتياطاً من وراء دينهم ولم يكن خامرهم فيه الشك حتى يحتاطوا له بالكذب والبُهت ، بل لم يورد كتاب السيرة النبوية ما أوردوه من الشبهات ومن المطاعن مما قاله أعداء الرسول وأصحابه إلا لأنهم كانوا على بيّنة من أمرهم ، وكانت أقاويل الخصماء لا تزعزع من عقائدهم ، والإسلام منذ ولد ، ولد صحيح البُنية فلم يجد السلف أدنى حاجة الى خدمته بالتمويه وإلى نصرته بالطي والحذف . وكان أشد الناس اعتقاداً بمحمد ﷺ أقربهم إليه ، وأحبهم له ولدينه أعلمهم بأسراره وأوقفهم على عُجَره وبجره مثل زوجته خديجة ومثل رفيقه في حياته أبي بكر ومثل صهره علي ومثل خادمه انس ومثل خادمه الآخر عبد اللّه بن مسعود ، وهلم جرا مما قال الكاتب الانكليزي الشهير في هذا العصر المستر ولزانه من أنصع براهين محمد لأنه لو كان هؤلاء من أقرب الناس اليه لو علموا عليه ما يُريب أو لحظوا أنه كان يقصد الخديعة أو أن سريرته غير علانيته لانفضوا من حوله ولم يتمسكوا بكل كلمة تخرج من فمه ولم يكونوا يبيعونه ارواحهم ويستعذبون الموت في سبيله . إن مثل هذه الأمة الحُرة يجوز ان تقاتله ويجوز أن تسالمه ويجوز أن تنكر دعواه صرحة برحة ويجوز ان تقبلها وتراها خير دين لها واما أن تخدم صاحبها بالكذب والبُهتان فهذا ما لا يقرُّه العقل . ولقد رباهم الرسول على الصدق حتى لقد ورد في الحديث[1] عنه انه « ما كان خلق أبغض اليه من الكذب وما اطلع منه على شيء عند أحد من أصحابه فيبخل له من نفسه حتى يعلم أن أحدث توبة » ورباهم على الخضوع للحق فقد حدّثوا أن يهودياً[2] أسلف الرسول ثلاثين ديناراً إلى أجل معلوم فتركه حتى إذا بقي من الأجل يوم جاءه فقال : « يا محمد اقض حقي فإنكم معاشر بني عبد المطلب مُطل فقال عمر : « يا يهودي أما واللّه لولا مكانه لضربت الذي فيه عيناك . فقال رسول اللّه صلى الله عليه وسلم : غفر اللّه لك يا أبا حفص نحن كنا إلى غير هذا منك أحوج إلى أن تكون أمرتني

(١) لقد صحت أحاديث عديدة في ذم الكذب والنهي عنه .
(٢) حديث اليهودي الذي أسلف النبي صلى الله عليه وسلم صحيح .

بقضاء ما عليَّ وهو إلى أن تكون اعنته في قضاء حقه أحوج. قال: يا يهودي إنما يحل حقك غداً ثم قال: « يا أبا حفص اذهب به إلى الحائط الذي كان سأل اول يوم فإن رضيه فأعطه كذا وكذا صاعاً وزده لما قلت كذا وكذا صاعاً، فإن لم يرض فأعطه ذلك من حائط كذا وكذا قال اليهودي: فأتىْ بي الحائط فرضيت تمره. وأعطاني ما قال رسول اللّه وما أمره من الزيادة له. ومن باب خضوعه للحق أنه كان يقيد من نفسه وأنه أقاد مرة من خدش من نفسه. وعن سعيد بن المسيب: أقاد النبي من نفسه وأقاد أبو بكر من نفسه وأقاد عمر من نفسه. وأخبر سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن شعيب قال: «لما قدم عمر الشام أتاه رجل يستعديه على أمير ضربه فأراد عمر أن يُقيده منه. فقال عمرو بن العاص: أتقيده مني؟ قال: «نعم.» قال: «إذاً لا نعمل لك على عمل. قال: لا أُبالي، ألا أُقيد منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعطي القود[1] من نفسه.» بمثل هذه الأخلاق أحب الصحابة صاحبهم وفدوه بانفسهم وأموالهم وبآبائهم وأمهاتهم. ولو لم يعلموه على هذه الصفة من حب الحق ما هاموا بحبه وما أطاعوه هذه الطاعة كلها، وما تمكن من الغلبة الأخيرة على جميع العرب مع صعوبة مراسها وفرط عُنجهيتها. أفيقال بعد هذا إن خلفاء الإسلام كانوا يأمرون بوضع الأشعار على الألسن الجاهلية ويرتكبون الكذب والتزوير خدمة للإسلام!

«هل اشترك المؤرخون من سائر الملل في مؤامرة السكوت؟».

الخامس: ولنفرض جدلاً أن هؤلاء الخلفاء وهؤلاء العلماء استباحوا ـ والعياذ باللّه ـ الكذب لأجل تعزيز الإسلام وعملوا بقاعدة أوربية المنبت وهي « الغاية تُبرر الواسطة » فليقل لنا مرجليوث أو طه حسين أو أحد ممن يقولون هذه المقالة السخيفة: متى وأين صدر ذلك المرسوم الإمامي بأن يُطوى شعر الجاهلية الاصلي ويُستبدل به شعر جديد مصنوع ويقال إن هذا هو شعر الجاهلية؟ وما اسم الخليفة

---

(١) حديث صحيح

الذي فعل هذه الفعلة ولم يعلم بها أحد على وجه البسيطة ؟ او ما اسم المجمع الإسلامي الذي أصدر هذا القرار وأين ومتى انعقد ؟ أفلا ترى أن المجمع المسيحي الذي قرر الأناجيل الاربعة ورفض ما عداها وقرر إحراقها معروف تاريخه بحذافيره . أفيمكن أن يكون الإسلام قام بعمل كهذا وأجمع عليه إلا بأمر خليفة أو بإجماع أمة ولم يعلم بذلك أحد ؟ فمَن من المؤرخين الشرقيين أو الغربيين قال هذا القول ؟ ولعلهم يقولون ـ والمتعنت لا يقف عن الاستظهار بأية سخافة ـ ان مؤرخي الإسلام قد طووا هذا الخبر أيضاً وتجاهلوا هذا الأمر الذي أُقيمت عليه الأمة وعمسوا هذه الواقعة عمساً ومضت القرون وانطوت الحقب حتى أصبح هذا الأمر في الآخر نسياً منسياً ! ونجاوبهم أن شيئاً في الدنيا لا يختفي وأن كل سر جاوز الاثنين شاع وأن حادثة كهذه عرف بها مئات وألوف يستحيل أن تشيع وأنها إن لم تسجلها الكتب حفظها التواتر من عصر إلى عصر . ثم أن الإسلام لم يكن في علبة مختوم عليها بشمع أحمر ولا في صندوق مقفل بل كان من أول ظهوره مختلطاً بالملل والأمم الأُخرى خصوصاً بعد أن فتح الفتوحات العظيمة ولفّ المشرق بالمغرب وضرب بجرانه على آسية وافريقية وأوربة فلم يبق أمة في الدنيا إلا استولى عليها أو تعرف إليها أو وصلت اليها أخباره بل آثاره فلقد كانت المسكوكات الإسلامية متداولة في أقاصي البلاد الاسكندينافية فإذا فرضنا المحال وأن جميع مؤرخي الاسلام ماتت ضمائرهم ولم يبق عندهم أدنى وجدان ولم يبرز فيهم واحد يقول : يا هؤلاء لا يجوز لنا الكذب وهذا حديث مفترى أفلم يكن هناك مؤرخون نصارى ويهود ومجوس ومؤلفون روم وفرس وهند وقبط وحبش وافرنج الخ .أفخفي هذا الحادث عن جميعهم ولم يعلموا عنه قليلاً ولا كثيراً ولا جاءت عنه كلمة في كتاب مع أنهم تعقبوا الإسلام في كل موضع وتتبعوا عوراته ونشدوا كل حادث يشينه او ينقصه ، ومع أن منهم من افترى عليه البهت ومنهم من وضع من عنده بحقه وان من أهل الكتاب من ألفوا تآليف في عهد الاسلام وفي وسط بلاد الإسلام وطعنوا فيها على دين الاسلام وقرأها المسلمون أفنقول ان هؤلاء المؤرخين من سائر الملل تواطأوا أيضاً مع المسلمين على تلك الأُكذوبة بحق الشعر الجاهلي ولم يتعرضوا لها وعملوا عليها مؤامرة السكوت كما يقال

«من كانت تلك العصابة التي تولت كبر هذا التزوير العبقري؟ . »

السادس: لنقل المحال وإن كل هذه الافتراضات جائزة فيبقى علينا النظر في كيفية نظم هذا الشعر المنسوب إلى الجاهلية ، فليخبرنا مرغليوث أو طه حسين مَن ذا الذي قام بهذا العمل كله بعد الإسلام ، ومن الذي نظم هذه الالوف من القصائد وألقى عليها هذه المسحة مسحة الجاهلية حتى خفي أمر احداثها بعد الاسلام حتى على أعلم علماء اللغة ، ومن رتبها هذا الترتيب وطبقها هذا التطبيق على الرجال والحوادث والأزمنة والأمكنة ؟ فإن هذه القصائد متعلقة بوقائع شهيرة وبرجال معروفين وبأنساب متسلسلة وهي ذات علامات مطابقة حتى ان قسماً من تاريخ الجاهلية مأخوذ منها فمن الذي أحدث هذه الأشعار التي هي بحر لا ساحل له ؟ أكان رجلاً واحداً فَرَى هذا الفَري كله وصنع هذه العجائب والمعجزات وحده ؟ اللهم إن الانفراد بهذا مما تعجز عنه البشر . أم كان هذا الرجل العبقري الذي قام مقام الجاهليين بأسرهم ! معه جماعة يؤازرونه في عمله . فإن كانوا جماعة فمن كانوا ؟ وأين كانوا ؟ ومَن ذكر من خبرهم شيئاً .

«متى وقع النظم على ألسن الجاهليين» . ؟

السابع : نسأل طه حسين ومرجليوث أن يتفضلا علينا بالتبيين متى وقع هذا النظم على ألسن الجاهليين في أي حقبة من حقب الإسلام فإن لهذه المسألة مكاناً خاصاً من الأهمية ، لأنه من المعلوم أن شعر الجاهلية هو الذي منه شواهد النحو والصرف واللغة وأنه الحجة التي يُستشهد بها عند التصحيح . ولما كان قد خفي بزعمهم كون هذا الشعر محدثاً مصنوعاً على أولئك الأئمة الخليل بن أحمد وسيبويه وأبي عمرو والفراء وأبي زيد وابن دريد ، وعلى البصريين والكوفيين الخ ! استشهدوا به في كتبهم وحلقات دروسهم ودونوا هذه الشواهد ، لا بل استخرجوا من تلك المفردات قواعد عامة وسموا ذلك علم النحو وعلم الصرف وعلم اللغة ، وأخذ الخليل من أوزان تلك الأشعار علم العروض . فيجب علينا أن نعرف في أي دور من أدوار الإسلام وقع هذا الوضع وهذا التزوير ، لأنه إن كان في زمان الخلفاء

المتقدمين فيكون وُضاع هذا الشعر ورواته قد عاصروا كثيراً من واضعي النحو وجامعي اللغة ، وعاصروا أبا الأسود الدؤلي ، ولا يُعقل أنهم كانوا في عصر واحد وأن النحاة واللغويين استشهدوا بشعر وضعه أناس في عصرهم عائشون بين أظهرهم ولم يشعروا بما فعلوه والحال ان من عاداتهم أنهم إذا ارتابوا في بيت نبذوه ومنعوا الاستشهاد به . وإن كان هذا الوضع متأخراً الى زمن الخلفاء العباسيين مثلاً فلا يعود ممكناً اي تأويل لقضية الاستشهاد به ان هذا الشعر صُنع بعد أن استشهد به وبعبارة أخرى أنه متأخر عن نفسه . . وهذا محال . فلا يخرجنا من هذا المأزق إلا تعيين تلك الحُقبة التي وُضع فيها هذا الشعر ! . ولما كان الدكتور طه حكم بأنه موضوع مصنوع وان الصحيح منه قليل جداً فلا بد أن يكون بنى حكمه على مقدمات كافية من جملتها معرفة أسماء الصانعين والتاريخ الذي صنعوا فيه ولهذا كنا نود لو جادلنا بالتعيين والتوضيح لأن مجرد الشك لا يكفي مداراً للحكم كما لا يخفى .

«الحقائق لا تكون تحت رحمة الشكوك» .

الثامن : إن طه حسين يعلن فيما سمعت أنه لم يثبت عنده من الكلام العربي الذي ظهر في الجاهلية سوى القرآن . ولا نعلم لماذا لا يعترض على ثبوت المصحف أيضاً ؟ فإن كان ذلك من أجل ثبوته بالتواتر من عهد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى عهد خلفائه الراشدين وان الناس اتفقوا عندما جمعه أبو بكر وكتبه عثمان في المصاحف على أن هذا هو القرآن وان اتفاق هؤلاء المئات والالوف من الحُفاظ لا يمكن أن يكون على باطل فإننا نقول له حينئذٍ إن هناك أموراً وحوادث أخرى قد أثبتها التواتر أيضاً وإن لم يكن بدرجة القرآن من أجل صفته الدينية فلقد ثبت ثبوتاً لا يحُتمل المراء ومنها هذا الشعر المعروف بشعر الجاهلية ، فهذا ثابت بالعقل والنقل وبالدراية والرواية انه شعر قاله شعراء الجاهلية ، وانه ليس بمصنوع ولا منحول بعد الإسلام ، وان المصنوع منه نزر لا يذكر قد نبّه عليه العلماء . وان قال : « الا أن بعض الناس قد طعنوا في صحة نسب الشعر الجاهلي ، قلنا له ولكن التمحل لا

يبطل حقاً ولا يحُق باطلاً ، وإن بعض الغلاة لا جمهورهم يزعمون ان القرآن الكريم أيضاً حذف منه وأُضيف اليه ، وليس هذا القول أكثر من سُخف وهراء وان الحقائق التاريخية لا تبطل بمجرد تعنت متُعنت او جحود جاحد . ولقد ذهب عدد من كتاب اوربة ومؤرخيها وفلاسفتها ان المسيح لم يوجد وانه Mythe أي أسطورة من الأساطير ولكنهم أخطأوا لا لأن الاناجيل ثابتة بالتواتر بالدرجة التي ثبت بها القرآن ولكن لأن الأدلة التي أقاموها أضعف جداً من الأدلة القائمة على مجيء السيد المسيح صلوات اللّه عليه ، حتى ان نابليون عبقري الدهر أورد ريبته في مجيء المسيح أمام أحد العلماء فقال له هذا :يا مولانا انه هكذا يُبطل التاريخ . فسكت نابليون واقتنع ، وكل عاقل يُذعن للحق . فليس الحق اذاً موقوفاً على إثارة شبهة او على نتيجة منطقية مقدماتها فاسدة « كان القدماء أتقياء يحبون الاسلام ويريدون تعزيزه . ومن باب تعزيز الاسلام إلغاء شعر كان قبل الإسلام ، فلذلك ألغى القدماء كل ما قيل قبل الإسلام ووضعوا شعراً آخر بدلاً عنه »! والحقيقة أنه كان القدماء أتقياء يحبون الإسلام ويريدون تعزيزه ، ولكنهم كانوا أتقى من أن يعززوه بالكذب ، وأعقل من أن يجهلوا أن الكذب بئس الدعامة وأنه يضر أضعاف ما ينفع . ثم ان الشعر الجاهلي الذي بين الايدي ليس فيه شيء من باب تعزيز الاسلام فيا ليت شعري لماذا وضعوه ؟ وماذا استفادوا منه في قضيتهم ؟ . وهذا وان كثيرين من هؤلاء الشعراء الجاهليين عاشوا الى زمان الإسلام ويقال لهم المخضرمون ورآهم النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقد جاءه منهم الأعشى ومدحه وقال له :

فآليت لا أرثي لها من كلالة ولا من وجىً حتى تزور محمدا
نبيٌ يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا

ومدحه كعب بن زهير بقصيدة بانت سعاد المشهورة وطرب لها رسول اللّه وألقى إليه ببردته الشريفة . ولما وصل الى قوله :

ان الرسول لسيف يستضاء به مهندٌ من سيوف الهند مسلول

قال له الرسول : من سيوف اللّه . وهكذا سار البيت من بعدها .

ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم زهيراً نفسه بعد أن بلغ من الكبر عتياً وقال : « اللهم أعذني من لسانه . ووفد عليه شعراء وخطباء ووفد على خلفائه من بعده ورآهم الخلفاء وعرفوهم وعرفوا أنهم آباء ذلك الشعر وقال عمر : من أشعر الناس ؟ فصار كلٌ يذكر شاعراً فقال لهم : أشعر الناس صاحب ومن ومن أي زهير في المعلقة . وكل من كان في محيط الخلفاء من صحابة وتابعين وممن رأى ورأى ما رأى كانوا يعرفون هؤلاء الشعراء ويعرفون شعرهم وما اختلفوا فيه ، وان المختلف فيه لنزر لا يذكر كما تقدم ، وما محصٌ العرب شيئاً أكثر مما محصوا الشعر . فإذا كان بعد هذا كله لا يلذ للدكتور طه إلا الشك ،فاليقين لا يزول بالشك كما قال الفقهاء بمثل هذه الطرق في البحث لا يبقى تاريخ كما قال صاحب نابليون لنابليون .

هذا ما عندي من أمر الشعر الجاهلي ، واني لأجده فضولاً بعد أن جال في هذا الميدان فحول وفوا هذا الموضوع حقه فخفروا وأنبطوا وغاصوا فالتقطوا وجالوا فجادوا وأنفسوا وناضلوا فرموا وقرطسوا ، ولو لم يكن من هؤلاء الفحول الصائلين سوى الاستاذ محمد احمد الغمراوي مدرس الكيمياء في كلية الطب في تأليف هذا الكتاب الباهر ذي البيان الساحر والبرهان الذي يقطع الأباهر لكان مغنياً عن جولان التالي مع المجلي وعن مقارنة الامام بالمصلي ، وإنما اردت ان ألقي دلواً في الدلاء، وأكون على هذا الحفل الباهر من جملة الادلاء .

تعريفات

الأمير شكيب ارسلان

١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ = ١٨٦٩ - ١٩٤٦م

ولد في الشويفات في لبنان

عالم بالأدب ، والسياسة ، مؤرخ من أكابر الكتاب ، ينعت بأمير البيان ، من اعضاء المجمع العلمي العربي .

اقام في جنيف نحو ٢٥ عاماً وعاد الى بيروت فتوفي فيها .

عالج السياسة الاسلامية قبل انهيار الدولة العثمانية ، وكان من اشد المتحمسين من انصارها . واضطلع بعد ذلك بالقضايا العربية ، فما ترك ناحية منها إلا تناولها تفصيلاً وإجمالاً .

كثير الانتاج ، من ابرز آثاره

- الحلل الاندلسية
- شوقي
- رشيد رضا
- غزوات العرب في فرنسة وشمالي ايطاليا وفي سويسرا
- حاضر العالم الاسلامي
- ديوان شعر

نقد "الشعر الجاهلي"(١)

بقلم : الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قرأت كتاب « الشعر الجاهلي » وقد كُتب في عنوانه « تأليف طه حسين : أستاذ الآداب العربية بكلية الآداب بالجامعة المصرية » فما أكثر أسماء الهر وما أقلّ الهر بنفسه . . . إن معنى العبارة أن الرجل أستاذ الشعر والكتابة وأساليبهما وما يدخل ذلك من تفسير ونقد ، ثم تاريخ الأدب وتحليله وتصحيح رواياته وجمع مسائله والمقابلة بين نصوصه ثم علوم الأدب المعروفة ، كفنون البلاغة وفنون الرواية ؛ فهذه « الآداب العربية » ؛ ومهما ادعى أستاذها في الجامعة فلن يدعى أنه شاعر ذو مكانة ، ولا أنه كاتب ذو فن ؛ وإذا أسقطنا هذين فماذا يبقى منه إلا ما يتمحل من بعض الأسباب التاريخية ؛ ثم ما غَنَاء هذه الأسباب وتاريخ الأدب قائم على الشعراء والكتاب ، وصاحبنا يرجع في ذلك إلى طبعٍ ضعيف لم تحكمه صناعة الشعر ، ولا راضته مذاهب الخيال ، ولا عهد له بأسرار الإلهام التي صار بها الشاعر شاعراً ونبغ الكاتب كاتباً ، وما هو إلا ما ترى من خلط يسمى علماً ، وجُرأة تكون نقداً ، وتحامل يصبح رأياً ، وتقليد للمستشرقين يسميه إجتهاداً . وغضّ من الأئمة يجعل به الرجل نفسه إماماً ، وهدم أحمق يقول هو البناء وهو التجديد ؛ وما كنا نعرف على التعيين ما الجديد أو التجديد في رأي هذه الطائفة حتى رأينا أستاذ الجامعة يقرر في مواضع كثيرة من كتابه أنه هو الشك ؛ ومعنى ذلك أنك إن عجزت عن نص جديد تقرر به شيئاً جديداً فشُكَّ في النص القديم ، فحسبك ذلك شيئاً تُعرف به ، ومذهباً تُجادل فيه ؛ لأن للمنطق قاعدتين : إحداهما تصحيح الفاسد بالقياس والبرهان ، والأخرى إفساد الصحيح بالجدل والمكابرة .

---

(١) عن كتاب : « تحت راية القرآن » بعنوان : « قال : إنما أوتيته على علم» .

ومَثَلُ طه والقدماء مَثَلُ رجلين من أهل المنطق أحدهما قال : هذا اللون أسود فلا يجوز أن يكون أبيض ، والآخر ـ الحسيني . . . قال : كلا بل هذا اللون ليس بأبيض فيجوز أن لا يكون أسود ، وما الفصل بين يجوز ألا لا يكون ولا يجوز أن يكون إلا موهبة من الله إذا هي لم توجد لم يُغن البرهان من الحق شيئاً ؛ ولا يزال أحد الرجلين مع الآخر في لجاج ومكابرة قد تَهاتَرتْ بيِّناتهما وسقطت ، لأن المنطق لا يصح منه إلا ما صحح العقل منه ، فحيث لا قيمة للعقل فلا قيمة للمنطق .

وانه لولا ضعف خيال الدكتور طه وبعدُه من الصناعة الفنية في الأدب واستسلامه لتقليد الزنادقة وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية ، ثم لولا هذه العصبية الممقوتة التي نشأت فيه من هاتين الصفتين إلى صفات أخرى يعرفها من نفسه حق المعرفة ، لكان قريباً من الصحة فيما يرى ، ولتدبّر الأمور بأسبابها القريبة منها واستعان عليها بما يصلحها ، ولتوقى بذلك جناية التهجم التي هي في أكثر أحوالها علم الجهلاء وقوة الضعفى وكياسة الحمقى وعقل المغرورين .

على أن العصبية هي دائما نصف الجهل وإن كانت في أعلم الناس وأذكاهم ، وقديماً أفسدت من تاريخ الأدب العربي أكثر مما أفسد الغلطوالجهل معاً . وقد نصوا على أن ذهاب الواضح الجلي من الأدب الذي لا يُمترى فيه إنما يكون على اثنين : أحدهما : من لم يكن مُرتاضاً بالصناعة متدربا بالنقد بصيرا بما يأتي ويدع ، والثاني: الرجل العالم يعرف أنه يعرف ثم تحمله العصبية على دفع العيان وجحد المشاهد فلا يزيد على التعرض للفضيحة والأشتهار بالجور والتحامل[1] .

هذا في العالم المتدرب المرتاض ، فكيف بالعصبية في العالم القائم على ركن واحد من ثلاثة أركان ؟ فإن أستاذ الآداب يجب أن يجمع إلى الإحاطة بتاريخها وتقصّي موادها ذوقاً فنيا مهذباً مصقولا ، وليس يمكن أن يأتي له هذا الذوق إلا من

---

(١) قال الجاحظ في بعض رسائله : قال أهل الفطن : إن محض العمى التقليدي في الزندقة ، لأنها إذا رسخت في قلب امرىء تقليداً أطالت جرأته واستغلق على أهل الجدل إفهامه . قلنا وما أصحابنا المجدّدين إلا من هو مقلد في الزندقة ، فلا عجب طالت الجرأة منهم واستغلقوا .

إبداع في صناعتي الشعر والنثر ، ثم يجمع إلى هذين الإحاطة والذوق تلك الموهبة الغربية التي تلف بين العلم والفكر والمخيلة فتبدع من المؤ رخ الفيلسوف الشاعر العالم شخصاً فوق هؤلاء جميعاً هو الذي نسميه الناقد الأدبي .

متى لم تجد الخيال القوي في مؤ رخ الأدب ، ومتى رأيت هدا المؤ رخ لا يتوكا إلا على المنطق والمقاييس والأوزان . فاقذف به وبتاريخه وأدبه وآرائه حيث شئت ؛ فإنه لا يمتنع في يدك ولا يستعصي عليك ؛ لأن سكونه واستقراره ـ ولو كانا على كرسي الجامعة ـ لا يأتيان من أنه وثيق ركين ، ولا من أن أصوله شابكة متصلة ، بل من سكون الريح من حوله وحياطته بالأستار من هنا وهنا ؛ فإن صاحب العلم رجل وصاحب الفن رجل غيره ؛ والأصل في العلم العقل ، والأصل في الفن الغريزة ، ودليل العقل المنطق[1] والقياس ، ودليل الغريزة الحس والموهبة .

والأدب من العلوم كالأعصاب من الجسم : هي أدق ما فيه ولكنها مع ذلك هي الحياة والخلق والقوة والإبداع ، ولا تقاس بمقياس العظام المشبوحة الغليظة ، ولا توزن بميزان العضلات المكتنزة الشديدة . ولا ينفع فيها المتر ولا الكيلو . . . فإن جاءك صاحب المتر أو الكيلو فاقذف به الطريق وإن قال لك إن المتر مقسم إلى مائة جزء وكل جزء إلى عشرة أجزاء .

* * *

قبل أن نخوض في كتاب الأستاذ طه حسين نشكر له ما تفضل به من الثناء علينا في كتابه واستثناءه إيانا في بعض المعاني من كل من درسوا تاريخ الآداب العربية ، ونحن دون هذا في نفسنا ودون ما أبلغنا إياه مع بعض أصدقائنا[2] وإن كنا نعرف من صنيع الأستاذ الفاضل أنه لا ينصفنا مرة إلا بعد أن يظلمنا مراراً ، وأنه اتخذ الوقيعة فينا مذهباً عُرف به وغلب عليه ، حتى لا يكاد يقول أنصار القديم أو يكتب أنصار القديم أو يذم أنصار القديم إلا توجه ذلك عنده إلينا خالصاً لنا من

(١) لقد ذم علماء السلف المنطق ونهوا عن تعلمه ، وهو نوع من الفلسفة لا يوصل الى الحقيقة .

(٢) تستحي من إيراد ما أبلغنا الصديق ، ولكن كل مبالغة فيما وصفنا به الواصفون إلى اليوم تقع دون ما تفضل به الأستاذ علينا وله الشكر لقاء ما أثنى!

دون المؤمنين . . . وهو لو عافاه اللّه من التعنت بعلمه على الناس ، ورزقه نعمة الوقوف عند حده وحفظ عليه الفضيلة الشرقية الإسلامية ، لربحناه ربح الذهب والفضة ؛ ولكننا كيفما عاملنا به في سوق الشرق والغرب لم نجده في يد الشرق إلا نحاساً وفي يد الغرب إلا ذهباً ، فهو دينار ولكن في الديون التي علينا ، أما في الديون التي لنا فلا تحسب لنا إلا . . . « بقرش خردة » .

إلتمسنا في كتاب الشعر الجاهلي تلك المسائل الأربع التي رفعناها إلى الجامعة فإذا الأستاذ قد حذف منه أعظمها خطراً وأكبرها شأناً ، وهي مسألة محو المسلمين شعر النصارى واليهود ، لم يقل فيها شيئاً ولا أشار إليها إلا إشارة خفيفة ، كأن في الأمر أثراً من حزم الأستاذ الكبير مدير الجامعة .

فقال في صفحة ٨٤ عن أمية بن أبي الصَّلت : « إنه وقف من النبي صلى اللّه عليه وسلم موقف الخصومة : هجا أصحابه وأيد مخالفيه . ورثى قتلى بدر من المشركين ، وكان هذا وحده يكفي للنهي عن رواية شعره ، وليضيع هذا الشعر كما ضاعت الكثرة المطلقة من الشعر الوثني الذي هُجِيَ فيه النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه حين كانت الخصومة شديدة بينه وبين مخالفيه من العرب الوثنيين واليهود .

وقال في صفحة ٩٥ : « ليس إذن شعر أمية بن أبي الصلت بدعاً في شعر المتحنفين من العرب أو المتنصرّين والمتهودين منهم ، وليس يمكن أن يكون المسلمون قد تعمدوا محوه إلا ما كان منه هجاء النبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه ونعياً على الإسلام ؛ فقد سلك المسلمون فيه مسلكهم في غيره من الشعر الذي أهمل حتى ضاع » .

فأنت ترى أن ها هنا شيئاً من الإصلاح والحذف والاحتراس ، وبقي أن أستاذ الجامعة إنخدع بقول كليمان هوار المستشرق الإفرنسي فيما زعم من أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نهى عن رواية شعر أمية ، فتابعه طه وظن ذلك صحيحاً ، غير أنه علل النهي بغير العلة الحمقاء السخيفة التي جاء بها هذا المستشرق[1] ولكن ما الدليل على

(١) يرى هذا الرجل ان شعر أمية مصدر من مصادر القرآن . . . أخذ بعض القرآن منه فلذلك وقع النهي عن روايته، وليس في الجهل أجهلُ من هذا، ولكنه مع ذلك قول أستاذ مستشرق اسمه كليمان هوار .

صحة خبر النهي وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى اللّه عليه وسلم استنشد من شعر أمية وما زال يقول للمنشد « إيه إيه » حتى إستوفى مائة بيت !

إن هؤلاء المستشرقين أجرأ الناس على الكذب ووضع النصوص المبالغة في العبارة متى تعلق الأمر بالإسلام أو بسبب يتصل به ، وكل ما عُرف من أمر ذلك النهي أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نهى عن رواية القصيدة التي رثى بها أمية قتلى المشركين في بدر ، وهي مع ذلك لا تزال مروية في كتب السيرة إلى اليوم ؛ فإن وقوع النهي لا يقتضي محو المنهي عنه ولا تركه عندما أراده ، وقد نهى اللّه عن أشياء كثيرة ما زالت تُؤتى ، وستبقى ما بقيت الفطرة الإنسانية ؛ فما أهمل شعر أُمية ولا نهي عن روايته ، ولكنه الكذب والغفلة من الأستاذين .

على أن الدكتور طه يقول في صفحة ٥٤ : كان الأنصار يكتبون هجاءهم لقريش ويحرصون على أن لا يضيع . .

فكيف ضاعت إذن « الكثرة المطلقة » ؟ وما يمنع قريشاً أن يكتبوا هجاءهم كما فعل الأنصار ؟ وإذا كانوا يكتبون مثل هذا فذلك نصٌ على أنه لا حرج من روايته !

لقد كتب شيخ الأدب صديقنا الأمير شكيب أرسلان ما فيه الكفاية للرد على أستاذ الجامعة في بناء التاريخ على التحكم والإفتراض وزعمه أن المسلمين محوا شعر النصارى واليهود أو تسببوا إلى محوه ، فلا نطيل في هذا المعنى ، غير أننا نضيف إلى ما قاله شيخنا الجليل أنه لما أُسر سهيل بن عمرو من مشركي قريش ، وكان أعلم - أي مشقوق الشفة السفلى - وأرادت قريش فداءه ، قال عمر بن الخطاب للنبي صلى اللّه عليه وسلم : إنتزع ثَنِيَّتي سهيل بن عمرو السُّفليين يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً ! فأبى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأطلق الرجل ؛ فلو أنه كان يمحو شيئاً أو يأمر بشيء في توقّي الكلام وإبطاله لمحا أكبر وسائل الخطابة في هذا الخطيب المشرك ، ولتركه ما يُبين حرفاً من حرف ولا يقيم الكلام على أصواته فلا يُفلح بعدها في الخطابة أبداً .

وما يزال المسلمون يرون إلى اليوم قول ابن الزبعري[1] في الرد على النبي صلى الله عليه وسلم :

حياة ثم موت ثم نشر حديثٌ خرافة يا أم عمرو!

وقول ذلك اليهودي حين ضلت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم : يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته.

وهنا نريد أن نقول للدكتور طه : إن بُعده من صناعة الشعر هو الذي أوقعه في هذا الرأي السخيف ؛ فلو نظم اليهودي هذه الكلمة فما عسى أن تزيد على ما قال ؟ وهل شعر النصارى واليهود إلا كشعر سائر العرب في الفخر والهجاء والوصف والنسيب وغيرها ؟ أم حسب الدكتور أن شعر النصراني يجب أن يكون في عقائده وإنجيله ، وشعر اليهودي في توراته وتجارته . . . ولعله لا يعلم أن أضعف ما يكون الشعر في الصناعة إذا هو تناول هذه المعاني وأشباهها كما يقع في شعر العلماء والمتصوفة[2] ، حتى قالوا إن شعر حسّان بن ثابت نزل في الإسلام إلى دون ما كان عليه في الجاهلية قال الأصمعي : الشعر إذا أدخلته في باب الخير لاَنَ ـ أي ضعف ـ ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام؛ فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي النبي صلى الله عليه وسلم وحمزة وجعفر رضوان الله عليهما وغيرهم لاَنَ شعره.

وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول ، مثل أمرىء القيس وزهير والنابغة ، من صفات الديار والترحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فإذا أدخلته في باب الخير لان . إنتهى .

على أن شعر اليهود والنصارى كان متميزاً في الرواية فإن لم يكن وقع إلينا فذلك لسقوط الرواية وضياع الكتب لا لضياع الشعر في نفسه بإهمال المسلمين . وقد ضاعت معان كثيرة من عادات الجاهلية وأعمالها مما أبطله الإسلام أو لم يبطله ، ومع ذلك أدَّاها الشعر ولم يتحرج العلماء من روايته ؛ وهذا ابن قتيبة يقول في كتاب

(١) ينسب هذا البيت لأبي نواس أيضا ، ولديك الجن .

(٢) ينبغي ان تكون من شعر المتصوفة على حذر، فإن فيه كثيراً من الانحراف والتحذير والبعد عن الإسلام.

« الميسر والقداح » : إن الميسر أمر من الجاهلية قطعه اللّه بالإسلام ، فلم يبق عند الأعراب إلا النبذ اليسير منه ، وعند علمائنا إلا ما أدى إليهم الشعر القديم .

وقد كتب الجاحظ فيما روي قال : « أدركت رواة المستجدين والمربُدتين ومن لم يرو أشعار المجّانين ولصوص الأعراب ونسيب الأعراب والأرجاز الأعرابية القصار وأشعار اليهود فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة » فهذا نص على أن رواية شعر اليهود كانت في الإسلام باباً خاصا من أبواب الرواية ونوعا متميزاً من طرائف الشعر[1] .

وللإمام المرزباني كتاب قالوا إنه في أكثر من خمسة آلاف ورقة ، كسره على اثنى عشر باباً منها باب خاص بديانات الشعراء في أشعارهم ومنهم اليهود والنصارى .

إن أستاذ الجامعة ليعلم علماً لا يدخله الشك الذي يتباهى به . . . أن كتب السّلف لم تنته إلينا بجملتها ، ولا إنتهى أكثرها ، ولا ما يقال فيه إنه كثير ، وإن الرواية لم تتأد إلينا بما كانت تحمل من ذلك العلم المستطيل من الأشعار والأخبار والنقد ؛ فكيف يجوز له أن يحكم على شعر الجاهلية بأنه موضوع أو محمول على أهله ، أو الكثرة المطلقة منه موضوعة محمولة ، وهو لا يروي هذا الشعر ، وهو لا يعرف ما مقداره ، ولا يحيط بأقله فضلا عن أكثره ؟ وقد قالوا إن ابن الأعرابي أملى وحده من الشعر أحمالا ، فأين هذه الأحمال اليوم حتى يقابل ما فيها بعضه ببعض ، ومن الذي يستطيع في عصرنا أن يقول في الشعر : هذا يشبه شعر الجاهلية وهذا لا يشبهه ، والتوليد في هذا بيّن والصنعة في ذلك ظاهرة ، وهذا بقول فلان أشبهُ وهذا ليس من نسج فلان ولا من طبقته ، وذلك منحول رويناه في شعر فلان . . الخ الخ ؟

وقد وضع ابن سلاّم كتاباً في طبقات فحول شعراء الجاهليين لا يُعرف إلا اسمه ، أفتحسب راويةً مثله يضع في أوائل القرن الثالث كتاباً في أسماء هؤلاء

---

(١) قال الجاحظ في رسالة الرد على النصارى ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب معروفاً عند أهل النسب ، ولولا ذلك لدللت عليها بالأشعار المعروفة .

« الفحول » وليس بين يديه من شعرهم الكثير الصحيح قد غُربل ونخل ونُقي منه الموضوع والمنحول وما تقولته العشائر بأهوائها وما دسّه الرواة بسبب من أسبابهم؟

نحن لا ندفع أن يكون فيما يُعزى إلى الجاهلية شعر محمول على أهلها حملا ، وشعر قد نحلوهم إياه من كلام الشعراء المغمورين ؛ وقد بينا ذلك في تاريخ آداب العرب » في باب الرواية والرواة من الجزء الأول ، وهو الباب الذي بنى عليه الدكتور طه كتابه في الشعر الجاهلي .

ولكن بيننا وبين الجاهلية ثم من نقلوا عنها أزمانا متناسخة كادت توفي خمسة عشر قرنا ، وقد باد أكثر الكتب وذهبت فيها أقوال الرواة وعلم العلماء مما حققوه ونصوا عليه ، وما تسامحوا فيه وتوسعوا به ؛ فلا يجوز لكائن من كان بين قطبي الأرض أن يثبت أو يُنكر أو يزيد أو ينقص إلا بنص عن المتقدمين؛ لأن هذا العلم لا يمكن أن يستقيم على اتباع الظن ، ولا أن يصحّ على الشك ، فإن محل الفرض والتخمين والحدس والاستنتاج إنما يجيء بعد أن تجتمع المادة من أطرافها بحيث لا يشذّ منها إلا القليل الذي يفرض فيه لقلته أنه لا ينقض حكما ولا يبطل رأياً ، للإستغناء بالنصوص الأخرى المتوافرة التي تتحقق بها غلبة الظن إن لم يأت منها اليقين . والأمر في يد أستاذ الجامعة المبتلى بالشك على النقيض من ذلك فلا هو يستطيع أن يردّ ما ذهب من الكتب فيستوعبها ، ولا هو يمكنه أن يطلع على كل ما هو مُبعثر في زوايا الدنيا من الكتب التي لم تذهب . ولا هو اطلع على كل ما تناله أيدي الأدباء : ثلاث درجات يسفل بعضها عن بعض ، فالعجب الذي ليس مثله عجب أن يكون الأستاذ ناقصاً هذا النقص كله ثم يزعم أنه يدعو إلى الطريقة العلمية في تاريخ الأدب ، وأنه يُمحِص ويُحقق ، ويثبت وينفي ، ويُوقن ويشك ؛ وهذا هو المضحك من أمره فإن أخص شروط الطريقة العلمية في درس التاريخ وكتابته أن يستوعب المؤرخ كلَّ ما قيل وكُتب في موضعه ، مما يتعلق بحادث أو شخص أو موضع ، لا يفوته من ذلك شيء فإذا هو أتى على المادة ووضع يده منها حيث أراد وأمن أن يكون قد ندَّ عنه أمر ذوبال جاء مشرط الثاني لهذه الطريقة ، ووجب حينئذٍ أن ينتفي من أهوائه ونزعاته ، ويتجرد من شخصه الإنساني ، ليصبح في عمله شخصاً ، كما يتجرد القاضي ليكون في قضائه شخصاً قانونياً ليس غير ! بيْدَ أن طه

تجرد قبل أن يلبس . . وهذا نوع من الهزل إن احتُمل من كاتب في صحيفة لا يحُتمل من مدرس في جامعة !

ومع أن الطريقة العلمية قائمة على استقراء المادة والإحاطة بها من جميع جهاتها ؛ فهي لا تخرج التاريخ نفسه كما هو في الواقع ، وإنما تجيء برأي فيه يكون معياره دائماً ذكاء صاحبه وعقله وخياله ؛ ولهذا اشترطوا في صاحب تلك الطريقة أن يكون ممن رُزقوا البراعة كل البراعة في إصابة الحدس وقوة الخاطر وسمو الخيال ، وإلا خرج عمله بلا معنى ، أو بمعنى لا قيمة له ، أو بقيمة ضعيفة تنزل من التاريخ منزلة الهيكل العظمي من الجسم الحي .

وضع الإمام المرزباني كتابا غير الكتاب الذي أومأنا إليه آنفاً قال ابن النديم إنه أكثر من خمسة آلاف ورقة أتى فيه على أخبار (الشعراء المشهورين) من الجاهلية ، وبدأ بامرىء القيس وطبقته ، ثم المخضرمين ، ثم الإسلاميين إلى أول الدولة العباسية ، فهذه أخبار شعراء مائتي سنة من التاريخ ، بل المشهورين منهم ، وقد كُتبت في خمسة آلاف ورقة ، أي عشرة آلاف صفحة ، لم ينته إلينا منها صفحة واحدة ، فكيف مع ضياعها وضياع الكثير من أمثال هذا الكتاب الجامع الممتع يقبل عقلا من مؤرخ علمي يجلس في كرسي التحقيق أن يقرر مثل هذا الهُراء الذي جاءنا به الدكتور طه حسين في إنكار الشعر وإثباته ؛ على حين أنه مع هذا النقص الفاضح تنقصه كذلك ملكة الشعر ، فما هو بشاعر يدرك بالحس كما أدرك مثل ذي الرمة حين سئل عن شعر أنشده حماد الراوية في مدح بلال بن أبي بردة فقال إنه جيد وليس له ، فلما عزم بلال على حماد ليخبرنه قال : إن الشعر قديم ولا يرويه غيريَ وقد انتحلته . ولجرير والفرزدق وغيرهما من الشعراء أخبار كثيرة من مثل هذا ، يقرؤون بنفوسهم كما يقرؤون بأعينهم ؛ فلا يحسن أن يقول المؤرخ في الشعر إلا إذا كان شاعراً يُوثق بملكته ، فإن الحس والملكة من أقوى أسباب الرأي في مثل ذلك .

ومع نقص النقص في أستاذ الجامعة فهو لا يحُسن نقد الشعر ، لأن النقد قائم بالملكة والفهم لا بالفهم وحده ، ولم ينتقد في كتابه الشعر الجاهلي نقداً فنياً إلا بيتاً واحداً من قصيدة عمرو بن كلثوم المعروفة بالمعلقة ، وهو قوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قال الأستاذ : «قلت إن هذا البيت يمثل إباء البدوي للضيم ، ولكني أسرع . . فأقول إنه لا يمثل سلاسة الطبع البدوي وإعراضه عن تكرار إلى هذا الحد الممل فقد كثرت هذه الجيمات والهاءات واللامات واشتد هذا الجهل حتى مل » انتهى . قلنا ليته لم يسرع ولم يفرح بهذا الخاطر ، فقد عثر من إسراعه فامتلأ فمه تراباً ؛ ومتى كان الأستاذ طه حسين يفطن إلى عيب تكرار الحروف وهو الذي كانت تضرب به الأمثال في التكرار قبل أن نلقنه ذلك الدرس في جريدة السياسة ، وهو لم يبرأ بعد من هذه العلة ، فقد رأينا له مقالا في مقتطف شهر مارس من هذه السنة ١٩٢٦ جاءت فيه هذه الشأشة . . « يمضي حيث يشاء ويصور الأشياء كما يشاء لا كما تشاء الأشياء » فتأمل .

نقول لأستاذ الجامعة : إن التكرار في بيت عمرو بن كلثوم هو سرُّ البلاغة فيه ، وهو اللون الذي نقضه الشاعر من ألوان روحه على المعنى ليخلقه خلقاً حياً بحيث لو لم يكن هذا التكرار لضَعُف المعنى وسقطت رتبة الشعر ، فإن هذا الشاعر يمثل في البيت غضب قومه وحِفاظهم وقدرتهم على المجازاة والنقمة والأخذ الشديد لمن عزّوهان ، فلم يقل : إذا جهل أحد علينا فعلنا وفعلنا ، وكان يستطيعه إذا جعل البيت : متى ما يجهلن أحد علينا جهلنا . . . الخ ، بل نبّه أولاً بقوله « ألا » ثم نهى بعد ذلك أن يجهل أحد عليهم ، ليشعر أن لقومه الأمر والنّهي ، فهذه واحدة ، ثم كرر بعد ذلك لفظ الجهل بالفعل والمصدر واسم الفعل ، ومضى به إلى منقطع الشعر جهلاً بعد جهل ؛ ليشعر النفوس أن انتقامهم بلاء لا آخر له ، يتتابع فيه الجهل الذي لا عقل معه فلا رحمة فيه ، وكأنه يقول : إن الصاع بثلاثة ، وإن من أساء إلينا واحدة رددناها عليه ثلاثاً ؛ وكل ذلك إنما أفادة التكرار ، وهذا هو غضب الطبع البدوي وحفيظته ؛ فلا تنتظر من هذا الطبع الحر سلاسة ولا رِقة في موقف الغضب والتحذير وإنذاره أعداءه البطشة الكبرى ، بل ترقب الهول الهائل التي تمثله لك الجيمات والهاءات واللامات إذا ملأ بها شدقيه عربي جهير الصوت فخم الإنشاد ثائر العاطفة غضوب الدم يهدر بالكلام هديراً ؛ أفرأيت يا أستاذ الجامعة ؟

***

من أقبح ما في كتاب الدكتور طه حسين أنه يعلن في مقدمته تجرده من دينه عند البحث، يريد أن يأخذ النشء بذلك، اتباعاً لمذهب ديكارت الفلسفي[1] الذي يقضي على الباحث بالتجرد من كل شيء عندما يبحث عن الحقيقة؛ قال الأستاذ: «يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتها «وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به».

وهذا لعمري هو منتهى الجهل، فإن هناك فرقاً بين البحث عن حقيقة فلسفية عقلية محضة؛ وبين البحث عن حقيقة أدبية تاريخية قائمة على النص وقول فلان وفلان؛ وإذا هو نسى دينه (وتأمل ما في هذه العبارة) فماذا يكون من أثر هذا التاريخ ما دامت المادة التاريخية لم تجتمع له كما أسلفنا، وما دام الأستاذ مبتلى بالنقص من كل جهة.

أما إنه قد نسي دينه حقيقة في رده على كليمان هوار المستشرق الفرنسي الذي زعم أنه اهتدى إلى مصدر عربي من مصادر القرآن هو شعر أمية ابن أبي الصّلت (الذي يجب أن يكون النبي قد استعان به كثيراً أو قليلاً في نظم القرآن، كما جاء في كتاب طه؛ (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً،) وقد كان رد أستاذ الجامعة الذي نسي دينه أنه أنكر الاستعانة بشعر أمية ولكنه لم يرد على حماقة

---

(١) فيلسوف فرنسي توفي سنة ١٦٥٠م. وله المذهب الفلسفي المنسوب إليه القائم على هذه الكلمة: أنا أفكر فأنا إذن موجود. وخلاصة مذهبه أن لا نقر حقاً لست على بينة من أنه حق، وأن لا تقطع بالرأي حتى تكون على يقين من أنك محصته ولم يفتك نص ولا شيء مما تستعين به، وأن تجزىء كل مشكلة تمتحنها الى الأجزاء التي لا يكون الحل بدونها حلاً، وأن تجري في التفكير على نظام تدريجي من السهل الى ما فوقه.
وقد ثبت أن طه لم يفهم هذا المذهب وأنه شعوذ به على الطلبة وأنه لا يعدل جهله فيما ينقل عن العربية إلا ما ينقله عن الفرنسية.

هوار في زعمه أن القرآن من نظم النَّبي ، بل سكت عن ذلك ، بل قال بالحرف الواحد في صحة ٨٣ : « ليس يعنيني هنا أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية أو لا يكون » فالأمر عنده على حد الجواز كما ترى ، وليس يعنيه أن يكون دينه ودين أمته صحيحاً أو كذباً . . . ولو كان طه حسين بليغاً من أئمة البلاغة لقلنا رأي رآه وإن كان كفراً وإلحاداً ، ولكنه هو هو هو . . على أن كل كلامه في هذا الكتاب عن القرآن الكريم كلام من نسي دينه بل كلام من لا دين له ؛ فليس في الأمر عنده معجزة ولا إعجاز ولا تنزيل ، وسيأتى هذا مفصلاً بعدُ .

إن هذا الكتاب السخيف الذي جاءتنا به الجامعة مما تضيق به النفس لكثرة ما فيه من الخطأ ، حتى لا يُطيقه إلا من كان في عقل صاحبه وضعف حجته وتهافت آرائه وكثرة سقطه ، وقد وجدنا أن أقوى ما يستند إليه المؤلف في كذب ما روى من الشعر الجاهلي دليل واحد اجتهد فيه وكرره ، وسماه عقدة لغوية وأيقن أن أنصار القديم لا يستطيعون فيه شيئاً وذلك ظنه أن اختلاف لهجات العرب يجب أن يكون في أشعارها ، ولما كان شعر الجاهلية ليس فيه شيء منها فهو موضوع بعد الإسلام وبعد أن صارت اللغة قرشية ، قال : « فهذا النوع من اختلاف اللهجات له أثره الطبيعي اللازم في الشعر : في أوزانه وتقاطيعه وبحوره وقوافيه بوجه عام ؛ وإذا لم يكن نظم القرآن وهو ليس شعراً ولا مُقيداً بما يتقيد به الشعر قد إستطاع أن يستقيم في الأداء لهذه القبائل « يريد اختلاف القراءات » فكيف استطاع الشعر ، وكيف لم تحدث هذه اللهجات المتباينة آثارها في وزن الشعر وتقطيعه الموسيقي »؟ .

فما هي اللهجات يا أستاذ الجامعة ؟ كان ينبغي أن تستقريها قبل أن تعترض بها ، فإنك لو فعلت لرأيتها في الجملة لا تغير شيئا من أوزان الشعر ، فهي في معظمها بين إبدال حرف بحرف أو حركة بحركة أو مد بمد ، وكل ذلك لا يؤثر في إقامة الوزن كثيراً ولا قليلا ، والاختلاف في الحقيقة هيئات في النُطق والصوت أكثر مما هو هيئات في الوضع واللغة ، ومع ذلك فقد نصوا على أن العربي الفصيح غير مقيد بلغة قبيلته إذا نافرت طبع الفصاحة فيه ، فمنهم من يوافق اللهجة ومنهم من يخالفها لسبب عند هذا، وعند هذا راجع إلى الفطرة وقوتها، ومن القبائل من تأخذ

لهجة غيرها كما فعلت قريش ، فقد كانت لا تهمز ، فلما نزل القرآن بالهمز إتخذت هذه اللهجة .

ويجب أن تعلم يا أستاذ الجامعة أن عندنا نصاً عن ابن الكلبي أن العرب لم ترو من شعر الجاهلية إلا ما كان إلى مائة سنة قبل الإسلام ، أي عمر رجلين يروي أحدَهما عن الآخر ، وذلك هو الزمن الذي نهضت فيه اللغة وأخذ العرب بعضهم عن بعض .

ومع كل هذا فهناك نص آخر على أن من اختلاف اللهجات ما يؤخذ به في إنشاد الشعر إذا وُجد في لغة من ترتضي عربيته ،ومنه ما لا يؤخذ به إذا وجد في لغة من لا ترضى عربيته ؛ فذلك دليل قاطع على أن العلماء حذفوا أشياء لم يرضوها وغيروا في إنشاد الشعر لا في نظمه ؛ قال شاعر من بني تميم :

ولا أكول لكدر الكوم قد نضجت ولا أكول لباب الدار مكفول

يريد : لا أقول لقدر القوم الخ ، وهي القاف المعقودة التي ينطقونها بين القاف والكاف ، وكانت شائعة في العرب ، وهي غير القاف الخالصة التي يُقرأ بها القرآن ، فهل روي كل شعر بني تميم على هذا الوجه ؟ وماذا لو أبدلت الكاف في البيت قافا لتوافق اللغة الفصحى في الإنشاد ؟

وفي الحديث من لغة حِميَر « ليس من امبرٍّ امصيام في امسفر»[1] إذ كان من لغتهم إبدال لام التعريف ميا ، وهذه العبارة لو أشبعت فيها حركة السين في « ليس » خرج منها شطر موزون من الرجز ، فإذا أنشدته بالفصحى وقلت « ليسا من البر الصيام في السفر »[2] فأين تأثير اللهجات في الوزن والتقطيع الموسيقي . . . والبحر والقافية ؟

---

(١) أنظر «إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل» ٩٢٥

(٢) قلت: ليس من الضروري اشباع السين لتكون العبارة شطراً موزوناً من الرجز، فهي شطر موزون بغير اشباعها.

فالدليل الذي حسب أستاذ الجامعة أنه ليس أقوى ولا أعضل منه في بابه هو كما تراه أوهن أدلته وأسرعها إضمحلالاً ، فكيف بغيره مما تَمحل فيه وتكلّف له التلفيق ؟

إذا أخذْت قيس عليك وخندف   بأقطارها لم تدر من أين تسرح

تعريفات

مصطفى صادق الرافعي

١٢٩٨ ـ ١٣٥٦ هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٣٧م

عالم بالأدب ، شاعر ، من كبار الكتاب أصله من طرابلس الشام ، رحل إلى مصر ، وأقام في طنطا ، وبها توفي.

له شعر نقي الديباجة . ونثره من الطراز الأول .

ـ له ديوان شعر من ثلاثة أجزاء .

ـ ومن أشهر مؤلفاته :

تاريخ آداب العرب

اعجاز القرآن

تحت راية القرآن

وحي القلم

فكرة كتاب "الشعر الجاهلي"[1]

بقلم: الدكتور محمد البهي

هذا الكتاب يقوم على فكرة واحدة هي : أن الشعر لا يُمثل حياة العرب قبل ظهور الإسلام . أي لا يمثل الحياة التي عاش فيها الرسول قبل الرسالة ، بما لها من جوانب وأجواء . إذ هو شعر مصطنع مفتعل . ولذا لا يُعبر عن حقائقها ولا عما دار فيها . فهو في جملته يعبر عن حياة جاهلية فيها غلظة وخشونة ، وبعيدة عن التمرس السياسي ، والنهضة الاقتصادية . والحياة الدينية الواضحة . مع أن حياة العرب في الجاهلية كانت حياة حضارية . والعرب ـ كما يقول[1] ـ : « لم يكونوا على غير دين ، ولم يكونوا جهالاً ولا غِلاظاً ، ولم يكونوا في عزلة سياسية أو اقتصادية ، بالقياس إلى الأمم الأخرى ، كذلك يمثلهم القرآن "

« وإذا كانوا أصحاب علم ودين ، وأصحاب ثروة وقوة وبأس ، وأصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة ، متاثرة بها مُؤثرة فيها ـ فما أخلقهم أن يكونوا أمة متحضرة راقية ، لا أمة جاهلة همجية . وكيف يستطيع رجل عاقل أن يُصدق أن القرآن ظهر في أمة جاهلة همجية ؟ »[2] . عن الحياة التي وَجد فيها (الرسول) ، وهي حياة ما قبل الإسلام ـ فيحكيها في حركة « التجديد والمجددون في الفكر الإسلامي » كتاب الشعر الجاهلي . ولعل إهداء الكتاب ، وقت نشره ، إلى صاحب

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالإستعمار الغربي ط : ٢ ص ٢١٠ ـ ٢٢٤
(٢) الشعر الجاهلي ، ص ٢٢ ـ ٢٣ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥ .

السلطة الحكومية في ذلك الوقت ـ يشعر بأن الفكرة التي تُروى فيه ليس لها مكان في الجو الإسلامي الخالص ، ولذا تحتاج لشيء من حماية السلطة السياسية .

يقول المؤلف طه حسين في إهداء الكتاب :

« إلى صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا :

سيدي صاحب الدولة :

كنت قبل اليوم أكتب في السياسة ، وكنت أجد في ذكرك والإشادة بفضلك راحة نفس تحب الحق ، ورضا ضمير يحب الوفاء .

وقد انصرفت عن السياسة وفرغت للجامعة ، وإذا أنا أراك في مجلسها كما كنت أراك من قبل ، قوي الروح ، زكي القلب ، بعيد النظر ، موفقاً في تأييد المصالح العلمية توفيقك في تأييد المصالح السياسية . فهل تأذن لي في أن أُقدم إليك هذا الكتاب مع التحية الخالصة والإجلال العظيم » .

٢٢ مارس سنة ١٩٢٦ .

قدم المؤلف كتابه : « الشعر الجاهلي » إلى « صاحب الدولة » رجل الحكم والنفوذ إذ ذاك ـ على عادة المؤلفين في عهد الركود الفكري في تاريخ التأليف الإسلامي ـ قصداً إلى الترويج والحماية .

والنفس التي تحب الحق في واقع الأمر تُقدم البحث إلى راغبي المعرفة

ومنطق المؤلف : بما أن الشعر الجاهلي لا يصح أن يكون مرآة صافية للحياة الجاهلية ـ وهي الحياة التي نشأ فيها الرسول ، وقام بدعوته ، وكافح من أجل هذه الدعوة فيها ـ فالشيء الذي يُعبر عن هذه الحياة تعبير صدق ، وموثوق به كل الثقة ، هو القرآن . « فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي» .

وإذا رجعنا إلى القرآن ـ هكذا يستنتج المؤلف ـ نجده قد صور العرب

وحياتهم بما يجعلهم أمة سياسية ، تنشد أن تكون قوة ثالثة بين الفرس والروم . كما كانت أمة وسطاً بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي . وبذلك كانت مركزاً للتجارة « العابرة » . وعن هذا الوضع بين الشمال والجنوب آثرت ، ونافست في القوة . كما كان لها دين ومعتقد ناهض . وفي ذلك يقول :

« لم يكن العرب إذن ـ كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي ـ معتزلين . فانت ترى أن القرآن يصف عنايتهم بسياسة الفرس والروم . ﴿الم . غلبت الروم في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين . للّه الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه ، ينصر من يشاء﴾[1] فهذا الذي ذكره القرآن في سورة الروم يراه المؤلف « عناية سياسية » أكثر منه أخباراً عن طريق الوحي بمصير الامبراطورية الرومانية في الشرق .

ويستطرد المؤلف فيقول :

« وهو ـ أي القرآن ـ يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة : « لإيلاف قريش إيلافهم ، رحلة الشتاء والصيف » . وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم ، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة أو الفرس .

« وسيرة النبي تحدثنا أن العرب تجاوزوا بوغاز باب المندب إلى بلاد الحبشة . ألم يهاجر المهاجرون الأولون إلى هذه البلاد ؟ وهذه السيرة نفسها تحدثنا بأنهم تجاوزوا الحيرة إلى بلاد الفرس ، وبأنهم تجاوزوا الشام وفلسطين إلى مصر . فلم يكونوا إذن معتزلين . ولم يكونوا إذن بنجوة من تأثير الفرس ، والروم ، والحبش ، والهند وغيرهم من الأمم المجاورة لهم . . . »

« أرأيت أن التماس الحياة العربية الجاهلية في القرآن أنفع وأجدى ، من التماسها في هذا الشعر العقيم الذي يسمونه الشعر الجاهلي ؟ أرأيت أن هذا النحو من

---

(١) سورة الروم الآيات من ١ ـ ٥

البحث يُغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهلين »[1]

ومعنى هذا القول ـ : كما يريد المؤلف أن يُفهم قارئه ـ أن القرآن انطباع للحياة القائمة في وقت صاحبه ، وهو النبي . ويمثل لذلك بيئة خاصة : في عقيدتها ، ولغتها ، وعاداتها ، واتجاهها في الحياة ، وهي البيئة العربية في الجزيرة العربية . ويقول في توضيح هذا المعنى :

« وليس من اليسير ، بل ليس من الممكن أن نصدق : أن القرآن كان جديداً كله على العرب . فلو كان كذلك لما فهموه ولما وعوه ، ولا آمن به بعضهم ، ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر . وفي القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنية ، وفيه رد على اليهود ، وفيه رد على النصارى ، وفيه رد على الصابئة والمجوس . وهو لا يرد على يهود فلسطين ، ولا على نصارى الروم ، ومجوس الفرس ، وصابئة الجزيرة[2] وحدهم .

«وإنما يرد على فِرَق من العرب كانت تمثلهم في البلاد العربية نفسها .
ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر ولما حفل به أحد من أولئك الذين عارضوه وأيدوه ، وضحوا في سبيل تأييده ومعارضته بالأموال والحياة .

« أفترى أحداً يحفل بي لو أني أخذت أهاجم البوذية ، أو غيرها من هذه الديانات التي لا يدين بها أحد في مصر . ولكني أغيظ النصارى حين أهاجم النصرانية ، وأهيج اليهود حين أهاجم اليهودية ، وأحفظ المسلمين حين أهاجم الإسلام » [3] .

وإذن القرآن ـ بعبارة أخرى ـ دين محلي ، لا إنساني عالمي . قيمته وخطره في هذه المحلية وحدها . قال به صاحبه تحت التأثر بحياته التي عاشها وعاش فيها . ولذلك يُعبر تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة . أما أنه يمثل غير الحياة العربية ، أو يرسم

---

(١) ص ٢٢ ـ ٢٣ .
(٢) الجزيرة هي الدلتا بين دجلة والفرات ـ مقر الصابئة .
(٣) ص ١٦ ـ ١٧ الشعر الجاهلي

هدفاً عاماً للإنسانية في ذاتها ، فليس ذلك الكتاب .

إنه دين بشري ! ، وليس وحياً إلهياً ! . قاله صاحبه لقوم معينين . ولذلك تجاوبوا معه ، أو قاموا ضده . ولو أن صاحبه قاله في جماعة أخرى « لما حفل به أحد » . لأن ما يقوله فيه لا يتصل عندئذ بحياة الجماعة الأخرى في قليل أو كثير !! .

فالقرآن مؤلف . ومؤلفه (نبيه) محمد . ويمتاز تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة في شبه جزيرة العرب ، في اتجاهات حياتها المختلفة : السياسية ، والاقتصادية ، والدينية .

والأمر ، في دراسة الحياة الجاهلية للعرب قبل الإسلام ، دراسة علمية كان يدور عند صاحب كتاب « الشعر الجاهلي » بين أمرين لا ثالث لهما : بين ما يُسمى بالشعر الجاهلي وبين القرآن . كلاهما للإنسان ، وكلاهما يتحدث عن الحياة العربية الجاهلية . ولكنه استبعد الشعر الجاهلي واختار القرآن لهذه الدراسة ، لأنه صادق في كونه انطباعاً دقيقاً لهذه الحياة .

والقرآن إذن مصنوع ومؤلف . هو مرآة لأفق خاص من الحياة ، هو أفق الحياة في شبه الجزيرة العربية (في مكة خاصة) . وما في القرآن من عقائد لا يمثل إلا عقائد تلك البيئة : فحديثه عن النصرانية هو حديث عن نصرانية العرب ، دون نصرانية السريان ، فضلاً عن نصرانية القسطنطينية ، ونصرانية مصر أو نصرانية روما . وحديثه عن مودة النصارى ـ في مقابل موقف اليهود من المسلمين ـ في قوله : ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون[1]﴾ يرجع أن احتكاك المسلمين بالنصارى كان ضعيفاً ، على العكس من احتكاكهم باليهود . فقد كان قوياً . بهذا يعلل صاحب كتاب الشعر الجاهلي ، على نحو ما يعبر في قوله :

« وأما يهودية اليهود فقد ألّبت عليه وجاهدته جهاداً عقلياً وجدلياً ، ثم انتهت

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٢ .

إلى الحرب والقتال . وأما نصرانية النصارى فلم تكن معارضتها للإسلام إبان حياة النبي قوية قوة المعارضة الوثنية واليهودية . لماذا ؟ لأن البيئة التي ظهر فيها النبي لم تكن بيئة نصرانية ، إنما كانت وثنية في مكة ، ويهودية في المدينة . ولو ظهر النبي في الحيرة ، أو في نجران للقي من نصارى هاتين المدينتين ما لقي من مشركي مكة ويهود المدينة »[1] .

وليست إذن مودة النصارى للمؤمنين قائمة على أن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ـ كما أخبر القرآن في الآية السابقة ـ وإنما لأن النبي لم يلتق بهم كما التقى بمشركي مكة ويهود المدينة . ولو أنه التقى بهم في مدينة نصرانية لكان وضع هذه الآية غير وضعها الحالي ! .

ولقد وصل الأمر في نظر صاحب الشعر الجاهلي بالنسبة للقرآن وأنه وحده ـ لا الشعر الجاهلي ـ يُعبر تعبيراً صادقاً عن حياة العرب قبل الإسلام إلى أن القرآن في نظره لا يُعبر فقط عن الحقائق التي وقعت في هذه الحياة العربية الجاهلية ، بل أيضاً عن الأماني في هذه الحياة العربية وما يُروج بشأنها من قصص .

فكتاب الشعر الجاهلي يرى أن فكرة « العرب المستعربة والعرب العاربة » التي تقوم على التقاء قبيلة « عدنان في شمال الجزيرة العربية (في الحجاز) بقبيلة « قحطان » التي تسكن الجنوب (في اليمن) في اللغة العربية ـ وإن كانت في الأولى مصطنعة وطارئة ، وفي الثانية طبيعية وأصيلة ـ قصة مصطنعة ، تعبر عن أمل قريش في قيام وحدة سياسية وكتلة قوية في مواجهة قوتي الفرس والرومان . وبناء على ذلك : قصة إسماعيل بن إبراهيم الذي ينسب إليه العدنانيون ، قصة خيالية . وكذلك ما يُروى من حديث نبوي : « إن أول من تكلم بالعربية ونسى لغة أبيه (وهي اللغة العبرية أو الكلدانية) إسماعيل بن إبراهيم « ـ حديث موضوع » والقرآن ، أو محمد ، لم يشأ أن يغفل شأن هذه القصة لما لها من أهمية في قريش ، وبالتالي لما لها من أهمية في الصراع بينه وبين قريش صاحبة السيادة في العرب ،

(١) المصدر السابق ، ص ١٨ .

والحريصة على الاحتفاظ بهذه السيادة ، بعدما قام بدعوته يقول المؤلف في ذلك :

« وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع للمسيح (قبل ظهور الإسلام بقليل) . فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلى حظ من النهضة السياسية ، والاقتصادية ، ضمن لها السيادة في مكة وما حولها ، وبسط سلطانها المعنوي على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثيقة . . .

« فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ، ونهضة دينية وثنية . وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة ، تقاوم تدخل الروم ، والفرس ، والحبشة ، ودياناتهم في العربية »[1] .

ويقول أيضاً :

« أمر هذه القصة (قصة إسماعيل) إذن واضح . فهي حديثة العهد ، ظهرت قُبيل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني ، وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي . وإذن فيستطيع التاريخ الأدبي واللغوي أن لا يحفل بها ، عندما يريد أن يتعرف أصل اللغة العربية الفصحى . وإذن فنستطيع أن نقول : إن الصلة بين اللغة العربية الفصحى التي كانت تتكلمها العدنانية واللغة التي كانت تتكلمها القحطانية في اليمن إنما هي كالصلة بين اللغة العربية وأية لغة من اللغات السامية المعروفة ، وأن قصة المستعربة والعاربة وتعلّم إسماعيل العربية من جُرهم ، كل ذلك حديث أساطير ، لا حظ له ولا غناء فيه »[2] .

« وفي الحق أن البحث ! قد أثبت خلافاً جوهرياً بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . ولدينا نقوش ونصوص ! تمكننا من إثبات هذا الخلاف في اللفظ ، وفي قواعد النحو

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٩ .

والتصريف أيضاً »[1] .

والقرآن الآن ـ في نظر مؤلف كتاب الشعر الجاهلي ـ لا يُعبر فقط عن واقع الحياة الجاهلية ، بل أيضاً عن الأماني التي كانت تدور فيها وتشغل حظاً كبيراً من انتباه القوم ، وتجذب وعيهم بالحياة وبالقوة فيها . ولـذلك فهـو يمثـل تلك الحياة أصدق تمثيل : « فإذا أردتُ أن أدرس الحياة الجاهلية ، فلست أسلك إليها طريق امرىء القيس ،والنابغة ، والأعشى ،وزهير ، لأني لا أثق بما يُنسب إليهم ، وإنما أسلك إليها طريقاً آخر ، وادرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته ، أدرسها في القرآن . فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي »[2] .

ونخلص من الموازنة بين كتاب : « المذهب المحمدي » وكتـاب : « الشعر الجاهلي » إلى أن كليهما يرى :

١ ـ أن الحياة الجاهلية قبل الإسلام ، كانـت حياة حضـارية ، كانـت حياة حافلة بالكياسة السياسية ، والنشاط الاقتصادي ، والنهضة الدينية .

٢ ـ وأن محمداً ـ أو الإسلام ، أو القرآن ـ استغل المقدسات الدينية في مكة . وفي مقدمتها « البيت الحرام » أول بيت وُضع للناس بمكة ، والذي قام على عمارته إبراهيم ، والد إسماعيل . والظاهـرة لاستغـلال هذه المقدسـات كما يرى كتـاب المذهب المحمدي[3] ـ هو أن ثورة محمد أو الإسلام أخذت طابع الدين ، دون الطابع الاجتماعي . أما كتاب الشعر الجاهلي فيرى هذه الظاهرة في أن محمداً أو الإسـلام اضطُر إلى قبول قصة إسماعيل ، وتعلمه العربية اضطراراً ، مع أنها خرافة أثبتت الحقائق العلمية عدم وقوعهـا ! اضطـر إلى ذلك حتـى يفقـد سلاح « المقدسـات الدينية » القائمة في مكة ، وحول مكة ، في صراعه مع خصومه المكيين . إذ المكيون أنفسهم كانوا على استعداد نفسي لقبول هذه القصة ، رغبـة في الوحـدة والتكتـل

---

(١) المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٣) هو من تأليف المستشرق الإنكليزي (جب) استاذ الدراسات العربية الآن بجامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأميركية ، وبين هذا الكتاب وكتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين بعض الشبه وقد تحدث عنه المؤلف مفصلاً قبل هذا البحث .

ليكونوا قوة ثالثة في مواجهة قوتي الفرس والروم !

٣ ـ وأن القرآن لم يكن جديداً كل الجدة على العرب : فما فيه من عقائد كانت تعرفها مكة ، وتعرفها العرب في شبه الجزيرة . لكن صاحب كتاب : « المذهب المحمدي » يرى أن آية معرفتهم لذلك هي عدم معارضة المكيين له فيما ذكر من عقائد ، حتى عقيدة الوحدانية . وأرجع معارضتهم إياه الى المنافسة السياسية ، والخشية على انهيار اقتصادهم . بينما صاحب كتاب : « الشعر الجاهلي » يرى أن آية ذلك هي قبول من قبَل منهم ، ومعارضة من عارض من بينهم . فلو لم يكن القرآن مألوفاً لديهم لما عارض من عارض ، ولا قبِل من قبل ، ولا حفل به أحد ، ولا كان له أي خطر ! .

٤ ـ وأن دعوة الإسلام دعوة محلية : في جماعة خاصة ، وفي حياة خاصة . ولذا فالقرآن أو الإسلام انطباع واضح لهذه الجماعة الخاصة في حياتها الخاصة . ويمكن أن يتتبع آثار هذه الجماعة الخاصة ـ في حياتها الخاصة في حياة محمد في جميع أدواره . وهذا ما يُصوره صاحب كتاب: «المذهب المحمدي». أو لهذا السبب يعتبر القرآن تعبيراً صادقاً عن هذه الجماعة الخاصة في حياتها الخاصة، حتى عن أمانيها، كما يصوره صاحب كتاب «الشعر الجاهلي» وإذن القرآن محدود القيمة ، محدود المكان، محدود الزمان! .

ومنطق هذا كله أن القرآن ليس وحياً لرسالة اللّه . إذ لو كان وحياً من عند اللّه لكان للناس جميعاً ، في كل مكان وفي كل جيل . ولو كان وحياً أيضاً لرسم خطة جديدة لهداية الناس في عقيدتهم ، ولم يكن حاكياً لما كان عليه بعض أفراد الجماعة الإنسانية . مع أن العرب أنفسهم ـ قبل الناس الآخرين ـ لم يكونوا في جهل ، ولم يكونوا على ضلالٍ ، حتى يحتاجوا لرسالة جديدة تدعو إلى الهداية !! .

والفرق بعد ذلك بين الكتابين في عرض فكرة « بشرية القرآن » ، هو :

١ ـ أن أحد الكتابين في وصفه للقرآن ، وفي وصفه لصلة القرآن بالعرب ، يقول :

(أ) فيه (أي القرآن) أخذ من الوثنية العربية .

(ب) وفيه أخذ من المسيحية العربية .

(ج) وفيه أخذ من اليهودية العربية .

وهذا الكتاب هو كتاب المذهب المحمدي . ويهم الاستشراق أن يردد أن القرآن أخذ من المسيحية أو اليهودية ، بدلاً من أن يذكر أنه رد على المسيحية أو اليهودية .

٢ ـ بينما الكتاب الثاني ، في تحديد هذه الصلة ـ وهو كتاب الشعر الجاهلي ـ يذكر أن القرآن :

(أ) فيه رد على الوثنية العربية .

(ب) وفيه رد على المسيحية العربية .

(ج) وفيه رد على اليهودية العربية .

وذلك كي يوهم القارىء المسلم أن القرآن لم يلتق مع المسيحية القائمة ولا مع اليهودية الموجودة إذ ذاك .

وطالما حدد ، الكتابان القرآن بالبيئة العربية ، فما وراء ذلك من اختلاف لا يحُدِث فرقاً أصيلاً بينهما . لأن التعبير بأنه «أخذ» من المسيحية واليهودية قصد إلى التمهيد إلى الحكم : بأن القرآن لم يكن كله جديداً على العرب . وهذا عين ما قصده التعبير بأنه « رَدّ » . وبيئة الكتابين هي التي أوحت إلى كل منهما بالاختلاف في التعبير ، على نحو ما رأينا .

ولم يكن القصد في الموازنة بين الكتابين في عرض « بشرية القرآن » إلى بيان : أن أحدهما أخذ من الثاني ، بل كان القصد أولاً وبالذات إلى توضيح : أن كتاب الشعر الجاهلي في العالم العربي يحكي رأي المستشرقين في هذا الجانب . ذلك الرأي الذي تنوعت أساليبهم في عرضه ، والذي يعد مع ذلك هدفاً أساسياً في بحوثهم منذ أن نشأ الاستشراق ، ومنذ أن اتجه الاستشراق من مبدأ أمره إلى تمكين الإستعمار الغربي في البلاد الإسلامية ، عن طريق إضعاف قيمة الإسلام ، كدين ورسالة من رسالات السماء .

رأى القرآن في كتابي: المذهب المحمدي، والشعر الجاهلي:

أما القرآن الكريم نفسه إذ يحكي قول اللّه تعالى :

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب ، والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ، وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء ، واللّه ذو الفضل العظيم ﴾[1] ـ فإنه يفيد ثلاثة أمور :

أولاً : أنه أرسل رسولاً أمياً يتلو آيات الله .

وثانياً : أنه أرسله بالتزكية ، والتعليم ، والحكمة ، لقوم أميين ، وكانوا من قبل نزول القرآن في ضلال مبين .

وثالثاً : أن رسالة هذا الرسول الأُمي لا تُقصر على هؤلاء القوم الضالين ؛ بل تتجاوزهم إلى آخرين بعده ، لما يلحقوا بهم .

وهذا الذي تفيده الآية الكريمة على هذا النحو يدل :

أ ـ على أن العرب خاصة كانوا في مسيس الحاجة إلى الرسالة الإلهية ، لما كانوا عليه من ضلال مبين .

ب ـ وأنهم لم يكونوا أصحاب حضارة ومعرفة ، بالصورة التي يصورهم بها الكتابان السابقان .

جـ ـ وعلى أن رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ليست رسالة محلية ، ولا مقيدة بمكان ، أو زمان ، أو جيل . « وآخرين لما يلحقوا بهم » .

والقرآن أيضاً إذ يقول :

« وإنك لتلقَّى القرآن من لدن حكيم عليم »[1] ، ويقول : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن اللّه ولا أعلم الغيب ، ولا أقول لكم إني مَلك ، إن أتبع إلا ما

---

(١) سورة الجمعة ، الآية ٢ ـ ٣

(١) سورة النمل ، الآية ٦.

يوحى إليّ . . . ﴾[١] ـ إذ يقول القرآن هذا وذاك ، ويقول كثيراً غيره ـ يعترف اعترافاً واضحاً بوحي القرآن ، وبوضعية الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، كرسول بُعث للناس كافة بهداية واضحة ، هي هداية السماء التي أُرسل بها مَنْ قبله من الرسل .

ولكن هذا الذي يقوله القرآن هنا ، وفي آيات اخرى ، لا يواجه به إلا مسلم ، غير متردد في إيمانه بالإسلام ، أو من كان صافي الطبع غير مبيّت سوء القصد من البشر . وعندئذ يكون القرآن له شفاء وهداية . ﴿ وننُزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾[٢] .

أما لو واجهنا بالقرآن غير مسلم ، من متعصبي أهل الكتاب ، فإنه لا يكون له دليل هداية وإقناع ، على أن القرآن وحي من اللّه ، وإنما الذي يجب أن يسلك معه مطالبته بتحديد موقفه من « الوحي » ، كقضية عامة للديانات السماوية الثلاث ، وليست قضية الإسلام وحده . فما يقوله الغرب المسيحي باسم العلم تأييداً لوحي عيسى ، أو موسى ، يصح أن يقال تأييداً لوحي محمد : فإذا كان الوحي ، كأمر غير عادي ، يخضع للطريقة العلمية الحديثة ، أو لا بد أن يقف عند حد اعتقاد المؤمنين به في كل دين ـ فكل أنواع الوحي سواء في هذا ، أو ذاك .

أما الأمر الذي يجب أن يُنكره البحث العلمي ـ بهذا التحديد ـ فهو أن يناقش نوع من الوحي ، ويتشكك فيه باسم العلم ، ثم يصان نوع آخر منه على أنه بديهي التسليم ، وبعيد عن مجال الجدل العقلي النظري أو العلمي التجريبي .

ولذا لا نحاول هنا أن نؤيد وحي الرسالة الإسلامية خاصة . لأن قضية الوحي إذن قضية عامة مشتركة : ما يصلح دليلاً عليها هناك ، يصلح دليلاً عليها هنا . فيجب أن تخُرج القضية في جملتها عن محل النزاع .

وقديماً حاول فلاسفة القرون الوسطى أن يؤيدوا الوحي السماوي بالدليل العقلي . ولكن لم تخرج برهنتهم عن شرح عقلي لوضع مكان الرسول بين

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.

الموجودات إلتي لها أصالة في الحياة ، وتطلبها حاجة الإنسانية ، على أساس من فروض التفكير القديم . كما صنع الفارابي في شرحه منزلة « النبوة » .

والهجوم على الإسلام ـ على نحو ما رأيناه في قسوته ـ في فكرة بشرية القرآن يقابله رفق ورقة في التعبير ، إن عبر أحد الكتابين عن المسيحية ، أو عن الكنيسة . كما تبدو الفجوة واسعة بين قسوة الهجوم على الأزهر ورقة الحديث عن الكنيسة القبطية في كتاب آخر للمؤلف : « مستقبل الثقافة في مصر » . ذلك هو الوضع والحال الذي سنجده ملازماً لكتابة المجددين في الفكر الإسلامي في مصر ، عند عرضنا للحلقات الأخرى باسم التجديد .

والآن قد عرفنا مدى الصلة الوثيقة بين التجديد في فكرة « بشرية القرآن » وبين مصدر من مصادر هذه الفكرة في الغرب عند المستشرقين ، بما يؤكد أن التجديد ـ كما أسلفنا ـ هنا عبارة عن أخذ من الغرب في كل شيء . أخذ أعمى وفي غير احتياط ، على نحو ما رسم كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » خطة هذا التجديد .

نقد كتاب
مستقبل الثقافة في مصر

بأقلام :

محمّد كمال حسين

ساطع الحصري

زكي مبارك

محمّد البهي

سيّد قطب

الدكتور محمد محمد حسين [1]

« مُستقبل الثقافة في مصر »

يبدو أن الدكتور طه حسين كان يعرف مقدّماً أن كتابه هذا سيثير جدلاً كثيراً . فقد نبّه الأستاذ سامح الكريم إلى ذلك في الجزء الأول منه حين قال : « لعل هذا الكتاب كله أو بعضه أن يقع موقعاً سيئاً من بعض الناس ، ولعلهم أن ينقدوه وأن يثيروا حوله هذا الجدال الخصب الذي يجلي وجه الحق في كثير من الأحيان » . .

وبالفعل أثار هذا الكتاب معارك كثيرة بعد ظهوره مباشرة ولم تتوقف هذه المعارك والمناقشات زمناً . وإشترك فيها شيوخ الأدب وشبابه حتى أنه يصعب على المرء رصدها ، لذلك سنكتفي بأهمها .

ولكن قبل تسجيل رأي هؤلاء وأولئك في الكتاب نعرض للآراء البارزة التي تضمنها بجزئيه :

إن سبيل النهضة واضحة بيّنة مستقيمة ليس فيها عوج ولا إلتواء وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها وحلوها ومُرها وما يحُب منها وما يُكره وما يحُمد منها وما يُعاب ، ومَن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع .

العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط .

العقل المصري القديم ليس عقلاً شرقياً ، وقد نشأ هذا العقل المصري متأثراً بالظروف الطبيعية والإنسانية التي أحاطت بمصر وعملت على تكوينها فإذا كان أن

نلتمس للعقل المصري أسرة نقره فيها فهي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم .

إن التاريخ يحدثنا بأن رضاء مصر عن السلطان العربي بعد الفتح لم يبرأ من السخطولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها لم تهنأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة في ظل ابن طولون .

لقد إلتزمنا أمام أوروبا بأن نذهب مذهبها في الحُكم ، ونسير سيرتها في الإدارة ، ونسلك طريقها في التشريع ، إلتزمنا هذا كله أمام أوروبا فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ولوجدنا أمامنا عقبات .

شيء آخر لا بدّ من التفكير فيه ، هو أن التفكير الأزهري القديم قد يجعل من العسير على الجيل الأزهري الحاضر إساغة الوطنية والقومية بمعناها الأوربي الحديث .

إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تُصلحان أساساً للقومية السياسية ولا قواماً . لتكوين الدول . إن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضاً وقد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة وهو أن السياسة شيء والدين شيء آخر.

من الجهل والخطأ أن هذه الحضارة المادية صدرت عن المادية الخالصة . إنها نتيجة العقل ، إنها نتيجة الخيال ، إنها نتيجة الروح ، إنها نتيجة الخِصب المنتج ، نتيجة الروح الحي الذي يتصل بالعقل ويدفعه إلى التفكير ثم إلى الإنتاج .

إن حديث الشرق الروحي هذا حديث لا غناء فيه ، وهو يضحك إذا نظرنا إليه نظرة عامة ، ولكن هذا الحديث خطر لأنه يلقي في روح الشباب بغض الحضارة الأوروبية التي يعرفونها فتثبط هممهم وتضعف عزائمهم .

إن مصر لن تظفر بالتعليم الجامعي الصحيح ولن تُفلح في تدبير مرافقها الثقافية الهامة إلا إذا عنيت بهاتين اللغتين (اليونانية واللاتينية) لا في الجامعة وحدها

بل في التعليم العام قبل كل شيء .

يظهر أن في الأرض نوعين من الثقافة يختلفان أشد الاختلاف ويتصل بينهما صراع بغيض ولا يلقى كل منهما صاحبه إلا محارباً أو متهيئاً للحرب : أحد هذين النوعين هذا الذي نجده في أوروبا منذ العصور القديمة ، والآخر هذا الذي نجده في أقصى الشرق منذ العصور القديمة أيضاً . .

هناك آراء كثيرة أخرى تضمنها كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » وأثارت حولها جدلاً كثيراً ولنقرأ ما كتبه الدكتور محمد كامل حسين من مآخذ على الكتاب حيث نقول يمكن رد ما حوى هذا الكتاب إلى ثلاثة أصول وهي:

(١) الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعا بها وقطع ما يربطها بقديمها وبإسلامها.

(٢) الدعوة إلى إقامة الوطنية وشؤون الحكم على أساس مدني لا دخل فيه للدين ، أو بعبارة أصرح : دفع مصر إلى طريق ينتهي بها إلى أن تصبح حكومتها لا دينية .

(٣) الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور ودفعها إلى طريق ينتهي باللغة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم إلى أن تصبح لغة دينية فحسب كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية .

ويرد المؤلف على خصوم الحضارة الأوربية ممن يشفقون على كياننا الديني فيقول : إن الحياة الأوربية ليست إثما كلها . ففيها خير كثير ، ويستدل على ذلك بأنها قد حققت للأوربيين رقياً لا شك فيه والإثم الخالص لا يُمكِّن من الرقي .

والمؤلف لا يطالب بإلغاء المدارس الأجنبية بل هو يقرر أنه نافر من ذلك أشد النفور (لا لأن إلتزاماتنا الدولية تحول بيننا وبين ذلك ، بل لأن حاجتنا الوطنية تدعو إلى الإحتفاظ بهذه المدارس والمعاهد . وهو يدعو ألا تقتصر الدراسات الأدبية في مدارسنا على الأدب العربي بل يجب أن ندرس الآداب الأجنبية على أن يكون تدريسها باللغة العربية ، وكلام المؤلف هنا يَلبس ثوب الوطنية والتعصب للغة

القومية ولكن مقصده الحقيقي الذي يتفق مع مذهبه في الكتاب كله هو نشر آداب الغرب وثقافته على أوسع نطاق ، وذلك هو ما تفعله الدول الإستعمارية الآن ، على أن الأولى بأن يدعو إليه المؤلف هو أن تترجم كتب العلوم من طب وهندسة وزراعة وطبيعة وكيمياء إلى العربية وأن تدرس هذه العلوم في الجامعات المصرية .

ويمضي المؤلف في سائر كتابه على اعتبار صلات مصر بالغرب أوثق من صلاتها بالشرق حتى أنه يجوز على التاريخ في بعض الأحيان كي يقيم به مذهبه الذي يزعمه وذلك في مثل تصويره العرب بأنهم غزاة دخلاء لا يطمئن إليهم المصريون في الوقت الذي يصورهم فيه مطمئنين إلى الفتح اليوناني لا ينكرونه ولا يتمردون عليه .

وتقرير المؤلف أن سبيل الحضارة الغربية هو السبيل الذي لا بدَّ من سلوكه والمضي فيه ، لا لأن تاريخنا يُؤيد هذا المذهب في زعمه ، ولا لأن مصلحتنا تقتضي ذلك على ما يدعي ، ولكن لأن إلتزاماتنا الدولية في المعاهدة التي يسميها معاهدة الإستقلال تجبرنا على ذلك .

ويريد المؤلف أن يدعو إلى حكومة (لا دينية) ولكنه يرى ان الوقت المناسب للجهر بمثل هذه الدعوة لم يأت بعد . وأول ما ينبغي أن يُزال ويهدم عنده هو الأزهر ، فهو يتحدث عنه فيصوره على أنه أثر من مخلفات العهود المتأخرة المنحطة ، ومشكلة من المشاكل التي تتطلب حلاً .

ويدور المؤلف حول ما يسميه (مشكلة اللغة العربية) والمشكلة تأتي في نظره مما يُضفيه إليها رجال الدين من قداسة باعتبارها لغة دينية ، وهو يريد أن يعتبرها لغة وطنية أولاً وقبل كل شيء . فهي - في رأيه ملك لنا نتصرف فيها كيف نشاء ولا حق لرجال الدين في أن يفرضوا وصايتهم عليها . وهذا فيما يبدو هو سبب آخر يُضاف إلى الأسباب السابقة التي تدفع المؤلف إلى مهاجمة الأزهر ، والمطالبة بعزله عن الوصاية على اللغة العربية .

***

ردّ الأستاذ ساطع الحصري

وفي مجلة « الرسالة » الصادرة بتاريخ ١١ / ٧ / ٣٩ يكتب الأستاذ ساطع الحصري سلسلة مقالات جاء في بعضها حول « مستقبل الثقافة في مصر ».

هذا العنوان الذي عنون به الأستاذ الدكتور طه حسين الكتاب الذي نشره قبل بضعة أشهر في مجلدين . . ذكَّرني بعنوان « المطارحات » التي نشرها « المعهد الأممي للتعاون الفكري » التابع لعصبة الأمم بعد الإجتماع الذي عقده في مدريد سنة ١٩٣٣ : مستقبل الثقافة .

وعندما أسجل هذه المشابهة في مستهل مقالي هذا ، أرى من الواجب عليّ أن أصرح ـ في الوقت نفسه ـ بأن المشابهة بين الكتابين لا تتعدى حدود العنوان . فإذا كان من البديهي أن المؤلف الفاضل اقتبس عنوان كتابه من المطارحات المذكورة ، فمن الواضح أيضاً أنه لم يستلهم شيئاً من موضوعاتها أومن مناحي التفكير المتجلية فيها . .

وأما كيفية تأليف الكتاب ، فالمؤلف يشرحها لنا بكل وضوح ، في المقدمة القصيرة التي صدره بها :

إن « فوز مصر بجزء عظيم من أملها في تحقيق استقلالها الخارجي وسيادتها الداخلية » حمل « المفكرين المصريين » على أن يشعروا بأن « مصر تبدأ عهداً جديداً من حياتها » . . « إن كسبت فيه بعض الحقوق ، فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة وتبعات ثقال ». إن هذا الشعور شمل الشباب، ودفع فريقاً منهم إلى « أن يسألوا المفكرين وقادة الرأي عما يرون في واجب مصر بعد إمضاء المعاهدة مع الانجليز . . » وهذا قد جعل كل واحد من المفكرين المسؤولين « يتحدث إليهم في ذلك حديثاً سريعاً مرتجلاً ، بقدر ما كان يسمح له وقته وعمله وتفكيره السريع في حياة سريعة » تمر بهم أو يمرون بها « مر البرق » فقد تحدث الدكتور طه حسين نفسه

(١) هذا التمهيد لسامح كريّم من كتابه : « طه حسين في معاركه الأدبية ». ص ١١٢ .

إلى هؤلاء الشبان فيمن تحدث ، غير أنه لم يقتنع بكفاية ما تحدث إليهم به ، ولم ير أنه « قد دلهم على ما كان يجب أن يدلهم عليه ، وهداهم إلى ما كان يجب أن يهديهم إليه »، وإستقر في نفسه أن واجب المصريين « من ذات الثقافة والتعليم بعد الإستقلال أعظم خطراً وأشد تعقيداً » مما تحدث به إليهم « في ساعة من ليل أو ساعة من نهار أو في قاعة من قاعات الجامعة الأمريكية . . وأنه يحتاج إلى جهد أشق وتفكير أعمق وبحث أكثر تفصيلاً » ووعد نفسه بأن يبذل هذا الجهد وان يفرغ لهذا البحث وأن ينهض بهذا العبء . : ولكنه لم ينبىء هؤلاء الشباب بشيء مما قرره ، لأنه أشفق أن تحول ظروف الحياة بينه وبين إنجاز هذا الوعد ، وليس أشق عليه من وعد يبذله للشباب ثم لا يستطيع له إنجازاً » . .

إن كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » كتب « لإنجاز ذلك الوعد الذي قدمه الأستاذ إلى الشباب الجامعيين ولم يظهرهم عليه » . . .

إن هذه المقدمة تدل دلالة واضحة على أن الدكتور طه حسين قد شعر بخطورة هذه المباحث حق الشعور ، وقدر عواقب التسرع والارتجال فيها حق التقدير . . كما تعلن إعلاناً صريحاً أنه لم يكتب الكتاب إلا بعد أن بذل « الجهد الأشق » الذي قال بضرورته ، وقام « بالتفكير الأعمق » الذي نوه به ، و « فرغ للبحث لينهض بالعبء » الذي أشار إليه . .

غير أن من يمعن النظر في الكتاب ـ بعد مطالعة هذه المقدمة ـ يشعر بشيء كثير من خيبة الأمل ، لأنه لا يجد من الآراء والملاحظات ما يتناسب مع وعود العنوان وتصريحات المقدمة . فالكتاب يتألف في حقيقة الأمر من مجموعة أحاديث ومقالات قليلة التناسق كثيرة التداخل ، يبدو على جميع أقسامها آثار الارتجال والاستعجال ، ويتخلل معظم أقسامها أنواع شتى من الإستطرادات والإستدراكات .

فكثيراً ما يقع النظر في صفحات الكتاب على فكرة صائبة ـ معروضة بأسلوب جذاب ـ غير أنه يلاحظ في الوقت نفسه كثيراً من المآخذ في المقدمات التي سبقت تلك الفكرة والملاحظات التي تلتها فيبقى حائراً متردداً بين مواقف الإستساغة والإستنكار .

إن نظرة إجمالية إلى أولى المسائل المشروحة في الكتاب تكفي للبرهنة على كل ذلك في وضوح وجلاء .

إن المسألة التي يفتتح بها الدكتور طه حسين أبحاث كتابه تتلخص في السؤال التالي :

هل يوجد فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوروبي ؟

والمؤلف يناقش هذه المسألة في أكثر من ثلاثين صفحة من الكتاب مناقشة مباشرة ثم يعود إليها عدة مرات - بوسائل شتى - في نحو ثلاثين صفحة أخرى . وأما الحكم الذي يصل إليه من أبحاثه ومناقشاته هذه فيتلخص في العبارات التالية :

«فكل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوروبي يمتاز عن هذا العقل الشرقي الذي يعيش في مصر وما جاورها من بلاد الشرق القريب» (الصفحة : ٢٨) فمهما نبحث ومهما نستقصي فلن نجد ما يحملنا على أن نقبل أن بين العقل المصري والعقل الأوروبي فرق جوهري (الصفحة : ٢٩) .

إنني أشارك الدكتور طه حسين في هذا الحكم الصريح مشاركة تامة . . . فلقد درست وناقشت هذه المسألة فيما مضى مراراً بوسائل مختلفة ، وانتهيت في جميع تلك الدراسات والمناقشات إلى نتيجة مماثلة لهذه النتيجة ، لا بالنسبة إلى العربية فحسب ، بل إلى أمم الشرق الأدنى بوجه عام ، والأمة العربية بوجه خاص . .

لهذا السبب ، يسرني كل السرور أن أتفق مع المؤلف في هذا الحكم اتفاقاً تاماً « ومع هذا يؤلمني جداً » ألا أستطيع موافقته على سلسلة الآراء والأحكام التي سردها حول هذه المسألة وان أراني مضطراً إلى مخالفته في معظم المقدمات التي بنى عليها حكمه هذا ، وفي بعض النتائج التي استخرجها منه . .

أولا : يكرر الدكتور طه حسين الحكم الذي ذكرناه آنفاً عدة مرات - جرياً على عادته العامة - ويعبر عنه في كل مرة بشكل جديد ، وكلمات جديدة - حسب أسلوبه الخاص - غير أنه لا يتقيد - خلال هذا التكرار - بمعاني الكلمات ، وحدودها « التقيد العلمي » الذي يتطلبه مثل هذه الأبحاث . . فينزلق إلى مهاوي الغلو

والمبالغة انزلاقاً غريباً ، فيبتعد عن « الحقيقة » التي كان قد توصل إليها ابتعاداً كبيراً .

مثلاً ، يسترسل مرة في الحديث حتى يضيف كلمة الثقافة إلى كلمة العقل ، فيقول :

« كلا ، ليس بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فرق عقلي أو ثقافي ما . . » (الصفحة ٩ : ٢٥)

أفلا يحق لي أن أسأل الأستاذ في هذا المقام : هل يدعي عن جد ـ أنه لا يوجد « فرق ثقافي ما » بين المصري ، والفرنسي ، والسوري ، والإيطالي ؟ إن القول بعدم وجود « فرق جوهري » بين « العقل المصري والعقل الأوربي » شيء والقول بأنه لا يوجد بين المصري والأوربي « فرق ثقافي ما » شيء آخر . . . فمهما آمنت بالقضية الأولى إيماناً عميقاً لا يمكنني أن أسلم بالقضية الثانية أبداً . . وأعتقد إعتقاداً جازماً أن إنكار وجود « الفرق الثقافي » بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم ، لا يختلف عن إنكار وجود الشمس في رائعة النهار . .

كما أرجح أن المؤلف نفسه لم يكتب ذلك عن « تأويل واعتقاد » ، بل كتب ما كتبه في هذا المضمار مدفوعاً بدوافع الإستعجال والإرتجال ـ بالرغم من تصريحات المقدمة ومجروفاً بتيار الألفاظ والكلمات ، وربما كان من أبرز الأدلة على ذلك ما قاله في أواخر الكتاب حيث يختم أبحاث الكتاب بسؤال عام : « أتوجد ثقافة مصرية ؟ »

ويجيب عن هذا السؤال بالعبارة التالية :

« هي موجودة ، متميزة بخصالها وأوصافها التي تنفرد بها عن غيرها من الثقافات . . » (الصفحة ٥٩) .

ولا أراني في حاجة إلى البرهنة على أن مضمون هذه العبارة يناقض القول الذي أشرنا إليه آنفاً ، مناقضة صريحة . .

ومما يجدر بالملاحظة أن مغالاة المؤلف في تشبيه المصريين بالأوروبيين وإنكار

وجود الفرق بينهما لا تنحصر في هذه القضية وحدها ، بل تتعداها إلى أمور أغرب منها : إذ أننا نراه يدعي ـ في محل آخر من الكتاب ـ عدم وجود فرق بينهما من حيث الطبع والمِزاج أيضاً . فهو عندما يُصرح بأنه « لا يخاف على المصريين أن يفنوا في الأوربيين » يبرهن على ذلك بقوله : « . . . ليس بيننا وبين الأوربيين فرق في الجوهر ولا في الطبع ولا في المزاج . . » (الصفحة ٦٣) .

ليس بين المصريين والأوربيين فرق لا في الطبع ولا في المزاج : لا أدري كيف يستطيع أحد أن يدعي ذلك بصورة جدية ؟ فإن الفروق في الطبع والمزاج من الأمور التي تُشاهد على الدوام بين الأمم الأوربية نفسها ، وهي تبدو للعيان بين الإنكليزي والفرنسي والألماني والإيطالي . . . حتى بين الشمالي والجنوبي من الفرنسيين ، والشرقي والغربي من الألمان . والسهلي والجبلي من الطليان . وبين الريفي والمدني والصانع والتاجر ، والمثقف والعامي من جميع هؤلاء . . فكيف يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه ؟

إنني أميل إلى الحكم بأن الدكتور طه حسين لم يكتب هذه العبارة أيضاً عن تأمل واقتناع ، بل كتبها بدافع الإستعجال وتحت تأثير توارد الكلمات .

« اني لا أكون من المغالين إذا قلت : إن « نزعة التسرع في الحكم والاسراف في الكلام » من النزعات المسؤولة عن معظم مباحث كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » وهذه النزعة هي التي ورطت المؤلف في مآزق غريبة ، وأوقفته مواقف لا تخلو من التناقض في بعض الأحيان .

وللبرهنة على ذلك أود أن أستعرض ـ علاوة على ما ذكرته آنفاً ـ ما جاء عن الأزهر في الأقسام المختلفة من الكتاب .

يذكر الأستاذ طه حسين الأزهر ـ في كتابه هذا ـ أولاً عندما يبحث عن اتصال مصر بالحضارة الأوربية فيتوسع كثيراً في وصف هذا الاتصال ، لأنه يعتبر دليلاً على عدم وجود فرق جوهري بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية إذ يقول : « إننا لا نجد في هذا الإتصال من المشقة والجهد ما كنا نجده لو أن العقل المصري مخالف في

جوهره وطبيعته للعقل الأوروبي» (الصفحة ٣٥).

وعندما يتطرق المؤلف إلى حالة الأزهر ـ خلال هذا البحث ـ يعرضه لنا كمعهد مسرف في التجديد إذ يقول حرفياً ما يلي :

« كل شيء يدل ، بل كل شيء يصيح بأن الأزهر مسرف في الإسراع نحو الحديث ، يريد أن يتخفف من القديم ما وجد إلى ذلك سبيلاً . . . » (الصفحة ٣٤) .

غير أننا نراه في محل آخر من الكتاب ، يتراجع قليلاً عن تعبير « الإسراف » الذي إستعمله في هذا المقام لأنه يقول : « أصبح الأزهر مسرعاً إلى هذه الحضارة ، يدفعه إسراعه إلى شيء يشبه الإسراف إن لم يكن هو الإسراف» (الصفحة ٦١) كما أننا نراه في محل آخر يتناسى كل ذلك فيقول :

« إن الأزهر بحكم تاريخه وتقاليده وواجباته الدينية بيئة محافظة تمثل العهد القديم والتفكير القديم ، أكثر مما تمثل الحديث والتفكير الحديث . . » (الصفحة ٩١) . ثم نراه يضيف إلى ذلك ما يلي :

« شيء آخر لا بد من التفكير فيه ، وهو أن هذا التفكير الأزهري القديم قد يجعل من العسير على الجيل الأزهري الحاضر إساغة الوطنية والقومية بمعناها الأوربي الحديث . . » (الصفحة ٩٢) .

وفي الأخير عندما ينتقل إلى بحث المنافسة القائمة بين الأزهر[1] وبين الجامعة لا يتحرج المؤلف في إبداء رأي يناقض رأيه الأول مناقضة صريحة إذ يقول :

« يقتضي أن يعدل الأزهر عدولاً تاماً عما دأب عليه من الإنحياز إلى نفسه والعكوف عليها والإنقطاع عن الحياة العامة . وقد يقال : إن الأزهر قد أخذ يترك

(١) نحن لا شك نشعر بالحاجة الى اصلاح الأزهر ، فهو في حالته الحاضرة لا يقوم بمهمته ، فقد غدا عشاً للفلسفة والتصوف والمنطق وعلم الكلام والجهل المريع بالسنة النبوية الصحيحة .

هذه السيرة ويتصل بالحياة العامة ويأخذ بحظوظ حسنة من الثقافات الحديثة على إختلافها . وهذا صحيح في ظاهره ، لكنه في حقيقة الأمر غير صحيح . فالأزهر ما زال منحازاً إلى نفسه مستمسكاً بهذا الإنحياز حريصاً عليه . . . » (الصفحة ٤٧٥) .

أنا لا أود أن أبدي رأياً في الأزهر في هذا المقام ، غير أني أريد أن ألفت الأنظار إلى الإختلافات الموجودة بين هذه الآراء التي صدرت من قلم واحد في موضوع واحد في كتاب واحد ! غير أن هناك شيئاً أغرب من كل ذلك أيضاً : فإن المؤلف لا يكتفي بالبرهنة على عدم وجود فرق جوهري بين العقل المصري والعقل الأوروبي ، بل يحاول أن يبرهن على أن مصر ليست جزءاً من الشرق ، ويسير بين سلسلة آراء وملاحظات ـ يكتنفها الغموض والتضارب من كل الجهات ـ ويلوم الأوروبيين الذين يقولون إن مصر جزء من الشرق ، وأن المصريين فريق من الشرقيين ، ثم يقول : « إن من السخف الذي ليس بعده سخف إعتبار مصر جزءاً من الشرق » . . (ص ١٨) .

غير أنه لا يلبث أن يتناسى قوله هذا ، ويدخل المصريين في عداد الشرقيين ، في عشرات المواضيع من الكتاب . . . لا أرى حاجة في هذا المقام ـ لتعدادها ، فأكتفي بذكر ما يقوله المؤلف في هذا الشأن في أواخر الكتاب ، عندما يشرح إقتراحه في صدد فتح مدارس مصرية في الأقطار العربية ، فإنه يقول إذ ذاك : « ما أظن أن السياسة الوطنية لهذه الأقطار تكره أن تنشأ فيها مدارس مصرية تحمل إلى أبنائها ثقافة عربية شرقية ويحملها إليهم معلمون شرقيون مثلهم » .

ردّ الدكتور زكي مبارك

كتب في مجلة الرسالة في العدد الصادر في ٢٣/ ١/ ٣٩ الدكتور زكي مبارك مقالاً في بابه « وللحديث شجون » هذا نصه :

أيها الأستاذ الجليل :

تفضلت فأهديت إليّ نسخة من كتابك الجديد (مستقبل الثقافة في مصر) وكان من واجبي أن أشكر لك هذه الهدية بخطاب أُسجل فيه هذا التلطف . ولعلني لو حاولت ذلك لاهتديت إلى أن من الخير أن أنتهز الفرصة وأشرب معك كأساً من الشاي في بيتك لنجدد العهد ، ولكني آثرت أن أشكر لك هذه الهدية بأسلوب آخر هو الهجوم عليك .

وما كان ذلك حباً في المشاغبة كما يتوهم بعض من لا يفقهون وإنما كان ذلك لأني أشعر أننا أسرفنا في حب السلام ، والسلام ضرب من الموت ، وأعتقد أننا في هذه الأيام نختلف أقل مما يجب ويا ويلنا إذا لم نختلف !

ويسرني أن أعرف فيما بيني وبين نفسي أني لم أقصر في محاربتك ، ولم يفتني أن أنذر رجال التعليم بخطرك ، وقد قلت لهم بصوت يسمع أهل القبور : « إن هذا الرجل سينتزع من أيديكم كل شيء » فما استمع مستمع ولا إستجاب مجيب وكم قلت للغافلين: إن طه حسين ليس أعلم العلماء، ولا أحكم الحكماء وإنما هو رجل «متحرك» كما يعبّر أهل بغداد، فتحركوا يا جامدين لتسدوا عليه الطريق.

كم قلت : إن من الغفلة أن يسكت رجال التعليم إلى أن يسمعوا صوت الناقوس من طه حسين ! وما قلته لرجال التعليم قلت بعضه لنفسي ، ففي كتابك الجديد آراء أذعتها من قبلك في الجرائد والمجلات ، ولكني لم أحتفل بها كما احتفلت فأذيعها في كتاب خاص ، ولو أني فعلت لأضعت عليك فضل السبق . ولكن ما فات فات .

ما كان يسرني أن تنتصر ، وإن كنت أقسمت يمين الوفاء لطلبة الآداب ،

ولكن ماذا أصنع وأنا مضطر لكلمة الحق في إنصافكم بحكم الضمير والواجب ؟ ماذا أصنع وأنا أرى أنصاري في مخاصمتك لا يملكون غير مضغ الأحاديث ؟ ماذا أصنع وأنا لا أرى بين رجال التعليم من يُبدي رأياً صحيحاً أو سخيفاً في مستقبل الحياة الأدبية والعلمية ؟

كنت أتمنى أن يشغل بمستقبل الثقافة في مصر عشرات من الباحثين منهم شيخ كلية اللغة العربية وعميد دار العلوم ورئيس المجمع اللغوي ومدير دار الكتب المصرية ، ولكنك تفردت بذلك الإحساس الدقيق الذي يظهر في اختيار الظرف المناسب لما تذيع من مذاهب وآراء ، فإن بدا لبعض الناس أن يحسدك على هذا السبق فليسأل نفسه ماذا صنع بالإجازات الصيفية ، كما صنعت أنت بالإجازات الصيفية .

أتريد الحق يا دكتور ؟

أنت رجل مقتحم ، ومن حق المقتحم أن ينتصر كما انتصرت .

ولكن ماذا في كتابك الجديد ؟

هو في جملته وتفصيله شاهد على أنك تُقدر المسؤولية الملقاة على عاتق عميد كلية الآداب . وأنت في كتابك هذا قد فصّلت ما يعترض مصر من المعضلات التعليمية أجمل تفصيل . وليس لكتابك الجديد بريق الكتب ، ولكن له جلال الكتب التعليمية ، فتقبل مني ومن جميع المنصفين أصدق آيات الثناء .

ثم ماذا ؟ ـ في كتابك الجديد كثير من البديهيات ، فهل يا تُرى من الحق أن نحاسبك على التطويل في شرح البديهيات ؟

الذي حدثك أن المصريين يحتاجون إلى من يدلهم على أنهم في تصورهم وعقليتهم يقتربون من إيطاليا وفرنسا أكثر مما يقتربون من الصين واليابان ؟ من الذي حدثك أن المصريين يحتاجون إلى من يذكرهم بأنهم قوم لهم عقول تُدرك ما يدركه الأوروبيون في ميادين العلوم والفنون والآداب؟

في كتابك بديهيات كثيرة من هذا النوع ، فاستغن عنها إن شئت في الطبعة

التالية لئلا تسجل على وطنك جهل البديهيات ثم ماذا ؟ - قلت إن عقلية مصر عقلية يونانية ، وصرّحت بأن الإسلام لم يعتبر تلك العقلية : فاسمح لي أن أشكوك إلى عميد كلية الآداب ، فعميد كلية الآداب وهو أستاذي وأستاذك ، واسمه طه حسين إن لم تخنّي الذاكرة ، يعرف أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهي مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، الأمة تقضي ثلاثة عشر قرناً في ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين .

عميد كلية الآداب الذي أعرفه أنا ، وإن تجاهلته أنت ، يعترف أن الإسلام رج الشرق رجة أقوى وأعنف من الرجة التي أثارتها الفلسفة اليونانية .

عميد كلية الآداب يثق بأن في مصر شمائل من العقلية اليونانية التي تلقت الدروس عن مصر الفرعونية . ولكنه مع ذلك يؤمن بأن لمصر عقلية إسلامية ، وهذه العقلية الإسلامية لها خصائص يدركها أصغر مدرس في كلية الآداب وأرجو ألا يضيق صدرك بهذه الحقيقة فقد نلتقي بعد أيام أو أسابيع وأشرح لك ما لا يحتاج إلى شرح كما تشغل نفسك بشرح ما لا يحتاج إلى شرح .

من المؤكد عندي أنك لم تستشر عميد كلية الآداب قبل أن تصرح بأن الإسلام لم يغير العقلية المصرية ، وذنبك في هذا التهاون عظيم لأنك قريب منه واتصالك به لا يجشمك أي عناء .

عميد كلية الآداب يعرف كما أعرف أنا وتعرف أنت أنّ الديانات تفترق ثم تجتمع ، وهي في روحها تحدث الناس بأسلوب واحد[1] في أوقات الضعف ولكن هذا لا يمنع من أن هناك خصائص للعقلية المسلمة والعقلية المسيحية . وهذه الخصائص تخفى على العوام ويدركها الخواص ، وكيف لا توجد هذه الخصائص بين دينين مختلفين ، مع أننا نعرف أنّ هناك خصائص عديدة في الدِّين الواحد حين يختلف أصله بعض الإختلاف ؟

إننا نعرف أن للكاثوليكية خصائص وللبروتستانتية خصائص، لأننا نعرف أن

(١) أقوال في الديانات لا تقوم على أساس ، وخاصة في القول بأنها تخاطب الناس في أوقات الضعف .

للعقلية السنية خصائص وللعقلية الشيعية خصائص .

فكيف جاز عندك يا سيدي الدكتور أن تتوهم أن الإسلام لم يغزُ العقلية المصرية بتغيير ولا تبديل ؟

أنا لا أُنكر أن مصر ورثت ما ورثت من علوم اليونان ، ولكني أُنكر أن تكون مصر عاشت بعقلية واحدة منذ آلاف السنين إلى اليوم ، هل تصدق حقاً يا دكتور أن المصريين أحسوا العقلية اليونانية بعد الإسلام إحساساً واضحاً صريحاً؟

في الحق أن المصريين في حياتهم الإسلامية شغلوا أنفسهم بعلوم اليونان أكثر من عشرة قرون ، ولكنك وقد جلست على حصير الأزهر كما تعرف أن المصريين لم يتذوقوا تلك العلوم ، والأزهر لا يزال باقياً فتعال معي نسأل أهله ماذا فقهوا من علوم اليونان ؟ تعال معي يا دكتور لنقضي بين علماء الأزهر ساعة أو ساعتين فستراهم جميعاً يعتقدون بأن العقلية اليونانية هي التي قضت على اليونان بأن يكونوا باعة الفاصوليا والسردين!

أنا لا أُنكر قيمة التراث الذي خلّفه اليونان القدماء ، ولكني أرتاب في أنه وصل إلى ألفاف العقلية المصرية .

وأنت تعرف من نفسك ما أعرفه من نفسي ، أنت تعرف أننا لم نفقه الفلسفة اليونانية إلا بعد أن إرتضنا رياضة عنيفة جداً . فإن ادعيت أنك فقهت فلسفة اليونان وأنت طالب في الأزهر فأنا أقول إني لم أفقه تلك الفلسفة حق الفقه إلا بعد أن تلقيتها على أساتذة أوروبيين في الجامعة المصرية . وما أظنك تتهمني بقلة الذكاء .

والعلوم التي لا تُهضم إلا بعد جهد ومشقة لا تغير عقليات الشعوب وإن غيرّت عقليات الأفراد .

أنت تعرف فيما تعرف أن الفقه الإسلامي نفسه كان يتغير بالإنتقال من أرض إلى أرض فكان للشافعي مذهب في مصر ومذهب في العراق[1] . ومعنى ذلك أيها

(١) أنظر قول الدكتور عمر فروخ في آخر التعليق على المقال .

الأستاذ الجليل : إن العقليات تتغير من وقت إلى وقت بإختلاف ظرف الزمان ، وظرف المكان .

والموجة الإسلامية التي طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين ، والتي خصّت مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد ، هذه الموجة العاتية لا يمكن أن يقال أنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية .

ولكن ما هي تلك العقلية الإسلامية ؟ هي لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال وهي لا تُشرح في مقال واحد ، وإنما يشرحها كتاب ينفق فيه رجل مثلك عدداً من السنين الطوال. وأنا مع هذا لا أُنكر ان الإسلام في مصر له خصائص غير الخصائص التي يجدها الباحث حين يدرس الإسلام في الحجاز أو الشام أو في المغرب أو في العراق .

وقد تعرضت لشرح بعض هذه الخصائص حيث تكلمت على صور المجتمع الإسلامي في كتب الصوفية[1] ، ولكنها ما تزال في حاجة إلى درس أوفى من الدرس الذي يقع في فصل من كتاب .

أقول هذا وأنا أشعر بأني لم أزحزحك تماماً عن موقفك ، ولكني موقن بأني عرّضت صدرك لشبهات تستوجب عليك الحذر حين تتكلم في الموضوع مرة ثانية وأنت تعرف ما أعني .

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟ ثم عرضت بالتفصيل لمشكلة اليوم وهي النزاع بين الأزهر ودار العلوم .

ويجب أن يكون مفهوماً أنك ألفت كتابك لغاية بريئة من الهوى لأنك عميد كلية الآداب ، وعميد كلية الآداب يُشرع للناس مذاهب الحق، وقد تأملت كلامك فوجدته يحتاج إلى تصحيح .

ولعلك تعرف أن هواي ليس مع الأزهر ولا مع دار العلوم وإنما هواي مع

(١) أنظر التعليق في آخر المقال .

الجامعة المصرية ، والفرق بيني وبينك أني لا أكتم هواي كما تكتـم هواك . ومـا أعارضك في هذه القضية إلا لأنك سلكت فيها مسلكاً يخالف العقلية التي صبغتنا بها الجامعة المصرية ، وهي التعمق في درس الإعتراض والمعاني .

أنت وازنت بين الأزهر ودار العلوم والمعاهد المدنية ، وقام عندك الدليل على أفضلية الأزهر ، لأنه خرّج للناس : محمد عبده وسعـد زغلـول ومصطفـى عبـد الرازق ، وأفضلية المعاهد المدنية لأنهـا أخرجـت للنـاس : إبـراهيم عبـد القـادر المازني ، وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وسقطت عندك دار العلوم لأنها لـم تخرج أمثال هؤلاء .

صدقـت يا دكتـور بعض الصـدق فدار العلـوم لـم يكن لأبنائهـا ماضٍ في السيطرة على الحياة الأدبية على نحو ما يُسيطر : هيكل ، والمازني ، والعقاد ، وطـه حسين ، والزيات .

ولكن كلامك على صدقه أحزنني ، وليتك استشرت عميد كلية الآداب قبل أن تنشر هذا الكلام المحزن الموجع .

أحزنني كلامك لأنه اصطبغ بالمغالطة والإسراف .

أنت رجل معلم يا دكتور ، ومن العيب عليك أن تؤذي إخوانك المعلمين . أتراك تؤمن في سريرة نفسك بأنك لـم تحكم في هذه القضية بغير العدل ؟

تعال أناقشك الحساب .

إن رجال دار العلوم قد إشتغلوا جميعاً بالتعليم ، ومهنة التعليم تقتل الأديب أبشع القتل . وأين المعلم الذي تسمح له وزارة المعـارف بأن يستوحـي الحياة كما يستوحيها الأدباء الذين سيطروا على هذا الجيل ؟

وهنا أوجه إليك كلمة مُرة ستؤذيك أشـد الإيذاء : مَن الـذي زين لك أن تعتدي على الجنود المجهولين ؟ أنت تعرف أن الفرنسيين يسمون التعليم « ما أشقى من يعاني مهنة بلا مجد » .

لك يا دكتور زميل فاضل اسمه إبراهيم مصطفى ، وهو كالفرّاء سيموت وفي نفسه شيء من « حتى » .

فهل يرضيك أن تتجاهل مثل هذا الرجل لأنه لم يسيطر على الحياة الأدبية ولم يشترك في تكوين الجيل الجديد ؟

ومن الذي يسمع اليوم باسم أستاذي وأستاذك سيد يس علي المرصفي وله عليّ وعليك فضل لا ينساه إلا الجاحدون .

أكتب هذا وأنا متألم متوجع لأني أرى عميد كلية الآداب يتجاهل تضحيات المدرسين ، ولأني أشعر بأن هذه الأحكام الجائرة ستسقط من ميزان الحسنات أعمالي في التدريس . ولن يعرف الجمهور غير أعمالي في التأليف وهي لم تكن إلا ثمرات ما انتزعت من أوقات الفراغ .

وما أخافه على نفسي أخافه عليك يا دكتور . فأنت هدف لحملات المتعسفين الذين شرعوا يقولون إن إنتاجك الأدنى قلّ وضُعف ، وهؤلاء الذين لا يذكرونك إلا يوم تخرج كتاباً ينسون كل النسيان أن لك شواغل تعليمية تقل نشاطك وتقل إنتاجك .

وأين المنصف الذي يذكر أننا نحدث تلاميذنا بأشياء لو دونت لخرج منها محصول أدبي نفيس يغمر المكاتب ويُشغل الأندية والمعاهد ؟ أين المنصف الذي يذكر أن من يسيطرون على الحياة الأدبية مدينون أثقل الدَّين للمدرسين المجهولين الذين لا يعرف التاريخ أقدارهم إلا أن صاروا مؤلفين مشهورين ؟

لك يا دكتور زميل فاضل يعيش في زاوية مجهولة من زوايا الخمول هو الدكتور أحمد ضيف ، وأنا أؤكد لك أن هذا الرجل يعد من صدور تلاميذه بالفكر والعقل ، وقد نفعتني صحبته أجزل النفع ، ولكنه لا يستطيع أن يزاحمك لأنه لم يخُرج من المؤلفات مثل الذي أخرجت . فمن واجبك وأنت عميد كلية الآداب أن تضع للتقدير الأدبي ميزاناً غير ذلك الميزان ، من واجبك أن تذكر أن الجمهور الفرنسي لا يعرف شيئاً عن المسيو تونلا أو المسيو مورنيه ، ولكن أمثال هذين الأستاذين لهم تأثير عظيم في تكوين الأذواق الأدبية وإن جهلهم سواد الناس .

وسيأتي يوم ينعزل فيه الدكتور طه إنعزالاً تاماً عن الجمهور ويعتكف في معزل ليحقق مع تلاميذه بعض الوثائق الأدبية والفلسفية ويومئذ يحتاج الدكتور طه إلى من يعتذر عنه أمام الجمهور فيقول إنه يحيا حياة العلماء لا حياة الأدباء . وهل يجهل رجل مثلك أن هناك فرقاً عظيماً بين أستاذ الأدب وبين الأديب ؟ إن أستاذ الأدب تُفسده الشهرة لأنها تشغله بالتعرف إلى الألفاظ والمعاني والأساليب . أما الأديب فيفسده الخمول لأنه يصده عن درس أسرار النفوس وسائر القلوب ويعوقه عن دراسة أسرار الوجود .

وأنت بحكمك الجائر تنسى أساتذة الأدب ولا تذكر غير الأدباء لأنهم على حد قولك استطاعوا أن يسيطروا على الجيل الجديد . . أتراني أفلحت في إقناعك بخطأ رأيك ؟

قل الحق مرة واحدة يا سعادة العميد !

أترك هذه الخواطر ثم أرجع إلى محاسبتك بصورة غير تلك الصورة .

قلت إن الأزهر تخرج فيه محمد عبده وسعد زغلول .

فهل تعتقد أن من طبيعة الأزهر أن يُخرج رجالاً مثل محمد عبده وسعد زغلول ؟ في شواطىء الإسكندرية وبور سعيد كما صنع الشاعر فلان ؟

أين المعلم الذي يستطيع وصف الصراع بين الهدى والضلال بدون أن يخاطر بمركزه في الحياة التعليمية كما وقع ذلك للدكتور فلان ؟

أنت تعرف أني جاهدت أعنف الجهاد لأخلق لنفسي شخصيتين :

شخصية المدرس وشخصية الأديب،ومع ذلك لم أسلم من عدوان السفهاء .

ومتى سيطر لطفي السيد على الحياة الأدبية ؟

كان ذلك يوم كانت حياته خالية من قيود التعليم ، فلما صار مديراً للجامعة المصرية توقر وتزمّت حفظاً لحرمة التعليم .

ومتى سيطر المازني على الحياة الأدبية ؟

كان ذلك بعد أن ترك مهنة التدريس وتفرّغ لاستيحاء الحياة ، ولو بقي المازني معلماً لكان مصيره مثل مصير زميله عبد الرحمن شكري الذي كان يحُس مثل لسع العقرب كلما أشار كاتب في جريدة إلى أن له أشعاراً في الغزل والتشبيب .

ومتى سيطر مصطفى عبد الرازق على الحياة الأدبية ؟

هل يعرف الجمهور شيئاً من تلك السيطرة ؟ وهل يجرؤ مصطفى عبد الرازق على إعلان ما كتب من الوجدانيات ؟ .

إن مصطفى عبد الرازق كتب أجمل ما كتب بإمضاء مستعار لا يعرفه غير الخواص ، وكان ذلك لأن حياته في التعليم الديني والمدني قضت بأن ينسحب جهرة من الحياة الأدبية .

الحق يا دكتور أن رجال دار العلوم لا يُطلب منهم إلا أن يكونوا معلمين صالحين ، وقد كانوا بالفعل .

إن كان ذلك صحيحاً فأين الأزهري الذي خلف محمد عبده ؟

وأين الأزهري الذي خلف سعد زغلول ؟

وما أقول به عن الأزهر أقول به عن المعاهد المدنية ، فابحث عن المنطق الذي يزكي حجتك إن استطعت ، وما أحسبك تستطيع .

وقد وقفت في كلامك عند الماضي وبعض الحاضر .

فهل يحق لي أن أسألك كيف تجاهلت أقدار من خرّجت دار العلوم من الرجال الذين سيطروا على الحياة الأدبية ؟

أما يمكن أن يقال إن دار العلوم تخرج فيها عبد العزيز جاويش وحفني ناصيف ومحمد الخضري وعبد المطلب وعبد الوهاب النجار وأحمد السكندري ! أتظن أن

هؤلاء لم يُسيطروا على الحياة الأدبية حيناً من الزمان !

وقلت إن دار العلوم لم تُغيّر البصرة والكوفة ، فهل غيرت أنت نحو البصرة والكوفة وأنت أستاذ بالجامعة المصرية منذ عشرين سنة ؟

أنت رجل مقتحم يا دكتور ، وهذا أجمل ما فيك من شمائل وخصال ، فامض في اقتحامك إلى غير نهاية ، فمصر لا ينجح فيها غير المقتحمين !

من حقك أن تدوس دار العلوم لأنك مقتحم ، وسيكون من واجبي أن أفرح بانتصارك ، لأني متخرج الجامعة المصرية وسأقاسمك الغنائم والأسلاب ، فآخر شهادة ظفرت بها من الجامعة المصرية مذيلة بإمضاءات أحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وطه حسين . ولكن يعز علي وعليك أن تنهزم دار العلوم بعد أن صنعت في التاريخ الحديث ما لم يصنع الأزهر ولا الجامعة المصرية ، مع الاعتراف بفضل هاتين الجامعتين العظيمتين .

يعز علي وعليك يا دكتور أن ينهزم معهد كان من رجاله أساتذتي وأساتذتك ، أنت تعرف يا دكتور أن كلية الآداب إنتفعت بأساتذة دار العلوم .

وتعرف يا دكتور أن كلية اللغة العربية إنتفعت بأساتذة دار العلوم فأرجوك باسم الأدب العالي أن تذكر ذلك المعهد بكلمة رثاء يوم يموت !

أيها الأستاذ الجليل :

في كتابك كثير من مواطن القوة ، ولكن يعوزه المنطق . أنت تتحسر أشد التحسر على الفرصة التي ضاعت على دار العلوم في الانضمام إلى الأسرة الجامعية . ولكنك نسيت أن سلامة دار العلوم هي في البعد عن تلك الأسرة الجامعية . وأنت نفسك تذكر أنك قلت غير مرة إنك لا تفهم أن يكون في الجامعة باب يغلق بعد إبتداء الدرس .

فما رأيك إذا حدثتك بأن دار العلوم معهد لا يقل خطراً عن المدرسة الحربية وأن من الواجب أن يراعى فيه نظام المواظبة بالثواني لا بالدقائق ؟

ما رأيك إذا حدثتك بأن طلبة دار العلوم يجب أن يراضوا على الأنظمة العسكرية فلا يعرفوا من الحرب الشخصية ما يعرف أمثالهم في كلية الآداب ؟ يجب أن يكون مفهوماً بيني وبينك أننا لا نفكر في منافعنا الذاتية ، فأنا أدفع ما يتهمك به خصومك على حب السيطرة على أكبر عدد ممكن من المعاهد .

وإذن يكون من المنفعة الوطنية أن نفكر جميعاً في إعداد معلم اللغة العربية ، إعداداً فنياً ، لا جامعياً ، فإن لم تكتف بذلك فلا بأس من أن تقترح أن يظفر مدرس اللغة العربية بدرجة جامعية بعد التخرج في دار العلوم على الأساليب التعليمية وتجاربي في التفتيش أقنعتني بصحة ما أقول ، فقد لاحظتُ أن المدرسين المتخرجين من كلية الآداب يتفوقون في أشياء ويقصرون في أشياء ولذلك تفصيل يضيق عنه هذا الحديث ، فإن أمكن أن يجمع مدرس اللغة العربية بين المزيتين كان لذلك أثر بالغ في تكوين الجيل الجديد . وهذا الذي أقول به لا يوجب إلغاء دار العلوم ولا تغيير نظام كلية الآداب وإنما يوجب أن يتعرف هذان الجيلان بعضهم إلى بعض بلا بغي ولا عدوان .

ويظهر من كلامك أنك راض كل الرضا عن الجامعة المصرية ، ولكنك نسيت أن هذه الجامعة لم تصنع شيئاً في إصلاح ما سيطرت عليه من المعاهد العالية .

هل تعرف يا سيادة العميد أن لغة التدريس هي اللغة الإنجليزية ؟ وهل تعرف أن لغة التدريس في كلية العلوم هي اللغة الإنجليزية ؟ .

لقد نشرت أكثر من سبعين مقالة في دعوتكم إلى جعل اللغة العربية لغة التدريس في جميع المعاهد العالية فلم تقابلوني بغير الصمت البليغ ، وكانت النتيجة أن تسبقكم الجامعة الأميركية في بيروت إلى تحقيق هذا الغرض النبيل .

وتكلمت يا سيادة العميد على وجوب الإكثار من الترجمة وكان الظن أن تذكر أني استطعت مرة أن أقنع وزارة المعارف بوضع لخريجي البعثات يوجب ألا يظفر المتخرج في البعثات بأية ترقية إلا بعد أن يترجم كتابين من غرر المؤلفات الأجنبية في العلم الذي تخصص فيه ، وقد أقرت وزارة المعارف ذلك النظام وأعلنته إلى مبعوثيها

في المعاهد الأوروبية والأميركية . ويقول المرجفون إنك ساعدت على تقـويض ذلك النظام بمعرفة رجل من أصدقائك تولى وزارة المعارف ، فكان ذلك فيما يقال لأنه نظام اقترحه رجل اسمه زكي مبارك وأقره وزير اسمه حلمي عيسى باشا .

فهل يكون معنى ذلك أن الخير لا يكون خيراً إلا حين تقترحه أنت ويقره وزير من أصدقائك ؟

ونسيت يا سعادة العميد أن كلية الآداب تقول أكثر مما تفعل فإن لم يكن ذلك صحيحاً فحدثني أين هي مجلة كلية الآداب التي لم نر منها غير ومضات ؟

ونسيت أيضاً أنك تقول أكثر مما تفعل ، فأنت تدعو الدولة إلى إعفاء الأدباء من أعمالهم الرسمية ليتفرغوا للبحث والدرس ، ثم ننظر فنراك تساعـد الدولـة والدهر على ظلم الأدباء .

فإن لم يكن ذلك صحيحـاً فحدثنـي كيف اتفـق ألا تتحـدث في الإذاعـة اللاسلكية ولا تكتب في الجرائد إلا في مؤلفات من تصطفيهم من الباحثين ، مع أنك مسؤول بحكم منصبك العالي عن الخلوص من شوائب الأهواء .

كان الظن أن تذكر أن من واجب الجامعة المصرية أن تحاسب نفسها قبل أن تحاسب الناس . ولكنك على كل حال مغفور الذنوب لأنك تتكلم في أوقات يراها غيرك أوقات صمت وجمود .

أما بعد فإني أعتقد أني نوهت بكتابك وبأعمالك أعظم تنويه . فإن رأيت في كلامي بعض ما لا يروقك فاعذرني . فقد أُخذَ علينا العهد ألا نقول غير الحق . وهل علمتنا الجامعة المصرية أن نصانع من يظنون أنهم يملكون من السيطرة الأدبية أكثر مما نملك ؟

سترى كيف نروضك على الإقتناع بأن القول المعسول لا يغني عن الصنـع الجميل .

قال الدكتور (ص ٩٩) « . . وأنا مع هذا لا أنكر أنّ الإسلام في مصر له

خصائص غير الخصائص التي يجدها الباحث حين يدرس الإسلام في الحجاز أو الشام أو في المغرب أو في العراق »[1] .

(١) مستقبل الثقافة ١/ ٩٠.

إن هذا القول خطأ فاحش ، فإن الإسلام يُطوّر ولا يتطور وهو ثابت لا يتغير ، كل ذلك من مزاياه ومحاسنه ما دام ديناً عالمياً جاء ليجمع البشرية ولا يُفرقها ويُوحدها ولا يشتتها ، وهذه أمنية كبار العلماء والمفكرين المعاصرين ، للنجاة من اختلاف الشعوب ونزاعها نتيجة اختلاف تشريعها وأهدافها !! بسهولة ! وليس هذا الرأي هو الوحيد في فساده في مقاله ، فإن له أخطاء كثيرة يدركها القارىء .

وهذا الرأي الخاطىء للدكتور زكي مبارك وقع فيه كثير غيره نذكر منهم الأستاذ أحمد أمين ، الذي ذكر في بعض مقالاته أن سبب تغيير الإمام الشافعي رحمه الله تعالى بعض مذهبه في مصر عقب رحلته إليها بعد ترك بغداد ، يعود الى اختلاف البيئتين . وكل ذلك لا صحة له ، وهو نتيجة الجهل .

والسبب الوحيد لترك هذا الإمام لبعض مذهبه ، يعود إلى اطلاعه على أحاديث لم يكن قد سمعها في بغداد نتيجة تفرق الصحابة في الامصار بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم وكان كل منهم يحمل أحاديث غير التي اطلع عليها غيره ، وهذا هو السبب الرئيسي لاختلاف أئمة المذاهب ، فقد أعلن كل منهم أنه غاب عنه كثير من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، وأنه يقول القول اليوم ويرجع عنه غداً ، كل ذلك بسبب عدم جمع السُنة في زمن هؤلاء الأئمة الكرام الذين بذلوا جهدهم لخدمة الشريعة قدر استطاعتهم جزاهم الله تعالى خيراً .

ثم جاء علماء الحديث بعد الأئمة فجمعوا السُنّة كلها بأسلوب علمي منقطع النظير وقد أعلن الشعراني في الميزان أن الامام أبا حنيفة لو جاء اليوم لترك كثيراً من آرائه ولرجع إلى السنّة ومثله بقية الأئمة . فهم أسرى بيد الشريعة ومما يؤسف له ويبعث في النفس الأسى أن هذا الجمع المبارك لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، لم يقنع مقلدة المذاهب المتعصبين من الشيوخ وطلبة العلم المتعصبون لمذاهبهم ، فلو أتيت كل منهم بكل آية أو حديث يخالف مذهبهم ما تبعوه ، فإذا لم تكن هذه هي الردة عن الإسلام ، فما هي الردة وقد قال الله تعالى: ﴿فإن تنازعهتم في شيء ، فردوه إلى الله والرسول! إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأعظم تأويلا﴾ ، وقال سبحانه : ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، أن تصيبهم فتنة (أي كفر) أو يصيبهم عذاب أليم!!﴾ .

اللهم ردنا إلى دينك رداً جميلاً ! (م . م .) .

تعليق على مقال زكي مبارك في بحث نقد « مستقبل الثقافة »

أطلعت على بحث للأخ الفاضل الكاتب القدير أنور الجندي في كتابه : « زكي مبارك ـ دراسة تحليلية لحياته وأدبه[1] » تحدث فيه عن تناقضه في آرائه عن التصوف ، رأيت أن أقتطف منه ما يلي مع شيء من التعليق .

زكي مبارك والتصوف

كتب (زكي مبارك) عن التصوف مرتين : المرة الأولى عام ١٩٢٤ عندما أصدر رسالته « الأخلاق عند الغزالي » والمرة الثانية عندما أصدر رسالته (التصوف الاسلامي) ١٩٣٧ ـ أي بعد ثلاثة عشر عاماً . وفي المرة الثانية تغير رأي زكي مبارك عما كان من قبل ـ ولا شك أن هذه شجاعة أدبية منه . فقد هاجم مبارك الامام الغزالي في رسالته الأولى . ولكنه عاد فاعتذر اليه في رسالته الثانية ، . . . ولكن لزكي مبارك قصة مع الصوفية تسبق ذلك بأمد طويل ، وترجع الى عام ١٩١٢ ، وعندما كان طالباً في الأزهر . ولعل هذه الصلة التي بدأها في ذلك الوقت هي مصدر حملته على التصوف ، عندما جاء الوقت الذي يختار فيه الغزالي ، ليجعله موضوع بحثه الذي تقدم به للحصول على اجازة الدكتوراه . وقد ذكرنا من قبل أنه قال : « في ١٩١٢ وأنا طالب في الأزهر اشتدت رغبتي في صحبة الصوفية وألح بي الشوق فأخذت أنتقل من ناد الى ناد حتى تعرفت الى رجل فاضل من أساتذة الأزهر الشريف كان يومئذ من كبار الصوفية . فأخذت عنه العهد وبدأت أقوم بالأدوار على الطريقة الشاذلية . (وكان في صوتي من المرونة ما يساعد على القاء الأناشيد . فكنت من المتقدمين في الأنشاد وفي ١٩١٥ رآني ذلك الشيخ صالحاً للأستاذية في الطريق . فأضاف اسمي الى قائمة الخلفاء . وكان لي في سنتريس وغير سنتريس مريدون وأتباع . وأذكر أنني كنت أحسبني يومئذ من الموفقين .)

---

(١) ص ١١٠ وما بعدها.

وفي ١٩١٨ قام بيني وبين الشيخ الطهاوي نزاع . فقد كان يراني قليل الرعاية للتقاليد الصوفية . وتأملت فرأيت السبب تافهاً كل التفاهة ، فقد غاظه أن أتكلم في حضرته . . وقد وضعت رجلاً على رجل وهي جلسة تدل فيما يعني على تعاظم وكبرياء . وحاسبت نفسي . فرأيت أني لم أفعل ذلك عن عمد . ثم خطر بالبال أن الصوفية إيمان بعلام الغيوب فلو كان ذلك الرجل من الملهمين لما آخذوني على هفوة شكلية لم يكن لي في وقوعها قصد ، ولم تسبقها نية سوء وانتهى الحديث بالقطيعة ومرت أيام عانيت فيها من الضجر والغيظ ما عانيت وحاولت أن أصلح ما بيني وبين الشيخ ، ولكني لم افلح في جذب نفسي اليه ، فقد اقتنعت بأن بعض الصوفية أرباب ظواهر ، وإن ادعوا أنهم أرباب قلوب . وفي خلال تلك الأزمة ألفت كتاب (الأخلاق عند الغزالي) الذي نلت به اجازة الدكتوراه من الجامعة المصرية في ١٩٢٤ وهو كتاب تجنيت فيه على التصوف (لم أر كاتباً حتى الآن رجع عن رأي خطأ قديم غير زكي مبارك) . وما كاد ينشر هذا الكتاب حتى ضعفت حماستي لما أقمته عليه من أساس العقل ، لأن الدنيا كانت بدأت تريني أني تحاملت على الغزالي وتعجلت الحكم على آرائه في سياسة النفس : فقد كان يدعو الى النفرة من الناس ، وكنت أرى ذلك من الجبن في الحياة الاجتماعية ، ثم تكشفت بعض الحقائق ، فرأيت المروءة تقضي في أحيان كثيرة بالهرب من الناس .

وإنني أعلق على ما تقدم بما يلي :

(١) إن قول الأستاذ أنور الجندي :

« وفي المرة الثانية تغيرّ رأي زكي مبارك عما كان من قبل - ولا شك أن هذه شجاعة أدبية منه ، فقد هاجم مبارك الإمام الغزالي في رسالته الأولى ، ولكنه عاد فاعتذر اليه في رسالته الثانية . . . »

إن تغيير زكي مبارك رأيه في الغزالي لا يدل على أن ذلك صواباً ، فضلاً عن أن يكون شجاعة أدبية . . ! وهو المعروف بسلوكه وتقلبه وعدم تمكنه في العلوم الاسلامية .

وخاصة وأنه لم يكن أوّل من تصدى للغزالي بالاتهام فقد انبرى لأبي حامد في القديم والحديث جماعة من العلماء نذكر منهم الإمام ابن الجوزي والإمام ابن تيمية وغيرهما كثير.

قال الإمام ابن الجوزي :

« . . . وجاء أبو حامد الغزالي فصنف لهم (أي للصوفية) كتاب الأحياء على طريقة القوم وملأه بالأحاديث الباطلة ، وهو لا يعلم بطلانها[1] وتكلم في علم المكاشفة وخرج عن قانون الفقه .! وقال (أي الغزالي) إن المراد بالكواكب والشمس والقمر اللواتي رآهن ابراهيم صلوات الله عليه ، أنوار هي حجب الله عزّ وجل ، ولم يرد هذه المعروفات ، وهذا من جنس كلام الباطنية !! »

وقال ابن الجوزي أيضاً بعد ذلك : وقد روينا في أول كتابنا هذا (أي تلبيس ابليس) عن ذي النون نحو هذا ، وروينا عن أحمد بن حنبل (ر) أنه سمع كلام الحارث المحاسبي فقال لصاحب له : لا أرى لك أن تجالسهم .

وعن سعيد بن عمر البردعي، قال: شهدت أبا زرعة ، وسئل عن الحارث المحاسبي وكتبه (الذي تبنى الغزالي آراءه) فقال للسائل : إياك وهذه الكتب ! هذه الكتب : كتب بدع وضلالات!! عليك بالأثر (أي الكتاب والسنة) فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب .

وللامام ابن الجوزي كلام كثير عن انحرافات الغزالي فليرجع اليه في كتابه القيّم : « تلبيس ابليس» الذي قدمت له وحققت أحاديثه ، ولا يستغني عنه مسلم .

كما انبرى شيخ الاسلام ابن تيمية (ر) للغزالي في كثير من المواضع وتعقبه في كثير من بحوثه حتى كاد يجرده من العلم ، ويتهمه في إيمانه (فكان مما قاله : «في كتابه «المضنون على غير أهله» وهو فلسفة محضة ، قولة المشركين العرب خير منه»[2] .

٢ ـ وقال زكي مبارك : « وفي سنة ١٩١٢ وأنا طالب في الأزهر اشتدت

---

(١) ومن يدري أنه لا يعلم بطلانها ؟ ! م . م

(٢) في كتاب : « الرسائل والمسائل» ص ٨١

رغبتي في صحبة الصوفية وألحّ بي الشوق ، فأخذت أنتقل من ناد الى ناد حتى تعرفت إلى رجل (فاضل !) من أساتذة الأزهر (الشريف) كان يومئذ من كبار الصوفية ، وبدأت أقوم بالأدوار على الطريق الشاذلية . . . »

وهي طريقة قائمة على الرقص والغنج ، وتحريف اسم الله تعالى (آه إيه) مما لم يمكنه أن يصدر من العقلاء ، ومن أوراده الكافرة : «اللهم انشلني من أوحال التوحيد (!!) وألقني في بحار الوحدة» ، أي وحدة الوجود التي أجمع العلماء على كفر من اعتقد بها . والغريب إن الصوفية يستدلون على صحة هذه النظرية بالقول الآتي : «كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان»

والشطر الأول منه حديث صحيح رواه البخاري : (كان الله ولا شيء معه) واما الشطر الآخر (وهو الآن على ما عليه كان) فكلام كفر ! معناه أن هذا الكون وهذه المخلوقات هي الله سبحانه نفسه تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً !

٣ ـ وقال زكي مبارك : (وما كاد ينشر هذا الكتاب حتى ضعفت حماستي لما أقمته عليه من أساس العقل ، لأن الدنيا كانت بدأت تريني أني تحاملت على الغزالي وتعجلت الحكم على آرائه في سياسة النفس ، فقد كان يدعو الى النفرة من الناس ، وكنت أرى ذلك من الجبن في الحياة الاجتماعية ، ثم تكشفت بعض الحقائق (!) فرأيت المروءة تقضي في أحيان كثيرة بالهرب من الناس» !

ـ إنّ قول «ضعفت حماستي لما أقمته عليه من أساس العقل» دليل على جهله بالشريعة من بادىء الأمر التي لا تقوم على العقل وحده ، بل على الكتاب والسنّة أولاً ، وليست على الهواجس والخطرات أيضاً التي جعلته يستصوب رأي الغزالي من النفرة من الناس ، ولو كان الغزالي ومثله زكي مبارك ، مطلعين على الشريعة لما كان لهما مثل هذا الرأي في النفور من الناس وهجرهم فقد جاء في الحديث : «المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم !!» رواه الترمذي وابن ماجه وسنده صحيح .

وممن تصدى للغزالي في العصر الحديث الدكتور عمر فروخ فقد قال في كتاب

« التصوف في الاسلام »

«حينما ينذر الانسان نفسه للكتابة تتعلق نفسه بموضوعات وتصدف عن موضوعات . فمن الموضوعات التي صدَفت نفسي عنها طويلاً « التصوف » لا لاتساع ذلك الموضوع وتشعبه ووعورة السبيل إليه فقط ، بل لأنه في بعض مظاهره مرض مزدوج يصيب الفرد ويصيب المجموع . أما في مجموعه فهو موضوع بعيد عن الفلسفة . ولقد زاد في انصراف نفسي عن التصوف أنه وسيلة من وسائل الأوروبيين في استعمار الشرق .

إن الأمم القوية الناهضة، كالأجسام الصحيحة المتسامية ، لا تألف الايغال[1] في التصوف . أما الأمم الضعيفة الخاملة القانطة اليائسة فهي التي تميت حواسها ثم تغمض أعينها عن مجالي الفخر والقوة لتستنيم إلى خيالات تتراءى أمام عينيها الذاهلة وعقولها الحائرة .

ألا يعجب القارىء إذا علم أن حُجّة الإسلام أبا حامد الغزالي ـ الذي وقف نفسه وعلمه على خدمة الدين لحفظ الإيمان على العامة ـ شهد القدس تسقط في أيدي الإفرنج الصليبيين وعاش اثنتي عشرة سنة بعد ذلك ولم يشر إلى هذا الحادث العظيم . ولو أنه أهاب بسكان العراق وفارس وبلاد الترك لنصرة اخوانهم في الشام لنفر مئات الألوف منهم للجهاد في سبيل الله ولوفّروا إذن على العرب والإسلام عصوراً مملوءة بالكفاح وقروناً زاخرة بالجهل والدمار . وما غفلة الغزّالي عن ذلك إلاّ لأنه كان في ذلك الحين قد انقلب صوفياً ، أو اقتنع على الأقل بأن الصوفية سبيل من سبل الحياة ، بل هي أسدّ تلك السبل وأسعدها »[2] .

ولا ريب في أن الأوروبيين قد عرفوا ذلك واستغلوه في أعمالهم الاستعمارية . . . من أجل ذلك يجب ألاّ نستغرب إذا رأينا المستعمرين يغدقون على

(١) يظهر أن هذا الدكتور فيه جذور صوفية ، وهو متأثر بها ، والا فما معنى قوله : « الايغال في التصوف » !! مع العلم ان قليل الشر ليس بقليل . . . راجع تعليقنا الآتي : (م ٠ م) .

(٢) ص ١٠

الصوفية الجاه والمال[1] . فرب مفوض سام لم يكن يرضى أن يستقبل ذوي القيمة الحقيقية من وجوه البلاد وقد ضربوا اليه من أقصى منطقة انتدابه ـ لضيق الوقت ! أو لقلة المبالاة ـ ثم تراه يسعى إلى زيارة حلْقة من حلقات الذِّكر ويقضي هناك زيارة سياسية تستغرق الساعات . أليس التصوف الذي على هذا الشكل[2] ـ يقتل عنصر المقاومة في الأمم ؟

وتكثر التآليف الصوفية في أمم أوروبة على نسبة اهتمامها بالاستعمار ، ولذلك عندهم هدفان :

أولهما : تثقيف قومهم بأسلوب من أساليب الاستعمار .

ثانيهما : إغراق المثقفين من سكان الشرق بكتب الصوفية لصرفهم عن . . . عرين العزة وميادين الكفاح .

وكلما بحثت عن أحد المؤلفين في الصوفية ، رأيته ينتمي الى دوائر في بلاد

---

(١) لتخدير العالم الاسلامي (م.م)

(٢) لقد أعاد هذا الدكتور مرة أخرى تحديده للتصوف بقوله : التصوف الذي على هذا الشكل مع العلم أن التصوف الذي على هذا الشكل أو غيره ليس من الاسلام في شيء ، ومصادرها كلها من البوذية والبرهمية واليونانية وغيرها ، يمزجها المتصوفة في كتبهم بشيء قليل من الآيات والأحاديث التي يمكن أن تكون موضوعة وباطلة ، مع تأويل هذه الآيات والأحاديث الصحيحة تأويلاً بعيداً عن الشرع والعقل واللغة ، كل ذلك ينطلي على المسلمين واستدراج المغفلين والمبتدئين من المثقفين ، بل بعض كبار المطلعين ، فيذهبون ضحاياها ويخدمون الاستعمار من حيث يدرون أو لا يدرون . والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها آسفين : الدكتور ابراهيم مدكور في القاهرة فقد اشترك ـ ويا للأسف ـ مع بعض المستشرقين في إعداد وتحقيق كتاب «نصوص الحكم» لابن عربي ، فهو صوفي محروق ، فيا لضياعة علمه ! وقد كنت قد اشتركت في مهرجان الغزالي الذي أقيم بدمشق خلال الوحدة مع مصر ، واشترك فيه علماء وأدباء من آسيا وأفريقيا .

وقد كان الدكتور مدكور ، وكان رئيساً للمهرجان يعاملني معاملة حسنة ويتحمل قسوتي على التصوف إلاّ أنه لم يسجل هذه المناقشات في الكتاب الذي صدر بهذه المناسبة ، ولم يسمح لي بالقاء محاضرتي وكان عنوانها : (الغزالي في ميزان الأمامين ابن الجوزي وابن تيمية لما فيها من حملات عنيفة وحقائق قاسية .

تهتم بالاستعمار مباشرة أو غير مباشرة[1] . . . . » ولكن قلّ أن تجد في المستشرقين المشتغلين بالتصوف أمثال رينولد نيكلسون[2] في مقدرته وذوقه الأدبي وسلامة طويته على ما يبدو لنا .

ولكن المتصوفة يعللون سكوتهم ورضاهم بما ينزل بقومهم من المصائب بأن هذه المصائب عقاب من الله للمذنبين من خلقه ، فإذا كان الله قد سلّط على قوم ظالماً فليس لأحد أن يقاوم إرادة الله أو أن يتأفف منها .

وليس الغزالي وحده ، المنحرف عن الاسلام ، بل جميع الصوفيين مثله فقد قال الدكتور عمر فروخ :

وكذلك عاش عمر بن الفارض ومحيي الدين بن عربي في إبّان الحروب الصليبية ولم يرد لتلك الحروب ذكر في آثارهما . وبينما كان الإفرنج يغيرون على المنصورة في مصر (٦٤٧ هـ و ١٢٤٩ م) تنادى المتصوفة ليقرأوا رسالة القشيري ويتجادلوا في كرامات الأولياء[3] . ويزعم الصوفية أن لهم كرامات ، ولكنهم لم يظهروا هذه الكرامات للدفاع عن دينهم وأوطانهم ، وإن كانوا قد أظهروها في أحوال فردية . زعم الشعراني أن امرأة من همذان جاءت باكية الى الشيخ أبي يعقوب يوسف الهمداني (الهمذاني ؟) وقالت له : إن إبني أسره الإفرنج ، فصبّرها فلم تْصبِر . فقال : اللهم فُكّ إساره وعجّل فرجه ، ثم قال لها : اذهبي إلى دارك تجديه فيها . فذهبت المرأة فإذا ولدها في الدار . . . . . ونسب الشعراني نفسه مثل هذه القصة إلى الشيخ إبراهيم المتبولي .

---

(١) ص ١٦

(٢) رينولد الن نيكلسون Reynold Allen Nicholson مستشرق بريطاني (توفي حديثاً) اختص بالأدب العربي ووقف جهده على التصوف . راجع فهرست المصادر والمراجع لمعرفة كتبه .

(٣) الشعراني ١ : ١٤ - ١٥ (٢) ١ : ١٥١ (٣) ٢ : ٩٤ (٤) ٥ : ٨٤

ولكن السُبكي ذكر أن الشيخ عز الدين . . . بن مهذب السُّلمي الدمشقي ورد على مصر . فلما كانت وقعة المنصورة ورأى حال المسلمين نادى بأعلى صوتـه، مشيراً إلى الريح : يا ريحُ خذيهم ! فعادت الريح على مراكب الفرنج فكسرتها وكان الفتح (نصر المسلمين) ، وغرق أكثر الفرنج . . .

فإذا كان لهؤلاء القوم مثل هذه الكرامات ـ ومثل هذه لم يكن لهم ـ فلقد كان من الجناية على الدين نفسه أن يسكتوا عن الفرنج الصليبيين في بلاد المسلمين ، وعن غيرهم من المغيرين الظالمين .

مصر شرقية أم غربية

بقلم: سيّد قطب

للدكتور وجهة عامة في كتابه مستقبل الثقافة في مصر : أن تكون ثقافتنا في المستقبل ثقافة أوروبية خالصة . وأن يكون إتجاهنا في الحياة إتجاهاً أوروبياً خالصاً. وأن نتأثر أوروبياً كما تأثرت بها اليابان، في غير تردد ولا تلكؤ ، وبلا انتقاء أو تمحيص أو اختيار.

وهو لا يحب أن تكون هذه الوجهة ابتداء ، ولا أن تكون جديدة يبتدعها هذا الجيل ، لأنها في هذا الوضع تثير اعتراضات يتوقاها هو أشد التوقي ، بل يريد لها أن تكون امتداداً ، وإتباعاً للماضي ، وهو لهذا يقرر في سبعين صفحة من صفحات الكتاب هذه النظرية : إن مصر أمة غربية وليست أمة شرقية، وأنها كانت غربية منذ عهد الفراعنة حتى اليوم ، ولم تكن يوماً ما شرقية ، ولم تطق أن تكون يوماً ما شرقية !

وهو يعني بالغرب هنا أوروبا ، ويعني بالشرق الهند والصين واليابان ، ويتجنب أن يذكر غيرها من الأمم إلا تلميحاً إلى فارس وجزيرة العرب ، لحكمة سنعلمها فيما بعد !

وفي هذا الفصل أروع قفزات الدكتور الذهنية التي حدثتك عنها آنفاً ، بل فيه تتجمع كل هذه القفزات ما عدا قليلاً منها ينسرب فيما بعد في الكتاب كله .

وليس هناك اعتراض جدّي على الحقائق الرئيسية التي جاء بها في هذا الفصل[1] ، فقد يكون معظمها صحيحاً في ذاته ، ولكن الاعتراض على الطرق

[1] نحن لا نشارك السيد في هذا الرأي وفي بعض آرائه الأخرى التي يخالفها هو نفسه (م . م .) .

االعقلية التي يسلكها إلى هذه الحقائق .

ولما كان الدكتور عميداً لكلية الآداب ، ومن زعماء الأدب والثقافة في هذا الجيل ، فإنه لا يعنينا منه أن يذكر لنا حقائق صحيحة في جمُلتها ، بل يعنينا أكثر أن تكون الطرق العقلية إلى هذه الحقائق صحيحة كذلك ، حتى يكون نموذجاً كاملاً لتلاميذه الكثيرين، ولمريديه الكثيرين أيضاً !

ونحن لهذا وحده سنتتبع بشيء من الدقة والتطويل آراءه في هذا الفصل ، وإن كنا نُعلن مقدماً أننا معه ـ في شيء من التلطيف والتعديل ـ في الغاية الآخيرة التي رمى إليها أم كتابه . إنما المتاع العقلي الطريف في هذه المناقشة وتصحيح بعض الفكرات الجزئية ، هو الذي يجذبنا إليها .

ويبدأ الدكتور الحديث هكذا :

« ولكن المسألة الخطيرة حقاً ، والتي لا بد من أن نُجليها لأنفسنا تجلية تزيل عنها كل شك ، وتعصمها من كل لبس ، وتبرئها من كل ريب هي أن نعرف : أمصر من الشرق أم من الغرب ؟ وأنا لا أريد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي ، وإنما أريد الشرق الثقافي والغرب الثقافي ؟ ».

« فهل العقل المصري شرقي التصور والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ؟ وبعبارة موجزة جلية أيهما أيسر على العقل المصري : أن يفهم الرجل الصيني أو الياباني أو أن يفهم الرجل الفرنسي أو الانجليزي؟»

ووضع المسألة في هذا الوضع تتجلى فيه كل مهارة الدكتور في المناقشة : فهو قد قسم الدنيا قسمين اثنين لا ثالث لهما : قسم تمثله الصين واليابان ، وإن شئت فضم إليهما الهند وأندونيسيا وقسم تمثله فرنسا وانجلترا وإن شئت فضم إليهما كل دول إوروبا وأمريكا .

فلا بدّ للإجابة عن سؤال الدكتور في هذا الوضع أن تكون مصر أمة غربية ؛ لأنها ـ بلا تردد وبدون شك ـ تفهم الانجليزي والفرنسي أكثر مما تفهم الصيني والياباني في هذا الزمان ! وهذا ما قصد إليه الدكتور من توجيه السؤال على هذا المنوال .

ولكن ـ لا ريب ـ أن وجه المسألة يتغير . لو كان الشرق الذي يواجهك به غير الصين واليابان والهند وأندونيسيا . أي لو كان هناك قسم ثالث للدنيا يمثله الشرق العربي والغرب ومصر بينهما حلقة الاتصال .

ثم يزداد وجه المسألة تغيراً لو كانت الدنيا أكثر أقساماً حسب عقلياتها المختلفة ـ وهو الواقع ـ فكانت أوروبا وأمريكا تنقسمان بحسب العقلية الديمقراطية والعقلية الدكتاتورية ـ وبينهما خلاف أساسي لا شك فيه ـ وكان الشرق ينقسم بحسب أجناسه وهي كثيرة ، وحسب طبيعة بلاده وهي متغايرة . . إلى آخر الأقسام التي لا بدّ أن يفطن إليها ويدقق في تمحيصها من يريد وضع مناهج الثقافة حسب العقليات .

وعلامَ يبني الدكتور نظريته في أن مصر أمة غربية ؟

إنه يبنيها على حقيقة معروفة تاريخياً ، وهي أن العقل اليوناني اختلط بالعقل المصري وأثر الواحد منهما في الآخر طوال عشرة قرون فلنسمعه يقول :

« التلاميذ يتعلمون في المدارس أن مصر عرفت اليونان منذ عهد بعيد جداً ، وأن المستعمرات اليونانية قد أقرها الفراعنة في مصر قبل الألف الأول قبل المسيح » . والتلاميذ يتعلمون في المدارس أيضاً أن أمة شرقية بعيدة عن مصر بعض الشيء ، قد أغارت عليها ، وأزالت سلطانها في آخر القرن السادس قبل المسيح وهي الأمة الفارسية ، فلم تذعن مصر لهذا السلطان الشرقي إلا كارهة ، وظلت تقاومه أشد المقاومة وأعنفها . **مستعينة على ذلك بمتطوعة اليونان حيناً ، وبمحالفة المدن اليونانية حيناً آخر ، حتى كان عصر الإسكندر .**

وبالتأمل في الجُمل التي وضعنا تحتها خطاً ، نجد الدكتور لا يخامره الشك في أن المصريين أباحوا المستعمرات اليونانية في مصر لتوافق العقلين المصري واليوناني وحده . وأنهم قاوموا الفرس للاختلاف العقلي وحده كذلك ، وأنهم لهذا استعانوا بمتطوعة اليونان وبمحالفة المدن اليونانية .

ولا يريد الدكتور أن يفرض أن النزاع السياسي والوفاق السياسي لا يعنيان دائماً نزاع العقليات ووفاقها . لا في القديم ولا في الحديث ، وأنه إذا صح ، إلى حد

كبير، أنه كان هناك اتصال بين العقلية المصرية والعقلية اليونانية . وكان هناك افتراق بين العقلين المصري والفارسي . فليست الأمثلة التي ذكرها هي التي تُثبت هذا أو ذلك .

وأمامنا الآن فيما يثور من المشاكل السياسية ما ينفي مثل هذا المنطق ، فاليابان والصين في حرب طاحنة ، وهما فريق واحد في رأي الدكتور ، وإيطاليا تعادي فرنسا وهما أمتان لاتينيتان ـ فوق أنهما أوروبيتان من فريق عقلي واحد في رأيه كذلك .

وما رأي الدكتور لو قلنا له : إن هذه المستعمرات اليونانية لم تكن مرضية من المصريين وإنما كان يسمح بها بعض الفراعنة المكروهين من الشعب ، للجنود اليونانية المرتزقة ، لتحميهم هم من غضب الشعب ؟ وإنما المصريون كانوا ينقمون على هؤلاء الفراعنة تقريبهم للإغريق ويأنفون من الاختلاط بالمرتزقة ، ويصفونهم بأقبح الصفات ؟

وما رأيه كذلك لو قلنا له : إن بعض الإغريق كانوا في جيش فارس كما كانوا في جيش مصر سواء بسواء ؟ بل إذا قلنا له : إنه لم يمهد لاحتلال مصر كما مهدت لها خيانة « فانيس اليوناني » الذي أطلع ملك الفرس على بعض أسرار الهجوم وقدم الرشوة لعرب الصحراء ، وأرشد الملك إلى رفع بعض الحيوان الذي يقدسه المصريون على دروع الجنود ؟

وما رأيه لو كانت قد حدثت عدة وقائع صغيرة بين الجنود المصريين والجنود اليونانيين ، وبين مصر وبعض المدن الإغريقية ، كبرقة التي كانت تابعة للإغريق في عهد « وهاب رع » ؟

ومع كل هذا لنفرض أن المصريين رضوا بمستعمرات يونانية في مصر ، وثاروا على استعمار فارس . أفلا يرى الدكتور أن القياس مع الفارق ـ كما يقولون ـ وأن مصر قد تصبر على مستعمرات صغيرة لها فيها مصلحة سياسية وهي سيدة نفسها متبرعة بهذه المستعمرات ، ولكنها لا تصبر على استعمار كامل يفقدها سياسيتها العامة وسيادتها الكاملة ؛ وإن هذا وذلك لا يدلان على توافق عقل ولا اختلاف ، لأنه يقع في كلتا الحالتين على السواء ؟ أولا يرى أن الحروب قديماً وحديثاً لا تثبت

النزاع العقلي ولا تنفيه ، وأن الثورات على المستعمرين لا ينظر فيها إلا إلى الحرية والسيادة قبل كل اتفاق عقلي أو اختلاف ؟ وإلا ففيمَ كانت ثورة مصر على الحملة الفرنسية ؟ وفيم كانت ثورتها على الاحتلال الانجليزي في العصر الحديث ، أكانتا للاختلاف العقلي ، كما ثارت على فارس أم هي الحرية تحركها في كل حين ؟

وقد صبرت مصر على الاحتلال التركي أطول مما صبرت على الاستعمارين الفرنسي والانجليزي ، بل لقد كانت في بعض عهودها تحتمي به من الانجليز ، فهل هذا دليل اتفاق عقلي بين المصريين والأتراك؟ والواقع غير هذا عندنا وعند الدكتور.

ويشاء الدكتور أن يمضي بعد هذا في نفي الوحدة العقلية بين مصر والأمم الشرقية حتى التي تتكلم العربية وتدين بالإسلام ، فيذكر أن الدّين[1] واللغة لا يخلقان وحدة وأن المسلمين منذ أقدم عصورهم فطنوا إلى هذا بدليل أن الدولة الأموية في الأندلس ، كانت تخاصم الدولة العباسية في العراق.

ولا شك أن الوحدة السياسية هي التي يبرهن عليها هذا المثال ، وبديهي أن الوحدة العقلية هي التي نعنيها ويعنيها الدكتور في بحثه ، وهي غير الوحدة السياسية بلا جدال . وإلا فقد كانت الأندلس والعراق على ما بينهما من نفور ، تعيشان بعقلية واحدة أو بعقليتين متقاربتين . يظهر ذلك في نتاجهما الأدبي

(١) وقد صرّح بعض الدكاترة بمثل هذا التصريح متأثراً بالدكتور طه حسين ، وذلك في محاضرة ألقاها في مؤتمر مجامع اللغة العربية ، فكان مما قاله : « كان الدّين في العصور الوسطى يجمع الشعوب ويفرقها ، ولكن أثره في تكوين الأمم تضاءل في الزمن الحاضر ، وربما أسقطه غلاة القومية من حسابهم لقد كان من أسباب انفصال باكستان عن الهند . . . الاختلاف في الدّين . ولكن الدين وحدة لا يجمع الشعوب المختلفة في أمة واحدة والأدلة على ذلك كثيرة جداً : فالمسلمون في العالم لا يؤلفون أمة واحدة ، ولكن اتخاذ الدّين أداة لتمزيق القومية القائمة عمل خطر ، بل خيانة » .
فرددت عليه بسلسلة مقالات في صحيفة « المنار » الدمشقية بتاريخ ١ ربيع الأول ١٣٧٦ (٨ تشرين الأول ١٩٥٦) فكنت مما ذكّرته به « بإسرائيل » القائمة بجوارنا على اساس ديني ، وجعلت ندوتها النيابية في الكنيست وذكرته أيضاً بالاتحاد السوفياتي القائم على أساس عقدي لا قومي ، وهو يضم قوميات كثيرة . وكذلك ذكرته بالولايات المتحدة القائمة على عناصر وقوميات كثيرة ، وهي قائمة أيضاً على نظام عقدي ، هو الديمقراطية . . . راجع كتابي : «دولة الإسلام» ص ٤٢ - ٥٠ (م.م).

والعلمي ، بل يبدو في أن أدب الأندلس تأثر بأدب المشرق تأثراً ظاهراً ـ على الأقل في بعض صوره ـ فلم ينتفع بالبيئة الجديدة إلا انتفاعاً محدوداً ، في الشكل أكثر منه في الموضوع . والدكتور طه عميد كلية الآداب سيد العارفين بهذه الحقيقة الأدبية التاريخية !!

ولكنه يمرق من هذه في رشاقة وخفة إلى نتيجة قاطعة هي : « أن من السخف الذي ليس بعده سخف اعتبار مصر جزءاً من الشرق ، واعتبار العقلية المصرية عقلية شرقية كعقلية الهند والصين . . . ! »

ولست أدري من هو الذي اعتبر عقلية مصر كعقلية الهند والصين ؟ ولكني ادري أن مخالفي الدكتور يعتبرونها عقلية شرقية كعقلية مصر ذاتها . . . ! ويرون لهذه العقلية المصرية خصائص تميزها عن العقلية الأوروبية . كما تميزها عن عقلية الشرق الأقصى سواء بسواء .

وفيم هذا التعميم ؟

ومتى كان لأوروبا عقل واحد ؟ وللشرق الأقصى أو الأدنى عقل واحد كذلك ؟ ولم لا نقول : إن لكل أمة عقلاً خاصاً يتطلب ثقافة خاصة ، وإن هذه العقول قد تتقارب وتتباعد ولكنها لا تتحد أبداً .

وإلا فما بال البرنامج الدراسي الانجليزي يمتاز بالتخفيف والتربية الرياضية عن البرنامج الفرنسي ، ويتوسط البرنامج الألماني بينهما ؟ ـ وهذه أقل مظاهر الاختلاف ـ وما بال الأدب الانجليزي غير الأدب الفرنسي والأمريكي مع أن هذا مكتوب باللغة الانجليزية ! وما بال الفن الروسي غير هؤلاء جميعاً في القديم والحديث ؟ .

بل ما بال إيطاليا وألمانيا الأوروبيتان تنحوان منحى الدكتاتورية فتتابعهما فيها اليابان في أقصى الشرق ، وتلتزم انجلترا وفرنسا الأوروبيتان أيضاً الديمقراطية على اختلاف فيها وتؤمن بها معهما أمريكا ، وهي أقرب في الواقع واحتكاك المصالح إلى

اليابان منهما ، والديمقراطية والدكتاتورية اتجاهان عقليان متقابلان ، ويكفي لتقابلهما أن « الدولة للفرد » في الأولى و « الفرد للدولة » في الثانية ، ويتبع هذا الوضع كل برامج التعليم وكل مناهج الثقافة ، وكل الشرائع والقوانين ؟

ثم ما بال العقلية الرومانية قديماً كانت تخالف العقلية اليونانية وهما متجاورتان ومن حوض البحر الأبيض المتوسط الذي يفترض له الدكتور عقلية متحدة ؟

ثم ما بال الأساطير اليونانية والأساطير المصرية تكادان لا تلتقيان إلا في مشابه قليلة ؟ وما بال القصة تنبت وتترعرع بل تزدهر في بلاد الإغريق ، ثم لا تكون في مصر القديمة إلا أقصوصة ساذجة ؟ . . . وما بال . وما بال مع طول اتصال الأمتين كما يقرر التاريخ ويقرر الدكتور ؟

أليس في هذا كله ما يبرهن على أن التعميم في النظم العقلية لا يؤدي إلى نتائج مضبوطة ، يمكن أن تُبنى عليها توجيهات حاسمة في الثقافة العامة ؟

الإسلام والمسيحيَّة وأثرهما في أمم البَحر الأبيض

ويستطرد الدكتور في هذا الحديث ، ويخشى أن يكون الإسلام ـ وهو قادم من صحراء العرب ، وهي ليست من حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولم يظلها العقل اليوناني ـ قد غيرّ عقلية المصريين « التي هي عقلية يونانية . وقد مرت مناقشة هذا الرأي » فينتهي من هذا الاستطراد إلى نتائج فيها بعض الحق ولكن فيها كثيراً من القفزات .

فهو يقول لك : إن الإسلام لم يغير هذه العقلية ، لأنه اختلط بالفلسفة اليونانية ، فأصبح بهذا الاختلاط عنصراً موافقاً للعناصر المكونة لهذه العقلية لا مضاداً لها ؛ ولأن الإسلام شأنه شأن المسيحية : والمسيحية لم تغير العقلية الأوروبية حينما عبرت إليها ، فما بال الإسلام يغاير المسيحية في هذه الخلة . مع أن القرآن جاء مصدقاً للإنجيل؟

فلنناقش هذين الدليلين :

فأما أن الفلسفة اليونانية امتدت إلى الإسلام فهذا ما لا شك فيه ؛ ولكن من قال : إن الأديان تطبع الشعوب بفلسفتها وقضاياها المنطقية ؟ إنما المؤثر الأول للأديان هو نظامها الروحي . وهو تبشيرها وإنذارها . وهو الصورة الغامضة التي تنطبع في نفوس أتباعها ؛ ثم هو بعد هذا قوانينها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إن كان فيها « كما في التوارة والقرآن » مثل هذه النظم .

وما أظن الدكتور يقول : إن شيئاً من هذا كله في الإسلام يتفق مع الفلسفة اليونانية . فالخاصة[1] وحدهم تأثروا بهذه الفلسفة . أما الشعب المصري فقد أثر فيه الإسلام بخواصه تلك ، وطبعه بطابعها ، بل أثر فيه بروحه العربية الخالصة ، والروح العربية من أقوى الأرواح في أمم العالم كما يقرر ذلك الدكتور نفسه في محاضراته الأخيرة من « محطة لندن اللاسلكية ». ولم تعدُ الفلسفة اليونانية مدينة الاسكندرية إلا في أحيان قليلة . وظلت « منف » محتفظة بفرعونيتها . حتى جاء الرومان فكرهتهم وأعرضت عنهم ما وسعها الإعراض ثم جاء الإسلام فاعتنقته راضية ، وتأثرت به مع سائر البلاد ، ثم يقول طه حسين :

«وإما أن المسيحية لم تؤثر في طبيعة العقل الأوروبي . فوجب أن يكون الإسلام[2]، كذلك ، لأن القرآن مصدق للإنجيل» ففي هذا القياس توسع فضفاض في تفسير هذا التصديق .

---

(١) إن من تأثر بالفلسفة اليونانية ليس الخاصة، بل المغرورون بعقولهم من العلماء الذين اغتروا بهذه العقول، فعمدوا إلى معرفة قضايا ما وراء الطبيعة (الغيب) بها فضلوا وأضلوا متخذين من ارسطو معلمهم الأول وحاولوا تحريف الشريعة لتتفق مع آرائه، وقد كنت نشرت سلسلة مقالات في مجلة التمدن الإسلامي في الرد على هؤلاء الفلاسفة، غير منكر لجميلهم وابداعهم في العلوم. والإسلام هو القرآن والسنة وليس سواهما وهذه الفلسفة امتدت الى بعض المسلمين لانحرافهم وجهلهم بالإسلام!! (م.م).

(٢) يا له من منطق سخيف يضحك الثكلى ، ويا لها من محاكمة يترفع عنها حتى الأطفال والمجانين ! ويا لها من كذبة لا يجرء عليها أكذب الكذابين ، في قول هذا الدكتور بأن الإسلام لم يؤثر في عقلية المسلمين كما لم تؤثر المسيحية في عقلية الغربيين . . (م . م) .

فالواقع أن الأديان قد تتفق في ناحية أو نواح ، ولكنها تختلف من حيث طبيعة عقليتها في نواح . وكل دارس للقرآن وللإنجيل يدرك هذه الفروق : يدركها في طبيعة الإله يصورها القرآن وطبيعته كما يصورها الإنجيل[1] ، وفي العلاقة بين الإله والنبي وقومه الأول ، وبينه وبين النبي وقومه في الثاني ، وهذه وتلك من أهم أسس الأديان .

وإذا جاز لنا أن نعقد صلة بين شخصية النبي والدين الذي يجيء به ـ أو على الأقل أثر هذه الشخصية في التعاليم التي يتركها النبي لقومه غير الكتاب المنزل ، من الأحاديث والسنن ، فلا بد أن نحسب حساباً للاختلاف الأصيل الواضح بين شخصية « محمد » الرجل العربي الذي يجمع بين الروحانية الرقيقة الشاعرة ، والرجولة القوية الصارمة ، والمزاج العملي المعتدل . وشخصية « عيسى » الوديعة السمحة التي لا تتجلى فيها إلا الروحانية الشفيقة .

على أن هناك فارقاً أساسياً بين الإنجيل والقرآن ؛ بل بين الإنجيل في ناحية ، والتوراة والقرآن في ناحية ، فهذان يحويان بعد اللاهوت نظماً وشرائع وحدوداً دينية واجتماعية واقتصادية وسياسية ، بينما الإنجيل يكاد يخلو من هذا كله .

« والمسيح عليه السلام إنما جاء داعية للصفاء الروحي والرحمة واللين والتسامح والعفة والزهد . ولكنه لم يشر إلا إشارات عارضة ، للنظم الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية ، بل كان يلح من تصرفاته وتصريحاته أنه لا يستريح إلى القيود والتقاليد من الكهان اللاويين والكتبة ، لأنها أعمال ظاهرية ، وهو كان موكلاً بالبواطن وبالأرواح . . . فقد أباح لتلاميذه سبت بني إسرائيل ، وأحل كل ما يدخل إلى الفم لأنه لا ينجس ، أما الذي يخرج منه « غش . زور . فسق . . . » فهو الذي ينجس ، وأباح للتلاميذ الإفطار في أيام الصوم اليهودية ؛ ولم يرجم الزانية التي جيء له بها معترفة ، لأن الذين سيتولون رجمها ـ حسب شريعة موسى ـ

---

(١) الأديان السماوية لا تختلف في طبيعة الإله ، إنما هذا الاختلاف بسبب التحريف الذي طرأ على بعض هذه الكتب (م . م) .

ليس فيهم من هو خال من الذنب . ومن أقواله : سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، ومن سخّرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين . . .[1] .

وكل ما نستطيع الوقوف عليه من شرائع المسيح يتلخص في قوله :

« وقد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تقتل . ومن قتل يكون مستوجب الحكم ؛ وأما أنا فأقول لكم : إن كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجبَ الحكم . ومن قال لأخيه « رقاً » يكون مستوجب المجمع . ومن قال : يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم . فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك . وحينئذ تعال وقدّم قربانك . كن مراضياً لخصمك سريعاً ما دمت معه في الطريق ، لئلا يسلمك الخصم إلى القاضي ويسلمك القاضي إلى الشرطي فتُلقى في السجن ، الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير .

قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تَزْنِ . . وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه . فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك . لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك في جهنم . وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك . لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله في جهنم » .

وحتى هذه التشريعات على قلتها ، إنما تتوجه للتطهير الخلقي أكثر مما ترمي إلى حد الحدود وسن القوانين وبيان الفروض .

فالمسيحية حينما امتدت إلى أوروبا وصلت إليها نظاماً روحياً وإرشاداً خلقياً ، ولكنها لم تضع لها أسساً للتشريع والاقتصاد والسياسة كما وضع القرآن . . . حينئذ

---

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس آية ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .

بقي العقل الأوروبي يسيطر على الحياة الدنيوية ويشرع لها ويتصرف فيها ، فلم يتغير منه شيء هام مع المسيحية ، أما القرآن فقد وضع العقل المصري والعقول التي خضعت له في نطاق معين ، هو نطاق التشريع القرآني والنظام الدنيوي القرآني .

ومن هنا كان لا بدَّ أن يؤثر في هذا العقل ما لا يؤثر الإنجيل . وأن يبقى دائم الأثر حتى تتحلل منه الدولة بالتشريع الروماني والقوانين الفرنسية منذ نصف قرن وهو ـ مع هذا ـ لا يزال شديد الأثر في عقلية التشريع المصري .

ولو أن التوراة هي التي عبرت[1] إلى أوروبا بدل الإنجيل ، لكان لها ـ ولا شك ـ أثر أكبر في تغيير طبيعة عقلها العملية الواقعية ، أكثر مما أثر الإنجيل لأن فيها تشريعاً وحدوداً ونظاماً اقتصادياً ، لا يوجد في الإنجيل .

ومع هذا فالدكتور لا يقنع بأن اختلاط الإسلام بالفلسفة اليونانية ـ قد كف أثره في عقلية المصريين إلى درجة تجعلها تظل قريبة من عقلية أوروبا ، بل لا بد أن يؤدي هذا الاختلاط إلى أن « يلغي ما يمكن أن يكون من الفروق بين الأمم التي تعيش في شرق بحر الروم والأمم التي تعيش في غرب هذا البحر نفسه » . ثم يؤكد هذا بقوله : « ليس بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فرق عقلي أو ثقافي ما » .

وما أظن أن وجود صلات ـ بالغة ما بلغت بين العقليات المختلفة ـ يمكن أن يلغي كل الفروق ، بحيث لا يكون هناك « فرق ما » وأحسب أن الدكتور بعد أن يطّلع على ما قدمت سيخفف من هذه التوكيدات . ومن هذا الجزم الشديد .

وفي أثناء حماسة الدكتور لرأيه يقدم لمخالفيه مادة جديدة من البراهين فهو يقول بعد جملته السالفة التي اقتبسناها : « إنما هي ظروف السياسة والاقتصاد تميل من أهل هذا الساحل لأهل ذلك الساحل » .

(١)لقد عبرت هذه التوراة إلى أوروبة عبر الإنجيل ،كيف وهي العهد القديم وأساس الديانة النصرانية وقد أيدها المسيح (ع) وأقر بها حين قوله : « لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس ، أو الانبياء ، ما جئت لانقض ، بل لأكمل (متى : ٥ ـ ١٦) (م ٠ م) .

وما من شك أن للظروف السياسية والاقتصادية آثاراً في العقليات العامة . وأنا لا أريد أن أذهب مع القائلين بنظرية « التفسير الاقتصادي للتاريخ » ولكني لا أغفل الاعتراف بأثر السياسة والاقتصاد في عقليات الأمم . فإذا أضفنا إلى ذلك طبيعة بلادنا وطبيعة البلاد الأوروبية كان لا بد من الاختلاف العقلي .

وأدنى مراتب هذا الاختلاف . أن الطبيعة في أوروبا قاسية شحيحة بالقياس إلى الطبيعة المصرية الوديعة الكريمة . فالطبيعة هناك تخزي أهلها وتنبههم في كل لحظة إلى العمل المتواصل وقسوتها وشحها يوحيان إليهم أن يدخروا من أيام الرخاء لأيام الإعسار . وأن يكونوا على أهبة في كل وقت لمقاومة الطبيعة القاسية ، ولا يقتصر الادخار على الماديات ، فإن توالي الأجيال في هذه البيئة يمدها بأعصاب يختزن فيها قدر من الطاقة الضرورية للتحمل والمقاومة ، وضبط النفس والوقوف للصدمة على تفاوت في الأجناس والبيئات ـ بينما الطبيعة الهينة اللينة في مصر . لا تدع المصري يدخر من الطاقة شيئاً لأنه قادر على لقاء الطبيعة كل آن بقوته الحاضرة وصحته وماله ، لأن الطبيعة لم تعوده أن يحتاج لادخار شيء من القوة أو القوت : البرد محتمل ، والحر محتمل ، والنهر أليف وديع ، وفيٌّ لأهله في كل عام ، والأرض خصبة غنية الظاهر ، داجنة أليفة الباطن ، ولا زلزلة ولا بركان ، ولا جدب ولا حرمان .

الرجل المصري القوي ، ترى قوته هائجة كلها في عضلاته الظاهرة ، والرجل الانجليزي القوي ترى هذه القوة كامنة في ملامحه وأعصابه : الأول : كالجندي يحمل سلاحه وذخيرته كلها بيده ، وليس له رصيد مخزون ، والثاني : أعزل ، ولكنه مطمئن إلى أن وراءه مخزناً كاملاً للسلاح والذخيرة ، ويأخذ منه عند اللزوم .

مصر والحضَارة الأوروبيَّة الحِديثَة

ويستطرد الدكتور من العصور القديمة إلى العصور الحديثة ، فيرى مصر تأخذ بالحضارة الأوروبية الحديثة ، وحينئذ يجد نفسه قد وُفق إلى برهان جديد لا يُنقض على أن عقلية مصر عقلية أوروبية بدليل أخذها بهذه الحضارة ، وإنما كان الحكم

التركي هو الذي قعد بها عن متابعة أوروبا في نهضتها خمسة قرون .

حسن ! ولكن ألا يمكن أن يكون لأخذ مصر بحضارة أوروبا في العصر الحديث سبب آخر غير توافق العقليتين ؟ وما شأن تركيا إذن وهي التي كانت كما يقول الدكتور هي المانعة لمصر من الأخذ بهذه الحضارة ، بينما هي اليوم مشتطة في الأخذ بها ، بل ما شأن اليابان وهي تأخذ بالحضارة الأوروبية في قوة وسرعة؟ أهذا دليل أيضاً لا يُنقض على أن عقلية اليابان عقلية غربية في القديم والحديث . وهي التي كانت منذ عشرين صفحة في الكتاب فقط تمثل القسم الثاني من أقسام العقليات الإنسانية ؟

أفلا يمكن أن نقول في سهولة ويُسر ، وبلا تعسف أو شطط : إن الأخذ بالحضارة الأوروبية ضرورة زمنية لا بد منها ، نتيجة أن أوروبا سبقتنا في مدارج الرقي ، كما أخذت هي بحضارتنا يوم سبقناها في مدارج الرقي ، وأن مدنية العالم دواليك ، تأخذ هذه من تلك على حسب الظروف . وأن أمم الشرق لهذا السبب تأخذ اليوم بحضارة الغرب على اختلاف عقلياتها ، كاليابان والصين نفسها في أقصى الشرق ، وإيران وتركيا في وسطه . وسورية ومصر في أدناه ؟ .

ولكن الدكتور تشتد به الحماسة ، فيرتدي ثوب الخطيب ويروح يبرهن لنا عن تأصل الروح الأوروبية فينا ، وضعف الروح الشرقية ، بأن أشد المحافظين فينا اليوم ، لن يرضوا بالتخلي عن الحضارة الجديدة . ولن يقبلوا الرجوع إلى العصور الشرقية الأولى في مأكل أو مشرب أو عدة حرب ، وهذا دليل على أن المصريين لم يكونوا يوماً ما شرقيين !

وأخشى ما أخشاه ان نحن ذهبنا مع استدلال الدكتور إلى نهايته أن نحكم بأن الأوروبيين اليوم ليسوا أوروبيين !

أليس أهل أوروبا اليوم لا يرضون أن يعيشوا عيشة الأوروبيين السالفين منذ قرن واحد من الزمان ؟

أليس نفورهم هذا كنفور المصريين من حياة الشرقيين القّدامى ، أليس هذا دليلاً على أنّ المصريين ليسوا شرقيين ؟

أليس ذلك دليلاً على أن الأوروبين ليسوا أوروبيين ؟

أو ما رأي الدكتور ؟!

وبعد فلا بد أن نقرر أن في اضطرابنا اليوم بين الحضارة المادية الأوروبية التي نأخذ بها ، وبين عقائدنا وتقاليدنا وضمائرنا ـ والدكتور يعترف بهذا الاضطراب ويصور ما يحدثه في النفوس من قلق ، ويدعو دعوته لإزالته ـ هذا الاضطراب ذاته بين الحياة الخارجية التي نهيم فيها ، والحياة الداخلية المستكنة في عقولنا وأرواحنا ، أكبر دليل على أن عقلية المصريين غير عقلية الأوروبيين، وعلى أن هذه الحضارة لا تجد سبيلها مُيسرة في نفوسنا ، فتصطدم بها وتثير كامنها ، وأنه لا بد من مضي زمن طويل قبل أن تطمئن هذه الحيرة ، ويسكن ذلك القلق ، ونسيغ هذه الحضارة كما أساغها الغربيون .

هذه الحضارة التي يقول عنها كاتب أمريكي : إنها في نزاع واضطراب مع الإنسانية . لأن المخترعات وآثارها ـ وهي من عمل العقل الواعي ـ قد سبقت العقل الباطن لأوروبا نفسها ، وأوجدت بيئة شديدة الجدة على الإنسانية ، والإنسان لا يستريح ولا يهدأ إلا حين تتوازن نفسه الباطنة مع ما يحيط بها من الحياة الظاهرة وتتدرج تدرجاً طبيعياً .وهو رأي له قيمته[1] في تقدير هذه الحضارة : لأنه يقوم على نظرية علمية تكاد تصبح مذهباً قائماً .

وليس معنى وجود اختلاف بين العقلية المصرية والعقلية الأوروبية ، أنه حتم

(١) يا له من رد مفحم على الدكتور طه حسين ، وسيد قطب معاً ، الذي يقول قبل هذا الكلام : « . . إنه لا بدّ من مضي زمن طويل قبل أن تطمئن هذه الحيرة ، ويسكن ذلك القلق ، ونسيغ هذه الحضارة كما أساغها الغربيون » !

« فإن الغربيين أنفسهم لم يستسيغوها الى يومنا هذا لمخالفتها للفطرة السليمة ، لما فيها من نزاع واضطراب مع الإنسانية » !

أن يكون عقلنا ضعيفاً وعقل الأوروبيين قوياً ، وأنه لا بد لننجو بأنفسنا من هذه الوصمة أن نندمج في أوروبا اندماجاً ، كما يريد الدكتور أن يرتب المقدمات والنتائج ؛ ليخيفنا من هذه النتائج ، فالقويان يختلفان في أكثر الأحيان ، وقلما يختلف الضعيف والقوي في شأن من الشؤون!

وأيسر ما يحقق رغبة الدكتور في الأخذ بالحضارة الأوروبية ، ويحقق رغبتنا في الإبقاء على مميزاتنا الذاتية ، أن نحلل هذه الحضارة إلى عنصرين : الثقافة والمدنية ، ونأخذ كلا منهما بآخر تعريف وضعه لهما العلماء : فنعتبر الثقافة شاملة لديننا ، وفنوننا ، ونظمنا الخُلقية ، وتقاليدنا ، وخرافاتنا كذلك .

وهذه يجب أن نحتفظ فيها بماضينا[1] ، ونجدد فيها بمقدار ما تتطلب سنة التطور الطبيعي ، ونعتبر المدنية شاملة للعلوم والفنون التطبيقية ، وتلك نأخذها من أوروبا أخذاً .

وأنا أدرك أن هذه التفرقة ليست سهلة ، وإنما نحتاج إلى مجهود عنيف للاحتفاظ بالتوازن ، وإلى تركز خُلقي واجتماعي لم نصل بعد إليه . ولكن هذا هو ما صنعته اليابان التي يضربها الدكتور لنا مثلاً أعلى ، فما تزال « الثقافة » اليابانية باقية على أصولها ، في الوقت الذي أخذت بآخر مثل المدنية الأوروبية وزادت فيها . وما العقيدة التي تدفع إلى الانتحار من أجل الامبراطور إلا شاهداً على بقاء اليابان سليمة من كل مزاج أوروبي .

ولحسن الحظ أن الدكتور طه ، لم يكد يفرغ من كتابه الذي نحن بصدده ، ويقرر فيه ضرورة الأخذ بالحضارة الأوروبية خيرها وشرها[2] ، حتى كتب في عدد

---

(١) إن الإحتفاظ بماضينا لا يتوجب علينا ، والشرع والعقل لا يوجبان علينا الإحتفاظ حتى بخرافاتنا كذلك على حد قول سيد قطب ، وإلا كانت حياتنا مهددة بالإنقراض أيضاً ، وكم في مجتمعنا من هذه الخرافات والأباطيل والبدع الدخيلة على ديننا ، يجب محاربتها كما نحارب ما في الحضارة الغربية من التقاليع والمفاسد .

(٢) كان الدكتور كامل عياد صرح بمثل هذا الكلام للدكتور طه حسين في الجلسة التي انتخب بها عضواً لمجمع اللغة العربية بدمشق فكان مما قاله : « لا بدّ لنا من الاعتراف بان تقاليدنا لا تتعارض مع الاقتباس من الثقافة الحديثة السائدة في الغرب . وفي الحقيقة إذا تركنا المحافظين في بعض الأقطار =

الثقافة التاسع في تعليق له على كتاب «سندباد عصري» يقول: «الذوق العام يختلف باختلاف البيئات ، فهناك أشياء يقبلها الذوق العام الأوروبي ، وينبو عنها الذوق العام المصري ، وليس على مصر من ذلك بأس ، فليس من الضروري أن نشبه الأوروبيين في كل شيء ولا أن نقلدهم في كل شيء . . . » وهذا حسبنا من الدكتور!

أما العزة الأوروبية التي يحببها الينا ، ويشوقنا إلى الاستمتاع بمثلها حين نصبح قطعة من أوروبا ، فهي دعوة كريمة نبيلة [1] ، ولكن ليست تقاليد الغرب وحدها هي التي تؤدي إليها ، فقد عزت اليابان ولا تزال لها مميزاتها الأصلية ، وقد كانت للعرب عزة قومية ، وهم على أخلاقهم الأولى . التي لم تكن أوروبية يونانية [2] !

= العربية ـ وهي فئة قد أصبحت لحسن الحظ قليلة العدد (كذا) ـ فإننا لا نجد اليوم بيننا من ينكر ضرورة هذا الاقتباس . وإنما هناك فئة تسمى معتدلة تريد أن تقصر الاقتباس على محاسن الحضارة الغربية ، وعلى تلك النواحي من ثقافتها التي تتلاءم مع خصائصنا وتقاليدنا وعاداتنا . ونقطة الضعف في هذا الرأي هي الصعوبة في تحديد الصفات والتقاليد والعادات التي تختص بها ويجب المحافظة عليها ، ثم المعيار الذي يميز المحاسن من المساوىء » (راجع مجلة المجمع المذكور (م٣٤ ج ١) والدكتور عيّاد لم ياتنا بجديد في قوله السابق إنما هو ربيب في ذلك ، ومقلّد للدكتور طه حسين . وقد رددت على هذا الدكتور في مجلة التمدن الإسلامي عام ١٣٧٩هـ (١٩٥٩) م بمقال موسع تحت عنوان ينطحون جبل الإسلام (الدكتور كامل عياد في الميزان) فكنت مما قلته : « والدكتور عيّاد لم ياتنا بجديد في قوله السابق ، إنما هو ربيب في ذلك ومقلد للدكتور طه حسين حين بشرّ في كتابه مستقبل الثقافة بهذا الرأي منذ أكثر من عشرين عاماً فقد قال : « . . . وهي أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً (!) ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يُحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب » مستقبل الثقافة ج ١ ص ٤٥ (م . م) . راجع مقدمة هذا الكتاب في الرد على طه حسين

(١) لقد أثبتنا في مقدمة هذا الكتاب أن هذه العزّة الكريمة النبيلة لا يمكن التوصّل اليها حين نصبح قطعة من أوروبا ! فليراجع بحثنا . وهذه تركيا فعلت جميع ما فعله الغربيون بتأثير الطاغية اليهودي كمال أتاتورك فلم يزدها ذلك إلاّ تأخراً وتبعية وفقراً !

(٢) تلخيص عن رسالة : « نقد كتاب مستقبل الثقافة : الدار السعودية للنشر والتوزيع .

تعريفات

سيد قطب (١٣٢٤ ـ ١٣٨٧ هـ = ١٩٠٦ ـ ١٩٦٧ م)

سيدبن قطب بن ابراهيم . مفكر إسلامي مصري من مواليد قرية (موشا) في أسيوط . تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤) وعمل في جريدة الأهرام . وكتب في مجلتي الرسالة والثقافة . وعين مدرساً للعربية ، فموظفاً في ديوان وزارة المعارف . ثم مراقباً فنياً للوزارة ، وأوفد في بعثة لدراسة برامج التعليم في أمريكا ١٩٤٨ ـ ١٩٥١ . ولما عاد انتقد البرامج المصرية وكان يراها من وضع الإنكليز .

وطالب ببرامج تتمشى والفكرة الاسلامية . وبنى على هذا استقالته (١٩٥٣) في العام الثاني للثورة . وانضم الى الاخوان المسلمين ، فترأس قسم نشر الدعوة وتولى تحرير جريدتهم (١٩٥٣ ـ ١٩٥٤) وسجن معهم . فعكف على تأليف الكتب ونشرها وهو في سجنه ، الى ان حرر الأمر باعدامه ، فأعدم .

قال خالد محيي الدين (احد أقطاب الثورة المصرية) فيما كتب عنه : كان سيد قطب قبل الثورة من اكثر المفكرين الاسلاميين وضوحاً ، ومن العجب انه انقلب ـ بعد قيام الثورة ـ ناقماً متمرداً على كل ما يحدث حوله لا يراه الا جاهلية مظلمة .

وكتبه كثيرة مطبوعة متداولة ، منها :

- النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- العدالة الاجتماعية في الاسلام
- التصوير الفني في القرآن

- مشاهد القيامة في القرآن

- كتب وشخصيات

- السلام العالمي والاسلام

- الاسلام ومشكلات الحضارة

- المستقبل لهذا الدين .

- في ظلال القرآن .

- معالم في الطريق .

ولما وصل خبر استشهاده إلى المغرب أقيمت على روحه صلاة الغائب ، وأصدر أبو بكر القادري عدداً خاصاً به من مجلة الايمان .

ولما كانت النكسة ، او النكبة عام ١٩٦٧ قال علال الفاسي : ما كان الله لينصر حرباً يقودها قاتل سيد قطب .

وكتب ابراهيم بن عبد الرحمن البليهي (من طلاب كلية الشريعة في الرياض) مجلداً سماه : سيد قطب وتراثه الأدبي والفكري . . .

الأعلام باختصار ٣/ ١٤٧-١٤٨

نقد كتاب
«مستقبل الثقافة»

بقلم : الدكتور محمد محمد حسين[1]

كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) ، ظهر سنة ١٩٣٨ ، حين كان الناس يكثرون من التحدث عن مستقبل مصر بعد المعاهدة التي عقدتها مع إنجلترا سنة ١٩٣٦ . فأراد المؤلف أن يرسم للناس سبيل النهضة التعليمية في (عهد نهضتها واستقلالها) كما يقول في مقدمة كتابه . وهذا الكتاب أشد خطراً من كتاب اليوم والغد وأبلغ أثراً . وترجع خطورته إلى أن صاحبه قد شغل مناصب كبيرة في الدولة ، مكنته من تنفيذ برامجه أو إرساء أسس تنفيذها على الأقل . فقد كان عميداً لكلية الآداب بالقاهرة ، وكان مديراً عاماً للثقافة بوزارة التربية والتعليم (المعارف وقتذاك) . وكان مستشاراً فنياً بها . وكان مديراً لجامعة الإسكندرية . وكان آخر الأمر وزيراً للتربية والتعليم . ثم إن شهرته وكثرة المعجبين به وتأثر الكثرة الكبيرة من تلاميذه بآرائه ومناهجه وافتتانهم بها قد زاد في خطورة أثره . ولم يكن هذا الإعجاب والافتتان به وبآرائه ، راجعاً إلى شخصه وحده وإلى ما أُحيط به من دعاية ، ولكنه كان يرجع أيضاً إلى ظروف البيئة . ولست أريد في هذا المقام أن ألخص الكتاب فليس وراء هذا التلخيص كبيرُ جدوى . ولكني أريد أن أتناول بعض الخطوط الأساسية التي تعين على رسم صورة عامة له ، وان أبرز من بين

(١) الاتجاهات الوطنية ص ٢٢٨ ـ ٢٤٢

سطوره ما يعين على اكتشاف حقيقته التي تكمن خلف سطوره . والتي لا يكاد يفطن إليها إلا قليل . ويمكن رد ما حواه الكتاب إلى ثلاثة أصول ، وهي :

١ ـ الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها ، وقطع ما يربطها بقديمها وبإسلامها .

٢ ـ الدعوة إلى إقامة الوطنية وشؤون الحكم على أساس مدني لا دخل فيه للدين ، أو بعبارة أصرح ، دفع مصر إلى طريق ينتهي بها إلى أن تصبح حكومتها لا دينية .

٣ ـ الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور ودفعها إلى طريق ينتهي باللغة الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم إلى أن تصبح لغة دينية فحسب كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية .

وسأتناول هذه الأصول بالشرح والتوضيح في الصفحات التالية ، مقدماً نماذج مما يصورها في الكتاب :

١ ـ يرى المؤلف أن سبيل النهضة (واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي : أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره ، وما يُحمد منها وما يعاب)[1] .

ويرد المؤلف على خصوم الحضارة الأوروبية ممن يشفقون على كياننا الديني ، فيقول إن الحياة الأوروبية ليست إثماً كلها ، ففيها خير كثير . ويستدل على ذلك بأنها قد حققت للأوروبيين رقياً لا شك فيه ، والإثم الخالص لا يُمكِّن من الرقي . ويرد عليهم أيضاً بأن (هذه الحضارة الإسلامية الرائعة لم يأت بها المسلمون من بلاد

(١) مستقبل الثقافة في مصر ، الفقرة ٩ ـ ص ٤١ ، وهو شبيه بقول « آغا اوغلي أحمد » أحد غلاة الكماليين من الترك في أحد كتبه . « إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين ، حتى الالتهابات التي في رأيهم والنجاسات التي في أمعائهم » ـ موقف العقل والعلم والعالم لمصطفى صبري ج ١ هامش ص ٣٦٩ .

العرب . وإنما أتوا ببعضها من هذه البلاد ، وببعضها الآخر من مجوس الفرس ، وببعضها الآخر من نصارى الروم . . . وقد احتمل المسلمون راضين أو كارهين زندقة الزنادقة ومجون الماجنين ـ ذلك في الحدود المعقولة ـ ولكنهم لم يرفضوا الحضارة الأجنبية التي أنتجت تلك الزندقة وهذا المجون)[1] .

ولذلك ، فالمؤلف لا يطالب بإلغاء المدارس الأجنبية في مصر ، بل هو يقرر أنه نافر من ذلك أشد النفور (لا لأن التزاماتنا الدولية تحول بيننا وبين ذلك ، بل لأن حاجتنا الوطنية تدعو إلى الاحتفاظ بهذه المدارس والمعاهد)[2] . ثم إنه يدعو ـ من ناحية أخرى ـ إلى أن لا تقتصر الدراسات الأدبية في مدارسنا على الأدب العربي ، بل يجب أن تدرس الآداب الأجنبية ، على أن يكون تدريسها للطلبة باللغة العربية ، إذ لا ينبغي أن يُفْرَضَ على التلميذ تعلم اللغة الأجنبية ليلم بآدابها . . . وإنما يجب أن تقدم إليه لغته الوطنية هذه الآداب سهلةً سائغة قريبة المنال)[3] .

وقد مهد المؤلف لما أراد أن يذهب إليه من اتخاذ الحضارة الغربية طريقاً لنا ، فبدأ الفقرة الثانية من كتابه متسائلاً : أمصر من الشرق أم من الغرب ؟ وأخذ يعرض تاريخ مصر منذ أقدم عصورنا ، موازناً بين ما كان من إقرار الفراعنة للمستعمرات اليونانية قبل الألف الأولى قبل المسيح ، وبين ما كان من نفور المصريين من الفرس وثورتهم عليهم ، وانتهىَ من ذلك إلى قوله :

---

(١) مستقبل الثقافة . الفقرة ٩ ص ٤٦ ـ ٥٠ ، وهذا الذي يشير إليه المؤلف من صنيع العباسيين قد حدث فعلاً . وهو حق . ولكنه ليس الحق كله . فقد نسي المؤلف أن هذا الترف الفارسي والرومي الذي أهلك الفرس والروم من قبل ، قد أهلك العرب أيضاً حين نقلوه . ولم يمض على الدولة العباسية قرن واحد حتى اضطربت واختلت . وذلك منذ تجرأ الجنود الترك على المتوكل فقتلوه . ولعل ما يستحق الذكر أن نشير إلى أن من مظاهر التفرنج الذي أهلك العباسيين وأودى بدولتهم ، إسراف خلفائهم في التسري بالأجنبيات جرياً وراء اللذات . وإشباعاً للشهوات ، حتى لقد كانوا كلهم أجمعون منذ المأمون أبناء لأمهات من الجواري غير العربيات .

(٢) مستقبل الثقافة في مصر . الفقرة ١٣ ص ٦٧ .

(٣) مستقبل الثقافة . الفقرة ٣٨ ص ٢٥١ ـ وكلام المؤلف هنا يلبس ثوب الوطنية والتعصب للغته القومية ، ولكن مقصده الحقيقي الذي يتفق مع مذهبه في الكتاب كله هو نشر ثقافة الغرب وفكره على أوسع نطاق . وذلك هو ما تفعله الدول الإستعمارية الآن . فهي ـ في سبيل نشر ثقافتها ـ تترجم =

« ومعنى هذا كله آخر الأمر بديهي ، يبتسم الأوروبي حين ننبئه به ، لأنه عنده من الأوليات . ولكن المصري والشرقي العربي يلقيانه بشيء من الإنكار والأزورار ،يختلف باختلاف حظهما من الثقافة والعلم ، وهو : أن العقل المصري منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط . » .

ويعود المؤلف فيؤكد ذلك في الفقرة الثالثة من كتابه حين يقول : « وإذاً فالعقل المصري القديم ليس عقلاً شرقياً ، إذا فُهِم من الشرق الصين واليابان والهند وما يتصل بها من الأقطار . وقد نشأ هذا العقل المصري في مصر متأثراً بالظروف الطبيعية والإنسانية التي أحاطت بمصر وعملت على تكوينها . . . فإذا لم يكن بد من أن نلتمس أسرة للعقل المصري نقره فيها ، فهي أسرة الشعوب التي عاشت حول بحر الروم . . . كل هذه أوليات لا معنى لإضاعة الوقت في إثباتها وإقامة الأدلة عليها ، فقد فرغ الناس من ذلك منذ عهد بعيد . . . فأما المصريون أنفسهم فيرون أنهم شرقيون . وهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافي اليسير وحده ، بل معناه العقلي والثقافي . فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندي والصيني والياباني منهم إلى

= وتؤلف باللغة العربية . على أن الأولى بأن يدعو إليه المؤلف هو أن تترجم كتب العلوم من طب وهندسة وزراعة وطبيعة وكيمياء إلى العربية وأن تدرس هذه العلوم في الجامعات المصرية باللغة العربية . وقد كان المؤلف عميداً لكلية ، وكان مديراً لجامعة ، وكان وزيراً للتعليم . وهو يعلم أن المحاضرات كانت تلقى في كلية الطب والهندسة والعلوم بالإنجليزية ، وأن مداولات مجالس الكليات فيها تجري باللغة الإنجليزية ، حتى لو كان الأساتذة كلهم مصريين ، وأن المجلات والنشرات العلمية التي تصدرها هذه الكليات تصدرها بالإنجليزية . ولا يزال الأمر في بعضها يجري على ذلك إلى الآن . وذلك في الوقت الذي يسعى فيه العرب لحمل الدول على الاعتراف باللغة العربية في المجامع والمحافل ويعتذر المتصدرون للتدريس من الجامعيين عن هذا البدع العجيب بصعوبة ترجمة العلوم إلى العربية . وقد استطاعها من قبل غيرهم من طلاب الأزهر الذين أوفدهم محمد علي في بعثات ، بل لقد استطاعها العرب في القرن الثاني الهجري ، حين كانت لغتهم بدوية لم تطوع بعد للتعبير عن فلسفة أو علم ، ولم تمرن إلا على الأداء الشعري . ويعتذرون بدولية الإنجليزية وبأنهم يكتبون بها لينشروا آراءهم على أوسع نطاق . ونقول إنهم لو اكتشفوا جديداً لتعلم الناس العربية ليعرفوه . وماذا عليهم إذا لم يستفد الأجانب من علمهم الغزير ؟ على أن التعريب يجب أن تصاحبه ترجمة لكل كشف علمي جديد عن طريق دوريات علمية متخصصة كما تفعل كل الأمم الحية . وهذا باب واسع لعمل مثمر يمكن أن تقوم به جامعة الدول العربية .

اليوناني والإيطالي والفرنسي . وقد استطعت أن أفهم كثيراً من الغلط وأفسر كثيراً من الوهم ، ولكني لم أستطع قط ، ولن أستطيع في يوم من الأيام ، أن أفهم هذا الخطأ الشنيع أو أسيغ هذا الوهم الغريب » .

ويمضي المؤلف في سائر كتابه على اعتبار صلات مصر بالغرب أوثق من صلاتها بالشرق ، حتى إنه ليجور على التاريخ في بعض الأحيان كي يقيم به مذهبه الذي يزعمه . وذلك في مثل تصوير العرب غزاة دخلاء لا يطمئن إليهم المصريون ، في الوقت الذي يصورهم فيه مطمئنين إلى الفتح اليوناني لا ينكرونه ولا يتمردون عليه . فيقول في العرب[1] :

« والتاريخ يحدثنا كذلك بأن رضاها « يعني مصر » عن السلطان العربي بعد الفتح لم يبرأ من السخط ولم يخلص من المقاومة والثورة ، وبأنها لم تهدأ ولم تطمئن إلا حين أخذت تسترد شخصيتها المستقلة في ظل ابن طولون وفي ظل الدول المختلفة التي قامت بعده » .

ثم يقول عن الفتح اليوناني[2] :

« فلما كان فتح الإسكندر للبلاد الشرقية واستقرار خلفائه في هذه البلاد ، اشتد اتصال الشرق بحضارة اليونان ، واشتد اتصال مصر بهذه الحضارة بنوع خاص . وأصبحت مصر دولة يونانية أو كاليونانية ، وأصبحت الإسكندرية عاصمة من عواصم اليونان الكبرى في الأرض » .

ويحاول المؤلف في الفقرة الخامسة من كتابه أن يبين أن الإسلام لم يخرج المصري عن مصريته ، ولا ينبغي له أن يفعل . ويقيس ذلك بالمسيحية التي لم تخرج الأوروبي عن خصائصه الأوروبية . ثم يعقد مقارنة بين الإسلام والمسيحية ، ليصل منها إلى ما يريد أن يدعيه من تقاربهما واتفاقهما في التأثر بالتفكير اليوناني ،

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق الفقرة ٤ ص ٢٢ .

ولينتهي من ذلك إلى تأكيد وحدة الحضارة في حوض البحر الأبيض المتوسط . ويختم ذلك بقوله :

« ولا ينبغي أن يفهم المصري أن الكلمة التي قالها إسماعيل وجعل بها مصر جزءاً من أوروبا قد كانت فناً من فنون التمدح أو لوناً من ألوان المفاخرة . وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوروبا ، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وألوانها » .

ثم يقول في الفقرة السابعة ، بعد أن يسرد ما اقتبسته مصر من نظم الغرب في مختلف مظاهر حياتها الحديثة :

« وإني لأتخيل داعياً يدعو المصريين إلى أن يعودوا إلى حياتهم القديمة التي ورثوها عن آبائهم في عهد الفراعنة أو في عهد اليونان والرومان أو في عصرها الإسلامي . أتخيل هذا الداعي وأسأل نفسي : أتراه يجد من يسمع له . . . فلا أرى إلا جواباً واحداً يتمثل أمامي ، بل يصدر من أعماق نفسي ، وهو أن هذا الداعي إن وُجد لم يلق بين المصريين إلا من يسخر منه ويهزأ به . والذين نراهم في مصر محافظين ومسرفين في المحافظة ، ومبغضين أشد البغض للتفريط في التراث القديم ، هؤلاء أنفسهم لن يرضوا بالرجوع إلى العصور الأولى ، ولن يستجيبوا لمن يدعوهم إلى النظم العتيقة إن دعاهم إليها » .

ويقرر بعد ذلك كله أن سبيل الحضارة الغربية هو السبيل الذي لا بد لنا من سلوكه والمضي فيه ، لا لأن تاريخنا يؤيد هذا المذهب في زعمه ، ولا لأن مصلحتنا تقتضي ذلك على ما يدعي ، ولكن لأن التزاماتنا الدولية في المعاهدة التي يسميها معاهدة الإستقلال تجبرنا على ذلك . فيقول :

« بل نحن قد خطونا أبعد حداً مما ذكرت . فالتزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم ، ونسير سيرتها في الإدارة ، ونسلك طريقها في التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوروبا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين

في الحكم والإدارة والتشريع ؟ فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحيي النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلاً ، ولوجدنا أمامنا عقاباً لا تُجتاز ولا تُذلَّل ، عقاباً نقيمها نحن لأننا حرّاص على التقدم والرقي ، وعقاباً تقيمها أوروبا لأننا عاهدناها على أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة »[1] .

٢ - يزعم المؤلف في الفقرة الثالثة من كتابه أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ، ولا قواماً لتكوين الدول . ويدعي (أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية ، وعدلوا عن إقامتها على الوحدة الدينية واللغوية والجنسية أيضاً ، قبل أن ينقضي القرن الثاني للهجرة ، حين كانت الدولة الأموية في الأندلس تخاصم الدولة العباسية في العراق) . ثم يتبجح بما زعم من أنهم (قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة ، وهو أن السياسة شيء والدين شيء آخر ، وأن نظام الحكم وتكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أي شيء)[2].

ولا يجد المؤلف في نفسه الجرأة على أن يصرح بما هو نتيجة حتمية لهذه المزاعم ، فيدعو إلى أن تكون الحكومة في مصر لا دينية . ولكنه يدور حول هذا الهدف في أكثر من موضع من كتابه ، ويحاول أن يمهد له ، لأنه يقدر أن وقت الدعوة الصريحة إليه لم يحن بعد . على أن بعض عباراته يفيد تفضيله للحكومة اللادينية . وهو يسميها « الحكومة المدنية » . تلطفاً في التعبير ، ومجاراة للتسمية الفرنسية . فهو يقول[3] :

« من الناس من يريد التعليم مدنياً خالصاً ، وأن لا يكون الدين جزءاً من

---

(١) ألم يسأل المؤلف نفسه : لماذا تحرص الدول الغربية كل هذا الحرص على أن تحملنا على حضارتها ، وتذهب في حرصها إلى حد لا تقنع معه إلا بالمواثيق المكتوبة ؟ هل تفعل ذلك حرصاً على رقينا أم تفعله حرصاً على مصلحتها ؟!

(٢) من الواضح أن من أهم وظائف الدين تنظيم الصلات بين الأفراد والجماعات ، وإقامتها على أسس سليمة ، وأن ذلك يطابق ما يسمى بلغة هذا العصر « السياسة » . ومن ذلك يتضح أن لا سياسة لم يتقي الله سبحانه وتعالى إلا الدين .

(٣) مستقبل الثقافة . الفقرة ١٣ ص ٦٩ .

أجزاء المنهج المقومة له . على أن يترك للأسر النهوض بالتعليم الديني ، وأن لا تقيم الدولة في سبيل هذا التعليم من المصاعب والعقبات ما يجعله عسيراً ، ومنهم من يرى أن التعليم الديني واجب كتعليم اللغة وكتعليم التاريخ القومي ، لأنه جزء مؤسس للشخصية الوطنية ، فلا ينبغي إهماله ولا التقصير في ذاته ، وواضح جداً أن هذا الرأي الأخير هو مذهب المصريين . وأن من غير المعقول أن يطلب إلى المصريين الآن أن يقيموا التعليم العام في بلادهم على أساس مدني خالص ، وأن يترك تعليم الدين للأسر » .

ولذلك يطالب طه حسين بتعليم الدين فيما تدرسه هذه المدارس من المواد القومية (ما دامت الدولة لم تذهب مذهب الذين يؤثرون التعليم المدني الخالص) . ثم يعود إلى الموازنة بين الحكومة اللادينية ـ أو المدنية حسب تعبيره ـ وبين الحكومة الدينية في الفقرة التالية ، فيقول[1]:

« وواضح جداً أن أمر الدين هنا كأمره في الفصل الماضي يختلف باختلاف النظرة التي تنظرها إليه الدولة . فإن رأت إقامة التعليم على الفكرة المدنية الخالصة تركت أمر الدين إلى الأسرة ، ولم تقم في سبيل تعليمه المصاعب والعقبات . وإن رأت إقامته على الفكرة المدنية الدينية قسمت للتعليم الديني مكانه من هذا البرنامج » .

ثم يقول في الفقرة التالية ، عند الكلام على التعليم الأولي ، بعد أن يدعو إلى إعداد مدرِّسه إعداداً ثقافياً صالحاً[2]: (وقُل مثل ذلك في اللغة . وقل مثل ذلك في النظام . وقل مثله في الدين إن أردت أن يكون الدين جزءاً من التعليم الأولي) .

وواضح من أسلوب المؤلف في المفاضلة بين أن تكون مصر دولة إسلامية أو تكون دولة لا دينية ، ومن حرصه على أن يكتم رأيه ولا يصرح به ، أنه لا يذهب مذهب المتمسكين بالإسلام بوصفه من مقومات الوطنية . على أن التأمل في أبيات

---

(١) المصدر السابق ، الفقرة ١٤ ص ٨٣ .

(٢) المصدر السابق ، الفقرة ١٥ ص ٨٧ .

المعري التي تمثّل المؤلف بها واتخذها شعاراً له ، فوضعها في صدر الكتاب ، يستطيع أن يستنتج أكثر من ذلك . فهو يتمثل بقول المعري :

خُذي هذا وحسبك ذاك مِني ... على ما فيَّ من عوَجٍ وأمْتِ
وماذا يبتغي الجلساءُ مني ... أرادوا مَنْطقي وأردت صمتي
ويوجد بيننا أمَدٌ بعيدٌ ... فأمُّوا سمْتَهم وأممتُ سَمتي

وهذه الأبيات التي جعلها المؤلف في صدر كتابه تبين أنه لم يصرح بكل ما في نفسه ، وأنه أخفى ما يخشى أن يعرضه لمثل ما تعرض له حين أخرج كتاب الشعر الجاهلي . فأبيات المعري التي يتمثل بها تشير إلى أن بينه وبين الناس تفاوتاً شديداً واسعاً في الرأي والمذهب . ولذلك فليس يسعه إلا أن يلتزم الصمت حين يلحون عليه في السؤال وفي طلب الإفصاح عن ذات نفسه . فحسبهم منه إذاً ما قال ـ على ما فيه من عوج ، وعلى ما يبطن من التواء .

يريد المؤلف أن يدعو إلى حكومة لا دينية ، ولكنه يرى أن الوقت المناسب للجهر بمثل هذه الدعوة لم يأت بعد ، فينبغي الصبر حتى يُهيأ الطريق لذلك ويمهد تمهيداً كافياً .

وأول ما ينبغي أن يزال ويهدم عنده هو الأزهر . فهو يتحدث عنه ـ أول ما يتحدث ـ في الفقرة السابعة من كتابه ، فيصوره أثراً من مخلفات العهود المتأخرة المنحطة ، ومشكلة من المشاكل التي تتطلب حلاً . وذلك حين يقول « وقد استبقينا الأزهر الشريف نفسه . ولكن أزمة الأزهر الشريف متصلة منذ عهد إسماعيل أو قبله ، ولم تنته بعد ، وما أظنها ستنتهي اليوم أو غداً . ولكنها ستستمر صراعاً بين القديم والحديث ، حتى تنتهي إلى مستقر لها في يوم من الأيام » .

ويحتال المؤلف لذلك الأزهر الذي لا يستطيع المجاهرة بإلغائه ، لأن وقت ذلك لم يحن بعد ، فيطالب بأن تشرف الدولة على التعليم الابتدائي والثانوي فيه ، ما دام مصراً على أن يستقل بهما بنفسه . والمؤلف لا يخفي هدفه في هذه المرة ، ولكنه يصرح به في وضوح . فجل ما يضايقه في الأزهر هو فهمه الإسلامي للوطنية .

والـذي يهـدف إليه المؤلف هو أن يدخـل في أدمغـة أبنائـه ، ويروض تلاميذه وخريجيه ، على فهم الوطنية فهماً إقليمياً . فهو يقول[1] :

« ولا بد من تطور طويل دقيق قبل أن يصل الأزهر إلى الملاءمة بين تفكيره وبين التفكير الحديث . والنتيجة الطبيعية لهذا أننا إذا تركنا الصبية والأحداث للتعليم الأزهري الخاص ، ولم نشملهم بعناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة ، عرضناهم لأن يصاغوا صيغة قديمة ، ويُكونوا تكويناً قديماً ، وباعدنا بينهم وبين الحياة الحديثة التي لا بد لهم من الاتصال بها والاشتراك فيها ، وعرَّضناهم لطائفة غير قليلة من المصاعب التي تقوم في سبيلهم حين يرشدون وحين ينهضون بأعباء الحياة العملية . فالمصلحة الوطنية العامة من جهة ، ومصلحة التلاميذ والطلاب الأزهريين من جهة أخرى ، تقتضيان إشراف وزارة المعارف على التعليم الأولي والثانوي في الأزهر » .

« شيء آخر لا بد من التفكير فيه والطلب له ، وهو أن هذا التفكير الأزهري القديم قد يجعل من العسير على الجيل الأزهري الحاضر إساغة الوطنية والقومية بمعناها الأوروبي الحديث . وقد سمعت منذ عهد بعيد صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر يتحدث إلى المسلمين عن طريق الراديو في موسم من المواسم الدينية ، فيعلن إليهم أن محور القضية يجب أن يكون القبلة المطهرة وهذا صحيح حين يتحدث شيخ من شيوخ الأزهر المسلمين إلى المسلمين . ولكن الشباب الأزهريين يجب أن يتعلموا في طفولتهم وشبابهم أن هناك محوراً آخر للقومية ، لا يناقض المحور الذي ذكره الشيخ الأكبر ، وهو محور الوطنية التي تحصرها الحدود الجغرافية الضيقة لأرض الوطن . ولست أرى بأساً على الشيخ الأكبر ولا على زملائه من أن يتصوروا القومية الإسلامية كما تصورها المسلمون منذ أقدم العصور إلى هذه الأيام ولكن هناك صورة جديدة للقومية الوطنية قد نشأت في هذا العصر الحديث ، وقامت عليها حياة الأمم وعلاقاتها ، وقد نقلت إلى مصر مع ما نقل إليها من نتائج الحضارة الحديثة . فلا بدّ من أن تدخل هذه الصورة الحديثة في الأزهر ، وهي إنما تدخل فيه من طريق التعليم

(١) مستقبل الثقافة ، الفقرة ١٣ ص ٧٥ ـ ٧٧ .

الأولي والثانوي على النحو الذي رسمناه ، بالطريقة التي رسمناها ، وبإشراف السلطان العام[1] .

وعقبة أخرى يريد المؤلف أن يزيلها لتمهيد الطريق إلى ما يريد ، وهي مدارس (المعلمين الأولية) . التي يتخرج فيها مدرسو المرحلة الأولى ، والتي تتخذ لوناً إسلامياً في تثقيف طلبتها وفي شروط الالتحاق بها[2] . ولكنه يحتال لغرضه ولا يصرِّح به ، ويصوغه في أسلوب مهذب خلاب ، فيقترح « جعل الشهادة الثانوية شرطاً أساسياً لدخول الطلاب مدارس المعلمين الأولية » . ولكي يبرر المؤلف طلبه هذا ، يبالغ في التهويل من خطر التعليم الأولي ، ومن شدة الحاجة إلى العناية بثقافة المعلم فيه ، ويشغل نفسه بذلك في أربع فقرات كاملة من كتابه[3] .

ويختم المؤلف مشاريعه البعيدة المدى بالدعوة إلى إنشاء معهد للدراسات الإسلامية في كلية الآداب ، ينافس الأزهر الذي لا سبيل إلى السيطرة عليه والتحكم في توجيهه . والطلب في نفسه ليس بدعاً ، ولكن البدع الخطيرة هو السبب الذي بنى عليه هذه الدعوة حين قال[4]: « وليس من شك في أن طبيعة الحياة العصرية تقتضي أن تُعنى كلية الآداب عناية خاصة بالدراسات الإسلامية على نحو علمي صحيح » . فهو لا يبني دعوته على الحاجة الإسلامية ، ولكنه يبنيها على الحاجة العصرية ، وكأن هناك إسلاماً عصرياً يتميز بطابع خاص ، أو كأنما يراد بالدراسات الإسلامية الحديثة أن تتأقلم وأن تتخذ أشكالاً تتناسب مع ظروف كل إقليم ومع أهواء أهله . وهو لا يريد أن ينشىء هذه الدراسات في كلية الآداب بوصفها إحدى كليات الجامعة في بلد إسلامي ، ولكنه يريد أن ينشئها لتدرس الإسلام على النحو الذي يسميه (نحواً علمياً صحيحاً) ، والذي فسره بعد ذلك مباشرة حين مضى يقول : « لأن كلية

---

(١) وراجع كذلك الفقرة ١٤ ص ٨١ - ٨٢ ، حيث يؤكد المؤلف المفهوم الإقليمي للوطنية وتراجع أيضاً الفقرة ٥٠ ص ٣٥٠ - ٣٥٧ ، حيث يتكلم على التعليم في الأزهر ووجوب إصلاحه ، بإدخال الثقافة الحديثة ، وبإشراف الدولة على برامج التعليم الثانوي فيه .

(٢) كان في شروط الإلتحاق بها حفظ القرآن الكريم .

(٣) الفقرات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ص ٨٤ - ٩٩ .

(٤) الفقرة ٤٩ ص ٣٤ .

الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوروبية ، وهي تعرف جهود المستشرقين في الدراسات الإسلامية » .

٣ ـ يقول المؤلف (إن اللغة العربية عسيرة ، لأن نحوها ما زال قديماً عسيراً ، ولأن كتابتها ما زالت قديمة عسيرة)[١]. ويقول في تقرير له قدمه إلى نجيب الهلالي حين كان وزيراً للمعارف سنة ١٩٣٥ « إن الناس مجمعون على أن تعليم اللغة العربية وآدابها في حاجة شديدة إلى الإصلاح » ويزعم أن نفور الطلبة من الدراسات العربية راجع إلى (أن اللغة العربية وما يتصل بها من العلوم والفنون ما زال قديماً في جوهره بأدق معاني هذه الكلمة ، فالنحو والصرف والأدب تُعلم الآن كما كانت تعلم منذ ألف سنة . . . ولست أزعم أن الأمر يقتضي إحداث ثورة عنيفة على القديم وتغيير العلوم اللغوية والأدبية فجأة وفي شيء يشبه الطفرة وإنما أزعم أنه قد آن الوقت الذي يجب فيه أن نؤمن بأن العلوم اللسانية ، كغيرها من العلوم ، يجب أن تتطور وتنمو وتلائم عقول المعلمين والمتعلمين ، وبيئتهم التي يعيشون فيها ، وحاجتهم التي يُدفعون إليها . ومتى آمنا بذلك ، فإن التطور سيأتي من غير شك ويتحقق شيئاً فشيئاً ، ولكن لا بد أن تمهد له الطريق[٢]. وهنا يظهر السبب الثاني الذي أشرنا إليه آنفاً ، وهو أن معلم اللغة العربية التي يُنهض بتعليمها كما ينبغي لم يوجد بعد ، فإن القديم لا يُنتج إلا قديماً مثله ما دام التطور لم يمسسه) .

---

(١) الفقرة ٣٢ ص ١٩٥ وموضع العجب أن هذا الاكتشاف الخطير قد جاء بعد قرون طوال ، مارست فيها مصر الكتابة بالعربية الفصيحة ، فانجبت خلال أكثر من ألف عام عدداً ضخماً من الشعراء والفقهاء والعلماء في مختلف علوم العربية وفنونها . وقد تقهقرت العربية وعلومها وضعف أسلوبها في بعض الأحيان . ولكن الناس لم يعالجوا ذلك بإصلاح قواعد اللغة والكتابة ، وإنما عالجوه بدراسة هذه القواعد وإتقانها ، فلم تلبث اللغة أن أسلست لهم القياد . والنهضة العربية المعاصرة ، وقدرة الكتاب العظيمة على التعبير في الصحف وفي الكتب عن مختلف الأغراض وعن أدق الخلجات ، إذا قورنت بما كانت عليه عربية الناس منذ قرن ، هي أصدق دليل على فساد مذهب الذين يزعمون أن إصلاح قواعد اللغة والكتابة قد أصبح ضرورة لا مفر منها .

(٢) وقد كان من المظاهر العملية لهذا التفكير أن تقدم المؤلف ـ عن طريق كلية الآداب ـ بطلب إنشاء معهد للأصوات يدرس اللهجات العربية قديمها وحديثها . ولم يحل بينه وبين غرضه إلا اعتراض أحمد عبد الوهاب ، الذي كان وكيلاً للمالية وقتذاك ، وكان في الوقت نفسه ممثلاً للدولة في مجلس الجامعة « راجع الفقرة ٤٩ ص ٣٤٦ » .

ولا يكتفي المؤلف بالدعوة إلى إصلاح قواعد اللغة ، بل هو يريد - كما يقول - « أن نعمد إلى إصلاح أعمق من هذا الإصلاح ، يتناول الكتابة والقراءة ، ويعصم الناس إلى حد بعيد من الخطأ حين يكتبون وحين يقرؤون » . وهو يوصي بهي الدين بركات ، حين كان هذا وزيراً للمعارف ، أن لا يكِلَ أمر هذا الإصلاح إلى لجنة أو جماعة من علمائنا وحدهم « وإنما يذيع الدعوة إليه في الشرق والغرب ، ويجعله موضوع مسابقة عالمية بين الذين يحسنون القول فيه » . ويختم ذلك بقول :« ولكن هذا كله لا يمنعني ولن يمنعني من أن أقرر أن إصلاح الكتابة حاجة ماسة وضرورة ملحة ، وشرط أساسي لنشر التعليم الأولي على وجه نافع مفيد »[1] .

ويحاول المؤلف بعد ذلك كله أن يبعث الطمأنينة والثقة به في نفس القارىء بأن يؤكد أنه « من أشد الناس ازوراراً عن الذين يفكرون في اللغة العامية على أنها تصلح أداة للفهم والتفاهم » ، وبأن يقول تارة أخرى : « أحب أن يعلم المحافظون أني قاومت وسأقاوم أشد المقاومة دعوة الداعين إلى اصطناع الحروف اللاتينية »[2].

وتكشف الفقرة (٣٦) عن أهداف المؤلف الخطيرة ، فهي تدور حول ما يسميه « مشكلة اللغة العربية » . والمشكلة تأتي في نظره مما يضفي عليها رجال الدين من قداسة باعتبارها لغة دينية . وهو يريد أن يعتبرها لغة وطنية أولاً وقبل كل شيء . فهي - في رأيه - ملك لنا نتصرف فيها كيف نشاء . ولا حق لرجال الدين في أن يفرضوا وصايتهم عليها ، وفي أن يقوموا دونها للمحافظة عليها .وأخطر ما في هذه الفقرة هو قوله : « وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون ، وليست أقل منا إيثاراً لدينها

---

(١) من الواضح أن المؤلف تنقصه الأدوات التي لا بد منها لتقدير مدى صلاحية الكتابة العربية ، لأن الذين يستطيعون تقدير ذلك هم الذين يمارسون الكتابة والقراءة ، وهو لم يمارسها في حياته قط . ثم إنه يدعو إلى أن يكون إصلاح الخط العربي موضع مسابقة عالمية ، وكان المشكلة في نظره مشكلة عالمية ، وليست مقصورة على الذين يتكلمون العربية ويكتبونها .

(٢) الفقرة ٣٧ ص ٢٣٦ . والواقع أن الخطر ليس في العامية نفسها من حيث هي اللغة ولا هو في الحروف اللاتينية نفسها من حيث هي حروف، ولكن الخطر في قبول فكرة التطوير، لأنها تؤدي إلى تشتيت المجتمعين على هذه اللغة وحروفها، وإلى توسيع الهوة التي تفصل بين بعضهم وبين البعض الآخر على مر الأيام . ثم إنها تؤدي في الوقت نفسه إلى قطع ما بينهم وبين التراث القديم الذي يكون القدر المشترك بينهم من القيم العقلية والخلقية .

ولا احتفاظاً به ولا حرصاً عليه . ولكنها تقبل من غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخاصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي فيها صلاتها . فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى ، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر ، والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع[1]» ومن هذا ترى أن المؤلف لا يرى بأساً أن تتطور لغة الكتابة والأدب في العربية حتى يصبح الفرق بينها وبين عربية القرآن الكريم مثل الفرق بين الفرنسية واللاتينية . وهذا فيما يبدو هو سبب آخر ، يضاف إلى الأسباب السابقة ، التي تدفع المؤلف إلى مهاجمة الأزهر والمطالبة بعزله عن الوصاية على اللغة العربية .

هذه هي أهداف الكتاب الثلاثة ، التي يمكن أن يُرَدَّ إليها كلُّ ما جاء فيه ، والتي يمكن أن نقول إنها تصور مذهب المؤلف الجديد في التعليم [2] .

(١) المؤلف هنا لا يزيد على أن يردد دعاوى الإنجليزي مستر ولمور الذي كان قاضياً في مصر والألماني سبتا الذي كان مديراً لدار الكتب بها ، ويراجع في تفصيل ذلك الباب الأول من كتاب الدكتورة نفوسة زكريا « تاريخ الدعوة إلى العامية » وهو بحث حصلت به على درجة الدكتوراه وأعدته تحت إشرافي .

(٢) وأضاف المؤلف إلى هذه المقالة بضع مقالات أخرى تناسبها مما كان قد نشره في الصحف بين سنتي ١٩٠٨ - ١٩١٢ .

الدكتور محمد محمد حسين

الدكتور محمد محمد حسين من مواليد سوهاج عام ١٩١٢ تقريباً كان أستاذ الأدب العربي بجامعة الاسكندرية ثم أستاذاً بالجامعة العربية في بيروت وعمل فترة في جامعة ليبيا وهو الآن مدرس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عرف بعمق أبحاثه أبرز مؤلفاته : كتابه القيم « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (مجلدان) وكتاب « حصوننا مهددة من داخلها » له محاضرات عديدة منها : محاضرته عن الإسلام والحضارة الغربية وله دراسات عميقة عن جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده فذكر في حياتهما علامات استغراب واتهام تثير الشبهات حولهما مخالفاً في كل ذلك ما ذهب اليه الكثيرون من الثقة بهما واعتبارهما من رواد النهضة وموقظي الشرق الإسلامي وفي كلامه بنظري كثير من الحق ولي كتاب كبير مخطوط في هذا الموضوع بعنوان : « عثرات الدعاة المعاصرين » يسر الله سبحانه طبعه .

نقد كتاب
(الشيخان)

بقلم الأستاذ: محمد عمر توفيق

قاعدة هامة ! [1]

يمثِّل الفصل الأول من الكتاب أفكار المؤلف ورأيه في التاريخ والروايات ، كما يرسم خطوط سيره في الكتاب ، فهو مقدمته التي تعطّي فكرة عنه كافية لمن يريد الإجمال .

إنه يبدأ بقوله :

« هذا حديث موجز عن الشيخين : أبي بكر وعمر يرحمهما اللّه ، وما أرى أن سيكون فيه جديد لم أسبَق إليه ، فما أكثر ما كتب القدماء والمحدثون عنهما ، وما أكثر ما كتب المستشرقون عنهما أيضاً . . وأولئك وهؤلاء جدُّوا في البحث والإستقصاء ما أتيحت لهما وسائل البحث والإستقصاء ، وأولئك وهؤلاء قد قالوا عن الشيخين ما يمكن أن يقال » .

* * *

وهذا حق لا شك فيه . .

غير أن المستشرقين إن لم يفتهم جد البحث والإستقصاء ، بل إن تفوقوا في ذلك على القدماء والمُحدثين ، فإن ما يفوتهم أو يفوت معظمهم هو السلامة من « العقد » والإلتواءات فيما يتعلق بديننا وتاريخنا ، وهذه حقيقة لا تخفى على من يلتمسها ـ بالأمثلة والتفاصيل ـ في مصادرها المعتبرة حق الإعتبار .

وإذا أضيف هذا إلى المستشرقين لم يكن حظهم سيئاً كحظ الآخرين ، فيما سيأتي به الكلام ، فعسى أن تتضح من هنا قاعدة هامة وراء الكتاب !

(١) عن كتاب « طه حسين والشيخان » .

ثم إن إمكان القول سيظل جائزاً مهما قيل في أي موضوع كان ، فكلام من نوع أن المستشرقين والقدماء والمحْدثين أو غيرهم « قد قالوا عن الشيخين كل ما يمكن أن يقال » لا يخلو من المبالغة . . . كالتواضع الجم في قوله : « وما أرى أن سيكون فيه جديد لم أسبق إليه » فما أظن أن الكاتب الحق يمْلي شيئاً ويخرجه للناس إلا وهو يتوقع به جديداً في الغرض والأداء . . حتى وإن كان مسبوقاً ـ كما قال ـ !

وأداء طه حسين في غنى عن الإشادة بفضله ومزاياه ! .

إنه أداء متفوق يجمع الرقة إلى المتانة . . في ترسُّل لذيذ يغري بمتابعة أفكار الكاتب ومشاعره إلى حد بعيد [1] .

إنه من الكتَّاب القلائل الذين قد لا تملهم ، إذا قرأتهم ، ولو تشيَّعت ضدهم في الرأي والاتجاه !

بقي الغرض الجديد في أداء رائع كهذا موضوعه (الشيخان) ذلك الموضوع الذي كتب عنه القدماء والمحدثون ـ والمستشرقون أيضاً ! ـ

طلقات !!

والحق إنه بعد التواضع وإنكار الجديد فيما سيمليه ، وبعد إعلان حبه للشيخين ، وشعوره بالتقصير في حقهما لأنه لم يشارك في الحديث عنهما من قبل ـ أخذ يبدي ويُعيد في غرضه منذ قال :

« وأنا مع ذلك لا أريد الثناء عليهما » .

وأخذ يشرح الأسباب في إلحاح ضد الثناء ، وكأن في الأمر « عُقدة » موضوعها الثناء ، أو عدمه ، على الشيخين !

ثم . . فجأة . . تَدوِّي هذه « الطلقات » :

« وما أريد أن أُفصّل الأحداث الكثيرة الكبرى التي حدثت في أيامهما ، فلذلك شيء يطول ، وهو مفصل أشد التفصيل فيما كَتب عنهما القدماء والمحْدثون . وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روي عن هذه الأحداث ، وأكاد أقطع بأن ما كتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين ، ومن تاريخ العصر القصير الذي وليّا فيه أمور المسلمين ، أشبه بالقصص منه بتسجيل الحقائق التي كانت في أيامهما ».

* * *

وواضح ما في هذه السطور من شك وتشكيك ، واتهام للقدماء بالكذب وإختراع القصص باسم التاريخ . . دون أي استثناء .

حرية الفكر . . والشك .

والشك ظاهرة قديمة في حياة المؤلف ، أو هي بداية الإنطلاق في فجر عُمره الأدبي المديد ، يوم أصدر كتابه عن « الشعر الجاهلي » وتحركت أقلام كثيرة للرد عليه ـ يومها ـ! حتى تطورت قضيته من الأدب للسياسة . وكانت معركة طويلة تبودلت فيها التُهم باسم « حرية الفكر » .

وهي مطلب الجميع حقاً . وإذا صحّ أنها تسمح لمن يشاء بالقول كيفما شاء ، حتى ولو أساء إلى معتقدات النّاس أو أشخاصهم ـ خاصة من لا يملكون حق الدفاع عن أنفسهم ـ بدون حق ، وإذا صح أن تهمة التطرف وما إليه لا تتفق حينئذ مع حرية الفكر ، فإن تهمة التعصب وما إليه لا تتفق معها أيضاً . . وإلا غدت حرية الفكر وكأنها حق من بعض الزوايا والأطراف .

إن حق الثقات المعتبرين هو حق الأدب والتاريخ قبل كل شيء .

وما عَلَيّ أن يُظن بي الرياء هنا ، أو أن يُقال : إنني أتخيل تُهماً كالتي تُبودلت يوم معركة « الشعر الجاهلي » أو غيرها ، فقد وددتُ أن أسجل الظاهرة . . وذيولها فحسب !

وشرف كبير أن يُقال بعدئذٍ ما يُقال !

* * *

ولقد مضى الدكتور فيها ـ أي الظاهرة ـ وإذا هي اليوم في « طلقات » كالتي دوّت تذكر بما مضى على شاكلتها في الشك ، واتهـام القدمـاء ـ وانتظـروا إتهـام المُحْدَثين ! ـ

وحقاً إن الشك منهج علمي سليم . . على أن يكون الهدف هو الحقيقة ، لا مجرد الشك والتشكيك !!

حق كل الحق أن تُستقبل الأمور كلها ببادرة الشك ، إنما لبناء الفهم بعده على أساس صحيح .

والمفروض في كل خبر أنه يحتمل الصدق . . والكذب . . إن استقباله بهذا المعنى هو الشك .

ثم يأتي دور الأدلة التي ترجح أحد الإحتمالين ، فإذا إستمر الشك بعدها فهذا ليس هو الشك . . أو منهج « ديكارت » ـ وهو المنهج الذي بشّر به الدكتور من وقت طويل ! ـ

انه حينئذ « عقدة » أو « وسواس » أو هو كلاهما ـ حفظك اللّه !!

الإكبار . . والكذب !

ولا أبْعِد عن مقدمة الكتاب .

أنها تتحدث ، بأسلوبها ، عن أدلة الشك فيا كتبه القدماء .

وقد وددت أن أنقل النص حرفياً . . غير أنه يطول . . وقد يلوح أنه لا يضع النُقط ، بل ينثرها مشوشة ، على الحروف . . ولا يُركِّز الضوء بل يبعثره ، في شكل لمحات سريعة على مقاصد الكلام . . ربما لأن وجه الصواب لم يكن واضحاً لدى المؤلف ، أو لأنه هو لم يرده واضحاً محُدداً . . ولو أراده لكان !

إنه يجمِل ويُفصّل أسباب شكه في القدماء ورواياتهم .

لقد اتخذ ـ في أول الكلام ـ من إكبار الشيخين وتقديسهما مصدراً من مصادر الكذب عليهما . . من القدماء . . هكذا على وجه العموم .

ولا أدري كيف يحفز الإكبار ، بمعناه الحق ، على الكذب ؟ أو كيف يتفق معه في طبائع النفوس . . والأخلاق ؟

كيف أُكْبِر أنا أو أنت أيٌّ أحد من الناس ، ثم لا يدفعنا الإكبار لتحرّي الصدق في كل ما قيل ويُقال عنه ، ولا هو يدفعنا إلى الصمت والحياد على قاعدة « أضعف الإيمان » ، وإنما يدفعنا إلى أن نكذب عليه ، أو إلى أن نتقبل الكذب فيه ، ونتناقله ونرويه . . رغم التقديس والإكبار ؟

إن الإكبار الزائف أو الساذج هو الذي يُنشد المغالاة ، وهذا ليس إكباراً . . إنما هو نفاق أو جهالة ، والإكبار الحق سياؤه الصدق والفهم والإيمان .

وإذا كان في القدماء أو في المحْدثين قلة من المغالين فإن ما يصدق على الثقات منهم هو الإكبار الحق . . وهذا لا يكذب ولا يتقول ، ولا يقبل الكذب والتقول في حق صغار الأمور . . والناس . . كيف بالخالدين ؟!

القدماء

ثم خذ تفاصيل القدماء بعد إجمالهم أولاً وأخيراً في الإتّهام إنهم ـ وأرجو أن تعودوا لنص المقدمة ، إن شئتم ، لتحقيق هذه التفاصيل ـ :

١ ـ « قدماء شهدوا المواقع ولا يستطيعون أن يصفوها بدقة ، لأنهم كانوا في شغل عن تفاصيلها بأنفسهم وبأدوارهم في هذه التفاصيل » .

فهم ، كمفهوم الألفاظ ، مُتهمون بالكذب في حالة السرد الدقيق للتفاصيل . وقد ضرب الدكتور مثلاً أحسبه يعني هؤلاء ، وهو مثل إحصاء القتلى والجرحى والغرقى والمنهزمين . . والجيوش فهذا ـ كما يرى الدكتور ـ

شيء لا سبيل إليه في العصور القديمة ، إذ لم يكن هناك إحصاء دقيق ، ولا علم بمناهج للبحث والاستقصاء وتحقيق أحداث التاريخ !!

وأترك علامات التعجب مؤقتاً بعد هذا المثل العجيب . . مثل الإحصاء .

٢ ـ « وقدماء لم يشهدوا الأحداث ، ولكنهم يقصونها كأنهم شهدوها » .

وهم ، كمفهوم الألفاظ أيضاً ، متَّهمون بارتجال الكذب ، ثم بالرواية ـ إذا حصلت ـ عمن قبلهم ممن سبق إتهامهم بالكذب .

وهؤلاء هم الذين يبدو أنه يعنيهم بالمنتصرين بالنقل والسَّماع ، لا بشهود الإنتصار والمشاركة عملياً فيه .

٣ ـ « وقدماء لم يشهدوا ، ولم يقصوا كأنهم شهدوا ، ولكنهم تناقلوا الروايات من العرب والموالي » .

والتّهمة التي تنصب على هؤلاء ليست هي ـ كما يلوح ـ تهمة الكذب ، بل تناقل الكذب عمن قبلهم دون نقد أو تحقيق .

إنها تهمة قد تهون إذا قيست إلى تهمة الكذب . . وسنرى أن تهمة الكذب غير واردة على من قبلهم بمثل هذا الجُزاف ، وأن الآخرين كالأولين لا تَنْصب عليهم تهمة الجهالة وإغفال النقد والتحقيق . . بنفس الجُزاف !

قاعدة الرواية

من هو الطراز الأول من القدماء ؟

من هم أولئك الذين شهدوا الأحداث وكانوا في شُغل عن تفاصيلها بأدوارهم فيها . . كما قال ؟

إنهم ـ بحكم أنهم شهدوا المواقع وعاصروا الأحداث ـ هم الذين ينتهي إليهم سند الرواية ، وفي مقدمتهم أصحاب رسول اللّه ﷺ.

إنهم قاعدة الرواية ، فإذا أتهموا بالكذب أو ـ كما قال ! بالشغل عن التفاصيل ، فقد اهتزت القاعدة ، وانهارت الرواية وسندها ، ولا لزوم حينئذ لاستعراض أي طراز أو جيل بعدهم من القدماء . .

أفتراها ستهتز فعلاً لمثل ذلك الإتهام ؟

ومع صرف النظر جدلاً عن حق الصحابة عليهم رضوان اللّه في الترفع بهم عن التهمة والإتهام ـ كيف تشغل ممارسة الأحداث عن رواية تفاصيلها على نحو دقيق ؟

التفاصيل والإحصاء . . بالفطرة

إن أسوأ الفروض أنهم في العصور القديمة ـ بما فيها عصر الصحابة ـ قد كانوا على الفطرة يعيشون في أيام السلم والرخاء .

وعلى الفطرة نفسها كانوا يعيشون ويمارسون أدوارهم في الحروب .

وبالفطرة كانوا يجتمعون في أسواقهم وأنديتهم ومساجدهم ، للسَّمر والعلم وشجون الحديث . . والمعركة في مقدمتها لا سيا إذا كانت موضوع الساعة واليوم ، فما الذي يمنع أن يتذاكروها ، وأن يتحدث كل منهم عن دوره في المعركة بكل لغة ساذجة يمكن أن تتحدث بها فطرة الإنسان القديم ؟

وما الذي يحول دون صدق التفاصيل حينئذٍ ، وأدوار الأول . . والرابع . . والعاشر ـ إلى آخرهم ـ هي التي تُشكِّل تاريخ المعركة إجمالاً . . وبالتفاصيل ؟

إن الفطْرة التي يسعها أن تحارب وأن تقتحم ميادين القتال يسعها أن تتحدث عن المعركة بتفاصيلها ، وهذا يكفي لإثبات تاريخها إذا صح أن كلاً منهم كان مشغولاً بنفسه ودوره عن سواه .

* * *

ولكن المؤلف يقول ضمن ما سبق إجماله :

« وما ظنك بالجندي الذي هو دائماً مشغول بالدفاع عن نفسه واتقاء ما يسوقه إليه خصمه من الكيد ، أتراه قادراً على أن يلاحظ ما يحدث حوله ، وما يحدث بعيداً عنه من الهجوم والدفاع ، ومن الإقدام والإحجام ؟ هيهات ! ذلك شيء لا سبيل إليه » .

أَفَحَقّاً أن إنطلاق علم الجندي متعذر كما قال ؟

إن هناك ضرورة مشتركة هي المعركة . . تحرك التطلع والاهتمام .

وهناك ما يقع في متناول العلم والحواس حتى وإن لم يكن مرغوباً فيه .

وهناك الفضول الذي لا يموت في كل أحوال السلم والقتال ، وهو واجد فُرْصَتَهُ خلال المعركة أن هدأ الدفاع والهجوم . . أو لم يهدأ .

وعلى كل هذا لا بد من علم المقاتل ، ولو قهراً ، ولو بالتافه القليل مما حوله . . مهما كان مشغولاً بالهجوم أو بالدفاع .

كيف يغدو ذلك شيئاً لا سبيل إليه . . وبهذا الجزم من المؤلف الكبير ؟

وكيف نضع تهمة الكذب في مواجهة أية معلومات ترد من أبواب طبيعية كهذه ، لمجرد القول بأن الناس كانوا مشغولين بأدوارهم كما لو كان كل منهم - بفطرته وسائر الضرورات - في سجن عميق من دوره . . ولا شيء مطلقاً سواه ؟

* * *

وهناك الرقابة التي يكون دورها رئيسياً في المعركة ، ولعلها جائزة حتى على فطرة الحيوان . . إن لم يكن باسم التاريخ فباسم الحياة وصيانتها في العاجزين .

ومتى كانت الرقابة فقد صح العلم حتماً بالتفاصيل .

* * *

وخذوا المثل نفسه الذي ضربه المؤلف الكبير . . مثل إحصاء القتلى ، والجرحى ، والغرقى ، والمنهزمين . . والجيوش .

ما الذي يحرِّم على فطرةٍ ذاك بعض شأنها أن تعرف مدى خسارتها على وجه التحديد بعد المعركة والقتال ؟

إن معنى القتيل ، والجريح ، والغريق ، والمنهزم ، وهو معنى المصيبة التي حلّت به وبأهله وبعشيرته ، ولا شك في أنهم سيعرفونها قبل أن تنفضّ المعركة أو بعدها ما دام أنهم أحياء . . ولم يفقدوا عقولهم بعد .

وإذا عرفوا كارثتهم فقد أحصوها .

وإذا عرف كل مقدار كارثته فقد عرف الناس تفاصيل الكارثة ، وأحصوها ، وتبادلوا الكلام في ذلك إلى ما شاء اللّه . .

* * *

وإحصاء الجيوش نفسها قبل الدخول في المعركة - هل هو حرام على الفطرة ، أو هو شيء لا سبيل إليه بالقياس إلى الأحداث القديمة ، حين لم يكن هناك إحصاء دقيق أو علم بمناهج البحث . . كما قال ؟

كأنهم في العصور القديمة لم يكونوا يجتمعون ويتذاكرون كثيراً أو قليلاً قبل القتال ، ثم تُوزَّع العملية الحربية عليهم في شكل وحدات معروفة بأسمائها وبمهماتها ، فتلك ميمنة ، أو ميسرة . . وهذه كراديس . . إلى آخر ما كانت تُشرِف القيادة المختارة على نظامه وحركته في ميدان القتال .

كَأنهّم كانوا يخرجون فُرادى . . يأخذ كل منهم رمحه وسلاحه ودرعه ويتوكل على اللّه . . إلى المعركة . . كيفما إتفق ، دون أية قيادة أو نظام !

كَأنهّم كانوا يذهبون لقتال العدو جُزافاً ، ويقاتلون جُزافاً ، ويموتون جزافاً ، ويرجعون جزافاً . . لأن ما عدا الجزاف معناه الإحصاء ، وهو حرام على الناس قبل

علم الإحصاء الحديث ومناهج البحث والاستقصاء فيما يبدو من رأي المؤلف الكبير!

وهو على رأيه هذا لم ينكر « الخطط التي يتخذها القواد للهجوم والدفاع » مع أن تقدير عدد المهاجمين والمدافعين شيء لا يغفله القواد عند اتخاذ الخطط .. مهما جهلوا فن الإحصاء الحديث!

* * *

وماذا هو الإحصاء في حقيقته قبل التطور وقبل الفن والنظام؟

أليس هو من مهمة الأصابع بفطرتها منذ وجد الإنسان .. ثم طرأ النظام عليها مع تطور الحياة؟

ومن الحق أن يتردد الباحثون قبل التسليم بالإحصاءات والتفاصيل التي رواها القدماء، وأن يناقشوها، ليأخذوا بما أمكن من الصواب فيها، لا ليهدموها بجرة قلم!

وما أظن أن تاريخ الشيخين أو بعضه هو المقصود وحده بذلك، فإن التاريخ القديم يصدق عليه ما ذكره المؤلف، إلاّ إذا كان الجهل بالإحصاء الحديث ومناهج البحث والاستقصاء شيئاً خاصاً بتاريخنا، أو بعصر الشيخين، ينقطع فيما عداه، فهذا ليس بغريب - إن كان ممن يبني - بأسلوبه! - منطق الأشياء.

المحَدثون بعد القدماء!

ثم من هم الذين يعنيهم بمن قال: إنهم كانوا يقصّون الأحداث وكأنهم شهدوها وهم لم يشهدوها؟

أتُراه يعني من كانوا يسقطون قاعدة الرواية أو يسردونها بدون سند وعنعنات؟

إن هذا - كما أظن - جائز في باب الرواية بما لا بدّ فيه من قيود تحراها القدماء،

للأخذ بالصحيح واستبعاد الساقط أو الضعيف . . وهذا لا يعني بحال من الأحوال أنهم كانوا يتظاهرون ـ كمفهوم كلامه ـ بشهود الحادث وهم لم يشهدوه ، بل يعني أنهم كانوا يلتزمون قاعدة مشروعة ـ بأحكامها ـ في رواية التاريخ والأقوال . .

أو تراه يعني طرازاً من القدماء ممن عاصروا الحادثة أو جاءوا بعدها ، كانوا يقولون : قد رأينا . . وشهدنا . . بالكذب والبُهتان ؟

أليس هذا ـ إن كان هو المقصود ـ في حاجة إلى أمثلة أو مثال واحد لرجل من القدماء الثقات قال إنه شهد أو سمع وهو كذاب ؟

وليته ، وقد أغفل المثل ولم يضربه في المقدمة ، لم يغفله في سائر الكتاب !

وما أظن أن إرسال نظريات كهذه كاف لتقريرها بدون تحديد أو أمثلة ، لمجرد أن وراءها عبقرياً . . وإن بلغت عبقريته عنان السماء !!

ثم لم يكن حظ المحدثون أحسن من القدماء ، فلقد استطرد إليهم بعد ذلك قائلاً :

« من أجل هذا كله أعرض عن تفصيل الأحداث كما رواها القدماء ، وأخذها عنهم المحدثون في غير بحث ولا تحقيق » .

وهكذا يستوي الكل والجميع ـ من غير تحديد ، أو مثال ، أو استثناء لأحد من الأولين والآخرين ـ في الإتهام !! .

أسباب الكذب

ولكن لماذا كان حال القدماء بأصنافهم . . كأنهم تضافروا جميعاً على الكذب في رواية التاريخ ؟ لماذا كذبوا وتعمدوا كل هذا الكذب ؟

إنه سؤال وارد ، وكأنما يجيب المؤلف عنه بأن الانتصار والتقديس علة

الكذب ، فإن تاريخ الأحداث لم يُعرف إلا عن طريق المنتصرين ، ولم تُسمع أنباء هذا الانتصار من المنهزمين بين فرس وروم وأمم أُخرى شاركتهم في الحرب والهزيمة . . إلى آخر ما قال . .

أفترى الانتصار هذا شأنه في الحث على الكذب وتلفيق الأنباء ؟

إنما يصدر الكذب عن شعور بالحاجة إليه ، فما هي على وجه التحديد حاجة المنتصر إلى الكذب ، والتلفيق ،والغلو ، والإسراف ، والتكثر في الروايات كما قال ؟

ما حاجة المنتصر إلى ممارسة كل هذه المترادفات التي كان بعضها يكفي لولا ما يلوح أنه كالتوتُّر ضد القدماء ؟!

أهي الرغبة الساذجة في مضاعفة الانتصار وتضخيم الإطار . . والتقديس ؟ إن هذه الرغبة قد تكون إنما ليس في كل أوساط الناس وطبقاتهم .

إن انتصار نادٍ على آخر في ميادين الكرة والرياضة بأنواعها كافٍ ليرفع المنتصر هامته على حساب أسباب الانتصار الصحيحة ، لا المختلقة من توافه الناس ، فلم نسمع أن المنتصرين لفقوا مزية أو سبباً من الخيال لانتصارهم ، وما لزوم ذلك وقد حقق الصدق كفايتهم من المجد والانتصار ؟

ربما اختلق الأطفال شيئاً كهذا . . أو مَن في حكم الأطفال من الرجال !

وربما كذبوا في تهويل الحادث وبرقشته بالمبالغة والخيال . . ولكن الثقات من رواة تاريخنا ليسوا من هؤلاء !

ثم إذا جاز أن يكون الانتصار باعثاً على الكذب فالهزيمة باعث عليه أكبر وأقوى من الإنتصار.

إذا جاز أن يكذب العرب والموالي المنتصرون في رواية أنباء انتصارهم ، فإن سماع هذه الأنباء من المنهزمين ما بين روم وفرس وأمم أخرى ـ كما قال ـ لا يجدي شيئاً ، بل عساه أن يُضاعف الشك في روايتهم ، لأن الكذب إن حصل بالفعل في

رواية التاريخ عن المنتصرين فهو في رواية المنهزمين أكثر حصولاً بالبداهة . . اللهم إلا ان كان الأمر غير ذلك ، لأن المنتصرين كانوا عرباً ، وكان المنهزمون من أبناء الفرس والروم والأمم الأخرى . . فكأنما سيتغير وجه التاريخ لو سمعناه من هؤلاء !

ولقد قال ما قال ، وطالب المؤرخ المحقق بأيسر ما يجب عليه « وهو أن يسمع ويقرأ ما تحدث به أو كتبه المنتصرون والمنهزمون جميعاً » ثم لم يضرب في المقدمة أو في الكتاب كله أي مَثل يؤكد رأيه في الصدام ، أو في احتماله ، بين ما كتبه أولئك وهؤلاء !

إذا أخلص الشك ؟؟

ومما لا شك فيه أن التاريخ الإسلامي لم يسلم من الضعف والكذب والمغالاة . . ليس هو وحده ، بل التاريخ كله من حيث هو - بما فيه تاريخ عصرنا - يصدق عليه نفس الشيء . . . والأسباب قائمة في طبيعة الحياة . . والناس .

ولقد كان تاريخ الشيخين رضي اللّه عنهما - على الأخص - محل جدل وشقاق كبير في صفوف المسلمين مما يبرر الحذر والشك قبل التصديق . . غير أن وجه الهدى واضح لمن أراده في تاريخهما وفي كل تاريخ .

ليشك طه حسين أو غيره ما وسعه الشك ، في بعض أو سائر الروايات ، فهو قد ينتهي إلى رفض شيء منها ، ولكنه لن يرفض الباقي إذا كان مخلِصاً في شكه لوجه الحقيقة . . لا لوجه الشك والارتياب !

ومنذ كان التاريخ هو الرواية تحدد البحث في متنها وسندها كما يقول أهل الأصول . . أي في الكلام المروي ، وأشخاص الرواة . . من الجيل الذي عاصر الكلام . . إلى الجيل الذي انتهى إليه .

ومن حق كل من ينبغي له الشك ، مخلصاً للحق ، أن يشك في الرواية بهذا المعنى .

رواتها ـ أولاً ـ من هم ؟ وما سيرتهم ومقامهم بين الناس بعد كل نقد وتحقيق ؟

ونص الرواية ـ ثانياً ـ ما هو ؟ وما مدى انطباقه على الوقائع والأحداث أو على منطق الأشياء . . ؟

هذا . . مع أن الحوادث لا منطق لها غالباً ، فربما جاز منها ما يرفضه كل منطق عندي أو عندك أو عند عشرات الناس . . غير أنه قد كان ـ أو فليكن ـ منطق الأشياء قاعدة في نقد الروايات بعد قاعدة نقد السند والرواة . . إنما الذي ينبغي أن يكون هو المنطق السائغ الصحيح !

التاريخ . . إجمالاً !

ثم يمضي المؤلف وقد هدم ، كما رأيتم ، تفاصيل الأحداث التي كانت في أيام الشيخين ، وأعرض عنها كما رواها القدماء وأخذها عنهم المحدثون في غير بحث ولا تحقيق ـ يمضي لإثبات أمهات الأحداث وحدها . . بلا تفاصيل ، إذ يقول :

« فردُّ العرب إلى الإسلام بعد أن جحدوه ، وإخراج الروم من الشام والجزيرة ومصر وبرقة ، وإخراج الفرس من العراق ، والقضاء على سلطانهم في بلادهم . كل هذه أحداث لا سبيل إلى الشك فيها ولا في وقوعها في هذا العصر القصير أثناء خلافة الشيخين » .

***

وواضح كالشمس أن هذه الأحداث التي لم يشك فيها ، بالجملة ، قد نقلتها إلينا تفاصيل الأحداث التي أعرض عنها كما رواها القدماء والمحَدثون .

كيف ـ والسؤال هنا لوجه المنطق فحسب ـ كيف يصْدق الخبر مجملاً ، ويكْذب مفصلاً . والإجمال إنما هو خلاصة التفاصيل ؟

ربما قيل ان الروايات قد تتفق على الاجمال وتختلف بعده في التفاصيل ، ولهذا

قد نصدق الأولى ونكذب الثانية . . وهذا حق لولا أننا أمام تكذيب مطلق يشمل التفاصيل والروايات كلها ، فكيف يصدّق الإجمال مع كذب شائع كالوباء في سائر التفاصيل ؟ وكيف يزول الإشكال حينئذ في تناقض التصديق والتكذيب ؟

وما علينا من الجواب . . ولتكن وجهة نظر المؤلف ما تكون ، فقد مضى يقول :

« وأنا أعتقد أن المؤرخ حين يقول : إن عصر الشيخين قد شهد انتصار المسلمين على الروم ، وقضاء المسلمين على دولة الفرس ، قد قال كل شيء ، وسجل معجزة لم يعرف التاريخ لها نظيراً » .

إذا كان الأمر كذلك فما لزوم كتب السير والتواريخ وكلام موجز ، كالذي قاله هو عن عصر الشيخين ، يكفي ليكون المؤرخ قد قال كل شيء ؟

وكتاب الدكتور نفس الشيء . .

كان حسبه أن يُصدر بياناً بما قال ، ويريح نفسه من مناقشة التفاصيل . . وانتهى الأمر . . وخلصنا !

وفي الإمكان ـ بالطريقة نفسها ـ إجراء عملية اختصار سريعة للتاريخ من بداية الخليقة ، أو لتاريخ مرحلة بعينها إن شئنا التركيز في الاختصار !

تاريخنا الإسلامي ـ مثلاً ـ يكفي لتقريره كلام موجز معناه :

إن عصر الشيخين قد شهد انتصار المسلمين على الروم ، وقضاء المسلمين على دولة الفرس ـ كما قال !

ثم انتقلت الخلافة ، ولم يطل أمدها في المدينة ، إلى دمشق . . ومضى الفتح الإسلامي . . والاضطرابات في نفس الوقت . . وانتصر العباسيون . . ودالت دولة الأمويين . .

وواصل المسلمون زحفهم . . إلى أوروبا في هذه الأثناء . .
ثم تراجعوا . . وانهزموا . .
واشتعلت الحروب الصليبية . .
وجاء عهد التتار . . والمماليك . .
ثم امتد النفوذ العثماني . . حتى تقلص أخيراً . .
وكان الاستعمار ، وما زال في صراع مع حاضرنا . .

يكفي ـ على حد تعبير الدكتور واعتقاده ـ أن تكتب سطور كهذه ليكون المؤرخ بها قد قال كل شيء . . ونخلص حينئذ من كتب التاريخ ومن كل تطويل مُمل فيها ـ إلى غير رجعة .

ألا يجر شيء كالذي في عبارة المؤلف ـ إلى مثل هذا القياس ؟

ومرة أخرى . . ما علينا من الجواب .

تحقيق في الظلام !

إنَّ مِنْ كلامه في المقدمة :

« وإنما يستطيع المؤرخون المتقنون أن يحققوا عواقب المواقع ، وما يكون من انتصار جيش على جيش ، وانهزام جيش أمام جيش ، وما يكون أحياناً من أبطاء النصر أو إسراعه ، ومن طول المواقع أو قصرها ، ومن امتحان الجيشين المتحاربين بما يكون فيهما أو في أحدهما من كثرة القتلى والجرحى » إلى آخر ما قال . .

ولا أدري : فيم ولماذا كل هذه « الدوشة » وهذا التحقيق إن كانت كلمات كالتي سبقت في عبارته الموجزة تكفي ليقول المؤرخ كل شيء .

ثم مَن هم المؤرخون الذين يعنيهم بأن يحققوا وقد حكم ـ إجمالاً ـ على القدماء والمحدثين بالإعدام . . من الذين شهدوا الحوادث . . إلى الذين لم يشهدوها ، ثم الذين تناقلوها . . إلى المحدثين . . والتاريخ لم يردنا إلا عن طريق كل أولئك وهؤلاء ؟!

كيف ـ إذن ـ يمحّص المؤرخ أو يحقق وهذا الظلام في وجهه . . ظلام التاريخ الملفّق . . من القدماء والمحدثين ؟

ومن هو هذا المؤرخ المتقن الهمام الذي يلوح وكأنه سيقرأ الغيب أو يضرب الرَّمْل في مثل هذا الظلام ؟

أو هو الشك . . صانع المعجزات ؟!

الغرض والقاعدة

ولم يفتْه ، قبل ختام المقدمة ، أن يستطرد لغرضه من وراء الحديث الذي أملاه في كتاب (الشيخان) إذ يقول :

« أنا إذن لا أُملي هذا الحديث لأثني على الشيخين ، ولا لأفصِّل تاريخ الفتوح في عصرهما ، وإنما أريد إلى شيء مخالف لهذا أشد الخلاف . . . »

ومرة أخرى . . إن « العقدة » تتحرك هنا ـ ولو في خيال القارىء ـ وراء الشيء الذي يريده مخالفاً للثناء ؛ فما الذي يخالف الثناء أو يتبادل إلى الذهن أنه يخالف الثناء ؟

لا بد من معنى القدْح والذم ـ أو من تخيُّله ـ أياً كان المراد ، مذ كان الحساب على الألفاظ ، خاصة في كلام الرواد والعلماء ، والمفروض أنه موزون بدقة من قبل أن يحدثوا به الناس !

ثم يستطرد إلى ما كأنه ينفي هذا المعنى ، ويحدد الغرض المقصود ، إذ يقول :

« أريد أنْ أعرف وأن أُبينّ لقارىء هذا الحديث شخصية أبي بكر وعمر رحمها الله كما يصورها ما نعرف من سيرتهما ، وكما تُصورها الأحداث التي كانت في عصرهما ، وكما يُصورها هذا الطابع الذي طُبعت به حياة المسلمين من بعدهما ، والذي كان له أعظم الأثر فيما خضعت له الأمة العربية من أطوار ، وما نجم فيها من فتن » .

وواضح مما سبق أن الطريق الذي يريد أن يعرِّف منه طه حسين أو غيره سيرة الشيخين والأحداث التي كانت في عصرهما - إنما هو طريق أولئك المتهَمين بالكذب والتلفيق ، فحصول شيء عن طريقهم بمعنى العلم والمعرفة لا يتفق مع الاتهام .

أفتراه يعني طريق المستشرقين[1] الذين لم يمسهم بأي إتهام ؟

ليكن هذا . . أو سواه ، فالسطور الأخيرة من المقدمة تُلقي ضوء على القاعدة ! . .

وكأنما هو يستدرك في ضميره ، وليس في مقدمة الكتاب ، ويستثني شيئاً مما رواه الأقدمون ، أو ما آمن به المستشرقون وحدهم ، إذ يعتبرونه صحيحاً يصور الأحداث ويشكل لها منطقاً اسمه منطق الظروف والوقائع . . وفي ضوء هذا المنطق سيناقش التاريخ والروايات ، ويبيِّن شخصية الإمامين . . وكأنه سيجرِّد ما صحت ، أو لم تصح به الروايات من كل اعتبار إلا اعتبار منطقه فحسب ؟ !

وسترون ما إذا كان هذا قد حصل . . أو لم يحصل !

بل سيتضح أن للمؤلف رأياً في بعض الحوادث لا يتفق مع رأيه في غيرها ، كما لو كان لكل حادثة منطق يخصُّها . . وإنْ ناقض سواه ، وإن اضطرب في حد ذاته ولم يثبت على النقد !

أيسر الطريقين !

ثم يختم كلامه بهذه السطور :

« ولا أذكر عسر هذا البحث ، ولا ما سأبذل فيه من الجهد وما سأتعرض له من المشقة ، وما سيعرض لي من المشكلات ، فكل من يحاول مثل هذا البحث لا بدّ من أن يوطِّن نفسه على كل هذا العناء ، ومن أن يستعين الله عليه » .

---

(١) وهو يريد أيضاً الذين شوهوا التاريخ الإسلامي بأكاذيبهم وافتراءاتهم التي يترفع عنها حتى المستشرقون الكفرة م.م.

وأنا لا أدري أي عسر وجهد ، أو مشقة ، يعانيها من يشك ويصدق . . بسهولة ، أو بمنطق ذاك حاله . . وأنه يرى ذلك أو لا يراه ؟!

هناك ـ كما قيل ـ طريقان للإنزلاق في يسر : أن تصدق كل شيء ، وأن تشك في كل شيء . . وكلاهما يوفر علينا مهمة التفكير .

إن شيئاً كهذا في وسع الكثيرين أن يمارسوه ، ولكن البحث الحق غير الإنزلاق !

وما أشك في أن الدكتور من أهل البحث ومن القادرين عليه بألوان الجهد فيه والمشقة ، غير أنه فضّل ـ كما يلوح ـ أيسر الطريقين !

وكأنما تخيل صدى حقاً للخطأ والشذوذ وهو يذكر المشكلات ـ سلفاً ـ والعناء !

وسواء كان هذا . . أو لم يكن ، فقد يلوح إنني أطلت مع الفصل الأول من الكتاب .

والحق أنه يرسم خطوط السير ، ويحدد اتجاه المؤلف ، بما قد يغني عن المزيد لولا أنه خير للقناعة بأن ما قيل لم يكن من باب التحامل أو الافتعال ، وبأن الكتاب تفصيل ـ ليس إلا لما في مقدمة الكتاب !

نقد كتاب
"على هامش السيرة"

بقلم الأستاذ: غازي التوبة

يشمل هذا الكتاب ثلاثة أجزاء . وقد ألفه في فترة مبكرة من حياته عام ١٩٣٣ . ويبدو للنظرة السطحية السريعة أن في الأمر تناقضاً . فطه حسين الذي عرفناه ـ في الثلاثينات وما قبلها ـ ثائرا على الدِّين ، ساخطا من القيم الموروثة ، داعياً إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوروبية . يكتب في الفترة نفسها ثلاثة أجزاء عن سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فما الذي جعله يكتب ؟ وما هو السر ؟

يكمن السر في تهمة الإلحاد التي وجهت إليه ولصقت به إثر المعركة الطاحنة حول كتابه (في الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦ . فقد سعى إلى محوها[1] ، وإزالتها من أذهان الناس بأثر آخر من جهة ، وقد سعى ـ في الوقت نفسه ـ لكسب الرأي العام المتدين إلى جانب حزب الأحرار الدستوريين في معركة المنافسة مع حزب الوفد من جهة ثانية .

وإذا تجاوزنا الأسباب الدافعة إلى تأليف الكتاب ، فما هي قيمته الفكرية ؟ يقتضي هذا منا أن نعود إلى مقدمة الكتاب ليتوضح لنا الباعث الداخلي الذي دفعه إلى الكتابة فقد قال (ص ، ٧) من الجزء الأول[2] (وليس خلود الإلياذة يأتيها من أنها تُقرأ فتحدث اللذة وتثير الاعجاب في كلّ وقت وكل قطر ، بل هو يأتيها من هذا ، ومن أنها ألهمت وما زالت تلهم الكتاب والشعراء ، وتوحي إليهم أروع ما أنشأ الناس من آيات البيان) .

---

(١) الفكر الإسلامي المعاصر ص ١٦٨ ـ ١٧٢

(٢) هذا رأي الكاتب . ويختلف رأينا عنه . فما كتابه طه حسين في الاسلاميات. إلا محاربة الاسلام بصورة مباشرة ، بعدما حاربه بكتاباته الأدبية بصورة غير مباشرة . وقد لاحظ هذا الكاتب نفسه ذلك في مقاله . . .

ولقد كان (ايسكولوس) أبو التراجيديا اليونانية يقول أنه إنما يلتقط ما يسقط من مائدة (هوميروس) . وما زال القصاص وشعـراء التمثيل والغنـاء في الغـرب خليقين أن يقولوا الآن ما كان يقوله إيسكولوس منذ خمسة وعشرين قرنا ولـم تكن قصص إيسكولوس وغيره من شعراء التمثيل اليوناني أقل خصباً من الالياذة ، بل هي قد ألهمت كثير من الكتاب والشعراء قديما وحديثا ، ومـا زالـت قادرة على أن تلهمهم إلى اليوم وإلى الغد .

ثم يتحـدث عن قدرة بعض القصص على الالهـام ويمثـل لذلك فيقـول في الصفحة السابقة نفسها : (واني لأذكر أني قرأت منذ أعوام قصة تمثيلية هي الثامنة والثلاثون من نوعها ، وقد سماها صاحبها (جيرودو) بهذا الرقم ، فوضع لها هذا العنوان (أنغيتريون رقم ٣٨) . كانت أسطورة تتصل بمولد هرقل فصورها سوفوكل قصة تمثيلية في القرن الخامس قبل المسيح . وما زال الشعراء والكتاب من اليونان والرومان والأوروبيين المحدثين يتأثرون ويذهبون مذهبه أو غير مذهبه في تصوير هذا الموضوع ، حتى انتهت القصص التي كتب فيه شعراء ونثراء إلى هذا العـدد الضخم .

ولـم يحجم فحول التمثيل عن طرق هذا الموضوع لأنهـم سبقـوا إليه ، بل زادهم ذلك حرصا عليه ، ورغبة فيه . وكان بين الذين طرقـوه الشاعـر اللاتينـي (بلوت) والشاعر الفرنسي (موليير) . ثم لـم يشفق جيرودو من أن يطرق موضوعا سبق إليه الفحول من شعراء التمثيل في العصور القديمة والحديثة ، فصور قصته هذه الثامنة والثلاثين ، وعرضها على النظارة في باريس سنة ١٩٢٩ فكان فوزها عظيما ، وإعجاب النظارة والقّراء بها لا حد له) .

يتكلـم على أدبنا العربي بعد حديثه عن الأدب اليوناني وإنشائـه المتـكرر ، فيسوي بين أساطير الجاهلية وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام إذ يقول (ص ، ٨) : (فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لـم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ في صورة بعينها ، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون في صنوف من التأليف وقل مثل ذلك في السيرة نفسها ، فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر

العصور الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضا ، فصوروها صورا مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني) .

قد كذب طه حسين في كلامه السابق - على التاريخ ، فلم يقصد رواة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام الجمال القصصي في حديثهم عنه ، ولم يبتغوا الزينة اللفظية في تأريخهم لدقائق حياته ، إنما جاء الجمال القصصي والزينة اللفظية عارضا في مثاني الكلام . فعملهم في سيرة نبيهم أسمى من أن يهدفوا منه التقاصص أو التلاعب ، وهم أوعى من أن يسفوا إلى هذا الدرك . إن مكان الرسول عليه الصلاة والسلام من نفوسهم ، ونظرتهم إليه مانعان بينهم وبين هذا اللغط .

يذوب طه حسين حياء وهو يوضح هدفه من اختيار موضوع السيرة ، ويعتذر لتناقض بعض أحداث السيرة مع العقل ، وعدم استقامتها مع التفكير العلمي ، ولكنه يبرر موقفه بأن هذه الأساطير ترضي ميل الناس إلى السذاجة ، وترفه عنهم حين تشق عليهم الحياة . فيا لهوان السيرة عنده !! يقول في ذلك (ص ١٠) :
[وأنا أعلم أن قوما سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ، ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه . وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التي لا يسيغها العقل ولا يرضاها . وهم يشكون ويحلون في الشكوى حين يرون كلف الشعب بهذه الأخبار والأحاديث . هؤلاء سيضيقون بهذا الكتاب بعض الشيء ، لأنهم سيقرأون فيه طائفة من هذه الأخبار والأحاديث التي نصبوا أنفسهم لحربها ومحوها من نفوس الناس . وأحب أن يعلم هؤلاء أن العقل ليس كل شيء، وأن للناس ملكات أخرى ليست أقل حاجة الى الغذاء والرضا . من العقل، وأن هذه الأخبار والأحاديث إذا لم يطمئن إليها العقل، ولم يرضها المنطق، ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي، فان في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة، واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها، ما يحبب إليهم هذه الأخبار، ويرغبهم فيها، ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه على النفس حين تشق عليها الحياة. وفرق عظيم بين من يتحدث بهذه الأخبار على أنها

حقائق يقرها العلم وتستقيم لها مناهج البحث، ومن يقدمها إلى القلب والشعور على أنها مثيرة لعواطف الخير، صارفة عن بواعث الشر، معينة على إنفاق الوقت واحتمال أثقال الحياة وتكاليف العيش.

إذن ينصب طه تناول الأدب الأوروبي للأساطير اليونانية أماماً، وطريقته نبراسا. ويضع السيرة في مصاف الإلياذة، ويطلب من المؤلفين والكتاب أن يفتنوا في الحديث عنها إفتتان أوروبا بأساطير اليونان، كي يلذوا ميول الناس إلى السذاجة، ويمتعوا عواطفهم وأخيلتهم. ولكن هل أثرت الألياذة مثلا - أو غيرها من أساطير اليونان - في المجتمع الأوروبي كما أثرت السيرة في المجتمع الإسلامي؟ أو قل: هل تساوى الأثران في المجتمعين؟ وهل كانت السيرة - يوما ما في التاريخ - موضوعا لتسلية قصصية أو مباراة لفظية ؟!!!

ليس من شك في أن تناول السيرة بقصد الاستراحة من جهد الحياة وعنائها، والترفيه عن النفس، وارضاء ميل الانسان إلى السذاجة، وتنمية بعض عواطف الخير، ليس من شك أنها سابقة خطيرة، لا يحسد عليها طه حسين. لأن المسلمين كتبوا - دوما وكثيرا - في سيرة نبيهم صلوات اللّه عليه، ومحصوا أحداثها، وميزوا دقائقها، وبوّبوا تفاصيلها. وكان نظرهم - خلال ذلك كله وبعده - يرمق في محمد مثلا أعلى للانسانية ويلتذ في ذلك. ويشتم منه الصفات العبقة ويلتذ في ذلك - ولم يقفوا عند حدود الرمق والشم والالتذاذ، ولكن سعت أقدامهم - في لحظة الرمق والشم والتلذذ نفسها - ومشت على طريق محمد. فزكوا أنفسهم كما زكى محمد نفسه، وعبدوا ربهم كما عبد محمد ربه، وعاملوا الناس كما عامل محمد الناس، وجاهدوا الشرك والباطل كما جاهد محمد الشرك والباطل الخ...

كتب المسلمون الذي كتبوه في سيرة نبيهم، ومحصوا الذي محصوه، وبوبوا الذي بوبوه، قاصدين الاقتداء به، والعمل مثل عمله. وشتان بين ما هدف إليه طه حسين[1]، وما ذهب إليه رواة السير[2].

---

(١) في جريدة الوادي في عددها الصادر في أول آب (أغسطس) سنة ١٩٢٤.

(٢) والعجيب بعد هذه الطامات والضلالات لكتاب «على هامش السيرة» أن يثني عليه مصطفى صبري شيخ الإسلام في كتابه «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين» ويصفه بأنه =

. . . .

= كتاب قيم ج ٢ ص ١٣٨ مع العلم بأن شيخ الاسلام معروف بثاقب رأيه وبعد نظره في كتابه القيم السالف الذكر . وما أحسن ما قاله الأخ الأستاذ « أنور الجندي » في كتابه « طه حسين ، حياته وفكره في ميزان الإسلام ».

. . . مع ان كتاب : (على هامش السيرة) تهكم صريح ، وقد كشف أمره صديقه وزميله في مدرسة التجديد : « الخطر ليس على الأدب وحده ، ولكن على الفكر الاسلامي كله ، لأنه يعيد غرس الأساطير ، والوثنيات ، والاسرائيليات في سيرة النبي (صلى اللّه عليه وآله وسلّم) مرة أخرى بعد ان نقّاها العلماء المسلمون منها وحرروها من آثارها » (ص ٧).

وليس هذا الموقف الوحيد لطه حسين في السعي لنشر الخرافة في السيرة النبوية وغيرها ، لتنفير الناس من الإسلام . بل هو جاد في سبيل تحقيق غايته وغايات أسياده المستشرقين في مختلف المناسبات ، نذكر كمثال آخر على ذلك غير كتاب « على هامش السيرة » ، إن أحد الوزراء المصريين السابقين أحب ان ينقذ المسلمين من كتب السيرة المعروفة باسم الموالد لما فيها من أساطير وخرافات وأكاذيب عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فوضع جائزة لمن يفوز بعمل سيرة مبسطة خالية من كل ما تقدم ، فلم يرق هذا العمل للدكتور طه حسين ، فأخذ يرد على الوزير على صفحات الجرائد (في جريدة الوادي في عددها الصادر في أول آب (أغسطس) سنة ١٩٢٤) بقوله : « أي بأس على المسلمين في أن تتحدث اليهم قصصهم بهذه الأحاديث الحلوة التي تنبئهم بأن أمم الطير والوحش كانت تختصم بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم كلها يريد أن يكفله ، ولكنها رُدّت عن هذا ، لأن القضاء سبق بأن رضاع النبي سيكون الى حليمة السعدية؟ أو أي بأس على المسلمين في أن يسمعوا أن الجن والإنس والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبي ؟ وان الشجر أورق لمولده . . وان السماء دنت من الأرض حين مسّ الأرض جسمه الكريم ويقول :

« لم تصح الأحاديث بشيء من هذا ، ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا ، ويرون في التحدث به والاستماع اليه تمجيداً للنبي الكريم (كذا !) لا بأس به ولا جناح فيه . . . »

غازي التوبة

كاتب سوري جل إهتمامه بالكتابات الدينية وهو يعمل مدرس ثانوي. أبرز كتبه «الفكر الاسلامي المعاصر» تناول فيه عدة شخصيات إسلامية بالدراسة والتحصيل لكنه أجحف في حق بعضهم وأذكر أن الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله عاتبه على كتابه وقال له «ألم تجد لي حسنة واحدة تذكرها» وله أيضاً كتاب (النكسة والغزو الفكري) تناول فيها الآثار الفكرية التي سببت نكسة حزيران عام ١٩٦٧م.

نقد كتاب
"حديث الأربعاء"

بأقلام:

رفيق العظم

إبراهيم عبد القادر المازني

نقد كتاب
« حديث الأربعاء »[1]

بقلم : رفيق العظم

إلى الأستاذ طه حسين :

أطالع بشوق وإمعان مقالاتكم الأسبوعية في أدب القدماء والمُحدثين أو « حديث الأربعاء » ومما يلفت النظر ويستدعي التمحيص والحذر في ذلك الحديث حكمكم أن أبا نواس ومن في طبقته أو على شاكلته من الشعراء كانوا مثالاً صادقاً للعصر الذي عاشوا فيه . وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ في ذلك العصر مذهب أبي نواس وأحزابه من شعراء المجون . وقد سردتم طائفة من الشعر والأخبار المنسوبة إليهم واستنتجتم منها ذلك الحُكم الذي يحتاج إلى تمحيص كثير .

إن الحقائق التاريخية ولا سيما في تاريخ الإسلام تشبه الدُّر الملقى بين أشواك يحتاج ممن يريد استخراجه من تلك الأشواك إلى أناة وروية ونظر في وجه السلامة من أذى الشوك . ولا نريد أن نذهب بعيداً في مذاهب الشك التي ذهب إليها الأستاذ وإنما يكفي أن نتنبه مما نقول وهو العليم بما عاناه رواة الحديث ، ونقلة الأخبار النبوية في تمحيص تلك الأخبار وتنظيفها من شوائب الوضع المكذوب ولا سيما في أيام الفتنة الكبرى التي انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية .

نقرأ في كتب التاريخ أخباراً نسبها شيع العباسيين إلى خلفاء بني أمية وأخبار نسبها شيع آل علي إلى خلفاء بني العباس هي أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك أو سمهم ما شئت كانوا في مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الجاه والملك . وكان من المُحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة في المنزلة التي أنزلهم إليها

---

[1] (١) صحيفة السياسية اليومية الصادرة في ٧/ ٢/ ١٩٢٢ راجع مقال عن كتاب « حديث الأربعاء » مقال للغمراوي عن الأدب الجاهلي ص ٥٣ ـ ٥٤ .

الوضاعون ويدوم لهم طويلاً ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة في التاريخ .

ونقرأ ما هو أقبح من ذلك في كتب القصاصين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .

الحقيقة التي ينبغي أن تُقال أن التنازع السياسي بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأخباريين شوائب في التاريخ الإسلامي ليست هي منه في شيء وإنما هي من وضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك أو المتشيعين لبعض المذاهب السياسية أو الدينية .

ولما أنكر ابن خلدون أقوال الملفقين الذين لفقوا على الرشيد تلك الحكايات الشائنة لم يكن في إنكاره إلا على حق لما عُرف عنه من بُعد النظر في التاريخ وصحة بحثه في طبائع الاجتماع وأخلاق الأُمم ومنازعها شأن كل مُؤرخ بحّاث لا يُلقي الكلام على عواهنه ولا يأخذ الحوادث بظواهرها ولا شك عند كل منصف إن إبن خلدون أوثق وأصدق كلاماً من أبي نواس وأمثاله من المجونيين هذا إذا صحت كل أخبار المجون المنسوبة إلى هؤلاء المجونيين .

أما القصص أو كتب القصاصين[1] فلها شأن آخر لأن واضعيها إنما وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية . أما الأغراض التجارية فهي الكسب والانتفاع . وأما البواعث السياسية أو الدينية فهي منع العامة عن الخوض في سياسة الخلفاء والحكام والخوض في أخبار الصحابة وما شجر بينهم على ما يقال أو يظن . إذ من المعلوم أنه لم يكن في القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضي فيه العامة أوقات الفراغ . وهم بالضرورة في حاجة

(١) يجب الحذر من أقوال القصاص فقد حذّر السلف منهم ، فهم كثيرو الكذب والوضع بصورة غريبة ! ونوادرهم في ذلك كثيرة .

إلى الإجتماع . فكانت أكثر أحاديثهم في مجتمعاتهم تدور على أخبار الصحابة وحوادث الصدر الأول لقرب العهد به ثم سياسة الخلفاء وحكامهم . وقد كان ذلك يجر في كثير من الأحيان إلى الشجار ثم الفتنة كما تقرأ في أخبار أهل السنة والشيعة في بغداد عاصمة الملك والخلافة وكانت هذه المنازعات والفتن تفضي أحياناً إلى إهراق الدماء بين العامة الذين يتشيع كل فريق منهم لرأيه ومذهبه بلا علم ينفع أو فهم يردع .

فكان هذا سبباً على ما يظهر لتفكير العلماء في وسيلة من الوسائل تشغل العامة عن الخوض في مثل تلك الأخبار . فأخذ بعض الأذكياء في وضع قصص تتلى في المجتمعات فيلهو بها العامة عن الأخبار المثيرة للعواطف أو الأحقاد فكان فيها المختصر المبعثر في ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع في كُتب على حدة ومن ذلك أخبار الفتوحات كفتوح الشام وفتوح مصر وفتوح اليمن المنسوبة إلى الواقدي وهي ليست له وكتاب قصة عنترة العبسي وواضعها مجهول وكتاب ألف[1] ليلة وليلة وكاتبها مجهول أيضاً وقد قالوا إنها مترجمة عن الفارسية ولكن أخبارها لا تدل على ذلك . ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار وأصبحت ضرورة من ضروريات الحياة لأن فيها نوعاً من التلهي وترويح النفس تنافس الرواة والقصاصون في تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة في كتب الأدب كأخبار العُشاق والشعراء والنبلاء والكرام وغير ذلك فكان منها الغث والسَّمين ومنها الملفق والقريب من الصحة . وقد غالى بعض الأخباريين في إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس في الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب الذي أخذ منه

---

(١) كتاب سيء لا يجوز للأجيال الاطلاع عليه لما فيه من أخبار فاسدة، وقد اطلعت على بعض أبحاثه فوجدته يفضل العاهرة على الغلام لكونها تُستعمل كالغلام وزيادة!!
زد على ذلك أن هذا الكتاب المدمّر يعطي صورة قبيحة للإسلام، فالغربيون يعتبرونه الممثل الوحيد للمسلمين وخلفائهم، فكثيراً ما عرضوا فصولاً منه في السينما ليعرفوا الإسلام لأقوامهم، وفيه ما فيه . . . وكم يجدر بنا تدارك هذا الموقف بمختلف الوسائل العلمية والأعلامية . . .

الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير ينافي ما يُنسب إليهم من اطراح رداء الحشمة والمروءة . ولا أظنني مخطئاً إذا قلت إن ما نقل من هذا القبيل عن أبي نواس واضرابه من شعراء ذلك العصر ويسميه حضرة الأستاذ طه حسين عصر الشك والمجون ويتخذه دليلاً على حكمه عل أهل ذلك العصر إنما هو تلفيق قصص يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون وإما سد نهمات العامة إلى أمثال تلك القصص المخزية والروايات الملفقة . على أنه لو صح شيء منه لما كان لنا أن نتخذه دليلاً على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون .

على أني أعتقد كما قلت أنْ ما نسب إلى أولئك الشعراء « كأبي نواس » و « بشار » ومن في طبقتهما محل للشك ولا سيما إذا صحّ أن شعر أبي نواس لم يجُمع في كتاب (ديوان) على حدة في حياته وإنما جمعه رواة القصص وأخبار شعراء المجون وتناقلوه بعد وفاته بزمن قريب أو بعيد ومحل هؤلاء الرواة من الثقة أو عدمها لا يحتاج إلى تعريف بعد الذي قدمناه . وحسبنا أن الأستاذ طه حسين نفسه تردّد في قبول رواية عبدوس عن المقاطع الشعرية التي قال أن أبا نواس أنشدها له قُبيل وفاته في أيام متتابعة في التوبة والاستغفار تردد الأستاذ في صحتها وقال : إنها قصة متكلفة من غير شك وإنما نعتقد أن الرجل قال أكثر هذا الشعر في أوقات مختلفة من حياته : فالذي جوز للأستاذ الشك في صحة هذه القصة يجوز الشك في صحة أكثر القصص والروايات التي نُقلت عن أبي نواس وغيره من شعراء المجون ويثبت أنها قصص موضوعة ليست لها قيمة تاريخية فلا يصحّ أن تتخذ مثالاً صادقاً لذلك العصر .

وإذا قرئت فإنما تقرأ لأن فيها فكاهة وترويحاً للنفس لا لأنها أمثلة من تاريخ أمة كان عصرها ذاك عصر جد لا هزل وعصر نهضة علمية بلغت فيه أقصى ما يمكن أن تبلغه أمة في عشرات من السنين . ولقد أحسن الأستاذ في مقالته الأخيرة بالإشارة إلى ذلك في قوله إنه لا يرغب أن تكون حياتنا كلها خلاً وإنما يريد ألا تخلو

من الفكاهة واللذة فكان في قوله هذا دليلاً على أنه يريد أن يخفف عن أبي نواس عبء الحمل الذي ألقاه على عاتقه وأن يستدرجنا (ونعم ما فعل) إلى الشك في صحة تلك القصص المخزية وأنه إنما أوردها للفكاهة ولا سيما بعد أن عزز ذلك بقوله : إن أبا نواس لم يكن قليل الخطر ولا رجلاً لا يؤبه له وإنما كان ذا مكانة عالية وعالية جداً : ثم سرد عن تاريخ الحافظ ابن عساكر أسماء من رووا عن أبي نواس وروى عنهم أبو نواس ولا جرم إن المجاهرة بالمجون والاستمتاع باللذات ثم رواية الحديث نقيضان لا يجتمعان . وهذا ما يؤ يد رأينا في أن أكثر ما نُقل عن أبي نواس وأضرابه من شعراء المجون . إنما هي - روايات قصصية بعيدة عن الصحة وإنه لا يصح أن تُتخذ دليلاً على حالة الأمة الروحية والخُلقية في ذلك العصر وفوق كل ذي علم عليم » .

تعريفات

رفيق العظم

١٢٨٤ - ١٣٤٣هـ = ١٨٦٧ - ١٩٢٥ م

عالم بحاث من رجال النهضة الفكرية في سورية ، ولد بدمشق ، ونشأ مقبلاً على كتب التاريخ والأدب . إستقر في مصر .

إشترك في كثير من الأعمال والجمعيات السياسية والعلمية والاصلاحية .

كان أبي النفس لين الطبع مهذب الأخلاق شريف السيرة والسريرة..

له مجموعة من الكتب من أشهرها :

- أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة .

- الجامعة الاسلامية وأوروبا .

- تاريخ السياسية الإسلامية .

نذير الأباحيّة في كتب طه حسين(١)

بقلم : إبراهيم عبد القادر المازني

لقد لفتني من الدكتور في حديث الأربعاء وهو مما وضع و « قصص تمثيلية » وهي ملخصة ، أن له ولعا بتعقب الزناة والعشاق والفجرة ، وقد ينكر القارىء انه أدخل القصص التمثيلية في هذا الحساب ، ويقول إنها ليست له وان كان ما له فيها أنه ساق خلاصة وجيزة لها وهو اعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشي بهواه ،كالابتكار سواء بسواء ، وإنما يختار المرء ما يوافقه ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتي لا يسعه أن يتخطاه ، ولست بمازح حين أنبه إلى ذلك ؟!

وها هو حديث الأربعاء : ماذا فيه ؟ فيه كلام كثير عن العصر العباسي ، وللعصر العباسي وجوه شتى ، وفي وسعك أن تكتب عنه من عدة جهات وأن تتناول فلسفته أو علمه أو شعره وجده أو هزله . ولكن الدكتور طه حسين يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم لك أنه عصر مجون ودعارة وإباحية متغلغلة إلى كل فرع من فروع الحياة . فلماذا بل قُل لماذا لا يرى في غير الماجنين والخليعين صورة منه . ولست أفتري عليه فإنه القائل في الصفحة السابعة والعشرين من كتابه « أدرس هذا العصر درسا جيدا واقرأ بنوع خاص شعر الشعراء وما كان يجري في مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة هي ظاهرة الإباحة والإسراف في حرية الفكر وكثرة الإزدراء لكل قديم سواء أكان هذا القديم دينا أم خُلقا أم سياسة أم أدبا . فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً واضطر الخلفاء من بني العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكُتاب لأنهم اتهموهم بهذه الزندقة ، وظهر إزدراء

---

(١) قبض الريح ص ٨٣ .

الأدب العربي القديم والعادات العربية القديمة والسياسية العربية القديمة ، بل ظهر إزدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها . وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله ، وليس يعنينا أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغيير وإنما الذي يعنينا أن هذا التغيير قد وُجد وقوي حتى ظهر من الشعراء ظهوراً جعل إنكاره مستحيلاً » .

ولم يكتف الدكتور طه حسين أن يعمد إلى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر . بل هو يُنكر أن غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العصر العباسي وأقرأ له (ص ٥٠) من هذا الكتاب : « فقد بيّنا في هذا الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً ، وكانوا أشد تمثيلا وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدّثين وأصحاب الكلام[1]، وأن هؤلاء

(١) يؤسفني أن يجمع الكاتب الفقهاء والمحدِّثين إلى علماء الكلام، مع أن جميع علماء السلف والأئمة كالشافعي ومالك وأحمد قالوا بتحريم علم الكلام وبدعته. حتى قال بعض علماء السلف: «إن العبد أن يلقى الله تعالى بكل ذنب سوى الشرك خيرٌ له من أن يلقاه بالكلام ». وقد اتفق أهل الحديث من السلف على ما سموه، ولا ينحصر ما نُقل عنهم من التشديدات فيه.
وقالوا: ما سكت عنه الصحابة ـ مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم ـ الا لما يتولد منه من الشر. وكذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم، « هلك المتنطعون » رواه مسلم أي المتعمقون في البحث والاستقصاء (أي في القضايا الالهية ، والغيبية)
ولا يزال بعض الحمقى والمغفلين يصرون على دراسة وتدريس علم الكلام بحجة أنه لا بدّ منه لإقناع الملاحدة، مع أن كثيراً من أنصاره قد ندموا في آخر حياتهم ورجعوا عنه فقال أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي في كتابه: «أقسام اللذّات »: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي غليلاً، ولا تروي عليلاً. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. . . ، وقد أنشد:

نهاية إقدام العقول عِقال ... وغاية سعي العالمين ضَلال
وأرواحنا في وَحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه: قيل وقالوا

ومثل علماء الكلام بعض الفقهاء الذي لا يستندون الى الكتاب والسنة ويتعبدون الله تعالى بأقوال الأئمة الذين رحمهم الله تعالى وأجزل ثوابهم نهونا عن تقليدهم وذموا التقليد، وصرّح كل منهم بأنه غاب عنه كثير من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ، وقد جمعت بعدهم عن طريق علماء الحديث جزاهم الله تعالى خيراً. . . (يراجع كتاب «شرح العقيدة الطحاوية» طبع المكتب الاسلامي)

العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الإجتماعية والسياسية وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة . لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ولها كما لها الشعراء وإستمتع بلذات الحياة (في سر) كما استمتع بها الشعراء في جهرهم ».

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر ؟ كلا يا سيدي ! بل يجري إلى آخر الشوط ويقول في الصفحة ٣٩ من كتابه : « خسرت الأخلاق من هذا التطور ، وربح الأدب"[1] فلم يعرف العرب عصراً كثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف في فنونه وألوانه كهذا العصر ثم كان من كثرة المجون أو بعبارة أصح كان من فساد الخُلق في هذا العصر والعصور التي تلته أن ظهر فن جديد في الغزَل لم يكن معروفا في الجاهلية ولا في صدر الإسلام ولا في أيام بني أُمية وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية ، وهو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب أو عندما إنتقل العرب إليها فاستقل سلطانهم في بغداد وهذا الفن الجديد أو الغزل بالغلمان سنحدثك عن خصائصه في غير هذا الفصل . . »

وإذا سمعت رجلا يقول إن الأخلاق فسدت وخسرت ، وأن الأدب ربح من وراء ذلك أفلا ينهض لك العُذر إذا قلت أنه ينفح عن هذا الفساد ويسوغ هذه الخسارة ؟ نعم بلا ريب . وان تحسّ من كلامه الرضى والإرتياح . ومن الذي لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله في عقب ما سقنا لك : « إنما الذي يعنينا الآن أن هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك في كل شيء وإسراف في المجون واللهو كانوا يجتمعون ويجتمعون كثيرا أكثر مما كان يجتمع أسلافهم وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف . كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، أو على كأس تُدار أو إثم يقترف ! وكانت اللذة والآثام حديثهم أيضا ، ولم تكن إجتماعاتهم تخلو دائما من النساء فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون في الحانات والأديرة وفي بيوت الأمراء والوزراء فيلذون

---

(١) متى كانت الرذيلة والفاحشة فنا؟! ومما يؤسف له ويبعث في النفس الأسى أنّ كل ذلك يدرس لأبنائنا وبناتنا في بعض المدارس الثانوية وما يسمى كلية الآداب ، وهو تخطيط يهودي لإفساد الأجيال . . .

ويتحدثون . فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم في الأدب العربي والعقل العربي » ص٤٠ .

ثم مضى يورد سير أبي نواس ومن إليه مثل الوليد بن يزيد ومطيع بن أياس وحمّاد عجرد ، والحسين بن الضحاك ووالبة بن الحباب ، وإبان بن مروان بن أبي حفصة ، ويقول في بيان الحكم عن ذلك أنه لا يريد أن يكتفي بالقول : « بأن القرن الثاني للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزّهاد وأصحاب الشدة والمشغوفين بالجد إنما كان عصر شك ومجون ، وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدّين أيضاً .

وليس عندي شك في أن هذا العصر لم يكن عصر إيمان ويقين في جملته وإنما كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار بالذات ص ١٨٤ والرد : « أنه ما من عصر يمكن أن يكون له جانب واحد كما يريد أن يصور لنا العصر العباسي وأنه لم يخل زمن قديم أو حديث من مثل ما يصف الدكتور طه حسين . . »

تعريفات

إبراهيم عبد القادر المازني

١٣٠٨ - ١٣٦٨ هـ = ١٨٩٠ - ١٩٤٩ م

ولد في القاهرة وتوفي فيها. تخرج بمدرسة المعلمين وعانى التدريس ثم الصحافة وكان من أبرع الناس في الترجمة عن الإنكليزية ونظم الشعر وهو أديب مجدد، من كبار الكتاب، إمتاز بأسلوب حلو الديباجة تمضي فيه النكتة ضاحكة من نفسها، وتقسو فيه الجملة صاخبة عاتية. عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة وله كتب كثيرة أهمها:

- حصاد الهشيم
- قبض الريح
- صندوق الدنيا .

ديوان شعر

ترجمات كتب عن الإنكليزية .

نقد كتاب
"مع المتنبي"

بقلم: محمود محمد شاكر

« نشر الأستاذ الجليل (عميد الأدب العربي) بالجامعة المصرية الدكتور طه حسين بك كتاباً سماه « مع المتنبي » ولدته المطبعة وفيه سبعمائة وإحدى عشرة صفحة كلها جيد النسق ، جميل الرونق ، لو تمنى عالم عزب لألقى في أمنيته أن يكون له بعدادها وُلد يحملون عنه العلم من جيل إلى جيل . . . » (١)

وقد عشت مع « المتنبي » زمناً يطول أو يقصر ـ كما عاش معه الدكتور الجليل وكتبت عنه كتاباً متواضعاً في مائة وسبعين صفحة من القطع الكبير نشره المقتطف في أول شهر يناير سنة ١٩٣٦ لذكرى ألف سنة مضت على مقتل أبي الطيب ، كما كتب عنه الدكتور الجليل كتاباً فخماً نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في شهر يناير سنة ١٩٣٧ . فمن حق المتنبي علي أن أقرأ ما كتب عنه الدكتور طه وغير الدكتور طه كما أنه من حق نفسي عليَّ أن أضع التاريخ في موضعه الذي أرخته به دورة الفلك ، فإن التاريخ لا يصلح معه الأدب الذي أدبنا به الله تعالى في قوله :﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ فوالله إنا لنفسح للدكتور الجليل في مجالسنا حتى يبلغ الغاية التي هو لها أهل ، وعلى ودنا أن نفسح له في التاريخ أيضاً . . لولا أن التاريخ يحتج بشدة .

فبيني وبين الدكتور الجليل أمران جليلان أيضاً . أولهما ما يقوله هو عن المتنبي ، وآخر الأمرين ما يقوله كتابي الذي نشر في يناير سنة ١٩٣٦ وكتابه الذي نشر في سنة ١٩٣٧ . . ففي أولهما حديث رويناه أن إبراهيم النّظام المعتزلي قال لرجل : أتعرف فلاناً المجوسي ؟ قال : أجل ، أعرفه ـ ذاك الذي يحلق وسط رأسه مثل اليهود فقال النظام : لا مجوسياً عرفت ، ولا يهودياً وصفت (والنصارى لا اليهود هم الذين

---

(١) صحيفة البلاغ المقال الأول من سلسلة مقالات كتبها هذا الكاتب بعنوان «بيني وبين طه » نقلاً عن ديوانه .

يحلقون وسط رؤوسهم) وفي آخرها خبران رويناهما : أحدهما عن الرياشي يقول : كان الفرزدق مهيباً تخافه الشعراء فمر يوماً بالشمردل وهو ينشد قصيدته حتى بلغ إلى قوله :

وما بين من لم يعط سمعاً وطاعةً وبين تميم ، غير حز الغلاصم

فقال له الفرزدق : والله يا شمردل ، لتتركن هذا البيت أو لتتركن عرضك (يوعده بالهجاء) فقال الشمردل : خذه على كره مني يا أبا فراس . فهو اليوم في قصيدته « تحن بزوراء المدينة ناقتي » . قال الرياشي وكان الفرزدق يقول : « خير السرقة ما لا يجب فيه القطع » ، يريد سرقة الشعر لا يجب فيها قطع يد السارق .

والخبر الآخر عن الضحّاك الفقيمي قال : بينا أنا بكاظمة وذو الرمة ، ينشد قصيدته التي يقول فيها :

أحين أعاذت بي تميم نساءها وجردت تجريد اليماني من الغمد

إذا راكبان قد تدليا من نعف كاظمة مقتنعان فوقفا . فلما وقف ذو الرمة حسر الفرزدق عن وجهه وقال : يا عبيد (وهو الراكب الآخر وراوية الفرزدق) ، أضممها إليك . فقال ذو الرمة : نشدتك الله يا أبا فراس ! فقال الفرزدق : دع ذا عنك . فانتحلها الفرزدق في قصيدته وهي أربعة أبيات .

والفرزدق كان فحلاً قطباً من فحول الشعراء كان ينفض الشعراء بلسانه نفض النداف ضريبة القطن ، فلا عجب أن يكون مهيباً تخافه الشعراء وتتقي شباة لسانه بالعفو له عن بعض ما يغير عليه من جيد شعرهم وبضائع أفكارهم . فهذا أدب الشاعر اللص أبي فراس ، لم يرو عنه أنه أغار على شعر أحد من شعراء عصره في غيبة صاحبه ، وإنما كان مذهبه في اللصوصية أن ينحط على صاحب الشعر كالصقر لا يبالي أن يستلبه ما شاء اغتصاباً في مشهده على الرضى أو على الغضب ، وعلانية غير مستخف بريبة ولا مهادن بحيلة ، ثم لا يأخذه حين يأخذه إلا كما هو بنصه لا يغيره ولا يبدله ولا يسقط منه ، ولا يأخذ بعض المعنى ويدع سائره . إن الفرزدق شاعر بليغ قد أوتي حظاً من الشعر سجد له الأخطل حين سمع إنشاده وشهد له جرير بالعلو . وتساقط دونه الشعراء تساقط الجياد دون الغاية ، أتظن

الفرزدق ـ هذا اللص ـ كان يزعه شيء عن أن يعمد إلى المعنى الذي أراده الشمردل أو ذو الرمة فيأخذه فيضعه في أي اللفظ شاء ؟ أو رأيته إن فعل ، كان يعجز عن تجويد المعنى وتحسين اللفظ وإبداع القافية ؟ . . إن الفرزدق لخليق أن يفعل فيخفي مأخذه وسرقته ، فيجود الشعر ، فيزيد في بيانه ، فلا يعرف النقاد من أين أخذ ولا كيف سرق ، فيبرأ من صعلكة الشعراء وغاراتهم وسرقاتهم ، ولكن هذا أدب الفرزدق ، وهو أدب الإغارة والسطو وانتهاب أقوال الشعراء من جيد القوافي .

ولكن اثني عشر قرناً قد دارت على آداب الناس دورة الرحى ، فطحنت أدباً كثيراً وذرته في الهواء ، فكان مما طحنت وذرت أدب جم بعضه « أدب الإغارة » وهو أدب لا يقوم به ولا يعتمد على أصله إلا أصل في النفس قوي مستحكم متماسك عزيز يأنف الدنية ويأبى الخفية ، ويتهجم حين يتهجم مقدماً حاسراً متدفعاً كأنه قنبلة تنطلق . .

وبعد . فإن الأول قال : « من يمدح العروس إلا أهلها » فأنا أعوذ بالله من أن أكون كأهل العروس ما يعرفون من نعت حسن إلا نعتوها به ، وإن كانت شوهاء مدْبرة ، وأعوذ بالله من شر النفس وما تأمر به وما تتولج فيه وما تنزو إليه ، وأعوذ بالله من أن أكون ذليلاً ضرعاً لا يدفع عن نفسه ولا يحمي حماه .

هذا ما أقدمه بين يدي نقد كتاب الأستاذ الجليل (عميد الأدب العربي) بالجامعة المصرية) الدكتور طه حسين بك والذي سماه فيما يسمي « مع المتنبي » وعليّ للقارىء أن لا أخل بما أختصره له من أبواب هذا الكتاب وفصوله ، ولي على القارىء أن يتابع النقد ، ويفصل بيني وبين الدكتور الجليل ، فما كان من مالي فهو لي وإن جحده الجاحد ، وما كان للدكتور فأنا أدعه له طيب النفس وأسأل الله أن تقر به عين الدكتور .

قسم الدكتور الجليل عميد الأدب العربي كتابه إلى خمسة كتب ، فالكتاب الأول في صبا المتنبي وشبابه ، والفصل الأول من هذا الكتاب كالمقدمة يقول في ص ٦ : « لا أريد أن أدرس المتنبي إذن ، كالذين يقرأون هذه الفصول لا ينبغي لهم أن يقرأوها على أنها علم ، ولا على أنها نقد ، ولا ينبغي أن ينتظروا منها ، ما ينتظرون من كتب العلم والنقد ، وإنما هي خواطر مرسلة تثيرها في نفسي قراءة

المتنبي . . قراءة المتنبي في غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نسق منسجم . . » ثم يقول في ص ٧ : « وقل ما تشاء في هذا الكلام الذي تقرؤه قل إنه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول ، وقل إنه كلام يهذي به صاحبه هذياناً ، قل إنه كلام يصدر عن شذوذ وجموح ، فأنت محق في هذا كله لأني مرسل نفسي على سجيتها » .

هذا مختصر الفصل الأول من ص ٣ إلى ٨ ونحن لا نعلق عليه بشيء إلى حين ، ومن شاء فليقرأه كله ، فإنه بيان بليغ معجز ، وفن رفيع لا يعرفه ولا يجيده ولا يتأتى له وإن ركب إليه كل مركب ـ إلا الدكتور الجليل طه حسين بك .

أما الفصلان الثاني والثالث من الكتاب فهما في نسب المتنبي ، من ص ٩ إلى ص ٣٤ وقد أراد الدكتور بهذين الفصلين أن يخلص إلى القول بأن « مولد المتنبي كان شاذاً ، وأن المتنبي أدرك هذا الشذوذ وتأثر به في سيرته كلها » ص ٤٤ .

فلذلك زعم الدكتور أنه يشك في نسب أبي الطيب ، وأنه يتوقف في القطع برأي في صحة ما يرويه الرواة من نسبه ، وسيجد القارىء من طرافة ما يقول الدكتور طه حسين لذة لا تعدلها لذة النكتة المصرية البارعة من رجل همه أن يكون حاضر البديهة ، سريعاً إلى تصوير فنه العبقري في ألفاظ تتهكم . . يقول الدكتور : « قد تعود الناس أن يؤمنوا بأن المتنبي رجل خالص النسب ينتهي من قبل أبيه إلى جعفي ومن قبل أمه إلى همدان . » ولكن « ديوانه لا يثبت ذلك ولا يؤكده بل لا يسجله ولا يذكره » بل « لعل ديوانه ينفيه نفياً هو إلى الصراحة أدنى منه إلى الإشارة والتلميح ص» ٩ « فالمتنبي لم يمدح أباه !! ولم يفخر به !! ولم يرثه ولم يظهر الحزن عليه حين مات » ص ٩ أيضاً ثم أن المتنبي « كان يؤثر أن ينتسب إلى السيف والرمح وإلى الحرب والبأس على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب !! الذي سماه المؤرخون الحسين » وأكثر من ذلك فقد اختلف المؤرخون في جده « ولم يجمعوا على الاسم الذي يلصقونه به » ص ١٠ والمؤرخون يزعمون « أنهم كانوا يعرفون عن (والد المتنبي) شيئاً يسيراً جداً ، كانوا يزعمون أن أبا المتنبي كان سقاء في الكوفة » ص ١١ ولعلهم لم يقصدوا بذلك إلا أحد أمرين « الرفع من شأن المتنبي أو الوضع من قدره فكأنهم إذن لم يعرفوا من أمر أبي المتنبي إلا مثل ما عرفوا من أمر جده ، أي لم

يعرفوا شيئاً » ص ١٢ ، إذن « أكان المتنبي يعرف أباه ؟ قال المؤرخون نعم ، ولم يقل المتنبي شيئاً » ص ٩ وقد اتُّهم المتنبي في نسبه ، وسئل عن أبيه وجده فلم يجب ـ وآثر أن ينتسب إلى المجد والكرم والبأس ص ١٧ وقال في جواب سائليه :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الـ ... ـباحث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم ... من نفروه وأنفدوا حيله
فخراً لعضب أروح مشتمله ... وسمهري أروح معتقله
وليفخر الفخر إذ غدوت له ... مرتدياً خيره ومنتعله
أنا الذي بيَّن الإله به الـ ... أقدار والمرء حيثما جعله
إن الكذاب الذي أكاذبه ... أهون عندي من الذي نقله

ويقول في آخر هذه الأبيات :

وربما أشهد الطعام معي ... من لا يساوي الخبز الذي أكله
ويظهر الجهل بي وأعرفه ... والدر در برغم مَن جهله

والدكتور لا يحتاج أن يقف عند شيء من هذه القصيدة إلا شيئاً واحداً « هو هذا الكذاب الذي كان المتنبي يكاذبه عند أبي العشائر » . . . «أتراه يمس نسبه من قريب أو بعيد » ص ١٦ ثم يقول في ص ١٧ « ليس في ذلك من شك عندي » . وهذه الأبيات تُصور ضعف المتنبي من ناحية نسبه أبلغ تصوير وأقواه . . » ص ١٧ هذا هو الفصل الثاني من كتاب الدكتور طه من ص ٩ إلى ص ١٧ مختصر بتوسع !!

إن الدكتور طه حسين رجل عبقري « ليس في ذلك شك عندي » ! فهو من قبل شكه في نسب أبي الطيب قد استطاع أن يشك في الشعر الجاهلي وفي أشياء كثيرة !! واستطاع أن يتغلب على خصومه والمناوئين له ، واستطاع أن يقوم كالجبل لا يعمل فيه السيف عمل السيف ، ويعمل هو في السيف عمل الجبل في تثليمه[1] وتحطيمه وتكسيره ، يرجع السيف عوده على بدئه حديدة لا تنفع ولا تقطع .

ولكن هل يستطيع الدكتور الجليل ، أو كتابه الأجل أن يجيبني : لماذا شك الدكتور طه حسين في نسب أبي الطيب ؟ وما هي الأسباب التي دفعته إلى هذا الشك ؟ أما الدكتور الجليل فأكبر الظن فيه أنه يترفع ـ على عادته ـ عن الإجابة ، فهو رجل عبقري ، والعبقري لا يقال له « لماذا » فإذا قيل له « لماذا » زوى وجهه وانصرف ، وترك سائله لصخرة الأعشى التي ذكرها في لاميته المشهورة . وأما كتابه الأجل فهو أطوع لسائله وأسرع إلى جوابه .

سألت كتاب الدكتور « لماذا شك صاحبك في نسب أبي الطيب ؟ » فقال : « لا أدري والله . . » . . كذا !! إذن فما هي الأسباب التي دفعته إلى ما يظهر من الشك ؟ فقال الكتاب : « إن الدكتور يزعم أنك إذا قرأت ديوان أبي الطيب مستأنياً متمهلاً ، لا تجد فيه ذكراً لأبيه ص ٩ ، وإنك تجده لم يمدحه ، ولم يفخر به ، ولم يرثه ، ولم يظهر الحزن عليه حين مات ص ٩ ، وهذا كاف في تشكيك العلماء في نسب أبي الطيب ، وهو كاف في اليقين بأن المتنبي لم يعرف أباه » .

هذه هي الأسباب التي دفعت الدكتور طه حسين بك عميد الأدب العربي بالجامعة المصرية إلى الشك في نسب المتنبي فمن حق المتنبي علينا أن ننظر فيها ، أهي مما يحمل على الشك في نسب رجل لم يشك في نسبه الذي رواه المؤرخون أحد ، من يوم أن روي ذلك النسب إلى اليوم السادس من شهر شوال سنة ١٣٥٤ والأول من شهر يناير سنة ١٩٣٦ ، وهو يوم صدر كتاب عن المتنبي .

ألا فليحدثنا الدكتور طه ، أيكون لزاماً على كل شاعر أن يمدح أباه ، وأن يفخر به ، وأن يرثيه ، وأن يظهر الحزن عليه حين يموت ؟ فإن لم يفعل الشاعر ذلك فهو شاعر (لا يعرف أباه) ! إني أجد من الشعراء من فخر بأبيه وقد كان ذلك في شعر كثير من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام وعصر بني أمية وبني العباس ، وأجد فيهم كثيراً لا يعد كثرة من لم يفخر بأبيه ولا ذكره في شعره . أفكل هؤلاء لم يكن يعرف أباه ولا يثبت نسبه لضعفه وخسته ؟ وليحدثنا الدكتور الجليل عن شعراء العرب الذين رثوا آباءهم من الجاهلية إلى يومنا هذا ، وليحدثنا الدكتور عن هؤلاء الشعراء الذين أظهروا الحزن على آبائهم حين ماتوا ، وليرجع الدكتور إلى ما شاء من كتب الشعر وكتب الأدب فيجمع لنا أسماء الشعراء الذين رثوا آباءهم وحزنوا

عليهم وليثبت أن هؤلاء كانوا من الأشراف ذوي الأنساب ، وأن سائر الشعراء الذين لم يفعلوا مثل الذي فعلوا ، هم من السوقة الملطمين اللقطاء الذين لا يعرفون آباءهم ولا يثبتون أنسابهم .

إن الدكتور طه رجل ذكي صاحب حيلة ونفاذ ، فربما رأى الرأي فأراده ليتخذه رأياً ، فيختلق له الأسباب ، فيرى الأسباب لا تغني في الرأي ، وأن الاعتراض يأكلها سبباً سبباً ، فيحتال بجعل الاعتراض في سياق قوله ، ويأتي به على وجه ليجعله ظهيراً لرأيه . وهذا الذي نقول ليس بزعم من عند أنفسنا بل هو ما ترى .

رأى الدكتور طه أن إغفال الشاعر ذكر أبيه لا يدل على شيء البتة ، وأن الشعراء الذين لم يفخروا بآبائهم ، ليسوا أقل نسباً ولا أحط مغرساً من الذين فاخروا ونافروا بآبائهم وأن التاريخ يحدثنا « أن أبا جرير الشاعر لم يكن شيئاً وأن جريراً أضاف إليه من الخلال والخصال والأخلاق ما لم يكن منه بسبب حتى خلب به الشعراء وقهر به الفحول ، ثم لم يمنعه ذلك من أن يظهره للناس كما هو ليثبت لهم أن شعره كان أكبر من غروره ، وأن طبع أبيه قد خذله وأعياه فأنجده شعره ، وأعانه على أن يخلقه خلقاً جديداً » ص ١٢ فهذا جرير « كان أبوه يشرب من ضرع العنز مخافة أن يُسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن ، ففاخر به ثمانين شاعراً فغلبهم ، فاخر جرير بهذا البخيل الكز اللئيم الفرزدق وأبوه غالب بن صعصعة ، وكان غالب من أجواد العرب المعروفين ، وكان جده كذلك وهو الذي منع الوئيد في الجاهلية فلم يدع تميماً تئد بناتها وسمي (محيي الموؤدات) .

وعرف الدكتور ذلك فأراد أن يتأوله على الوجه الذي يرضى به ، فزعم أن شعر جرير غلب غروره ، ووالله ما أدري ماذا يريد الدكتور طه بهذا الزعم وما فهمته ولن يفهمه أحد ! لقد عرف الدكتور الجليل أن المتنبي ـ وهو الشاعر الذي رمى شعراء عصره فأصماهم فغلبهم فذهب بأرزاقهم عند الأمراء ـ كان يستطيع أن يفعل ما فعل جرير ، وأن يفخر بأبيه السقاء ، على أبي فراس الحمداني وغيره من أشراف الشعراء في عصره ، وعرف أن كثيراً من الشعراء غير جرير قد فخروا بآبائهم على من كان أكرم منهم أباً وأماً . فماذا يفعل الدكتور بعد ذلك ؟ إنها مشكلة تلد

مشاكل ، إذن فما الذي يضيره حين يقول : « أما المتنبي فلم يستطع شعره أن يغلب غروره (!!) ولم يستطع أن يضيف إلى أبيه ما ليس فيه ، ولم يستطع أن يخلق أباه خلقاً ، ومن يدري ؟ لعل مصدر ذلك أن جريراً كان يعرف أباه فصوره كما أراد لا كما كان ، وأن المتنبي لم يكن يعرف أباه فلم يستطع أن يصوره لا كما أراد ولا كما كان » وانتهى كلام الدكتور ص١٣ .

حقاً ان طه حسين بك رجل صاحب حيلة لا تفرغ ، وحقاً أن له فناً قد غلب به أهل الفنون ، وحقاً أنه لعبقري ! هذا الدكتور الذي يقول أن شعر جرير قد أعانه على أن يخلق أباه خلقاً جديداً . . فإذا كان المتنبي لا يعرف أباه كما يزعم فإن ذلك لا بأس به لأنه إذا أراد أن يصوره فلن يرجع إلى حقيقته لينتزع به منها الصورة كما أن جريراً لم يرجع إليها وإنما المرجع هنا إلى شيطان الشعر فهو وحده الذي يخلق أباه خلقاً جديداً كما خلق جرير أباه خلقاً جديداً . . وجهد المتنبي في هذا أقل من جهد جرير ، فالمتنبي الذي لا يعرف أباه ولا يعرف حقيقته يتخيل ما يشاء من الآباء كأحسن الآباء . وأما جرير « الذي يعرف أباه فمن جهده أن يغالط نفسه ، وأن يغالط الناس الذين يعرفون أباه ، وأن يطمس صورة أبيه البخيل الكز لئلا تتراءى له وهو ينقل الصورة الجديدة فتفسد عليه فنه ثم على جرير أن يتخيل ما لم يكن من صور الأبوة الكريمة الممدحة التي يستطيع أن يغالب بها الشعراء ويفاخرهم ويظهر عليهم بها في فخره ونفاره . لعل المسألة إذن أن الأمر في جرير والمتنبي هو ما قال الشاعر :

إنـي وكـل شـاعـر مـن البشـر   شـيطانـه أُنثى وشـيطانـي ذكـر

فشيطان أبي الطيب كان أنثى ضعيف المنّة قليل الخير ، يكذب صاحبه في طلب الخيال القوي للآباء ، وكان شيطان جرير ذكراً فحلاً قد امتلأ قوة لا يطلب خيالاً إلا أدركه وظفر به وغالب به الشعراء !!

إني أشفق على الدكتور طهٰ حسين بك من بدوات عبقريته ، (فهي تصور له الأشياء كما يريدها هو لا كما يجب أن تكون فيتورط فيحتال فتكون حيلته كالكذبة البلقاء لا تجد ما يسترها . أراد الدكتور أن يُثبت في أثناء هذا الفصل أن أبا الطيب لا ينتسب إلى الرجال لأنه لا يريد أولا يستطيع أن يجد في الانتساب إلى الرجال غناء .

ص ٥١ وأن المتنبي هو الذي يأتي في شعره بالدليل على ذلك فهو يقول :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الـ ـباحث والنجل بعض من نجله
وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه وأنفذوا حيله

فالمتنبي كما ترى لا ينسب نفسه إلى أب كآباء الناس وإنما ينسب نفسه إلى متجزىء له بعض يمتاز عن كله ، وبعضه هذا يفوق آباء الباحثين عن نسبه .

لقد مضى عليّ زمن وأنا أجد اللذة في تتبع كتب إلفكاهة فكان أعجب ما يعجبني منها المحالات وهو الكلام الذي يأتي به الرجل، تحسبه مستقيماًوهو محال لا يكون ولا يفهم على وجه من الوجوه وأشهد الله أن فن الدكتور طه في شرح هذا الشعر أعجب إلى الآن من ذلك كيف لا ؟ وهو عميد الأدب العربي بالجامعة المصرية وهو بعد ذلك إمام الأدباء المجددين في هذا العصر . أيما امرىء من القراء فهم شرح الدكتور الذي نقلناه ، فله عندنا ثلاث نسخ من كتابنا عن المتنبي من طبعته الثانية . أي شيء هذا الذي ينسب نفسه إلى متجزىء بعضه يمتاز عن كله ، وأنا أتولى تفهيم الدكتور معنى هذا الشعر فالمتنبي يقول أنا ابن من ولده يفوق أبا الباحث ويعني بذلك نفسه . هذا كل ما أراد المتنبي أن يقوله والذي أوهم الدكتور فأوقعه فمرغ كلامه في هذا المتجزىء الذي له بعض يمتاز عن كله هو قول أبي الطيب المتنبي بعضه في البيت . ولعل حيلة الدكتور أو عبقريته تقول : فلماذا لم يقل « أنا ابن من نجله » فلو قال ذلك لما كان قوله « والنجل بعض من نجله » يعطي من المعنى إلا أقله ولا يزيد في كلام أبي الطيب شيئاً لأنها حقيقة معروفة ابتداء ولكن المتنبي أراد أن يقول للسائل إنَّ الحقيقة المقررة هي أن الولد بعض الوالد أي جزء منه فإذا كان الولد (وهو جزء يفوق أباك أو هو كل) فما ظنك (بالكل) الذي يكون (جزؤه) خيراً من كل (أبيك) ؟ ولذلك قال المتنبي (بعضه) ولم يقل (نجله) » .

هذا هو المعنى على الصورة التي كنت أظن أن الدكتور يفهم بها البيت : وهذه المعادلة المنطقية لا بد وأن يتشابه طرفاها . فإذا كان والد الباحث رجلاً فلا بد إذن من أن يكون والد المتنبي رجلاً أيضاً ولكن الدكتور طه حسين يقول (هو لا ينسب نفسه إلى رجل لأنه لا يحفل أو لا يريد أن يحفل بالانتساب إلى الرجال) ص ١٥ .

ويقول : (هو إذن لا ينتسب إلى الرجال . . . الخ) .

« ولكن المتنبي كان يؤثر أن ينتسب إلى الرمح والسيف . . على أن ينتسب إلى هذا الرجل الطيب الذي سماه المؤرخون الحسين» ص ١٠ من هذا الكتاب الجليل .
هذا بعض من خلط كثير وقع في الفصل الثاني من الكتاب من ص ٩ إلى ١٧ ، وهذا غير الأخطاء التي تدل على أن الدكتور صادق فيما يقول في مقدمة كتابه ، إن هذه الفصول لا ينبغي أن تقرأ على أنها علم ، ولا على أنها نقد . . وإنما هي خواطر مرسلة تثيرها قراءة المتنبي في غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نسق منسجم ص ٦ .

فإذا كانت القراءة في غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نسق ، فالفهم إذن كذلك . وإذن فقد صدق الدكتور أيضاً وأدرك حقيقة ما يجب أن يشعر به قارىء كتابه إذ يقول : « قل ما تشاء في هذا الكلام قل إنه كلام يمليه رجل فيما يقول وقل إنه كلام يهذي به صاحبه هذياناً فأنت محق في هذا كله » . ص ٧ وقد صدق .

رأي محمود شاكر بطه حسين

"في كتاب المتنبي"

١ ـ إن الدكتور طه ذكي !! صاحب حيلة ونفاذ ، فربما رأى الرأي فأراد أن يتخذه رأياً فيختلق له الأسباب ، فيرى الأسباب لا تغني في الرأي ، وأن الاعتراض يأكلها سبباً سبباً فيحتال بجعل الإعتراض في سياق قوله ، ويأتي به على وجه ليجعله ظهيراً لرأيه . ٢/ ٢٠ .

٢ ـ إنني أشفق على الدكتور طه حسين بك من بدوات عبقريته ، فهي تصور له الأشياء كما يريدها هو لا كما يجب أن تكون !! فيتورط ، فيحتال ، فتكون حيلته كالكذبة البلقاء لا تجد ما يسترها . ٢/ ٢٣ .

٣ ـ أنا أعرف الدكتور طه حسين بك وأعرف كيف يفكر ، وأعرف كيف يتهجم على غير بصيرة في الرأي . ٢ / ٤٥ .

٤ ـ إن الدكتور طه حسين بك عميد الأدب العربي بالجامعة المصرية رجل أثبتت التجارب والأيام ثم مؤلفاته أنه لا بصر له بالشعر ولا بمعانيه . ٢ / ٥٢ .

٥ ـ إن الدكتور طه رجل لا يستقيم على رأي ، ولا يلم به إلمام العارف الذي لا يغفل عن موضع التناقض والإختلاف والفساد الذي يركب بعضه بعضاً . ٢/ ٦١ .

٦ ـ إسمع يا سيدي الدكتور إنك لرجل كثير المغالطة ، شديد اللدد ، غير مستقيم الرأي مضطرب الفكر ، متخلف النظر .

٧ ـ وقد رأينا من شباب هذا الجيل من أخذ يقول في العلم عن هذه الأصول الفاسدة من التعسف والتهجم والإنطلاق إثر الغرائز الدنيا، وهؤلاء هم الذين يتعبدون بذكر الدكتور الجليل طه حسين بك ، ومن لف لفه !! فتتقاذفهم هذه العبادة إلى الصحف والمجلات والمطابع فرموا في وجوه الناس بالغث البارد الغليظ من الفهم والظرف والأدب حتى اختلط على الناس الأمر ، فكرهوا الأدب واستنقصوا أهله واستسقطوهم واسترذلوهم وبادروا إليهم بالمهانة والمذمة ، ثم انتهوا إلى الإعراض عنهم وإغفالهم ، فضاع المجيد وهو قليل في هذا الغبار الثقيل الذي ثار فملأ الجو وأعمى العين وتحول في الأنوف إلى مثل السدادة من الجيفة المتعفنة ٢/ ٨٤.

٨ ـ إن الدكتور الجليل رجل هو في فهم الشعر وإدراك معانيه ، ثم في العربية وحدود ألفاظها ومقاطع جملها ، ومطالع تراكيبها وفصولها وغاياتها كالذي زعموا من أن خالد بن صفوان الخطيب البليغ دخل يوماً إلى الحمام وفيه رجل ومعه إبنه ، فأراد الرجل أن يعرف خالداً ما عنده من البيان والفصاحة فقال لابنه : يا بني إبدأ بيداك ورجلاك !! ثم التفت إلى خالد كالمتباهي فقال : يا أبا صفوان ، هذا كلام قدْ ذهب أهله ؟ فقال خالد : هذا كلام لم يخلق الله له أهلاً قط! وإنما الدكتور رجل يتعالم في الشعر العربي والأدب العربي بما سوّغ من شهرة وصيت وما استوطأ من سكوت الناس عنه ، وما استعلى به من كرسي الجامعة وإلا فهو أديب من الأدباء إذا أردت أن تصف أدبه بما تصفه به كتبه قلت : ليس بذاك! ولويت عنقك وانصرفت إلى شأنك وشغلت نفسك بما هو أجدى عليها وأليق بها من أدب غيره ممن طمست أسماءهم هذه الطبول ذوات الدوي والطنين والعجيج الذي لا ينتهي من الدكتور فلان إلى الأستاذ علان ٢/ ١٠٠.

٩ ـ إن الدكتور قد تعود الكلام فصار عنده شهوة تطلب لذة ، فلا يغلبها عقله ، وإنما لها عليه الغلبة ، وقد قالوا في مثل ذلك : إن الحجاج بن يوسف نابته في صديق له مصيبة الموت ، وكان رسول عبد الملك بن مروان عنده فقال الحجاج : ليت إنساناً يعزيني بأبيات فقال رسول عبد الملك أقول ؟ قال : قل فقال : « وكل خليل سوف يفارقه خليله يموت أو يصلب أو يقع من فوق البيت أو يقع البيت فوقه أو يقع في بئر أو يكون شيئاً لا نعرفه » فقال الحجاج : قد والله سلّيتني عن مصيبتي بأعظم منها في أمير المؤمنين إذ وجّه مثلك رسولاً فانظر إلى شهوة الكلام ما تفعل ٢ / ١٠٦ .

١٠ ـ والدكتور طه هو أبداً الدكتور طه حسين ينقد الشعر فهو لا يملك إلاّ أن يقول (أنظر وتأمل ، ولا تنس هذا ، واعرف ذاك) وما إلى ذلك مما ليس فيه تفصيل ولا بيان ، فإذا أراد التفصيل والبيان وعمد إلى الدلالة على موضع النقد اختلط واضطرب ووقع أوله في آخره وأعلاه في أدناه ولم يأت إلا بمثل الذي يقال فيه : « إختلط المرعى بالهمل » ٢ / ١٢٢ .

١١ ـ لا تكن كالدكتور طه الذي يجعل عامية هذا الزمن الذي يعيش فيه ، وما هي فيه من البعد عن ألفاظ العربية الفصيحة لمكان النشأة الأولى في بيوتنا بين الجاهلات من عجائز الخدم وما فوقهن هي الأصل الذي تقيم عليه كلامك وفهمك ونقدك ٢ / ١٢٥ .

١٢ ـ إن الدكتور طه كما نقول ونكرر ونبدي ونعيد رجل لا بصر له بالشعر ولا قدرة له على الإستنباط وليس الأدب من عمله ولا الكتابة فيه مما يحسن ٢/ ١٦٨ .

١٣ ـ إن موافقة الدكتور أو مخالفته لا تساوي عندي (قرشاً ماسحاً) تتلافظه الأيدي في الأسواق لأنه لفاظة لا تصلح للتداول ١ / ١٣٣ .

تعريفات

محمود محمّد شاكر

من مواليد عام ١٩٠٩ م بالقاهرة . . . .

« نشأت في بيت علم ، كان أبي وكيلاً للأزهر الشريف والمنزل منتدى لأهل العلم والثقافة والأدب والسياسة في زمانه ، كنت أحب دراسة العلوم الرياضية ولكني كنت مشدوداً بقلبي إلى الأدب والشعر .

لقد كان معظم رجال الأدب والفكر أصدقاء لأبي . ورغم دراستي العلمية فقد كنت مشغوفاً بالفكر والأدب . . . قرأت على يد الشيخ (سيد بن علي) شرحه لديوان الحماسة لأبي تمام . . . وقرأت عليه شرح « الكامل » للمبرد .

لقد توفرت على دراسة الأدب مع تقدمي في سلك دراستي العلمية الثانوية وفي عام ١٩٢٥ فكرت في دخول قسم الفلك في الجامعة ، ولكن الجامعة اعتذرت عن إنشائه . فكان أن حاولت دخول كلية الآداب . . ولكن (لطفي السيد) مدير الجامعة وقتها رفض ، وكانت حجته أني درست في القسم العلمي ، فلا يجوز أن أدرس الآداب . . . وكانت مقابلة عاصفة بيني وبينه أصر فيها على عدم كسر القاعدة وبينت له أن الاستثناء لا يخل بالقاعدة بل إنها تظل قاعدة ثابتة ، وأخيراً قبلت أوراقي في كلية الآداب قسم اللغة العربية . . لأجد نفسي في أول معركة في حياتي .

صدر كتاب طه حسين « الشعر الجاهلي » وأستطيع أن أقول إن الناس عرفت الكتاب عن طريقي قبل أن ينشر . فقد كتبت مهاجماً الكتاب ، لأنه بما حواه كان كتاباً يهز العقائد . . بل إنه خرّب الجامعة كلها بوجهة نظره إذ أسقط هيبة ثلاثة عشر قرناً من التاريخ وبلبل أفكار ناشئة الأدب الذين لم يستكملوا بعد أدواتهم في المعرفة والفهم . . وقد شاء القدر أن تستمر معاركي مع طه حسين . كان أول كتاب لي عن المتنبي صدر عام ١٩٣٦ م وفي العام التالي أصدر طه حسين كتابه عن المتنبي أيضاً .

وكان أن نشرت أربعة عشر مقالاً في جريدة البلاغ بينت فيها أن طه حسين قد أخذ من كتابي . ونقل كذلك عن مستشرق فرنسي يدعى « بلاشير » إنني أنوي أن أعيد نشر كتابي هذا عن المتنبي مرة أخرى وسأجعله من جزئين ، جزء فيه الكتاب والجزء الثاني ضمنته المقالات التي نشرتها في البلاغ مع المقالات التي استهدفت كتابي بالنقد .

لم تهدأ معركة كتاب طه حسين « الشعر الجاهلي » حتى بدأت معركة كتاب مصطفى عبد الرزاق « الإسلام وأصول الحكم » ، وأيضاً قدمت الكتاب للناس . . إذ كنت أتناوله وأعلق عليه ملزمة ملزمة من المطبعة دون أن يخرج للناس ويبدو أنه قدر ألا تتوقف المعارك طالما كان هناك أفكار تتصارع وأفهام تتناول وتتناسى .

نقد كتاب
« ذكرى أبي العلاء »

بقلم : الأستاذ محمد سليم الجندي

« ذكرى أبي العلاء »

بقلم : الأستاذ محمد سليم الجندي

لا بدّ قبل تقديم هذا البحث القيّم للأستاذ الجندي من الإشارة إلى أن طه حسين مُولَع كثيراً بأبي العلاء المعري ، يسعى دائماً للتحدث عنه ، والدأب الشديد لإحياء تراثه ، فقد قال في مقدمة كتاب : « تعريف القدماء بأبي العلاء »[1] .

. . . حتى إذا كانت سنة أربع وأربعين وتسعمائة وألف ، فكّر إخواننا السوريون في إحياء ذكرى أبي العلاء لمرور ألف عام منذ مولده ، ودُعيتْ مصر إلى المشاركة في هذا الحفل ، فاقترحت على المغفور له[2] الأستاذ أحمد نجيب الهلالي وزير المعارف إذ ذاك أن يستجيب لهذه الدعوة ، ونشترك في هذا العيد ونهدي إلى المحتفلين به الوعد بأن مصر ستنهض بالنشر العلمي لما بقي أو لما يمكن أن تصل إليه من آثار أبي العلاء . وما أسرع ما استجاب الوزير - رحمه الله - لهذا الاقتراح فأصدر في السادس والعشرين من فبراير ١٩٤٤ قراراً بنشر آثار أبي العلاء نشراً علمياً منظماً بمناسبة العيد الألفي ، ألّف لذلك لجنة تنهض بهذا العمل الخطير ، وكلفني أن أشرف على عمل هذه اللجنة ثم قال في موضع آخر من هذه المقدمة :

. . . وأنا أتمنى على نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومي ألا يكتفي بنشر ما بين أيدينا من كتب أبي العلاء . فهذا الجهد على خطورته واستحقاقه للشكر والثناء لا يرضي حاجة الباحثين والدارسين .

---

(١) في هذه الذكرى .

(٢) لا يقال المغفور له ، إذ من يعرف أن الله تعالى غفر له ، ومثل ذلك المرحوم ، إنما يقال غفر الله له ورحمه من باب الدعاء له .

ووزارة الثقافة تستطيع أن تكلف بعض علمائنا البحث في المكتبات على اختلاف أقطارها وتباعدها عسى أن يظفروا بما لم يصل إليه من آثار أبي العلاء أو مما كتب القدماء عنه .

وتستطيع وزارة الثقافة أن تمضي في هذا الجهد الخصب المشكور الحميد[1] حتى تتم نشر ما بين أيدينا ، فإذا ظفر العلماء والباحثون بشيء ألحق بما نشر شيئاً فشيئاً .

وقد ساق طه حسين في هذه المقدمة بعض أقوال المعري التي تظهره تارة مؤمناً ، وتارة كافراً ، وكل غرضه أن يثبت أنه كان شاكاً متحيراً ، ليغري قراءه وخاصة الطلبة منهم ، وهم عمار المستقبل ، بعقيدة الشك ، وفي هذا غاية الهدم المدمّر لمن يتدبّر.

وفيما يلي تصدى لطه حسين أستاذنا محمد سليم الجندي ، وناقشه مناقشة علمية في نقد ما ذهب إليه في كتابه « ذكرى أبي العلاء » ، وأثبت صحة إيمان المعري .

وخلاصة رأينا في عقيدة هذا الشاعر أنّ ما نسب إليه من الشكوك ، إمّا أن تكون مدسوسة عليه من حاسديه وأعدائه ، وقد صرّح بذلك في بعض المواضيع من سيرة حياته . وإمّا أن تكون في بدء شبابه ، نتيجة مآسي العمى ، فرجع عن كل ذلك في مرحلة النضج والخاتمة ، فلا لزوم للتمحل والتكلف من أنصاره .

المَكَان : قال المعري :

مكَانٌ وَدَهْـرٌ أحْـرَزا كُـل مُـدْرَكٍ ... وَمَـا لَـهُما لَـوْنٌ يُـحَسُّ ولا حَـجْـمُ

فقد وصفه بإحراز كل مدرك ، وهو من أعراضه العامة ، وكذلك عدم اللون والحجم . وقال :

حَـوَانَـا مَـكَانٌ لا يَـجـوزُ انْتِقَالُـه ... وَدَهْـرٌ لَـهُ بالسَّـاكِنِـينَ مُـرُورُ

والحواية وعدم الانتقال من الأعراض العامة . وزعم صاحب (الذكرى) أن

---

(١) صفحة : ي .

أبا العلاء يرى قدم المكان والزمان والمادة وخلودها. ولم أر في كلامه ما يدل على أنه كان يرى قدم المكان . أما قوله في (رسالة الغفران) وفي (لزوم ما لا يلزم) فلا يدل على القدم ، بل يدل على الحدوث ، لأنه أثبت للمكان جزءاً ، وجعله محززاً كل مدرك ، وحاوياً للمحدث . وهذا كله من أدلة الحدوث . أما قوله : « لا يجوز انتقاله » فالمراد به انتقال أجزائه وانقطاعها ، بدليل مقابلته للزمان الذي تتصرم أجزاؤه . وبهذا يكون كلام المعري كله جارياً على نمط واحد ، خالياً من التناقض المتكلف .

وزعم صاحب (الذكرى) أن أبا العلاء سلك مسلك الفلاسفة وقال بقدم المادة والزمان والمكان ، فلم يلزمه القول بتناهي الأبعاد فقال :

وَلَوْ طَارَ جِبْرِيلُ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ
مِنَ الدَّهْرِ مَا اسْتَطَاعَ الْخُرُوجَ مِنَ الدَّهْرِ

وقال :

وَأَيْسَرُ كَوْنٍ تَحْتَهُ كُلُّ عَالَمٍ ... وَلاَ تُدْرِكُ الأَكْوانَ جُرْدٌ صَلادِمُ

وقال :

وَهَلْ يَابِقُ الإِنْسَانُ مِنْ مُلْكِ رَبِّهِ ... فَيَخْرُجَ مِنْ أَرْضٍ لَهُ وَسَمَاءِ

ثم قال : « فأنتَ ترى من هذا أن أبا العلاء قد استمد فلسفته الطبيعية من فلسفة اليونان ، فوافقهم في العناصر وقِدَمِها ، والزمان والمكان ، وخلودهما ، وأنهما غير متناهيين . . » .

والبيت الأول الذي ذكره ، قبله قوله :

غَدَا رَمَضَانِي لَيْسَ عَنِّي بِمُنْقَضٍ ... وَكُلُّ زَمَانِي لَيْلَتَيْ آخِرِ الشَّهْرِ
أَرُومُ خَلاصاً مِنْ قَضَاءٍ مُسَلَّطٍ ... عَلَيَّ تَوَخَّى قَاهِرَ النَّاسِ بِالقَهْرِ
رَمَى آلَ صَخْرٍ بِالصُّخُورِ وَجَرْوَلاً ... بِمهضَبٍ وأَلْقَى الرَّاسِيَاتِ عَلَى فِهْرِ
وَلَوْ طَارَ جِبْرِيلُ بَقِيَّةَ عُمْرِهِ ... مِنَ الدَّهْرِ ما استطاع الخُرُوجَ مِنَ الدَّهْرِ

ويظهر للمتأمل أن أبا العلاء في هذه الأبيات لا يريد أن يقرر مسألة فلسفية ، ولا حقيقة علمية ، ولا أن يُبين رأيه في تناهي الأبعاد وعدمه ، وإنما أراد أن يبين تذمره من الحياة ، وما انتابه فيها من الكوارث ؛ فذكر أنه يتابع الصوم حتى كان عمره كله رمضان لا ينقضي عنه ؛ وان زمانه كله مظلم كأنه ليلتا آخر الشهر اللتان لا يظهر فيهما البدر ، بل يستتر .

ويؤيد هذا قوله :

أأخْـرُجُ مِنْ تَـحْـتِ هَـذِي السَّماءِ   فَـكيفَ الإِبـاقُ وأيْـنَ المَفَـر

وإذا فرضنا أنه يريد بيان رأيه في الأبعاد وعدم تناهيها ، فإن لفظ « بقية » يفهم منه أمران :

الأول : أن عمر جبريل منتهٍ ، لأنه ذهب منه قسم وبقيت منه بقية ، وهذا من صفة الحادث المنتهي .

الثاني : يفهم منه أنه لو طار جميع عمره لاستطاع الخروج ؛ وإذا لم يحمل على هذا الوجه ، فإن لفظ «بقية» زائد لا فائدة من ذكره . وقد قال العلماء : كلام العاقل يُصان عن الإلغاء ما أمكن ؛ وإعمال الكلام أولى من إهماله .

وقوله :

إنْ كَانَ لِلْمِـرِّيخِ عقْـلٌ فَماَ   يُسْتَـرُ عَنْـهُ أنّـهُ بَـائِـدُ

وقوله :

وإنّ السِّمـاكَيْنِ لاَ يَخْلُدانِ   ويَهْـلِكُ ذُو الـرُّمْـحِ والأعْـزَلُ

وقوله :

كَأنـي بهـذا البَـدْرِ قَدْ زَالَ نُورُهُ   وَقَـدْ دَرَسَـتْ آثـارُهُ وَمَنازِلُه

وَنَـيرُ اللَّيْـلِ وَشَـمْسُ الضُّحَى دَامَـا   وَلَـكِنَّهُمَا يهلَكَان

وقوله :

إذَا شَبَّتِ الشّـعْـرَيـانِ الـوَقُـودَ   فَفِي الحُـكْـمِ أنّهُمَـا يَخْبُـوَانِ

وقد وقع في كلامه ما يوهم غير هذا كقوله :

كَأَنَّـك عَنْ كَيْدِ الحَـوادِثِ رَاقِدٌ ... وَمَـا أَمِنَتْـهُ في السَّمـاءِ الفَرَاقِدُ
سَيَجْـري عَلَـى نيرانِ فارِسَ طارِقٌ ... فَتَخْمَـدُ والمرِّيـخُ في العَيْنِ وَاقِـدُ

وقوله :

يَا شُهْـبُ إِنَّـكِ في السَّمـاءِ قَدِيمَة ... وأشَـرْتِ للحُـكَمـاءِ كُلَّ مُشَـارِ

ونحو ذلك من مثل هذه الأبيات . والمراد بقوله : « والمريخ واقد » أنه أطول بقاء من نيران فارس ، ولكنه يخمد بعد ذلك ، كما يشعر به البيت الذي قبله والمراد بقوله : « في السماء قديمة » القدم الإضافي وقوله : « وقد زعموا الأفـلاك . . » لا يريد به أنه لا يعتقد ما زعموه . ولا يريد بقوله : « فإن كان حقاً . . » الشك في كون بلاها حقاً ، وإنما يريد أن بلاهـا حق ؛ وأن الطهـارة لا تقـي صاحبهـا من الهلاك ، فهي كالنجاسة في ذلك . وقد استعمل مثل هذا الأسلـوب في كثـير من المواطن كقوله :

إِذَا كَانَ هَذَا التُّـرْبُ يَجْمَـعُ بَيْنَنا ... فأهْـلُ الـرَّزَا يا مِثْـلُ أَهْـلِ المَمالِكِ

وقوله بعد البيت السابق : « وأما الذي لا ريب فيه . » صريح في أنها تفنى حين تغدر بها الليالي .

وعلى مثل هذا يحُمل ما في كلامه مما يوهم القدم والخلود . وبهذا يتضح أن أبا العـلاء ليس في كلامـه تنـاقض في هذا الغـرض ، وأنـه لا يرى قدم النجـوم ولا خلودها ، خلافاً لما زعمه صاحب (الذكرى) في (تجديده ص ٢٦٨) .

ولا تكاد ترى له قولاً في هذا الباب ابتعد فيه أبو العلاء عن الشك ، ووقف موقف الجزم إلا في أمرين :

الأول : مفارقة الروح الجسد ، وعدم عودتها إليه في الدنيا .

والثاني : خلو الجسد من الحس بعد مفارقة الروح .

فهذان الأمران تجد كلامه فيهما كلام جازم غير شاك ولا متردد ، فمن الأول قوله :

لاَ بُدَّ للرُّوحِ أنْ تنـأَىَ عَنِ الجَسَدِ   فَـلاَ تُخَيِّمْ عَلـى الأضْغَـانِ والحَسَد

ومن الثاني قوله :

لَو شُكَّ بالطَّعْـنِ مَيْتٌ لمْ يجِـدْ ألماً   فَالرُّمْحُ فيهِ كإشْفَى[1] الخَرْزِ في الأدَمِ
سيَّانِ إلباسُـهُ مَا لاَنَ مِنْ كَفَنٍ   وَطرحُـهُ في لَظَـى للنَّـارِ مُحْتَدِمِ

وقد أيد هذا في (الفصول والغايات) حيث قال في (ص ١٨) :

« الجَسَدُ بعدَ فراقِ الرُّوحِ كما قُصَّ مِنْ يَدِكْ ، وقُصِّرَ مِنْ فَوْدِكْ ، إذا أُلْقِي فُسيطٌ[2] في النارِ لم تُبَالِهِ ، وإذا غُرِّقَ فليل[3] فيها تقدر على التشكل بأشكال مختلفة .

قال صاحب (الذكرى) « أبو العلاء أنكر الجن[4] والملائكة في (اللزوميات) نصاً فقال :

قَدْ عِشْـتُ دَهْـراً طَويلاً مَا عَلِمْـتُ بِهِ   حِسّـاً يُحَسُّ لِجِـنّـيٍ وَلاَ مَـلَكِ

وقال :

فَاخْشَ المَليكَ ولاَ تُوجَـدْ علـى رَهَـبٍ
إنْ أنْـتَ بالجِـنِّ في الظَّلْمَـاءِ خُشِّيتَا
فـإنَّما تِـلْكَ أخْبَـارٌ مُلَفَّقَـةٌ   لِخِدْعَـةِ الغَـافِلِ الحُـوشيِّ حُـوشيتَـا

(ورسالة الغفران) مملوءة بالسخرية المؤلمة من الجن والملائكة جميعاً . وقد قدمنا أنه نظم الشعر في (رسالة الغفران) على ألسنة الجن الذين دخلوا الجنة فقال : إنما يريد الهزء والسخرية :

مكَّـةُ أقْـوَتْ مِنْ بَنِـي الدَّرْدَبِيسْ   فَمَـا لِجِنـيٍ بِهـا مِنْ حَسِـيسْ

وهي قصيدة طويلة ملئت بالغريب ، واشتملت على ما شاع في النـاس من أخبار الجن . على أن أبا العلاء لم ينكر قدرة الله على خلق أجسام نورانية ليست

(١) الأشفى : المثقب والمخرز .
(٢) الفسيط : قلامة الظفر .
(٣) الفليل : الشعر المجتمع .
(٤) انظر ما ذكره طه حسين في هذا الباب في ذكرى أبي العلاء ط ٢ من ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

بلحم ولا دم ، فقال :

لَسْتُ أنْفِي عَنْ قُدْرَةِ الله أشْبَا ... حَ ضِيَاءٍ بِغَيْرِ لَحْمٍ وَلاَ دَمْ
وَبَصِيرُ الأقْوامِ مِثْلِيَ أعْمَى ... فَهَلُمُّوا فِي حِنْدِسٍ نَتَصَادَمْ

وفي هذا البيت الأخير من السخرية شيء كثير » اهـ .

هذا ما قاله الأستاذ لنُبيِّن أنه حكم على أبي العلاء حكماً جائراً ، وفهم من كلامه ما لم يرده ، وألصق به إعتقاداً باطلاً وهو يعتقد غيره ، وأول كلامه يدل على أن المعري ينكر الجن والملائكة . وآخر كلامه والأبيات التي استشهد بها تدل على أنه ينكر الجن ، وكل ذلك باطل . وإيضاح هذا أن البيت الأول يقول : إنه ما علم حساً لجني ولا ملك ، وهذا لا يوجب الإنكار ، بل بالعكس يدل على الإقرار ؛ لأنه يقتضي أن يكون هناك حسّ ، ولكن لم يعلم به ؛ ونفْي العلم عن شيء لا يستلزم إنكاره ولا نفيه . كما أننا لا نعلم حسّ كثير من الحيوان والطير والسمك والإنسان وهي موجودة بالفعل . فإذا قال قائل : ما علمت حسّاً لوَعْلٍ ولا عُقَاب ولا سمكة ، ولا هندي ، لا يوجب قوله هذا نفي شيء من هذه الأشياء ولا إنكاره ، بل يوجب أنه موجود ولكن لم يعلمه .

والبيت الثاني ينهى عن الخوف من الجن إذا خوّف بهم في الظلماء ، وهذا يقتضي أن يكونوا موجودين ليتأتّى الخوف منهم ، ولا يوجب إنكارهم . والظاهر أن أهل المعرة في عصر أبي العلاء يشبهون أهلها في هذا العصر ، لأنهم يخوفون الأطفال بالجن ؛ فيستمر الخوف مع فريق منهم وإن بلغ سن الحلم ، ويخشون بعض الأماكن الخربية أو الموحشة ، لاعتَقادهم أنها آهلة بالجن ويقولون : إنها مسكونة أي يسكنها الجن . وما في (رسالة الغفران) ، ولو فرض أنها مملوءة بالسخرية ، لا يدل على إنكار بل على إثبات . ويمكننا أن نقول : إن أبا العلاء لم ينكر الجن والملائكة لا نصاً ولا تلميحاً ، كما يتضح لك ذلك قريباً .

الجن

أبو العلاء لا ينكر الجنّ ، وإنما يثبتهم ؛ والدليل على ذلك قوله في (اللزوم) :

مَنْ لِي بِأُنْـسِ وَحِيدٌ لا يُصَاحِبُنِي حَـيٌّ سِوَى اللهِ لاَ جِنٌّ ولا أَنَسُ

فهذا صريح في إثبات الجن . . وإذا قيل : إنه يفيد نفي الجن وإنكارهم لزم أن يقال : إنه يستوجب ذلك في الإنس لأنه جمعهما في حكم واحد ، وهذا باطل وقوله :

أبالقَدَرِ المُتَـاحِ تَـدِينُ جِـنٌّ تَسَـمَّعُ غَيْرَ هَـائِبَـةِ الـرُّجُـومِ
وَتَعْلَـمُ أنَّ مَا لَمْ يُقْضَ صَعْبٌ فَمَـا تَخْشَـى المَنِيَّةَ فِي الهُجُومِ

فهذا نظير سؤاله عن عقل الكواكب وحسها ، وهو يستلزم إثباتها لا إنكارها .

وقوله :

أحِنٌ وَمَا أُجَـنُّ سِوَى غَـرامٍ بِغَيْرِ الحُـقِّ مِـنْ حِنٌّ وجِـنٍّ[1]

ثم قوله في وصف مفازة :

وتَعْـزِفُ جِنُّهَا والليْـلُ دَاجٍ إِذَا خَلَـتِ الجَنَـادِبُ مِـنْ تَغَنٍّ

وقوله في (السقط) :

وَهْوَ مَنْ سُخِّـرَتْ لَهُ الإِنْسُ والجِـن بِمـا صَحَّ مِنْ شَهَـادَةِ صَـادِ[2]

فهذا كله صريح في الإثبات ، لا يشوبه شيء من الشك والإنكار . وأما ما أورده في (رسالة الغفران) فإنه لم يخلُ من تهكم في بعض المواطن ، ولكن فيه كثيراً مما أصاب فيه شاكلة الصواب ، وكثيراً مما يعتقده المسلمون في مؤمني الجن ، وهو بعد ذلك كله يقتضي إثبات الجن لا نفيها ، وكيف نعده كله سخرية وهزءاً ، وفيه ما يوافق اعتقاد العلماء ، وما يوافق القرآن الكريم ؟ وأبو العلاء مع إثباته الجن ينكر أشياء ينسبونها إليهم لأنها لم تصح عنده ، من ذلك قوله :

ما صَحَّ عِنْـدِي أَنَّ ذَاتَ خَلاخِلِ تُقْفَـى مِنَ الجِـنِّ الغُـواة بِتابِعِ[3]

(١) والحن : ضرب من الجن أو سفلة الجن وضعفاؤهم .

(٢) وشهادة صاد : يعني ما ذكره الله تعالى من قصته في سورة « ص » .

(٣) التابع : جني يتبع المرأة بحبها ، والتابعة جنية تتبع الرجل تحبه . وقد جاء في الخبر « من ولد له

الملائكة

وأما الملائكة ، فلا نعلم شيئاً في كلام أبي العلاء يوهم الشك في وجودها ، أو يفيد إنكارها لا تصريحاً ولا تلميحاً . بل كتبه طافحة بما يدل على إثباتها ، من ذلك قوله في (لزوم ما لا يلزم) :

مَلائِكٌ تَحْتَها إنْسٌ وسائِمَةٌ فَالأغْبِياءُ سَوَامٌ والتَّقِيُّ مَلَكْ

وقوله :

إنْ لَمْ يكُنْ في سَمَاءٍ فَوْقَنَا بَشَرٌ فَلَيْسَ في الأرض أو مَا تَحتَها مَلَكُ

وقوله :

وَمَنْ يُطَهِّرْ بِخَوْفِ الله مُهْجَتَهُ فَذَاكَ إنسَانُ قَوْمٍ يُشْبِهُ المَلَكَا

وقد زعم صاحب (الذكرى) في (تجديده ص ٢٨٩) أن أبا العلاء كان منكراً للنبوات ، جاحداً لصحتها . وقد نصّ على ذلك في (اللزوميات) صراحة غير مرة ، فطوراً يثبت أنها زور ، وطوراً يجعلها مصدر الشرور ، وأفتن في ذلك افتناناً عجيباً ، فلم يكتف بإنكار النبوات حتى أنكر الديانات عامة ، وزعم أنها للعقل مخالفة ، وعن شرعته صادفة . واستشهد على ذلك بأقواله :

إنَّ الشرَّائِعَ ألْقَتْ .... (١)
هَفَت الحَنِيفَةُ والنَّصَارَى .... (٢)
وَلاَ تَحْسَبْ مَقَالَ الرُّسْلِ .... (٣)

= مولود أو ولد فاذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى لم تغيره أم الصبيان » وأم الصبيان : قيل هي الريح التي تعرض للأولاد فربما يمشي عليهم منها ورجح بعض آخر أنها التابعة من الجن وهذا الحديث غير صحيح لأن في رواته متروكاً وكذاباً ومناعاً في « فيض القدير » ص ٤٣٨ (ج) .

(١) تمامه : « .... بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العداوات .

(٢) تمامه : « .... ما اهتدت ويهود حارت والمجوس مضلله .

(٣) تمامه : « .... حقاً ولكن قول زور سطروه

أَتَى عِيسَى فَأبطَلَ دِينَ مُوسَى .... (١)
إِذا رَجَعَ الحَصِيفُ إِلى حِجَاهُ .... (٢)

وقال : إنه يقول في التعريض بالإسلام خاصة :

تَلَوا بَاطِلاً وَجَلَوْا .... (٣)

وإنه يقول في التعريض بالنبي صلى الله عليه وسلم خاصة :

وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّ الشُّهْبَ .... (٤)

وإنه يقول معرضاً بقصة خيبر :

وَمُحَمَّدٌ وَهُو المُنَبَّأُ يشتكي .... (٥)

وأورد أبياتاً قدمنا أكثرها ، وبينا المراد منها ، وكثير منها لا يصلح للاستشهاد لما أراده ، كقوله : «ولست أقول إن الشهب . . » فليس في هذا تعريض بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو نفي لأن تكون الشهب جعلت رجوما لبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تقدم الكلام في ذلك . ولم نر سخرية في قوله :

أَفَمِلَّةَ الإِسْلاَمِ يُنْكِرُ مُنْكِرٌ .... (٦)

خُلاصة قوله يريد طه حسين : إن روح الرجل لم يكن روح مؤمن بالنبوات ، ولا مصدق للأنبياء ؛ وقد رأيت وسترى ما يبطل ذلك .

أقواله وآراؤه في الإسلام

ما ذكر أبو العلاء الاسلام مرة في شعره إلاّ وقد قرنه بما يدل على تعظيمه وتفضيله على غيره ، والاعتصام بحبله . وله مواطن كثيرة يتبرأ فيها من مذاهب وآراء وأقوال تخالف أصل الاسلام كما أن له مواقف كثيرة يحض بها على التمسك بما أمر به الإسلام من قول وعمل ، وهذه طائف من كلامه في هذا الباب :

(١) تمامه : « . . . . وجاء محمد بصلاة خمس .
(٢) تمامه : « . . . . تهاون بالمذاهب وازدراها .
(٣) تمامه : « . . . . صارماً . وقالوا صدقنا فقلتم نعم .
(٤) تمامه : « . . . . يوماً لبعث محمد جعلت رجوما .
(٥) تمامه : « . . . . أكلته انقطاع الأبهر .
(٦) تمامه : « . . . . وقضاء ربك صاغها وأتى بها .

تعجبه ممن ينكر الإسلام : تقدمت أبيات يقول فيها :

أَفَمِلَّةَ الإِسْلاَمِ يُنْكِرُ مُنْكِرٌ وقَضَاءُ رَبِّكَ صَاغَهَا وَأَتَى بِها

قول المسلمين هو الثابت الذي يجب أن يعول عليه :

ثَلاثَةُ أيَّامٍ لأَهْلِ تَنَافُرٍ ولَكِنَّ قَوْلَ المُسْلِمِينَ هُوَ الثَّبْتُ
يَرَى الأَحَدَ النَّصْرِيُّ عِيداً لأَهْلِهِ وَجُمْعَتُنَا عِيدٌ لَنَا وَلَكَ السَّبْتُ

اتباع الشرع حزم :

وَجَدْنَا اتِّبَاعَ الشَّرْعِ حَزْماً لِذي النُّهى
وَمَنْ جَرَّبَ الأَيَّامَ لَمْ يُنْكِرِ النسْخَا
فَمَا بَالُ هَذَا العَصْرِ مَا فيه آيَةٌ مِنَ المَسْخِ إنْ كَانَتْ يهودُ رأتْ مَسْخا

الشرع الإسلامي ثابت لا يُنسخ :

أحْسِنْ بِهذَا الشرْعِ مِنْ مِلَّةٍ يَثْبُتُ لا يُنْسَخُ فِيما نُسِخ

الإسلام ليس له مثيل :

وَإِن لَحِقَ الإِسلامَ خَطْبٌ يَغُضُّهُ فَمَا وَجَدَتْ مِثْلاً لَهُ نَفْسُ وَاجِدِ

رأيه في النبي محمد صلى الله عليه وسلم :

ما أعلم أن أبا العلاء ذكر النبي محمداً صلى الله عليه وسلم في نثر ولا في نظم بما يشعر بطعن ، أو غمز ، أو تنقّص أو نحو ذلك ؛ بل لا يذكره في موضع إلا وقد قرن ذكره بالصلاة عليه أو نحوها ، مما يدل على تعظيمه . وقد ذكره في (لزوم ما لا يلزم) بقوله :

وَالمَرْءُ يَغْشَاهُ الأذَى مِنْ حَيثُ لاَ
يَخْشَاهُ فَاعْجَبْ مِنْ صُرُوفِ الأَدْهُرِ

ومُحمَّدٌ وَهُوَ المُنَبَّا يَشْتَكِي لِمَكَانِ أُكْلَتِهِ انْقِطَاعِ الأَبْهَرِ[1]

القصة مطابقة للبيت الأول تمام المطابقة وليس في البيتين تعريض ، خلافاً لما ذكره صاحب (الذكرى) .

وذكره بقوله المتقدم :

وَمتى ذَكَرْتُ مُحَمَّداً وَكِتَابَهُ[2]

وقوله السابق :

وَلَسْتُ أَقُولُ إِنَّ الشُّهْبَ يَوْماً لِبَعْثِ مُحمَّدٍ جُعِلَتْ رُجُومَا

وذكره في أبيات امتدحه بها أولها :

دَعَاكُمْ إِلَى خَيْرِ الأُمورِ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ العَوالِي في القَنَا كَالسَّوَافِلِ[3]

وآخرها :

فَصَلَّى عَلَيْهِ اللهُ مَا ذَرَّ شَارِقٌ وَما فَتَّ مِسكاً ذِكْرُهُ في المَحَافِلِ

ما أنكر عليه من كلامه ونسب بسببه إلى الكفر أو الإلحاد

في كلام أبي العلاء كثير من الأبيات التي توجب مؤاخذته ، إن صحت نسبتها إليه ، وقد قدمنا بعضاً منها . وفيه أبيات لا توجب الحكم بكفره ، ولكن فريقاً من العلماء يستسهلون التكفير ولو بالشبهة ، وبعضهم خفي عليه مراد أبي العلاء فكفره على حسب ما فهم وأراد ، وبعضهم . وبعضهم . . . وهذه طائفة من الأبيات التي كُفِّر أو فُسِّق بسببها .

---

(1) الأبهر : عرق متصل بالقلب فإذا انقطع لم تبق معه حياة .

(2) تمامه : « جاءت يهود بجحدها وكتابها » .

(3) تمام الأبيات :

حداكم على تعظيم من خلق الضحى وشهب الدجى من طالعات وأفل

وألزمكم ما ليس يعجز حمله أخا الضعف من فرض له ونوافل

وحث على تطهير جسم وملبس وعاقب في قذف النساء الغوافل

وحرم خمراً خلت الباب شربها من الطيش ألباب النعام الجوافل

يجرون ثوب الملك جراً وآنس لدى البدو أذيال الغواني الروافل

منها قوله :

تَنــاقُضٌ مَا لَنــا إلاَّ السُّـكُـوتُ لَهُ وَأنْ نَعُــوذَ بِمَـوْلاَنَـا مِـنَ النّـارِ
يَدٌ بِخَمْسِ مِئِينٍ عَسْـجَدٍ فُـدِيتْ مَــا بَالُهَــا قُطِعَــتْ في رُبْــعِ دِينَارِ

وليس في البيت الأول شيء ، بل فيه إقرار بالإله وبالنـار ، واستعـاذة به منها ، وتسليم لأحكامه ، أما التناقض ففي البيت الثاني في رأي الشاعر ، لأنه خفي عليه حكمة هذا الحكم . وقد قدمنا الكلام في هذا ، ونقلنا عن التبريزي أنه سأله عن معنى قوله هذا ، فقال : هذا مثل قول الفقهاء : عبادة لا يعقل معناها .

وقوله من أبيات تقدمت :

وَزَعَـمْـتَ أنَّ لَهَـا مَعَـاداً ثَانِيـاً مَـا كَانَ أغْنَـاهَـا عَـنِ الـحَالَيْـنِ

وهـذه الأبيات الأخيرة المتقدمـة نسبهـا له القفطـي ، وصاحـب (نـكت الهميان) ، وذكر ياقوت البيتـين الأخـيرين : « أنهيت عن قتـل النفـوس . . . » « وزعمت أن لها معاداً . . . » وطبع على غرارهم صاحب (الذكرى) وزاد بيتاً آخراً للاستدلال على الشك وهو قوله :

يَا مَرْحبـاً بالمَـوْتِ مِنْ مُتَنَظِّرٍ إنْ كَـانَ ثَـمَّ تَعَـارُفٌ وَتَـلاقِ

وجعله تارة يشك وتارة يجزم ، وتارة يشايع أفلاطون ، وتـارة وتـارة . وإذا تأمل المُنصف العاقل البيت الأول : « يحطِّمُنا ريبُ الزمان . . . » وحـكَّم العقـلَ والعلم ، لا يرى له علاقة بالحشر والنشر ، ولا فيه دلالة على إثباتهما أو إنكارهما . وإنما جرت عادة البلغاء من العربِ أن يجعلوا الزجاج مثلاً أعلى في الضعف وسرعة التكسر وفي عدم الجبر .

ومن الأول الحديث الشريـف : « رويدكَ رِفْقاً بالقوارير » . أراد النسـاء ، وشبههن بالقوارير من الزجاج لأنها يسرع إليها الكسر . ومن الثاني قول حسان :

وَأمَـانـةُ المُـرّيِّ حَيْـثُ لَقِيْتَـهُ مِثْـلُ الزجـاجـة صَدْعُهَـا لاَ يُجْبَر

وقد جرى أبو العلاء على هذه الطريقة . فشبه النـاس بالزجـاج في سرعـة التحطم ، والعجز عن المقاومة والجلد . ثم ذكر أن بيننا وبين الزجاج فرقاً ، وهو أن

الزجاج يمكن أن يسبك في هذه الدنيا فيعود إلى حالته الأولى ، والإنسان لا يمكن أن يجبر فيها إذا حطمه الموت . هذا ما يدل عليه لفظ البيت المحكم والأسلوب البليغ . ومن الواضح أن الزجاج لا يسبك في الآخرة ، وأن أبا العلاء لا يريد هذا المعنى الذي فرضوه على كلامه فرضاً . وليس في الكلام ما يدل على الآخرة أو يتعلق بها ، وإنما هو تحذير من الدنيا . فتعين أن يكون المراد : أن ليس لنا سبك في الدنيا يعيدنا إلى حالتنا الأولى ، وهذا حق لا ريب فيه .

وهو في هذه الأبيات وأشباهها يشير إلى أن النفيس إذا كسر لا يجبر بخلاف غيره . ومن البيّن أنه لا يريد كسراً ولا جبراً في الآخرة .

وأما الأبيات النونية التي يقول فيها : « وزعمت أن لها مَعَاداً ثانياً . . . » فإن سخافة تأليفها تدل على أنها مصنوعة على لسانه ، إذ من البعيد عن أدب أبي العلاء أن يقول : « فاحكم إلهي . . . » ثم يقول له : « أنهيت . . وبعثت . . وزعمت » وإذا قيست إلى أبياته في هذا الغرض ، تبين أنها ليست من نسخ شعره . وإذا سلمنا أنها منه ، فإنها تدل على إثبات الحشر لا على نفيه . لأن قوله : « ما كان أغناها عن الحالين » صريح في أنه يثبت لها الحالين ، وأحدهما المعاد والثاني وهو الحشر وقد سبق القول في هذا .

ولقد فتشت في شعر أبي العلاء الذي اطلعت عليه في جميع أطوار حياته ، فلم أرَ فيه ما يدل دلالة صريحة على شك في النشر والحشر ، أو إنكار للمَعاد . وإنما رأيت له مئات من الأبيات يصرح فيها بالبعث ، والحشر ، والقيامة ، وما يكون فيها من حساب وجنة ونار ، وما يتعلق بذلك ، وإليك طائفة من كلامه في كل كتاب :

سقط الزند

قال في مرثية أبيه (ج ١ ص ١٩٤) .

فَيَا لَيْتَ شِعْـري هَـلْ يَخِفُّ وَقَارُهُ   إذا صَارَ أُحْـدٌ في القِيَامَـةِ كَالعِهْنِ
وَهَـلْ يَرِدُ الحَـوْضَ الـرَّوِيَّ مُبَادِراً   مَعَ النَّاسِ أَمْ يأْبـي الزِّحامَ فَيَسْتَأْني
وَمَـا استَعْذَبَتْـهُ روح مُوسَـى وَآدَم   وَقَـدْ وُعِدا مِنْ بعْـدِهْ جَنَّتَـيْ عَدْنِ

وقال في مرثية الشريف محمد (ج ١ ص ٢٠٨) .

وَلاَ تَنْسَنِي في الحَشْرِ وَالحَوْضُ حَوْلَهُ عَصَائِبُ شَتَّى بَيْنَ غُرٍّ إلَى بُهْمِ
لَعَلَّكَ في يَوْمِ القِيَامَةِ ذَاكِرِي فَتَسْأَلَ رَبِّي أنْ يُخَفِّفَ مِنْ إثْمِي

الحشر في نثر أبي العلاء :

وأما نثر أبي العلاء فقلما خلا كتاب أو رسالة مطولّة له من ذكر الآخرة ، أو ما له اتصال بالآخرة . من ذلك :

رسالة الغفران :

وهذه الرسالة قائمة على إثبات الحشر والآخرة ؛ وكلها براهين وأدلة على إثباتهما ، وعلى إقراره بالبعث ، والجنة والنار وغيرهما مما يكون في الآخرة .

رسالة إلى خاله :

قال فيها في (ص ٦٧) : « ترجح في الحشر وزناً . . » . وقال في الرسالة الثانية (ص ٦٩) : « وحزني لفقدها كنعيم أهل الجنة كلما نفد تجدد » .

رسالته إلى أبي عثمان النكتي :

قال فيها في (ص ١٥٢) : « فقد ورد مع الحور العين كأساً كان مزاجُها كافوراً . . . جاور ربه في دار الحيوان تلك الدار الآخرة » .

وقد أطلت القول في هذا الغرض ، ومن الحق أن أطيل فيه ، لأني رأيت كثيراً ممن نسب إنكار الحشر إلى أبي العلاء وليس له مستند إلا الأبيات التي بيّنا أنها على إثبات الحشر لا على نفيه . وقد عمي هؤلاء كلهم عما في كلامه من التصريح بالحشر وما يتصل به ؛ وكانوا كالعمي يتبع بعضهم بعضاً على غير هدى . وسيمر بك شيء آخر من أقواله المتعلقة بهذا الغرض .

الفلسفة العملية

ومهما يكن من أقوال أبي العلاء في اعتقاد تعدد[1] آدم أو الشك فيه فإنه يُثبت وجود آدم ولا ينكره . لقد رد على من أنكر وجوده ، وادعى أنه اسم لا حقيقة له ، وأن نسبة البشر إليه كنسبة بنات عرس إلى عرس ، وبنات أوبر إلى أوبر وليس في الحقيقة كائن يسمى عرساً أو أوبر[2]. وذلك حيث يقول في الأول :

قَالَ قَوْمٌ وَلاَ أُدِينُ بِمَا قَا لُوهُ إِنَّ ابْنَ آدَمَ كَابْنِ عِرْسِ
جَهِلَ النَّاسُ مَا أَبُوهُ عَلى الدَّهْرِ وَلَكِنَّهُ مُسَمًّى بِحَرْسِ
في حَدِيثٍ رَوَاهُ قَوْمٌ لِقَوْمٍ رَهْنَ طِرْسٍ مُسْتَنْسَخٍ بَعْدَ طِرْسِ

ويقول في الثاني :

زعَمَ الفَلاَسِفَةُ الَّذينَ تَنَطَّسُوا أنَّ المَنِيَّةَ كَسْرُهَا لا يُجْبَرُ
قالوا وَآدَمُ مِثْلُ أوْبَرَ والوَرَى كَبَنَاتِهِ جَهِلَ امرؤٌ مَا أَوْبَرُ

فهو يصرح بالتبرؤ من القول الأول ، ويجعل القول الثاني زعماً . وبهذا يتبين بُطلان ما ذكره صاحب (الذكرى) من جعل الأبيات الأُوَل دليلاً على شك أبي العلاء ، وظنه أن آدم شخص من أشخاص الأساطير ، وزعمه أن التقيَّة أنطقت أبا العلاء بقوله : « ولا أدينُ بما قالوه » . وكيف يتأتّى أن ينسب إليه الشك في آدم ، وكتبه طافحة بذكره وأخباره .

نسبة المزدكية إليه وميله إلى الاشتراكية في النساء :

قال صاحب الذكرى : « وذلك ـ أي رأيه في الزواج أو نهيه عنه أو كلاهما ـ جاءه من سوء ظنه بالنساء ، واعتقاده أن العفة والاحصان فيهن نادرة . ولعل هذا الرأي هو المزدكية التي أشار إليها الذهبي في ترجمة أبي العلاء ، ونسب شيئاً منها إلى (رسالة الغفران) لاشتمال هذه الرسالة على ألوان من إباحة أقوام ، يرويها رواية السّاخط عليها . وفي (اللزوميات) ما يؤيد ميل أبي العلاء في بعض أطواره إلى

(١) لعل المعري يقصد من ذلك ، وجود مخلوقات قبل ادم ، وهذا صحيح .

(١) وبنات أوبر : كمأة صغار مزغبة على لون التراب .

الاشتراكية في النساء ، فهو لا يفرق في حكم العقل بين ابن الحرة وابن الزانية . فيقول :

وَسِيَّان مَنْ أمُّهُ حُرَّةٌ حَصَانٌ وَمَنْ أمُّهُ زَانِيَهْ

ويقول :

مَا مَيَّزَ الأطْفَالَ في أشْبَاحِهَا لِلْعَيْنِ حِلٌّ ولاَدَةٍ وعِهَارُ

وسترى أن مذهب أبي العلاء في الأخلاق لا ينافي هذا الرأي » . . إلى آخر كلامه في (تجديد ص ٣٠١) . وهذا كلام غريب جداً ، لأن مذهب المزدكية يأمر بتناول اللذات ، والعكوف على الشهوات ، ويبيح الاشتراك في النساء والأموال ، وإذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ما كان . وأبو العلاء يخالف في ذلك كله ، فإنه يزهد في اللذات ، في أبيات أخر منها قوله :

يا آلَ يَعْقُوبَ خُذُوا حِذْرَكُمْ فـي الـدَّهْـرِ مِنْ حِبر وَدَيّـانِ

وغير ذلك من الأبيات .

رؤساء المجوس وغيرهم من أرباب النحل :

عرض هؤلاء على المخبر أولاً ، ثم على المحك ثانياً ؛ فرآهم ينكرون النبوات ، ويبيحون وطء البنات ، ويسجدون للشمس ، ويقترفون ما تأباه الشرائع والعقول من الترهات ، فوصف ما علم وما رأى منهم في أبيات تقدم بعضها منها قوله :

أقَرُّوا بالإلهِ وَأثْبَتُوهُ وَقَالُوا لاَ نَبِيٌّ وَلاَ كِتَابُ
ووَطء بَنَاتِنَا حِلٌّ مُبَاحٌ رُوَيْدَكُمُ فَقَدْ بَطَلَ العِتَابُ[1]

(١) تمامها : تمادوا في الضلال ولم يتوبوا ـ ولو سمعوا صليل السيف تابوا . وقد ذهب طه حسين والأبياري في الجزء الأول من شرحهما للزوميات إلى أن أبا العلاء يشير بهذين البيتين إلى ما عليه غلاة الخوارج من إنكار النبوات والكتب السماوية . . . الخ .

وأشار الأستاذ دهمان إلى الزمخشري بين في قصيدة له أن الذين يأخذون بهذا الرأي هم فريق من الشافعية حيث يقول :

وإن شافعياً قلت قالوا بأنني أبيح نكاح البنت والبنت تحرم

ويحضّ على التشدد في حجاب المرأة ، ويحظر عليها الخروج إلى الحج والصلاة والحمام والمسجد ، ونحو ذلك مما لم يبلغ معشاره أعظم متشدد أو ذو غيرة ؛ فهل يكون من المعقول بعد هذا أن يبيح المرأة فيما لا يحل[1] .

وأد البنات

قال صاحب (الذكرى) بعد أن ذكر أبياتاً : « فانظر كيف بالغ في ذلك ، حتى استحسن من وأد البنات ما حرم الله ونهى عنه الدين[2] »أ هـ .وهذا غير صحيح ، لأن أبا العلاء لم يذكر الوأد ؛ وإنما قال : « دفن » وليس الدفن والوأد مترادفين . وقد زعم بعضهم أنه ورد في الحديث الشريف : « دفن البنات من المكرمات » ، أي من الخصال التي يكرم الله بها آباءهن . وهذا الكلام يخرج مخرج التعزية للنفس ؛ لأن البنت عورة ضعيفة كثيرة المؤونة ، وقد تجلب العار ، وتجر العدو إلى الدار . وقد ماتت امرأة لرجل ، فقال لمن يعزيه : عورة سترت ، ومؤونة كفيت ، وأجر ساقه الله . وعلى نحو هذا قولهم : نعم الصهر القبر . وهذا الحديث حكم ابن الجوزي بوضعه ، وأقره عليه الذهبي وغيره . وقد أعاد ابو العلاء هذا المعنى فقال :

وَدَفْنُ الغَانِيَاتِ لهُنَّ أوْفَى ... مِنَ الكِلَلِ المَنِيعَةِ والسُّتُورِ

أما الوأد فقد نهى عنه بقوله :

لاَ تُولِدُوا وَإذَا أبَى طَبْعٌ فَلاَ ... تَئِدُوا وأكْرِمْ بِالتُّرابِ مُصَاهِرا[3]

خاتمة رد الجندي

نكتفي بهذا القدر من النقل على ردّ الأستاذ محمد سليم الجندي على طه حسين في كتابه ذكرى أبي العلاء ، ومنه ندرك مبلغ جهل هذا الدكتور ودسه من الآراء

(١) أنظر «رسائل أبي العلاء» شرح شاهين عطية .
(٢) «ذكرى أبي العلاء» ص ٣٧٤.
(٣) عن كتاب «الجامع في أخبار أبي العلاء المعري» باختصار، حيث يقول في ص (١٩٦): «فهو آدم وعرسه حواء. . . .».

المغايرة للعلم والحق كما ندرك أيضاً مبلغ غفلة المغرورين به أمثال الـذين منحـوه شهادة الدكتوراه سنة ١٩١٤ لكتابه : « ذكرى أبي العلاء » ، وأمثال طلابه وطالباته كالكاتبة : « سهير القلماوي » التي اطلعت أخيراً على كتابها عنه في سلسلة « إقرأ » بعنوان « ذكرى طه حسين » فكانت مما قالته .

« لقـد حببـت إلينـا في مراحـل شبابنـا الأولى ؛ أبـا العـلاء بكتابـك[1]، وبتدريسك ، وأنا أطمع في أن أحبب للشباب من طلابنا بأدبك (!) وكان تفضلك عن أبي العلاء . . يوم كتبت عنه بحثك الأول لنيل درجة الدكتوراه ، فأدخلت به منهج البحث العلمي (كذا !) في دراستك الأدبية .

فأين هذا البحث العلمي بعدما رأينا من الردود المختلفة عليه ولله در بشار إذ أنشد .

أعمـى يقـود بصـيراً لا أبـا لكمُ ... قـد ضلّ من كانـت العميان تهديه

(١) ومعنى ذلك أنه حبب إليهم الشك والحيرة والزندقة . . . وهو ما يصبو إليه كما قلنـا في مقدمـة هذا البحث.

محمد سليم الجندي

١٢٩٨ ـ ١٣٧٥هـ = ١٨٨١ ـ ١٩٥٥ م .

شاعر ، مدرس ، عالم بالأدب ،له اشتغال بالتاريخ . من أعضاء المجمع العلمي العربي . ولد ونشأ في معرةالنعمان .

هاجر مع أبيه إلى دمشق ، فقرأ على علماء أيامه .

عين أستاذاً للأدب العربي .

استهواه شعر المعري من طفولته ، فاعتنى به ونسج على منواله في شعره .

له آثار أدبية من أشهرها :

- الجامع في أخبار أبي العلاء المعري وآثاره .
- ديوان شعر .
- تاريخ المعرة .

نقد كتاب
"الفتنة الكبرى"[1]

بقلم: غازي التوبة

نقد كتاب

"الفتنة الكبرى"[1]

بقلم : غازي التوبة

الفتنة الكبرى جزءان :

الأول يتحدث عن عثمان رضي اللّه تعالى عنه والثاني يتحدث عن علي وبنيه رضي اللّه تعالى عنهم يفاجئنا طه حسين في الفقرة الأولى من كتابه ، وفي الصفحة الخامسة بالذات بقوله : « وأكاد أعتقد أن الخلافة الإسلامية كما فهمها أبو بكر وعمر ، إنما كانت تجربة جريئة تُوشِك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها ولم يكن ممكناً أن تنتهي إلى غايتها ، لأنها أُجريت في غير العصر الذي كان يمكن أن تجري فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيماً » .

إذن فالخلافة الإسلامية تجربة . وأية تجربة ؟ إنها تجربة جريئة !! ثم ماذا ؟ تُوشك أن تكون مغامرة !! تماما كما يغامر المغامرون ، فيهتبلون الفُرص ، ويخترعون الأنظمة ، فقد تنجح حينا ، وتفشل أحيانا ، وصفحات التاريخ حُبلى بهم ، إبتدأت بمغامرين يعلمهم اللّه وحده ، وانتهت بهتلر وموسوليني اللذين يعرف مغامرتهما كل الناس . وأبو بكر وعمر من جملة هؤلاء المغامرين » .

أما أن وحي السماء قد رسم الطريق لأبي بكر وعمر ، فنفى عن حكمها صفة التجربة . وأن الرسول قد رباهما وأعدّهما في مدرسته ، فأبعد عنهما سمة المغامرة ، فذلك ما لم يفقه طه حسين .

يكرر طعنه في الخلافة الإسلامية خلال الصفحات التالية ، ويُعيد وصمها

---

(١) عن كتاب الفكر الاسلامي المعاصر .

بالتجربة ، ويُلطخ أعدل حكم عرفه التاريخ الإسلامي ، بله التاريخ الإنساني ، حكم الفاروق ابن الخطاب فيقول (ص: ٨) : « فمات أبو بكر رحمه اللّه ولم يكد يبدأ التجربة ، وقُتل عمر رحمه اللّه وقد خطا بالتجربة خطوات واسعة ولكنه لم يرض عنها أولا فقد رُوي عنه أنه كان يقول في آخر خلافته : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ، لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء[1] » فقد رأى عمر إذن أنه لم يبلغ من تحقيق العدل الاجتماعي ما كان يريد ، فكيف ولم يعرف المسلمون ولا غير المسلمين أميراً حاول من العدل ما حاول عمر ، وحقق منه ما حقق عمر ـ ولم يرض الناس عن تجربة عمر في أيامه ثانيا ـ فقد كانوا يهابونه ، ويطيعه أكثرهم خوفاً ورهباً[2] ، وكان أشد الناس حُبا لعمر ، وأشد الناس حبا إلى عمر ، يبتغون إليه الوسيلة ليرفق بنفسه وبهم وبعامة الناس ، فلا يبلغون منه شيئاً لأنه كان يُؤثر العدل على كل شيء ثم لم يرض المغلوبون عن هذه التجربة آخر الأمر » .

يناقش طه حسين في الفقرة الثانية طبيعة الحكومة الإسلامية على ضوء التقسيمات الحديثة ، فينفي عنها صفة الثيوقراطية ، وينفي صفة الديمقراطية مع التقائهما في بعض الخطوط ، وينفي عنها صفة النظام الفردي العادل ، ويقارن بينها وبين حكومة قناصل الرومان ، ثم يخلُص إلى النتيجة التالية (ص: ٣١) : « لم يكن نظام الحكم الإسلامي في ذلك العهد إذن نظام حكم مُطلق ، ولا نظاما ديمقراطيا على نحو ما عرف اليونان ، ولا نظاما ملكيا أو جمهوريا أو قيصريا مقيدا على نحو ما عرف الرومان ، وإنما كان نظاما عربيا خالصا بَينّ الإسلام له حدوده العامة من جهة ، وحاول المسلمون أن يملؤ وا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى » .

---

(١) لا ندري صحة هذه الكلمة للفاروق من الناحية الحديثية ، وإذا صحت عنه فيكون قد بَعُد عن الصواب ! وخاصة وإن فقراء المسلمين كانوا قد اكتفوا . والاسلام ـ هذا الدين العظيم ـ لا يحرم الثروات إذا دفعت حقوقها كي يشجع على العمل والانتاج ، ولا يقتل العبقريات !

(٢) ما أكذب طه حسين في هذا الزعم الباطل ، والناس يعرفون حتى طلبة المدارس الابتدائية ، وهو الذي كان يعلن من أعلى المنبر ، « أيها الناس ! من رأى منكم فيّ اعوجاجاً فليقوِّمه ! » وقد وقف يوماً على المنبر وقال: «أيها الناس!» فردّ عليه أعرابي: «لا سمعاً ولا طاعة!» والقصة مشهورة . .

ثم يتساءل هل الحكم الإسلامي قادر على البقاء ؟ فيقول (ص : ٣٢) : « فهو إذن نظام عربي إسلامي خالص لم يُسبق العرب إليه ، ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه ، وهذا لا يعفينا من ذلك من أن نحلله ونتبين دقائقه لنرى إذا كان قادرا على البقاء أم كان خليقا أن يتغير متى تغيرت الظروف التي أحاطت بنشأته ثم بتطوره ؟»

ويشرع بعد سؤاله في تحليل عناصر النظام الإسلامي فيرى أنه يقوم على عنصرين الأول : ضمير ديني . الثاني : أرستقراطية الاتصال بالنبي عليه الصلاة والسلام .

يوضح العنصر الأول فيقول (ص : ٣٣) : « وهذا العنصر الذي اتصل ثلاثة وعشرين عاما يصابح المسلمين ويماسيهم ينزل قرآنا مرة وينطق به النبي حديثا مرة أخرى ، ويجريه النبي بسيرته العملية سنة مُتَّبعة مرة ثالثة ، قد أيقظ في نفوس المسلمين من خاصة النبي ضميرا دينيا قويا دقيقا حيّاً إلى أبعد غايات القوة والدقة والحياة ، فلم يكن من الممكن أن يتخلَّص منه المسلم في قول أو عمل أو تفكير ، بل لم يكن من الممكن أن يخلص منه في يقظة أو نوم ، فصلته بالرعية إن كان حاكما ، وبالحكم ، إن كان رعية وبنظراته في الحياة اليومية ، متأثرة بهذا الضمير ، وهذا هو الذي يخُيل للكثير من الناس أن نظام الحكم في ذلك الوقت قد كان نظاما يتنزّل من السماء إلى الأرض ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هو يدور مع مقدار ما يكون لضمير الخليفة ورعيته من التأثر بالدين » .

ويتحدث عن العنصر الثاني : أرستقراطية العلاقة بالنبي فيقول في الصفحة السابقة نفسها : « أما العنصر الثاني من العناصر التي ائتلف منها هذا النظام ، فهو عنصر الأرستقراطية التي لا تعتمد على المولد ولا على الثروة ولا على إرتفاع المكانة الاجتماعية بمعناها الشائع العام ، وإنما تعتمد على شيء آخر أهم من هذا كله هو الاتصال بالنبي أيام حياته والإذعان لما كان يأمر به وينهى عنه في غير تردد ولا شيء يشبه التردد ، والابتلاء بعد ذلك في سبيل اللّه في أوقات السلم والحرب » .

ويسرد من ثَمّ فهم قريش ، وفهم الصحابة لهذه الأرستقراطية فيقول (ص : ٣٥) : « مع ذلك فينبغي أن نقارن في تحقيق هذه الأرستقراطية كما فهمها أبو بكر وأصحابه من المهاجرين وكما فهمتها قريش » . ويذكر أن أبا بكر فهم من قول النبي صلى الله عليه وسلم :«الأئمة من قريش » فهم قريشا بأنها طبقة الذين سبقوا إلى

الإسلام وجاهدوا مع النبي أثناء الفتنة في مكة . ويذكر أن بعض قريش فهمت غير ذلك ، فاستيقنت أن الإمامة حق لها لا ينبغي لغيرها ، وأنه حق لها لمكانها من النبي . ويفتقر شرح طه حسين لفهم قريش هذا إلى السند التاريخي . فالشواهد التاريخية ـ بداهة ـ تعاكس شروح طه ، وخاصة قولة عمر ـ وهي مما أورده طه ـ حين طلب إليه أن يستخلف أميرا في المسلمين : لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته ، ولو كان سالم مولى أبي حُذيفة حيا لاستخلفته ، ولم يكن سالم مولى أبي حُذيفة قرشياً[1] .

ثم يحلل طه إمكانية البقاء والصمود في عنصري النظام الإسلامي أمام تحولات الحياة ، وتطوراتها فيقول (ص : ٣٨) : « فأما أولهما وهو هذا الضمير الديني القوي اليقظ فشيء يتاح لأصحابه (أي النبي) وليس من المعقول ولا من المحتوم أن يرثه عنهم الأبناء والحفدة ، فالذين اتصلوا برسول الله اتصالا قريبا وتعلموا وتأدبوا بأدبه خليقون أن يتأثروا في سيرته وأن يتمثلوا كما عملوا أو قالوا أو فكروا ، فأما الأجيال التي تأتي بعدهم من الأبناء والحفدة فقد يتأثرون بهم وقد لا يتأثرون ، وهم لم يتصلوا بالنبي إلا قليلا . أو لم يتصلوا به أصلا ، فليس غريبا ألا يتاح لضمائرهم الدينية من اليقظة والقوة والحياة ما أتيح لخاصة النبي وصفوة أصحابه الأقربين » .

ويؤكد احتمال افتتان الضمير الديني فيقول (ص : ٣٩) : « وهي أن هذا الضمير الدّيني الحي اليقظ قد يتعرض للفتنة والمحنة ، وقد يلقى أخطارا كثيرة من الأحداث والخطوب فما أكثر ما يخلص الإنسان نفسه وقلبه وضميره للحق والخير والعدل والإحسان ، ثم تلم به أسباب الفتنة وتلح عليه وتسرف في الإلحاح حتى تضطره إلى أن يتأول في بعض الأمر ، ثم ما يزال ينتقل من تأول إلى تأول ومن تعلل إلى تعلل ومن تحلل إلى تحلل ، حتى ينظر ذات يوم فإذا بينه وبين الإخلاص الأول أمد بعيد ، ومن أجل هذا ألح القرآن وألح النبي وألح الخلفاء والصالحون في تحذير الناس من الدنيا وغرورها ومما تمد لهم من أسباب الفتن وما تُعرّضهم له من ضروب

(١) إذا صح هذا القول عن هذا الخليفة ، فلا نعلم ملابساته ، ولا نظنه يصح ! وهو غير معقول مع الحديث الصحيح : « الخلافة من قريش » وخاصة في وجود كبار الصحابة !!

المحن ، ومن هذه السيئات التي تذهب بالحسنات ، ومن بعض السيئات ، والأعمال التي تأكل الصالحات كما تأكل النار الحطب، فليس من الغريب في شيء أن يتعرض كثير من الصالحين ومن أصحاب النبي أنفسهم لأسباب الفتن ودواعي الغرور ، وأن يطرأ عليهم من الأحداث والخطوب ما يباعد بينهم وبين عهدهم الأول حين كان الإسلام غفل ، وحين كانوا يتصلون بالنبي مصبحين وممسين ، وحين كانوا إذا ذكروا اللّه وجِلت قلوبهم ، واذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانا » .

ثم يستشهد بافتتان بعض الصحابة بالسلطان والمال واقتتالهم مع بعضهم فيقول (ص : ٤٠) : « ولكنني ألاحظ أن جماعة من أصحاب النبي قد حسُن بلاؤهم في الإسلام حتى رضي النبي عنهم وبشرهم بالجنة أو ضمنها لهم ، ثم طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب ، وامتُحنوا بالسلطان الضخم العظيم وبالثراء الواسع العريض ، ففسدت بينهم الأمور ، وقاتل بعضهم بعضا ، وقتل بعضهم بعضا ، وساء ظن بعضهم ببعض إلى أبعد ما يمكن أن يسوء ظن الناس بالناس[1] .

ويقرر صعوبة الصمود أمام أسباب الفتن ودواعي الغرور فيقول (ص : ٤٠) : « وسنرى أن أسباب الفتن ودواعي الغرور كانت كثيرة قوية خلاّبة ؛ لا يثبت لها إلا أولو العزم من الناس ، وأولو العزم قلة في كل زمان ومكان » .

ويخلُص إلى النتيجة التالية بخصوص الضمير الديني أحد دعامتي الحكم الإسلامي فيقول (ص : ٤٠) : « فالعنصر الأول إذن من عنصري النظام في ذلك

---

(١) إن قتال الصحابة كان اجتهاداً من كل فريق وليس عن مطامع منهم كما زعم طه كذباً وزوراً. وقد صح في الحديث: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله اجران، وإذا أخطأ فله أجر» وقد كان إختلافهم رضي الله تعالى عنهم حول قتلة عثمان فكان فريق وفي مقدمتهم الخليفة علي يود تأجيل ذلك حتى تخمد الفتنة التي كان على رأسها اليهودي إبن سبا، وكان غيره يرى الإسراع بقتلهم خشية أن يتمادوا. . .
ومهما كان من هذا الإختلاف، فلم يؤثر على سير الخلافة وبقي الفتح الإسلامي مستمراً مع إقرارنا بأن الصواب كان مع عليٍّ وجماعته رضي الله تعالى عنهم. (ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ)
ومن أراد زيادة الاطلاع، والتحقيق في هذا البحث الخطير فليراجع كتاب «العواصم من القواصم» وقد قمت بتحقيق أحاديثه والتعليق عليه، مما لا يصح لمسلم جهله.

الصدر من الإسلام ، وهو الضمير الديني الحي اليقِظ ، معرّض كما رأيت لكل هذه الأخطار ، ولو قد عصم أصحاب النبي جميعا من الخطأ وأمنوا التعريض للفتنة واستقامت لهم أمورهم على ما يلائم تلك العصمة وهذا الأمن ، لما كان بُد من أن يتعرض أبناؤهم وحفدتهم لضروب الفتن والمِحن والغرور » [1] .

لن نناقش صواب أو خطأ تحليل طه لعناصر الحكومة الإسلامية ، بل سنسلم بصحة تحليله ، وسنناقشه في تقييمه للعنصر الأول وهو الضمير الديني .

نُلخص ما قاله طه حسين بشأن الضمير الديني بالنقاط التالية :

١ ـ قد يتعرض الضمير الدّيني إلى الفتنة والمِحنة .

٢ ـ تعرض الضمير الديني فعلا للفتنة عند الصحابة ، وهذا يؤكد احتمال عدم صموده وجدواه .

٣ ـ يشكك في استمرار فعالية الضمير الديني عند الأبناء والأحفاد ، ويشكك بالتالي في إمكانية قيام حكم إسلامي .

قد يتعرض الضمير الديني إلى الفتنة والمحنة . هذا شيء صحيح . وهي فتنة تنبع من طبيعة الإنسان ، وكونه مزيجا من عتامة الطين وشفافية الروح . مزيجا من ضرورات المادة ، وتطلعات المثل كما أخبرنا اللّه بذلك في محكم آياته حيث قال تعالى : ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾.

(ص ، ٧١ ـ ٧٢) .

وقد تحدّث القرآن مرارا عن الفتنة ، ونبه المسلم إلى مداخلها ، وحذره من أدواتها ، وأفهمه أن القصد من الوجود هو الابتلاء :

﴿ أحسِب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون. ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن اللّه الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾

(العنكبوت ، ٢ ـ ٣)

(١) لم يكن هناك غرور وإنما هو الإجتهاد في الرأي كما سبق القول! .

﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سَواءتهما إنه يراكم هو وقبيلُهُ من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ .

(الأعراف ، ٢٧)

﴿ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن اللّه عنده أجر عظيم ﴾ .

(الأنفال ، ٢٨)

﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾

(الملك ، ٢)

الخ . . .

وهذا الافتتان محل الإيمان الصحيح وهو افتتان يعرفه من كان عمره في الإسلام يوما واحدا . أو قل من عاش الإسلام يوما واحدا . وقد أخبرنا الرسول عليه الصلاة والسلام بأن بعض الناس يصبحون مؤمنين ويمسون كافرين أو بالعكس : «فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها »[1] وكان الرسول يدعو فيقول: « اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » . وكان يدعو أيضا فيقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » .

---

(١) قد يفهم بعضهم من هذا الحديث الصحيح أنّ هناك جبر في الإسلام ، وهذا غير صحيح . فالجبر باطل عقلاً وشرعاً ويراد من الحديث ضعفاء الإيمان بسبب جهلهم وهواهم ، فيضللون في أواخر حياتهم ، بخلاف غيرهم من المؤمنين ، فإنهم قد يرجعون إلى الجادة بعد انحرافهم ، بعدما يتبينّ لهم الحق .

وهذا البحث يجرنا إلى التطرق إلى عقيدة القضاء والقدر ، مما يصعب الكلام عليه في هذا الموضع ، وخلاصته أنّ اللّه تعالى يعرف بسابق علمه ، من سيهتدى ، ومن سيضل دون إخبار ، فكتب الأول من السعداء وكتب الثاني من الأشقياء بناء على علمه .

ومن يطلع أبسط اطلاع على سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام يرى نماذج مختلفة لافتتان بعض صحابة الرسول . فمنهم من تخلف عن القتال كما حدث مع الخوالف ، ومنهم من نقل بعض أسرار المسلمين إلى مشركي قريش كما حدث مع عبد اللّه بن أبي بلتعة . . الخ .

ولا يستكمل المسلم إيمانه ، ولا يوثق دينه ، ولا ينمي وجدانه ، ولا يرهف ضميره إلا من خلال الإفتتانات المتكررة ، وإلا من خلال الصرعات المتلاحقة مع شهوات النفس ، وغرائز الهبوط ، وإغراءات الدنيا . ولا نكون مغالين إذا قلنا أنه لا بد للإيمان الثابت الصلد من محن وإحن .

إذن أن يتعرض الضمير الديني للفتن فذلك أمر قررته العقيدة الدينية نفسها .

أن يتعرض بعض الصحابة للافتتان فذلك مروي عنه في سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وهو أمر عادي في نظر الإسلام قبل غيره ، والمسلمين قبل سواهم ، طالما أنهم يقرون بحقيقة وجود الشيطان .

ولكن أن يستغل تعرض الضمير الديني ، وافتتانه عند بعض الصحابة للتشكيك في قيمته لتوجيه الذات ، أو في إمكانية عودته ثانية إلى حيز الوجود . فذلك دسّ رخيص على مطلق الحقيقة ، وتشكيك مبتذل في الدِّين .

إن اقتتال شخصين ليس شرا كاملا ، وإنما يكون اقتتالهما شرا كاملا إذا دفعتهما إليه غرائز التوحش في نفسيهما ، أو تصادما من عناصر الشر في ذاتيهما . ولا يدين اقتتالهما عقيدتهما لأن الأشخاص مسؤولون أمام العقيدة ، وليست العقيدة مسؤولة عن الأشخاص . ولا يدينهما كليهما ، بل يبرأ أحدهما بمقدار التزامه بعقيدته وكونها دافعا له ، ويدان الآخر بمقدار ابتعاده عن عقيدته ، وكون الشهوات محركا له .

لم نجرد ؟!!! وأمامنا اقتتال الصحابي علي رضي اللّه عنه مع صحابة آخرين . فمن المحتم أن علياً ليس مسؤ ولا عن القتال . وقد يطول الحديث بنا

وتختلف إذا حاولنا أن نربط الحق بأحد الأجنحة المتخاصمة [1] ، ولكن أمرا واحدا لا خلاف عليه هو إخلاص علي وجده واجتهاده في حمل المسلمين على محجة الإسلام البيضاء ، وأمرا آخر : هو سمو ضميره الديني عن الفتنة ، وارتفاع نفسه عن الإنزلاق في مهاوي الشهوات . وإلا فلم هذا العناء ؟ ولم هذا الوناء ؟ وزمام الحكم أسهل انقيادا ، وسنام الملك أيسر امتطاء إذا هبط مع الهابطين ، وختل مع الخاتلين . لكنه الضمير الديني الحي الذي كان يدفعه ، ويصبره على إحتمال وعثاء الطريق . وليس ضمير علي وحيدا في المعركة ، بل كانت معه جملة من ضمائر الصحابة ارتفعوا عن الفتنة ، واختاروا طريقه .

إذن فالضمير الديني الحي اليقظ الذي شككّنا طه حسين في وجوده وصموده وحساسيته بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ما زال موجودا كأتم ما يكون الوجود ، صامدا أمام الفتنة كأحسن ما يكون الصمود ، حيا كأروع ما تكون الحيوية .

وقد استمر هذا الضمير الديني موجودا صامدا حيا يقظا في مختلف مراحل التاريخ اسلامي ، وقلما تخلو صفحة منه ، مع اختلاف واحد هو الاختلاف في كمية هذه الضمائر .

ثم يحلل طه حسين إمكانية صمود العنصر الثاني من عناصر الحكومة الإسلامية أمام تحولات المجتمع فيقول (ص ٤٤) : « أما العنصر الثاني من عناصر هذا النظام السياسي وهو هذه الأرستقراطية الممتازة من أصحاب النبي ، فقد كان بطبعه معرضا للزوال حين يمضي الزمن ويبلغ الكتاب أجله وتنشأ أجيال جديدة

---

(١) سامح الله تعالى الكاتب، فإنه غفل عن ذكر الفئة الأخرى التي قالت عليا (ر) فإن ضميرهم الديني كان في قمة السمو والرفعة، راجع تعليقنا (٢٩٤).

ليس لها ما كان لهذا الجيل من الامتياز ، وقد كان من الطبيعي أن يوضع لهذه الأجيال النظام الذي يعلمها كيف تختار خلفاءها وكيف تراقبهم وتحاسبهم وتعاقبهم إن تعرضوا لما يقتضي العقاب ولو قد وضع هذا النظام لما تفرق المسلمون بعد مقتل عثمان على النحو الذي عرفه التاريخ ولما ذهب فريق من المسلمين مذهب المحافظة الهوجاء على سنة النبي والشيخين وهم الخوارج ، وفريق آخر مذهب المحافظة على أن تكون الإمامة في آل بيت النبي ،وفريق ثالث على أن تستحيل الخلافة ملكا قيصريا أو كسرويا ، وفريق رابع إلى أن يكون الأمر شورى بين المسلمين دون أن يعرفوا لهذه الشورى نظاما ولا حدودا ، ولكن ما قلناه بالقياس إلى العنصر الأول نقوله بالقياس إلى العنصر الثاني ، فلم يتح للشيخين وأصحابهما من الوقت ولا من الفراغ والدعة ولا من التطور والاتصال بأسباب الحضارة ما كان من شأنه أن يمكنهم من وضع هذا النظام ، إنما السبيل على الذين جاءوا بعدهم فأتيحت لهم السعة والدعة والفراغ ، ولم يفكروا مع ذلك لا في أن يضعوا نظاما لتداول الحكم ، ولا في أن يضعوا نظاما يكفل رعاية العدل السياسي والاجتماعي ، وإنما أهملوا ذلك إهمالا وآثروا أنفسهم بالحكم والغلب والاستعلاء » .

هذا العنصر معرض إلى الزوال كسابقه ، ليس هذا فحسب ، بل افتقد المجتمع الإسلامي - بعد وفاة الرسول - النظام الذي يمسكه ، فأصبح سائبا تتقاذفه الأهواء .

ثم يذكر طه حسين حاجة المجتمع الإسلامي إلى النظام المكتوب الذي يبين الحدود والحقوق والواجبات فيقول (ص: ٤١) : « فلم يكن بد إذن من أن يصل المسلمون في ذلك العصر إلى ما يمكنهم من ألا يتركوا أمورهم إلى حساب الضمير وحده ، أو إلى ما بين الخليفة وبين الله إلى ما يمكنهم من أن يضعوا النظام المقرر المكتوب الذي يُبين حدود الحكم جملة وتفصيلا ، ويبين للخلفاء ما يجب عليهم أن يفعلوا ، وما يجب عليهم أن يتركوا ، وما يجوز لهم أن يترخصوا فيه ، ويبين للشعب حقوقه وواجباته مفصلة ، والوسائل التي يختار بها الخليفة ويراقبه بها بعد اختياره ويعاقبه بها إن حاد عن الطريق ، كان المسلمون في حاجة إلى أن ينشئوا لأنفسهم في

حدود القرآن والسنة دستورا مكتوبا يُبَين الحدود والاعلام يعصمهم من الفرقة والاختلاف ، ولو قد فعلوا لما تعرضوا له من الشر أيام عثمان ، وأنظر إلى هذا المثل الذي يقف الناس أمامه حائرين يرضى منهم الراضي ويُسخط منهم الساخط ، فقد كُلِّم عثمان فيما أعطى لذوي قرابته من بيت المال فقال : إن عمر كان يحرم قرابته إحتسابا للّه ، وأنا أعطي قرابتي[1] احتساباً لله ، ومن لنا بمثل عمر ؟ فقد كان عمر[2] إذن محسنا حين كان يحرم ذوي قرابته مال المسلمين ، وكان عثمان محسنا حين كان يصل أرحامه من مال المسلمين لأن اللّه أمر أن توصل الأرحام » .

ويدعم رأيه في افتقار المجتمع الإسلامي للدستور وبتحريف الوقائع التاريخية ، ومن خلال تلاعب لفظي ماهر فيقول (ص ٤٢) « وربما كان من أوضح الأمثلة على حاجة المسلمين في ذلك الوقت إلى هذا النظام المكتوب ما يروى من أن عليًا حين عرض عليه عبد الرحمن بن عوف أن يبايعه على أن يلزم الكتاب والسنة وسيرة الشيخين لا يحيد عن شيء في ذلك أبى أن يعطي ما طلب إليه من العهد وقال : اللهم لا. ولكن أجتهد في رأيي ما استطعت ثم يلبس طه جلد علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ويفسر قوله السابق فيقول في الصفحة السابقة نفسها : « يريد أنه لا يستطيع أن يلتزم ما لا سبيل إلى التزامه . فالقرآن مكتوب محفوظ في الصدور ، ولكنه لم يعرض لسياسة الحكم في تفصيلها ووقائعها اليومية ، وسنة النبي معروفة في

(١) حاشا الخليفة عمر (ر) أن يقدم على حرمان ذوي قرابته حقهم المشروع من مال المسلمين إنما كان يمنعهم البذخ ليكونوا قدوة للإنسان وحاشا لعثمان (ر) أن يؤثر قرابته على غيرهم من المسلمين ، وأن يبذر بيت المال كما يزعم الكاذبون والمضللون ، ومن أراد زيادة الإيضاح فليرجع إلى كتاب : « العواصم من القواصم» الذي سبق ذكره مما هو ضروري لكل مسلم دراسته .

(٢) الحق ظاهر في الإسلام ، إلا أن هناك أموراً إجتهادية تختلف من عالم إلى عالم ، ومن خليفة إلى آخر ، ولا يلزم أحد هؤلاء باجتهاد الآخر ، وإلى ذلك تشير القاعدة الأصولية : « تتغيرّ الأحكام بتغير الأزمان !» ويقصد منها الأحكام غير المنصوص عنها والتي لا يصح مخالفتها والاجتهاد فيها وفقاً للمبدأ الشرعي : « لا اجتهاد في مورد النّص» .

وقد فهم بعض المغفلين من القاعدة الأولى بإمكانية ترك نصوص الشريعة الثابتة ، وهذا جهل أو إنحراف .

جملتها ، ولكن منها ما يجهله الحاضر ، ويحفظه الغائب ، ومنها ما ذهب [1] مع من ذهب من أصحاب النبي فيما كان من حرب الردة والفتوح ، وسيرة الشيخين كسنة النبي منها المعلوم ومنها ما قد يكون النسيان عرض له ،ولعلي بعض الحق كل الحق في أن يخالف عن سيرة الشيخين ان تغير الزمن أو رأى في المخالفة عن هذه السيرة منفعة لرعية المسلمين » .

فالقرآن ـ إذن ـ ناقص فهو لم يعرض لسياسة الحكم !! والسنة بتراء فهناك ما يجهله الحاضر ويحفظه الغائب !!! وقد ازورّ علي عن بيعة العهد تلك لنقص في القرآن ولغياب في السنة !!!

حاشا للّه أن يذهب علي إلى ما ذهب إليه طه في تفسيره ، فالقرآن عنده حقيقة متكاملة لم تغادر صغيرة ولا كبيرة في شؤ ون الحياة ، ولم تدع حكما إلا أحصته ، وهو أسمى عنده وفي نفسه من أن يتطرق إليه الظن . وسنة نبيه أكرم من أن يتنكر لها ، فليعمل بما بلغه وبما بلغ أصحابه المقيمين معه في المدينة منها ، أما الذي لم يصل إليه منها لغياب الراوي فهو معفو عنه . أما سيرة الشيخين فهو رجل وهم رجال له الحق أن لا يأخذ بها .

---

(٤٩) إن قوله : « ومنها ما ذهب مع من ذهب من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلّم فيما كان من حرب الردة والفتوح» خبث رهيب يريد من ذلك ضياع الكثير من السُّنة بسبب حروب الردة مما يدعو إلى شك بعض الجهلة .

والحقيقة أنّ السنة كانت محفوظة عند الكثيرين وقد كُتب بعضها ، فإذا مات فريق بقيت لدى الآخرين ، فإن الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلّم لم يكن على الغالب لينفرد بأحد من أصحابه في قول أو عمل .

وأهم ما ينبغي أن نعلمه في هذا الصدد ويعلمه الجميع أنّ اللّه تعالى تولى حفظ السُّنة كما حفظ القرآن بدليل قوله تعالى :﴿ إنا نحن نزّلنا الذّكر وإنا له لحافظون ﴾ وهذا الذّكر ليس القرآن فحسب كما يظن الكثيرون ، ولو حفظ الله سبحانه القرآن وحده لضاع كثير من الدِّين . ودليلنا في ذلك قوله تعالى : ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً . رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبيّناتٍ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور . . ﴾ (الطلاق ١٠ ـ ١١)

جاء في تفسير الإمام ابن كثير : قال بعضهم : رسولاً منصوب على أنه بدل إشتمال وملابسة ، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو اللي بلّغ الذكر. وقال الإمام ابن جرير: الصواب أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ترجمة عن الذّكر يعني تفسيراً له .

ثم يتحدث عن موقف عثمان من البيعة فيقول (ص: ٤٣): « فلما عرض عبد الرحمن هذا العهد على عثمان قبله وأعطى مثله وقال: « اللهم نعم ». يريد أنه سيجتهد في اتباع كتاب الله وسنة نبيه وسيرة الشيخين، وأنه متى اجتهد في ذلك مخلصا فقد إلتزم الكتاب والسنة ونهج الشيخين، وقد أصاب علي ما في ذلك شك، ولم يبعُد عثمان، ولكن انظر إلى ما حدث بعد أن مضت أعوام على إمرة عثمان: ذهب في أموال المسلمين مذهبا مخالفا لمذهب عمر وسيرته، فأما الذين بايعوه على التزام هذه السيرة فيما التزم فقد رأوا أنه خالف عنها ولم يف بالعهد كاملا، وأما هو فرأى أنه لم يخالف بحال من الأحوال، لأن قوام سيرة عمر إنما هو التقرب إلى الله، وهو قد وصل رحمه تقربا إلى الله، فهو يتقرب إلى اللّه كما كان عمر وأبو بكر يفعلان، ولا شيء عليه أن تختلف وسائل هذا التقرب إلى الله، ولو قد كان للمسلمين في ذلك الوقت نظام مكتوب بين الحدود واضح الاعلام، لما أبى علي أن يبايع على هذا الدستور، ولما احتاج عثمان إلى أن يبايع ثم يتأول، ولما انقسم الناس بعد ذلك فريقين: فريق يشتد ويتحرج كما تحرج علي ومن لاموا عثمان، وفريق يتأول كما تأول عثمان».

ويحس طه حسين بسقم كلامه السابق، وسخفه في ذهن القارىء؛ ومغالطته لبدهيات الحقائق، فيتدارك بالإقرار للخلافة بشيء من النظام المكتوب فيقول (ص: ٤٤) « عرفت أن من الشطط أن يقال إن الشيخين لم يضعا للمسلمين من النظم السياسية ما كان ينبغي أن يضعا. وقد كان عمر رضي الله عنه يجتهد في ذلك ما وسعه الاجتهاد، لا يكاد يعرف من نظم الأمم التي سبقت إلى الحضارة شيئا إلا استقصاه واستخلص منه ما يلائم المزاج العربي، وما يلائم الإسلام، وما يلائم هذه الدولة الناشئة التي أسرعت إلى النمو والإنتشار إسراعا عظيما سبقت به تفكير المفكرين وتدبير المدَبرين ».

ويتحدث عن محاولة عمر لتنظيم شؤون الدولة باجتهاداته الفردية، ويتأسف لأن المنية حالت دون إتمام المحاولة فيقول (ص: ٤٧): « ومغزى هذا كله أن عمر قد حمى هذه الطبقة الممتازة وحمى المسلمين من استغلال النفوذ، وأمسك عليهم جميعا دينهم، وحال بينهم جميعا وبين الفتنة، واتخذ من خاصة أصحاب

النبي مجلسا يوشك أن يكون مجلس شوراه ، ولو قد مد له في العيش لكان خليقا أن يضطرهم إلى أن يرضوا بهذه المنزلة فيكونوا أصحاب الحل والعقد ، ويشيروا على الخلفاء دون أن يدخلوا في أمور الحكم التفصيلية من قريب أو بعيد ».

نلخص ـ الآن ما قرره طه بشأن العنصر الثاني من عناصر الحكومة الإسلامية :

١ ـ أدى افتقاد النظام المكتوب أو الدستور في الحكومة الإسلامية [هذا قريب مما قاله علي عبد الرازق في كتاب الإسلام وأصول الحكم] إلى الإختلاف في الإجتهاد والتصرف . ويعود نجاح عمر في تنظيماته الحكومية إلى عبقريته الفردية .

٢ ـ مثل الاختلاف الاجتهاد بمنع عمر أموال المسلمين عن رحمه تقرباً إلى اللّه ، وإنفاق عثمان لها عليهم تقربا إلى الله أيضا .

أما أن المسلمين يفتقدون الدستور والنظام المكتوب فذلك شيء لم نفهمه ؟!! فما القرآن إذن ؟!! وما الأحكام التي رسمها ؟ وكيف سار الحكم في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وفي عهد خليفتيه ؟!! هل كانت حكوماتهم اجتهادية ؟؟!! لماذا ثار الأمصار على عثمان ؟ أليس لأنه خالف بعض الأحكام المتعارف عليها ؟

أما استشهاده باختلافات المسلمين إلى افتقاد الدستور فمن أعجب العجائب التي لا يسيغها راشد !! فمتى كان الدستور يعصم من الإختلاف ؟! وهذه تجارب الدول أمامنا في عصرها الحديث : فهل عصم الدستور الفرنسي مثلا ـ الفرنسيين من الإختلاف ؟!

أما استشهاد طه بانفاق عثمان للأموال على رحمه تقربا إلى اللّه ، وحبس عمر لها تقربا إلى اللّه أيضا ، ولغطه في هذا المثال فنقول : يجب أن نميز بين حسابين : حساب اللّه للحاكم وحساب البشر أو الرعية له .

حساب اللّه للحاكم محيط شامل لدقائق الظاهر وباطنه ، وذلك حساب لا علاقة لنا به .

حساب الرعية للحاكم : نصوص الشريعة قرباً أو بعداً وفاقاً أو خلافاً ، وذلك ما يبيحه الإسلام ـ نفسه ـ لنا .

ولم يعُد بعض المسلمين الأوائل الشريعة ، ولم يتجاوزوا الحق حين قالوا لعثمان[1] رضي اللّه عنه : قد أخطأت في إنفاقك أموال المسلمين على أقاربك .

ناقش طه حسين دعامتي الحكم الإسلامي حسب رأيه ـ : الضمير الديني ، والارستقراطية الدينية . ناقش احتمال بقائهما وصلاحهما وصمودهما أمام تبدلات الحياة . فنفى عنهما الصمود وصلاحية البقاء ، وجرّد الإسلام من مقومات الحكم والدستور ، ونعى على المجتمع المسلم افتقاده للنظام المكتوب . وهو يدسُّ كلما وجد موضعا للدس ، ويشكك كلما لاحت له حادثة تحتمل تفسيرين ، ويحرِّف الكلم عن مواضعه في كل أمر .

مذهب جديد :

يعلن طه حسين عن اكتشافه لمذهب جديد في الحكم بدأه عثمان ، ومشى عليه زياد بن أبيه . يقول موضحا ذلك (ص ١٩٣) : في الجزء الأول من كتاب الفتنة الكبرى : « وقد يشق علينا أن نلاحظ أن هذا المذهب الذي ذهبه عثمان في الخلافة هو نفس المذهب الذي عرضه زياد في خطبته المشهورة حين قال : « أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان اللّه الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء اللّه الذي خولنا » ومن هنا لا نرى غرابة فيما روى عن عثمان من قوله : إن أبا بكر وعمر كانا يظلمان أنفسهما وقرابتهما تقرباً إلى اللّه وأنا أصل رحمي تقربا إلى اللّه »[2].

---

(١) بل تجاوزوا الحق ، فإن عثمان (ر) ما أنفق أموال المسلمين على أقاربه إلا بالحق. يراجع للتثبت من ذلك كتاب : « العواصم من القواصم » (م . م .) .

(٢) إن هذا الكلام لطه حسين باطل مجانب للحقيقة كما سبق وأوضحنا، وما ذكره عن عثمان (ر) هنا لا يصح.

ويُبين إحدى دعائم المذهب الجديد ويتلخص بأن الحكم عطاء من اللّه فلا حق للرعية بالمراقبة أو المحاسبة . يقول (ص : ١٩١) : « وأخرى يجب أن نلاحظها في تفسير السياسة المالية لعثمان ، وهي أنه لم يكن يرى فيما يظهر أن للمسلمين الحق في أن يراقبوه[1] فضلا عن أن يعاقبوه . فهو قد أعطى العهد الذي أعطاه وهو مسؤول عن هذا العهد أمام اللّه لا أمام الناس . يدل على ذلك اقتناعه بأن الذين طلبوا إليه أن يخلع نفسه قد طلبوا إليه شيئا عظيما ، وقوله ولهؤلاء ولغيرهم : « ما كنت لأخلع قميصاً قمصنيه اللّه عز وجل » وقوله لهؤلاء ولغيرهم : « لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أنْ أنزع سربالا سربلنيه اللّه عز وجل » .

فلم تكن الخلافة عنده إذن تكليفا تلقاه من المسلمين ، ويستطيع أن يرده عليهم أن شاء هو أو شاءوا هم ، وإنما كانت الخلافة عنده ثوبا أسبغه اللّه عليه ، وليس له أن ينزعه عن نفسه ، وليس لأحد غيره أن ينزعه عنه[2] ، وإنما اللّه وحده هو الذي يملك تجريده من هذا الثوب يوم يجرده من ثوب الحياة . وعذر عثمان في ذلك أنه رأى صاحبيه من قبله قد نهضا بالخلافة ، فلم تنزع عن أحدهما ما أقام على الحياة . فهو إذن مثلهما قد نهض بالخلافة ، ويجب أن يستمسك بها ما امتدت له أسباب الحياة .

وإذا كان هذا رأيه في الخلافة وفيما يتيح له من سلطان ، فليس غريبا أن يضيق بالذين يجادلونه في سلطانه ، ويحاولون أن يكفوه عن بعض تصرفاته في الإدارة أو السياسة أو المال ، فهو ليس مسؤولا أمام الناس ، إنما هو مسؤول أمام اللّه كما قدمنا . ولم يكن عثمان يتكلف هذا الرأي تكلفا ولا يصطنعه دريئة يتقي بها لوم اللائمين ونقمة الناقمين ، وإنما كان يراه عن نية صادقة وعن بصيرة خالصة . ولعل كثيرا من المسلمين الذين عاصروه كانوا يرون في الخلافة مثل رأيه ، ويذهبون في السلطان مثل مذهبه . وهذا هو الذي يُفسر لنا أن بعض الصحابة كانوا لا يستبيحون

---

(١) ومن قال لطه حسين ذلك ؟ كبرت كلمة تخرج من فيه إن يقول إلا كذباً !

(٢) للرعية الحق بخلع الخليفة بشروط معروفة ومن قبل أهل الحل والرأي ، ولم يكن الذين ثاروا على عثمان منهم (م . م) .

لأنفسهم الخلاف عن أمره حتى حين ينحرف عن القصد أو يجور عن الطريق . كانوا يأخذون الآية على ظاهر نصها ، ويكرهون أن يتأولوا في قول اللّه عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وكانوا يؤثرون إن أصابهم من الإمام ظلم أن يحتملوا هذا الظلم في الدنيا ليثابوا عليه في الآخرة ، يفضلون ذلك على أن يقاوموا فيتعرضوا لما قد يكون فيه بعض الإثم ، ولا عليهم أن يصيبهم الظلم في الدنيا وينالهم الثواب في الآخرة ، وأن يحتمل الإمام تبعة أعماله ويؤدي حسابه عنها إلى اللّه » .

ويورد تصرفين لصاحبين يُدعمان رأيه في المذهب الجديد فيقول (ص : ١٩٢) : « هذا المذهب هو الذي ذهب إليه أبو ذر حين سمع وأطاع على إنكاره لظُلم عثمان إياه ، وهذا الذي ذهب إليه عبد الله بن مسعود في أمر نفسه وما أصابه من بطش[1] عثمان ، وفي أمر الدين حين أتم الصلاة لأن عثمان أتمها مع أنه لم يوافق عثمان على اتمامه للصلاة » .

ويستبطن روح عثمان ويتكلم في المذهب الجديد على لسانه فيقول (ص : ١٩٢) : « وكذلك مضى عثمان في إدارته وسياسته للحرب والمال ، يرى أن من حقه الإجتهاد وأنه مؤد حسابه عن هذا الجهاد إلى اللّه ، وأن من الحق على المسلمين أن يسمعوا له ويطيعوا ، وأن من الحق لهم أن ينصحوا له ويشيروا عليه ، فإن شاء سمع لهم وقد فعل في بعض الأحداث ، وان شاء أبى عليهم ، وقد فعل في بعضها الآخر . وهذا النوع من تصور السلطان جديد محدث ، فلم يخطر لأبي بكر ولا لعمر أنه يستطيع أن يستأثر بالسلطان دون المسلمين » .

يحمل طه حسين بعض الأحداث أكثر مما تحتمل ، ويؤوّل بعض سيرة عثمان تأويلا بعيدا عن الصواب والحق ، وإلا فمن قال له : إن عثمان يرى أنه لا حق للناس في مراقبته ، وأنه مؤد حسابه أمام اللّه وحده ؟؟!! وكيف ألبسه هذا الإثم الكبير ؟

---

(١) راجع كتاب العواصم من القواصم تتحقق من كذب طه حسين في ظلم عثمان لابن مسعود .

بنى طه حسين أوهامه في المذهب الجديد على مقدمة بسيطة هي قولة عثمان رضي اللّه عنه : « ما كنت لأخلع قميصا قمصنيه اللّه عز وجل ». وقولته : « لإن أقدم فتضرب عنقي أحب إلي من أن أنزع سربالا سربلنيه اللّه عز وجل[1] » .

وفي الحقيقة قال عثمان الجملتين السابقتين ردا على الذين طلبوا منه أن يخلع نفسه . وفرق هائل بين الخلع والمراقبة والمراجعة فمراقبة المسلمين ومراجعتهم له شيء يقره عثمان قبل غيره من الناس ، ودليلنا على ذلك إعطاؤه العهد ـ بعد اجتماعه بوفد مصر أول مرة ـ بتغيير الولاة وانتهاج سياسة مالية جديدة[2] .

إن المذهب الجديد في السلطان مرض جديد ـ قديم في دماغ طه حسين يأبى عليه أن يرى الأمور الدينية في وضعها الصحيح ، ويأبى عليه إلا أن يدس ويلطخ ويشكك ، وألا فكيف سيأخذ المسلمون بظاهر قول اللّه عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم »وما زالت أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام مزهرة في آذانهم ، حية في قلوبهم ، تقرع وجداناتهم بأن لا سمع ولا طاعة في معصية الخالق؟ ليس من شك بأن الاسلام الذي حرّر أرواحهم ، وأطلق ألسنتهم ، وأعمل أيديهم في هدم طواغيت الشرك ، لن يعقل هذه الأرواح والألسن والأيدي أمام أدنى انحراف عن الإسلام وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام . بل سيطلقها كي تقوم المعوج ، وتسوي الملوي .

أما إيمان أبي ذر بالمذهب الجديد للسلطان فنسأل : كيف آمن بهذا المذهب ؟ وكيف قال كلمته الخالدة ـ في الوقت نفسه : ـ عجبت لمن لم يجد قوت يومه كيف لم يخرج شاهراً سيفه ؟! كيف نوفق بين هذا الإيمان وتلك الكلمة الخالدة ؟! إلا أن يكون الإقرار والسكوت رضوخاً لا حول له بدفعه ، وليس إيماناً بمذهب .

ثم يضخم طه الصعوبات التي تواجه الحكم الإسلامي ، ويختلق أخرى مثلها ، ويكرر إيمانه بأن نجاح عمر في حكومته يعود إلى عبقريته الفذة فيقول

(1 و2) يراجع من أجل هذا البحث كتاب « العواصم من القواصم» وفيه رد لاذع على إفتراآت طه حسين وأكاذيبه .

(ص : ٢١٧) : « ثم إذا أضفت إلى هذا كله أن هؤلاء الشيوخ من المهاجرين والأنصار ، قد عاشوا عيشة إن لم تكن بدوية خالصة فهي إلى البداوة أقرب منها إلى الحضارة ، ثم نظروا ذات يوم فإذا هم أمام دولة ضخمة بعيدة الأرجاء مترامية الأطراف معقدة الشؤون ، تحتاج إلى أن تُساس سياسة الحضارة المتأصلة ذات السنن الموروثة والتقاليد المقررة لا حضارة الطائفة ، إذا جمعت هذه الخصال كلها بعضها إلى بعض ، عرفت أن ظروف الحياة التي أحاطت بعثمان كانت أقوى منه ومن أصحابه . ولا تقل أن عمر قد واجه هذه الظروف وظهر عليها ، فقد كان عمر من هؤلاء الأفذاذ الذين لا تظفر الإنسانية بهم إلا في القليل النادر ، والذين يتعبون من بعدهم ، ويرهقونهم ، من أمرهم عسرا » .

ويختتم الجزء الأول من الفتنة بالكلام التالي (ص : ٢١٨) : « قد تركت المسلمين وأمامهم طريقان كلتاهما مستقيمة واضحة الأعلام ليس فيها عوج ولا التواء : احداهما هي الطريق التي سلكتها الأمم من قبلهم وهي طريق المُلك الذي يقيم أمره على الحزم والعزم وعلى القوة ، ويحل مشكلات الدنيا بوسائل الدنيا ، فيرقى ويقوى ويزدهر ، ثم يصيبه الضعف والانحلال والذواء لينتقل من طور إلى طور ومن دولة إلى دولة ومن شعب إلى شعب . والأخرى هي هذه الطريق الجديدة التي مهدها النبي ورفع أعلامها صاحباه ، وهي التي لا تقيم السلطان على القوة ، وإنما تقيمه على المحبة والعدل ، وتجعل القوة أداة من أدواته ووسيلة من وسائله ، ولا تعرف أثرة ولا تحكما ولا جبرية ، ولا تحل مشكلات الدنيا بوسائل الدنيا وإنما تحل بوسائل الدِّين هذه التي تقوم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى الرغبة في الخير والنفور من الشر وعلى الإيثار على النفس والتبرؤ من الأثَرة ، وتعتمد قبل كل شيء على صفاء النفوس ونقاء الضمائر وطهارة القلوب ، وتتخذ الدنيا كلها ، لا أقول وسيلة إلى الآخرة ليس غير ، ولكن أقول وسيلة إلى الآخرة من جهة ، ووسيلة إلى دنيا جديدة تزداد رقيا ونقاء وصفاء وطهراً كلما تقدمت بها الأيام من جهة أخرى .

نظر المسلمون بعد مقتل عثمان فإذا هم على رأس هاتين الطريقتين . فأما أكثرهم فسلكوا الطريق الأولى ، وامتُحنوا فيها وما زالوا يُمتحنون بما امتحنت به

الأمم والشعوب ، وأما أقلهم فحاولوا أن يسلكوا الطريق الثانية ، ولكنهم كانـوا ناساً من الناس ، فلم يكادوا يتقدمون في طريقهم تلك حتى إمتحنوا في أنفسهـم ودمائهم ، وحتى غلبهم الأكثرون عدداً على أمرهم .

وينظر المسلمون فإذا الطريق الأولى ما زالت مزدحمة بهم جميعاً يتهافتون فيها كما يتهافت الفَراش في النار ، وإذا الطريق الثانية ما زالت قائمة واضحة بيِّنة الأعلام ولكنها خالية لا يقدر على سلوكها إلا أولو العزم من الناس . وأين أولو العزم ؟» .

إذن ينعي طه في ختام الجزء الأول الخلافة ، ويوهِن من عزائم المسلمين الساعية إلى إعادتها ، وينبههم إلى أن المسلمين الأوائل تنكبوا عن طريقها منذ أمد بعيد واتبعوا طريق الملك الذي يحل مشكلات الدنيا بالدنيا ، فالخلافة تحتاج إلى أولي عزم من الناس ، وأين أولو العزم الآن ؟؟!!

وكان لسان حاله يخاطب مسلمي عصره ويقول لهم : عليكم أيها المسلمون أن تَدَعوا التفكير في الخلافة ، وأن تبطلوا السعي إليها ، وأن ترضوا بحكم الديمقراطية كما رضي أصحاب النبي بعد عثمان رضي اللّه عنه بحل مشكلات الدنيا بوسائل الدنيا ؟؟ !!

هذه هي النتيجة التي يصل إليها طه حسين في ختام الجزء الأول ، ويا لها من نتيجة مثبطة !!

* * *

الفتنة الكبرى، عليّ وبنوه :

لم يخلُ الجزء الثاني من دس طه ، ونحن سنتناول نماذج عدة لهذا الدرس .

١ ـ يُعلن طه في هذا الجزء إخفاق نظام علي وبالتالي نظام الخلافة ، ويُعلن انهزام الإسلام من واقع المسلمين فيقول (ص : ١٥٥) : « ليس من شك في أنّ عليا قد أخفق في بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية ثم هو لم يخفق وحدَه وإنما أخفق معه نظام الخلافة كله . وظهر أن هذه الدولة التي كان يُرجى أن تكون نموذجا للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدُول من قبلها . فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات الذي تُستذل فيه الكثرة الضخمة ، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة ، فقلة قليلة من الناس عسى أن تكون من شعب بعينه بين هذه الشعوب ، وهو الشعب الذي استقر أمر الحُكم فيه . بل لم يخُفق علي ونظام الخلافة وحدهما ، وإنما أخفقت معهما الثورة التي قامت أيام عثمان لتحفظ فيما كان أصحابها يقولون ، على الخلافة الإسلامية سماحها وصلاحها ونقاءها من شوائب الأثرة والطغيان والفساد » .

ويقول أيضاً (ص ١٦١) : « أخفقت كل شيء إذا كان يدل على أن سلطان الدِّين على الناس لم يكن من القوة في المرحلة التي كان فيها أيام عمر ، وعلى أن سلطان المال والسيف كان قد أستأثر بالقلوب والنفوس ، وكل شيء يدل على أن عليا والذين ذهبوا مذهبه من المحافظة على سيرة النبي والشيخين إنما كانوا يعيشون في آخر الزمان الذي غلب الدين فيه على كل شيء » .

يخيل الكلام السابق للقارىء أن الإسلام انسحب نهائياً من الحياة ، وأن الأثرة قد سارت ، وأن نظام الطبقات قد سيطر ، وأن المال قد استولى على النفوس الخ . . . ولكن هل انسحب الإسلام ـ حقيقة ـ من الحياة ؟ الجواب : لا . فميزة الدِّين الإسلامي هي استمرار فعله في مختلف شُعب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والروحية والثقافية مع انسحابه الجزئي من مجال الحكم . ومجتمعنا المسلم ـ حالياً ـ

خير دليل على صحة هذه الحقيقة ، فالتقاليد والعادات والأحكام والأعراف والمعاملات الخ . . كانت وما زالت إلى حين إسلامية مع انسحاب الإسلام الكامل عن مجال الحكم ، ومع الضغوط الهائلة والإغراءات القاسية التي تحمّلها من أجل محو صفة الإسلام عنها .

٢ ـ يتحدث عن احتكاك المسلمين بتراث البلاد المفتوحة ، ويصف اختيار المسلمين لبعض ما رأوا فيقول (ص: ١٦١) : « وقد أخذهم شيء من الدهش أول الأمر لما رأوا وما سمعوا ، ولكنهم ألفوا هذه الأشياء وهؤلاء الناس ، ثم جعلوا يختارون مما رأوا وما سمعوا من الأخلاق والسيرَ وضروب الحياة ما يستطيعون اختياره، مما يُلائم أمزجتهم وطباعهم وأذواقهم» .

الأمزجة والطباع والأذواق ـ إذن في رأي طه ـ وسائل اختيارهم مما رأوا ، وقد أغفل في ذلك العامل الأول في الاختيار وهو الإسلام . وهذا هو الذي حدث في واقع الأمر فأنشأ حضارة إسلامية متميزة .

٣ ـ يهزأ طه بالنبي صلى اللّه عليه وسلم وأصحابه فيقول (ص : ١٦٢): « وقارن الأذكياء وأصحاب المطامع منهم ، بين ما أقبلوا عليه من ذلك ، وما تركوا وراءهم في المدينة أو في غيرها من حضر البلاد العربية وباديتها ، فأكبروا هذا الجديد وصغُر قديمهم في أنفسهم واستحيا أكثرهم من إظهار ذلك . فتناجت به ضمائرهم ، وهوت إليه قلوبهم ، وجعلوا ينظرون إلى مَن وراءهم من أولئك الشيوخ أصحاب النبي في كثير من الإجلال والإكبار، ولكن في كثير مَن الرفق والرثاء أيضاً. يجلونهم ويكبرونهم لمكانهم من النبي وسابقتهم في الدِّين، ويرفقون بهم ويرثون لهم لأنهم يمثلون جيلا قديماً قد انقضت أيامه أو أوشكت أن تنقضي . » .

نظر المسلمون ـ إذن ـ إلى حياة الصحابة بإشفاق ورثاء أو قل بهزء وسخرية . ولكن كيف وصل طه إلى هذه النتيجة ؟ وما هي دلائله على صحة هذا الحكم ؟

الحقيقة مخالفة لكل ما يقول ، فقد بقي المسلمون ينظرون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته حتى في حالة الإرتكاس والابتعاد عما يتطلبه الإسلام ،

مجلين مكبرين لهم ، محاولين الإقتداء بهم في الوقت نفسه . والتاريخ الإسلامي ـ بطوله المديد ـ ما هو إلا إقتداءات متكررة بالصحابة رضوان اللّه عليهم ، ومحاولات للتشبه بهم لأنهم مثل أعلى للمسلم في كل جزئية من جزئيات حياتهم . وقد نجحت هذه المحاولات على مرِّ العصور وما عمر بن عبد العزيز، العز بن عبد السلام ، صلاح الدين الأيوبي ، أحمد بن حنبل ، الشافعي ، أبوحنيفة ، البخاري الخ . . إلا دليل على صحة هذا النجاح .

ليست هذه النظرة إلى الصحابة ـ إذن ـ نابعة من واقع المسلمين بل من خيال طه المريض .

الخلاصة : إن كتاب (الفتنة الكبرى) فتنة كبرى في الفكر الإسلامي المعاصر ، وذلك لأنه مملوء بالتشكيك والدَّس ومغالطة الحقائق ، بأسلوب هادىء سلِس ، نافذ إلى النفس الجاهلة في قالب تاريخي ديني إسلامي .

* * *

عود إلى سؤال

هل تغير طه حسين ؟ هل عاد إلى رشده وصوابه ؟ ما هي الأسباب التي دفعته إلى الكتابة عن الإسلام ؟

نعود ـ الآن ـ للإجابة عن هذه الأسئلة التي طرحناها في نهاية فقرة (طه حسين كاتب إسلامي)، وكنا أجّلنا الإجابة عنها إلى أن ننتهي من دراسة إسلامياته .

نجيب فنقول : لم يتغيّر طه حسين في نهاية الأربعينيات ، وإنما بقي هو نفس طه حسين الثلاثينيات وما قبلها : معادياً للدِّين ، محارباً له ، مفتوناً بالحضارة الغربية .

فقد كتب في السيرة هادفاً الفن القصصي فقط باغياً إرضاء ميول السذاجة والخيال عند الناس، مسوياً بينها وبين الأساطير!!

كتب الفتنة الكبرى مشككاً في حُكم الخلافة الإسلامية الأول وفي إمكانية إستمراره ، ناعياً على الإسلام افتقاره للنظام المكتوب ، مُعلناً انبثاق مذهب جديد في

السلطان يقوم على الجبر والقهر ، مبيناً رضوخ المسلمين وارتضاءهم للمذهب الجديد ، زاعماً إنسحاب الإسلام من مختلف قطاعات الحياة وسيطرة المال والأثرة ! !

كتب كل هذا : قاصداً أن يقنع المسلمين بأن الحكومة الإسلامية لا وجود لها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ،وإن طبقت فلأمد محدود لا يتجاوز حياة عمر ، ويعود نجاح التطبيق إلى إمكانات عمر الفردية فقط ! !

كتب كل هذا : هادفاً أن يُلطخ صورة الخلافة الوضاءة كي يصرف أنظار المسلمين عنها ، وأن يثني عزائمهم عن السعي إليها بتهويل الصعوبات ، فالأمر يحتاج إلى أولي عزم . وأين أولو العزم من الناس ؟!

ما هي الأسباب التي دفعته إلى الكتابة عن الإسلام ؟

يكمن السبب في الوضع الداخلي لمصر ، فقد بلغ المدّ الإسلامي فيها ذُروته العظمى في نهاية الأربعينيات وأوائل الخمسينيات باغياً إعادة تطبيق الإسلام في مجال الحُكم ، وإرجاع الخلافة الإسلامية إلى الوجود . وقد كتب طه ـ في اللحظة نفسها أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينيات ـ كي يُشكك هذا المدّ بعدم جدوى محاولته بالاستناد إلى تاريخ المسلمين نفسه .

نقد كتاب
«مِن بعيد»

غازي التوبة

« من بعيد »[1]

بقلم الأستاذ : غازي التوبة

أصدر طه حسين كتاب (من بعيد) عام ١٩٣٥ . وقد نشر فيه بحثاً تحت عنوان (بين العلم والدين) . وقد كانت مناسبة بحثه هذا الضجتين اللتين نشبتا بعيد نشر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق عام ١٩٢٥ ، وكتاب (في الشعر الجاهلي) عام ١٩٢٦ ، واللتين إنتهتا إلى إعدام الكتابين ، وإلى طرد مؤلفيهما ، الأول : من القضاء الشرعي وتجريده من لقب عالم أزهري ، والثاني : من الجامعة المصرية .

كتب طه حسين مقالة مفلسفاً إلحاده وتخبط زميله ، معزياً نفسه بالصراع بين القديم والجديد وبأنه على رأس المجددين ، شاتماً السواد الأعظم من الشعب المصري ، واصماً إياه بالتأخر والجهل ، واضعاً نفسه في مرتبة الأنبياء المضطهدين : إذ له بهم قدوة وإمامة .

يبدأ مقاله فيشير إلى اهتمام الناس بالخصومة بين العلم والدين إثر نشر الكتابين (الإسلام وأصول الحكم ، وفي الشعر الجاهلي) فيقول في كتابه (من بعيد) ، (ص ٢٠٢) : « الناس معنيون في هذه الأيام عندنا بالخصومة بين العلم والدين ، وقد بدأت عنايتهم بهذه الخصومة تشتد منذ السنة الماضية ، حين ظهر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) فنهض له رجال ينكرون ويكفرون صاحبه ، ويستعدون عليه السلطان السياسي ، وزادت هذه العناية شدة حين ظهر في هذه

(١) الفكر الإسلامي المعاصر : (١٥٠ - ١٥٧)

السنة كتاب (في الشعر الجاهلي) فنهض له رجال الدين أيضاً ينكرونه ويكفرون صاحبه . ويستعدون عليه السلطان السياسي » .

يرجع طه حسين الثورة على الكتابين إلى الخصومة بين العلم والدين ، لا إلى ما في كتابه من كفر بالدين ، وتهجم على قيم المجتمع ، ومغالطة للبديهات العلمية . وإلى ما في كتاب زميله من تحوير للحقائق ، وازورار عن الحق ، وافتئات عليه . فيقول في الصفحة السابقة نفسها : والحق إن هذه الخصومة بين العلم والدين ـ كما قلت في غير هذا الموضع ـ قديمة يرجع عهدها إلى أول الحياة العقلية الفلسفية . والحق أيضاً إن هذه الخصومة بين الدين والعلم ستظل قوية متصلة ما قام العلم وما قام الدين لأن الخلاف كما سنرى بينهما أساسي جوهري لا سبيل إلى إزالته ولا إلى تخفيفه إلا إذا استطاع كل واحد منهما أن ينسى صاحبه نسياناً تاماً ، ويعرض عنه أعراضاً مطلقاً .

يشير طه حسين إلى أول خصومة بين العلم والدين بشرب سقراط للسُّم الزعاف ، يعلق على هذه الحادثة فيقول (ص : ٢٠٥) : من ذلك الوقت أصبحت الخصومة بين العقل والدين ، أو قل بين العلم والدين أمراً لا مندوحة عنه : يخاف الدين كل فلسفة وكل علم ، ويرتاب العلم بكل دين .

يبرر طه الصراع بين العلم والدين في الفقرة الثانية من مقاله : بأن الدين حظ الكثرة من المجتمع ، والعلم حظ القلة منه . ويعلل عنف الصراع : بأنه حقد الرعاع على الإمتياز فيقول (ص : ٢٠٧) : ومع هذا كله فقد اختصم هذا الدين الساذج اليسير مع الفلسفة وانتهت الخصومة بموت سقراط . ذلك لأن الخلاف بين العلم والدين لا يستمد قدرته وعنفه من الفرق بين جوهري العلم والدين فحسب ، وإنما يستمد قوته وعنفه من مصدر آخر ، هو أن الدين حظ الكثرة ، والعلم حظ القلة ، فسواد الناس مؤمن ديان ، مهما يختلف العصر والطور والمكان ، والعلماء أو المفلسفون قلة دائماً فليس غريباً أن تظهر الخصومة قوية عنيفة بين هذه القلة الشاذة التي يسميها العلماء أو الفلاسفة والتي تفكر على نحو خاص لم يألفه الناس » .

ويؤكد ثانية حقد سواد الناس على الإمتياز فيقول (ص ٢٠٨) « نقول إذا كان التفوق يمسّ هذا الأصل الذي هو الدين فخليق بالسواد أن يبغضه ويثور به وينكل بالمتوفقين تنكيلاً متى استطاع إلى ذلك سبيلاً » .

وكأني بطه حسين يريد أن يقول : « إنني كسقراط من القلة النادرة الشاذة المرموقة ، فليس عجباً أن يثور علي سواد الدهماء ، ورعاع المجتمع المصري الذي يتعلق بأوهام الدين ، وترهات الغيب ، فهم لا يعقلون ، وإياي يحسدون . ولكنهم ـ ويا للأسف ـ لم يسقوه السم الزعاف كما أسقيه سقراط ، فألف شكر لحراب إنكلترا التي كانت تحميه ، وتحمي النظام الذي تبجح في ظله .

ثم يستعرض في الفقرتين الثالثة والرابعة تاريخ الصراع بين العلم والدين عند اليونان والرومان والمسيحية في القرون الوسطى والعصور الحديثة .

يؤمن طه حسين بأن الصراع بين العلم والدين في حقيقته صراع بين الجمود والتطور ، بين القديم والجديد ، يوضح هذا فيقول (ص: ١٧) : « فالخصومة في حقيقة الأمر ليست بين العلم والدين ، ولا بين الوثنية واليهودية والنصرانية والإسلام ، ولا هي بين دين ودين ، وإنما هي أعم من ذلك وأيسر ، هي بين القديم والجديد ، هي بين السكون والحركة ، هي بين الجمود والتطور » .

ويستقرىء سير التاريخ ، فيصل إلى تشابه تاريخي الإسلام والمسيحية ، في موقفهما من العلم . فيقول (ص : ٢١٨) : : « نحب أن تفكر في الأمر تفكيراً علمياً مجرداً من الهوى مبرءاً من الغرض ، لا يتأثر بالعصبية الجنسية ولا الدينية فسترى أن الأمر قد سار في الشرق والغرب على أسلوب واحد ، فلم يكد الإسلام ينتصر ويستقر في الأرض ويظفر بالسلطان السياسي ويفرغ من الحرب والفتوح حتى كره ملوكه الجدد . وأكثروا الحرص على القديم ، واستغلوا ميل العامة إلى القديم وحرصهم عليه ، واتخذوا هذا الإستغلال وسيلة إلى الحكم والتسلط فأنكروا كل جديد وحاربوه . وعلى هذا النحو سارت المسيحية في أوروبا ،وكان لأصحاب الدينين صرعى في الشرق والغرب . وكان العلم موضع الإضطهاد في هذين

القطرين من الأرض . ولكن هنا وقفة يجب أن نقفها لنكون منصفين ، فالحق إنه ليس في طبيعة الإسلام ولا في طبيعة المسيحية ما يدعو إلى الإضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ، ولا إلى مناهضة الرأي ، ولك أن تبحث وتمعن في البحث ، فلن تجد نصاً أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته ، أو يأخذ العقل بالجمود أو يحظر عليه حرية الرأي قليلاً أو كثيراً . ليس في الإسلام ولا في المسيحية إذاً ما يدعو إلى مناهضة حرية الرأي ».

لكنه يحس بثقل حديثه السابق على القارىء ، بمبالغته في الأحكام الخاصة بالاسلام ، وبمغالطته لحقائق التاريخ الإسلامي الناصعة . فيستدرك في الصفحة التالية مخففاً من وطأة كلامه فيقول (ص : ٢١٩) : « وشيء آخر لا بد من إثباته لنكون منصفين ، هو أن تبعات المسيحيين أثقل من تبعات المسلمين في مناهضة العلم ومحاربة الرأي ، فأنت تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين . الذين أوذوا في البلاد الإسلامية ، وأنت تستطيع أن تلاحظ أنهم قليلون جداً ، وأن تلاحظ أنهم لم يلقوا من الأذى إلا قليلاً . ولكنك تستطيع أن تعد العلماء والمفكرين الذين أوذوا في ظل المسيحية فستراهم كثيرين جداً ، وسترى أنهم لقوا من الأذى ألواناً منكرة أخفها السجن ، وأقساها الموت والعذاب » .

غالط طه حسين ودسَّ ـ كعادته ـ وإن حاول دائماً أن يخفف من شدة مغالطاته ودسِّه بالتأني والحذر الشديدين في تقديم أفكاره ، وبالإستدراكات المستمرة .

فحقيقة الأمر ان الشرق والغرب لم ينهجا أسلوباً واحداً ، وتلك صفحات التاريخ مفتوحة بين يدينا تلهج وتصرخ بأنه حينما كان دين إسلامي كان فكر ومفكرون وأية تربة رمى فيها بذوره كان علم وعلماء ، وأي أرض أرخى فيها مرساته كان هدى وضياء . وأنه لأمر نادر وشاذ وليس قليلاً ـ كما قال طه حسين ـ أن ترى إضطهاداً للعلم والعلماء في التاريخ الإسلامي ، وأن عدة حوادث لا تعطي حكماً تاريخياً ، ولا تُشكِّل قانوناً سائراً . عكس المسيحية فإنه لوضع شاذ أن ترى انسجاماً وتوافقاً بين اللاهوت والعقل ، وأنه لأمر طبيعي أن ترى صراعاً بين رجال الدين

ورجال العلم . وقد طال أمد الصراع حتى فاق طاقة النفس البشرية في الصبر والاحتمال ، فانفجرت في نهاية القرن الثامن عشر محطمة كل القيم ، ملطخة كل المقدسات ، مبتعدة عن كل دين .

لماذا كان توافق بين الدين والعلم في المجتمع الإسلامي ؟ أو قل لماذا كان اضطهاد العقل محدوداً في ظل الحكم الإسلامي ؟ طه حسين يجيب عن هذا السؤال : فيذكر أسباباً مبهمة لهذا التوافق منها إن الإسلام حر لا يمنح السلطة السياسية سبيلاً على الناس ، وإن الحكومة كانت عربية خالصة في البداية والعربي حر بطبعه ، فلما كان عصر بني العباس وتسلطت على المسلمين حكومة عربية في ظاهر الأمر ، أعجمية في حقيقته ظهرت الخصومة بين العلم والدين .

يقترب طه حسين من الحقيقة أحياناً ، لكن ضلال نفسه يأخذه بعيداً عنها . نسأل ثانية : لماذا كان توافق بين الدين والعلم في المجتمع الإسلامي ؟ لماذا كنا نرى العالم في الجغرافيا والفلك والطبيعة والرياضيات عالماً في الدين أيضاً ؟ لماذا كان الرجلان رجلاً واحداً . . ؟ نفساً واحدة ، ذاتاً واحدة ، ولماذا كان تصادم بين رجال الدين ورجال العلم في المجتمع المسيحي ؟ لماذا كانت هذه السلسلة الطويلة من عذابات الحرق والسجن والقتل في تاريخه ؟

الجواب : يكمن في طبيعة الدينين الإسلام والمسيحية فقطوليس في أي عامل خارجي . الإسلام يرتكز على العقل ، يركن إليه ، يحضّ على التفكير ، يلفت النظر إلى روائع الكون ، يأمر باستغلال الطبيعة ، يوازن بين العمل والعبادة . وقد فعلت هذه التوجيهات في المجتمع الإسلامي الأول فاستوعب علوم وتراث البلاد المفتوحة ، وصبغها بوحي عقيدته ، وقولبها ضمن منظوراته الفكرية ، ونمّاها حتى كونها خلقاً آخر جديداً .

تابع طه حسين في الفقرتين السادسة والسابعة من مقاله تسجيله لتاريخ الصدام بين الدين والعلم ، فيشير إلى أن العلم قد إضطهد الدين في العصر الحديث ، وسقط شهداء الدين في ساحة المعركة ، كما سقط شهداء العلم من قبل

فيقول (ص : ٢٢٥) : « وهنا إنعكست الآية وأثم العلم والفلسفة أو قل أثم أصحاب العلم والفلسفة ، كما أثم أصحاب الدين من قبل ، فاضطهد الدين إضطهاداً شديداً ، ولقي رجال الدين ضروباً من الفتن والمحن ، وكان الذين يفتنون رجال الدين ويمتحنونهم هم أولئك الذين كانوا متأثرين بفلسفة (فولتير) و (مونتيسكيو) و (جان جاك روسو) و (ديدرو) وغيرهم[1] .

ثم يعلل الأسباب الداخلية التي تؤدي إلى تصادم العلم بالدين فيقول (ص : ٢٢٧) : « إن الخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن العلم والدين لا يتصلان بملكة واحدة من ملكات الانسان ، وإنما يتصل أحدهما بالشعور ، ويتصل الآخر بالعقل ، يتأثر أحدهما بالخيال ويستأثر بالعواطف ، ولا يتأثر الآخر بالخيال إلا بمقدار ، ولا يعني بالعاطفة إلا من حيث هي موضوع لدرسه وتحليله ، والخصومة بين الدين والعلم أساسية جوهرية لأن الدين اسمى من العلم ، ولأنه كان في العصور القديمة كل شيء : كان ديناً وكان علماً ، وأبى الدين أن يُذعن لهذا التغيير ، وأبى العلم أن ينزل عما ظفر من الثمرات . فلن يتفقا ـ إلا إذا جحد أحدهما شخصيته كما قلت في غير هذا المكان .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن الدين يرى لنفسه الثبات والاستقرار ، ولأن العلم يرى لنفسه التغير[2] والتجدد ، فلا يمكن أن يتفقا إلا أن ينزل أحدهما عن شخصيته .

والخصومة بين العلم والدين أساسية جوهرية لأن أحدهما عظيم جليل واسع المدى بعيد الأمد لا حد له ولا انتهاء لموضوعه ، ولأن الآخر متواضع ضئيل محدود المطامع بطيء الخطى يقدم ثم لا يكره أن يحجم ، ويمضي ثم لا يكره أن يرتد ويبني

(١) بل كانوا متأثرين بالإسلام ـ كما تأثر بهذا الدين العظيم : المصلح الديني لوثر بسبب إتصال الغرب بالإسلام عن طريق الأندلس (م. م)

(٢) إن العلم يخضع للقوانين الطبيعية الإلهية ، التي هي ثابتة منذ القدم ولا يستطيع أحد الإعتراض على ثباتها فلم يختصّ الدّين وحده في ثباته ؟ !

ومن أجل هذا الثبات يتفرغ العلماء وتخصص الجامعات لدراسة هذه القوانين الطبيعية من أجل تطبيقها .

ثم لا يتحرج من الهدم ، فلا يمكن أن يتفقا إلا ان ينزل أحدهما عن شخصيته »

ما هو السبيل لإزالة الخصومة ؟ يجيب طه : السبيل هو إقامة حكومة لا دينية تعتمد فكرة الوطنية فيقول (ص ٢٣٠) : ذلك لأن فكرة الوطنية وما يتصل بها من المنافع الاقتصادية والسياسية الخالصة قامت الآن في تكوين الدول وتدبير سياستها مقام فكرة الدين أو مقام هذه النظريات الفلسفية الميتافيزيقية التي كانت تقوم عليها الحكومة من قبل » ويستشهد بالحكومات الحديثة فيقول (ص ٢٣١) : « وإنما تقوم الحكومة الحديثة في أقطار الأرض المتحضرة الآن على أساس سياسي خالص من المنفعة الإقتصادية والمدنية لا أكثر ولا أقل . وقد فرغ الناس من هذا وأصبحوا لا يفكرون في أن الحكومة تقوم على الدين [١] أو لا تقوم عليه »

والخلاصة : يرى طه حسين حتمية الصراع [١] بين العلم والدين ، واستحالة التوفيق بينهما ، ويحل هذه المعضلة بقيام سلطة لا دينية تدور حول فكرة الوطنية .

(١) الحقيقة أن لا صراع بين العلم والدين في الإسلام ، وقد صنف الإمام إبن تيمية الآثار العديدة في توافق صحيح المنقول مع صريح المعقول وقد سبق الإسلام العلم في آيات عديدة . (م . م) .

مقالات انتقادية

أهم معركة خاضها زكي مبارك مع طه حسين[1]

بقلم : الدكتور زكي مبارك

« ساير الدكتور طه حسين الأوروبيين في القول بأن الثقافة الأوروبية هي مصدر الثقافة الإنسانية . وأن الناس في الشرق والغرب وفي جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

والحق أن للدكتور طه حسين عذراً في المسايرة . فقد قرأ كتباً ترى هذا الرأي . ولو تريث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك الكتب بالتلخيص وهي الكتب التي ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية . وأن فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء » .

قال الدكتور زكي مبارك :

« قال طه حسين » : ان الأدب الذي يمثل المركز الأول بين الآداب القديمة هو الأدب اليوناني ثم يجيء الأدب العربي .

ومن المجاملة المخدرة أن يعلن الدكتور طه أن الأدب العربي أقوى من الأدب الفارسي واللاتيني .

الادب اليوناني في المكان الاول ، هذا صحيح . ولكن ما رأي الدكتور طه أن الأدب العربي له المكان الأول أيضا .

الأدب اليوناني له المكان الأول من الناحية العاطفية والتمثيلية فإنه في هذا الباب يجتاز امتيازاً صريحاً لا يقبل الجدل ولا النزاع . والأدب العربي له المكان الاول من الناحية الدينية . فإن البلاغة الدينية باب هام من أبواب البلاغات في

(١) عن كتاب زكي مبارك للأستاذ أنور الجندي بقليل من التصرف والاختصار .

الأدب القديم والحديث . فقد شغل ثلثمائة مليون[1] في العالم شغلا موصولا بأروع أثر في البلاغة الدينية ممثلا في القرآن . . .

الأدب العربي يسكت عنه الأوروبيون عامدين لأنه يمثل الحضارة الاسلامية . وهي حضارة كانت تبغي اوروبا هدمها منذ أزمان . ولأنه من جهة ثانية مصبوغ في أكثر موضوعاته بصبغة الجد الرصين ، وأوروبا فُتنت بما في الأدب اليوناني من نزق وطيش وخلاعة ومجون . بدليل أن أكبر شاعر شرقي راج أدبه في أوروبا هو « عمر بن الخيام » لأنه شاعر اللذة والقلق والارتياب .

ويضاف الى هذا أن يقظة أوروبا الحديثة اتفق وجودها في أزمان كانت فيها الأمة العربية منحدرة الى مهاوي الضعف والخمول . فلم تستطع أن تقدم أدبها الى العالم تقديماً حسناً يصور ما كان له من روعة وجمال ، وقال زكي مبارك : « ان العرب ما زالوا أقوياء يخشى شرهم . وذكرياتهم الأدبية والعلمية والتشريعية مقرونة بالإسلام . وكل إحياء لذكريات العرب خليق بأنه يثير الزهو والكبرياء في نفوس الأمم الاسلامية وهم يعرفون ما صنعت تلك الأمم في الأيام الخوالي .

آثار العرب ترجع في صميمها الى التشريع . وهو من المعاني الجافة[2] التي لا يُقبل عليها غير أهل الجد من كبار الباحثين . وليست كذلك آثار اليونان فإن معظمها يرجع في جوهره الى الأدب الصريح الذي يهيج الأهواء ويثير الشهوات ، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشهوات واللذات الحسية أخذها الأوروبيون عن اليونان . . إن الغرب يمجد ذكريات اليونان ولا يمجد ذكريات العرب » .

وقد عاد زكي مبارك الى تناول قضية اليونان عندما عرض لكتاب قادة الفكر للدكتور طه فقال : كما ذكرنا من قبل :

« ساير الدكتور طه الباحثين الأوروبيين في القول بأن الثقافة الأوروبية هي

---

(١) اصبحوا اليوم ألف مليون .

(٢) هكذا حكم غير منصف وسطحي في دراسة القرآن والسنة دراسة بغير تدبر وتذوق وعاطفة ، ولا أدري كيف يقول زكي مبارك هذا القول وهو الأديب الذي أطلع على دهشة بلغاء العرب في الجاهلية من علوبة القرآن وبلاغته ورقته مما اطلع عليه حتى الطلبة المبتدئون .

مصدر الثقافة الانسانية وأن الناس في الشرق والغرب ، وفي جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

والحق أن للدكتور طه عذرا في هذه المسايرة فقد قرأ كتباً ترى هذا الرأي . ولو أنه تريّث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك بالتلخيص وهي الكتب التي ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية وأن فلاسفة اليونان لم يكونوا الا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء .

قال زكي مبارك في مقاله : « إن إيمان الدكتور طه بهذا الرأي يرجع الى تاريخ قديم . ففي نوفمبر ١٩١٩ قدّم عبد الخالق ثروت (باشا) الدكتور طه الى الجمهور في قاعة المحاضرات بالجامعة المصرية . فألقى المحاضرة الأولى . وقال فيها :

« إنـه عزم على احياء التراث اليوناني ، لأنه يؤمن ايماناً جازما بأن مرجع الفكر في الشرق والغرب إلى القدماء من مفكري اليونان » .

طه حسين : ان عقلية مصر عقلية يونانية وان الإسلام لم يغير تلك العقلية .

زكي مبارك : ان مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً . وهي مؤمنة بالعقيدة الإسلامية .

أما معركة النثر الفني ، فإنه عندما أصدر مبارك النثر الفني ، استقبله طه حسين بفتور بالغ . فقد سجل النثر الفني عبارة عن طه حسين مؤداها « ان هذا الرجل تربطني به ألوف الذكريات ، ترجع بعضها الى العهد الذي كنت فيه مدرساً في الجامعة المصرية القديمة . يوم كان يصطنع العدل الذي يلبس ثوب الظلم في امتحان الطلاب . وأرق ما يتصل بيننا من الذكريات ما وقع في ربيع سنة ١٩٢٦ ، يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلي ، وثارت الأمة والحكومة والبرلمان . وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف يترقب ، وحاسد يتربص . وكنت وحدي صديقه الذي لا يهاب . وزميله الذي لا يخون . ولكن حماستي للفكرة التي أدافع عنها ، وغرام

الدكتور طه بتسفيهها في رسائله وأحاديثه ومحاضراته ، كانا مما حملني على مقاومته في عنف وقوة ، حتى ليحسب القارىء أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السُّم الزعاف ، حين عرضت لدحض آرائه في فصول هذا الكتاب » . ثم صور زكي مبارك القضية موضع الخلاف ، فقال : « هناك رأي مُثقل بأوزار الخطأ والضلال وهو رأي مسيو مرسيه ومن شايعه كالدكتور طه حسين . وذلك الرأي يقضي بأن العرب في الجاهلية كانوا يعيشون عيشة أولية . والحياة الأولية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل ، وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال .

وهذا الرأي أعلنه مسيو مرسيه في المحاضرة التي افتتح بها محاضراته في مدرسة اللغات الشرقية في باريس منذ أعوام . ثم أذاعه مطبوعاً في كراسة خاصة . وقد اختطف الدكتور طه هذا الرأي ، وأذاعه في دروسه بالجامعة المصرية ثم أثبته في كتاب (المجمل) » .

هذا جملة ما أورده زكي مبارك في كتاب النثر الفني عن رأي طه حسين . فلما صدر الكتاب وتجاهله طه حسين ، بدأ هجوم مبارك عليه على هذه الصورة .

« الدكتور طه لا يقدر على الانصاف . وهو لا ينصف حين ينصف إلا لحاجة في النفس . وقد تقطعت بيني وبينه الأسباب منذ اعتزمت كشف ما تورط فيه من الأخطاء . والرجل لا يرضى الا عمن يؤمنون بأن باطله اشرف من الحق . وأن خطأه أفضل من الصواب » .

« أنا ما أسأت اليك بل أحسنت إليك بعض الاحسان ، حين دللت القراء على أنك لم تبتكر ما تورطت فيه من الأخطاء . وانما هي أخطاء جماعة من المستشرقين . فتبعتهم بلا روية . فكان عليهم إثم السنة السيئة وكان عليك إثم التقليد .

ولم يلبث زكي مبارك أن عاد إلى العراك ، فهاجم « طه حسين » بعد أن خرج من الجامعة فقال[1] :

---

(١) البلاغ : ٢٣ نوفمبر ١٩٣٤ مقال : « طه حسين بين البغي والعقوق » كتاب البدائع جـ ٢ ص ١٧٣ .

أعلن الدكتور طه حسين بعد إخراج الشعر الجاهلي نداء قال فيه : أشهد أني أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . .

أنت تؤمن بالّله وكتبه يا دكتور طه وأنت تكذب التوراة والقرآن اعتماداً على رأي خاطىء ، سرقته من أحد المبشرين ؟! . . .

« أنت لم تترك حزباً الا خدمته . ولا جريدة إلا توددت اليها بعد عديد من الرسائل الطوال » .

« ذهبت إلى باريس على نفقة الجامعة ، ومضيت أنا متوكلاً على اللّه . . ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون الا نسخاً من آراء مسيو كازانوافا . . واتصلت أنا بمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائي فرضاً » .

« وقف مسيو ماسنيون يوم أديت امتحان الدكتوراه فقال : إنني حين أقرأ بحث طه حسين أقول (هذه بضاعتنا ردت الينا) . وحين أقرأ ابحاث زكي مبارك أشعر بأني أواجه شخصية جديدة » .

« مضيت فانتهبت آراء المستشرقين . وتوغلت فسرقت حجج المبشرين . وكان نصيبك ذلك التقرير الذي دمغتك به النيابة العامة . وأنت تعلم أنه ليس لك رأي واحد وصلت اليه بعد جهد وبحث . . .

« كنت لوحة اعلانات لا تذيع الرأي الا لتغيظ الجمهور ، ولتصبح حديث الناس في الاندية والمجتمعات .

« أنت تعرف اني لم أنل ألقاب الجامعة « المصرية » بلا جهاد . وأنت اسقطتني في امتحان الليسانس مرتين . واشتركت في امتحان الدكتوراه الذي أديته أول مرة مع أنك لم تكن عضواً في لجنة الامتحان . وكان لخصومتك الصورية تأثير في الدكتوراه ـ التي حظيت بها للمرة الثالثة ـ فلم أصل اليها الا بعد جهاد سبع سنين .

ثم أعاد الهجوم على طه حسين في البلاغ في (١٥ أغسطس ١٩٣٥) « أما الاحقاد التي تتلظى في صدر طه حسين فستقضي عليه شر قضاء ، وتنكل به تنكيلا . ولن تدوم له أيام الطغيان . ولن يبقى له فلان وفلان » والكرسي الذي يجلس عليه في الجامعة هو أقل ما أنتظره من الجزاء في المستقبل القريب . ولقد رسم زكي مبارك قصة إخراجه من الجامعة في حديث طويل : مؤداه :

« إني بدأت أناوش الدكتور طه حسين منذ سنين ، حين تبينت أنه كالطبل الأجوف ، وأنه لا يعرف من تاريخ الأدب العربي الا قشوراً عديمة المحصول . وكنت كلما هاجمته تخاذل وضعف وخشي عاقبة النضال . ثم اتفق أني عينت في الجامعة المصرية فبدا له أن يتشجع ويناوشني ، ظناً منه أني أخاف المناوشات ، احتفاظاً بمنصبي في الجامعة . ودفعاً لمغبات القتال . أمهلته قليلاً . وتركته يصول في مناوشتي ويجول . وكذلك أمليت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة ، يوم عُين أحمد نجيب الهلالي ، وزيراً للمعارف . وكان يعرف الصلة التي بينه وبين نجيب الهلالي . وفي هذا ما يقوي المحالفة بين رجلين لهما خصم لا سند له بين الأحزاب ولا عم له في الحكومة ولا خال .

في تلك الأيام أراد طه حسين أن يناوشني . وكان يثق بأني سأسكت فلا أجيب . ورأى فريق من (زملائي) في الجامعة أن أتسامح ، مراعاة للظروف فأقسمت لأجعلنه مثلاً في الآخرين . وكذلك كتبت مقال « طه حسين بين البغي والعقوق » ذلك المقال الذي أبكى طه حسين بالدمع السخين . وكان يظن أنه لن يعرف البكاء .

وعاد طه حسين الى الجامعة في (زفة) لم يسمع بمثلها منذ كان يسكن في كفر الطماعين . وظن الناس أني سألاينه وأداريه . ولكن هيهات فقد تجاهلت عودته سبعة أيام إلى أن جمع بيننا مجلس اللغة العربية .

في تلك الأثناء أراد الشيخ أمين الخولي أن يصلح بيننا . . وكنت أحسب أن الصلح لن يزيد على المصافحة وتبادل التحيات . ولكني فوجئت مفاجأة لم تخطر على بال . فإن الاستاذ أمين الخولي انتظر حتى اجتمع بعض الزملاء ثم نهض فقال :

هذه أول جلسة يحضرها الدكتور طه حسين بعد عودته . وأنا اقترح أن تلقى كلمة ترحيب . وأفضل أن يلقيها الدكتور زكي مبارك لأن بينهما أشياء يجب أن تزول .

وكان موقفاً في غاية الحرج . ولكني تحفظت إذ كنت أعرف أن العداوة التي بيني وبين الدكتور طه يصعب أن تزول . ومن الحزم ألا أقول كلاماً ينطوي على تودد أو ترفق فوقفت ، وقلت :

« اني أرحب بعودة الدكتور طه . وقد (زاملته) من قبل ثلاث سنين ، وكنت من قبل من تلاميذه الأوفياء . والذي وقع بيني وبينه لم يكن فيه شيء خارج الا المقال الذي نشرته في البلاغ ، وهو مقال أعرف أن فيه شيئاً من الشطط، ولكني لا أعتذر عنه، لأنه من بعض ما علّمني. ومن الخير أن يتناسى ما فات لأن مصلحة العمل توجب الوفاق» .

وقد ابتسم الأساتذة حين ذكرت أن الشطط كان من بعض ما علمني ، وعدوها خطبة لبقة فيها ترضية وفيها احتراس .

أما موقفي من جلسات قسم اللغة العربية فكان دائماً موقف المعارضة الصريحة لنزعات طه حسين . وكان لا يسلم مني الا بأخذ الأصوات . وكان أساتذة اللغة العربية لا يرون فائدة في معارضته إذ أنهم كانوا يعرفون أن كل شيء مصيره الى هواه بفضل الوسائل التي يعرفها الجميع .

لا أنكر أني أسرفت . ولكن الأيام أرتني أن الحزم كان أوجب . ولولاه ما استطعت الآن أن أناقش من يزعم أني قابلت الدكتور طه حسين بالترحيب . وانه مع ذلك لم ينس ما كويت به جنبيه من قوارع التثريب ولم يغفر ما كشفت من سرقاته . وكان الناس يحسبونه من المبدعين .

وفي أوائل شهر مايو دعاني الدكتور منصور فهمي الى مكتبه . وقال : أرسلت ادارة الجامعة تسأل عن تجديد العقد . والنظام يقضي بأخذ رأي الدكتور طه حسين فاذهب يا بُني وصفِّ ما بينك وبينه وسأحفظ الخطاب حتى يتم بينكما الصفاء فأجبت الدكتور منصورا بما نصه :

« أنا على أتم استعداد لتصفية ما بيني وبين الدكتور طه . ولكني لا أفعل ذلك

في هذه الأيام . ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين ، لقبلت . أما الآن فلا تسمح نفسي بمصافحة الدكتور طه . وأنا أعلم أن لذلك دافعاً من الغرض ، ومع ذلك ما الذي يزعجك يا سيدي العميد ؟ . .

أتظن أن الدكتور طه ينتهز هذه الفرصة ويتشفى مني . إنه أعقل من أن يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح » .

فابتسم الدكتور منصور ابتسامة مرة . وقال : « أنت يا بني تسرف في حسن الظن بالناس » .

ولكن ما الذي حدث بعد ذلك ؟ : لقد اجترأ زكي مبارك على طه حسين في أدبه فحاربه طه في رزقه . وقال حين طلب اليه تجديد عقده : « أنا لم أستشر في تعيينه فلا أستشار في تجديد عقده » .

وكتب المازني مقالا قال فيه : « إني لأحدث نفسي أحياناً بأني لو كنت أقول الشعر في هذه الأيام لرثيت طه حسين . فإنه يخيل إلي أنه قد مات . طه حسين الذي عرفته وأحببته وأكبرته . وجاء غيره الذي أنكره » . كما كتب المازني يعاتب الدكتور « طه حسين » على فصل زكي مبارك من الجامعة وقال :«إن الدكتور طه حسين أصبح ممن يملكون اشباع البطون وإجاعتها وانه صار يضرب اللقمة التي ترتفع بها اليد الى الفم ، ويطيرها ، فتسقط على الأرض فتفوز بها الكلاب ويحرمها الانسان »

وقال زكي مبارك :«ليس عيباً أن يجوع المرء وإنما العيب أن يكسب الانسان الرزق على حساب المروءة والرجولة والشرف والكرامة » .

« الذي بيننا لم يكن خلافاً في الرأي . وإنما هو قتال عنيف بين شخصين . فالدكتور طه يرى أنني كنت تلميذه . ومن واجب التلميذ فيما يزعم ألا يخالف الأستاذ . أما أنا فأرى الدكتور طه رجلاً قليل العلم والمعرفة بالأدب العربي . وأراه استمرأ السطو على آراء المستشرقين . وأراه في حياته العلمية نموذجاً للفوضى والقلق والاضطراب . فقد يقولون وكيف سكت زكي مبارك عن نشر عيوب طه حسين ، وهو يصاحبه منذ خمسة عشر عاماً .

وأجيب بأن الدكتور طه ابتدأ التدريس في الجامعة المصرية قبل أن نقدم

الدراسات الأدبية . فكان منذ سنين مستور العيوب . على أن الخواص يعرفون أنني بدأت أعارضه منذ سنة ١٩٢٧ حين اطلعت على عجزه الفاضح ، وعرفت أنه يعيش من سرقة آراء الأدباء والعلماء .

وأنتم تعرفون أنني رجل صريح لم تستطع الأيام أن تروضني على المجاملة والمدارة . فلم يكن خافياً أن يعرف الدكتور طه أنني لا أحترمه ولا أحترم مسالكه الأدبية . ولا أحترم تهالكه الفاحش على موائد الأحزاب وكذلك هدته غريزته إلى وجوب محاربتي في عملي في الجامعة المصرية . وساعده على ذلك ناس كنت شجاً في حلوقهم . وكان هو في أنفسهم مثال الخادم الأمين .

فإن الدكتور طه قد انتصر حين وجد من يساعدونه على إخراجي من الجامعة ، وليتذكر . من عاونوه على شفاء صدره أن انتصارهم ليس الا هزيمة شنعاء وسوف تعلمون .

« لقد انكشف أمر طه حسين حين أصدرت كتاب « النثر الفني » وقد بينت أغلاطه وسرقاته . وتحديته أن يدافع عن نفسه . فتخاذلت قواه ولم يملك الجواب . وعرف الأدباء في المشرق والمغرب أنه لا يملك شيئاً أصيلا . وأن مؤلفاته ليست الا هلاهيل انتزعها من كلام الناس وأن ما يدعيه من الآراء ليس إلا صوراً ملفقة انتزعها مما يقرأ ويسمع .

إن قلمي ليس إلاّ محنة صبها اللّه على طه حسين . ولعله انتقام من اللّه صوبه إلى صدر ذلك الشخص الذي اجترأ على التوراة والقرآن . واستطاع أن يقول في وقاحة (للتوراة أن تحدثنا . وللقرآن أن يحدثنا) كأن العلم لا يكون إلا حيث تقع مساقطهواه . أما التوراة والقرآن فهما ظنون في ظنون . طه حسين جاهل ، سبحان اللّه وكيف يكون جاهلاً وهو رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية ؟ مَن الذي وضع طه حسين في ذلك المنصب ؟ ان الذي وضعه فيه هو أحمد لطفي السيد مدير الجامعة المصرية . ولطفي السيد ليس حجة في الأدب العربي . ولم ير في حياته جامعة أوروبية حتى يعرف كيف تكون الدراسات العالية .

ان هذا الرجل لم يكن في جميع أدوار حياته العلمية الا مرتزقا يتلمس فتات

العلماء كلما نصبوا موائدهم . أو أوقدوا نارهم . ولم يستطع حتى اليوم أن يواجه تلاميذه ببحث أصيل ، يشعرهم بأنه من أهل الفكر والبيان .

أسارع فأقرر بأن طه حسين لم يكن يوماً من المفكرين . وإنما هو أديب قليل الفكر قليل الاطلاع . نشأ في أوقات لم يكن يعرف الناس فيها غير المجالات السياسية . وكان النقد فيها قليلا ، فتظاهر بالعلم ، فظنه القراء من العلماء .

لم يقرأ في حياته كتاباً كاملا ، وإنما قرأ فقرات من هنا ومن هناك ، وأخذ يشطح ذات اليمين وذات الشمال ، إلى أن اتصل بالمرحوم[1] ثروت باشا فوضعه بالجامعة المصرية .

ظل طول عمره ظلا من الظلال في عالم السياسة . ولم يترك حزباً الا خدمه ، ودبج في تقريظه ألواناً من الرسائل الطوال . والاتجاه السياسي صورة من الاتجاه العقلي . والرجل الذي يتردد بين المذاهب السياسية لا يبعد أن يعيش فريسة الحيرة بين المذاهب الأدبية . وقد اتفق للرجل الصالح جداً ، طه حسين ، أن يخدم قبل الحرب ثلاثة أحزاب : وأن يخدم بعد الحرب أربعة احزاب . وحظه من الثبات في المذاهب الأدبية يشبه حظه في الثبات على المذاهب السياسية : تردد هنا ، وحيرة هناك .

● كيف ينظر الحفدة إلى تاريخ الجامعة المصرية حين يعرفون أن أكبر أستاذ فيها ، لم تقم استاذيته إلا بفضل انتهاب آثار المستشرقين ؟

● ان أطفالي لو جاعوا لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه ؟

على أن من بين أسباب الخصومة بين طه حسين وزكي مبارك : ما أوضحه زكي مبارك :

● ترجم لأبي العلاء فأفلح[2] ، ثم ترجم للمتنبي فأخفق .

● أخرج الجزء الأول من الأيام فكان أعجوبة ثم فتر في الجزء الثاني .

---

(١) كلمة مرحوم لا تصح ، ومثلها المغفور له ، وكل ذلك تأله على الله سبحانه . والصحيح أن يقال رحمه الله وغفر له من باب الدعاء .

(١) يراجع كتاب ذكرى أبي العلاء في هذا الكتاب ليعلم انه أخفق أيضاً (م . م) .

● والجزء الأول من هامش السيرة سفر نفيس ، أما الجزء الثاني ، فهو أيضاً « سفر نفيس[1] » .

● كان استاذاً في الجامعة المصرية القديمة أستاذاً عظيماً أما في الجامعة المصرية الجديدة فهو استاذ هيوب يستر كسله الجميل بالتغاضي عن ضعف الطلاب .

● وأمره في الصداقة أعجب من العجب . فهو يؤاخيك ويصافيك ، الى أن تظن أنه قطعة من قلبك . ثم يتحول في مثل ومضة البرق الى عدو مبين .

على الرغم من ضعفه في الاضطلاع بتكاليف المواهب رجل كذاب لأنه معسول الحديث ولأنه قد يصدق في الحب وفي البغض ، إلا أنه تهديه حاسة النفع الى أن يعادي من يصادق ، ويصادق من يعادي ، كالذي صنع في طوافه بأركان الأحزاب .

(١) يراجع أيضاً الرد عليه في هذا الكتاب ليتضح للقارىء أنه خبيث وليس بنفيس . من ص . ١٣٧ الى ١٤٢.

زكي مبارك

١٣٠٨ - ١٣٨١هـ = ١٨٩١ - ١٩٥٢م .

اديب ، من كبار الكتاب المعاصرين امتاز باسلوب خاص فيما يكتب . له شعر جيد .

ولد في مصر ، وتعلم في الازهر ، ونال الدكتوراه من الجامعة المصرية ، ومن جامعة باريس .

وهو قليل العلم في الشريعة الاسلامية

كان غزير الانتاج من أبرز آثاره :

- النثر الفني في القرن الرابع
- التصوف الاسلامي
- ليلى المريضة بالعراق
- الاخلاق عند الغزالي
- حب ابن ابي ربيعة وشعره .
- عبقرية الشريف الرضي .

طه حسين في ميزان التشكيك
تحقيق شخصيته، بطريقته

بقلم: إبراهيم عبد القادر المازني

كنت جالساً ذات يوم مع صديقي الأستاذ العقاد فتذاكرنا « حديث الأربعاء » وصاحبه واستطردنا إلى طريقته في البحث و « التحقيق العلمي » ثم إلى سيرة مجنون ليلى . فقال الأستاذ العقاد :

عن أي شيء يسفر البحث يا ترى لو نسجنا على منوال الدكتور فيما كتبه عن المجنون ؟ إنه لا يبقى منه شيء كما لم يُبق هو شيئاً من المجنون .

والحقّ أقول أن مقترح العقاد راقني ، وأن نفسي ظلت تنازعني بعد ذلك أن أتولى إمضاء هذه الفكرة . فلبثت أتردد حتى لم أعد أستطيع المقاومة . وقد أقنعت نفسي بقولي لها : إن العقاد لا يضيره أن أسطو على فكرة أو أفكار له ، فإنه أغنى من ذلك وأنا أفقر من أن أدعها له وإن كنت أردّها بهذا الإعلان إليه .

وبعد هذا البيان الذي لا بد منه أقول : لنفرض أن مؤ رّخاً في القرن الثالث والعشرين مثلاً تناول حياة الدكتور بمثل « تمحيصه وتحقيقه العلمي » فهل تكون النتيجة إلا كما يأتي :

« يزعمون أن رجلاً اسمه الدكتور طه حسين عاش بمصر في أوليات القرن العشرين وأنه صاحب هذه الكتب المختلفة التي نسبوها إليه ونحلوه إياها . ولكن كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحملني على التردد بين رأيين : أحدهما ن يكون هناك أناس كثيرون يتسمون « طه حسين » وثـ نيهما. ن يكون هذا اسماً استعاره فرد

(١) مجلة الزهراء ج ١٠ م ٢ ـ نقلا عن «الميزان»

أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه . ذلك أنه ـ على ما روي ـ أزهري النشأة والأزهر هذه جامعة إسلامية كُبرى يلبس طلابها الجبة والقفطان والعمامة أو ما يُماثل ذلك من ثياب العامة في ذلك الوقت مما تجد نماذج منه في المتاحف ، فهو على هذا « شيخ » . ويقولون إنه كان في صدر أيامه هذه يكتب في صحيفة يومية إسمها (الجريدة) ولكني راجعت مجموعة هذه (الجريدة) في دار الكتب فألفيت أحد أدباء ذلك العصر واسمه « عبد الرحمن شكري » يسميه « طه أفندي حسين » في مقال له . وهو ما لا سبيل إلى حمله على أنه خطأ أو زلة قلم لأن الفرق بين الأفندي والشيخ كان من الوضوح والاختلاف في التعليم والنشأة والوسط والزي هو من الشدة بحيث لا يعقل أن يقع الخلط بينهما . فهل طه أفندي حسين هو عين الشيخ طه حسين ؟ ولا شك أن شكري كان يعرف المعني (بطه أفندي حسين) فقد كانت بينهما ملاحاة يدل على ذلك قصيدة نشرتها الجريدة بإمضاء « طه حسين » مطلعها :

قل لشكري فقد غلا وتمادى بعض ما أنت فيه يشفي الفؤادا

وأحر بمتهاجيين أن يعرف كل منهما صاحبه وأن لا يجعله (أفندياً) وهو شيخ . ومما هو خليق أن يضاعف الشك في أنهما شخص واحد أن الشعر لم يكن من أدوات الشيخ طه حسين وأن ناشري كتبه ومترجمي حياته لم ينسبوا إليه بيتاً واحداً .

ويُعزى إلى طه حسين ولا أدري أيهما ؟ مقال بل عدة مقالات في الجريدة يدعو فيها إلى تغيير الهجاء ورسم الكلمات . فهل كان الداعي إلى هذا والملحّ فيه الشيخ طه أو طه أفندي ؟ أما الشيخ طه فكان على ما يقولون مكفوف البصر وكان في ذلك الوقت لا يزال طالباً بالأزهر . ومن المعلوم أن طلبة الأزهر كانوا من (المحافظين) ومن أشد طبقات المتعلمين استنكاراً للبدع ونفوراً من أصحابها، زد على ذلك أنه ضرير . وما إهتمام الضرير برسم الكلمات ؟!! ما له ولهذا وهو لا يُعانيه ولا يكابد صعوباته ؟!! إن الإهتمام لذلك والتحمس له أحق بأن يكونا من رجل يُكابد الكتابة بنفسه لا من كفيف ما عليه إلا أن يملي . وهو على كل حال خاطر أولى به أن يجري ببال مبصر لا ضرير ، فالأرجح في الإحتمال والأقرب إلى المعقول أن هناك شخصين إسم كل منهما « طه حسين » وأحدهما أفندي مبصر يقول الشعر ويدعو إلى تغيير الهجاء والثاني شيخ ضرير يكتب في الأدب .

والآن من هو الدكتور طه حسين صاحب « حديث الأربعاء »؟ أهو الشيخ أم الأفندي ، أم هو لا هذا ولا ذاك بل شخص ثالث ؟؟ أما إنه أحدهما فإني أقطع بنفيه . وحسبك الفرق بين أسلوب هذين وأسلوب ثالثهما . وسننقل لك فقرات تريك من التباين ما لا يدع مجازاً للشك في أن الكتّاب عديدون :

قال الشيخ طه حسين في كتابه ذكرى أبي العلاء:«كان أبو العلاء يحرص أشد الحرص على أن يخفي نفسه على القارىء في بعض رسائله ولكن شخصه كان يأبى إلا الظهور . وكان يُلقي بينه وبين القارىء أستاراً صفيقة من غريب اللفظ ، وحجباً كثيفة من ثقيل السجع ، ويقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية ، ولكن عواطفه الحادّة تأبى إلا أن تخترق هذه الموانع كافة لتصل إلى قلب القارىء فتترك فيه ندوباً لدغاتُ الجمر أخف منها وقعاً وأهون منها احتمالاً » .

وهو أسلوب لا شذوذ فيه كما ترى . ولكن اقرأ الآن الفقرة الآتية من كلام (الدكتور) طه حسين في نفس الموضوع والمعنى قال:« ذلك أن أبا العلاء كان ـ كما تعلم ـ من أشد الناس إيثاراً للغريب وتهالكاً عليه . ثم كان أبو العلاء إلى هذا ـ فيما أعتقد أنا ـ يتكلف الغريب ويتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم ـ سواء في ذلك العلماء وغير العلماء ـ عن قراءته والظهور على ما فيه . وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره ، وكأنه كان يحس أن عصره خليق ألا يكتب له ، وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذي نحن فيه وللعصور التي ستليه ، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بيننا وبين فهمها ، وكأنه إنما أقام من الغريب وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسم وأرصاداً شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا إليه وحتى تسلم لنا نحن خلاصته ، فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم ، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة في الخلق والجماعة والدين » .

ثم أقرأ للشيخ طه حسين قوله من ذكرى أبي العلاء أيضاً « من قرأ رسالة الغفران وأراد أن يفقه معناها حق الفقه أحتاج إلى دقة ملاحظة ، وحذق فطنة ، وبُعد نظر ، ونور بصيرة ، وإلى أن يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف أغراضه فإذا لم يوفق إلى ذلك مرت به رسالة الغفران وهو يظنها من أقوم كتب الدين » .

وقس هذا إلى ما كتبه (الدكتور) :

« أراد أبو العلاء أن يتفكه وأراد أبو العلاء أن ينقد وأراد أن يكفر وأراد أن يؤمن ولست أحتاط في لفظ ولا أتحرج من معنى وإنما أريد أن أكون حراً فيما أفهم وفيما أقول فالحرية وحدها هي السبيل إلى فهم أبي العلاء . وقد أراد أبو العلاء هذا كله ، أراد أن يتفكه فتفكه إلى غير حد ، وأراد أن يكفر فكفر بغير حساب ، وأراد أن يُؤمن فآمن في غير شك . أراد هذا كله ووُفق إلى هذا كله أحسن توفيق الخ » .

وإنما أكثرت من المقتطفات ليتيقن القارىء أن الكاتبين شخصان مختلفان ولا عجب أن يكونا كذلك فإن الأسلوب صورة عن النفس . وهكذا صار عندنا من المشتركين في حمل هذا الإسم ثلاثة أشخاص متباينين : شيخ ، وأفندي ، ودكتور .

ويظهر أن هناك أكثر من دكتور طه حسين واحد . ففي بعض المقالات المعزوّة إلى المتسمى « الدكتور طه حسين » تنويه بأن كاتبها كفيف ، وفي البعض الآخر ما يفيد أنه مبصر : فهو يقول « قرأت ، ورأيت ، وشهدت » وما إلى ذلك من الألفاظ الدالة على الرؤية ، ويصف لك بعض المشاهد لا تخيلاً بل كما هي كائنة . مثال ذلك بعض رسائل بعث بها من فرنسا وفيها يصف مناظر البلدان ؛ ومقالات عن روايات شهد تمثيلها ولم يقتصر في كلامه عنها على تناول القصة بل جاوز هذا إلى التمثيل والإداء . ومما يؤكد هذا التعدد أيضاً أن لاحد هؤلاء الدكاترة ـ فإنهم على ما يبدو لي كثير ـ أبناء يسميهم أسماء إفرنجية[1] وإن الصحف المحفوظة في دار الكتب مختلفة فبعضها يقول الشيخ طه حسين والبعض يذكر الدكتور طه وواحدة تزعمه أستاذاً في الجامعة وأخرى صَحَفياً . ومعروف أن قوانين ذلك العصر لا تجيز أن يكون المرء موظفاً في جامعة أميرية وصحفياً في الوقت عينه . وأحد هؤلاء الدكاترة كان مولعاً باللاتينية واليونانية ، وكان يلح على وزارة المعارف أن تدرسهما في المدارس الثانوية ولا يكاد يتفق ذلك مع الصبغة الأزهرية الأولى . أضف إلى ذلك أن (الشيخ طه حسين) كان ذا لحية وأن دكتور الجامعة أو الصحفي كان أفندياً حليقاً . فالأمر كما ترى لا يعدو إحدى إثنتين : أن يكون هناك أشخاص عديدون بهذا

(١) للدكتور طه حسين ولدان : أحدهما : أنثى سماها مرغريت ، والآخر : غلام سماه بأحد اسماء الافرنج أيضاً .

الإسم وهو غير محتمل ، أو أن يكون هذا الإسم مستعاراً وهو الأرجح ».

* * *

وبعد فكيف يرى القراء هذا المنطق ؟ أليس مهلهلاً واهن الأركان متداعي البنيان ؟ نعم هو كذلك بلا نزاع ! ولكنه ليس أوهى من منطق الدكتور . . . ولقد أردنا أن نثبت بهذا التطبيق أنه ما هكذا يكتب التاريخ ، ولا من هذا النحو يكون « التعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي ». وإنه إذا كان مجرد التضارب في الروايات والعجز عن التوفيق بينها يكفي لمحو رجل من الوجود فقد صار سبيلاً لإنكار كل شيء .

ولقد تعمدنا فيما أوردنا أن نسوق أشياء من هنا وها هنا، وأن نُهمل الصلات الكائنة بينها . لأن كثيراً من حلقات السلسلة يسقط مع الزمن ، ولأن هذا على الأرجح هو كل ما يبقى معروفاً عن المترجَم له بعد قرن أو قرون . وهل في تراجم العرب مثلاً أكثر من هذا ؟ هل يعرف أحدنا عن شاعر أموي أو جاهلي ما هو أوفى أو أشد اتساقاً مما أوردنا من حياة الدكتور ؟ كلا ! فإذا كان الدكتور طه يبيح لنفسه أن ينكر وجود المجنون[1] إعتماداً على التضارب في الروايات ونقضها وتشويهها فقد أضاع الدكتور نفسه والله ! وشبيه بهذا أن يختلف شهود حادثة فينكر وقوعها .

---

(١) يشير إلى إنكار طه حسين وجود مجنون ليلى .

جهل طه حسين بمنهج ديكارت[1]

بقلم: الدكتور محمد أحمد الغمراوي

بقي علينا في تمحيص موقف صاحب الكتاب تلقاء القديم أن ننظر في المبررين الثالث والرابع اللذين تذرع بهما للأخذ بمبدأ الشك في كل قديم للغة العربية .

ذانك المبرر إن قد أُخذا عن فصل « منهج البحث » ص ٦٦ وهو فصل عقده صاحب الكتاب لا ليبرر فيه الأخذ بمذهب الشك في كل قديم الأدب العربي ، فهذا قد تناوله في التمهيد ، ولكن ليُبين فيه السبيل الذي سيسلكه في البحث . ومن الغريب أنه لم يُبين فيه للبحث منهجا ولا طريقة ، بل كل الذي قاله إنه لن يتأثر بالقومية ولا بالدِّين وإنه سيهمل علم العلماء المتقدمين . وليس في هذا تبيين للطريق الذي سيسلكه هو . إن كان فيه بيان فهو بيان سلبي ينبىء بالطرق التي لن يسلكها لا الطريق التي سيسلك ، وعنوان الفصل كان يقتضي العكس . كان يقتضي أن يكون بيان منهج البحث فيه إيجابياً ، ينبئنا بما سيفعله الباحث لا بما سيجتهد ألا يفعل . وسترى فيما بعد أن صاحب الكتاب لم يكن يدري تماما ما هو منهج البحث الذي سيسلكه . لم يكن يدري ما هو المنهج يقول ان ديكارت إستحدثه للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث .

لقد ذكر الدكتور طه منهج ديكارت في ذلك الفصل وفي مقال طويل في السياسة الأسبوعية (عدد ٨ مايو سنة ١٩٢٦) من غير أن يُبين ما هو هذا المنهج . فأما مقاله في السياسة الأسبوعية فهو مقال غير علمي أراد به أن يُسكت خصمين له أو أن يشتفي منهما عن طريق التهكم . إذن فلن نعرض له هنا . وأما ما ذكره عن نفس

(١) النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي ص ١١٠ ـ ١٣٢ .

المنهج في الكتاب فهو لا يزيد على قوله « والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً » ص ٦٧ . لئن كانت هذه هي القاعدة الأساسية لمنهج ديكارت فهو لا يزيد شيئاً ولا ينقص عن مذهب الشك العام الذي وضعه صاحب الكتاب في التمهيد والذي بيّنا في الفصل الأول ان العلم الحديث لا يبيح الأخذ به في الأدب العربي وفي غير الأدب العربي ، إلا بعد تبريره تبريراً علمياً . فهو إذن لا يمكن وأن يكون هو المبرر بل هو إذن في حاجة إلى مبرر . وقد ذكر صاحب الكتاب عرضاً مبررين له عددناهما فيما مضى واحداً أنه مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة وأنه جدد العلم والفلسفة تجديداً .

فأما الفلسفة وما يفعل فيها الفلاسفة فليست من شأننا هنا . وإذا كان النظر فيها يقتضي البدء حيث بدأ ديكارت حين أراد تجديدها فشك حتى في وجود نفسه وجعل يثبت لنفسه وللناس أنه موجود[1] فإنا لا نريد أن يكون لنا بها شأن قط لأنا لا نُريد أن ينزل بنا الشك إلى هذا الدرك ، ولا نظن أحداً من الناس يريد ذلك لنفسه اللهم إلا أن يكون صاحب الكتاب ومن معه على أن فلسفة ديكارت قد يكون لها القول الفصل في الحكم بين طه حسين وبين بقية عالم الأدب العربي ، في الشعر الجاهلي وفي غير الشعر الجاهلي . ذلك لأن من قواعدها أو حقائقها التي وصل إليها ديكارت نفسه أن ما وُجد في الذهن واضحاً جلياً فهو حق يجب أن يسلم به تسليما وأظن الدكتور طه نفسه لا ينكر أن القرون قد مرت على العالم العربي وأن الأجيال قد تتابعت فيه والشعر الجاهلي قائم في الأذهان واضحاً جلياً منسوباً إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين . فالشعر والشعراء والنسبة حق إذن .

يحكم بذلك للقدماء وأنصار القدماء ديكارت نفسه على طه حسين وأنصار طه حسين . ولكنا نخشى أن يرجع « المجددون » وعلى رأسهم الأستاذ إلى ديكارت مرة أخرى محتجين بأنهم هم أيضاً يتصورون في عقولهم وأذهانهم ونفوسهم بما لا مزيد عليه من الوضوح والجلاء أن قصة أمرىء القيس هي قصة عبد الرحمن بن

(١) أنظر Descartes ، دائرة معارف chambers ، المجلد الثالث عشر ص ٧٧٢ .

الأشعث ، وإن غزل أمرىء القيس هو غزل الفرزدق وابن أبي ربيعة ، وأن ذلك الشعر ليس لأولئك الشعراء وإنما هو مفترى عليهم بعد الإسلام ، فيرجع ديكارت آخذاً بقاعدتـه تلك فيحـكم لهـم على القدمـاء ، فيكون كل من النقيضـين ، قد حكمت له فلسفة ديكارت الناشئـة عن تطبيق مذهـب ديكارت بواسطـة ديكارت نفسه .

ولكنا لسنا ننظر في موقف الدكتور تلقاء القديم من الوجهة الفلسفية ولكن من الوجهة العلمية ، ولسنا نضعف عن أن نعلن إلى الدكتور أن منهجـا قاعدتـه الأساسية كالتي ذكر لا يمكن أن يجدد علماً كما ادعى ولا يمكن أن يقوم عليه علم ثم هو ليس مسلك المحْدثين من أهل العلم .

لو كان كل باحث حديث يُهمل نتائج أبحاث غيره ويستقبل بحثه خلواً من كل ما قيل مما يتعلق به بالمعنى الذي يقول صاحب الكتاب أن ديكارت يعنيه لوقف العلم عن التقدم بل لما كان هناك علم منظم محدود . تصوَّر أن كل باحث في علم ما ـ في الطبيعة أو الكيمياء مثلا ـ شك في كل من عداه من العلماء شكّ كما شك الدكتور طه في أمانة القادرين وفي مقدرة الأمناء ، وشك طبعاً في النتائج التي وصلوا إليهـا . وتصور أن الشك ألح عليه كما ألح على الدكتور ، وإنه أخذ بمنهج ديكارت ذلك وطفق يعيد تلك الأبحاث من جديد . قل لي هل يتسع عمره لهذه الأبحاث كلها أو لأغلبها وهي قد استنفدت أعمار الأجيال من قبل ؟ أم هل يستطيع كل متشكك أن يعيد الصعب من أبحاث من عداه من العلماء ؟ إن التفرغ لفرع ما من علم يكسب المتفرغ مقدرة خاصة في ذلك الفرع غير المقدرة الخاصة التي يكتسبها شخص آخر تفرغ لفراغ آخر ، وإن شئت فقل لموضوع آخر ، في نفس العلم ـ مقدرة تنشأ عن طول الممارسة ، وعما لقيه الباحث أثناءها وتغلب عليه من الصعاب ، وعن الأغلاط التي وقع فيها ثم انتبه إليها ، وعما يكسبـه ذلك من بصر بالأغـلاط ومسبباتهـا ، وبالعقبات ومذللاتها . فهل من الممكن أن تنشأ تلك المقدرات الخاصة في كل باحث شكاك حين يريد ، أم هل من الممكن أن تجتمع كلها لإنسان واحد طبيعياً كان أو كيماوياً ـ أو لغوياً ؟

لكن من يسيء الظن بكل إنسان يسهـل عليه أن يحُسـن الظـن بنفسـه كل

الإحسان ، فهب أن ذلك الذي ألح عليه الشك في غيره أجرى بعض تلك الأبحاث ليتثبت منها ـ أجرى بعض أبحاث فيشر مثلا في السكر أو في الزلاليات أو أبحاث طومسون أو ملكان في الكهربة Electron فخالف على غير علم منه شرطاً من شروط إجرائها ، وهو لا بد واقع في شيء من ذلك إن إتبع قاعدة ديكارت الأساسية على رأي طه حسين واستقبل بحثه خلواً مما عمل فيه من قبل ، هب أنه أعادها فوصل إلى نتائج تخالف نتائج الباحثين الأولين ثم جاء الناس يعلن إليهم في تأكيد يشبه تأكيد الدكتور أن أولئك الباحثين قد أخطأوا محجة البحث لأنه أجرى التجارب بنفسه فوصل إلى نتائج غير التي قالوا ، وهي حجة تبدو لأول وهلة أنها علمية واضحة مقنعة وإن كانت في الواقع دليلا على حمق قائلها وجهله ـ هل ترى العلم يتقدم أو يستقيم على مثل هذه الفوضى في البحث ؟ أم هل ترى أولئك الباحثين المتشككين في كل شيء قد وصلوا إلى نتائج مختلفة ، لا في المواضيع المختلفة فحسب ، بل في الموضوع الواحد أيضاً ، فأدخلوا الفوضى بذلك في العلم فأصبح لا نظام يجمعه ولا وحدة فيه ؟

من أجل ذلك كان منهج ديكارت كما فهمه وطبقه الدكتور طه حسين منهجاً ، غير علمي ، يفرق بين الجهود في العلم ، ويُدخل الفوضى في العلم ، ويؤدي في النهاية إلى زوال العلم لو كان العلم به من الآخذين ، لكن العلم لا يأخذ به ، والعلماء في علومهم وأبحاثهم يأخذون بضده ، فليس فيهم من إذا أراد أن يقوم ببحث أهمل ما قام به غيره من الأبحاث المتعلقة بموضوع بحثه . ذلك يعلمه كل طالب تعدى في العلم دور البداية ، كما يعلمه عن تجربة كل من كان له في البحث العلمي أدنى نصيب .

على أنه يحسن بنا الآن بعد أن بينا براءة العلم من المنهج الذي نسبه صاحب الكتاب إلى ديكارت أن نتبين نصيب ديكارت من التبعة التي حمله إياها الدكتور طه حسين صاحب الكتاب .

أما أن ديكارت كان يشك وكان يغلو في الشك فهذا ما لا ننكره وما لا نجادل صاحب الكتاب فيه ، ولكننا ننكر أن يكون شكه ذلك أكبر من أن يخضع في العلم لما يخضع له كل شك من القيود . وننكر أن تكون مكانة ديكارت العلمية راجعة إلى أنه

كان يشك ، أو أنه كان يغلو في الشك ، فإن الشك موجود على الأرض منذ وُجد العقل ، وليس الغلو في الشك في ذاته بمحمدة فيذكرها العلم أو التاريخ لأحد .
لا ، لم تكن عظمة ديكارت راجعة إلى أنه شك ، ولكن إلى أنه تطلب مخرجاً من الشك واهتدى إلى طريقة في البحث خرج بها إلى بحبوحة اليقين ، ثم ترجع إلى أنه طبق تلك الطريقة في نواح مختلفة فأثمرت معه في بعض النواحي ثمراً حسناً . ولم تثمر معه في بعض ، أثمرت معه مثلا في الرياضة ما هو في الحقيقة أساس عظمته إذا ابتكر فيها الهندسة التحليلية ـ أو الهندسة الكارتيزية كما قد تسمى نسبة إليه ـ ولم تثمر معه في الفلسفة أو الطبيعة مثلا إلا قليلا مما يأخذ به العلم اليوم .

تلك الطريقة هي التي بينها ديكارت في رسالته التي أخرجها للناس سنة ١٦٣٧ . وهي نفس المنهج المعروف بمنهج ديكارت في البحث والذي عقد له (صاحب الكتاب) فصلا في كتابه وعجز ـ لأمر ما ـ عن أن يُبينه فيه . وقد رأيت أنه ذكر في ذلك الفصل شيئاً زعم أنه من الشهرة بحيث لا ينبغي أن يجهله أحد من الناس سماه القاعدة الأساسية لمنهج ديكارت ليتذرع به إلى الإنسلاخ من كل قديم هذه اللغة التي هو أستاذ لآدابها ، وليتخذه دريئة يرمي من ورائها ، هذه اللغة وما اتصل بها ، حتى إذا قيل له لمَ فعلت ما فعلت ؟ وهل يفعل هذا عاقل ؟ أو هل أقدم أستاذ للغة في أي جامعة من جامعات الأرض على مثل هذا ؟ قال فعله قبلي ديكارت وأنا أريد أن أنتهج منهج ديكارت كما انتهجه من العلماء كل المحدثين وقدعلمت أن العلماء لا يتخذون منهجا كالذي ذكر ولا يمكن أن يتخذوه ، فحجة الدكتور طه في هذا ساقطة لأن رأي جمهور العلماء هو الحجة لا رأي أحدهم ، وسواء أكان ذلك الواحد ديكارت أم من هو أكبر من ديكارت .

على أن ديكارت حين أخذ الشك يساوره كان غلاما ناشئاً يتربى في إحدى كليات الجزويت . وكان حين غلا في الشك فأطرح كل شيء ، وشك في كل شيء مما تلقاه في تلك الكلية ، شاباً لم يكد يتجاوز العشرين ولم يكد يغادر باب الكلية إلى ميدان الحياة : فشكه ذلك كان شك الفتى الغرير لا العالم الخبير : ومن الظلم أن يحتج به أو أن نشتد في محاسبة صاحبه. غير أنه لم يكن هناك يد بالطبع من أن تتفرع حياة ديكارت الكهل عن حياة ديكارت الشاب وأن يكون في تلك الرسالة الصغيرة التي أخرجها للناس حوالي الأربعين صدى لذلك الشك الذي استحوذ عليه حوالي

العشرين ، الذي أدى تطلب المخرج منه إلى تلك الطريقة المعروفة في التاريخ بطريقة ديكارت ، أو بمنهج ديكارت ، كما تشاء أن تسميها لكن الدكتور طه خلط بين الشك وبين المخرج من الشك فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذي ابتغى ديكارت أن يتخلص به من الشك والذي أداه في بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة وفي بعض الميادين الأخرى إلى نتائج بعيدة عن العظمة لأنها بعيدة عن الصحة كما سبق أن أشرنا .

ولكي تعلم أن ذلك الشيء الذي زعم الدكتور أن الناس جميعا يعلمون أنه القاعدة الأساسية لمنهج ديكارت إذ يقول: «والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً » ـ لكي تعلم أن ذلك ليس من قواعد ذلك المنهج نذكر لك هنا قواعد ذلك المنهج كما ذكرها إثنان من أكابر العلماء ، واستانلي جفونز ووليم وليص أما جفونز فقد كتب في كتابه « دروس أولية في المنطق الاستقرائي والقياسي » درساً عنوانه « رأي باسكال وديكارت في الطريقة » طريقة النظر يبلغ نحو ست صفحات خص باسكال بخمس منها وديكارت بواحدة نترجم لك أغلبها فيما يلي ، قال :

« وهنا أريد أيضاً أن أذكر القواعد التي اقترحها ديكارت المشهور ليهتدي بها العقل في الوصول إلى الحق . تلك هي :

(١) ألا نقبل قط شيئاً على أنه حق من غير أن نكون على بينة من أنه كذلك . أي أن نتجنب العجلة والهوى ، وألا نضمن قضايانا من الحكم أكثر مما يتمثل للعقل تمثلا هو من التميز والوضوح بحيث لا يبقى لدينا للشك فيه مجال .

(٢) أن نجزيء كل مشكلة نمتحنها إلى أكثر ما يمكن أو إلى ما يتطلبه حل المشكلة من الإجزاء .

(٣) أن نسير في تفكيرنا على ترتيب ونظام مبتدئين بأبسط الأشياء وأسهلها معرفة لنرتقي بالتدريج إلى علم أعقدها .

(٤) أن نقوم في كل حالة بتعداد هو من الكمال ، وباستعراض هو من السعة ،

بحيث نكون على ثقة من أننا لم نُغفلت شيئا .

هذه القواعد ذكرها ديكارت أول مرة في رسالته المعجبة « مقال في الطريقة » التي أورد فيها تأملاته في الكيفية المثلى لهداية العقل والبحث عن الحق في أي العلوم ». ا هـ . هذا ذكره جفونز عن طريقة ديكارت في كتابه . وسواء أكان ديكارت أول من استحدث هذه القواعد[1] أم كان في أهل العلم من حاول العمل بها قبله ، وسواء أكانت هذه القواعد ممكناً إتباعها كلها في كل بحث أم غير ممكن فإن الذي نريد أن نلفتك إليه منها هو أن ليس بينها تلك القاعدة الأساسية التي زعمها طه حسين من وجوب تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل . فإن كل الذي في القاعدة الأولى من معنى هو أنه يجب علينا ألا نقول عن شيء أنه حق إلا إذا قام البرهان على أنه كذلك . وشتان بين هذا المعنى وبين المعنى الذي زعم الدكتور من وجوب التجرد من كل ما قيل في موضوع البحث من قبل إذ من الجائز أن يكون ما قيل قد قام البرهان على صحته . ثم بدهي أن تلك القاعدة ليس من معناها أن يتولى كل أنسان إثبات كل شيء لنفسه بنفسه كما تقتضيه القاعدة « الأساسية » التي زعم الدكتور لأن ذلك سخف لا ينتج عنه إلا التأخر والخطأ والفوضى كما قد بينا ولكن نتبين أن القاعدة التي زعمها طه حسين لم تسقط من جفونز سهواً ولا خطأ نلفتك إلى ما ورد في دائرة المعارف المشهورة Britanica Encyclopadix في الصفحة الرابعة والثمانين في المجلد الثامن تحت عنوان « طريقة ديكارت» ففيه ترى منهج ديكارت مشروحاً شرحاً أو في لا محل لنقله لك هنا ولكنا نترجم لك ملخصه الذي ذكره وليم وليص كاتب ذلك المقال ، قال :

« تلك هي النقط الأربع لطريقة ديكارت ». .

(١) تتطلب الحقيقة تصور غرضها تصوراً واضحاً متميزاً خالياً من كل شك .

---

(١) الواقع إن كلا من ديكارت وباسكال مسبوق إلى ما عرف باسمه من قواعد النظر ، سبقهما الغزالي - على الأقل - وسبقهما قبل أن يخلفا بقرون كما تشهد بذلك كتبه مثل « محك النظر ومعيار العلم ». والغرب معذور حين ينسب بعض تلك القواعد إلى ديكارت باسم منهج ديكارت وبعضها إلى باسكال فهما أول من أظهراه عليهما ولكن ما عذر مثل الدكتور طه حسين ينسب إلى ديكارت منهجاً سبق إليه الغزالي ؟ ألأن الدكتور كان يجهل مذهب الغزالي في النظر ، أم لأن الغرب نسب وهو للغرب تابع ؟

(٢) الأشياء الممكن عرفانها موجودة بطبيعتها على صورة مسلسلات أو مجاميع .

(٣) في تلك المجاميع ينبغي أن يبدأ البحث بالعنصر البسيط الذي لا يمكن تحليله إلى أبسط منه منتقلا منه إلى العناصر الأكثر نسبية وتعقيداً .

(٤) لا بدّ لحصول المعرفة في أكمل صورها من تقسيم الصلات والأرتباطات الموجودة بين بعض هذه العناصر وبعض تقسيما مستقصى بحيث لا يكون هناك فجوات بينها » أ هـ .

ومن المقارنة بين هذه النقط الأربع التي ذكرها وليم وليص وبين تلك القواعد الأربع التي ذكرها جفونز تتبين أن كلا منهما لم يرد أن يعطي القارىء إلا ملخص منهج ديكارت لا نصه ! وتتبين أيضاً إنهما مع إختلافهما في الصورة والوضع متفقان في الفهم ، وأنهما يشهدان على صاحب الأدب الجاهلي بما لا يمكن أن يسمى إلا جهلا بديكارت وافتراء عليه كما سترى أنه إفترى على علماء العربية المتقدمين .

تطبيقه ما سماه منهج ديكارت

على أن الدكتور طه لم يكن علمياً في طريقة تطبيقه ما سماه منهج ديكارت على الأدب العربي وتاريخه ، بحيث لو كان المنهج كما فهمه الدكتور منهجاً قويماً يجوز الأخذ به في العلم والفلسفة لكانت طريقة الدكتور في تطبيقه على الأدب العربي مؤدية إلى غير صواب . لننظر قليلا فى السبب الذي جعل الدكتور يحاول الأخذ بذلك المنهج في الأدب ، إنه يعتقد أن المنهج قد جدد العلم والفلسفة تجديداً ، وهو يريد أن يجدد الأدب ولذا يصطنعه في الأدب . ولكن هل من الضروري إذا جدد منهج في البحث علماً أو فناً ما أن يجدد ذلك المنهج بعينه أي علم أو فن آخر ؟ أليس الأمر في هذا يتوقف على ما بين العلمين أو الفنين من التشابه ؟ إن طرق البحث تختلف باختلاف العلوم . فما يصلح للعلوم التجريبية مثلا لا يصلح للعلوم غير التجريبية ، وإذن فالأمر فيما ذهب إليه الدكتور يتوقف أن سلمنا له مقدماته على ما

بين الفلسفة والأدب ، أو ما بين العلم والأدب ، من التشابه . فهل هما متشابهان في الأساسيات حتى إن ما يصلح به أحدهما يصلح به الآخر وما يجدد أحدهما يجدد الآخر ؟

إن الدكتور في كتابه قد بحث في جزء من تاريخ الأدب ، في نسبة الأدب الجاهلي إلى أهله . ولا نظن الدكتور يقول أن البحث في نسبة الأفكار أو الأقوال إلى أهلها كالبحث في صحة الأفكار أو الأقوال نفسها فهذا خلاف جوهري بين الناحية التي تعرض لها من تاريخ الأدب وبين الفلسفة يجعل الأستدلال بالمشابهة بينهما Reasoning By Analogy كما يسميه مناطقة الغرب أو قياس التمثيل كما يسميه مناطقة الشرق ـ يجعل الإستدلال بذلك إستدلالا غير صحيح . لو كان ديكارت جدد تاريخ العلم أو تاريخ الفلسفة لصحّ أن يقال تاريخ وتاريخ وما يتجدد به واحد يصح أن يتجدد به الآخر ، بل في هذه الحالة أيضاً كان المنهج العلمي في التفكير يحتم على الدكتور أن يقيم مشابهة بينهما يبينّ فيها أوجه الشبه الأساسية بين الموقفين ، موقف الفلسفة أو العلم حين أخذ يجدده أو يجدد تاريخه ديكارت ، وموقف الأدب العربي حين يريد أن يجدده أو يجدد تاريخه طه حسين . لكن الدكتور لم يفعل شيئاً من ذلك ، وليس في الكتاب ما يدل أنه فكر في فعل شيء من ذلك ، وهو لم يزد بعد أن أشار إلى ما فعل ديكارت على أن قال إنه يريد أن يفعل ما فعل ديكارت ، كأنما هذا القول وتلك الإشارة هما وحدهما مبرر كاف للأخذ في الأدب بما ظنه الدكتور منهج ديكارت ، أو كأن منهج ديكارت هذا حجر فلاسفة العالم الفكري مهما يطلب منه فيه من تجديد قديم أو تصحيح ضعيف يفعل ، كما كان قدماء الكيماويين يرون أن حجر الفلاسفة أو الأكسير مهما يطلب منه من تحويل القصدير إلى فضة ، أو نحاس إلى ذهب يفعل . الحق أن الدكتور من المعجبين جداً بالعصر الحديث ون الناعين جداً على العصر القديم : لا يسأل الحديث «لماذا»؟ ولا يقبل من القديم «لأن» ثم لا فرق عنده بين قديم وقديم ، ولا فرق عنده بين قديم منطقي وقديم غير منطقي . بين قديم مجتهد وقديم مقلّد وبين قديم الشرق وقديم الغرب ، في الأدب والعلم ، أو في غير الأدب والعلم ، وهو من أجل ذلك لا يُبالي عند التفكير في القديم أن يتراخى بعض التراخي أو كله في التثبيت العلمي وأن يتهاون بعض التهاون أو كله في الاستدلال العلمي . ولماذا يكلف نفسه عند بحث القديم من عناء التدقيق ما يكلف

العلم نفسه وهو على ثقة من ثبوت الحديث ودوامه وبطلان القديم وزواله! فنظره إذن أو كلمة أو إشارة من باحث حديث كالأستاذ هي كل ما ينبغي أن يلقى إلى القديم أو هي كل ما يلزم لإماطته عن طريق الحديث. «فالمستقبل» في رأيه «لمنهج ديكارت لا لمناهج القدماء» ـ وإن كان هو لم يوفق فيما تناول من منهج ديكارت إلى صواب ولم يتناول مناهج القدماء بشيء من تبيين ـ إذن «فلنصطنع هذا المنهج حين نريد أن نتناول أدبنا العربي القديم وتاريخه بالبحث والاستقصاء ولنستقبل هذا الأدب وتاريخه وقد برأنا أنفسنا من كل ما قيل فيهما من قبل وخلصنا من كل هذه الاغلال الكثيرة الثقيلة التي تأخذ أيدينا وأرجلنا ورؤسنا فتحول بيننا وبين الحركة الجسمية الحرة وتحول بيننا وبين الحركة العقلية الحرة أيضاً» ص ٦٧.

لقد نال صاحب هذا القول نيلا من نفسه ، فلقد وقفها به موقف من لا يدري حدود حرية العقل في البحث والتفكير. إنه يدعو في تلك الجملة إلى نبذ كل قديم الأدب وتاريخه لأمرين إثنين ينعاهما عليه : إنه يقيد الحركة الجسمية وإنه يقيد الحركة العقلية ، فأما تقييده الحركة الجسمية ، فأمر قد استأثر الأستاذ بفهمه كما استأثر بقوله ، وأما تقييده الحركة العقلية فكذلك يفعل ولكن كذلك يفعل الحديث أيضاً إن كان حقاً ، وكذلك يفعل الحق دائماً عند المفكرين الباحثين. أليس الباحث عن الحق مضطراً في بحثه إلى ألا يخالف شيئاً قط من الحقائق ؟ أليست طريقة العلم في البحث مبنية على التقيد بالمعروف من الحق ، يتقيد الباحث به فيما يقول وفيما يفكر لا يجد من ذلك مفراً ولا عنه محيصا ؟ فكأن كل حقيقة من الحقائق إذن على غل في عنق العقل يرغمه في تفكيره على أن يسير سيرة خاصة وأن يتجه إتجاهاً معيناً . فإذا كان ذلك عيباً في القديم فإنه أيضاً عيب في الحق . وقد تذرع الأستاذ به لينفر من القديم كله فلينفر به من الحق أيضاً !

ليست هذه أول مرة عاب الأستاذ فيها قديم هذه اللغة بوصف من أوصاف العلم الصحيح ونعت من نعوت الحق . وهو يجري على مثل هذا فيما يكتب عن القديم كله . ولو كان الأستاذ متبيناًأوصافالحق ما عاب ببعضها ما لا يظن هو أنه حق . ولو كان الأستاذ على بينة من خصائص البحث العلمي لما غفل عن إن أهمها هو التقيد بالحقائق ، لا التحرر من العواطف .

التدين الصحيح والبحث

إن طه حسين ذهب إلى أن نسيان القومية والدين شرط أساسي من شروط البحث العلمي . إن كان أراد بذلك أن على الباحث ألا يخفي بعض الحق أو يتراخى في استيفاء الدليل العلمي محاباة لقوميته أو إرضاء لعاطفته الدينية فقد أصاب . أما إذا كان أراد أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ذا عاطفة قومية أو دينية قوية من غير أن يحُابى أو يُداجى في العلم فقد أخطأ ولم يصب. إن الأنسان عليه أن يراعي الدقة العلمية التامة في البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ، ومعتقد بصحته كل الإعتقاد ، غير مجوز على قرآنه خطأ أو على توراته بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص إن أمكن حرصاً على الحق واستمساكا به إذا وصل إليه . إن الباحث المتدين بين محببين في الحق : دينه وعلمه ، ومبغضين في الباطل : دينه وعلمه كذلك . فهو يحب الحق مرتين مرة لدينه ومرة لعلمه . ويُبغض الباطل مرتين كذلك . لا خوف عليه مطلقاً أن يخفي بعض الحق أو يدلس في البحث محاباة لدينه ، إذ ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل . هو يعلم أن دينه حق ، يعلم ذلك علم مستتيقن . ويعلم أن العلم قائم على قاعدة إستحالة التنافي بين أجزاء الحق ، يعلم ذلك علم مستيقن أيضاً . فهو لا يخشى أبداً أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافي دينه ولذلك يمضي في أبحاثه آمناً مطمئناً متبعاً أقوم الطرق في البحث والتفكير ، لا لأن هذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى نتائج صحيحة فحسب ، ولكن لأن هذا في اعتقاده هو أيضاً الطريق الوحيد الذي لا يؤدي إلى تخالف بين العلم الذي يبحث فيه والدِّين الذي يؤمن به . فالتدين الصحيح والتفكير العلمي الصحيح ممكن إجتماعهما إذن ، وكثيراً ما اجتمعا كما أن العاطفة العلمية القوية والعاطفة الدينية القوية لا تتعارضان بل تتضافران على خدمة العلم وتبعثان على الإخلاص في البحث .

ولم يكن المنتظر من صاحب الكتاب بعد أن وقع فيما وقع فيه مما بيناه لك في هذا وفي سوابقه إلا أن يلج في الخطأ ، ويوغل في الأجتراء على العلم والافتيات على سنن العلم في البحث . ومن أكبر ما اجترم صاحب الكتاب من ذلك تقريره ما لا نظن مؤرخا قط أقدم على تقرير مثله ، ووقوعه فيما لا نظن أحداً عنده شيء من

العلمية يُقدم على الوقوع فيه . ذلك أنه حكم على عصر بأسره من عصور التاريخ ـ لا نبالي ما طوله وما عرضه ، فلو كان أقصر عصور التاريخ وأضيقها ما جاز في تاريخ ولا علم أن يحكم أحد عليه بما حكم صاحب الكتاب على عصر من أكبر العصور . حكم على العصر العربي الإسلامي كله إنه كان عصراً تقاسم أهله الرياء والمحاباة والخبث والغفلة والنفاق والكذب سواء في ذلك العلماء وغير العلماء ، الأتقياء منهم وغير الأتقياء فما نشأ فيه من علم فهو فاسد ! وما ورد عنه من قول فهو مردود !

إقرأ قول صاحب الكتاب من صحيفة ٦٧ « وهل فعل القدماء غير هذا ؟» أي غير المحاباة في العلم والتدليس في البحث إرضاء لعواطفهم الدينية والقومية . « وهل أفسد علم القدماء شيء غير هذا ؟ كان القدماء عربا يتعصبون للعرب أو كانوا عجماً يتعصبون على العرب فلم يبرأ علمهم من الفساد . . . كان القدماء مسلمين مخلصين في حب الإسلام فأخضعوا كل شيء لهذا الإسلام وحبهم إياه ، ولم يُعرضوا لمبحث علمي ولا لفصل من فصول الأدب أو لون من ألوان الفن إلا من حيث أنه يؤ يد الإسلام ويعزه ويعلي كلمته . فما لاءم مذهبهم هذا أخذوه ، وما نافره إنصرفوا عنه إنصرافا ». هذا قوله وهو لا يريد به أن روحهم الدينية كانت تبعثهم على العلم لرفعة الإسلام ولطلب ما يعزه ويُعليه كما تبعث الروح الوطنية الخالصة على العلم لرفعة الوطن وتطلب ما يعزه ويقويه من غير أن يستلزم ذلك تدليساً أو افتراء أو كذباً على أحد . لا ، لم يرد هذا . وإنما أراد أن روحهم الدينية حملتهم على التدليس والتلبيس والكذب ! كما يدل على ذلك رميه النحاة والرواة المفسرين والمحَدثين والمتكلمين في صلب « نظريته » المزعومة بأنهم اختلقوا الشعر الجاهلي ليستشهدوا به على القرآن والحديث ، وكما يدل عليه قوله من صفحة ١٨٦ « كل شيء في حياة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى انتحال الشعر وتلفيقه سواء في ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء البررة والحياة السيئة حياة الفساق وأصحاب المجون ». وإذا قد بيّنا لك معناه الذي أراد حتى لا يسبق إلى نفسك غيره نعود بك إلى تتمة كلامه وتكملة تقسيمه : قال « أو كان القدماء غير مسلمين : يهوداً أو نصارى أو مجوساً أو ملحدين أو مسلمين في قلوبهم مرض وفي نفوسهم زيغ ، فتأثروا في حياتهم العلمية بمثل ما تأثر به المسلمون الصادقون : تعصبوا على الإسلام ونحوا في بحثهم العلمي نحو الغض منه والتصغير من شأنه ، فظلموا أنفسهم

وظلموا الإسلام وأفسدوا العلم وجنوا على الأجيال المقبلة » ص ٦٨ .

ولا يخدعنك ما في قوله هذا من مظهر إنصاف يوهم أن صاحبه لم يكن مع العرب على العجم ولا مع غير المسلمين على المسلمين ، فلقد ظلمهم جميعاً شر الظلم وأفسقه ، ورماهم على بكرة أبيهم بما لم تُرم به أمة على بكرة أبيها من قبل فإن أولئك الناس الذين عاشوا في ذلك العصر لا يمكن ، إن كانوا قد عاشوا ولهم عقول ، أن يقترفوا جميعاً ما يقول صاحب الكتاب أنهم اقترفوه، وأن يتعصبوا على النحو الذي ينسبه إليهم صاحب الكتاب ، من غير أن يكونوا جميعاً بين كذّاب ومدلس وغبي وخب ومبطل : نقائض يندى لها جبين الإنسان أيا كان ، متديناً أو غير متدين ، وتأبى المشاهدة ويأبى العقل وتأبى الفطرة أن تسلم وتجوّز أن أمة بأسرها قد تدنست بها في أي عصر من العصور .

ولو أن صاحب الكتاب جاء ببينة علي ما تضمنه ذلك الكلام من الدعاوى الكبرى والتهم المخزية لما كان علينا وعلى الناس إلا أن نخضع للبينة العلمية . لكنه لم يأت على شيء من تلك الدعاوى ببيّنة ، ولم يحاول . إذن فكل دعوى منها إفتراء منه في العلم ، وكل اجتراء منه على القول بواحدة منها قبل أن يستوضح البينة عليها ويوضحها للناس جناية منه على التفكير العلمي . وكل جناية من ذلك جناها هي في جرمها كالدعوى التي تناظرها ، في المدى والإتساع .

على أننا نحب أن نستلفتك الآن إلى عدة أمور في ذلك الكلام :

الأول :أن صاحبه يقول فيه الآن بفساد علم المتقدمين وكان قبلُ يقول بوضعه موضع الشك فقط . وإذا كان العلم لا يجيز الشك إلا بعد تبرير فهو من باب أولى لا يجيز القول بالفساد إلا ببرهان .

الأمر الثاني :إن تلك الدعاوى لا يمكن صاحب الكتاب أن يثبتها ولو اجتهد ، لأن كلاً منها قضية كلية . وسبيل إثبات الكليات من قضايا الإستقراء . وصاحب الكتاب لم يستقرأ العرب ولا العجم ، ولا المسلمين ولا غير المسلمين ، في العصر

الذي يعنيه . وزمن الإستقراء قد فات ، ولو قد عاش فيه لما استطاعه . والمراجع الموجودة لا تغنى عن الاستقراء شيئاً ، وشكه فيها يلزمه ألا يستدل بها على شيء أو يُثبت هو صحتها . ثم هي لا تفيد ما ذهب إليه .

الأمر الثالث :أنه في تقسيمه الناس عندئذ إلى عرب متعصبين وعجم متعصبين ، وإلى مسلمين مفترين وغير مسلمين مفترين ، قد أغفل من غير تفسير ولا تعليل القسم الثالث الذي يقتضيه التقسيم المنطقي ، قسم العقلاء المتنزهين عن معاداة الحق ومشايعة الباطل ، من العرب ومن العجم ، من المسلمين ومن غير المسلمين ولا بدّ أن يكون ذلك القسم قد وجد في ذلك العصر لأن الطبيعة البشرية لم تكن منحطة فيه إلى الدرك الذي زعمه صاحب الكتاب ، ولأن ذلك العصر كان عصر نهضة أخلاقية دينية والأديان التي كانت مستحوذة على نفوس الناس في ذلك العصر تأمر كلها بالصدق ومتابعة الحق وتنهى كلها عن الكذب ومشايعة الباطل ، ولأن القرآن على الأخص قد أخذ على الباطل سبله ، ونهى الناس عن أن يسلكوها ، وجعل أصحابها هزواً للناس وسخرية. فهو لم ينه أشد النهي عن الكذب والأفتراء فقط ، ولكنه نهى أيضاً عن التقليد الأعمى ، وعن الرجم بالظن ، وعن الأخذ بهوى النفس ، وعن أن يقفو أحد ما ليس له به علم وحض أشد الحض على الصدق ، والإستمساك بالحق ، والخضوع للعقل ، والأخذ بالدليل . والعلم الحديث لا يلزم بأكثر من هذا ولو تشدد . وإذا كان العلماء يتحرون هذا الآن باسم العقل فأقل ما يعقل عن علماء ذلك العصر ، أن فريقاً منهم على الأقل كان يتحرى ذلك أيضاً باسم الدين تحت تأثير القرآن الذي كان يُتعبد بتلاوته كما يُتعبد بالفقه فيه والعلم به . إذن في إغفال صاحب الكتاب هذا القسم من الناس يشبه أن يكون تعمية منه ومخادعة للقارىء عن عقله حتى لا تقوم دون قبول مذهبه عقبات لعله علم أنها إن قامت فلن يستطيع لها تذليلا ، ويكون قول صاحب الكتاب « كل شيء في حياة المسلمين في القرون الثلاثة الأولى كان يدعو إلى انتحال الشعر وتلفيقه ، سواء في ذلك الحياة الصالحة حياة الأتقياء والبررة ، والحياة السيئة حياة الفُساق وأصحاب المجون » هو إما قول الذي لا يعلم ويظن أنه يعلم ، وإما قول الذي يعلم ولكنه يطمس ويعمى ويختلق لأمر في نفسه . والعلم من كليهما بريء والعجب من صاحب الكتاب يدّعي أنه ينهج منهج ديكارت في البحث ثم يُخرق في نفس الفصل الذي ادعى ذلك فيه

قواعد ذلك المنهج الأربع التي نقلناها لك ، فهو يستيقن من غير بينة ، ويُعمم من غير روية ، ويقسم من غير تدقيق ، ويسير من الأعقد إلى الأبسط بدلا من أن يتدرج من الأبسط إلى الأعقد . أليس هذا دليلا عملياً على أنه كان لا يدري منهج ديكارت في البحث حين دعا في كتابه إليه ؟

والعجب منه . يزعم أنه علمي التفكير علمي الطريقة ثم يختم دعاواه التي ادعاها على العرب والعجم والمسلمين وغير المسلمين بقوله : « ولكن هذه طبيعة الإنسان لا سبيل إلى التخلّص منها » ناسياً ، إن كان لا يريد ظاهر هذا القول ، إنه إنما يكتب بحثاً علمياً لا بعض حديث الأربعاء فالمبالغات الأدبية غير جائزة فيه خصوصاً في مقام الإستدلال . أما إن كان أراد من ذلك القول ظاهره فقد اقترف في العلم إثماً كبيراً بإرساله رأيه هكذا في صورة توهم أنه قانون نفسي إجتماعي من أعم القوانين .

ثم العجب بعد ذلك منه يزعم أنه علمي التفكير لا يذعن إلا لمناهج البحث العلمي الصحيح وهو يرسل هذا القانون من عنده ـ قانون « ولكن هذه طبيعة الإنسان لا سبيل إلى التخلص منها » ـ ثم هو بعد أن أرسله يُرسل معه ما يُنقضه أو ما يبطل به إذ زعم عن نفسه أنه لن يقع أو يستطيع ألا يقع فيما وقع فيه بزعمه القدماء . كأنما هو من غير الناس فليست تلك طبيعته . أو كأنه خُلق من غير عاطفة فلا يدخل تحت ذلك القانون الذي افتراه . أو كأن طبيعة الإنسان لم يتغلب عليها الإنسان إلا منذ ثلاثة قرون في الغرب على يد ديكارت ومنذ عامين في الشرق على يد طه حسين .

* * *

وبعد فقد أسرف صاحب الكتاب على نفسه وأسرف على العلم الذي يبحث باسمه وأسرف على الأدب الذي ينتمي إليه بذلك الشك الواسع غير المحدود ، فإنه ليس أدل على جهالة الشك وبعده عن العلمية من سعة غير محدودة يكون عليها والعلة في هذا واضحة بعد الذي قدمناه فإن الشك كلما اتسع صعُب تحليله وتعذر تبريره وتعليله ، حتى إذ صار إلى ما صار إليه شك الدكتور طه من الخروج عن كل قيد والذهاب إلى غير حد إنقلبت صعوبة التحليل امتناعا وانقلب تعذر التبرير إستحالة ، لأن صاحبه لن يستطيع تبرير شكه ذلك تبريراً علمياً حتى يستعرض

علوم اللغة علماً علماً ، وينقد كل علم منها ومصادره ووسائلة نقداً صحيحاً ، وهو ما لم يتسع له إلا العصور المتتابعة من أهل العلم والبصر ، فهل يتسع له عمر الدكتور واتسع له علمه وقوي عليه فهمه؟

فلو أننا بناء على هذا وحده نبذنا كتابه باسم العلم ودعونا إلى الشك في علمية صاحبه لما كنا ظالمين له ولا مفتاتين على العلم وسننه . ولكنا آثرنا أن نزيد في إنصافه وفي إقناع القارىء ببغي صاحب الكتاب وإسرافه ، فالتمسنا المبررات التي يمكن أن يقول إنه جاء بها لتبرير ذلك الشك غير المحدود . إلتمسناها ثم عرضناها على النقد العلمي فلم نجد فيها مبرراً يقبله العلم أو يسيغه . فقد كانت كلها إما عيبا لذلك القديم بما لا يراه العلم عيباً ، أو طعناً عليه بوصف مشترك بينه وبين العلم الحديث ، أو ذماً له بنعت من نعوت الحق ، أو تقولا على الحديثين بما لا يفعلون وعلى القدماء جميعاً بما لا يمكن أن يكونوا جميعا قد فعلوه .

فأما تقوله على المحدثين من غير تثبت فهو ما لا يمكن أن يُعذر فيه إذ التثبت لم يكن يكلفه إلا أن يسأل أحد المشتغلين بالبحث العلمي عما إذا كان من عادة العلماء في أبحاثهم أن يهُملوا أبحاث سواهم كما ادعى . وأما تقَوله على القدماء من غير برهان ، وهم الذين ورثوا هذه اللغة كلاما وتركوها علوما مضبوطة وفنوناً ، فهو ما لا يمكن أن يُعذر فيه أيضاً لأن من أوليات مناهج العلم الصحيح التي يكتب باسمها ألا يلقي الباحث دعاواه جُزافا من غير برهان ، خصوصاً ما كان منها بعيداً منكراً كذلك الدعاوى التي ادعاها الأستاذ على القدماء .

معرة الشك المطلق في التاريخ

على أن العلم الحديث إذا كان يحرم مثل شك الدكتور طه أن يؤخذ به في العلوم الطبيعية فإنه للأخذ به في العلوم غير الطبيعية أشد تحريماً . ذلك لأن العلوم الطبيعية كالكيمياء والطب تملك ضد الشك سلاحا لا تملكه الفنون الأدبية كالتاريخ ذلك السلاح الذي لا يرد هو التجربة . فإن العلم التجريبي يستطيع إذا عرض له الشك في جزئية ما أن يذهب إلى معمل من معامله الكثيرة يجري فيه من التجارب ما يكشف عن وجه الحق في تلك الجزئية ، وما يقنع أو يفحم كل متفلسف شكاك فلا

يستطير شره في الناس . أما التاريخ فلا يستطيع أن يحاكم الشك إلى مثل ذلك الحكم ، ولا أن يفضح أمر المتجر بالشك ، ولهذا كان الشك أهنأ فيه للشاكين وكان الشكاكون أجرأ عليه وأقدر على التلاعب به وطمس معالم حقائقه .

هذا الفرق بين التاريخ وبين العلم التجريبي في القدرة على اتقاء معرة الشك المطلق راجع بالطبع إلى طبيعة كل منهما . فالعلم له ظواهره والتاريخ له ظواهره ، لكن العلم لا تهمه أفراد النوع الواحد من الظواهر العلمية لأنه يستطيع دائماً إعادة ما يريد منها بجمعه بين شروط حدوثها . أما الظواهر التاريخية فإنها خارجة عن حكم التاريخ والعلم معاً . لا يستطيعان أن يستعيدا ظاهرة واحدة من ظواهر التاريخ الماضي ، ولا أن يكرر حادثة واحدة من حوادث التاريخ الحاضر . بل إن الحادثة التي تحدث في ناحية من نواحي الأرض لا يستطيع أن يدرسها عن كثب إلا من شهدها من المؤرخين . أما من غاب عنها فلا يستطيع أن يعرفها إلا عن طريق من شهدها ، في حين يستطيع العالم أن يدرس ما شاء من الظواهر العلمية في أي وقت ومكان شاء . فهذان القيدان ، قيدا الزمان والمكان ، قد تحرر منهما العلم إلى الأبد ، وتقيد بهما التاريخ إلى الأبد على ما يظهر . وأقصى ما يستطيع التاريخ عمله للوصول إلى قوانين الفطرة العاملة فيه ، أو لتمهيد الطريق إليها ، أن يجمع الظواهر التاريخية ظاهرة ظاهرة وحادثة حادثة ، وأن يكب عليها بعد جمعها يدرسها عسى أن يستطيع بالمقارنة والإستقراء أن يصل إلى بعض تلك القوانين لذلك كان للظواهر الفردية في التاريخ مكانة وخطر ليسا للظواهر الفردية في العلم ولا يمكن أن يكونا لها ، وكان الإقدام على طمس أي ظاهرة من هذه الظواهر عن طريق الشك الذي لا مبرر له جناية على التاريخ والعلم معاً يختلف جرمها باختلاف تلك الظواهر وما يكون لها من أثر في حياة الناس .

فإذا نحن تركنا العلم بمعناه المحدود جانباً كان أولى الناس بمقاومة مبدأ الشك المطلق في التاريخ هم المؤرخين لأنهم يوشكون إن لم يفعلوا أن يصبحوا ملوكا في غير مملكة إذ يوشك التاريخ إذا تناهبه الشك الجزاف أن يصبح أثراً بعد عين . وأولى المؤرخين بالنهوض لهذا المبدأ الشرقيون منهم سواء أكانوا مؤرخي أدب أم دين أم سياسة أم اجتماع ؛ فإن الغرب بمأمن من أن يحاول هدم تاريخه أو تاريخ لغاته هادم عن طريق الشك غير العلمي لسيادة الرأي العلمي فيه ، واستحواذ الروح العملي

على أهله . أما الشرق فليس له مثل هذين السياجين يردان عنه عادية هذا الباطل الذي يهاجمه بإسم الحق ، ولا هذا الشك الذي يريد أن يداخله باسم العلم ، ولا هذا الهدم والتعطيل اللذين يكر عليه بهما نفر من أهله بإسم التجديد . .

ومهما يكن من موقف المؤرخين في الشرق أو في الغرب حيال مبدأ الشك المطلق فإن العلماء لا يأخذون به ، وإن العلم لا يقره ولا يمكن أن يقره . ومن الإفتيات على العلم والاجتراء على الحق بل ومن أكبر العقوق للشرق أن يأتي شرقي أوتي شيئاً من الفصحة وقسطا من الثقافة ، لا يعرف عن التربية العلمية إلا ما قرأ أو سمع من غير أن يشاهد بنفسه ويمارس بحسه ـ يأتي فيملأ فاه فخراً على أهل فنه باسم العلم ، ويحارب الشرق في أعز ما لديه من حيث يدري أو لا يدري باسم العلم ، ويطبق على التاريخ الشرقي باسم العلم مبدأ يحرمه العلم . ذلك هو العقوق الكبير ، وذلك هو الضلال البعيد .

محمّد أحمد الغمراوي

قال عنه الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر سابقاً حين قدّم لكتابه القيّم : « الإسلام في عصر العلم » :

« الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي ـ رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه ـ : عاش حياته في جد العلماء وهدوء الحكماء ، ومثالية الرّواد ، وأدب المعلمين وجلاد المجاهدين ، وله من هبات الله سبحانه وعطاياه ، عفة اللسان والقلم ، فوق أنه جزل العبارة ، مشرق الأسلوب ، قوي الحجة ، ناصع البرهان . . . »

وقال الدكتور لبيب السعيد المدير العام لشؤون القرآن والثقافة الإسلامية ، في تقديمه للكتاب السابق :

« كان الحديث عن صلة القرآن الكريم بالنظريات والأفكار العلمية الحديثة لا يصادف عند جمهور المسلمين إلا ازوراراً ! فقد كانوا يخشون احتمالاً مقلقاً ، هو أن يعتور الخطأ هذه النظريات ، أو يطرأ التعديل عليها ، فينسحب هذا على كتاب الله سبحانه ، وتضار قضايا الإيمان .

فلما كتب علامتنا « محمد أحمد الغمراوي » الدراسات الإسلامية العلمية موضوع هذا الكتاب، وحاضر فيها، ألفى الناس بالهم إلى موضوعاتها، الدقيقة، وهشوا لها في اطمئنان وأمن، بل انقادوا لها عن رضى وسرور. . . »

فيا لهذه البادرة من فتح عظيم وإعطاء المجال لإثبات إعجاز القرآن العلمي ففيه الساعة الذي هو من أنصع الأدلة وأعظم البراهين للدلالة على أنه تنزيل من رب العالمين ، لأنه لا يعقل أن يأتي بمثله بشر ، وقد حدثنا عن قضايا علمية في مختلف العلوم في الفلك ، والذّرة ، وإمكان غزو الفضاء ، وفي أسرار الجنين والحيوان والنبات ، وعجائب الإنسان ، وغير ذلك مما توصل إليه العلماء بعد جهاد طويل وبحث عميق ، كل ذلك خير طريق لتثبيت المؤمنين وإقناع المنكرين .

وذلك من رحمة الله تعالى ، فإنه لم يترك كتابه الكريم دون إعجاز علمي لإقناع البشر، وخاصة بعد فقدان الإعجاز الأدبي له حين ترجمة ألفاظ إلى اللغات الأخرى . . .

ويمكنني أن أسائل المعارضين لمثل هذا التفسير ، لماذا ذكر الله تعالى هذه الآيات إذا كان لا يجوز تفسيرها على ضوء العلم الحديث ؟!

وأقول لهم إن الكشوف العلمية تنقسم إلى فرضيات ونظريات ، قابلة للتغيير ، بخلاف البدهيات الثابتة بعد مرور عشرات السنين عليها وثبت صحتها ، وهذه هي التي يجب أن يتناولها علماء الطبيعة ، وهذا ما تناوله العلماء .

ويحسن أن نذكر بهذه المناسبة كتاباً صدر حديثاً بعنوان : « التوراة والإنجيل والقرآن في ضوء العلم» للطبيب الفرنسي موريس بوكاي أثبت فيه صحة جميع ما جاء به القرآن بخلاف غيره. . .

وقد كنتُ ألَّفت رسالة صغيرة بهذا الموضوع قبل هذا الطبيب بزمن طويل باسم « إعجاز القرآن العلمي » ترجم إلى اللغتين الإنكليزية واللغة الفرنسية ، وطبع في الأولى ولم يطبع في الثانية .

وإني بهذه المناسبة أدعو علماء الطبيعة من المسلمين المسارعة إلى التأليف والتصنيف في هذا الميدان الهام وترجمته إلى اللغات العالمية ، مما هو أقصر طريق

للإقناع ودخول الناس في دين الله أفواجاً بسرعة مصداق ما جاء في القرآن :
﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق، وفي أنفسهم حتى يتبينّ لهم أنه الحق!! ﴾ .

رحم الله تعالى النمراوي وأجزل ثوابه، وقد كان لرده على طه حسين في كتابه : «الشعر الجاهلي» صدى عظيم وأثر بليغ . .

إصلاح المعاهد الدّينيّة[1]
وَالدّكتور طه حسين

بقلم: الأستاذ محمد الخضر حسين

كتب الدكتور طه حسين في مجلة الرابطة الشرقية مقالاً تحت عنوان «إصلاح الأزهر» وقارىء المقال ذكياً كان او غير ذكي لا يفهم منه إلا ان الكاتب يريد إلغاء المعاهد الدينية لا إصلاحها ويود إماتتها لا إحياءها.

إصلاح الأزهر فيما يبديه ذلك الكاتب ان يصير مدرسة وعظ وإرشاد، وان لا يكون للمتخرجين فيه حق في مناصب الحكم والتصرف في شؤ ون الدولة، وابتدع بعد هذا لطلاب العلم بالمعاهد الدينية رهبانية، فأشار عليهم بأن يدعوا الدنيا وأعراضها ،وأخذ يضرب لهم المثل من القسسس (رؤساء الديانة النصرانية).

يقول الكاتب «الغرض من الأزهر إنما هو إرشاد المسلمين الى الخير وتفقيههم في الإسلام ودعوة غير المسلمين الى الدين وإقامة حجته عليهم ظاهرة بالرفق والحكمة والموعظة الحسنة . فأما تولي مناصب الحكم والتصرف في شؤون الدولة والتمكن من الكسب ، فأشياء إضافية ليس من المحتوم ان يسعى اليها مصلحو الأزهر » يقول: «وإنما نريد أن الله يفرض عليهم تحقيق غرضين دينيين، والله ارفق بهم وأعطف عليهم من ان يضارهم في تحقيق هذين الغرضين. ولكن الله لا يفرض عليهم ان يكونوا قضاة ولا ان يكونوا اساتذة للغة العربية ، ولا ان يتولوا من مناصب الدولة ما يطمحون الى التسلط عليه» ويقول: «ولا ان يتولوا مدرسة :ين قبل كل

(١) عن مجلة الهداية الإسلامية : الجزء الثاني من المجلد الأول.

شيء وبعد كل شيء» ويقول: «وهنا نصل إلى نقطة لا شك أن كثيرين من أنصار الإصلاح الأزهري (وربما كان منهم الاستاذ المراغي نفسه) يخالفوننا فيها اشد الخلاف. فهم يريدون ان يؤ اسوا بين الازهريين وغيرهم من طلاب المدارس المدنية من حقوق التمتع بمناصب الحكم والتصرف في شؤ ون الدولة» ويقول: «فخليق بالذين يسعون الى إصلاح الأزهر ان يعرفوا قانون توزيع الأعمال حرمة فيتركوا القضاء للقضاة والتعليم للمعلمين ويكتفوا بما قسم الله لهم وما فرض الله عليهم من الوعظ والإرشاد والدعوة الدينية». قال هذا ثم حمد الله على أن الشعوب الإسلامية لا زالت تقدس دينها وتحرص عليه وتتوق الى رفع شأنه وإعلاء كلمته في الأرض.

وبعد أن ذهب إلى أن المتخرج في المعاهد الدينية لا يسمح له بعمل غير الوعظ والإرشاد والدعوة الدينية، وضع للتعليم بها منهجاً، وانقلب بعد وضع هذا المنهج صوفياً في صومعة وبيده سبحة فقال يعظ الأزهر وهو يعني اهله: وليدع الدنيا للذين تعنيهم أعراض هذه الحياة الدنيا، فقد صدق الله حين قال: ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح﴾ فليدع الأزهر هذا الهشيم الذي تذروه الرياح وليدع الأزهر هذا الزبد الذي يذهب جفاء، وليس الأزهر اشد عناية بما ينفع الناس ويمكث في الأرض، وهو تفقيه المسلمين في دين الله ودعوة غير المسلمين الى دين الله.

هكذا يكتب الدكتور طه حسين في إصلاح المعاهد الدينية، ولولا الحذر من أن يكون لمثل هذا المقال أثر في بعض النفوس الغافلة لضربنا عنه صفحاً وتركناه يذهب كما يذهب الزبد جفاء، اوكما يذهب الهشيم الذي تذروه الرياح.

الغاية من هذا المقال ماثلة أمام قرائه، وهو مصنوع على شاكلة ما يكتبونه حين يقصدون الى إيهام السذج ان الإسلام دين لا صلة له بالقضاء ولا بشؤون الدولة، ولطالما كتب أهل العلم في تقويمهم وأروهم ان في الإسلام اصولاً قضائية، ونظماً اجتماعية، فأصروا واستكبروا استكباراً.

لنترك حوارهم في هذا الشأن، فإن المسلمين بحق يقرؤ ون كتاب الله ويستمعون الى من يقرؤوه فيشهدون ان الإسلام اتى بأصول تسلك في شؤون الجماعة وتتغلغل في أحشاء الدولة، وانه اسمى من أن يرضى لعلمائه البعد عن

مناصب الحكم والنظر في إدارة شؤ ون الأمة .

الغرض من المعاهد الدينية درس العلوم الإسلامية والعلوم العربية وما يتصل بها من نحو المنطق والفلسفة[1] والتاريخ ، ثم ما تدعو اليه الحاجة من العلوم والفنون الأخرى بمقدار ، وإذا سارت دراسة هذه العلوم على طريقة منتظمة وأسلوب موزون ، كان في وسع هذه المعاهد ان تخرج لنا رجالاً للقضاء وأساتذة للغة العربية وآدابها ، وكان في وسعها ان تخرج لنا رجالاً يقومون بجانب من إدارة شؤون الأمة ، كما يكون في وسعها ان تخرج للناس مرشدين الى الآداب الفاضلة ، ودعاة الى الدين الحنيف.

وإذا كانت علوم اللغة العربية وآدابها تدرس في هذه المعاهد ، بإتقان وكانت علوم الفلسفة والمنطق والتربية والتاريخ تدرس بتبسط وعلى أسلوب قويم، فما الذي يمنع المتخرجين في هذه المعاهد من أن يكونوا أساتذة لهذه العلوم في مدارس الحكومة ؟ .

وإذا كانت أصول الشريعة وأحكامها تدرس على مناهج تمكن الاخصائي فيها من ان يفصل في القضايا على سنة العدل والمساواة، فما الذي يمنعهم من أن يتقلدوا منصب القضاء ويجلسوا للحكم بين الناس، وإذا بنى الكاتب مقاله على فرض الغاء المحاكم الشرعية من القطر المصري فقد بنى خيالاً على خيال، إذ لا يقدم على هذا العمل إلا الجاهل بنفسيات الشعوب يوم تشعر بحقوقها وتطمح الى ان تتمتع بحريتها، ولا حرية للشعوب الإسلامية إلا ان تساس بأحكام شريعتها.

نفهم جيداً كيف لا يكون المتخرج في المعاهد الدينية مهندساً أو طبيباً ،

---

(١) يؤسفنا ان يدعو الكاتب الكبير الى دراسة الفلسفة والمنطق ، فهما من العلوم التي نهى علماء السلف وأئمة المذاهب على دراستها لما تسببه من انحراف وتضليل أو سببته للأمة الإسلامية منذ العصر العباسي ، فانقسموا الى فرق متنازعة ابتعدت عن الإسلام، وقد قال الإمام ابن تيمية رحمه الله في فتاويه: «ان الله لن يغفر للمأمون ولا بد أنه سيعاقبه بسبب ترجمته للكتب الفلسفية .»

ويحسن ان نذكر بهذه المناسبة. رسالة صغيرة ألفها آخر أيامه الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق؛ باسم «الفلسفة والحقيقة» اعترف فيها بضلال الفلسفة وأنها لا يمكن أن توصل إلى الحقيقة . . .

ومثل الفلسفة المنطق وقد حمل عليه علماء السلف أمثال الإمام ابن تيمية وابن الصلاح وغيرهما ، حملات شعواء . .

ونفهم جيداً كيف لا يكون المتخرج في المعاهد الدينية إذا لم يكن ملماً بلغة أجنبية وزيراً او سفيراً، ولكنا لا نستطيع ان نفهم كيف لا يكون قاضياً في المحاكم ، ولا نفهم كيف لا يكون استاذاً للغة العربية في مدارس الحكومة ، ولا نفهم كيف لا يطمح الى التسلط على جانب من منصب الدولة .

إلا ان الحكومة الرشيدة هي التي تدخل في مدارسها ومحاكمها ودوائرها من الطائفة التي أُشربت روح الدين الخالص فريقاً يكونون وقاية لها من ان يسرى فيها وباء الإباحية والزيغ فيهلكها، وما فشت الإباحية والزيغ في أمة إلا ذهبت قوتها المعنوية ، وإذا لم يكن لها مع هذا قوة مادية كافية فبطن الأرض خير لها من ظهرها .

تلك الحكومة التونسية ـ وهي تحت نفوذ دولة غير اسلامية ـ قد ادركت كفاية المتخرجين في المعهد الزيتوني للقيام بالقضاء وإدارة شؤ ون الدولة ، فلم تستطع ان تحرمهم من مناصب القضاء والعمل بدوائر الحكومة فتجد المتخرج في المعهد الزيتوني استاذاً في مدارس الحكومة ، وقاضياً بالمحاكم الاهلية بله المحاكم الشرعية ، وتجده في دوائر الأوقاف والمالية والحقانية ، بل تجد للزيتونيين مكاتب في الرياسة العامة ؛ والفرنسيون انفسهم يشهدون لهؤلاء الزيتونيين بالكفاية والبراعة في تطبيق النظم والقوانين ، ولن تبلغ مصر إن شاء الله برجال دولة يكونون أقسى قلوباً على أبناء المعاهد الدينية من الحكومة الفرنسية .

وإذا شوهد في بعض المتخرجين في هذه المعاهد قصور في التعليم او الإدارة فهو بمقدار ما يقع فيه اخوانهم من المتخرجين في المدارس الأخرى ، وإذا صح ان يكون هذا القصور ظاهراً فيهم اكثر مما يظهر في غيرهم فإنما هو أثر التعليم الذي ننادي بإصلاحه وتنظيمه ، ومتى صلح التعليم وتهذبت طرقه اخرجت هذه المعاهد رجالاً يجمعون الى طهارة الذمم والاستقامة على الطريقة ،ثقافة صافية وعملاً ناصحاً .

وإذا كانت معرفة العلوم الإسلامية في نظر الكاتب ذنبا أو عيباً يستحق به صاحبه ان ينفى من دوائر الحكومة ومدارسها ومحاكمها ، فذلك رأي قد يوافقه عليه قوم لا يشعرون وآخرون لا يهتدون ، اما من لهم السلطان على هذه المعاهد فلم يزالوا بنعمة الله يشعرون ويهتدون ، وأخالهم حين يمرون بمقال هذا الكاتب لا يمرون به الا

كراماً، كما انه لا يلقى من طلاب هذه المعاهد إلا ازدراء.

خير للكاتب ان يترك الخوض في إصلاح المعاهد الدينية [1] جانباً ففي هذه المعاهد اليوم حياة غير ماكان بعهده، وفي هذه المعاهد فتيان وكهول عرفوا قيمة ما يدرسون، فهم لا يبتغون سوى إصلاح مناهج التعليم، وهم لا يرضون إلا ان يقفوا مع اخوانهم المتخرجين في المدارس الأخرى جنباً لجنب، وكذلك حكمة الإسلام الخالص تنبت في نفوس دارسيها ارادات قوية وهمما طماحة الى المعالي، وتعلمهم أن يكونوا في الصف الأول من صفوف العاملين لإصلاح شأن البلاد، وإعزاز جانب الأمة.

ولقد أبى ذلك الكاتب إلا ان يختم مقاله بشيء من المزاح، فدعا طلاب العلم بهذه المعاهد ان يدعوا الدنيا واعراضها، وتلا الآية الكريمة في غير موضعها. ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا﴾ إنما يراد بها كبح جماح المفتونين بزينة هذه الحياة، فخطابها لا يختص بالمتخرجين في المعاهد الدينية، بل هم وأساتذة الجامعة وسائر المسلمين امام موعظتها الحسنة على سواء.

إنّ جميع هذه المعاهد - ويا للأسف - لا تدرس الكتاب والسنّة كأصلين وحيدين للشريعة، بل تدرس المذاهب الفقهية، وتأمر المسلمين أن يتعبدوا الله تعالى بأقوال رجال غير معصومين، كانوا رحمهم الله تعالى نهونا عن تقليدهم وذموا التقليد وأعلن كل منهم أنه غاب عنه كثير من حديث رسول الله بسبب عدم جمع السنة في عهدهم، وهذا من أهم أسباب اختلاف الأئمة في تحليل وتحريم الحكم الواحد، مما لا يقبل به عقل، فضلاً عن رب العالمين القائل: ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ وقد نهى عن الاختلاف في آيات عديدة وكقوله: ﴿ ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، كل حزب بما لديهم فرحون ﴾.

---

(١) غفر الله تعالى للعلامة محمد الخضر حسين على تفائله، فإن هذه المعاهد الدينية، وفي مقدمتها الأزهر، ومثلها أكثر كليات الشريعة تدرس كل شيء، إلا الإسلام الصحيح، الإسلام النقي، مما جعل الدين غريباً مصداقاً لقوله صلى الله عليه وآله وسلّم: « طوبى للغرباء، أناس صالحون في أناس سوء كثير!! من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم» رواه الإمام أحمد عن ابن عمر وسنده صحيح.

إنّ المسلمين أغلب المسلمين قد تركوا جميع هذه التوجيهات وتمسكوا بالحديث الموضوع : «اختلاف أُمتي رحمة »!! وأذكر بهذه المناسبة أني كتبت الى عميد كلية الشريعة بدمشق منذ اكثر من خمسة عشر عاماً، وكانت هذه الكلية تدرس المذهب الحنفي وحده ! فكان مما قلته له :

«إن كلية الشريعة في العادة تخرج بداية مجتهدين ودعاة ، وخاصة إلى الغرب فلا بد من تدريس «الفقه المقارن» بين المذاهب الأربعة وغيرها واختيار من كل منها ما وافق الكتاب والسنّة وترك غيره دون تعصب لمذهب من المذاهب»

كتبت ذلك مراراً وفي عدة سنوات ، وأخيراً قبلت الهيئة التعليمية ذلك وأبلغتني ذلك .

ولكن حدث ـ ويا للأسف ـ ما ليس في الحسبان ، فإن هذه المادة مادة الفقه المقارن ، أسندت إلى اساتذة غير أكفاء ، والأكفاء منهم نادرون في العالم الاسلامي لجهلهم بعلم الحديث ومصطلحه ، فأخذوا يخبطون خبط عشواء ، ويرجحون قول الجمهور مخدوعين بالكثرة ، وراح المغرضون والمتعصبون منهم يجدون الحجة لكل صاحب مذهب ويشجعون المذهبيين من أهل العلم وطلابه بتمسك كل منهم بمذهبه

فكان ما كان مما لست أذكره
فظنّ شراً ولا تسأل عن الخبر .

ولم يكتف هؤلاء الاساتذة بكل ذلك ، بل راحوا يسخرون أمام الطلبة بدعاة الرجوع الى الكتاب والسنة ويتهمونهم بالجهل وغيره من الصفات الذميمة دون أن يجدوا من يرد عليهم ويلقمهم حجراً أو حجارة ، ولله در القائل:

وإذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعان وحده والنزالا!

وهكذا راح هؤلاء المعتدين الذين يسمون اساتذة يحملون أوزارهم وأوزار من يضللونهم . . .

كل ذلك يدعو إلى إصلاح المعاهد الدينية ، وفي مقدمتهم :الأزهر ، إذا كنا نريد الرجوع الى الاسلام الصحيح والفوز بنصر الله تعالى الذي وعد به عباده المؤمنين في آيات عديدة

ومما يؤسف له أن بعض المغفلين يعتقدون الخلافات المذهبية في كل واردة وشاردة دليل على خصب الشريعة ، حتى راحوا يؤلفون الموسوعات في ذكر آراء المذاهب الثمانية :الحنفية ،والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية ، والظاهرية والأباضية ، والشيعية والزيدية مصحوبة أحيانا بأدلة ضعيفة .

ومع ذلك يطلبون عرض كل ذلك على الغربيين ليسلموا بهذه المهزلة !! وإلى القارىء هذا الموقف المؤسف:

جاء في كتاب : «ظلمات من الغرب » للاستاذ محمد الغزالي (ص ٢٠٠) ما يلي : «حدث في المؤتمر الذي عقد في جامعة برينستون» بأمريكا أن أثار أحد المتحدثين سؤالاً ، كثيراً ما يثار في أواسط المستشرقين والمهتمين بالنواحي الاسلامية قال:

« بأي التعاليم يتقدم المسلمون الى العالَم ، ليحددوا الاسلام الذي يدعون اليه؟!

أبتعاليم الاسلام كما يفهمها السنيون ؟ أم بالتعاليم التي يفهمها الشيعة من إمامية أو زيدية ؟

ثم إن كلاً من هؤلاء وأولئك مختلفون فيما بينهم»

وختم هذا المتحدث بقوله اللاذع :«والخلاصة إن الداعين إلى الإسلام يتركون المدعوين إليه في حيرة ، لأنهم هم أنفسهم في حيرة!!»

وقد حاول الشيخ محمد الغزالي في كتابه المذكور الرد على القول السابق بكلام

لا طائل تحته ؛ وكنا نأمل الا يصدر عنه ، لأن كلام المتحدث السابق حق ، ولا يستطيع أحد أن يرد عليه رداً صحيحاً

لهذا كله ينبغي قبل أن نتقدّم بالاسلام إلى الغربيين وغيرهم أن ننقيه من البدع والاوهام والخرافات التي لحقت به وشوهت جماله ثم نختار من كل مذهب من المذاهب الأربعة وغيرها ما صح دليله ونترك ما عداه دون تعصب.

والحذر الحذر من الاصغاء الى بعض المغفلين من دعاة الاصلاح والتجديد ، «بأن يكون هذا الاختيار من المذاهب السابقة بما يوافق البيئة وما يلائم الغربيين من أقوال هذه المذاهب» التي أباح أحدها شرب الخمر من غير العنب على ألا يتناول الشارب القدح الأخير الذي يسكر به

وبهذا الاقتراح الفاسد نكون قد خرجنا من الاسلام ، وقدّمنا الى الناس اسلاماً أوروبياً وأمريكياً بعيداً عن شرع الله تعالى فيا للمهزلة ويا للخيانة !

ينبغي أن نؤمن ونعتقد أنّ الاسلام دين ثابت لا اختلاف فيه يطور ولا يتطور ويغيرّ ولا يتغيرّ ، يوحد ولا يفرّق ويجمع ولا يشتت ، يعلو ولا يُعلى عليه . يجمع البشرية على تشريع ثابت وخاصة في هذا العصر الذي أفلست فيه جميع التشريعات من غربية وشرقية من اجتماعية واقتصادية وغيرها بعدما سببت لأصحابها النكبات وباتت تهدد البشرية بالفناء والحضارة بالانقراض .

ولم يكن هذا الصنيع قابلاً للتطبيق ومستساغاً للعالم أجمع بعدما أصبحت الكرة الأرضية كمدينة واحدة او حي واحد بسبب التقارب نتيجة رقي المواصلات ووسائل الإعلام.

ولا تقتصر هذه المعاهد الدينية لتقتصر على ما سبق ، فإنها تدرس بالاضافة إلى ذلك المنطق ، وعلم الكلام، والفلسفة والتصوف كحقائق علمية ضرورية لصرف المسلمين عن دراسة دينهم الحق وتسميهم بالضلالات السابقة ، وقد نهى جميع علماء السلف في خير القرون ، وأئمة المذاهب عن كل ما سبق وحضوا المسلمين على هجر المشتغلين بها ومقاطعتهم ودعوا إلى تعزيرهم وضربهم بالجريد والطواف بهم في الأسواق مما لا مجال لتفصيله في هذا البحث

وقد اطلعت على منهاج كلية اصول الدين في الأزهر، قسم العقيدة ، فوجدته يشتمل على البحوث السابقة دون التعرض إلى العقيدة الاسلامية الصحيحة وإلى القارىء مواده:

« المنطق ، علم الكلام ، الفلسفة اليونانية ، الفلسفة المسماة ظلماً وافتراء بالفلسفة الاسلامية، الفلسفة الهندية ، الفلسفة الأوروبية، المقارنة بينها »!!

لمثـل هذا يذوب القلـب من كمـد
ان كان في القلـب اخـلاص وإيمان!

ومما يؤسف له انني اطلعت على آراء الكثيرين في إصلاح الأزهر، فما وجدت أحداً - كما اعلم - منذ عهد الشيخ محمد عبده ، من تصدى إلى ما سبق، وأكثرهم شكوا من الأمور الإدارية والمحسوبيات. . . ولم يتكلم احد عن الجوهر. .

ولي رأي في ذلك، يتلخص بوجوب المسارعة إلى إصلاح الأزهر وغيره من الجامعات والكليات الشرعية ، وإلا كان ضررها أكثر من نفعها ، وخطرها رهيب ومدمّر، فهي تزعم أنها تدرس الإسلام، والإسلام من كل ذلك براء!!

مؤامرة تيسير اللغة وتطوير النحو[1]

بقلم: الدكتور محمد محمد حسين

إنَّ أخشى ما يخشاه المستعمرون ، ومن ورائهم من المبشرين والمستشرقين : هذا العالم العربي الواسع الفسيح من المحيط إلى الخليج الزاخر بمنابع الثروة النفطية والمعدنية ، الذي يتكلم أهله لغة عربية واحدة . وهذا العالم هو قلب العالم الإسلامي المؤلَّف من ألف مليون نسمة يشعر بشعور العرب ويفرح بفرحهم ، ويألم لألمهم ، الأمر الذي يشكل أكبر خطر على الاستعمار .

جاء في كتاب التبشير والاستعمار للدكتور عمر فروخ وزميله الخالدي إنا نجد بوضوح الحملة على الفصحى . ومثلها تطوير اللغة العربية بحجة تيسيرها ، إنما هي في حقيقتها حملة على اللغة التي تجمع بين العرب والمسلمين ، وحملة على العروبة والإسلام ، وأمنية في أن يُصبح القرآن كتاب دين لا صلة له بالحياة يستطيع نفر من المسلمين أن يقرؤ وه من غير أن يفهموا منه شيئاً ، ومن غير أن يشعروا بما فيه ، إلا كما يشعر الوثني إذا نظر إلى صورة معلَّقة في الجدار ، أو إلى وثن قائم على قاعدة من الحجارة .

غير أن الله الذي جعل في القرآن من عناصر الخلود ، ما حفظه إلى اليوم بينما جميع اللغات التي كانت في عصره أو بعد عصره انقرضت وانقرض المتكلمون بعدد كبير منها ، سيجعله خالداً أبداً على الرغم من أنوف أعدائه .

ونرى المستعمرين قد حشدوا قواهم المادية والعسكرية والإعلامية منذ عهد

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها ص ٢٣٠ ـ ٢٧٥ باختصار .

بعيد إلى يومنا هذا ، لمحاربة اللغة الفصحى وإحياء اللغة العامية لكل قطر باختلاق أسباب سخيفة وكاذبة وخاطئة ، كل ذلك لتمزيق العالم العربي ليصبح كل قطر غريب عن القطر الآخر كما حدث في الشعوب الجرمانية واللاتينية فتزول الجامعة العربية ويدب الضعف إلى الشعوب العربية ، ولا يعود يفهم بعضهم بعضاً وتفقد قوتهم العسكرية والسياسية .

قال أندريه جيد في مقدمته لكتاب « الأيام » يُثني على جهود مؤلفه طه حسين في هذا المضمار المدمر ، « . . لقد علمت أن باكورة إنتاج طه حسين حول الشعراء الجاهليين أو بالأحرى ضدهم . قد استتبع ضجة وصخباً هائلين » .

ولا شك في أن التحرر هو بداية التقدم في هذا العالم العربي الحريص جداً على احترام وتكريم ما ضيعه . إن مصر لم تشهد كما شهدت جارتها اليونان . من تلك اليقظات المتتابعة ، أو من تلك الأناشيد الشعرية الحماسية التي تكون فعّالة نحو تجديد اللغة القديمة ، وبث نفس دائم من أجل تجديد اللغة القديمة ، وبعث نفس دائم من أجل تجديد التعبير عن الفكر . . . وعن الشعور . وهكذا يبقى الأدب العربي ساكناً . واللهجة العامية تبتعد عنه بحيث أن الكتابة القلمية وهي الوسيلة الوحيدة المقبولة والمستحسنة والصالحة للتعليم أصبحت مع الأيام غير مستطيعة للتعبير عن أي شيء يتعلق بالعصر الراهن وبعبارة أخرى أصبحت عاجزة عن التعبير عن أي شيء حي !

وهكذا لا يُدهشني كثيراً القول بأن « التحرير » الذي تم على يدي طه حسين قد بدأ باللغة نفسها قبل أن يبدأ بأي شيء آخر . . . وذلك أنه ليست ثمة ثورة عقلية أو أخلاقية لا تتطلب ، بل لا تقود إلى تحديد شكلي وإلى تنقيح وتغيير في التعبير[1] .

هذه العبارة الصريحة للكاتب الفرنسي الشهير تلخص دعوة طه حسين وخاصة إذا أضفنا إليها دعوة هذا الدكتور إلى اللغة اليونانية .

فهو يريد إبعاد اللغة العربية عن تراثها القديم والتشبه باللغة اليونانية التي تطوّرت فأصبحت عدة لغات فرنسية وإيطالية ويونانية حديثة وانقسم نتيجة ذلك

(١) مجلة الثقافة العربية الليبية السنة الأولى العدد الثالث عشر ـ ذو القعدة وذو الحجة ١٣٩٤ ونوفمبر ـ تشرين الثاني ١٩٧٤ ص ٣٦ .

شعب اليونان الأم إلى شعوب عديدة لكل منها لغة خاصة .

وهذه الدعوة إلى العامية آخذة في التفاقم على الرغم من هجوم المخلصين على دعاتها ، ففضحوا مؤامرتهم ، ولكنهم دائبون دون ملل ، وكيف يملون ومن ورائهم دوائر الاستعمار تمدهم بالمال والنفوذ .

ولما باتت هذه الدعوة إلى العامية مفضوحة ، فقد أخذ الاستعمار ينسج إلى جانبها حيلة أخرى لتحقيق هذا التمزق وذلك عن طريق الدعوة إلى تيسير النحو وتطويره بغية إبعاد العرب عن القرآن ولغته .

في البحث التالي جهود طه حسين وبعض أنصاره وأعوانه في هذا المضمار ، بينما لا نجده يتحدث عن تعقيد اللغات الأجنبية التي تُضرب الأمثال في صعوبتها .

أما الإقتراحات التي تدعو إلى مسخ قواعدنا في اللغة وفي النحو وفي الإملاء والخط ، فقد جاءت على لسان طه حسين ، وصفيه إبراهيم مصطفى الذي صدع بوحيه حين ألّف منذ عشرين عاماً كتاباً ميتاً في النحو سماه « إحياء النحو » . ألقى طه حسين محاضرة دعا فيها إلى العدول عن قواعد النحو الثابتة المتدارسة التي اجتمع عليها العرب والمسلمون زاعماً أنها لم تعد صالحة وأنها هي السبب في ضعف الطلاب وتخلفهم (٢٢٨ ـ ٢٤٠) .

وليس الخطر الكبير في الدعوة إلى العامية ، ولا هو في الدعوة إلى الحروف اللاتينية ، أو الدعوة إلى إبطال النحو وقواعد الإعراب أو إسقاط بعضها فالداعون بهذه الدعوات من صغار الهدامين ومغفليهم الذين ليس لهم خطر العتاة ممن يعرفون كيف يخدعون الصيد بإخفاء الشراك ، وكيف يستدرجون الناس بتزوير الكلام . إن الخطر الحقيقي هو في الدعوات التي يتولاها خبثاء الهدامين ممن يخفون أغراضهم الخطيرة ويضعونها في أحب الصور إلى الناس ، ولا يطمعون في كسب عاجل ، ولا يطلبون انقلاباً كاملاً سريعاً . الخطر الحقيقي هو في قبول مبدأ التطوير نفسه ، لأن التسليم به والأخذ فيه لا ينتهي إلى حد معين أو مدى معروف يقف عنده المطورون ، ولأن التزحزح عن الحق كالتفريط في العرض ، فالذي يقبل التزحزح عن الحق قيد أنملة مرة واحدة يهون عليه أمثالها مرة ثم مرات حتى يسقط إلى الحضيض ، ومن

اعتراه شك في حقيقة ما يراد بقرآننا وبلغته وبإسلامنا وكل تراثه فليقرأ قول طه حسين في كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » : (وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون ، وليست أقل منا إيثاراً لدينها ولا احتفاظاً به ولا حرصاً عليه ، ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تُفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي فيها صلواتها ، فاللاتينية مثلاً هي اللغة الدينية لفريق من النصارى ، واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر ، والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع[1] . . . وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي اللغة العربية ، ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيماناً بالإسلام . وإكباراً له وذوداً عنه وحرصاً عليه (الفقرة ٣٦ ص ٢٢٩ ـ ٢٣٠ من طبعة المعارف ١٩٤٤) . فإذا وعى القارىء هذا القول وما وراءه فليُلق بكل ما سواه في وجه صاحبه ، لأنه ضرب من النفاق ، وأسلوب في الكيد .

على أن تقديس لغة القرآن والتزام أصولها وقواعدها وأساليبها لم يكن في يوم من الأيام داعياً إلى تحجر اللغة ، وجمود مذاهب الفن فيها ، ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة ، كما يشنّع به الهدامون ويخدعون به الأغرار وصغار العقول وقصار الهمم فليس التطور نفسه هو المحظور ، ولكن المحظور ، هو أن يخرج هذا التطور عن الأساليب المقررة المرسومة . وذلك يشبه تقيد الناس في حياتهم الاجتماعية بقوانين الدِّين والأخلاق . فليس يعني ذلك أنهم قد استُعبدوا لهذه القوانين ، وأنها قد أصبحت تحول بينهم وبين مسايرة الحياة أو الاستمتاع بخيراتها ولذائذها . ولكنه يعني أنهم يستطيعون أن يغدوا وأن يروحوا كيف شاءوا ، وأن يستمتعوا بخيرات الدنيا وطيباتها ويتصرفوا في مسالكها ويمشوا في مناكبها ، كل ذلك في حدود ما أحل الله وكل ذلك مع التزام الوقوف عند حدود الله . كذلك اللغة ، وضع اللغويون والنحاة والبلاغيون لها حدوداً طابقوا بها مذهب القرآن وكلام العرب

---

(١) ليس هذا الكلام من صنع طه حسين فهو ترديد لما قاله القاضي الإنجليزي ولمور I. Selden Willmore . من قبل في كتابه « عامية مصر » The Spoken Arabic of Egypt ص ١٥ من طبعة لندن ١٩٠١ .

وتركوا للناس من بعد أن يستحدثوا ما شاءوا من أساليب ، وأن يتصرفوا فيما أرادوا من أغراض ، وأن يجددوا ما أحبوا مما يشتهون ومما تتفتق عنه عبقرياتهم . ولكن كل ذلك لا ينبغي أن يخرج بهم عن الحدود المرسومة . فماذا في ذلك غير ضمان الإستقرار والحرص على جمع الشمل ؟ وهل عاق ذلك عرب بغداد وعرب الأندلس عن الإفتنان في القول وفي مذاهب الفن ؟ وهل ضاقت معه عربية البدو عن الاتساع لما نقل العرب وما استحدثوا من معارف وعلوم ؟ .

زعم رئيف أبو اللمع الأمين العام المساعد للشؤون الثقافية في مقدمة الكتاب (أن على اللغة أن تساير المجاري المتدفقة المسرعة من تحوير وتبديل وتعديل وتجديد ، فإذا لم تتبع اللغة العربية سنة النشوء والارتقاء فقدت عناصر الحياة ـ ص ٢) . وزعم الزيات عضو مجمع القاهرة أن إزالة السد القائم بين الفصحى والعامية سيقضي على (مساوىء الفصحى أو عنجهيتها فتموت كما يموت الحوشي المهجور من كل لغة ـ ص ٨٥) ، والواقع أن هذا التطور الذي يتحدث عنه الأمين على ثقافة العرب حادث فعلاً ، ولكنه يحدث من تلقاء نفسه ولا تحشد له المؤتمرات لتصطنعه .

والتطور على كل حال ينبغي أن يكون بالقدر الذي لا يقطع صلتنا بالماضي ، وبالقدر الذي لا يخشى معه أن يتطور إلى قطع صلة الأجيال المقبلة بالجيل الماضي أيضاً بحيث يتحول قرآننا وحديث نبينا وفقه فقهائنا إلى طلسم لا يقرؤه إلا طبقة من الكهان يحتكرون تفسير الإسلام . هذا التطور واقع ، لأن حاجات الحياة تدفع اليه ، فالناس مضطرون إلى التعبير عن أنفسهم وعن الحياة في مختلف نواحيها : في أدبهم وفي صحفهم وفي إذاعاتهم التي تحكي ما يجري في الحرب والسِّلم ، وفي قصصهم وفي كتبهم العلمية التي تضطر إلى استحداث الألفاظ لما يُستحدث من آلات أو أدوات أو متاع ، ومن كشوف جديدة أو حقائق أو نظريات . والمهم في ذلك كله هو أن يحرص العرب على استعمال لغتهم العربية في كل هذه الميادين ، كما دعا إلى ذلك بحق وإخلاص عارف النكدي عضو الوفد السوري (ص ٨٩ ـ ١٠٤) وكما انتهى إليه المؤتمر في توصياته (ص ٢٧٨) ، فتحرص الإذاعات والصحف ومنابر العلم عامة والجامعات خاصة والقضاء والمؤتمرات على اللغة الفصحى . هذا هو السبيل الطبيعي للتطور ، وما عداه فهو وسائل صناعية لا تُؤدي إلا إلى البلبلة ، وهي جعجعة بلا طحن . أما ما زعمه عضو مجمع القاهرة من موت الحوشي وتصفية

اللغة وتنقيتها فهو لا يتوقف على تفاعل الفصحى مع العامية كما يزعمه . فالحوشي يموت بطبعه كما يذهب كل باطل وكل ثقيل وكل مستهجن غير صالح ، لأن الأدباء والشعراء والعلماء ينفرون من استعماله . وهؤلاء هم في الحقيقة ـ بما وُهبوا من ذوق ـ صناع اللغة . وهم الذين يقومون بمهمة التصفية التي يتحدث عنها الكاتب ، ومن وراء هؤلاء الأدباء والشعراء والعلماء الذوق العربي العام الممثل في جمهور القراء والرواة ، فهم الذين يحكمون على الصالح بالبقاء لأنهم يتناقلونه خلفاً عن سلف ، وينشرونه في الآفاق ، بينما يحكمون على الساقط والسخيف الركيك بالموت ، لأنهم يهملونه ولا يكترثون له . وهؤلاء هم المحكمة الصادقة التي لا تخضع للأهواء ، ولا يجوز عليها التزييف والتزوير .

وطه حسين ومن ذهب معه مثل مندوب تونس في هذا المؤتمر يوهمون الناس بأن هناك خطراً على العربية الفصحى أن يهجرها الناس إلى العامية إذا لم تخضع لما يريدونه من تطور (ص ٢٨٣ ، ٢٠٩) . ويبني مندوب الحكومة التونسية على هذا الوهم أو الإيهام اقتراحاً بأن (يشتغل عدد من علمائنا باللغات العامية وأن يدرسوها دراسة دقيقة ـ ص ٢٠٩) كما يقترح على المجامع اللغوية (أن تؤلف لكل قطر معجماً صغيراً ـ ص ٢٠٨) . والذي ينقض هذا الزعم الباطل من أساسه هو الواقع المشاهد في القديم السالف وفي الحاضر الراهن ، الذي أثبت أن العربية قد عاشت جنباً إلى جنب مع هذه اللهجات المحلية أكثر من ألف عام حتى الآن .

فالخوف من إعراض أصحاب اللغة العربية عنها هو وهم اخترعه هؤلاء المغرضون ، أو اخترعه لهم سادتهم ثم قاموا هم بترويجه . وينقض هذا الوهم أو هذا الزعم أن العربية قد استطاعت أن تحيا خلال بيئات متفاوتة وعصور متطاولة ودرجات من الحضارة والمدنية أدناها البداوة وأعلاها ما وصلت إليه في بغداد وفي الأندلس . استطاعت ـ وهي اللغة البدوية ـ أن تكفي حاجات ما جدَّ من علوم ودراسات . وظلت مع ذلك كله هي هي . نقرأ القرآن بعد أربعة عشر قرناً من نزوله فكأنه أُنزل اليوم ، ونقرأ الجاحظ والمتنبي بعد ألف سنة أو أكثر فكأنما نقرأ لكتاب ولشعراء معاصرين. وقد تجاوزت لغة الأدب الرفيعة ولغة الحديث العامية طوال هذه القرون على اختلاف البيئات فلم تطغ أحداها على الأخرى ، ولم تنفر إحداهما من

مجاورة صاحبتها . ومع ذلك فإن هذا الخطر الموهوم المزعوم يكفي في دفعه ـ ان كان ـ أن تحسن الدولة القيام على تعليم العربية في مدارسها وأن تُلزم باستعمالها في المجالس النيابية وفي دور القضاء وفي الإذاعة وفي المحافل والمجامع على اختلافها . ولا أظنني محتاجاً إلى أن أنبه للخطورة التي ينطوي عليها اقتراح مندوب تونس . وما أظن أن أحداً سينخدع بما يبدو في ظاهر قوله من البراءة حين يتظاهر ـ مثل طه حسين ـ بأنه معارض في استعمال اللغة العامية للكتابة الأدبية ، وحين يشترط في المعاجم المقترحة أن (لا تتضمن إلا الألفاظ العربية الفصيحة التي بقيت مستعملة بمعناها الأصلي في لغة ذلك القطر ـ ص ٢٠٨) فالمهم في الأمر هو أن معاجم اللغة العربية سوف تختلف باختلاف بلاد العرب وأقطارهم ، وأن المعجم التونسي والمعجم المصري والمعجم العراقي والمعجم الشامي والمعجم الحجازي والمعجم اليمني سوف تُصبح بتنفيذ هذا الاقتراح حقيقة واقعة . وهذه المعاجم المقترحة نفسها سوف تُصبح بدورها موضع تنقيح وتغيير وتعديل ، وسوف ينأى بها كل تنقيح جديد عن أصلها الأول ، حتى يتناكر المتعارفون ويتفرق المجتمعون ثم لا يُرجى لصدعهم رأب . ذلك هو المصير المظلم الذي يبدأ بدعوة خلابة براقة بريئة الظاهر إلى دراسة اللهجات والعناية بما يسمونه تمويهاً على الشعوب بالآداب الشعبية .

وقد اعتمد طه حسين على هذا الأسلوب نفسه في الدعوة إلى تبديل النحو والخط حين قال :(إن أبينا إلا أن نمضي كما كان النحو وكما كانت الكتابة فلا بد أن تنشأ عن هذه اللغة العربية الفصحى القديمة لغات مختلفة كما نشأت الفرنسية والايطالية والبرتغالية عن اللغة اللاتينية القديمة ـ ص ٢٣٨) . ويخدع الناس عن حقيقة ما يدعوهم إليه حين يعقب ذلك بقوله : (وبعد فلا أدعو أن تهجروا القديم مطلقاً ، وعسى أن أكون من أشد الناس محافظة على قديمنا العربي ، ولا سيما في الأدب واللغة . ولكن لم لا يكون النحو القديم والكتابة القديمة والبلاغة القديمة وكل هذه العلوم العربية التي أُنشئت في عصر غير هذا العصر الذي نعيش فيه . . . لمَ لا يكون هذا كله متطوراً كما تطورت اللغة ؟ نحفظ قديمه لدرس المتخصصين في الجامعات وفي المعاهد ونُتيح للملايين البائسة من الصبية والشباب أن يتعلموا تعلماً قريباً سهلاً ـ ص ٢٣٨) .

والعجيب في الأمر أن منصور فهمي يُشيد بعد ذلك فيما أحصاه من محاسن

مجمع القاهرة بجهوده في (تيسير النحو والصرف والإملاء) و(دراسة اللهجات العربية) و(تيسير الكتابة والخط) . فهل أصبحت مهمة مجمع اللغة العربية في القاهرة هي دراسة اللهجات العامية وتبديل قواعد النحو والصرف والإملاء والكتابة بحيث يصبح أي أثر من آثارنا طلسماً من الطلاسم ، بل بحيث يكون هذا نفسه هو مصير كل أثر عربي معاصر لا يتبع مذهب مجمع القاهرة في التغيير والتبديل ، وماذا يحدث إذا نهج مجمعنا في تيسير النحو والصرف والبلاغة على غير منهج المجامع العربية الأخرى ؟ بل ماذا يحدث إذا اتفقت مجامع العرب على أشياء ورفضها المسلمون ؟ لأن المسلمون إنما يدرسون هذه العلوم للإطلاع على مصادر دينهم ، وهي جميعاً تستعمل إصطلاحات النحاة والبلاغيين التي يسمونها قديمة . وإذا انصرف الناس في مصر عن دراسة كتب (النحو القديم) و(البلاغة القديمة) كما يسميها طه حسين وحزبه ، وجروا وراء كل ناعق يزعم أن القواعد القديمة معقدة ، وذهب كل منهم مذهبه في استنباط قواعد جديدة ، وتسمية المسميات بأسماء مبتكرة فقدت الإصطلاحات قيمتها . فإنما ترجع قيمة الإصطلاح إلى تواضع الناس عليه ، فإذا اختلف الناس فيه لم يعد اصطلاحاً . فإذا قال أحدهم مثلاً (هذا فاعل) لم يفهم عنه الذي لا يسمي الفاعل فاعلاً لأنه قد ابتكر له اسماً جديداً فسماه (موضوعاً) أو (أساساً) أو (مسنداً إليه) أو (ركناً) . وإذا قال أحدهم هذا حال أو تمييز أو ظرف أو مفعول معه أو مفعول لأجله لم يفهم الآخر الذي لا يميز بين حالة من هذه الحالات لأنه يسميها جميعاً (تكملة) . وقس على ذلك سائر قواعد النحو والبلاغة[1] .

والنحو العربي - ولا أقول « النحو القديم » كما يسمونه - ما عيبه ؟ وهل هو حقاً كما يزعمون معقد صعب ، وهل ثبت فشله كما يزعمون في تنشئة جيل عربي يقيم عربيته ويحسن تذوقها ؟ نحونا وبلاغتنا لا عيب فيهما . ومن الممكن تبسيطهما واختصار المطولات المؤلفة فيهما في حدود القواعد والأقسام التي التزمها القدماء أنفسهم . فالواقع أن اجتماع الناس في كل أمصار العرب - بل المسلمين - على قواعد موحدة ، دون أن تحملهم على ذلك قوة قاهرة أو تلزمهم به سلطة منفذة ، أو

(١) راجع مجلة مجمع اللغة العربية (٦ : ١٨٨) وراجع كذلك كتاب القواعد الذي تداوله طلبة السنة الأولى من المرحلة الإعدادية في العام الدراسي المنصرم .

تقوم على نشر دعاية تُروجه وعصابات تسوق الناس إليه ، هذا الاجتماع على قواعد موحدة في النحو والصرف والبلاغة بعد أن كانت مدارسها متعددة هو وحده الدليل الحي الذي لا ينقض على صلاحية هذه القواعد ، وعلى أن هذه الدعوات تغييرها بدعوى التيسير أو الإصلاح هي دعوات مفتعلة يروجها هدامون وينساق وراءها مغفلون . ولو كان القصد هو التيسير حقاً لقنعوا بصنيع لجنة (حفني ناصيف ، ودياب ، وطموم ، ومحمود عمر ، وسلطان محمد) في كتاب (قواعد اللغة العربية لتلاميذ المدارس الثانوية) الذي ظلت مدارسنا تتداوله سنين طويلة . فقد نجحت هذه اللجنة في حصر قواعد النحو والصرف والبلاغة في كتيب صغير لا يتجاوز مائة وأربعين صفحة ، خال من التعقيد ، يفي بحاجة التلاميذ والمتعلمين . وقد كان صنيع الجارم من بعد ذلك حسناً حين يسرّ هذه القواعد ومهّد لها بالأمثلة الكثيرة ، وأعان على إقرارها بالتمرينات المتعددة ،وكان ذلك كله في حدود القواعد التي أثبتت ألف سنة صلاحيتها ، والتي استطاع العرب بفضلها وحدها ـ ولا شيء سواها ـ أن يخرجوا في القرن الأخير هذا الجيش الضخم من الشعراء والأدباء والنقاد الذين بلغ بعضهم مستوى أندادهم الأقدمين في أزهى عصور الشعر والأدب العربي . وذلك من بعد أن أدرك الضعف العربية حتى كاد يدنيها من القبر كيف وُجد البارودي وشوقي ؟ وكيف نشأ محمد عبده وطبقته من الكتاب ؟ وكيف وُجد الرافعي والمنفلوطي ؟ بل كيف وجد المنادون بهذه البدع أنفسهم مثل طه حسين وإبراهيم مصطفى ؟ كيف استقامت ألسنتهم وصحت أساليبهم ؟ وذلك من بعد الركاكة التي تتمثل في كاتب كالجبرتي يُعتبر من أحسن كتاب عصره ؟ هل أتقن هؤلاء العربية عن طريق آخر غير قواعد النحو والصرف والبلاغة التي يزعم الزاعمون اليوم أنها معقدة وغير صالحة ؟ فأيهما نصدق ؟ هل نصدق واقعاً قائماً ماثلاً راسخاً قديماً أثبتته ألف سنة وأعادت إثباته وتأكيده تجربة القرن الأخير ؟ أم نُصدق مزاعم لم نر من آثارها منذ ظهرت إلا الشر وإلا التدهور والانحطاط في مستوى تدريس العربية ؟ إن انحطاط مستوى الجيل الحاضر في اللغة العربية أمر واقع ، ولكن سببه ليس هو صعوبة القواعد (القديمة) ، بل إن سببه هو زعم الزاعمين أنها معقّدة ، لأنه قد صرف الناس عن إتقانها إلى التنقل بين تجارب فجة غير ناضجة ، وأعان على إقرار ما يتوهمه ، التلاميذ والمدرسون من صعوبتها ، بل اختُلق هذا الوهم نفسه بعد أن لم يكن والدليل على ذلك أن الجيل السابق لهذا الجيل ـ وهو جيل لا يزال كثير من أفراده

أحياء ـ أحسن إتقاناً للعربية ، رغم أنه قد نشأ في ظل الاستعباد الإنجليزي وبرامجه ، أو في ظل سياسة التتريك التي جنّ بها دعاة الطورانية من الاتحاديين . وحسب الداعين بهذه الدعوة هزالاً وفشلاً ما اقترحوه على المدارس الإعدادية في العام الماضي من قواعد بيّنة الضعف والفساد والهزال ، مما أرجو أن أعود للحديث عنه في غير هذا المقال . لم يزالوا يطبّلون ويزمرون ويطنطنون ويهولون، فلما رأى الناس المولود الذي كانوا يبشرون به من قبل قالوا (تمخض الجبل فولد فأراً) .

ولكي ندرك خطر هذه الدعوات ونفهم حقيقة مغزاها لا بدّ لنا أن نقرنها إلى أمثالها ، فننظر إليها في ظل ما نسمعه من الدعوة إلى تطوير عاداتنا وتقاليدنا ، وتطوير أدبنا ، شعره ونثره ، شكلاً وموضوعاً وأسلوباً ، وتطوير ألحاننا وأغانينا ، وتطوير زيّنا نساء ورجالاً، وتطوير قيمنا[1] ومُثلنا الأخلاقية والاجتماعية ، وتطوير تشريعنا بل تطوير إسلامنا نفسه . من أجل النظر في هذا كله وقرن بعضه إلى بعض عرف أن أصل هذه الفروع واحد ، وأن روح الدعوة فيها جميعاً واحدة ، وأن أصحابها لا يقنعون إلا بقطع كل ما يربطنا بإسلامنا وعروبتنا وشرقيتنا من وشائج وصيلات . عند ذلك نفقد طابعنا الذي يميزنا بوصفنا جماعة أو قوماً أو أمة . وإذا فقدنا طابعنا فقدنا كياننا ، وفقدنا القدرة على التكتل والتجمع ، وأصبح من اليسير على الشرق أو الغرب أو كائناً من كان من خلق الله أن يلحقنا به ويجعلنا تابعين له ، ندور في فلكه ونسبّح بحمده من دون الله .

---

(١) جزى الله تعالى الدكتور محمد محمد حسين خيراً على هذا التحليل والتدقيق العميقين في هذا الموضوع وغيره من موضوعاته القيمة . وقد قطع الرسول صلى الله عليه وآله وسلّم دابر كل ذلك بالحديث الصحيح : « من تشبه بقوم فهو منهم» حفاظاً على الشخصية الإسلامية التي تفقد بضياعها كل شيء . . . وهذا ما يقصده المستعمرون ليسهل احتلالنا والقضاء علينا .

ولي مؤلّف مخطوط في ذلك ، يسرّ الله تعالى طبعه ، وعنوانه : « الشخصية المسلمة في معركة تحقيق الذات» .

وإني أعلنها صريحة أني كنت أصدر مجلة باسم (مجلة المعلمين والمعلمات) ابتداءً من عام ١٩٣١ فخدعني أحد المستشرقين الأشرار ويدعى : « جان لوسرف» فنشرت له مقالا متسلسلاً في ثلاثة أعداد ابتداء من العدد الحادي عشر في ذي الحجة ١٣٥١ وتشرين الأول ١٩٣٢ بعنوان : « في سبيل حل مسألة اللغة العصرية» وقد أخطأت في ذلك وعذري في ذلك أنني كنت في مقتبل العمر لا أتجاوز الثالثة والعشرين من العمر ، ونسأل الله تعالى المغفرة .

والقائمون على ترويج هذه الدعوات كالجراثيم ، تكمن حين تأنس من الجسم مقاومة حتى يظن المريض أن الداء قد ذهب عنه ، ولكنها تتحصن في واقع الأمر حتى تجد فرصة أخرى ملائمة للظهور فتثور . وقد نشط أصحاب هذه الدعوات في السنوات الأخيرة ، لأنهم يعرفون أن الثورات هي أكثر الظروف ملاءمة لبث سمومهم ، إذ يلبسون ثياب الناصحين ، ويندسون في غمار الثائرين الذين يريدون أن يستبدلوا بأسباب الضعف والفساد أسباباً للحياة والقوة والبناء ، كما يندس المخربون والمأجورون من عملاء العدو وسط جموع المظاهرات يحطمون المصابيح ويحرقون المنشآت ، فيقلدهم غيرهم في صنيعهم دون تمييز بين ما يصلح تحطيمه وما يضر تحطيمه .

بقي بعد ذلك كله أن أُشير إشارة موجزة إلى مصدر هذه الدعوة ، كيف بدأت ، ومن أين ثارت فقد يعين ذلك على تقديرها وعلى تصور مبلغ ما تنطوي عليه من الصدق والإخلاص والبراءة من الهوى .

لم يسمع لداع بهذه الدعوة صوت قبل القرن الأخير . وكل ما كان قبل ذلك من إشارة إلى العامية أو ما كان يسميه قدماء المؤلفين (خطأ العوام) فقد كان المقصود به تقويم اللسان والتنبيه إلى الخطأ ، لا الاحتفاء بألفاظ العامة وأساليبهم وتسجيلها والدعوة إلى معارضة لغة القرآن بها . فالدعوة لم تنشأ إلا في ظل استعباد الغرب لبلاد العرب والمسلمين وفي حمايته من ناحية وفي حضانة التبشير من ناحية أخرى . ويكفي أن أذكر في ذلك على سبيل الاختصار أسماء سبتا Wilhelm Spitta وفولازر K. Vollers وباول A. Powell وفيلوت D.C.phillott وبوريان M.Bcuriant وماسبيرو M. Gaston Maspero الذين قادوا هذه الدعوة في مصر سنة ١٨٨٠ فظهر صداها في صحيفة المقتطف الشهرية أولاً سنة ١٨٨٢[1] ثم انتقل إلى بقية السماسرة .

جمع بعض هؤلاء المؤلفين أو الدعاة على الأصح - وكلهم ممن شغل وظائف عامة في ظل الإحتلال الإنجليزي لمصر - طائفة من الأمثال والأغاني والمرددات السوقية في مختلف الموضوعات ، ونادوا باتخاذ اللهجة التي كتبت بها هذه الآثار لغة

(١) صلة صاحب المقتطف بالاحتلال الإنكليزي مشهورة معروفة . وقد كان المستر سمارت مستشار السفارة الانجليزية - أو دار المندوب كما كانت تسمى وقتذاك - روحاً لاينته .

للتدوين والتأليف والأدب الرفيع . ووضع بعضهم الآخر كتباً استنبط فيها قواعد للهجة مصر العامية ـ وقد اقتصر معظمهم على لهجة القاهرة ـ محاولاً إقناع المصريين بأن لهجتهم هذه لها كل مقومات اللغة الراقية . ولاك الناس كلامهم من بعد .

فردده كل ببغاء وكل بوق وكل سمسار وكل فاسد العقيدة مزعزع الإيمان . وليس في كلام هؤلاء جميعاً على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم ـ من لطفي السيد وحزبه إلى طه حسين وشيعته ـ فكرة جديدة . فكل ما قالوه وما يقولونه ترديد لما قاله هؤلاء . حتى الذين أكثروا من الكلام فيما سموه (الأدب الشعبي) وادعوا أنهم جمعوا فيه ما جمعوا من آثار لم يكونوا إلا ناقلين مما جمعه أمثال ماسبيرو ،وبوريان. بل لقد اعتمدوا عليهم في تصنيف ما جمعوه وفي ترتيبه وتبويبه أيضاً ولولا خشية الإطالة وضيق المقام لأوردت النصوص التي تثبت ما أقول .

وبعد ، فقد وعد الله سبحانه أن يحفظ قرآنه إذ قال وقوله الحق : ﴿ إنا نحن نزلّنا الذِّكر وإنا له لحافظون ﴾وهل يكون حفظه إلا بحفظ لغته ؟ وإني لأعرف أن الهدامين من الإنس والجن أضعف كيداً من أن ينقضوا ما قضاه الله سبحانه . وإنما أقول ما أقول إبراء للذمة ، واغتناماً للأجر ، وخضوعاً لسنّة الله الذي يضرب الحق بالباطل والذي ألزم أهل الإيمان محاربة أهل الفكر والضلال ومكافحتهم ليبلو بعض الناس ببعض . وإنما هو قضاء سبق في علم الحكيم العليم وتقديره ، يشقى به المفسدون ومن تبعهم ـ وبعلمهم يشقون ـ ويسعد به من هداهم الله للذود عن الحق والمنافحة عن الدِّين ، في يوم يتبرأ فيه أئمة الشر ممن تبعوهم ، ويقول الذين اتبعوهم ﴿لو أن لنا كرَّة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا . كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم . وما هم بخارجين من النار ﴾ أهـ . باختصار .

طه حسين
في أحضان الاستشراق(١)

بقلم: أنور الجندي

عرف الدكتور طه طلائع المستشرقين في الجامعة المصرية القديمة ثم ألقى بنفسه في أحضانهم عندما سافر إلى فرنسا للدراسة بها في الفترة ما بين ١٩١٤ - ١٩١٩ . حيث تتلمذ عليهم في جامعتين : مونبيليه والسوربون . واختاروه لحمل شعارهم في معهد الدراسات الشرقية ، وقد أعجب طه بطريقة المستشرقين وتأثر بها وخضع لها بل ودافع عنها بعد ذلك دفاعاً واسعاً ، في كل كتاباته وقد وجد طه في معهد الدراسات الشرقية والكوليج دي فرانس الأجواء التي كانت تهدف إلى احتوائه عن طريق الثقافة فتلقى مفاهيم الفكر الإسلامي من خلال منهج المستشرقين وخاصة فيما يتعلق بالقرآن ودراساته والشريعة والتاريخ ولما كان هو في الأساس قد أعرض عن ذلك في الأزهر ، حين تراوح بين الحلقات واستقرّ في حلقة الأدب والشعر ، فإنه وجد جديداً في أسلوب العرض ، وقبل بالسموم التي احتوتها هذه المناهج دون أن يتعمق محاذيرها لقصوره عن استيعاب مصادرها الأساسية وقد وضع منهج تعليم طه بين المعهدين والجامعة على أساس واضح :

أولاً : الإعلاء والتقدير لتاريخ الرومان وأدب اليونان والفلسفة الهيلينية على نحو أقنعه بأن هذا التُراث هو مصدر الفكر البشري كله ، وأن الفكر الإسلامي تأثر به وتشكل منه ، يقول في هذا ما كان يقوله أشد كُتاب الغرب تعصباً على العرب والإسلام أمثال « رينان » .

(١) عن كتابه : طه حسين في ميزان الإسلام .

راجع (مقدمة صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان) .

ثانياً : الثورة الفرنسية ودور : ديدرو وفولتير وروسو في إثارتها ، وما أُلقيَ إليه من أن يكون شبيهاً بواحد من هؤلاء في الفكر الإسلامي والثقافة العربية هدماً للقيم التي كانت سائدة ومحاربة للعقائد ودفعاً للثقافة إلى أسلوب « الفكر الحر » .

والمعروف أن الثورة الفرنسية هي من صنيع اليهودية العالمية للخروج من خضوع اليهود للكنيسة وقوانينها التي كانت تحصرهم في « الجيتو » وتحول بينهم وبين الاشتراك في الحياة الاجتماعية والسياسية .

ثالثاً : الاهتمام بدراسة تَينْ وريتان وفولتير ، باعتبار أن رينان وفولتير من أعمدة الفكر الحر ، المعارض للمسيحية في الغرب المهاجم لها وأن تين هو الداعي إلى المذهب المادي في النظرة إلى الإنسان ونتاجه الأدبي . (وقد كشف طه حسين عن صلته بهؤلاء وإعجابه بهم في فترة متأخرة بعد أن اتصل بالوفد ١٩٣٥ وأصبح آمناً من معارضة المعارضين) .

رابعاً : ترجمة وإذاعة شعر بودلير العنيف في إباحيته ، المسفّ في أسلوبه ، وترجمة وإذاعة القصة الفرنسية المكشوفة .

(وقد حفلت كتاباته في جريدة السياسة ١٩٢٢ / ١٩٢٣ ومن بعدها في مجلة الجديد وغيره بهذه الترجمات التي كانت مثار تعليق زملائه أمثال المازني) .

خامساً : الشعر العربي الإباحي القديم وتصيده وتصيد شعراء الإباحية والمجون ودراستهم والاهتمام بهم أمثال : بشار وأبي نواس والضّحاك وغيرهم .

ودعوته إلى تحرير الشعر من قَيد الأخلاق ، باسم الفن للفن (اقرأ كتابه حديث الأربعاء) .

سادساً : إحياء الكتب القديمة التي كتبها الإباحيون والملاحدة : وقد كان عوناً في إصدار رسائل إخوان الصفا ، وهي نحلة هدامة ، وكذلك أولى كتاب

الأغاني إهتماماً بالغاً ودفع إليه الباحثين من تلاميذه لاتخاذه مرجعاً مع أنه في تقدير جميع الباحثين لا يصلح لذلك ، كذلك أعان على طبع كتب تُعلي من شأن الفكر اليوناني ومحاولة القول بأنه كان بعيد الأثر في الأدب العربي أمثال كتاب (نقد النثر لابن قدامة الذي ظهر من بعدُ أنه لكاتب آخر) .

(٢)

ويكاد طه حسين في كل أعماله الكبرى أن يكون خاضعاً للإستشراق متأثراً به تابعاً له معلياً من قدره متحدثاً عن فضله على الأدب العربي والفكر الإسلامي .

في كتابه الشعر الجاهلي = أخذ نظريته من مرجليوث .

رأيه في (مع المتنبي) = أخذ نظريته من بلاشير .

مذهبه في النقد = أخذ نظريته من تين ، وبرودنير .

بحثه عن ابن خلدون = أخذه من دوركايم .

إتجاهه في حديث الأربعاء = أخذه من سانت بيف .

عمله في هامش السيرة = أخذه من كتاب على هامش الكتب القديمة .

وقد تلقى طه حسين فكر الإستشراق في الجامعة المصرية القديمة أساساً وكانت دراساته في فرنسا امتداداً لذلك مع تعمق في محاولة إثارة الشُبهات (وإن كان قد اتبع أسلوب مغايظة الجماهير فعوتب وأعيد إلى أسلوب الماكر) .

أخذ من (نلينو) : مصادر التاريخ الأدبي ومن (برجستراسر) : التطور النَّحوي ومن (جويدي) : علم اللغة الجنوبية القديمة ومن (ليتمان) فقه اللغة .

أما في فرنسا فإن طه حسين تابع « دور كايم » ورأيه في ابن خلدون إستهانة وانتقاصاً ، وتابع « كازنوفا » عن مفهومه للقرآن وتفسيره له ، ولا ريب أن رأي هؤلاء المستشرقين في القرآن معروف فهم يرون أنه من عند محمد لا من عند الله .

وإنه يختلف في أسلوبه بين المكي والمدني ، ولليهود دخل في هذا المفهوم فقد

دسوا فيه التأثر والتأثير مع اليهودية في المدنية ، ومفهوم كازنوفا هذا هو الذي قدّمه طه حسين لطلابه في الجامعة عن القرآن . وكازنوفا مستشرق له صلات بدوائر الإستعمار ومسيحي له إتّصال بدوائر الكنيسة ، وفي مفاهيمه اتصال بالفكر التلمودي[1] والوثني والهليني ، وكل هذا ممتزج بآرائه في القرآن مما لا يمكن معه أن يكون صحيحاً ، ومن العجب أن طه حسين يقول إنه لم يفهم القرآن في الأزهر وفهمه في فرنسا على كازنوفا ، فأي فهم هذا وما مدى صحته بالنسبة لمفهوم الإسلام ؟! إنه من المؤسف والمخزي والمثير للسخرية أن يترك طه حسين الأزهر إلى باريس ليتعلم منها تفسير القرآن من مستشرق متأثر بالفكر اليهودي الذي كان إذ ذاك مسيطراً على البيئات العلمية في الغرب ، ثم يجد في هذه المفاهيم ما يرضي نفسه وما يشعره بأنها المفهوم الحقيقي للقرآن بينما ضاق صدره بمفاهيم القرآن الحقيقية في كتب المسلمين الأصيلة التي واجهته في أول حياته في الأزهر فأعرض عنها وعجز عن فهمها ، إنه لمن المؤسف أن يُقال إن طه حسين تلقى فهم القرآن على مستشرق مثل كازنوفا .

(٣)

تابع طه حسين المستشرقين في آرائهم عن إنكار الشعر الجاهلي وإنكار وحدة اللغة العربية قبل الإسلام ، فقد ذهب المستشرقون إلى أنه كان للعرب شعر ديني على مثال قصائد الهند والفرس والأساطير اليونانية ، ورتبوا على ذلك إنكار الشعر العربي المنسوب إلى الجاهلية لأنه خلْو من التعبير عن العبادات والشعائر وما إليها ، وقد دحض الباحثون هذه الشبهة ، ووصف العقاد هؤلاء المستشرقين ومن تابعهم على هذا الفهم أمثال طه حسين بالجهل بعلم التاريخ الجاهلي [راجع (اللغة الشاعرة) (مطلع النور)] كذلك رفض المفكرون المسلمون شبهة إختلاف اللغة العربية قبل الإسلام وفي هذا المجال نذكر أن « الإستشراق » في الغرب نشأ قديماً في بيئة التبشير ولا تزال منه جذوره ومراميه . وقد كانوا في أبحاثهم إما تابعين لوزارات

---

(١) لعل الكثيرين لا يعرفون شيئاً عن التلمود ، وهو يشتمل على الديانة اليهودية وتعاليمها ، فلا بد لكل مسلم وعربى من دراسة هذا الكتاب ليعرف عقيدة اليهود ومبلغ نقمتهم على غير اليهود وخططهم الرهيبة للقضاء على خصومهم مما يجب على كل مسلم وعربى أن يطلّع عليه . . .

الخارجية والاستعمار التي تحاول أن تجعل من مهاجمة الفكر الإسلامي وتشويهه وسيلة لتدمير معنويات العرب المسلمين أو تابعين للكنيسة التي لها خلافها العقيدي مع الإسلام أو كانوا قاصري المدارك في فهم البيان العربي وتعمقه .

وقد صور زكي مبارك (مع الإحتياط له في مجال البحث العلمي بتحفظ خاص في خصومته الشخصية مع طه حسين) يقول له : مضيت فانتهبت آراء المستشرقين وتوغلت فسرقت حجج المبشرين وكان نصيبك ذلك التقرير الذي دمغتك به النيابة العمومية ، إتصلت بالمسيو كازنوفا ففرض عليك رأيه فرضاً ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ ووقف مسيو ماسينيون وقال : « إنني حين أقرأ أبحاث طه حسين أقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا ».

(٤)

دور كايم ، وكازنوفا وماسينيون ، عملوا على صياغة فكر طه حسين ليكون غربياً خالصاً ، وصاغته البيئة الإجتماعية من الناحية الأخرى على نحو جعل أمانته للغرب ولفرنسا أكبر من أمانته للعرب والإسلام ، بل جعلته يُقدم بلاده للغرب لتكون تابعة له في الفكر ظناً منه أن ذلك قد يحررها من الإستعمار السياسي أو العسكري بينما هو بما قدّم إنما استهدف أن يصهر أمته وفكرها في بوتقة الغرب ، إحتواء وتبعية ، ويحاول أن يجد كذلك من التبريرات ما هو كاذب ومضلل وذلك حين يرى أن الفكر الإسلامي خضع للفكر اليوناني قديماً ولما كان الفكر الغربي الحديث وليد الفكر اليوناني فإن الفكر الإسلامي يستطيع المتابعة أو التبعية وهيهات أن يكون قوله ذلك صادقاً أو مقبولاً إلا عند أصحاب الأهواء أو البسطاء السذج الذين غرر بهم في دروسه في الجامعة .

(٥)

صور طه حسين علاقته بالمستشرق كازنوفا الذي علّمه تفسير القرآن في

---

(١) السياسة اليومية ٢٧ مارس ١٩٢٦ .

الكوليج دي فرانس على هذا النحو :يقول[1]« عرفته أستاذاً في الكوليج دي فرانس ولم أكد أسمع له حتى أعجبت به إعجاباً لم أعرف له حداً ، كان يفسر القرآن وكنت حديث العهد بباريس ، كنت شديد الإعجاب بطائفة من المستشرقين ولكني لم أكن أقدر أن هؤلاء المستشرقين يستطيعون أن يعرضوا في إصابة وتوفيق لألفاظ القرآن ومعانيه ، والكشف عن أسراره وأغراضه ، فلم أكد أجلس إلى كازنوفا ، حتى تغير رأيي أو قل حتى ذهب رأيي كله وما هي إلا دروس سمعتها منه حتى استيقنت أن الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر في تفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق في تأويله ، فُتنت بهذا الرجل لا لأنه كان عالماً حاذِقاً ، ولا لأن منهجه في البحث كان مُتقناً دقيقاً حصيفاً بل لهذا ولشيء آخر خير من هذا ، كان حراً خصباً رفيقاً لا يتعصب لرأي ولا يتأثر بهذه العواطف المنكرة التي تفسد على الناس علمهم وأدبهم وفنهم وحياتهم العقلية والشعورية بوجه عام . كان كازنوفا مسيحياً شديد الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد التعصب ، ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس في الكوليج دي فرانس نسي من المسيحية واليهودية والإسلام كل شيء ، إلا أن لها نصوصاً يجب أن تخضع للبحث اللغوي كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها في معاملهم بما يشاؤون من ألوان البحث والامتحان ، نعم ، لم يكن مسيحياً ولا يهودياً ولا مُتديناً حين كان يعرض لنص من النصوص القرآنية يدرس لفظه ويكشف معناه .

وأشار إلى أن ابن خلدون كان أشد ثقلاً عليه وأبرُّهم عنده في وقت واحد ، وأنه كان يحب ابن خلدون ، ولكنه كان يهاجمه كلما سنحت الفرصة ، ذلك لأن ابن خلدون إتَّهم العرب تهماً وزعم أنهم لا يصلحون لحضارة ولا لعمران فلم يكن كازنوفا يغفر له هذا الإعتداء .

وما أشار إليه طه حسين عن كازنوفا مليء بالمغالطات فلم يكن كازنوفا يفهم في القرآن ما يفهمه علماء المسلمين وإنما كان يفهمه ويبحثه من خلال ذلك المفهوم الإستشراقي للقرآن ، حين يرى الحرية المطلقة في القول بأن القرآن من كلام محمد وأن آيات القرآن يمكن أن تُوصف بالقوة والضعف وهذا المنهج الذي تعلمه طه

حسين من كازنوفا هو الذي طبّقه في كلية الآداب وسجله تلميذه محمود المنجوري في بحث نشره في مجلة الحديث الحلبية سيرد في موضعه في هذا الكتاب ، وخلاصته أن هناك قرآناً مكياً وقرآناً مدنياً وأن الرسول تأثر بالكتب القديمة ، في أسلوب القصص ، إلى آخر هذا الإتجاه الجريء على اللّه وكتابه ودينه ، أما موقفه من ابن خلدون فقد كان كاذباً في اتهّامه بما قال عن العرب ذلك أن ابن خلدون لم يكن يعني العرب بما قال وإنما عنى الأعراب كما أشار إلى ذلك مؤ رخوه : ساطع الحصري وعلي عبد الواحد وافي .

وقد أشار طه حسين إلى أن كازنوفا قد عطف عليه وبرّ به حين عيّنه في الجمعية الآسيوية الفرنسية وأنه ظفر له بإحدى الجوائز عن رسالته .

وهذه عبارته : لم أكد أبرح باريس حتى أحسست عطف كازنوفا لي وبِره بي فإذا هو يقدمني إلى الجمعية الآسيوية الفرنسية ويجعلني أحد أعضائها معه ومع زميله هوار ، فاتصلت بيني وبينه هذه المودة العلمية الخالصة[1] للعلم .

(٦)

وأشار إلى موقفه من ليتمان : « إذا ذكرتُ ليتمان إنما أذكر أستاذاً كان له أبلغ الأثر لا أقول في حياتي الخاصة بل في حياة كثير من الشباب الذين كانوا يختلفون إلى الجامعة المصرية القديمة ، ما أعرف أن أحداً أثّر في الحياة العقلية للشباب المصري في ذلك الوقت مثل الأستاذ ليتمان والأستاذ نلينو ، الذي نشأ بيني وبينه شيء من المودة لم يلبث أن تحول في نفس ليتمان إلى حب عميق وكان يعتبرني إبنه ، وكان يرى أني قد استطعت أن أفهم عنه (نقول وهذا شيء طبيعي) .

(٧)

وقد سعى المستشرقون إلى إلحاق طه حسين بكل مؤتمراتهم وكانوا فرحين به

---

(١) بل الخالصة للاستعمار ومحاربة الإسلام ، فيا للغفلة !! . . .

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم !

إن هذه المودة العلمية الخالصة للعلم من صنيع كازنوفا وأمثاله بطه حسين حتى غدا صنيعة لهم وعميلا ، وهو يدري ولا يدري ! مما كان له أسوأ الآثار على العالم الإسلامي .

لأنه كان يأخذ خططهم فينفذها ويقدم لهم من التقارير ما يرضيهم ، ولا يتردد في أن يقول عن أي موضوع أن المستشرقين يرفضون هذا التفسير أو هذا الرأي ، وأنه لا بد من اتخاذ أسلوب آخر يرضيهم ويقنعهم ، وقد ظهر هذا واضحاً في بحثه عن الضمائر[1] في القرآن وقد حجب الدكتور هذا البحث بعد عودته ولم يسمح بنشره باللغة العربية حتى استطاعت جريدة كوكب الشرق أن تحصل عليه وتنشره .

وقد زيف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي هذا المفهوم الدخيل الذي قدمه طه حسين ويمكن القول بأن طه حسين لم يترك فرصة تمر دون أن يشيد بالمستشرقين ولا يحلو له أن يعرض لموضوع أيا كان ، دون أن يشير إلى الإستشراق بالتمجيد والمتابعة دون تحرج أو تحرز أو حياء من الإحساس الذي ينشأ عند قارئه إزاء تبعيته وعبوديته وولائه الشديد للفكر الوافد . وقد يصل في ذلك إلى حد بالغ الخطر .

يقول الدكتور زكي مبارك في هذا : لقد نشر المستشرق الروسي (أغناطيوس كراتشفوسكي) كتاب البديع الذي ألفه ابن المعتز . وأطال طه حسين في الثناء على هذا المستشرق الروسي وتساءل مبارك قائلاً : ترى ما هو هذا الجهد الذي بذله ذلك المستشرق الروسي حتى يستحق كل هذا الثناء ، كل ما في الأمر أنه صحح سبعين صفحة ، ما قيمة ذلك بجانب الجهد القهار الذي بذله مؤلف النثر الفني وهو يقع في ثمانمائة صفحة من القطع الكبير ، لقد تجمعت في طه حسين كل معاني المروءة في تشجيع التأليف فقال: (كتاب من الكتب ، أخرجه كاتب من الكُتّاب) فهل تعرفون كيف يُثني على من يصحح سبعين صفحة ويتجاهل من يؤلف ثمانمائة صفحة .

الجواب سهل : فذلك الرجل الذي صحح سبعين صفحة يعيش في أرض بعيدة حداً هي البلاد الروسية ولن يعود عليه ثناء بمنفعة عاجلة أو آجلة تُضايق الدكتور طه حسين ، أما الثناء على الرجل الذي ألّف ثمانمائة صفحة فهو مخاطرة لها عواقب لأن مؤلف (النثر الفني) يعيش في مصر ، والثناء عليه بما هو أهله يضايق

---

(١) أشارت جريدة الأهرام في ١٢ سبتمبر ١٩٢٨ إلى أن مندوبها رأى صورة من محاضرة الضمائر في القرآن وأراد الاطلاع عليها ولكن الدكتور قال له أنه لا يشاء أن ينشرها باللغة العربية .

الدكتور طه مضايقة عنيفة ويضعه في كفة الميزان مع شاب كان بمنزلة التلميذ من الأستاذ . أفهمتم كيف يتحكّم الهوى والغرض وكيف تختلف الأحكام باختلاف الظروف ، هو يختطف كل ما يراه في طريقه من الآراء التي تصله من بلد بعيد ، فهو اليوم تلميذ فلان وغداً تلميذ علان وكان بالأمس تلميذ ترتان وتكاد تجزم أنه لا يتشيع لفكرة ما إلا وهو فيها تبع لشخصية يتوهم أنها مستورة عن الناس ، ولكنه في هذه الناحية سيء الحظ ففي مصر رجل يعرفه كما يعرف نفسه ، وهذا الرجل صحب المستشرقين أكثر مما صحب وهو يعرف من أقوالهم أكثر مما يعرف ، فليس بغريب أن نرى الدكتور طه مطوقاً بتهمة السرقة الأدبية في أغلب ما ينشر من الآراء[1] .

(٨)

ولقد تابع المستشرقون طه حسين بالرعاية والتأييد والحديث عنه وتقديره ودعوته إلى كل مؤتمراتهم وحتى الساعات الأخيرة لوفاته كانوا يهدونه جائزة ونيشاناً ومالاً وكذا دون توقف ، وقد ألّف المستشرقون الإيطاليون عنه كتاباً أشرف عليه فرانشيسكو جابريلي تحدثوا فيه عن دراساته للتاريخ والنقد والقصة والإسلام وفي هذا الكتاب يقولون أن ما كتبه عن أدب اليونان وتاريخهم وحياتهم خير ما قدّم للأدب الغربي ، وأن كتابه على هامش السيرة قد كشف غوامض تاريخ المسيحية في الشرق (نقول المسيحية لا الإسلام) .

***

---

(١) جريدة البلاغ ٢٨ يوليو ١٩٣٥ وصاحب النثر الفني هو زكي مبارك نفسه كاتب الكلمة . طه حسين في أحضان الاستشراق .

موقف المستشرقين

عن مقال: ابن سبأ حقيقة أم خيال

للدكتور سعدي الهاشمي أستاذ مساعد
في كلية الحديث الشريف في الجامعة الاسلامية"

. . . أما المستشرقون فأنكروا وجود ابن سبأ، وقالوا: إن شخصيته وهمية تخيلها محدثو القرن الثاني ومن هؤلاء المستشرقين الذين أنكروه اليهودي الدكتور برنارد لويس. . . .

ومن المعلوم عند العقلاء المنصفين أن ديننا وعقيدتنا وتاريخنا وما يتعلق بتراثنا لا يمكن أن نعتمد فيه على تقولات ودراسات هؤلاء الحاقدين الذين ينضوون تحت راية الحروب الصليبية بمنهج وأسلوب فكري، لا أسلوب السيف والبارود، ولو كانوا أصحاب نوايا صادقة لشرح الله صدورهم بالايمان . .

اتباع المستشرقين

أما اتباع المستشرقين الذين خدعوا بهم وغرهم منهجهم العلمي المزعوم فيرددون ما يطرحون من أفكار ودراسات ويدندنون حول معتقداتهم لينالوا الزلفى منهم، وعلى رأسهم الدكتور طه حسين في كتابه «علي وبنوه» ص ٩٨ «والفتنة الكبرى» إنه الذي غذى حجيرات مخه بفكر المستشرقين حتى كان يقول: أنني أفكر بالفرنسية وأكتب بالعربية.

ويكفيه خزياً ـ أنه كان مطية لليهود، فدعاه الشيوعيون في مصر في مطلع هذا العصر وكانوا يهوداً، وهم: هنري كوريل، وريمون أجيون، وراؤول كوريل وكان هؤلاء وغيرهم يمولون الحركات الشيوعية بالمال وقيل بالجنس أيضاً. وقد تعاقدوا مع الدكتور طه حسين على إصدار مجلة الكاتب المصري. وكان الدكتور طه حسين قد أعلن تأييده لمفهوم اليهودية التلمودية باكرا حين أنكر وجود ابراهيم

واسماعيل وكذب القرآن والتوراة ولم يكن يعرف في هذا الوقت الباكر أن ذلك تمهيد لتحقيق أهداف الصهيونية[1] وغير ذلك من الأفكار والضلالات التي لم يجرؤ حتى المستشرقون بالافصاح والاعلان عنها[2]

أضواء على طه حسين

ومن المعلوم عن طه حسين أن أباه جاء الى صعيد مصر ـ مديرية المنيا ـ من بلد غير معلوم من المغرب وكان يعمل وزانا في شركة يهودية للسكر . وطه حسين هو الذي تبنى اصدار قرار بتعيين الحاخام اليهودي (حاييم ناحوم أفندي) حينذاك عضواً في مجمع اللغة العربية في القاهرة ليكون عيناً على المفكرين ورجال اللغة . كما أنه عين عدداً من الاساتذة الأجانب في كلية الأداب استوردهم وبعضهم يهود وكلهم كانوا يحاربون الاسلام أو يشككون فيه . وأول دكتوراه منحتها (كلية الآداب) في جامعة القاهرة تحت اشراف الدكتور طه حسين كانت بعنوان (القبائل اليهودية في البلاد العربية) تقدم بها (اسرائيل ولفنسون) عميد جامعة هاداسا في تل أبيب الآن[3]

بعد هذه الأضواء التي ظهرت لنا بوضوح ولاء الدكتور طه حسين لليهود لا نستغرب من أنكاره لابن سبأ . يقول طه حسين : إن أمر السبأية وصاحبهم ابن السوداء إنما كان متكلفاً منحولاً قد اخترع بآخرة فحين كان الجدال بين الشيعة وغيرهم من الفرق الاسلامية ، أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم والنيل منهم . . . الخ كلامه[4] .

---

(١) أنظر : المخططات التلمودية الصهيونية اليهودية في غزو الفكر الاسلامي للأستاذ أنور الجندي ص ٨٠ ط٢/ ١٩٧٧ .

(٢) أنظر : طه حسين للأستاذ أنور الجندي .

(٣) أنظر : مع رجال الفكر في القاهرة لمرتضى العسكري ص ٦٦ ط الأولى / ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م القاهرة .

(٤) أنظر : لطه حسين ص ٩٨ ـ ١٠٠

ـ أدلة الدكتور طه حسين ـ

ويستدل على ما ذهب إليه البلاذري لم يذكر شيئاً عن ابن السوداء ولا أصحابه في أمر عثمان .

ثم يستغرب الدكتور طه حسين كيف أن حادثة تحريق علي للذين ألهوه والتي ذكرها الطبري كيف لم يذكرها بعض المؤرخين ولم يؤقتها . وإنما أهملوها إهمالاً تاماً[1] .

أما عدم ذكر البلاذري لابن سبأ فلا يعني أسطورة وجوده . لأنه قد يذكر بعض المؤرخين ما لا يذكره البعض الآخر منهم . ثم هل التزم البلاذري بذكر كل الوقائع والأحداث ؟ وربما لو ذكر البلاذري أخبار ابن سبأ وأصحابه لقال البلاذري لا يعتمد على أخباره لأنه غير متفق على توثيقه [2] .

أما حادثة تحريق الامام علي رضى اللّه عنه للذين ألهوه فسنذكرها في موقف الامام علي من عبد اللّه بن سبأ وأصحابه . حيث ذكرت في أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل وهذه الروايات تغني عن الروايات التاريخية. إضافة إلى ذلك فقد ذكرت في الكتب الموثقة عند الشيعة .

ـ الدكتور محمد كامل حسين ـ

واعتبر الدكتور محمد كامل حسين قصة ابن سبأ اقرب إلى الخرافات منها إلى أي شيء آخر [3] . متابعاً في ذلك الدكتور طه حسين . ولم يذكر أي دليل لما يراه .

---

(١) أنظر المصدر السابق .

(٢) أنظر : ترجمة أحمد بن يحي بن جابر بن داود البلاذري المتوفي سنة ٢٧٩ هـ في معجم الأدباء لياقوت الحموي ج ٥/ ٩١ .
لسان الميزان ج ١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣ . تهذيب تاريخ دمشق ج ٢/ ١٠٩ البداية والنهاية لابن كثير ج ١١/ ٦٥ ـ ٦٦ . النجوم الزاهرة ج ١/ ٨١ .

(٣) أنظر : أدب مصر الفاطمية ص ٧ .

ـ الدكتور حامد حفني داود ـ

وكذلك يرى الدكتور حامد حفني داود رئيس قسم اللغة العربية بجامعة عين شمس أن ابن سبأ من أعظم الأخطاء التاريخية التي أفلتت من زمام الباحثين وعم عليهم أمرها فلم يفقهوها ويفطنوا إليها . هذه المفتريات التي افتروها على الشيعة حتى لفقوا عليهم قصة عبد اللّه بن سبأ فيا لفقوه واعتبروها مغمزاً يغمزون به عليهم (١) .

ـ الرد عليه ـ

والدكتور حامد هذا أحد المخدوعين بفكرة التقريب . بل أحدُ الدُعاة اليها . فلا يستغرب منه هذا الكلام ما دام يتقربُ من المشككين بكتاب اللّه والطاعنين في صحابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والذين ينالون من أمهات المؤمنين رضي اللّه عنهن أمثال مرتضى العسكري صاحب كتاب (خمسون ومائة صحابي مختلق) وكتاب (أحاديث أم المؤمنين عائشة) .

---

(١) أنظر: «التشيع ظاهرة طبيعية في اطار الدعوة الاسلامية» ص ١٨ وكتاب «مع رجال الفكر في القاهرة» لمرتضى العسكري ص ٩٣.

الوَلاء للسّياسة الغربيّة

بقلم : أنور الجندي[1]

في ضوء هذا المفهوم للفكر الغربي ، وللإعجاب بأوروبا عامة وفرنسا خاصة كانت لطه حسين مواقف ، دافع فيها عن اوروبا والغرب ضد قومه العرب والمسلمين وخاصة في المغرب وسورية . فقد رمى[2] عرب أفريقيا الشمالية بالهمجية والتوحش وقال إن الفرنسيين قد عانوا مشقة شديدة في سبيل إخضاعهم وزعم أن ابن خلدون مخطىء في إسناده . هذا العصيان من عرب المغرب إلى العزة والإباء ، يقول طه : « بل إن الفرنسيين أنفسهم قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة في مراكش في سبيل بسط حضارتهم عليها ولم يستطع الرومان ولا الإسلام أن يلطف من أخلاق هذه القبائل أو يروضها على الحياة المنظمة للشعوب المتمدينة ولكن الحضارة الحديثة مع ما لديها من وسائل أقوى وأنفذ قد تصل إلى هذه الغاية يوماً ما» .

وليس هذا القول (كما يقول الدكتور محمد غلاب) خالصاً لوجه العلم ولا لنصرة حق ولا الدفاع عن مظلوم ولكنها مساعدة القساة المستعمرين ولوصف أعمالهم الوحشية بأنها معاناة ومشقة في سبيل بسط الحضارة والمدنية على تلك الشعوب المتوحشة التي ترفض التقدم والاستنارة ولو أن الدكتور طه أنصف لأعلن أن فرنسا تعاني ما تعانيه من المشقة ، (يقول هذا رجل تعلم أيضاً في فرنسا) في سبيل شراهتها ومطامعها وبسط سلطانها على شعوب أضعف منها وأقل عدداً واستعداداً ولا يعترف بأن امتناع هذه الشعوب عن قبول السلطان الأجنبي ضرب من ضروب

(١) عن كتابه طه حسين في ميزان الإسلام .

(٢) فلسفة ابن خلدون الاجتماعية : أطروحة طه حسين في باريس .

العزة والكرامة والإباء والترفع عن إرضاء فرنسا والتمتع بحظوة علمائها في السربون على حساب أولئك المراكشيين الضعفاء المظلومين ، ولحاسب نفسه على ما يكتب ولخشي أن يترجم كتابه يوماً إلى اللغة العربية فيقرأه الشاب المصري الذي يقف الآن من إنجلترا موقفاً يكاد يشبه موقف المراكشيين في فرنسا فتجـرّه قراءته إلى الإستكانة والذل أمام الانجليز . إن الدكتور طه لم يبال في سبيل غرضه بأن يخلط العلم بالسياسة ولـم يكترث بأن يراعي في هذا الخلط حرمة الحقيقة ولم يعتبر نتيجة هذه الأفكار في الشباب الشرقي .

(٢)

وفي ضوء هذا نجد السياسة الاستعمارية في المغرب كانت دائماً توجه الأنظار إلى طه حسين وإلى أثر العبقرية الفرنسية في صنع أمثال هؤلاء الأعلام وقد تبنت جريدة السعادة التي تصدرها السلطات الفرنسية في الجزائر مثل هذا الإتجاه الذي أطلقت عليه « روح الفرنسية وتأثيرها في الشرق العربي الحديث » وقد تحدثت بأقلام تابعين للفكر الغربي عما أسمته : لماذا أثرت العبقرية الفرنسية في التفكير العربي دون سواها من عبقريات الأمم الأخرى في محاولة للتقريب بين الجزائريين والفرنسيين يخدع الأجيال الجديدة ويحاول استقطابها في محاولة لربط رفاعة الطهطاوي ومصطفى كامل وشوقي بفرنسا وبالثقافة الفرنسية في القديم ، ومنصور فهمي وهيكل وضيف وطه حسين وصبري ومبارك وبشر فارس في الحديث وقالت إن فكر طه حسين فكر فرنسي وأسلوبه فرنسي وأنه أقرب إلى أسلوب تين ورينان (صحيفة السعادة فاتح فبراير ١٩٤٦) .

وقد كانت بلاد المغرب حتى عام ١٩٥٤ مغلقة أمام العرب تماماً ، ولكن السلطات الاستعمارية سمحت لبعض رجال الثقافة الفرنسية بالدخول ، وهم محمود عزمي وطه حسين .

وقد ظن البعض في مصر أن في هذا نصراً تحققه الثقافة العربية وليس غريباً ولا مثيراً للدهشة أن تسمح السلطات الإستعمارية لطه حسين بدخول المغرب

بالرغم مما قاله في المغاربة في رسالته عن ابن خلدون .

ذلك أن طه حسين : هو وليد الفكر الغربي عامة والفرنسي خاصة وأنه معجب بفرنسا يقول « كل شيء في فرنسا يعجبني ويرضيني :خير فرنسا وشرها،حلو فرنسا ومرها ، نعيم فرنسا وبؤسها ، كل ذلك يروقني ويلذني وتطمئن إليه نفسي اطمئنانا غريبا . إني لأحسّ نفسي تسبق القطار إلى باريس على سرعة القطار » وهي فصول مطولة في تصوير باريس بأنها الجنة التي وعد الله عباده المتقين .كما يشير إلى هذه الفريضة الكاذبة : فريضة الحج إلى السربون .

وهو يصف النساء خاصة ولعل هذا كان من إعلانات الدعاية للسفر إلى التصييف في فرنسا : « أما النساء فلهن منطق معقول ، هن متجردات في النهار على الساحل ،متجردات في الليل إذا أقبلن إلى الكازينو ، ولكنهن لا يظهرن في أجسامهن ما يظهرن في النهار وإنما يظهرن في النهار نصفاً وفي الليل نصفاً آخر ، للنهار الأعجاز والليل الصدور » .

وهكذا يعلن طه حسين عن باريس !

(٣)

ولطه حسين تبعية سياسية : بالنسبة للاستعمار في سوريا ولبنان كما في المغرب ، يصور هذا خليل تقي الدين (الأديب :حزيران ١٩٤٥) فيشير إلى أنه بعد أن أوقعت فرنسا عدوانها على سوريا ولبنان ويوم عقدت الجامعة العربية دورتها الطارئة لمواجهة هذا الحدث أوائل يونيه ١٩٤٥ وقد وفدت وفود البلدان العربية إلى مصر ومن بينها وفدان يمثلان سوريا ولبنان يحملان إلى مجلس الجامعة أماني بلدين مناضلين في سبيل استقلالها وسيادتهما وقد خلّفا وراءهما مدناً هدمتها مدافع الفرنسيين ، وقبوراً مُلئت بشهداء جشع الاستعمار وإذا بالدكتور طه الأديب العربي الكبير ، يطالع الوفود العربية بمقالات كالأنهر طولاً والتواء يحاول فيها أن يدافع عن سياسة ديجول تحت ستار الثقافة والأدب والفن وقيل لنا : لا تؤاخذوه ، تلك أحقاد

رجل أقصته السياسة عن الوظيفة ، وقال آخرون ما دخلت السياسة شيئاً إلا أفسدته ، أما نحن فلا ندري ما نقول .

يقول طه حسين في مقال افتتحه بهذين البيتين :

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

إن تصرف المستر تشرشل مع الجنرال ديجول لم يكن ملائماً للتقاليد الدبلوماسية لأنه أعلن رسالته إلى الجنرال في لندن قبل أن تصل إلى الجنرال في باريس وأن هذا التصرف قد عقّد الأمر بين الفرنسيين والبريطانيين .

يقول : خليل تقي الدين :

إذن فلعينيك أيتها التقاليد الدبلوماسية وفي سبيلك يجب أن تُضرب دمشق إكراماً لعيون اللباقة والسياسة ولا بأس من تهديم بضع مئات من المنازل وتقتيل بضع مئات من الأبرياء وتقطيع أيدي الجنود والتمثيل بهم ، وقتل المرضى على أسرة المستشفيات وانتهاك حرمة البرلمان . هذا هو منطق الدكتور طه السليم وهذه هي الأخطار القويمة التي رأى فرضاً عليه أن يذيعها[1] يوم انعقاد مجلس الجامعة المصرية لدفع العدوان عن سوريا ولبنان .

كلا يا سيدي الدكتور نحن لم ندافع عن تشرشل ولكنا نحارب الإستعمار وأيا كانت الأسباب التي حدت بك إلى إرسال مقالاتك في تبرير عمل ديجول في الساعة التي كانت سوريا تدفن فيها ضحاياها وتواريهم تراباً طاهراً ضُمخ بالشهادة والبطولة فإننا لا نفهم ولا تفهم بلدان العرب المناضلة جميعاً في سبيل حريتها واستقلالها وسيادتها أن يقوم كاتب كبير وأديب مرموق كالدكتور طه أكرمته البلاد

(١) يستفظع الكثيرون هذا العمل الشنيع لطه حسين ، ولكن استغرابهم يزول إذا علموا مبلغ آثار الثقافة الغربية على نفوس الناشئة المسلمين ، وكم لهذا الدكتور من أمثال . . . مما يدعو المفكرين إلى إعداد العدة لتحصينهم بالثقافة الإسلامية الصحيحة القوية قبل اقتحام لجة ثقافة الغرب ، وإلاّ ذهبوا ضحيتها وغدوا خطراً على أمتهم . .

العربية ولم تمن عليه فيسخّر قلمه للكلام في الأصول الدبلوماسية ويصمّ أذنيه عن سماع صوت المدافع تقصف في دمشق ، بئست الأصول الدبلوماسية يا سيدي الدكتور وبئست السياسة إذا كانت أقدار الشعوب بحاجة أن تكون رهناً على مراعاتها .أ هـ .

وهكذا جاء طه حسين في ذاك اليوم ليقول للعرب إن ضرب فرنسا لدمشق إنما جاء لأن هناك خطأ دبلوماسياً وقع من بريطانيا وأن تشرشل في تصرفه مع ديجول لم يكن ملائماً للتقاليد الدبلوماسية وقد أثار هذا التصرف كراهية وشكا كثيراً في تبعية الدكتور طه حسين للسياسة الغربية ، والدفاع عنها في الوقت الذي تجتاح فيه هذه السياسة قطراً عربيا كذلك فعل مع المغرب ومع هذا فقد استقبل طه حسين بعد ذلك في لبنان وفي المغرب بالحفاوة والتكريم كما فعل مع دمشق ومن هذا أيضاً إن طه حسين لم يكتب منذ احتلال الصهيونية فلسطين مقالا واحداً حتى انقضى أجله عن الصهيونية أو اليهود أو حق شعب فلسطين .

(٤)

لطه حسين في هذا المجال جولات واسعة ، منها ذاك الإعجاب الدائم والمتجدد بالثورة الفرنسية وكان موقفه بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بعيد الأثر في الدفاع عن الإرساليات الأجنبية في مصر وحمايتها مما سيأتي تفصيله وهي المرحلة التي كتب فيها كتابه (مستقبل الثقافة) ليدافع عن التبعية الغربية الممثلة في المدارس والجامعات والمناهج باسم التعاون الثقافي مع الغرب .

***

طه حسين والملك

أما موقف طه حسين من الملك :سواء كان فؤاداً أم فاروقاً فهو موقف الخضوع والعبودية الذليلة : أما فؤاد فهذه هي صورته (مارس ١٩٢٥) .

١ ـ إن مثال صاحب الجلالة قد طبع في نفوس رعيته جميعاً فليس يخلو منه إلاّ قلب مريض أو نفس مقفلة ، ولا عجب ولا غرابة فالمصريون مدينون له ولأبيه إسماعيل ولجده العظيم محمد علي . إنهم مدينون لهؤلاء العظماء حتى ما يملأ نفوسهم من أمل في الاستقلال التام وحتى بما يدفعهم إلى السعي في تحقيق هذا الاستقلال التام، على أن جلالته قد سار سيرة أبوية فلم يقصر همه على المسألة المصرية وإنما رأى أن الحياة الداخلية والخارجية للأمة إنما هما وجهان لشيء واحد في حياة الأمة فسعى الى إصلاح الأمرين جميعاً .

٢ ـ ولكن صاحب الجلالة الملك فؤاد لم ينس الجامعة المصرية التي أنشأها لحظة ولم يعرض عنها حيناً وكيف ينساها وهي ابنته وكيف يعرض عنها وهي غرس يده (الاتحاد ٢٧ مارس ١٩٢٥)

أما فاروق فهذه صورته :

أقبلت على مصر فأقبلت عليها الدنيا ونهضت بملكها فتمت لها عزته ودبرت أمرها فانجلت عنها الغمرات وانجابت عنها الخطوب ، لله أنتم آل البيت العلوي الكريم ، ما أعظم فضلكم على الحياة العقلية في مصر ، لقد بعثتموها قوية نشيطة ، فحبكم العظيم يزكيها ثم هذا إسماعيل العظيم ينشر التعليم العام الذي قصد به إلى المعرفة الخالصة ، وهذا فؤاد العظيم ينشىء جامعته في الاسكندرية .

وها أنت يا مولاي قد أقبلت فبعثت فيها من قوتك قوة ومن جلالك جلالاً ورفعت ذكرها في أفاق الشرق والغرب فكيف السبيل لها أن تنهض بشكرك وأين الوسيلة لها أن تؤدي بعض حقك فبراير (١٩٤٣) .

٣ ـ فالمصريون مجمعون على حب مليكهم لأنهم يرون فيه صورة بارعة لمصرهم الخالدة ورمزاً كريماً لوطنهم العظيم وهم يرون في شخصه العظيم واسمه الكريم أمنية صدقت وأملاً تحقق . كان والده العظيم رحمه الله صور أمنية الشعب وعبّر عن آماله حين سماه الفاروق فكانت هذه التسمية دعاء الله أن يمن على مصر بحريتها وعزتها ، والمصريون مجمعون على حب مليكهم لأنهم يجدون في شبابه

النضر ببهجة طالما نازعتهم إليها نفوسهم وزينة طالما هامت بها قلوبهم .

***

ثم سقطت الملكية وتحدثت محكمة الثورة عن العهد القديم وجاء ذكر طه حسين وحاول طه حسين أن يدافع عن نفسه فماذا قال :

أي المصريين يجهل أني كنت وزيراً للمعارف في يوم من الأيام وأني خطبت أمام فاروق في مواطن لم يكن بد من أن أخطب فيها ، والناس جميعاً يعلمون أن الوزراء ما كانوا ليخطبوا أمام فاروق فينقصوه ويذموه ويدلوه على ما كان يتورط فيه من طغيان وما كان يقترف من آثام وإنما جرت عادة الوزراء حين يتحدثون إلى الملوك بشيء غير هذا . من الذي يستطيع أن ينكر أني تصورت الملك كما ينبغي أن يكون وقلت فيه ما كان ينبغي أن يقال فلم يتجه من كلامي الى فاروق في قليل أو كثير وإنما اتجه كلامي إلى هذا الملك الذي صورته لنفسي وللناس».

وهكذا راوغ طه حسين ربيب نعم فؤاد وفاروق والمقبل يديهما ، والمتذلل لهما ، ثم يدعي أنه كان خصماً لهما فأين هذه الخصومة فيما ترك من آثار ، إن لدينا عشرات المقالات في التحريض على أسعد زغلول لأنه يطالب بأن يكون ملكاً وأنه يتقدم الوفود لتخطب له ، في أسلوب عجيب من الانتقاص والإيقاع بين الملك ورئيس الوفد .

وأنكر طه حسين ما شهد به شاهد أمام محكمة الثورة من أنه قبل يد الملك مع غيره من الوزراء وحاول أن يصور نفسه في صورة المعادي للملك والمخالف له . وأشار إلى فصول كتبها في الهلال مبهمة وصفت بأنها موجهة الى الملك . ونحن نعرف مما أمر أن فاروق كان يعتقد أن طه حسين صنيعة جهات أجنبية ويظن أنها الشيوعية ، ومن هنا كان موقفه منه وكلماته إليه يوم قدم وزيراً ومن قبل وأن ما جرى له من إخراج من وزارة المعارف يوم خرجت حكومة الوفد عام ١٩٤٤ كان طبيعياً ولم يكن خاصاً به ولكنه كان عاماً بالنسبة لكل المتصلين بالوفد في المناصب الكبرى وهكذا تفعل الحكومات الحزبية[1]

(١) من كتاب : « طه حسين في ميزان الاسلام» للاستاذ أنور الجندي .

مظاهر علاقة طه حسين بالفكر الفرنسي[1]

بقلم الأب: كمال قله

إن الفكر الفرنسي كان بالنسبة إلى طه حسين أكثر من مدرسة ومعين ، كان جزءاً من حياته ، وجزءاً من إنتاجه ، حتى تكاد تحسب من خلال قراءة ما كتبه عن فرنسا وعن أدباء فرنسا ، وعن تاريخ فرنسا مايقنعك بأن هذا الأثر لا ينتجه إلا من كان فرنسياً فكراً وعقلاً وثقافة وإحساساً . فعلاقة طه حسين بالفكر الفرنسي ليست علاقة أخذ فقط ، أي لم يكن طه حسين منفعلاً أمام هذا الفكر ، وإنما استطاع بقدرته الفائقة أن يكون فاعلاً أيضاً ، إيجابياً منتجاً ، يمكن أن نقارن ما كتبه بالفكر الفرنسي أدباً ونقداً وتاريخاً ، بما كتبه كبار الأدباء والنقاد والمؤ رخين الفرنسيين ، وأود أن أوضح في هذه الصفحات بعض مظاهر هذه العلاقة الوثيقة التي ربطت بين فكر طه حسين والفكر الفرنسي .

أولاً ـ المشاركة الوجدانية :

ليس أحب إلى طه حسين من الحديث عن باريس[2] ، ولا يمل من زيارة فرنسا وعنده أن باريس تكاد تختصر العالم الإنساني باختلاف أزمنته وأمكنته[3] .

وحين يصل إلى فرنسا يندمج إندماجاً تاماً في الحياة الفرنسية يخلب لبه جمال الطبيعة الفرنسية الذي كان يلهمه رواياته وقصصه وكتبه ومما قاله :

« . . . ولكن الحياة في باريس عناء وغناء لا ينقطع ما تفرض عليك من الجهد

(١) عن كتاب طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية في أدبه

(٢) من بعيد ص ١٧٣ .

(٣) من بعيد ص ٢٠ المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٥ .

ولا ما تُثير في نفسك من المتاع ولست أتحدث عما في باريس من مشقة مادية أو لهو مادي ، فلي والحمد لله صدوف عن هذا اللهو ولي والحمد لله من يريحني من مشقة الحياة المادية وإنما أتحدث عن العناء والغناء اللذين يتصلان بالقلب والعقل والذوق فهما لا ينقطعان منذ تصل إلى باريس إلى أن تفارقها . وأكبر الظن أنهما يصحبانك بعد فراقها لأنك لا تتركها إلا وقد تزودت بالشيء الكثير مما يُثير الألم ويذكي اللوعة ومما تعلق به الآمال وتحيا به القلوب لا تكاد تنظر في الصحف إذا أصبحت حتى ترى فيها ما يدعوك إلى المعرفة ويغريك بالعلم ويحثك على الإستقصاء[1] » . وما كتابه رحلة الربيع إلا نوع من التعبير عن هذه الحياة التي كان ينغمس فيها بكل وجدانه وفكره في فرنسا . وفرنسا في عرفه بلد اختصه الله بمميزات خاصة ، تجعله ممتازاً في كثير من الأمور عن بلاد العالم فيقول[2] : « ولكن التاريخ قد علمنا أن فرنسا نافعة للعالم حين تنتصر وحين تنهزم وحين تهدأ وحين تثور ، والشيء الذي لا أشك ولا يمكن أن أشك فيه هو أن فرنسا التي أدهشت العالم بانتصارها وانهزامها وهدوئها وثورتها لم تفرغ من إدهاش العالم وستدهشه وستنفعه وسيسرع العالم الذي هزم فرنسا الآن إلى معونتها وتأييدها لأن العالم لا يستطيع أن يستغني عن فرنسا . . » .

كان حديثه هذا دفاعاً عن فرنسا بعد هزيمتها أمام الألمان ، وسيظل يدافع عنها وعن أثرها في إنماء الفكر الإنساني في كل ما يكتب أو في كل ما يسوق من أحاديث .

بل إن طه حسين حاول في دراسة أدبية أن يلتمس الأسباب التي أدت إلى هزيمة فرنسا وأكد أن الحضارة والرقي والحرية والمساواة كل هذه كانت من أسباب هزيمة[3] فرنسا . لأنها اهتمت بها وأعطت للعقل حريته وللحرية إنطلاقها ، مما شغل الناس عن الإستعداد العسكري والتخطيط للحرب .

« . . لقد كان الفرنسيون يفخرون ـ وكان من حقهم أن يفخروا ـ بأنهم قد انتهوا من حرية الرأي إلى ما لم ينته إليه شعب من شعوب الأرض ، ظفروا بحرية الرأي بالقياس إلى الدولة ، فكانوا يقولون ما يشاؤون ويعملون ما يشاؤون وكانت الدولة لا تستطيع أن تتعرض لقائل مهما قال ولا تستطيع أن تتعرض لعامل مهما

(١) رحلة الربيع ـ أقرأ ص ٦٨

(٢) فصول في الأدب والنقد ص ٣٠٥

(٣) إن طه حسين في هذا الكلام يرد على نفسه في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » في حضه للمصريين على الأخذ بالحضارة الغربية خيرها وشرها . . .

يعمل إلا أن يحاول إفساد الأمن أو قلب النظام[1] » . . .

وحين يتكلم على الفرنسي يشبه بالأثيني في العصر القديم[2] ، « والفرنسي كما يحب الحرية يحب العدل الاجتماعي وما ينتج عنه من المساواة بين الأفراد ، ولعله لم يعش منذ القرن الثامن عشر لفكرة كما عاش لفكرة الحرية والعدل الاجتماعي ، ومن هنا كثر التطرف في الآراء السياسية والاجتماعية ، وظهرت أعراض الإشتراكية والشيوعية في فرنسا قبل أن يظهر كارل ماركس ولينين ، والفرنسي مؤمن بشخصيته ، وبشخصيته العقلية خاصة وهو ساخط أبداً يسخط جاداً ويسخط هازلاً ، ولن ترى فرنسياً راضياً مهما يكن حظه من النعمة ولن ترى فرنسياً مطمئناً مهما يكن حظ فرنسا من الأمن والإستقرار . . » .

لكن لم يقف حد المشاركة الوجدانية عند وصف فرنسا ، أو مدحها ، أو وصف باريس والإعجاب بها ، ولكنه تعمّق في صميم الحياة الفرنسية ، وأبدى إعجابه بمختلف أوجه النشاط الاجتماعي والديني[3] فيها . .

فيكتب فصلاً عن الممثلة الفرنسية الشهيرة : « سارة برنار » وعن الحياة الفنية في فرنسا ، ثم يُقارن بينها وبين الحياة الفنية في مصر فيقول : « . . . فكنت أسأل نفسي إلى أي حد يبلغ إعجاب الناس بالنبوغ وإكبارهم للنابغين إذا كان هؤلاء الناس من الرقي العلمي والخُلقي[4] بحيث يفهمون النبوغ والنابغين . وكنت أذكر مصر في هذا كله وكيف يستطيع مصري ألا يذكر مصر وأهل مصر كلما رأى أو سمع ما يبهره ويسحره ، كنت أذكر مصر وأسأل نفسي : متى يُتاح لمصر نابغة « كسارة برنار » أو على أقل تقدير متى يبلغ أهل مصر من الرقي العلمي والخلقي ما يمكنهم من أن يقدروا نابغة كـ« سارة برنار »[5] لم تنبغ في السياسة ولا في الدين ولا في العلم إنما نبغت في الفن وفي فن هو سيء الحظ جداً عند المصريين نبغت في التمثيل الذي يزدريه

---

(١) فصول في الأدب والنقد ص ٢٠٩

(٢) فصول في الأدب والنقد ص ٢٠٩

(٣) إن فرنسا نفسها أوقفت النشاط الديني في إعلانها مبدأ العلمانية ومنع تدريس الدّين ! .

(٤) أين كان هذا الرقي العلمي والخلقي في هزيمة فرنسا في الحرب العالمية الثانية التي اعترف بها طه حسين كما رأينا ؟ ! .

(٥) حقاً إن الهوى يعمي ويصم ! وما كنت أعتقد أن السخف والمهزلة ستصل بطه حسين الى هذا الحضيض من الاستدلال على رقي فرنسا وتأخر مصر بممثلة ـ سي سارة برنارد ـ ونحن نعلم مبلغ =

أكثر المصريين ويفهمه قليل من المصريين على غير وجهه ولا يفهمه حقاً بين المصريين إلا نفر يكادون يحصون »[1] .

وكما قارن الفرنسي بالأثيني ، يقارن سارة برنار الفرنسية بالممثل الأثيني القديم « السيبياد » كلاهما كان فتنة « المدينة » التي نشأ فيها[2] .

ويذكر كذلك رأي فيكتور هيجو ، وأدمون روستان ، وغيرهما من الأدباء الفرنسيين في سارة برنار .

ويشارك طه حسين في الحفلات الفنية الفرنسية ، ثم يسجل خواطره ناقداً لما يسمعه ، كما فعل حين سمع قصة موسيقية أدتها إحدى المغنيات الفرنسيات في دار « الأوبرا ـ كوميك Opera Comique ألّفها الشاعر الفرنسي رينيه فوشوا R.Fauchois ووضع موسيقاه الفرنسي جبرائيل فوريه G.Faurée » مأخوذة عن الأودسا .

ويعرض الرواية في شيء من التبسيط والنقد والتقريظ[3] وتعجبه جداً مظاهر الحياة الاجتماعية في فرنسا ، فأغنياء فرنسا يساعدون على تطور الحياة فيها ويعملون على بناء مجتمع أكثر تقدماً ، فيعلن أنه قرأ في جريدة « الطان» [4] أن رجلاً أهدى إلى جامعة باريس عشرة ملايين فرنك لإقامة حي خاص يسكنه الطلبة الذين يدرسون في هذه الجامعة بحيث يُتاح لهؤلاء الطلبة أن يعيشوا في منازل صحية يجدون فيها ما يمكنهم من الدرس النافع بين ضروب الراحة والنعيم ، وأنه قرأ في جريدة « الطان » أن امرأة أوصت بثروتها كلها لجامعة باريس وثروتها تكاد تبلغ الخمسة عشر مليوناً . . وأن امرأة أخرى أهدت إلى جامعة باريس ثروة تغل عليها (٣٥,٠٠٠) فرنك في السنة لترقية البحث عن « الراديوم » في الطب ، وأن رجلاً ترك لها نصف مليون فرنك ، وأن أستاذاً في مدرسة ثانوية ترك ثروته التي تبلغ (٧٦,٤٠٨) فرنك لإعانة طلبة التاريخ الحديث ، وأن دور التمثيل والموسيقى ومنازل اللهو

= أخلاق الممثلات في فرنسا ! ولا أدري أين كانت سارة برنارد حين هزيمة فرنسا التي أسف لها هذا المفتون ، فلم تستطع أن تنقذ وطنها من الجيوش الألمانية التي حطّمت عزة الفرنسيين !

(١) و(٢) فصول في الأدب والنقد ص ٢٠٩

(٣) من بعيد ص ٢٥

(٤) من بعيد ص ٢٧

واللعب قد خصصت جزءاً من دخلها في يوم من الأيام لإعانة العلماء على تأسيس المعامل العلمية المختلفة ، كذلك يذكر تعاون الفقراء والمعوزين وافتنانهم في جمع المقادير المختلفة من المال لإعانة العلماء على تأسيس المعامل وتكميلها .

يقرأ هذا ويعلنه لأنه يود أن يتشبه المصريون بالفرنسيين في هذه الأعمال العظيمة المجدية ، كما يتشبهون بهم وبالأوربيين في الحياة المادية ، ولكنهم يخالفونهم في حبهم للعلم والتقدم ويشهد بأن « . . ما وصلت إليه فرنسا من الرقي العلمي[1] لا يزال مطمح أمم كثيرة في أوربا »[2] .

وفي حديث عن باريس ينطلق هذا الوجدان العميق في وضوح وقوة ليدل على مدى تعلق طه حسين بهذه المدينة وعلى حبه للحياة فيها ، وعلى انسجامه مع حضارتها ورقيها فيقارنها بأثينا عاصمة الحضارة والفكر في العصور القديمة ، ويقارن نظرته إلى باريس بنظرة الأديب الفرنسي رينان إلى أثينا[3] في باريس علم لا يقاس إليه علم الأثينيين ، وفي باريس فلسفة لا تُقاس إليها فلسفة الأثينيين ، وفي باريس حرية لا تذكر معها حرية الأثينيين ، وفي باريس حضارة تهينها أن قرنت إليها حضارة الأثينيين ، وفي باريس حياة يعجز الفرد مهما تكن قوته عن فهمها والإحاطة بها والتعمق في تحليلها ، أنا مفتون بأثينا وفلسفتها وفلاسفتها وحريتها وزعمائها ولكنني على هذه الفتنة لا أستطيع أن أقيس أثينا إلى باريس. . . » بل إنه يعد الحي[4] اللاتيني في باريس ـ حيث يوجد السربون والكوليج دي فرانس الرأس المفكر للعالم وأقدس مكان في العالم الحديث «هذه الرقعة الصغيرة من الأرض كانت مصدر النور الذي انبعث في أوربا المظلمة أثناء القرون الوسطى[5] الحياة العقلية

---

(١) أين كان هذا الرقي العلمي حين هزيمة فرنسا ، وقد أغفلت الاستعداد العسكري على حد اعترافه ؟ !

(٢) لا أدري متى كانت فرنسا مصدر النور الذي انبعث في أوروبا المظلمة أثناء القرون الوسطى ، مع العلم أن النهضة الأوروبية كلها بدأت بعد انتهاء القرون الوسطى التي كانت فيها فرنسا تعيش أحلك تاريخها ، وخاصة بعد هجوم المسلمين في بواتيه على يد شارل مارتل القائد عام ٧٣٢ م وقد كان ذلك كارثة على فرنسا حرمها من المدنية الاسلامية بشهادات كثير من أدباء فرنسا ، وفي مقدمتهم أناتول فرانس فقد قال : « ليت شارل مارتل قطعت يده ولم ينتصر على عبد الرحمن الغافقي ، إن انتصاره أخَّر المدنية عن فرنسا ستة قرون . . . »

(٣) من بعيد ص ٣٥ وما يليها

(٤) من بعيد ص ٤٥ وما يليها

(٥) من بعيد ص ٥٦ وما يليها .

لأوربا كلها في القرون الوسطى «وليس في أوربا أو أمريكا في نظره مكان كان مهداً علمياً للعقل الإنساني وترقيته مثل السربون والكوليج دي فرانس . .

وفي فصل عن ملاهي باريس[1] يستطرد طه حسين في وصف ما يحس به من نشوة وسعادة حين ينطلق إلى ملاهي باريس ، وينتهز الفرصة ليقارن بين طبع المصريين وميلهم إلى الحزن والمرارة وبين مزاج الفرنسيين الذي يميل إلى الضحك الذي يُريح النفس حقاً ويجلو عن القلب أصداء الحياة العاملة ، هذه الحياة العاملة نفسها كانت في مصر منذ سنين ، قد أثقلتها الهموم وأفعمتها الأحزان حتى الحياة الدينية تجد لها صدى مقبولاً في نفس طه حسين فيصف عمل « القسيس » أو رجل الدين الفرنسي كيف يمضي مع تيار الحياة العصرية ويسايرها .

ويقارن بينه وبين رجل الدين الإسلامي في مصر ـ ويتمنى لو أنه رأى علماء الدين عندنا يشرفون على مثل ما رآه في فرنسا ، ويؤمن طه حسين بأن رجل الدين لم ينزل عن وقاره ولم ينقص في أداء رسالته حين سلك الطرق الحضارية الحديثة في القيام برسالة الدين فيقول[2] .

« لو يعلم رجال الدين عندنا ماذا يصنع رجال الدين في أوربا من هذه الناحية لدهشوا دهشاً عظيماً وتعلموا أنهم بعيدون كل البعد عن أداء واجبهم الديني . . ».

ويقارن طه حسين بين رجل الدين المسيحي في الغرب ورجل الدين الإسلامي في الشرق[3] ثم يذكر أن الكنيسة انفصلت عن الدولة في فرنسا وانقطعت معونة الدولة للكنيسة فما انهارت ولا افتقر رجالها وإنما أدى الناس إلى الكنيسة ورجالها أضعاف ما كانت تؤديه الدولة ، فأين رجال الدين.[4] في الشرق الإسلامي

(١) من بعيد ص ١٨٢ ـ ١٨٤

(٢) من بعيد ص ١٦٩ ـ ١٧٩

(٣) من بعيد ص ١٢٢ ـ ١٢٥

(٤) المعروف عن المصريين أنهم أهل دعابة ونكتة حتى في أقسى الظروف !

ومتى كان الضحك واللامبالاة من الفضائل ، وقد أثبت الطب الحديث أن كثرة الضحك تؤدي الى أسوأ العواقب على الصحة ، وهذا مصداق الحديث الصحيح : « كثرة الضحك تميت القلب» .

ومن المؤسف أن يعتبر طه حسين من « فضائل القسيس» أو رجل الدّين الفرنسي أنه يمضي مع تيار الحياة العصرية ويسايرها» على الرغم مما فيها من مساوىء وانحرافات كان الجدير به أن يقاومها ويدعوها للإصلاح . .

ولم يكتفِ هذا الدكتور بما سبق ، بل راح يندد (برجل الدين) في الشرق الاسلامي ويدعوه للتشبه برجل الدّين في الغرب المسيحي . . .

من رجال الدين في الغرب المسيحي ؟!

هل يميل طه حسين إلى فصل الدِّين عن الدولة ؟ أم ذلك مجرد مقارنة تهدف إلى التوعية والإصلاح ؟! في رأيي أن طه حسين بوجدانه المنجذب نحو فرنسا والحياة فيها ، يميل فعلاً إلى خَلق دولة منفصلة عن الدين [1] ، أي أنه يدعو إلى تطبيق النظام الذي أخذت به فرنسا وبعدها بعض الدول الأوربية ، وهي استقلال الدِّين ، ورجاله عن نفوذ الدولة وتحكمها وسلطانها . ولكن لم يصرح بهذا بوضوح غير أن وصفه لرجل الدين الغربي ومقارنته بالأزهري يمكن الاستدلال منه على ذلك ، وإن كان يشدد أكثر على توعية الأزهري ، وتطوره ليساير الحياة الحديثة . بل لعله يرى أن من مصلحة الدِّين ورجاله أن يعتمدوا على أنفسهم وإخلاصهم لرسالتهم قبل أن يعتمدوا على الحكم أو الدولة .

وثمة نقطة أخيرة توضح مدى المشاركة الوجدانية بين طه حسين وبين الحياة الفرنسية ، فطه حسين يهتم جداً بالشعراء الفرنسيين والأدباء الفرنسيين ، فلا يفوته شاعر نابه يموت ، أو أديب معجب به إلا ويكتب عن هذا وذاك ويشير إلى تأثره الشديد بفقدان هذا العالم . فيكتب عن « بول فاليري » [2] الذي حزنت عليه الإنسانية المتحضرة كلها بحسب تعبيره ، وحين يزور فرنسا يسعى إلى قبر بول فاليري . . . كما كتب عن سارة برنار بعد وفاتها على ما ذكرت في الصفحات السابقة . .

---

(١) إن طه حسين يريد أن ينحرف العالم الاسلامي كما انحرف العالم الغربي نتيجة حرمانه من القضايا الروحية والالهية ، بشهادات كثير من مفكري الغرب وعلمائه . . .

(٢) « ألوان » ص ٥١

طه حسين وترجمة الكتب الهدامة[1]

بقلم : الدكتور محمد محمد حسين

تقوم اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية[2] على ترجمة عدد من الكتب الأوروبية والأمريكية إلى العربية وتُنفق على طبعها ونشرها . فما هي الصفات والمميزات التي تتوخاها اللجنة فيما تختاره للترجمة من هذه الكتب ؟ لا شك في أن الميزة التي ينبغي أن تُراعى في اختيار هذه الكتب هي مصلحة العرب . وذلك باستكمال ما ينقصهم وتدارك ما فاتهم مما سبق إليه غيرهم ، فكان سبقه فيه سبب تفوقه وسيادته ، وكان تخلفنا فيه سبب ضعفنا واستعبادنا . ولا شك في أن العرب أنفسهم هم أقدر الناس على إدراك ما يصلحهم وهم أحرص الناس عليه . فليس من المعقول مثلاً أن يُوكل أمر هذا الاختيار إلى إحدى دول الاستعباد الغربي مثل أمريكا أو إنجلترا أو فرنسا أو إسبانيا أو هولندا أو بلجيكا ، ثم نطمع أن يرشد خبراؤهم العرب مخلصين إلى ما ينفعهم ، وما يترتب عليه استغناؤهم عن خبرائهم ، واستغلالهم باستغلال خيراتهم ، وخراب ما يعيث في بلادهم من شركات ، وبوار ما يروج في أسواقهم من المنتجات الصناعية على اختلافها ، وانقطاع ما تنتفخ به جيوبهم وبطونهم من بترول هذه البلاد وخيراتها المعدنية والزراعية .

ومن الواضح أني حين أتكلم على الغرب أعني الغرب كله :(غربيه وشرقيه) وعملاءه الذين رشحهم والذين يطمعون في استغلالنا واستعبادنا في الغد القريب أو البعيد ، الذين يغزون أسواقنا والذين يغزون عقائدنا . ومن الواضح أنهم جميعاً

(١) حصوننا مهددة من داخلها ص ١٦٧ - ١٩٦ - طبعة المكتب الاسلامي .
(٢) التي يرأسها طه حسين .

سواء ، وإنما يبدو حديثي في معظمه موجهاً إلى فريق منهم دون فريق ، لأن ذلك الفريق ـ والمقصود به هو المعسكر الأمريكي وحلفاؤه من الإنجليز والفرنسيين خاصة ـ يمثل الخطر الراهن الماثل ، ولأن عملاء هذا المعسكر هم أقدم السماسرة وأعرقهم في هذه الحرفة الدنيئة ، وقد رشحهم هذا القِدم وهذه العراقة ـ بعون سادتهم وتضامن عصابتهم ـ لاحتلال كثير من المراكز الخطيرة في حصوننا . ونحن حين نوجه النظر إلى الخطر الراهن الماثل لا ينبغي أن نغفل عن الخطر المتربص الذي يتحين الفرص . ولهذا الخطر المتربص سماسرة من نوع آخر لا أحتاج لأن أكشف القناع عن وجوههم لأنهم غير مقنعين .

ونعود لما كنا فيه فنقول : إن من غير المعقول أن تخلص دولة من دول الاستعباد فيما تنصح به للعرب من اختيار النافع من الكتب ، الذي يؤدي إلى نهضة حقيقية . وليس من الإنصاف أن نؤاخذهم على التقصير في ذلك أو الغش فيه ، فلا ينبغي أن نتوقع منهم أن يخربوا بيوتهم بأيديهم ، وأن يضعوا رقابهم في حبال المشانق طائعين مختارين . العرب وحدهم هم الأمناء على مصالحهم ، لا يصلح للقيام عليها سواهم ولا يؤتمن على هذه الأمانة غيرهم . فاختيار الكتب التي نترجمها إلى العربية يجب أن يوكل إلى علماء العرب وحدهم . تلك كلها من المسلّمات التي لم أكن أحتاج لأن أفصل القول فيها ، لولا أن هذا الذي يبدو في عقول كل الناس من الحقائق الواضحة التي تبلغ درجة المسلمات لم يكن يبدو كذلك في عقول المشرفين على التوجيه الثقافي لجامعة الدول العربية . هل يعقل عاقل منصف أن يلجأ العرب إلى السفارة الأمريكية مثلا لتختار لهم من الكتب ما تراه نافعا للعرب ومحققاً لنهضتهم ، ومعيناً على طرد اليهود وإجلائهم ؛ وتصفية شركات البترول وخرابها ؟ **لقد فعلت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ذلك! إستوحت السفارة الأمريكية في بعض ما اختارته عما ترجمته اليونسكو في بعضه الآخر** . وهي نفسها تعترف بذلك حيث تقول في نشرتها الثقافية التي عرضت فيها نشاطها بين سنتي ١٩٤٦ ـ ١٩٥٦ (كذلك اتفقت الإدارة الثقافية بعد موافقة المكتب الدائم على ان تتولى نشر بعض الكتب الهامة المترجمة بمعرفة القسم الثقافي بالسفارة الأمريكية . وقد قدمت فعلاً إلى الطبع على هذا الأساس أصول كتاب مترجم إلى العربية ، ويشتمل على مقالات

للكاتب الأمريكي الكبير إيمرسون ـ ص ٢٥[1] . وتقول كذلك : (اتصلت الإدارة الثقافية ببعض الهيئات العالمية المختصة[2] وحصلت منها على كشوف بأسماء الكتب التي تراها تلك الهيئات داخلة في إطار هذا البرنامج) . وسوف أعرض في هذا المقال نموذجين من هذه السموم التي تدس على العرب باسم جامعتهم في كتابين : أحدهما مما أوحت به السفارة الأمريكية وهو (مختارات من ايمرسون) ، والآخر مما أوصت به اليونسكو وهو (قصة الحضارة) لول ديورانت . ومن قبل أن أتناول هذين الكتابين أحب أن أؤكد لجامعة الدول العربية وللجنتها الثقافية الموقرة التي يرأسها طه حسين أن العرب لم يُغلبوا من ضعف في الفلسفة ولا الآداب ولا التاريخ . ولكنهم غلبوا وضرُبت عليهم الذلة لأنهم متخلفون في العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية ،النظرية منها والتطبيقية . غُلبوا لأنهم لا يملكون من المصانع ومن أدوات القتال ما يناهضون به عدوهم وما يتحررون به من سجنه الإقتصادي ، الذي يسخرهم فيه لجمع الثروات له كما يسخر العبيد ثم يحاربهم بهذه الثروات نفسها ، ويشتري بها من رجالهم من يقوم على حراسة هذا السجن الكبير ، فيقيم فيه معبداً يُسبح كهنته بحمد آلهتهم التي يعبدونها من دون اللّه ، ويُنكِّل بالذين ينبهون النائمين والغافلين والمخدوعين إن كان صاحبهم صاحب سلطان ، أو يطاردهم بالإشاعات الكاذبة والأضاليل الباطلة حتى يلبس على الناس أمرهم ويجعلهم موضع السخرية والاستهزاء .

إن الجماعات البشرية في الدول والحكومات ، والجيوش في ميادين القتال ، والفرق الرياضية في الساحات ، تميز نفسها بمختلف الشارات ، فتتخذ الأعلام والأناشيد وأنماط الأزياء والعلامات والأشعرة ، تفعل ذلك لتميز نفسها من غيرها فلا تضل في الزحام ، ولا تذوب عند الاختلاط ، ولا تنحل رابطتها عند المصادمة والنزال .

---

(١) طبعت اللجنة بعد ذلك كتابين آخرين مما أوحت به السفارة الأمريكية . وهما (الثقافة والحرية) لجون ديوي ، الذي أفسد المتأمركون تربية شبابنا باسمه ، (وانتصار الحضارة) لبرسند الذي أوفده المليونير اليهودي المتستر تحت النصرانية روكفلر في سنة ١٩٢٦ ليعرض على مصر عشرة ملايين من الدولارات لتأسيس معهد للدراسات الفرعونية يعين على سلخ مصر من عروبتها .

(٢) المقصود بها هيئة اليونسكو التي يسيطر عليها ـ كما هو الشأن في أكثر مؤسسات الأمم المتحدة ـ الصهيونية العالمية الهدامة .

وللعرب طابع يميزهم ، ولهم شخصية قد ضلوا عنها في عصور الضعف والخمول وأضلهم عنها المستعبدون وأذنابهم . ولن تتحقق لهم نهضة إلا إذا أحيوا هذه الشخصية ، وتمسكوا بمقوماتها ، وتعصبوا لرموزها وشاراتها ، وميزوا أنفسهم بطابعهم الخاص . وسيظلون بغير ذلك أذنابا للمستعبدين ينقادون ولا يقودون ، وأبواقا ينشرون ما يُلقى إليهم من قول ويرددونه في الأجواء ، لا يزيد عملهم فيه عن مجرد تضخيمه . ذلك لأنهم لا يبتكرون حتى يحسوا في أنفسهم القدرة على الابتكار ، وحتى يكونوا جميعا متماسكين فيتولد من اجتماعهم وتماسكهم قوة . وهم لا يحسون القدرة على الابتكار إلا إذا استيقنوا أنهم عريقون في هذا الباب . ولا يجتمعون ويتماسكون إلا إذا عرفوا خصائصهم الأصيلة التي تمنعهم من أن يذوبوا في غيرهم فتذهب قواهم شعاعاً وتتفرق بدداً[1] .

لا يبلغ العرب درجة الأستاذية في هذه العلوم الجديدة التي أذلهم عدوهم بتفوقه عليهم فيها إلا إذا أصبحت هذه العلوم ملكاً لهم . وهم لا يملكون هذه العلوم ولا يحسون أنها علوم عربية إلا إذا قرؤوها بالعربية وكتبوها بالعربية . وسيظلون يحسون أنهم غرباء عنها وأنهم متطفلون على أصحابها طالما ظلوا يقرؤونها ويكتبونها بغير لغتهم .

ولكن اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ، وعلى رأسها طه حسين الذي تشهد كتبه أنه لم يكن إلا بوقاً من أبواق الغرب ، وواحداً من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير ، يروج لثقافاته ويعظمها ، ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلاديهم . طه حسين الذي لم يملّ من الكلام على جامعة البحر الأبيض المتوسط ، التي دعت إليها فرنسا بالأمس والتي تدعو إليها أمريكا اليوم . طه حسين الذي زعم لمصر أنها جزء من البحر الأبيض المتوسط في مقومات شخصيتها ، وليست جزءاً من عرب نجد واليمن والبحرين والعراق والسودان . طه

(١) كنت تكلمت على خطر ضياع الشخصية الإسلامية فيما سبق، وهذا البحث جد خطير، وطه حسين كان يقصد منه باطناً ضياع الأمة اسلامية وذوبانها في بوتقة الغرب ، بحجة الرقي والتقدم ، وقد فعل ذلك كثير من الأقوام فما زادهم ذلك إلا ضياعاً وتأخراً ، ذكرنا على ذلك أمثلة نعيد منها سيرة تركيا التي خلعت عنها أكثر مظاهر الإسلام وتركت اللغة العربية وأجبر أهلها على إرتداء القبعات وغيرها من مظاهر التفرنج، كل ذلك بتأثير الطاغية الذي كان من يهود الدونمة وبإغراء من المستعمرين وضغطهم ، لإضعاف العالم الإسلامي وتمزيقه ، فما زاد تركيا كل ذلك ، الا ضعفاً وتأخراً وعمالة . حتى إذا حدثت أزمة قبرص التي كان القبارصة يقصدون منها القضاء على الأتراك فيها ، وانتصرت أوروبا كلها للأسقف . . . !

حسين الذي لم يبدُ العرب في وهمه أمة ، لأن قوام الدول في زعمه هو المنافع المادية ، ولأن (تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ، ولا قواماً لتكوين الدول)[1] .

طه حسين هذا لا يُقر معنا هذه الحقيقة ، لأنه يزعم للعرب أن السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم ، ولكن السبيل إلى نهضتهم أن يذوبوا في الغرب ، وأن يخْلعوا من أنسابهم ويُقلعوا من تربتهم ليغرسوا في تربة الغرب ، ولذلك فهو يهلك أموالهم في ترجمة شكسبير الذي ترجمت رواياته من قبل أكثر من مرة ليحابي بها بطانته وحزبه فيغدق عليهم مما تحت يده ، بل هو يهلك أموالهم في ترجمة ما لعن به أجدادهم ، وما سبّ فيه أسلافهم ، وسفّه دينهم ، وافترى على نبيهم .

ولو أنصف طه حسين ، ولو أنصف كل القائمين على الترجمة في هذا البلد من مثل إدارة الثقافة بوزارة التربية ومجلس الآداب وغيرهما ، لجعلوا كل همهم مصروفاً إلى نقل العلوم التجريبية[2] والرياضية وحدها لا يشتغلون بترجمة غيرها حتى نستكمل[3] نقصنا فيها ، لأن الإشتغال بنقل كتب الأدب والفلسفة والتاريخ والتربية والأخلاق وما شاؤوا من الثقافات الإنسانية ، على هذا النحو الذي تسوده الفوضى وسوء الإختيار ـ بل سوء القصد في كثير من الأحيان ـ يضر مرتين ؛ يضر بإفساد أذواق شبابنا وتدمير كيانهم ، وتحويل شخصيتهم بحيث يصبحون غرباء بين قومهم ، ثم يصبح قومهم بعد قليل هم الغرباء بينهم حين يكثر عددهم ويكثف جمعهم ، ويضر مرة ثانية بتبديد الجهد والمال من غير وجهه وصرف العرب عن الطريق الصحيح إلى تحررهم ثم سيادتهم . ولو كان لي أن أقترح على اللجان الثقافية والهيئات الجامعية على اختلافها ، لاقترحت أن يبدؤوا بترجمة كتب المراجع في الطب والهندسة والعلوم[4] والزراعة التي يدرسها طلاب الجامعات العربية . فهم

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ١٩ . وتراجع في بسطه للفكرة كلها الفقرتان الثانية والثالثة ص ١٢ ـ ٢٠ من طبعة المعارف سنة ١٩٤٤ .

(٢ ، ٣ ، ٤) جزى الله تعالى خيراً مرة أخرى الدكتور محمد محمد حسين على حسن توجيهه وإيقاظه للعالم الإسلامي ، وأذكره وأذكر قادة المسلمين أيضاً بخطر العلوم التجريبية والرياضية أيضاً ، فإن هذه المواد تقود إلى الإلحاد كما تقود إلى الإيمان ، وذلك بحسن توجيهها ، فإذا درسناها لطلبتنا كما تدرسها الجامعات الغربية ، كانت سبباً لإلحادهم ، وهذا ما نلمسه في كثير من طلبتنا . ويا للأسف ، ونحن نحسب أننا نحسن صنعاً !!

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إخلاص وإيمان!

بذلك يصيبون غرضين : إنهم ييسرون سبل العلم للطلبة العرب ويخففون عن آبائهم بعض الأعباء ، بإغنائهم عن الطبعات الأوربية الباهظة الثمن ، والتي لا يتيسر وجودها في كثير من الأحيان ، لأن أصحابها يستطيعون أن يمنعوا تصديرها إلينا حين يشاؤون . وهم في الوقت نفسه يخطون بهذا العمل خطوة واسعة نحو تعريب هذه العلوم التي لا تزال تدرَّس في جامعات مصر باللغة الإنجليزية .

وقد كان أنصار اللهجات السوقية ودعاة تطوير العربية الفصحى في قواعدها وأساليبها ومفرداتها ، من غربيين ومن عرب مستغربين[1] ، كانوا ولا يزالون يستندون في دعوتهم إلى ما يسميه بعضهم (إزدواجاً) ، فيزعمون أننا نقرأ ونكتب بغير اللغة التي نتكلمها ، وذلك عندهم هو السبب في تخلفنا العلمي والثقافي الذي يحول بيننا وبين التفوق والنبوغ . ومن عجب أن هؤلاء العباقرة قد اكتشفوا هذا العيب الخطير في عربيتنا الفصحى[2] وحدها ، ولم يكتشفوه في الإنجليزية أو الفرنسية ، فلم نسمع صوتاً واحداً منهم ينبه إلى الإزدواج الناشيء عن قراءة

(١) وفي مقدمتهم طه حسين كما نرى في بحث خاص (م . م) .

(٢) إن دعاة هذا التيسير يقصدون من ذلك القضاء على الفصحى لغة القرآن ، لتزول الوحدة بين مائة مليون عربي من المحيط الى الخليج عن طريق التمسك باللغات العامية لبطلان التفاهم بين الشعوب العربية .

وهؤلاء المستعمرون قد وصلوا ـ ويا للأسف ـ الى بعض غاياتهم المدمرة لتجهيل أكثر الشعوب الإسلامية باللغة العربية ، حتى باتوا في موسم الحج يتفاهمون بينهم عن طريق اللغة الإنكليزية أو بالإشارات كالبكم .

فما أقل وعي المسلمين الأعاجم ، وما أعظم تبعة المسؤولين العرب عن تقاعسهم عن ارسال المعلمين ـ وخاصة خلال العطل الصيفية ـ لتعليم إخوانهم المسلمين لغة القرآن عن طريق الوسائل التعليمية الحديثة للغات .

ولو كان لي من الأمر شيء لجعلت الإذاعات العربية كلها لا تنقطع عن البث خلال الليل لتوجيه العالم الإسلامي وتعليمه اللغة العربية ، وفي ذلك كسب عظيم وقهر للمستعمرين مما لا يمكن تفصيله في مثل هذا المجال ومما يؤلم ويبعث في النفس الأسى والحسرة أن تقوم الإذاعات الإنكليزية والأمريكية لتعليم هذه اللغة ، بينما نحن ساهون لاهون عن تعليم لغتنا العربية !!

وإذا كان العرب مفرطين ، فان المسلمين من الأعاجم مفرطون أيضاً ، ونذكرهم بهذه المناسبة بيهود العالم ، فإن أغلبهم يعرف لغته العبرية الدينية الى جانب لغتة الوطنية ، على الرغم من الأحداث الرهيبة التي مرت عليهم وذاقوا خلالها أنواع التعذيب والاضطهاد مع العلم والاشارة الى ان هذه اللغة القاصرة ، مع قوميتهم المغلقة والمدّمرة ، سببا لهم مختلف أنواع الإضطهاد حتى إذا احتلوا فلسطين تمّ التفاهم بينهم وسارعوا الى إنشاء دولتهم المزعومة التي تضمر النوايا المدّمرة للعرب خاصة والعالم عامة !

الجامعيين العرب ـ أساتذة وطلاباً ـ وكتابتهم بالإنجليزية أو بالفرنسية ، فهل يرون الإزدواج في المراوحة بين السوقية والفصحى مع قرب ما بينهما ، ولا يرونه في المراوحة بين الإنجليزية والعربية أو الفرنسية والعربية مع بعد ما بينها وبينهما ؟.

ولنعد من بعد إلى حديثنا عن الكتابين اللذين أشرت إليهما من قبل لأقول : إن جامعة الدول العربية حين استوحت السفارة الأمريكية في أحدهما ، واستوحت اليونسكو في الكتاب الآخر ، قد لجأت في حقيقة الأمر إلى السفارة الأمريكية مرتين . لجأت مرة إلى السفارة الأمريكية التي ترفع فوق دارها العلم الأمريكي ثم لجأت مرة أخرى إلى السفارة الأميركية رافعة علم الأمم المتحدة وإن شئنا الدقة قلنا : إنها لجأت إلى اليهودية العالمية الهدامة في الحالين ، لتختار لها أشد الكتب فتكاً بالدين والأخلاق وأفعلها في قتل الشخصية العربية ومحو مقوماتها وتدمير تفكيرها وتسميم ينابيع الثقافة فيها ، ومن أراد الدليل على صدق ما أقول فليرجع إلى الكتابين اللذين أشرت إليهما ، فسيجد فيهما الكيد للإسلام وللمسيحية ظاهراً وخفياً ، وسيجد أن اليهودية وحدها هي التي سلمت من كيد المؤلفين وبذاءتهما ، وسيجد الثناء على اليهودية واليهود تصريحاً وتلميحاً . يجد ذلك في مثل إشارة ايمرسون إلى يوم السبت الذي يسميه (يوم الدين) ، والذي يظهر الحزن والأسى لأنه (فقد الآن عند القسس سناء الطبيعة ـ ص ٧٧) ويجده في مثل قوله :(إني لأتطلع إلى الساعة التي يتكلم فيها في الغرب كل ذلك الجمال العلوي الذي افتتنت به أرواح أولئك الشرقيين ، وبخاصة أولئك العبريين الذين تحدث الأنبياء[1] من خلال شفاههم لكل زمان . . . وإني لأتطلع إلى المعلم الجديد الذي يتابع هذه القوانين المشرقة ـ (ص ٩٠). ويجده كذلك في عرض ول ديورانت لتاريخ اليهود عرضاً جذاباً مشرباً بالعطف والمحاباة في الجزء الثاني من هذه الترجمة التي أتناولها بالحديث (ص ٣٢١ وما بعدها) ، وفي اعتماد المؤلف الشديد على المؤرخ اليهودي يوسيفوس ، وعرضه

---

(١) ما أكذب قوله : « وبخاصة أولئك العبرانيين (أي اليهود) الذين تحدث الأنبياء من خلال شفاههم لكل زمان»، فإن الحقيقة خلاف ذلك ، ذلك إنّ هؤلاء اليهود حرفوا وأفسدوا حينما نقلوا التوراة إلى من بعدهم ، وأخطر ما حرفوه قولهم أنّ اللّه تعالى بشرهم بأنهم سيملكون ما بين النيل والفرات ، وكل ذلك كذب بدليل غضب الله تعالى عليهم في فقرات أخرى من التوراة ، وذم المسيح عليه السلام لهم وغضبه عليهم في مواضع عديدة من الإنجيل ، وحاشى للّه سبحانه ان يعين الفجّار ، مما لا مجال لتفصيله في هذا المجال .

تاريخ اليهود من زوايا تثير العطف والإعجاب في كل مكان من الكتاب[1] ، وذلك في مقابل ما يصبّه « ول ديورانت » من التهم البذيئة على شخصي محمد والمسيح الكريمين عليهما صلوات الله وسلامه في الجزأين الحادي عشر والثالث عشر من هذه الترجمة ، وفي مقابل تهكم إمرسون اللاذع وسخريته المرة بالمسيحية وبرجالها وطقوسها . ألا يذكرنا ذلك كله بالتهم البذيئة الموجهة إلى شخصي المسيح عليه السلام وأمه رضي الله عنها في التلمود الذي يقدسه اليهود أكثر من تقديسهم للتوراة ؟ [2] ثم ألا يذكرنا كذلك بالمادة الخامسة من خطة الصهيونية السرية التي عرفت فيما بعد باسم (بروتوكول حكماء[3] صهيون) حيث تتحدث عن (حكم الجماهير والأفراد عن طريق عبارات ونظريات وقواعد للحياة معدة إعداداً ماهراً وعن طرق شتى أنواع الخداع والحيل) ، ثم تقول بعد قليل : (وبقدر ما نعلم فإن المجتمع الوحيد الذي يستطيع الوقوف في وجهنا في مضمار هذا العلم هو مجتمع اليسوعيين ، إلا أننا قد توصلنا إلى الحط من قدرهم في نظر الجماهير الحمقاء بتوكيدنا لهم أنهم منظمة زائلة ، بينما وقفنا نحن وراء الكواليس وحرصنا على أن تبقى منظمتنا مستترة خفية)[4] .

(١) تراجع أمثلة لذلك في صفحات ١٣ ، ١٤ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٢٠٤ ، ٢١٦ من الجزء الحادي عشر (الجزء الثالث من المجلد الثالث) .

(٢) وقد أشار القرآن الى ذلك في قوله تعالى : (فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون) (المؤمنون : آية ٥٤) .

قال الزّجاج فتأويله : جعلوا دينهم كُتُباً مختلفة وفرحوا بما عندهم من الدّين الذي ابتدعوه معجبين يرون أنهم على الحق » باتباع التلمود وغيره من الكتب الموضوعة .

وما أشبه هذا العمل بعمل بعض متعصبي المذاهب الذين لو أتيتهم بكل آية أو حديث يخالف مذهبهم ، ما تركوه !!

(٣) ان وصف واضعي مقررات صهيون بالحكماء ظلم للحكمة التي هي كوضع الأمور في مواضعها ، بخلاف ما جاء في هذه البروتوكولات من الدسائس والمؤامرات ويحسن تسميتها (بروتوكولات زعماء صهيون) .

(٤) الترجمة العربية ص ٤٦ ـ ٤٧ من طبعة « كتب سياسية » ـ العدد الخامس . ويجب أن ينتبه المسلمون إلى ان الأساليب التي استخدمتها الصهيونية في هدم المسيحية ومحو سلطانها وسلطان رجال الكنيسة من قلوب المسيحيين هي نفسها التي تتخذها الصهيونية الآن لمحاربة الإسلام وإفساد دين ناشئتهم وجماهيرهم وإضعاف سلطان الإسلام على نفوس عامتهم . ويقوم هذا الأسلوب على السخرية بعلماء الدين وتصويرهم بصورة الجهلاء الجامدين تارة ، والمنافقين المستغلين لسلطان وظائفهم تارة أخرى وبإثارة المشاكل الوهمية حول قواعد الإسلام وأحكامه ليوهموا ضحاياهم أنها لم تعد كافية لسد حاجات المجتمع الحديث .

يهدم إمرسون الدين والتدين من جذوره تحت ستار الدعوة إلى الحرية وإلى إستقلال الشخصية . وأما ول ديورانت فهو يهدمه عن طريق تجريح الرسل الأطهار وإثارة الغبار حول سيرهم . على ان الكاتبين كليهما يشتركان في هدم النبوات وإنزال الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه إلى مرتبة الفلاسفة والكُتاب والمصلحين .

يستدرج إمرسون السُذج من القراء وضعاف الايمان بالثناء على موسى وعيسى عليهما السلام ، ولكنه يزعم لهم أن الدين يتجدد دائماً ، وأن الأنبياء كانوا ولا يزالون (ص ٦٩ ، ٧٠) . ولذلك فهو يسمي المسيحية التي أُنزلت على المسيح عليه السلام (المسيحية التاريخية [1] - ص ٧١) ، ويعد فيما يعدده من أخطائها أنها تهتم بشخص المسيح إهتماماً مبالغاً فيه ، وأنها تبالغ كذلك في الاهتمام بالطقوس دون جوهر الروح . ومن أجل ذلك صار الناس في زعمه (يتحدثون عن الوحي كأنه قد أوحي به وانتهى من عهد قديم ، كأن الله قد مات ص ٧١ إلى ٧٤) . ولا يزال هذا الصهيوني الهدَّام يستدرج قارئه حتى ينتهي به إلى النتيجة الخطيرة التي يريد أن يسوقه إليها ، وهي هدم كل الديانات ، باعتبار الوحي ظاهرة مألوفة تتكرر في كل زمان ومكان ، وذلك حين يقول : (ومن واجبي أن أقول لكم إن الحاجة إلى إلهام جديد لم تكن في أي وقت من الأوقات أشد مما هي الآن ص ٧٥) وحين يقول بعد ذلك : إن جمود الدين ، والزعم أن عصر الإلهام قد ولىَّ ، وأن الإنجيل قد استغلق ، والخوف من الحط من شخصية المسيح بتمثيله في صورة رجل ، كل ذلك يدل في وضوح كاف على خطأ علمنا بالدين . وواجب المعلم الصادق أن يرينا أن الله كائن اليوم ، لا كان فيما مضى ، وأنه يتكلم لا تكلم وانتهى ص ٨٣) . ما الفرق بين كلام هذا الرجل وبين كلام القسيس الأميركي ميلر بروز في الكتاب الذي نشرته مؤسسة فرانكلين باسم « الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة »؟ وما الفرق بينه وبين كلام القسيس الأميركي الآخر هارولد سمث في ذلك الكتاب نفسه (ص ٤٧ ، ٧٤) ؟ ألا ترى أن واردات أمريكا تهدف جميعاً إلى زعزعة إيمان الناس بديانتهم ، وجعل المسلمين في هذه المنطقة مسلمين بأسمائهم وألقابهم وشهادات ميلادهم ، لا يزيدون على ذلك ولا يتجاوزونه ؟ هذا هو الهدف الهدام الذي تخفيه

---

(١) ليس هذا الكاتب وحده الذي قال ذلك عن المسيح . .

أرديتهم السوداء - وإمرسون أحد أصحاب هذه الأردية . فهو ينتمي إلى أسرة يحترف هنا كثير من أفرادها الكهنوت ، وقد تخرَّج هو نفسه في مدرسة هارفارد الدينية سنة ١٨٢٩ ، وبدأ حياته راعياً لكنيسة كان أبوه يقوم بالوعظ فيها ، ثم طردته الكنيسة لما شاع إلحاده . وما ينبغي لهذه الأردية السوداء أن تخدع الناس عن حقيقة الذين يلبسونها . إن الكهنوت مدسوسون على القسس ، دستهم عليهم الصهيونية العالمية الهدامة .

ومن وجد في هذه الحقيقة شيئاً من الغرابة فليقرأ الرسالة التي بعث بها كبير حاخامي اليهود في القسطنطينية إلى يهود فرنسا سنة ١٤٨٩ حين تعرضوا لاضطهاد لويس الثاني عشر . فقد قال لهم : (إنكم تذكرون أن ملك فرنسا يريد أن تصبحوا مسيحيين فعليكم إذن أن تفعلوا . . . إنكم تذكرون أنهم يريدون الإستيلاء على ممتلكاتكم ، فاجعلوا من أبنائكم تجاراً ، وبواسطة التهريب تستطيعون شيئاً فشيئاً الإستيلاء على ممتلكاتكم ، إنكم تشكون من أنهم يحاولون إغتيالكم ، فاجعلوا من أبنائكم أطباء وصيادلة ، حتى يتمكنوا من القضاء على حياتهم دون أن يخشوا عقاباً . إنكم تؤكدون أنهم يهدمون معابدكم ، فحاولوا أن تجعلوا من أبنائكم كهنة ، ورجال دين ، لكي يدمروا كنائسهم . . . إلخ)[1] .

يقرن هذا الصهيوني الهدام رسالات الأنبياء في كل موضع من كتابه بآراء الفلاسفة والكتّاب وأصحاب المذاهب الضالة الفاسدة في بعض الأحيان - مثل ما جاء في صفحات ٨٤ ، ١٢٨ ، ١٥٧ - فهي في زعمه ليست منزلة من عند اللّه ، ولكنها نابعة من عقولهم بعد أن تحرروا من أسر الآراء السائدة في عصرهم . ولذلك فهو يحض على الإقتداء بهم - حسب تصويره المزعوم لهم في الخروج على كل ما هو ثابت مقرر مما توقره التقاليد وتقدسه الأديان . وذلك هو ما يسميه ذلك الهدام : بالحرية وباستقلال الشخصية .

والحرية أو إستقلال الشخصية التي يدعو إليها هذا الهدام هي حرية تقوم على الغلو في الفردية ، ويستطيع القارىء أن يلمس بوضوح في كل مقالات الكتاب أن وراء كل سطورها إسرافاً في تقدير الفرد والفردية والحرية الشخصية في السلوك وفي

---

(١) راجع « عدو فرنسا رقم ١ » ص ١٣ العدد ١٩ من سلسلة « كتب سياسية » .

التعبير عن الرأي ، ينتهي إلى أن يسمح كل إنسان لنفسه بأن يبني عالماً مستقلاً به عن القيم لا يستوحي فيه غير خياله وأوهامه . مثل هذا الكلام لا يصدر إلا من هدام محترف ، لأنه يقتل الروح الجماعية التي هي أساس كل تماسك إجتماعي ، والتي أدّى فقدانها إلى ما يعانيه الناس الآن من فوضى واضطراب ، فلو سمح لكل فرد من الناس أن يبني لنفسه عالماً مستقلاً من القيم لأصبحت مقاييس الخير والشر مقاييس فردية ، لا يكون هناك شر هو عند كل الناس شر ، ولا يكون هناك خير هو عند كل الناس خير ، وعندئذ لا يصبح هناك مجتمع ، ولا يكون هناك إلا الفوضى والخراب .

والأمثلة على هذه الدعوة الهدامة التي هي بمكان اللب من هذه المقالات التي ترجمتها الجامعة العربية بمشورة السفارة الأميركية تملأ الكتاب ، أستطيع أن أقدم بعض نماذج منها على سبيل التوضيح لا الحصر .

يقول إمرسون مخاطباً قراءه (وإني أنصحكم قبل كل شيء أن تسيروا وحدكم وأن ترفضوا النماذج الطيبة ، حتى تلك التي يقدسها الناس في خيالهم . وتشجعوا على محبة الله بغير وسيط أو حجاب . وسوف تجدون من الأصدقاء من يكفي لأن يطلعكم على أمثال وزلي وأوبرلين والقديسين والأنبياء ـ وتأمل أين يضع هذا الملحد الهدّام الأنبياء عليهم صلوات اللّه وسلامه ـ لكي تقتدوا بهم . أشكروا اللّه على هؤلاء الرجال الأخيار ، ولكن ليقل كل منكم « أنا كذلك إنسان » . . . إن التقليد لا يمكن أن يرتفع فوق النموذج . . . كل منكم منشد من منشدي الروح القدس ولد حديثاً . فلينبذ وراءه كل تقليد وليعرِّف الناس مباشرة باللّه ص ٨٥) . وواضح من هذا الكلام أن ذلك المفسد المضل يريد أن يجعل كل الناس أنبياء ، معتمداً على ضعف المغرورين والمفتونين ، الذين يريد أن يخيل إليهم أنهم لا يثبتون جميعاً على صلة صحيحة وثيقة باللّه سبحانه وتعالى تمكنهم من معرفته ومن تعريف الناس به .

ومن أمثلة هذه الآراء الهدامة التي تستتر وراء الدعوة الخلابة إلى التحرر الفكري كذلك قوله : (من أراد أن يكون رجلاً ينبغي أن ينشق على السائد المألوف . ومن أراد أن يجمع ثمر النخيل الخالد ينبغي أن لا يعوقه ما يسميه الناس خيراً . بل يجب عليه أن يكتشف إن كان ذلك خيراً حقا . لا شيء في النهاية مقدس

سوى نزاهة عقلك . حرر نفسك لنفسك يؤيدك العالم . . . الخير والشر إسمان يمكن في سهولة شديدة أن ينتقلا إلى هذا أو ذاك ، والشيء الوحيد الصحيح هو ما يتبع تكويني ، والشيء الوحيد الخطأ هو ما يقاومه ص ١٣٢) .

ومن سفسطة ذلك المفسد الهدام قوله :(إن الثبات على رأي واحد هو غول العقول الصغيرة الذي يقدسه صغار السياسيين والفلاسفة ورجال الدين . أما الروح العظيمة فليس لها البتة شأن بهذا الثبات ، وإلا فإنها تأبه لظلها فوق الحائط . أنطق بما تفكر فيه الآن في ألفاظ قوية ، وانطق بما تفكر فيه غداً في ألفاظ قوية كذلك ، حتى إن ناقض ما قلته اليوم ، وإذن فثق أنك سوف يساء فهمك . وهل من شر الأمور أن يساء فهمك ؟ لقد أسيء فهم فيثاغورس وكذلك سقراط ويسوع وكوبرنكس وغاليلو ونيوتن وكل روح طاهرة عاقلة تجسدت . لكي تكون عظيماً لا بد أن يساء فهمك ص ١٣٩) .

فلينظر القارىء أي دعوة هذه إلى التخبط والغرور ، وإغراء ضعاف العقول بما يجرئهم على خوض كل مجهول ، وتناول كل مغيب مستور ، وهتك كل مقدّس مصون والخبط في كل تيه واعتساف كل طريق ، بما يفسد عليهم وعلى الناس الحياة ويحولها إلى جحيم لا سكن فيه ولا قرار ، يتنابذ أهلها ويتدابرون ويعتركون ولا يتفقون على رأي ولا يسكنون ولا يطمئنون ، حتى لكأنهم أهل جهنم (كلما دخلت أمة لعنت أختها) .

على هذا الغرور الشديد المفسد في تقدير الفرد يقوم الكتاب كله . ويبلغ هذا الفساد وهذا الغرور حد الكفر المجنون في بعض الأحيان . وذلك في مثل قوله :(إن من ينبذ الدوافع العامة الإنسانية ويجرؤ على الثقة العامة فيما تمليه عليه نفسه لا بد أن يتميز ببعض صفات الآلهة ص ١٥٤) .

فهل تعرف خرفاً وراء هذه الخرف ؟ ومع ذلك فقد يظن بعض صغار العقول وضعاف النفوس هذا الجنون ضرباً من ضروب الفلسفة [1] ، لأنهم لا ينسبون

---

(١) إن الفلسفة نفسها هي أيضاً ضرب من ضروب الجنون ، بدليل تناقض الفلاسفة مع بعضهم بعضاً ، ومع أنفسهم في أحيان كثيرة ، ومن أراد التحقيق في ذلك فليرجع الى رسالة الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق « الحقيقة والفلسفة » أثبت فيها أن الفلسفة لا توصل الى الحقيقة أو إذا كان للغربيين عذر في دراسة الفلسفة للبحث عن قضايا ما وراء الطبيعة لحاجتهم الفطرية ، ولحرمانهم من أخبار الوحي أو جهلهم بها ، فما عذر الفلاسفة المسمين مسلمين بالإهتمام بها ، وعندهم هذا الوحي ، وقد ضلّوا ضلالاً بعيداً .

عجزهم عن فهمه إلى فساده ، ولكنهم ينسبونه إلى ضعف عقولهم عن إدراكه . وهذا الكاتب وأمثاله يعتمدون على أن الأذكياء سوف يجدون في كلامه ما يرضي غرورهم . أما الأغبياء فسوف يقفون أمامه مشدوهين كأنهم أمام معجزة . أما الشباب فسوف يجدون فيما يتضمنه من الثورة التي تحطم ولا تبقي ولا تذر مجالاً للتنفيس عن نشاطهم ونزوعهم إلى إثبات وجودهم من كل وجه .

ويتعقب ذلك الصهيوني الهدام شعائر الدين كلها بالتسفيه والسخرية اللاذعة . فالصلاة عنده وهم ليس فيه من الشجاعة أو الرجولة بمقدار ما فيه من القداسة (ص ١٥٦) . والتوبة والندم نوع آخر من الصلاة الزائفة ونقص في الاعتماد على النفس وعجز في الارادة ، والرحمة والعطف لا تقل عن الندم وضاعة (ص ١٥٧) ، (والعقائد الدينية الشائعة قد تفوقت على الخرافات التي حلت محلها في الظاهر فقط لا في المبدأ ـ ص ١٧٣) . ألا ترى من ذلك كله أن هذا المفسد يريد ثورة تقلب موازين الدين والخُلق وكل شيء ؟ بلى . وهو نفسه يعرف ذلك ، فهو يفسد ، ويعلم أنه يفسد ، أي أنه هدام محترف يفسد عن وعي منه وقصد ، والدليل على ذلك قوله :(نريد رجالاً ونساء يجددون الحياة ويجددون حالتنا الإجتماعية . ولكنا نجد أن أكثر المطابع مفلسة ـ ص ١٥٤) وقوله :(إن تدبيرنا المنزلي ضعيف ، وفنوننا ، وأعمالنا ، وزواجنا ، وديننا ، لم نختره لأنفسنا . وإنما نحن جنود في غرفة الاستقبال ، نتحاشى معركة القدر الحامية التي تتولد فيها القوة ـ ص ١٥٥) . وقوله : (ومن اليسير أن نرى أن مزيداً من الثقة بالنفس لا بد أن يحدث إنقلاباً في جميع وظائف الناس وعلاقاتهم ودياناتهم ، وفي تربيتهم ، وفي أهدافهم وأساليب عيشهم واجتماعهم وفي امتلاكهم وفي آرائهم التي يتدبرون ص ١٥٦).

ذلك هو لب الكتاب الذي أوحت به السفارة الأميركية لطه حسين ، فترجمه بأموال العرب ، وأهداه إلى شبابهم ومفكريهم ، ولعنة اللّه على شياطين الإنس والجن﴿يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ .

وقد يبدو في بعض مقالات الكتاب كما هي العادة في كل نشرات الهدامين صورة خدّاعة للإيمان ، في مثل مقالات (الحب) و (الصداقة) . ولكن هذا الايمان الزائف ليس إلا الشرك الخداع الذي يجذب الأغرار ، إذ يوهم القارىء أن

الرجل صادق الإيمان ، وأن ضلالاته وإلحاده ليست إلاّ ضرباً من التصوف [1] ، وأن سخطه على الأديان وطقوسها هو ضرب من السمو الروحي الذي يستهدف إصلاحها وتنقيتها من الشوائب كما يزعم كل أمثاله من الهدامين .

أما (قصة الحضارة) ل (ول ديورانت) Zillduront فقد أصدرت منه اللجنة الثقافية حتى الآن ستة عشر جزءاً ، ويكفي أن نراجع من هذه الأجزاء العديدة الجزأين اللذين تناولا حياة سيدنا عيسى وحياة سيدنا محمد عليهما الصلاة والسلام لنتبين أن إختيار هذا الكتاب للترجمة جريمة دبرتها الصهيونية الهدامة المتخفية في زوايا اليونسكو ونفذتها بيد طه حسين وأمثاله في جامعة الدول العربية .

يتساءل مؤلف الكتاب إن كان المسيح عليه السلام قد وجد حقاً (١١ : ٢٠٢ ـ ٢٠٥) ويثير حول الأناجيل مختلف الشبهات (١١ : ٢٠٦ ـ ٢١١)، ويشكك في نسبه وفي أنه ولد من عذراء (ص ٢١٤) ، وينكر كل معجزاته فينسبها جميعاً إلى

---

(١) يؤسفني أن أقول إن لدى الدكتور محمد محمد حسين نزعة صوفية ، فقد رأيته في أكثر من موضع يثني عليه ، مثله مثل أكثر علماء مصر وأدبائها ، وأساتذتها ! وهذا أمر بالغ الخطورة ومسيء للأجيال ومخدّر لها . وقد جاء كثير منهم إلى دمشق خلال الوحدة للإحتفال بمهرجان الغزالي ، فأخذ كل منهم يثني على الغزالي وعلى تصوفه إبتداء من الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق ، وكان وقتئذ عميداً لكلية أصول الدِّين ، فوقفت وحدي أردُّ عليه وعلى غيره ، وكان رئيس المهرجان المذكور الدكتور إبراهيم مدكور ، وهو من المسلوبين في التصوف هذا الدّاء الدفين !
وإني لأذكر له لطفه معي في المهرجان المذكور ونقدي للتصوف وانصاره نقداً لاذعاً .
وكنت مرة بمصر ، فطلبت من أحد أصحابي المتنفذين أن يهيء لي مقابلة مع نائب رئيس الجمهورية سابقاً حسين الشافعي لأحدثه عن الدكتور عبد الحليم محمود الصوفي المحروف وأوضح له خطره ، فقال لي : إنه هو الذي أسند اليه رئاسة مشيخة الأزهر .
وبعد وفاته تولى هذه المشيخة الدكتور البيصار ، وهو صوفي رهيب قدّم لكتاب : « التنوير في إسقاط التدبير » للصوفي المدّمر ابن عطاء اللّه الإسكندري صاحب النقم المسماة بالحلم وفيه من الطامات الشيء الكثير مما لا مجال لتفصيله ، فعلى من أراد أن يتحقق من ذلك فليرجع الى رسالة لي صدرت حديثاً بعنوان : « كتب ليست من الإسلام ! ».
وكي لا أتهم بالتحامل على التصوف أحيل القراء للإطلاع على كتاب«تلبيس ابليس» أو نقد العلم والعلماء للإمام أبي الفرج بن الجوزي الذي أعدت طبعه وحققت أحاديثه . وقد صدر أخيراً كتاب التصوف في طبعته الثانية للدكتور الأستاذ عمر فروخ : نقلنا بعض أقواله في موضع آخر من هذا الكتاب .

الكذب والتلفيق ، أو يردها إلى خداع الحواس والوهم أوما سماه (العلاج النفسي) (ص ۲۲۱ ـ ۲۲۲) ويتناول شخص المسيح عليه السلام وكلماته وروايات الأناجيل بالسخرية فيقول مثلاً: إن الإنسان ليجد في الأناجيل فقرات قاسية مريرة لا تلائم قط ما يقال لنا عن المسيح في مواضع أخرى منها ، ويبدو أنه قيل دون بحث وتمحيص، أقصى ما كان يؤ من به معاصروه عن جهنم السرمدية، التي يعذب فيها من لا يتوبون من الكفار والمذنبين بالنار التي لا تنطفىء أبداً والديدان التي لا تشبع من نهش أجسادهم .

وهو يقول دون أن يحتج عليه أحد :(إن رجلاً فقيراً في الجنة لم يسمح له بأن يترك نقطة واحدة من الماء تسقط على لسان غني في الجحيم . . . ويلعن شجرة التين التي لم تكن تحمل ثمراً ، ولعله كان قاسيا بعض القسوة على أمه ، وكان يتصف بحماسة النبي العبراني المتزمت أكثر من إتصافه بالهدوء الشامل الذي يمتاز به الحكيم اليوناني ـ ص ٢١٩) . وأكثر هذه المفتريات[1] التي حشدها ذلك الصهيوني الهدام في كتابه ، مروية عن المؤ رخ اليهودي يوسيفوس .

ويمثل هذا الأسلوب الإلحادي الهدام عالج المؤلف حياة نبينا عليه الصلاة والسلام في الجزء الثالث عشر . ففي هذا الجزء من الكتاب أخبث أساليب الكيد والدس للإسلام . والمؤلف لا يلجأ هنا إلى الهجوم البذيء الصريح ،كما فعل مع شخص المسيح الكريم عليه السلام . ولكنه يتظاهر هنا بالإنصاف ، بل يبدو في بعض الأحيان كأنه معجب بشخص النبي عليه الصلاة والسلام . فيقول مثلاً : (وكان محمد ، كما كان كل داع ناجح في دعوته ، الناطق بلسان أهل زمانه والمعبر عن حاجاتهم وآمالهم ـ ص ٢٤) . ويقول في موضع آخر : (ذلك أن النبي كان ينشيء حكومة مدنية في المدينة . إضطر بحكم الظروف أن يخصص جزءاً متزايداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الإجتماعي والأخلاقي والعلاقات السياسية بين القبائل ص ٣٣) ويقول : (وحتى شؤ ون الحياة العادية كانت أوامره فيها تعرض في بعض الأحيان كأنها موحى بها من عند اللّه). وكان إضطراره إلى تكييف هذه الوسيلة السامية بحيث تتفق مع الشؤ ون الدنيوية ،مما أفقد أسلوبه بعض ما كان يتصف به من بلاغة وشاعرية . ولكن لعله كان يشعر بأنه بهذه

(١) تحريف بعض الكتب السماوية وما داخلها من خرافات سبب هذه التهكمات (م . م) .

التضحية القليلة جعل كل تشريعاته تصطبغ بالصبغة الدينية الرهيبة ـ ص ٤٢).

وهو في هذه المواضيع كلها يتحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثه عن أي مصلح سياسي تصدر دعوته عن حاجات عصره وتشكلها ظروفه . ومع ذلك فإن كلامه هذا قد يخدع ضعاف المسلمين وأغرارهم حين يرون الكاتب ـ وهو غير مسلم ـ يبدي ميلاً مصطنعاً إلى إنصاف نبي لا يدين هو بدينه . فهذا الكلام المشبع في ظاهره بروح المودة يخدع كثيراً من المسلمين فيتقبلونه بقبول حسن . وينتهي بهم ذلك إلى إعتبار نبيهم واحداً من الزعماء والفلاسفة والمفكرين والمصلحين الذين يزخر بهم تاريخ الشرق والغرب في العصور القديمة والحديثة ، فيخرجهم ذلك عن إسلامهم لا شك ، لأنهم لا يسلمون حتى يعتقدوا إعتقاداً خالصاً لا يدخله ريب أن نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت بوحي يلاحقه ويقوده ويصحح كل أعماله . ولست أبالغ ولا أدَّعي غير الحق حين أقول إن هذه الروح اللادينية ـ مع شديد الأسف ـ قد أصبحت هي التي تسود دراسات التاريخ الإسلامي في الجامعات . وذلك شيء يلمسه كل من تخرج من كليات الآداب أو إتصل بها عن قريب . وما لي أذهب بعيداً وهذا هو محمد بدران ـ مترجم هذا الجزء ـ يقدم لي الدليل هو نفسه على صدق ما أقول ، حين يقرر في مقدمته (ان المؤلف قد أنصف الحضارة الإسلامية فشاد بفضلها).

يقرر المترجم المسلم ذلك في سذاجة تبلغ حد الغفلة والبله . مع أن ذلك الصهيوني الخبيث لا يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا الغرائب التي يخلعها من سياقها وظروفها حتى تبدو لغير الخبير بالتاريخ الإسلامي في صورة تثير السخط وتدعو إلى الإشمئزاز ، كالذي يصف المجرم وهو يساق إلى القتل ويعلق في الحبل ، ويخفي ما اجترح من مفاسد وما أزهق من أرواح بريئة . تجد ذلك في مثل كلامه عن قتله صلى الله عليه وسلم إمرأة ، وعن قتله شيخاً ناهز المائة ، لأنهما هجواه (ص ٣٥) . وهو يسوق ذلك في أسلوب هادىء رزين كأنه يسوق خبراً من الأخبار العادية دون أن يعلق عليه أو يحتفل به ، فلا يكاد القارىء المسلم ينتبه إلى غرضه الخبيث الذي هو في حقيقة الأمر التشنيع بالنبي عليه الصلاة والسلام عند المخدوعين بما تزوّره الصهيونية الهدامة من كلمات برّاقة ، حين تدعو إلى (حرية الهدم) وإلى (حرية الإفساد) وتسمي ذلك (حرية الرأي) ، وليوهم أنه عليه الصلاة والسلام ،

لم يكن يرعى حرمة للنساء ولا للشيوخ . ومثل ذلك أيضاً قوله : (وضُمت صفية [1] ـ وهي فتاة يهودية في السابعة عشر من عمرها كانت مخطوبة لكنانة ـ إلى نساء النبي ـ ص ٣٩) .

فمثل هذه الألغام التي يدسها الرجل في ثنايا سطوره تترك أسوأ الأثر في نفوس القراء من الغربيين ومن ضعاف الإيمان من المسلمين ، والمنتحلين منهم للحضارة الغربية المتخلقين [2] بها خاصة . شيخ جاوز الخمسين يتزوج فتاة من السابعة عشرة ! وليس هذا فحسب . بل إنها كانت مخطوبة لرجل يهودي من بني جنسها فأضافها إلى نسائه العديدات [3] ! هل هذا تاريخ ! أم أنه تشنيع في أخطر صورة ، لأن صاحبه يتصنع الهدوء ويتظاهر بالإتزان والإنصاف ، ويخدع الناس بمثل كلامه عن براعة النبي في القيادة وفي شؤ ون الحكم وفي التنظيم الإجتماعي .

ومن أمثلة هذا الأسلوب الخبيث وصفه النبي صلوات اللّه وسلامه عليه بأنه كان (يُعنى بمظهره الشخصي ويقضي في تلك العناية كثيراً من الوقت . فكان يتعطر ويكتحل ويصبغ [4] شعره ويلبس خاتماً نقش عليه « محمد رسول الله ». وربما كان الغرض من هذا الخاتم هو توقيع الوثائق والرسائل . وكان صوته موسيقياً حلواً يأسر القلوب . وكان مرهف الحس إلى أقصى حد ، لا يطيق الروائح الكريهةولا صلصلة الأجراس والأصوات العالية . . وكان قلقاً عصبي المزاج ، يُرى أحياناً كاسف

---

(١) لا أدري ما العجب في ذلك ، وقد انتقلت هذه المرأة من الشرك الى الايمان ، وخاصة واليهود في التوراة مأمورون ـ كما زعموا ـ بقتل جميع أسرى الحزب ؟! فما أحسن معاملة الإسلام وحكمه ! أما بخصوص سنِّها، فقد كانت عائشة رضي اللّه عنها ـ أصغر منها ، وكانت مع الرسول صلىّ اللّه عليه وآله وسلّم تعيش أسعد أيامها .

(٢) ويل لهذه الحضارة الغربية ما أكثر مفاسدها ومخاطرها كما صرّح بذلك كثير من الغربيين أنفسهم . فهل تستحق أن تُتخذ مقياساً ونبراساً ؟!

(٣) إن كثرة نساء الرسول صلىّ اللّه عليه وآله وسلّم كانت لأهداف سياسية وعلمية وغير ذلك .

(٤) ألا لعنة الله على المستشرقين والمبشرين الذين يريدون ان يخفوا ضياء الشمس ، يقلبوا الفضائل الى قبائح ! وإلا فمتى كان الإهتمام بالنظافة والهندام نقيصة

اذا ما الحمقُ خيم في أناس   رأيت أسودها مسخت قرودا

البال ، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث ـ ص ٤٥) . فهذا الأسلوب المسموم في التصوير إنما يريد أن يصور النبي صلى اللّه عليه وسلم في صورة المتصابي وفي صورة العصبي المزاج ، المريض الأعصاب ، المصاب[١] بالصرع . ويؤكد هذا الصهيوني الهدام تلك الصورة المفتراة بعد ذلك بقوله : (وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء واجبات الحب والحرب ، ولكنه أخذ يضعف حين بلغ التاسعة والخمسين من عمره . وظن أن يهود خيبر قد دسوا السم في اللحم قبل عام من ذلك الوقت[٢] ، فأصبح بعد ذلك الحين عرضة لحميّات ونوبات غريبة . وتقول عائشة : إنه كان يخرج من بيته في ظلام الليل ، ويزور القبور ويطلب المغفرة للأموات ، ويدعو اللّه لهم جهرة ، ويهنئهم على أنهم موتى . ولما بلغ الثالثة والستين من عمره إشتدت عليه الحمّيات[٣] ـ ص ٤٦)

وجاء في هذا الجزء من الكتاب أيضاً : (وهاجرت إلى المدينة مائتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام . وحل محمد هذه المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد . ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينة ـ ص ٣٤) . ويحاول المؤلف أن يلبس هذه الأكاذيب وهذا التشنيع المفتري ثوب العلم فيقول : (واجتمعت أسباب عدة عملت كلها على اتساع ملك العرب . فمن الأسباب الإقتصادية أن ضعف الحكومة النظامية في القرن السابق لظهور النبي قد أدى إلى إنهيار نظم الري في جزيرة العرب فضعفت من جراء ذلك غلاّت الأرض الزراعية وحاقت بالسكان المتزايدين أشد الأخطار . ولهذا فقد تكون الحاجة إلى أرض صالحة للزرع والرعي من العوامل التي دفعت جيوش المسلمين إلى الفتح[٤] والغزو ـ ص ٧١ ـ ٧٢) .

(١) يحسن بهذه المناسبة الإطلاع على ما قاله كبار مفكري الغرب المنصفين في الرسول محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ليقف القارىء على الحقيقة ويسخر من الحمقى المغرضين !! والسفهاء الكذبة !

(٢) تأمل حرص هذا الصهيوني على تبرئة اليهود من التهمة المفتراة أذ يقول « وظن أن يهود خيبر » .

(٣) يقصد هذا الكاتب الكاذب أن الرسول بسبب الوجع الذي أصابه إثر سكرات الموت ، قد بلّغ أصحابه أموراً خارجة عن الشرع . كبُرت كلمة تخرج من فيه ! إن يقول إلا كذباً بشهادات كثير من علماء قومه التي تبلغ المئات . وهكذا يكون قد شهد شهود من قوم هذا الكاتب على افترائه وكذبه !!

(٤) تراجع شهادات علماء الغرب ومفكريه المنصفين على مبلغ سمو رسالة الإسلام وان فتوحاته لم تكن استعمارية وذات أهداف اقتصادية ، بل كانت رحمة للعالمين !

أترى إلى هذا الكلام المسموم الذي يصور المسلمين الأولين ـ وعلى رأسهم النبي صلى اللّه عليه وسلم ـ في صورة عصابات اللصوص وقطّاع الطرق ، والذي ينزل بدوافع الفتح النبيلة إلى أغراض مادية ، فينقلب ذلك النفر الكريم من المجاهدين الأولين في نشر كلمة اللّه ، الذين لم يكونوا يبالون بحياتهم الدنيا في سبيل ما أعده اللّه لهم من ثواب الجهاد في نشر دينه . ينقلب ذلك النفر الكريم إلى جماعة اللصوص وقطاع الطرق . لماذا تؤذي جامعة الدول العربية المسلمين والعرب بسماعه ؟ لماذا تنفق على نقله إليهم من أموالهم ، كأن مهمتها هي إسماعهم ما يكرهون وإحصاء ما قيل فيهم من الشتائم وإذاعته على الناس ؟ إن الحكومات تمنع شعوبها من الإستماع إلى الدعايات التي تفتري عليهم والتي تثبط عزائمهم وتفرق كلمتهم ، وتنفق في مقاومة مثل هذه الإذاعات الآلاف والملايين في بعض الأحيان . فهل دين الناس أقل قداسة وأهون مقاماً ؟

لا يكفي في دفع ضرر هذا الكتاب وأمثاله أن تكلف الإدارة الثقافية الدكتور الشيخ محمد يوسف موسى بالتعليق على ما يراه مستحقاً للتعليق ، فيعلق على بعض ويهمل بعضاً ، لأن السُذّج والغافلين وقليلي الخبرة بتاريخ المسلمين ـ وليست لدينا وسيلة لمنع وصول الكتاب إلى أيديهم ـ إن قرؤوا ما في هذه الحواشي واقتنعوا به مرة فقد يهملونها وقد تستغويهم أباطيل الكتاب مرات . فما هي حاجتنا أصلاً إلى ترجمة مثل هذه المفتريات ؟ أي فائدة تعود على العرب من نقل مثل هذا الكلام ، حتى يغضوا الطرف عما فيه من الأذى ؟ هل هذا مما يزيد العرب تماسكاً ؟ أم هو مما يعينهم على النهوض ؟ لماذا تُنقل إلى لغتنا هذه الكتب التي تتكلم على نبينا عليه الصلاة والسلام بوصفه مصلحاً لا نبياً ، وقد كان من آثار هذه الدعايات ـ ولا أقول البحوث ـ أن افتتن بها جماعة من المسلمين فاتخذوها نموذجاً لبحوثهم الإسلامية ، وظنوا أن تجردهم من إسلامهم شرط لسلامة البحث وعلميته ، كما زعم لهم طه حسين في كتابه (الشعر الجاهلي) الذي سيق بسببه إلى المحاكمة . وقد أصبح التاريخ الإسلامي ، بل الدراسات الإسلامية في كل فروعها ، لا تدرس في الجامعات العربية الآن على إختلافها إلا على هذا النمط الفاسد المفسد الهدام . إن طه حسين الذي بدأ حياته العملية مُتهَماً في دينه ، يتسلق إلى الشهرة بمخالفة كل مقدس مصون وكل مقرر ثابت ، حين كان الإلحاد بدع العصر يجاهر به الملحدون ويتظاهر به

صغار النفوس والعقول من الأدعياء ، هذا الرجل نفسه هو الذي يُشرف على إختيار مثل هذه الكتب لتترجم على نفقة العرب ، وليثقف بها ناشئتهم ويشدّ بها أزر جامعتهم . وأي جامعة قد بقيت للعرب ، ولجنتهم الثقافية تؤذي إيمان المؤمنين مسلميهم ومسيحييهم؟ تؤذي المسيحيين مرة وتؤذي المسلمين مرتين ، تؤذيهم في نبيهم عليه الصلاة والسلام مرة وتؤذيهم في شخص المسيح الكريم عليه السلام مرة أخرى ، ثم تعتذر لهم عن جرأة المؤلف على الإسلام وافترائه على رسوليها الكريمين (ص ٣١) . فهل سمع الناس عذراً أقبح من هذا العذر الذي لا يصدر إلا عن جهول ؟ هل يعتذر عن رجل سب أبي بأنه لم يسبّ أبي وحده ، ولكنه سب آبائي كلهم أجمعين ؟!

وبعد ، فإني استغفر الله سبحانه وتعالى لنفسي ولقارىء هذه المفتريات ، فإنما قصدت أن أضع بين يديه جسم الجريمة ، ليرى رأي العين (طه حسين) يحمل أوزاره فوق ظهره ، وليطالب الناس المسؤولين بكف أذاه ، إن كان فيهم بقية من غيرة على إسلامهم وعلى شخص نبيهم الطاهر الكريم وذلك بمنع إعادة طبع كتبه [١] .

(١) إن هذا التدبير بمنع طبع كتاب طه حسين الذي اقترحه الدكتور محمد محمد حسين ، كاتب هذا المقال جزاه الله تعالى خيراً ، لا يمكن تحقيقه ، وخاصة بعد انتشار هذه الكتب المدمرة بنطاق واسع ، وبكلمات هائلة منذ أكثر من نصف قرن إلى يومنا هذا في جميع أقطار العالم ، تفسد في الأرض وتضر بالنشء ، بمساع من أعداء الإسلام ودعاياتهم سواء الغربيين منهم أو المستغربين من أدبائنا ويا للأسف .

وليس من سبيل لإنقاذ العالم الإسلامي من هذه المؤلفات إلاّ بالرّد عليها بقوة ونشرها بين المسلمين بنطاق واسع . وهذا ما صنعته من إعداد هذا الكتاب ، فلله الحمد والمنّة .

مصر عربية فليتق الله المفرقون للكلمة (١)

بقلم: الأستاذ حسن البنا

مصر عربية(*) فليتق الله المفرقون للكلمة ، يريد الدكتور طه حسين أن يجعل الأمة العربية ضمن الأمم التى غزت مصر ، فأذاقتها صنوفاً من العدوان وألواناً من

(*) يذكر الذين يكتبون تاريخ مصر القديمة تعبير حاميين وجنس حامي كعنصر أصلي أو أساسي من العناصر الأولى التي قد تكوّن منها سكان مصر القدماء قبل العصور التاريخية القديمة .

وليس لهذا التعبير سند علمي أثري . وإنما هو كتعبير الساميين والجنس السامي إستنتجه الباحثون مما جاء في سفر التكوين من اسفار العهد القديم الذي ورد فيه إن مصرايم الذي هو أبو المصريين والذي إشتق إسم مصر من اسمه إبن حام إبن نوح . وقد عمم بعضهم إطلاقه فجعلوه يشمل العناصر الأفريقية الشمالية الشرقية بنوع خاص ومنهم من جعله يشمل سكان بعض أنحاء جزيرة العرب الجنوبية أيضاً أو جعل هؤلاء السكان كجماعات منه هاجر بعضهم إلى الأنحاء الأفريقية الشمالية الشرقية .

والحقيقة أنه لا يعرف على وجه التحديد أصل الذين سكنوا مصر في عصور ما قبل التاريخ والذين خلفوا آثارهم الزراعية والصناعية والدينية المتنوعة في مختلف أنحائها وقد ذهب الذين درسوا هذه الآثار إلى انهم لم يكونوا من جنس واحد لما رأوه من اختلافات بارزة في طريقة الدفن والمساكن والأواني ثم خمنوا أنهم عناصر أفريقية بيضاء وسوداء لوبية وزنجية وغير زنجية كانت تنساح إلى مصر من الجنوب والغرب وقتاً بعد آخر مع عدم إستطاعتهم الجزم في أصل اللوبيين الذين كانوا متميزين عن العناصر الزنجية والسوداء والذين كانت ملامحهم تدل على أنهم من الجنس الأبيض الذي كان يقطن أوروبا الجنوبية وآسيا الغربية .

وإلى هذا فإن الباحثين متفقون على أن مصر كانت مباءة لعناصر أسيوية من الجنس الأبيض كانت تطرأ عليها في عصور ما قبل التاريخ وبعدها وتمتزج بالعناصر الأفريقية المذكورة مع تقرير أكثرهم بأن هذه العناصر أو معظمها من الجنس الذي أطلق عليه تعبير الساميين ، وانهم كانوا

---

(١) (للمتن) من كتاب حسن البنا يتحدث الى شباب العالم الإسلامي ص ٢٠٠ - ٢٠٣

العذاب حتى تغلبت مصر فالتهمت العرب فيمن التهمت من الأمم من فُرس ويونان وروممان وترك وفرنسيين وانكليز .

يأتون كموجات إلى وادي النيل من حين لآخر بدون إنقطاع من طريق برزخ السويس حيناً ومن طريق باب المندب وشواطىء أفريقية حيناً .

- ٢ -

وقبل أن نورد تقريرات الباحثين في ذلك نرى أن نستطرد إلى مسألتين هامتين لأنهما متصلتان بهذه التقريرات اتصالاً وثيقاً :

أولاهما:تعبير الساميين فهو تعبير حديث أطلقه مستشرق نمساوي في سنة ١٧٨١ م على الأقوام التي عرف تشاركها في اللغة والتقاليد والتي ذكر سفر التكوين أنها أو إن بعضها تفرع من سام بن نوح كالآراميين والآشوريين والعرب والعبرانيين[١] حسب ما جاء في السفر المذكور ثم على الأقوام التي عرف تشاركها في اللغة والتقاليدمع هؤلاء ولو لم يكونوا من فروع سام كالكنعانيين والسبئين والأموريين الذين ينسبهم السفر المذكور إلى حام بن نوح . وقد تلقف باحثو الغرب هذا التعبير وأخذوا يطلقونه على هذه الأقوام ومنهم تلقفه كتاب العرب ومؤرخوهم المحدثون .

ومن تحصيل الحاصل ان هذا التعبير لا يستند إلى علم وأثر وثيقين . ولقد رجح كثير من الباحثين ومنهم من ثبت لديه أن الأقوام الذين أطلقوا عليهم هذا التعبير بسبب تشاركهم في اللغة والتقاليد قد هاجروامن جزيرة العرب ولقد أطلق اسم العرب على جزيرة العرب منذ القرن الخامس قبل الميلاد من قبل الكتاب اليونان كما أطلق أيضاً على أهلها أيضاً في هذا الظرف في اسفار العهد القديم والآثار الآشورية والكتب اليونانية القديمة أيضاً[٢] مما يجعل تسمية العرب والجنس العربي للأقوام الذين خرجوا من جزيرة العرب أولى وأوجه عملياً وواقعياً من تعبير الساميين . وهو ما قرره غير واحد من باحثي العرب أيضاً مثل الدكتور جواد علي الذي قال إذا أردنا أن يكون كلامنا علمياً أو قريباً من العلم وجب إهمال كلمة الشعوب السامية والساميين وتبديلها بكلمة الشعوب العربية والعرب لأن هذه التسمية ملموسة مفهومة بينما تلك إصطلاح مبهم[٣] ومثل مؤلفي كتاب معالم الحضارات في الشرق والغرب الرفاعي ورفيقاه الذين قالوا : لقد طغى اسم الشعوب السامية على الأقلام بالمعنى الجنسي لسكان جزيرة العرب والنازحين منها وهي تسمية لا مبرر لها سوى رواية التوراة والإصطلاح الشائع . والأصح الذي يتمشى مع المنطق التاريخي ان تسمى الشعوب

---

(١) ان سفر التكوين لم يذكر حقاً العرب والعبرانيين في إصحاحات الأنساب الأولى بصراحة وإنما ذكر بني حام وبني قحطان وذكر إبراهيم وآباءه من جملة من تفرعوا من سام أنظر الإصحاحات ٩ و ١٠ و ١١

(٢) انظر تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ج ١ ص ١٦٩ وبعدها وتاريخ العرب قبل الإسلام جرجي زيدان ص ٢٦ و ٣٩ و ٤٠ الطبعة الجديدة .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام لعلي جواد ج ٢ ص ٢٨٧ .

وتلك فكرة لا ينفرد بها الدكتور طه حسين وحده ، بل نادى بها من قبله سلامة موسى ، وحمل لواءها كل من يحمل ضغناً على العربية وحفيظة على الإسلام .

العربية لأننا نجد اسم العرب منذ القديم في الآثار البابلية والأشورية والعبرية ولأن الفرس واليونان والرومان أطلقوا على سكان جزيرة العرب اسم العرب منذ الألف الأول قبل المسيح .

وثانيتهما: مهد الساميين الذي يختلف فيه الباحثون حيث يقول فريق منهم إنه جزيرة العرب بينما يقول فريق آخر انه جزيرة الفرات أو بادية الشام أو أرمينية أو أثيوبية أو يتردد في الجزم وهناك فريق من الفريق الثاني يقول ان جرثومة الساميين هاجرت من عهدها الأول في خارج الجزيرة العربية إلى هذه الجزيرة قبل العهود التاريخية ثم أخذت تنساح منها إلى الأقطار المجاورة أو بعبارة أخرى أن أصحاب هذا القول يلتقون مع القائلين بأن جزيرة العرب هي منطلق الشعوب (السامية) كما هو المتبادر . وقد تابع الباحثون الغربيون والعرب هذه الأقوال حسب تنوعها مع قول معظمهم ان جزيرة العرب هي المنطلق [1] .

والوقائع التاريخية المتلاحقة منذ أقدم الأزمنة إلى اليوم تؤيد هذا القول وتبرزه كحقيقة لا يصح المماراة فيها وتخرجه من كونه موضوعاً تاريخياً قديماً مضى وانقضى وغدا محل إثبات ونفي وإبداء وإعادة حيث كانت القبائل وظلت تنساح من مختلف أنحاء جزيرة العرب متلاحقة بدون إنقطاع من الجنوب عن طريق باب المندب إلى شواطىء أفريقيا الشمالية الشرقية فأثيوبية فمصر أحياناً ومن الجنوب إلى شواطىء بحر الهند والخليج فالعراق وبلاد الشام أحياناً ومن الشمال إلى بلاد العراق والشام ومن هنا إلى مصر عن طريق برزخ السويس أحياناً . وقد كان هذا قبل دور العروبة الصريحة ، أي قبل أن تصبح اللغة العربية الفصحى أو ما يقرب منها لغة العرب واسم العرب علماً على العرب وجزيرة العرب ثم استمر بعد بروز العروبة الصريحة قبل الإسلام ثم استمر منذ الإسلام إلى اليوم مما سجلت أحداثه القديمة نقوش المصريين والأشوريين والبابليين وأسفار العهد القديم وكتب اليونان والرومان القدماء ومما تواصلت أحداثه الجديدة فيما عرف يقيناً من انسياح القبائل العربية من جزيرة العرب في دور العروبة الصريحة قبل الإسلام إلى العراق وبلاد الشام وأطراف مصر وأثيوبية ثم من انسياح القبائل التي جاءت تحت راية الإسلام وأخذت تنتشر كذلك في بلاد الشام والعراق ووادي النيل وشمال أفريقية ثم من انسياح القبائل التي ظلت تأتي موجة بعد موجة من جزيرة العرب بعد موجة الفتح وتنتشر في أنحاء هذه البلاد ثم من الصورة الحية الماثلة اليوم بالقبائل الغادية الرائحة أو المستقرة التي تملأ جنبات هذه البلاد منها من يمت إلى القبائل القديمة ومنها من جاء قبل قرن أو قرون قليلة (٢).

(١) الكتاب نفسه ج ١ ص ١٤٨ وبعدها .

(٢) أنظر الأساس في اللغات السامية للأبراشي ورفاقه ص ١٥ وما بعدها وتاريخ العرب قبل الإسلام لجواد =

ومن الأسف أن خصوم هذا البلد الطيب أهله قدروا على تزيين هذه الفكرة بنعوت جميلة وألفاظ زائفة ، إستخدمها هؤلاء الحانقون على العرب والإسلام فزينوها

ففي كل ما تقدم ما يوجب العدول عن تسمية الساميين إلى تسمية الجنس العربي وما يوجد اليقين بأن جزيرة العرب كانت هي المنطلق للشعوب التي سميت بالساميين .

ونحب أن نستدرك أمراً مهما وهو أننا حينما نقول « الجنس العربي » لا نقصد المعنى الفني الدقيق الذي يتميز به جنس بشري عن جنس آخر بخصائص جسمانية في الدرجة الأولى ، مما كاد أن يكون غير قائم منذ الأزمنة التاريخية المعروفة بسبب ما حدث من هجرات الأمم وتمازجها دماً ومصاهرة وتقاليد وعادات ولغة وأفكاراً باستثناء من ظل منعزلا في أواسط أفريقية وآسيا ، وإنما نقصد المجموعة البشرية التي عاشت في جزيرة العرب منذ أقدم الأزمنة التاريخية المعروفة وتشاركت في اللغة والأفكار والتقاليد حتى صارت بذلك جنساً واحداً فلما أخذ ينساح من هذه المجموعة موجات إلى المناطق المجاورة للجزيرة كان هذا التشارك قد تم بينهما ثم ظل قائماً .

وهذا لا يتعارض كما هو واضح مع إحتمال كون المهد الأول لنواة هذه المجموعة ليس جزيرة العرب على ما يقرره بعض الباحثين ولا مع إحتمال أن تكون هذه المجموعة في عصور ما قبل التاريخ من عناصر آسيوية وأفريقية على ما يقرره بعض الباحثين كذلك . وكل هذا بقطع النظر كذلك عن احتمال تكون تلك المجموعة البشرية في جزيرة العرب قبل الأزمنة التاريخية بمدة طويلة وعن احتمال إنسياح موجات منها إلى الأقطار المجاورة لها ثم إلى ما وراءها قبل الأزمنة التاريخية وتوطنها فيها كشمال أفريقية مثلا مما لا سبيل إلى معرفته معرفة يقين والكلام عنه بعلم ووثوق .

- ٣ -

ونعود بعد هذا الإستطراد إلى السياق الأول لنورد أقوال الباحثين وتقريراتهم عن طروء الجماعات العربية الجنس التي سموها ساميين على مصر مع التنبيه على أننا سنلتقي هنا من ذلك بما كان قبل قيام المملكة المتحدة القديمة الأولى حيث فضلنا أن نفصل ما كان من انسياح الموجات العربية إلى مصر في فصول خاصة أخرى .

فمن ذلك ما جاء في كتاب تاريخ مصر من أقدم العصور لبريستيد من مشاهير علماء الآثار

= علي ج ١ ص ١٤٨ وبعدها و ج ٢ ص ٢٨٧ وبعدها (وج ٣ ص ٥ - ٥٢ - ٧١ - ١٢٩ و ٢١٥ و ٢٥٢ و ٢٧٤ - ٤٢٣ و ج ٤ ص ٥ - ٣٧٩) وتاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان وتاريخ اللغات السامية لإسرائيل ولفنسون ومقدمة الحضارات القديمة لطه باقي ومحاضرات في تاريخ العرب للدكتور أحمد صالح العلي الخ وفي الجزء ١ و ٢ من تاريخ العرب قبل الإسلام لجواد علي إستعراض مختلف أقوال المستشرقين وتقريراتهم .

بدورهم لكثير من الشباب ، فوقعوا في حبالتها ، وأخذوا يهرفون بها ، ومما يؤلم أنها راجت حتى على كثير من الرجال ولم تظل فكرة خيالية ، بل برزت إلى حيِّز الوجود

المصرية والتاريخ المصري أن جماعات من الليبيين والجالا والصومال والبيجا كانوا يطرؤون على مصر منذ أقدم الأزمنة ، وأن من المعروف الى هذا أن أقواماً ساميين من غرب آسيا طرؤوا على وادي النيل وعمموا فيه لغتهم وصبغوه بصبغتهم كما هو ظاهر من النقوش المصرية القديمة وان لغتهم حافظت على ساميتها بمرور الزمن بالرغم مما طرأ من تغيير وتحريف باختلاط السكان ، وإن تاريخ الهجرات السامية الأولى يرجع بلا مراء الى ما قبل العصور التاريخية المعروفة ، وإن من الثابت أن هذه الهجرات قد تكررت مراراً في العصور التالية ، وإنه إذا كان من الصعب معرفة الطريق التي سلكوها فإن الأقرب الى الذهن ان يكونوا من برزخ السويس كما فعل العرب في بداية الإسلام[1] .

ومن ذلك ما جاء في تاريخ السودان القديم للدكتور حسن كمال إن المصريين والسودانيين من أصل واحد وقد جاؤوا إلى وادي النيل من بلاد العرب عن طريق الصومال على ما تدل عليه البحوث والإستقراءات ، ولقد قال تيودور الصقلي - والكلام للمؤلف المذكور - إن المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية نزلوا شواطىء أثيوبية ثم تقدموا نحو الشمال حتى دخلوا مصر وان الأثيوبيين يقولون بسبب ذلك إن مصر مستعمرة من مستعمراتنا على إعتبار أن سكانها القدماء جاؤوا إليها منهم[2] .

ومن ذلك ما جاء في كتاب الأثر الجليل لسكان وادي النيل ان أصل المصريين القدماء من الجنس السامي وإنهم قد أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس وربما وجدوا فيه طائفة من الزنوج وان الذي يتأمل في التماثيل المصرية القديمة يعلم ذلك علم اليقين[3] .

ومن ذلك ما جاء في العقد الثمين للعالم الأثري المشهور أحمد كمال : إن المصريين القدماء كانوا يطلقون على بلاد حضرموت واليمن إسم بون وكانوا يعتقدون أن أصلهم منها[4] .

ومن ذلك ما جاء في كتاب التاريخ العام الكبير بالتركية لأحمد رفيق نقلا عن مصادر المانية عديدة إن معظم علماء تاريخ مصر يقررون أن المصريين القدماء جاؤوا من آسيا الغربية منهم من جاء عن طريق باب المندب من الجنوب ومنهم من جاء عن طريق برزخ السويس من الشمال وإن

---

(١) ص ١٢ من ترجمة حسن كمال .
(٢) ص ٥ .
(٣) ص ١١
(٤) ص ٤٥ - ٤٨ .

في مظهرين هامين ، لا تزال الأمة على ذكر المناقشة التي دارت حولهما وهما : تمثال نهضة مصر ، وضريح سعد زغلول باشا .

هذه الفكرة التي يحمل عليها بعض الكتاب في مصر بحسن نية أو بسوء نية ،

بين لغتهم واللغات السامية في المفردات والصرف والنحو مشابهة كبيرة[1] .

ومن ذلك ما جاء في تاريخ مصر إلى الفتح العثماني لسفيد ج والإسكندري : إن أرجح الآراء أن مؤسسي حضارة مصر الأولى التي ترجع إلى ما قبل الأسر الملكية قوم لييبو الأصل غير أن حضارتهم ليست هي أساس مدنية المصريين الذين تكونت منهم الأسر المختلفة والذين وصلوا بمصر إلى أعظم درجات الرقي . وقد ثبت أن هؤلاء ساميون قدموا إلى مصر من آسيا . ولا يعلم يقيناً من أين دخلوا حيث يتراوح القول في ذلك بين طريق برزخ السويس من الشمال أو من باب المندب من الجنوب . وعلى كل حال إن المعلوم يقيناً أن الذين نشأ منهم « منا » أول من عرف من ملوك المملكة المصرية المتحدة الأولى كانوا قبل ظهوره يقطنون الجهة الجنوبية من مصر . ومما يدل على ان أجدادهم من الساميين أن أقدم ما وصل من لغتهم يغلب فيه العنصر السامي على العنصر الأفريقي . وقد جاؤ وا ومعهم حضارة أرقى مما كان في مصر . وهم الذين أتوا بفن التحنيط والكتابة الهيروغليفية[2] .

ومن ذلك ما جاء في كتاب الأساس في الأمم السامية ولغاتها لعطية الابراشي ورفاقه : إن المدنية الإنسانية العامة قد ابتدأت في وادي النيل . وسكان هذا الوادي وإن كانوا مزيجاً من عناصر مختلفة فإن العنصر السائد فيها والذي أنتج أول مدنية إنسانية هو العنصر السامي أي العربي . وإنه على أي تقسيم قسمت اللغات السامية فإن الحقيقة الكبرى أنها لغات جماعة بشرية كونت جنساً بشريا واحداً هو الجنس الذي عرف باسم الجنس السامي والذي عرفت شعوبه باسم الشعوب السامية ولغاته باسم اللغات السامية والتي تحضرت في أطراف جزيرة العرب وفيما وراء هذه الأطراف مع بقاء وحدة التفكير والخيال جامعة بينها . وإن قصارى القول إن الجماعة السامية هي الجماعة العربية وإن مهدها الأول هو نجد والحجاز واليمن وما إلى هذه البقاع ومنها كانت الهجرات الأولى إلى شمال الجزيرة والشام والعراق وبلاد الحبشة ومصر[3] .

ومن ذلك ما جاء في كتاب تاريخ العرب المطول لفيليب حتي : إن موجة من المهاجرين الساميين إنساحت إلى مصر عن طريق أفريقية الشرقية حوالي سنة ٣٥٠٠ ق .م وكان فيها جماعة

(١) ج ١ ص ٥٥ - ٥٦ .
(٢) ج ١ ص ٦ - ٧ .
(٣) ص ١٥ - ٣٧ .

خطأ محض ، خطأ تاريخي وخطأ إجتماعي ، وخطأ في جانب القومية المصرية لا يغتفر ، وهي فكرة دسّها الأجانب للقضاء على قوة الشرق ووحدته .

أما أن الفكرة خطأ تاريخي ، فلأن حكم التاريخ قضى بأن الإستعمار العربي

من الحاميين فحلت بينها وامتزجت بها فتألف من هذا المزيج سكان مصر القدماء[1] .

وقد قال هذا المؤلف في كتاب آخر له : إننا لو دققنا النظر في اللغة المصرية لوجدنا تشابهاً جلياً بينها وبين اللغة الأشورية والبابلية والآرامية والكنعانية والعبرانية والعربية والحبشية يخول ردها إلى ام واحدة[2] .

ومن ذلك ما جاء في كتاب سواء السبيل في سكان أرض النيل لوالس بدج : إن الذي حققه العلماء أن الذين ملكوا مصر ووضعوا شرائعها منذ البدء جماعات هاجروا إليها من المشرق منذ بضعة ألوف من السنين قبل التاريخ المسيحي[3] . وليس في مشرق مصر إلا جزيرة العرب من الجنوب والشرق وسيناء المتصلة بالجزيرة من الشمال .

ومن ذلك ما قاله ماسبرو المؤرخ الشهير : إن لعروق المصريين الأقدمين والعرب والكنعانيين روابط تشد بعضها إلى بعض وليس المصريون القدماء سوى ساميين إنفصلوا من مهد الساميين قبل غيرهم[4] .

ومن ذلك ما جاء في كتاب مصر والحياة المصرية في العصور القديمة لارمان وهرمان راسكن: ان تشابه الحوادث في العصر التاريخي يسوغ القول أن أجناس البدو الذين عاشوا في البلاد المتاخمة لمصر في بلاد العرب قد انحدروا إلى وادي النيل الخصيب في عصور ما قبل التاريخ أيضاً . وما في اللغة المصرية القديمة من عناصر سامية يسوغ القول أنهم قدعرضوا لغتهم على السكان الذين كانوا في مصر قبل قدومهم[5] .

ومن ذلك ما جاء في تاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان ان الساميين قد نزحوا إلى مصر من عهد قديم جداً وإن الإكتشافات الأثرية تدل على أن العصر الحديدي بمصر يبدأ بدخول الساميين إليها وإن ما يمكن الإستدلال به على ذلك إسم فتاح السامي الذي هو أقدم آلهة المصريين[6] .

---

(١) ج ١ ص ١١
(٢) سورية والسورين من نافذة التاريخ ص ١٣!
(٣) ص ٣٦ - ٣٧
(٤) تاريخ الإستعمار لمصطفى الشهابي ج ٢ ص ٧
(٥) ترجمة عبد المنعم أبي بكر ومحرم كمال ص ٢١ - ٢٢ .
(٦) ص ٦٧ الطبعة الجديدة .

لا يقاس بغيره من استعمار الأمم . لأن استعمار الأمم إنما يقصد به الفتح والغنيمة واستبداد الأمة الفاتحة بالأمة المغلوبة .

أما الاستعمار[1] العربي فهو إستعمار ثقافي ، إرشادي روحي . مهمته تمثيل

ومن ذلك ما جاء في كتاب مصر القديمة للعالم الأثري الكبير سليم حسن في نبذة أصل المصريين : إن مصر كانت مسكونة منذ عصور ما قبل التاريخ بقوم من الجنس الحامي يقال أنه نشأ من البلاد نفسها أي أفريقي الأصل وينسب إلى لوبيي أفريقيا الشمالية المسمين بالبربر وإلى السكان الحاميين من أفريقية الشرقية الصوماليين . ثم أخذ يدخل على هذا الشعب تغييرات عن طريق الهجرة . وكان أهم هذه العناصر الجديدة التي دخلت البلاد من أصل آسيوي لهم مميزات خاصة تختلف إختلافاً بينا عن الشعب الأصلي . ونخمن أنها جاؤوا إلى مصر من شبه جزيرة العرب ودخلوها عن طريق البحر من جهة قفط أو من طريق أعالي وادي النيل أو عن طريق فلسطين فسينا فالدلتا . وقد أدخلوا معهم مدنية أرقى من مدنية الجنس الحامي الأصلي الذي لم يكن يعرف سوى الآلات والأواني الحجرية ، وأدخلوا فيما أدخلوه معرفة المعادن وخاصة النحاس وأدخلوا كذلك عباداتهم للأموات وديانتهم وكتابتهم وفنونهم ونظمهم الإجتماعية والسياسية . ويخمن أنهم أتوا إلى البلاد تدريجياً وتم إستيلاؤهم عليها بنجاح ومن غير عنف وأهم الوثائق التي بقيت من عهدهم أو عثر عليها ألواح اردوازية منقوشة لم يتيسر حلها . وإن كل المصادر التاريخية متفقة على أن الملك منا الذي إتحدت البلاد تحت صولجانه من أسوان إلى البحر الأبيض المتوسط هو منها وإن هذا الإتحاد كان نهاية الفتح الطويل الذي تم لهؤلاء القادمين[2] .

ولقد ذكر هذا المؤرخ في نبذة أخرى عنوانها « تقسيم البلاد إلى أربعة أقاليم »[3] عزواً إلى مؤرخ إسمه لورية الذي يستند إلى دراسة دقيقة للآثار كما يصفه المؤرخ المصري ان قبائل وشعوبا من بلاد لوبية وآسيا الصغرى وجنوب مصر جاءت إلى مصر فانشأت مقاطعاتها الجنوبية والشمالية ممالك وإمارات وكان لكل منها إلهها الخاص ورمزها الخاص ثم تنازعت وتحاربت ثم تصنفت إلى أربع طوائف أو ممالك رمز إليها في الآثار برموز النخلة والبوصة والثعبان والنسر ثم تألف من النخلة والبوصة مملكة ومن الثعبان والنسر مملكة . ثم وفد على البلاد قوم من بلاد العرب عن طريق الصومال وتأصلوا فيها وكانوا جنساً ذا مواهب عظيمة فأقاموا مملكة ثالثة رمز إليها في الآثار برمز الصقر وقد تغلبت هذه المملكة في النهاية على المملكتين الأوليين فغدت الممالك الثلاثة موحدة تحت سلطان وصولجان واحد فقامت بذلك المملكة الفرعونية التي كان منا أول ملك لها أو أول ملك عرف من ملوكها .

---

(١) (للمتن) لا يصح أن يسمى الفتح الإسلامي استعماراً ، لما لهذه الكلمة من تاريخ سيء وهدّام .

(٢) مصر القديمة ج ١ ص ١٤٠ - ١٤٥

(٣) مصر القديمة - ج١ ص ١٧٤ - ١٧٥ .

الشعوب وصبغها بالصبغة العربية الإسلامية ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدّين كله لله . فالعرب أمة خصّها الله تعالى لهداية العالم ولنشر القرآن العربي بين ربوعه وإيصال الهداية المحمدية إلى كافة البشر : ﴿ وكذلك جعلناكم أمّةً وسَطاً لِتكونوا شُهداء على النّاس ويَكونَ الرّسولُ عَليكم شَهيداً ﴾

وهذا يعني أن النشاط السياسي القديم في مصر قد قام على أيدي طراء من خارجها . وهؤلاء الطراء آسيويون ولوبيون ونوبيون .

والباحثون يرادفون كثيراً بين تعابير آسيويين وساميين وعرب . والتخوم المجاورة لمصر من آسية كانت وظلت مباءة تموج عربي مستمر لأنها متصلة بالجزيرة العربية اتصالاً مستمراً وقد عرف يقيناً فيما بعد أن قبائل وصفت بالساميين وبالعرب قد جاءت من هذه التخوم إلى مصر مرة بعد مرة على ما سوف نورده بعد . وهذا يسوغ القول أن من سموا الآسيويين هم من الجنس العربي .

ولقد كانت بلاد النوبة وظلت محطة من محطات التموج العربي الجنس من ناحية الجنوب . وملامح النوبيين لا تفرق عن الملامح المصرية في شيء على ما تدل عليه صور وموميات الملوك المصريين القدماء الذين قيل إن أصلهم نوبي . فاحتمال كون النوبيين القدماء الذين قاموا بنشاط سياسي في مصر قبل قيام المملكة المتحدة من الموجات العربية الجنس غير بعيد بل نكاد نقول انه هو الأرجح في رأينا قياساً على الأمثال[1] .

أما اللوبيون : فقد قال غير واحد من الباحثين بأصلهم السامي الراجع إلى عهد سحيق في القدم[2] .

وهكذا يكون الإحتمال قائماً ومن بعض الوجوه قوياً بأن أصحاب النشاط السياسي الأول في مصر الذي قام نتيجة له ممالك المقاطعات البحرية والقبلية التي اتحدت فيما بعد في أربع ممالك ثم في مملكتين هم من الجنس العربي . ثم جاءت موجة جديدة من هذا الجنس تغلبت على القدماء ووحدت مصر تحت صولجانها .

ولما كان التاريخ المرجح لوجود الملك منا هو القرن الثاني والثلاثين قبل الميلاد[3] فالمتبادر أن انسياح الجماعات الأولى قد وقع قبل ذلك بقرون عديدة بحيث يكون من المعقول أن تقدر بداية الإنسياح العربي الجنس المعروف بما يشبه اليقين بالقرن الخامس والأربعين قبل الميلاد .

(١) على تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته لنعوم شقير ج ١ ص ٤٥ - ٦٤ وج ٢ ص ٥ و ٣ وانظر مصر القديمة ج ١٠ ص ١ - ٨ و ٧٥ - ٧٦ و ٧٢ و ج ٣ ص ١٦٩ - ٢٩٥ .

(٢) أنظر موجز تاريخ الجزائر للمدني ص ٥ و١٠٣ وتاريخ القومية العربية لمصطفى الشهابي ص ٢٩ وانظر السياح ٧ ص ١٩ - ٧٤ .

(٣) يخمن بريستيد بدء قيام المملكة المتحدة الأولى بسنة ٣٤٠٠ ق م (مصر من أقدم العصور ترجمة حسن كمال ص ٤٠٣) وأحمد كمال سنة ٥٦٢٦ قبل الهجرة أي حوالي القرن الرابع والأربعين قبل الميلاد (العقد الثمين ص ٢٠) وأحمد رفيق التركي سنة ٤٤٠٠ ق . م (التاريخ الكبير العام ١ / ٦٣) =

ولذلك كان الفاتح العربي مثال الوفاء والعدالة ، لا تمضي عليه فترة قصيرة حتى يمتزج[1] بالأمم التي افتتح بلدانها ، فيكون منها ، وتكون منه . وهناك تُمحى الفوارق والأنساب والعصبيات ، ولا تبقى إلا الأخوة حول القرآن العربي واللسان العربي ، والهداية المحمدية .

على أن التاريخ يحدثنا بوحدة في الدماء واللغات بين سكان جزيرة العرب ، وسكان وادي النيل في القديم والحديث ، ولا ننسى أن كثيراً من سكان الصعيد ، وسكان الشرقية والبحيرة والفيوم يعلمون الآن أنسابهم العربية وينتمون إلى قبائل عريقة في العروبة .

أما إن الفكرة خاطئة إجتماعياً : فلأن الأمة إنما تتكون قوميتها من لغتها ودينها وعاداتها وثقافتها ، وما إلى ذلك من مظاهر الحياة . فهل يرى الدكتور طه حسين وغيره أن لمصر لغة غير اللغة العربية ، وأنَّ لها ديناً غير الدين الذي حمل لواءه العرب ؟

وهل يرون أننا نستطيع أن نتخلى عن اللغة العربية ، والقرآن العربي والشعور العربي ، ونحل محل ذلك كله لغة وديناً وثقافة تختص لمصر والمصريين ؟ وما هي يا تُرى هذه اللغة وما هذا الدين ، وما تلك الثقافة ؟!

لعل القوم يقصدون الهيروغليفية ودين أيبس وآمون وهورس ، وامفتاح !!

يا قوم إتقوا اللّه وخذوا في سبيل المجد ، ودعوا هذا العَبث فإن الأُمة في حاجة أن تصرف أمورها في معالي الأمور إن كنتم تستطيعون .

= وانطون زكري الأثري سنة ٥٠٠٤ (الأدب والدين عند قدماء المصريين ص ٦٢ وما بعدها) وقد قال سليم حسن العالم الأثري والذي كتب كتابه بعدهم أن المؤ رخين مختلفو ن في بدء تاريخ حكمها ونهايته ويتراوح تخمينهم بين.٥٠٠ ـ ٤٣٢٦ و ٢٩٠٠ ـ ٢٧٠٤ ق .م غير أن الآراء الآن أصبحت متفقة على أن بدايتها هي سنة ٣٢٠٠ ق .م (كتاب مصر القديمة ١ / ١٥٤)

(١) : لا يصح كذلك أن يقال إن المسلم العربي كان يمتزج بالأمم التي افتتح بلدانها؛ إذ بذلك يفقد شخصيته الاسلامية المتميزة؛ ولو صحَّ ذلك لضاع كيانه وذاب بغيره، بينما كان الأمر بالعكس، وقد صحَّ في الحديث : «من تشبَّه بقوم فهو منهم». إن المسلم الحقيقي يؤثر ولا يتأثر، والأصح أن يقال كما في الحديث الصحيح: المؤمن يألف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف. رواه أحمد وسنده صحيح.

أما خطأ الفكرة من ناحية القومية المصرية : فلأن تمسكنا بالقومية العربية[1] يجعلنا أمة تمتد حدودها من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي بل أبعد من ذلك ويبلغ عددها أضعاف الملايين المحصورة في وادي النيل .

إنّ من يحاول سلخ قطر عربي من الجسم العام للأمة العربية يعين الخصوم الغاصبين على خفض شوكة وطنه ، وإضعاف قوة بلاده ، ويصوّب معهم الرّصاصة إلى مقتل هذه الأوطان المتحدة في قوميتها ولغتها ودينها وآدابها ومشاعرها ومصيرها .

دعوة طه حسين لليونانية واللاتينية في الأدب العربي[1]

ـ بقلم: محمد أحمد الغمراوي

الحق أن آراء صاحب الكتاب في تجديد الأدب واصلاحه إن كان فيها جزء من الحق ففيها أجزاء من الباطل ؛ وإذا أُخذ بها كما هي كانت كثيرة الضرر قليلة النفع. فمذهبه في القديم الشك من غير مبرر، وهذا يُفسد القديم ويعطله، ومذهبه في الحديث التقليد من غير تبصر، وهذا يفسد الحديث.

فأما شكُّه المفسد للقديم فموضع فحصه موضع آخر من هذا الكتاب[2]. وأما تقليده المفسد للحديث فيتبين من اشتراطه للأدب العربي ما يشترط الآن للأدب الافرنجي من غير نظر إلى ما يناسب العربية وما لا يناسبها، ومن غير تفرقة بين ما هو ضروري لتجديد أدبها وبين ما هو غير ضروري.

اللاتينية واليونانية والأدب العربي

وتلك اللاتينية واليونانية اللتان يَشترط اتقانهما لدراسة الأدب العربي على وجهه، هما مثل واضح لذلك التقليد البحت الذي به يأخذ واليه يدعو. فقد رآهما يُعنى بهما في فرنسا عناية كبرى، وسمع أنهما في غير فرنسا يعنى بهما مثل ذلك، فأداه منطقه إلى أن اللاتينية واليونانية يجب أن يعنى بهما في الأدب العربي لأنهما معنيٌّ بهما في الأدب الإفرنجي، وكان من التجديد عنده أن يدرسهما طالب الأدب العربي

(١) النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي.

(٢) يراجع القارىء هذا النقد لكتاب الشعر الجاهلي.

حتى يتقنهما ، التقريع الشديد عنده أن يسائل شيوخ الأدب في مصر ماذا يفقهون منهما . من الأولى أن يسائل نفسه لماذا عني الفرنسيون والانجليز مثلا بهاتين اللغتين القديمتين وما مقدار تلك العناية ، حتى إذا عرف الصواب من ذلك رجع على نفسه إذ نازعته إلى تقليدهم فسألها هل موقف الأدب العربي من هاتين اللغتين كموقف الأدب الافرنجي فيعنى الأول بهما كما عني الثاني ؟ وإذا لم يكن فما هو ذلك الموقف ؟ وما مقدار ما يستلزمه من عناية بتينك اللغتين إن استلزم منها شيئاً .

لو أصاب صاحب الكتاب الجواب عن هذه الأسئلة ما دعا في الأدب العربي إلى لاتينية ولا يونانية ، ولا عَيَّرَ بجهلهما ، فإن موقف العربية بالنسبة إليهما مخالف كل المخالفة لموقف الفرنسية أو الانجليزية . فالفرنسية لغة لاتينية نشأت عن اللاتينية كما نشأت العامية عندنا عن العربية . فلو أن العامية كانت لغة تدرس لكان فقهها لا يستقيم لدراسة حتى تدرس العربية كما أن فقه الفرنسية وأدبها لا يستقيم لدراسة أو يعرف إلا باللاتينية .

أما الانجليزية ـ وإن لم تكن لغة لاتينية ـ فقد دخلتها اللاتينية عن طرق ثلاثة : عن الفتح الروماني ، والفتح النُورماني ، وانبعاث الأدب القديم بالنهضة التي جاءت بعد فتح القسطنطينية .

فأما الفتح الروماني فكانت فترته نحو أربعة قرون غلبت فيها اللاتينية على لغة البلاد الأصلية .وأما الفتح النورماني فكانت فترته نحو قرن ونصف غلبت فيهما الفرنسية حتى صارت لغة الخاصة لغة المحاكم ولغة الأدب . فهذان طريقان صبَّت اللاتينية منهما في الانجليزية على وجه الاجمال . ثم انبعثت اللغتان القديمتان إبان النهضة فدخلت الكلمات اللاتينية في كل من الانجليزية والفرنسية أفواجا ، ودخلت الكلمات اليونانية فيهما أفواجا كذلك ، كما دخلت في الانجليزية عن طريق اللاتينية أيضاً . فالصلة بين اللاتينية واليونانية من جهة والفرنسية والانجليزية من جهة أخرى ، هي من المتانة بحيث تبرر عند فريق كبير من الناس تلك العناية التي يعناها الفرنسيس والانجليز بتينك اللغتين .

وينبغي ألا ننسى أن للتقاليد أيضاً يداً في هذه العناية ، فقد فَتن الناس في أوروبا بعد النهضة وإبانها بالأدب اللاتيني واليوناني أيام لم يكن للغرب نفسه أدب

يُذكر ، فكان بهما التأليف ، وكانا هما عنوان الثقافة . ثم خف ذلك الافتتان وبدأت اللغات الأوروبية نفسها تنهض وتتحرر من رق الأدب القديم ليكون لكل منها أدبه الخاص ، ولا تزال حركة التحرير هذه في استمرار .

اللاتينية واليونانية والأدب العربي

لكن أستاذ الأدب في الجامعة يريد أن يلبسنا ما خلعت أوروبا ، ويفتننا بما صَحَت عنه أوروبا ، ويشغلنا عن أدبنا العربي الضخم الواسع بالأدب اللاتيني واليوناني . ولِمَ هذا ؟ لأن أوروبا تُعنى بهذين الأدبين الآن ! أو بالأحرى لأنه لا يزال بأوروبا بقية من عناية القرن الخامس عشر بهما ! وإذا كان لأوروبا في هذا عذر واضح من التقاليد ، ومن الاتصال القوي بالأدب القديم ، فما هو عذر الأستاذ في محاولته تقييد الأدب العربي بالأدب اللاتيني واليوناني القديم ، والتقاليد تخذله ، والصلة منقطعة بين العربية وبين اللاتينية واليونانية ؟.

إن هذه العربية التي ندرسها ، والتي هي لنا لغة الكتابة كما ينبغي أن تكون لغة الكلام ، لم تغزُها اليونانية واللاتينية كما غزتا اللغات الأوروبية ، لأن جزيرة العرب عزّت على اللاتين واليونان أن يخضعوها . والمحاولة التاريخية التي حاولت فيها روما أن تُخضع جزيرة العرب كانت هلاكا على الجيش الغازي وقائده . أما إتصال العربية واليونانية في العصر العباسي على أيدي التراجمة من السريان فلم يكن أثره أدبيا ولكن علميا ، ولم يكن من أثره أن تَعلَّم اليونانيةَ أحد من علماء أدب اللغة في ذلك العصر . فقد عرف فلسفة اليونان وعلمهم كثيرون من أدباء ذلك العصر وعلمائه ، ولكنهم عرفوه عن التراجم لا عن اليونانية نفسها . فالجاحظ الذي ضربه صاحب الكتاب مثلا كان يعرف الفلسفة اليونانية ، ولكن هل كان يعرف اللغة اليونانية ؟ وهل قرأ هوميروس وارستوفان وسوفوكل الذين يفتأ صاحب الكتاب يسائل أدباء هذا العصر عنهم ؟ وهل قام جهله وجهل علماء اللغة باليونانية في عصره وغير عصره ، فحال بينهم وبين أن يورثونا في اللغة أدبا فخما ، وعلما ضخما ، لا يزال الغرب يُكبره ، ولا يزال مستشرقوه يفنون أعمارهم فيه ؟ وهل رجال الأدب وطلابه في هذا العصر أقرب إلى اليونانية من رجال الأدب وطلابه في العصر العباسي

فيُكَلَّفوا ما لم يتكلف أولئك من علم باليونانية نفسها كالضرورة من ضروريات التمكن في الأدب العربي ؟ إلا أن اليونانية أبعد جداً عن العربية من أن تكون ضرورية لها أو متصلة اتصالاً قوياً بها ، وإن التقليد الصرف وحده هو الذي يحمل على القول بدراسة اليونانية واللاتينية كوسيلة من وسائل تعلم الأدب العربي والتمكن فيه .

ومن الغريب أن يكون من أحدث ما تُشرّعه جامعة عظمى كجامعة لندن إعفاءُ طالب درجتها الأدبية من اللاتينية واليونانية إذا كان شرقياً من أبوين شرقيين ، بشرط أن يختار لغة شرقية قديمة مكان اللغة التي يتحتم على الطالب الغربي إختيارها من اللاتينية واليونانية ، ثم يأتي أستاذ الأدب العربي في جامعتنا فيزعم أنهما ضروريتان لمن يريد أن يتخصص في الأدب العربي ، وتأتي جامعتنا فتحتمهما أو إحداهما على من يريد أن ينال درجتها في الآداب !!

العربية وبعض اللغات الشرقية

لكن إذا كان صاحب الكتاب قلّد في اللاتينية واليونانية عن خطأ فقد قلد في مواضع أخرى عن صواب ، فإنه قد أصاب حين طلب أن تدرس اللغات التي لها بالعربية علاقة كالعبرية والفارسية . وإن كنا لم نره ذكر الحميرية من بينها ورأيناه قد جمع في قسم الآداب كثيراً منها على الطالب بدلاً من أن يجعلها مفرقة في الطلاب كل يأخذ منها ما هو إليه أميل ليكون له أشد إتقانا ، وباللغة الأصلية أكثر إهتماما ، وليكون مجموع المتخرجين أقدر على خدمة اللغة عن هذا الطريق .

العربية وبعض اللغات الحديثة

وقد أصاب صاحب الكتاب أيضاً في اشتراطه في الأديب أن يكون ملماً ببعض اللغات الحديثة وإن كان يشتطُّ في تقدير هذا الإلمام ، ويبلغ بالعدد إلى اثنتين على الأقل . ومهما يكن من هذا فمن الواضح أن الفكرة في أساسها صواب وإن من المهم في هذا العصر أن يلم أستاذ الأدب بلغة أوروبية عالية ـ وفي لغة واحدة كفاية ـ لتكون له باباً يدخل منه إلى الأدب الإفرنجي كله تقريباً حتى يكون على إلمام به ،

ويكون حراً بعد ذلك فيما يختار منه وما لا يختار .

وكأنا بصاحب الكتاب يقول : ولكن أساتذة الأدب في مصر لا يعرفون لغة حديثة . والحق أن فيهم عدداً مذكوراً يعرفون لغة حديثة ويستطيعون أن يستفيدوا منها كما يستفيد هو من الفرنسية . والحق أيضاً أن اتخاذ جهلها وسيلة إلى الطعن فيمن يجهلها منهم والقدح في علمه بالعربية والأدب العربي ، تعسفٌ وغلو، فإن علاقة العربية بغيرها من اللغات الإفرنجية أمر موكول للمستقبل لا علاقة له بماضي اللغة الطويل الباهر . وحاجة الطالب إلى من يعلمه تلك الوسائل ، ومن بينها اللغة الحديثة ، أقل كثيراً من حاجته إلى من يبصره بأساسيات العربية نفسها وأدبها ، ويُشربه روحها ، ويفقهه فيها . ولن يجده إلا بين أولئك الذين قضوا أعمارهم يجلون هذه اللغة الكريمة ، ويلذونها ، ويعنون بها . واللغة العربية بعد كل ما يمكن أن يقال هي الأساس . وهي بالبداهة أهم ما يمكن أن يعلمه طالب الأدب العربي ، فلا ينبغي أن نضعها من التعليم إلا في المكان الأول بل لا ينبغي أن يُجعل غيرها منها إلا بمنزلة الخادم الذي ينادى عند الحاجة إليه ، فإذا استُغني عنه نُحي إلى الوراء .

التقليد في الأدب

ولا بدّ من وقفة هنا عند التقليد تقليد الأدب الافرنجي وخطره على الأدب العربي . ليس مطلق التقليد هو الخطر ، وإنما الخطر هو الاسراف في التقليد . وليس مطلق التقليد نعيبه على صاحب الكتاب وانما نعيب عليه الجمود فيه . نعيب عليه أنه يحاول أن يلبس أدبنا العربي ثوبا افرنجيا وأن يُصبغه صبغة فرنسية من غير مراعاة ما بين اللغتين وأدبيهما من الفوارق . إن التقليد إذا جاز في العلم من غير قيد لا ينبغي أن يُؤخذ منه في الأدب إلا بمقدار ، لأن أدب الأمة من روحها ، فالتقليد فيه اخضاع لروح الأمة وإضعاف لشخصيتها ، وعلى قدر ذلك التقليد يكون مقدار الضعف ويكون مدى الخضوع . أما العلم فإنه ميدان العقل ومتاعه ، وهو لا وطن ولا قومية له ، كما إن العقل لا قومية له ولا وطن فقوانين التفكير واحدة وسبل العقل واحدة في العالمين . ثم أنت لا تشعر أثناء تلقي العلم عن أجنبي أنك تتلة شيئا

خاصاً بجنس من البشر دون جنس[1]، أو بقوم دون قوم ، ولكن تتلقى شيئا مشتركا أو ينبغي أن يكون مشتركا بين الناس أجمعين اشتراك العقل بينهم . وليس الأدب كذلك . فبينما أنت في العلم لا تجد علماً إنجليزياً ولا علماً ألمانياً ولا علماً فرنسياً ولكن علماً واحداً لا إنجليزية ولا ألمانية ولا فرنسية فيه إذا بك تجد الأدب متعددا بتعدد الأمم ، لكل أمة أدبها كما لكل أمة لغتها . وتجد أدب كل أمة مطبوعا بطابعها طبعا لاخفاء فيه ، أو هكذا هو إذا استقلت الأمة بأدبها ، ونسجت لنفسها بُرْداً من روحها وتاريخها وتقاليدها وعاداتها ودينها بدلا من أن تلتف بشقٍّ من بُرد غيرها لا تجد فيه دفئاً ولا قوة ولا جمالا .

ويؤسفنا أشد الأسف أن صاحب الكتاب ومن لفّ لفّه ، يسوقون الأدب العربي في طريق غير طريقه ، ويلبسونه ثوبا من غير نسجه . ينسجون عليه نسجا فرنسيا ، ويسوقونه في نفس الطريق التي ضل فيها الأدب الالماني قرنا وبعض قرن فضلٌ عن نفسه ولم يهتد حتى رده عن تلك الطريق هللر وهاجيدون ولسنج كما يخبرنا الدكتور براندادي . وما تلك الطريق التي يسوقون الأدب العربي فيها إلا طريق الافتتان بالأدب الفرنسي خاصة ، والغربي عامة ، حين لا صلة بين ذلك كله وبين روح الأدب العربي خاصة والشرقي عامة ، كما لم يكن هناك في القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر بين الأدب الفرنسي والروح الألماني صلة . والذين أضلوا المانيا فقلدت فرنسا في ذلك العصر تقليد القردة ـ والتشبيه للدكتور براندادي ـ هم عدد ممن يسميهم صغار برنسات الأدب وكأن الدكتور طه ومن معه يريدون أن يكونوا للعربية ما كان أولئك للألمانية ، فيفتنوها بغيرها ويُضلوها عن نفسها ، فإنك اذا قرأت لهم رأيت تقليداً بحتا يُعرض عليك باسم التجديد ، ونظرت إلى روح غريبة متقمصة قميصاً عربياً ، بل كثيراً ما تتقمص شيئاً لا عربيا ولا غربيا فإن اللغة التي يعرضون فيها معانيهم المستعارة ان كانت عربية الألفاظ في الغالب فكثيراً ما تكون إفرنجية التركيب .

---

(١) هذا وهم من الكاتب ! فإن العلم نفسه إذا لم يوجه بالإيمان يقود الى الكفر والإلحاد ، ودليل ذلك ما نجده في الكليات الغربية والشرقية التي تخرّج للعالم الملاحدة عن طريق العلوم المادية غير الموجّهة ، وقد كنت نبّهت الى ذلك في غير هذا الموطن . والويل للمسلمين اذا لم يدركوا ذلك وقبلوا لأبنائهم دراسة هذه العلوم دون توجيه إسلامي !!! .

ونحن لا نرى هذا التقليد من تجديد أدب لغتنا في شيء ، لأنه يلهينا عن ذات نفسنا بأحاديث غيرنا ، ويُشغلنا بأدب غيرنا عن أدبنا ، أو عن ذلك الأدب الخاص الذي ينبغي أن يكون لنا كأمة لها روحها ومميزاتها تريد أن تستقل في وجودها الأدبي كما تريد أن تستقل في وجودها السياسي .

خذ إليك مثلا تلك القصص الفرنسية التي يلخصها صاحب الكتاب من آن لآن يلهي بها كثيراً من النشء ويُضل بها كثيراً . هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة ؟ أو بينها وبين روح هذه اللغة صلة ؟ وإذا لم يكن فهل فيها شيء يجدد من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية في هذه الأمة ويعينها على سبيل العزة التي تريد ؟ إنا لا نظن أحداً دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب الى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها . وهذا أهون ما يمكن أن يُقال عنها . ولو كنا ضاربين مثلا لضربنا الزنبقة الحمراء التي ألفها اناتول فرانس ولخصها صاحب الكتاب لمجلة « الهلال » ، فإن فيها من المعاني ما كنا نظن أن أستاذاً يستحيي أن ينقله للناس ، أو أن مجلة مثل « الهلال » تتنزه عن نشره عليهم ، ولكننا نأبى أن نشير بأكثر من هذا الى تلك القصص عامة والى هذه القصة خاصة وإلا كنا شركاء في إثم النشر وإثم التلخيص .

فإذا ما تركنا ميدان المنقول عن الأدب الفرنسي إلى المكتوب في الأدب العربي ، وجدنا صاحب الكتاب يخبُّ في الميادين خببا واحداً ، ويصدر عن نزعة واحدة . فقد فتش في طول الأدب العربي وعرضه فلم يجد فيه ما يستحق أن يبعث وينشر إلا أخبار المجونيين الذين ابتلى بهم الأدب العربي كما ابتلى الأدب الافرنجي بأمثال أوسكار ويلد ، نعني أبا نواس ووالبة والخليع ومن اليهم، ممن نبش صاحب الكتاب أخبارهم في حديث الأربعاء الذي نشره في السياسة مفرقا وأهداه إلى الأستاذ مدير الجامعة مجموعاً . ومن الغريب أن تلك الأخبار الآجنة والأشعار الماجنة قد عرضها صاحب الكتاب في ثوب البحث الأدبي باسم التجديد ، كأن البحث والتجديد في الأدب ستار تُحارب الفضيلة من ورائه ، ووسيلة في هذا الشرق للدخول على النفوس بما لم يكن لولا تلك الوسيلة بداخل عليها .

ومن الغريب أيضاً أن صاحب الكتاب حين عرض لإصلاح الأدب العربي في كتابه ، ونعى على من ينافسهم فيه ما سماّه سكونا وجمودا ، لم يجد مشقة ولا عسراً في

أن يقول : «إن السبيل الأولى للإصلاح هي« أن نجتهد ما استطعنا في أن نحبب الى طلاب المدارس العالية وتلامذة المدارس الثانوية والابتدائية قراءة النصوص العربية وتفهمها ، ونقرب إليهم هذه النصوص ونحسن لهم اختيارها ، ونظهرهم على أن الأدب العربي ليس كما يمثله لهم معلموه من الشيوخ جافاً جدباً عسر الهضم لا سبيل الى إساغته ولا إلى تذوقه وإنما هو على عكس هذه كله ، لينٌ هينٌ ، خصب لذيذ ، فيه ما يرضي حاجة الشعور وفيه ما يقوّم عَوج اللسان وفيه ما يُصلح من فساد الخلق »ص٨ . فهل يا ترى لصاحب الكتاب نفسيتان كما قال عن نفسه في موضع آخر : إن له عقليتين ؟ نفسية تبحث عن المجون وما يُفسد الخُلق فتزينه وتنشره للناس ، ونفسية تنافس الشيوخ فتشير بأن تنشر على الطلبة ما فيه لحاجة الشعور رضا ولفساد الخلق صلاح ؟ أم هذه كلها ألفاظ لا قيمة لها عند صاحب الكتاب ؟ أم ليس هناك عند صاحب الكتاب إلا نفسية واحدة ترمي إلى غرض واحد ويكون ما فيه رضى لحاجة الشعور وصلاح لفساد الخلق هو عنده نفس ما نشره في حديث الأربعاء ؟

إن كان هذا النحو من الحديث هو ما يعنيه صاحب الكتاب بالاصلاح والتجديد وما يريده من الأدب الجديد ؛ فإن حقاً على كل مَن يغار على مستقبل هذا البلد الموصول بمستقبل الأدب فيه ، أن يقاومه ما استطاع قبل أن يصير أمر هذا البلد ، في الأدب وغير الأدب ، الى فساد لا صلاح معه . وإذا كنا قد احتججنا من قبلُ لوجوب بقاء معاهد اللغة والأدب القائمة جنب الجامعة بحجج أهمُّها ألاّ يستبد بالأدب في هذا البلد فردٌ ما ، فإنا نكرر هنا ما قلناه هنالك ، ونزيد أن ذلك الاستبداد يصير أبشع وأشنع وأقرب أن يصيب مَقاتل هذا الشعب الكريم إذا كانت ميول المتحكم في الأدب مثل الميول المشرئبة بأعناقها في الشعر الجاهلي وحديث الأربعاء !

هذا النوع من الأدب ليس إذن مما ترغب فيه أُمة تطمع في الحياة وتطمح إلى العزة ، وليس فيه من الجدة إلا مخالفة ما كانت درجت عليه هذه الأمة من إكبار الفضيلة واحترام الدّين ، وليس فيه من الجديد إلا الجهر بما كان يستسرُّ أهل الشهوات فيها ، وإلا فهو قديم قِدَم الشرّ على وجه الأرض لأنه يصور الخبيث مما يجول في نفس الانسان .

وصاحب الكتاب قد دل بكتاباته على أنه ممن يرى إطلاق الفن من قيود الفضيلة ، فلا يكون هناك على الفنان حرج في أن يصور الرذيلة كيف يشاء بريشته أو بمناقشته أو بقلمه ما دام يصورها كما هي . وهو مذهب شاع حديثا في أوروبا وأعان على انتشاره أنه يجد عونا من الجانب الحيواني من الإنسان ، وأنه وسيلة قوية لنيل الشهرة وجمع المال . ولكنه أيضاً مذهب تنزه عنه من أهل كل فن عظماؤهم ، وحاربه من أهل كل فن زعماء الإصلاح فيه ، أمثال كارليل ورسكن وماتيو أرنولد . ولسنا نذكر من العرب شخصا مخصوصا فإن العربية وأدبها إنما قاما حول جماع المكارم ومنبع الحياة والنور ـ القرآن والحديث ـ . ولقد كنا نحس دائما أن ما في كتب المحاضرات كالأغاني والعقد ـ التي ودّ صاحب الكتاب في بعض كتاباته لو استغل الأدباء جانبها المجوني ـ كنا دائماً نحس أن ما فيها من التظرف بهجر القول غريب عن روح هذه اللغة بعد الإسلام ، حقيق ألاّ يلحق بأدبها . ولا بد أن يحس معنا بهذا كل من استقى هذه اللغة من ذلك المنبع الكريم الفياض . ولعلنا لو تتبعنا تاريخها من هذه الوجهة نجد روح الطهارة يغلب عليها في كل عصر يكون أهله أقرب فيه الى القرآن وروح التمجن والتهاتر يغلب من كل عصر على أكثرهم مجانبة للدِّين وأبعدهم من القرآن . وهذا شيء لا غرابة فيه في لغةٍ مدينةٍ للقرآن بما لها من وجود، وبما كان لها من قوة وبيان وإعجاز .

حرية الأدب

وما نظن صاحب الكتاب حين دعا إلى فصل اللغة عن الدِّين وفصل الدِّين عن الأدب باسم حرية الأدب إلا ناظراً الى ذلك المعنى السابق محاولاً إبطاله عسى أن يخلو له ولأهل مذهبه الطريق ، فينزلوا من الأدب الإباحي حيث يشاؤون فلا يستنكر الناس مثل « حديث الأربعاء » أو « الشعر الجاهلي » . وإلا فإن ما ادعاه صاحب الكتاب من أن الأدب العربي لا يُدرّس لذاته وإنما يُدرس لغيره من فقه أو شرع مغالطة . فإنه إذا كان الأمر كذلك في أول نهضة اللغة فما هو كذلك الآن . وقد كان الناس لذلك العهد في حاجة كُبرى إلى باعث قوي يحفزهم إلى ضبط هذه اللغة وتحريرها واستنباط علومها والصبر على ما في ذلك كله من مشقة وجهد ، فكان

ذلك الباعث القوي هو الرغبة الشديدة في المحافظة على الدِّين وعلى ينبوع أحكامه أن يستغلق على الناس . فلما فرغ المسلمون من ذلك وأمنوا على دينهم وكتابه وحديث رسوله تعددت الوجهات في دراسة الأدب واللغة ، فكان علماء الدين يدرسونها كوسيلة وعلماء اللغة والأدب يدرسونها كغاية ، ولا يزالون كذلك الى اليوم . وكل منهم مصيب في ذلك ، وكل منهم يُخطىء إن حاد عن ذلك . فلا ينبغي للعالم الديني أن يدرس اللغّة والأدب إلا من حيث اتصالها بعلمه، ليستعين بهما على فهم نص أو تفسير آية . ولا ينبغي للأديب واللغوي أن يدرسا الأدب واللغة لذاتها لا لشيء اخر ، وهما في الواقع لا يفعلان غير ذلك . وإذا كان صاحب الكتاب لا يعرف أن الأُدباء اليوم لا يدرسون الأدب وسيلة لتفسير أو فقه ، مع أنهم لا يشتغلون بتفسير القرآن ولا بفقه الدين ، فلسنا ندري ماذا يعرف صاحب الكتاب من حال الأدباء اليوم .

ومن غريب ادعاء صاحب الكتاب قوله : إن اتصال اللغة بالقرآن والدِّين يجعلها مقدسة مبتذلة لأنها لا تدرس في نفسها ولا لأن درسها إضافي ص٥٤ . وهذا مثل آخر من التحاذق الذي لم نعرفه، لا يهدي إلا إلى خطأ. فانظر إلى صاحب الكتاب وهو يجعل اللغة مقدسة مبتذلة ليغرب بذلك على القارىء ، وهو يعلم أنه في ذلك مخطىء محيل ، وأن الفريق الذي يصفه أنه يقدسها هو نفس الفريق الذي يدرسها كوسيلة للدين والتفقه فيه ، وتقديسه إياها يصونها من الابتذال عنده . ويعلم أن الذين يدرسونها ممن لا يشتغلون بالدين ، لا يدرسونها للدِّين بالبداهة ، فهي عندهم غاية لا وسيلة ، كما هي عند جمهور الأدباء في هذا العصر وفي غير هذا العصر . فليس هناك في هؤلاء أيضاً من يبتذلها إذن ، ولا يكون هناك تقديس وابتذال إلا عن طريق الفرض والخيال في ذهن صاحب الكتاب .

على أننا نحب أن نعرف متى كان التوسل بشيء ما إلى غرض ما من دواعي ابتذال ذلك الشيء عند صاحب ذلك الغرض ؟ ألم يذكر صاحب الكتاب علوماً شتى كوسائل الى علوم شتى ؟ فصاحب الطبيعة يتخذ الرياضة وسيلة ، وصاحب الحيوان والنبات يتخذ الكيمياء وسيلة ، وهلم جرا . فهل يتصور أن الرياضة مبتذلة عند صاحب الطبيعة ، أو أن الكيمياء مبتذلة عند صاحب الحيوان أو النبات ؟ أم هل يتصور أن الرياضي والكيمياوي يُصَغِّر من شأن الرياضة والكيمياء عندهما أن في

الناس من يتوسل بالرياضة والكيمياء ما يشاء ؟ ليت صاحب الكتاب تلبث قليلا ، إذن لعرف أن الناس ، نريد المتعلمين منهم ، هم من اللغة اثنان لا ثالث لهما فريق يدرسها لذاتها وهو فريق جمهور المشتغلين بالأدب ، وواضح أن هؤلاء لا يبتذلونها . وفريق يدرسها وسيلة إلى شيء آخر يرضاه ويُكبره واتصالها بذلك الشيء الآخر يفيض عليها من الإكبار يحيط به ويحول بينها وبين الابتذال ، كما هو مقتضى القانون النفسي قانون الاهتمامInterest الذي غفل عنه صاحب الكتاب .

فليس هناك إذن خطر يتهدد الأدب من هذه الناحية ناحية الابتذال . أما ناحية الإكبار أو التقديس ، كما يسميه فقد زعم أنها تحول بين اللغة وبين البحث العلمي الصحيح . وتقديسها بهذا المعنى لم يقُل به أحد غيره لأن الذين يفيضون عليها من التقديس لاتصالها بالقرآن الحديث لم يخطر لهم على بال أن يحظّروا على أحد التفقه فيها عن أي طريق من طرق البحث الصحيح ، بل هم يرون مثل هذا التفقه ضرورياً لهم وفرضا على فريق منهم لأنه يعين على ما هم فيه . والبحث العلمي الصحيح لا يستلزم نقداً ولا تكذيباً إلا إذا كان هناك ما يستحق النقد والتكذيب . والفقهاء والمفسرون والمحدثون في الإسلام هم من أحرص الناس على تبيُّن ما يستحق ذلك حتى لا يدخل عليهم الباطل في دينهم الذي يقدسونه . والإسلام نفسه يفسح للبحث الصحيح كل طريق . فليس على صاحب الكتاب من حَرج في أن يسلك في تحليل اللغة مناهج البحث العلمي أو الأدبي الصحيح ، ولكن عليه أن يحسنها قبل أن يسلكها . أما أن يدّعي أنه محسن أياها وهو غير محسن ، أو أن يأتي إلى أقدس ما يقدّس الناس من دين أو قرآن أو توراة فيعرض لذلك كله بالوهم والفرض فسيجد دائماً من يؤاخذه على ذلك في العلم وفي الدّين .

وصاحب « الأدب الجاهلي » حين كتب هذا الفصل إنما كان يشير الى ما لقي كتابه في طبعته الأولى من المقاومة ، ومن الاستعانة على مقاومته بالقانون . لكنه هو الذي جنى إذ ذاك على نفسه وعلى كتابه لا الناس . فلو لم يتعرض في تلك الطبعة « للقرآن والتوراة » بما لا يتصل بموضوع البحث من الطعن والقدح جُزافا من غير قرينة ولا دليل ما تحرك أحد لكتابه ، ولظل مجهولا من أغلب الناس لا يقرأه الا القليلون الذين يهتمون بالعصر الجاهلي وشعره . وصاحب الكتاب يتأفف لأن هناك من حاول أن يأخذه بذلك ، وهو الآن يسعى جهده باسم حرية البحث وحرية

الأدب الى ازالة هذه القيود التي في القانون والتي لم يُرَد بها تضييق حرية البحث وإنما أُريد بها صيانة الدِّين أن يجترىء عليه مجترىء ، أو يفسده على الناس مُفسد . وليس هناك غير صاحب الكتاب وشيعته من يظن أن كرامة الدين تنافي حرية الأدب أوحرية العلم ، وما نظن صاحب الكتاب يتألم للأدب والعلم ، ولكن لنفسه التي لا تستطيع مع تلك القيود أن تنزل من القول حيث تُريد ، وإلا فقد اعترف نفسه (ص٤٦) أن العلم ذاته قد يكون من أبغض الأشياء إليه إذا أكره عليه .

ومن فَكيهِ أمر صاحب الكتاب أن يقول « ومالي أدرس الأدب لأقصر حياتي على مدح أهل السنّة وذم المعتزلة والشيعة والخوارج ، وليس لي في هذا كله شأن ولا منفعة ولا غاية علمية ؟ ومن الذي يستطيع أن يكلفني أن أدرس الأدب لأكون مبشرا بالاسلام أو هادما للإلحاد ، وأنا لا أريد أن أُبشر ولا أريد أن أناقش الملحدين » ص٥٦ . كأن هناك من يطلب إليه أن يمدح أهل السنة ويذم من سواهم أو أن يُبَشر بالإسلام ويهدم الالحاد ! أليس من الفكاهة أن يرى أن ليس من شأنه التبشير بالإسلام أو هدم الإلحاد ولا يرى أن القدح في الإسلام وإذاعة الإلحاد هما أيضاً ليس من شأنه ؟ فاذا كانت دراسة الأدب لهدم الالحاد تقييداً للأدب فهل دراسته لهدم الإسلام تحرير للأدب ؟ ! فليدع صاحب الكتاب نُصرة الإسلام إذا شاء ، ولكن ليترك معها أيضاً نصرة الإلحاد يسلم له الأدب ، ويستطع إذا أخلص أن يوفق في البحث الى شيء .

أما استناده في تحرير الأدب العربي من سلطان الدِّين الى ملاءمة حاجات العصر العلمية والفنية فهو من نوع ذلك الكلام المبهم الذي يفهم الناس منه شيئاً ويريد به صاحبه شيئاً آخر . ولو أخبرنا صاحب الكتاب ما هي تلك الحاجات العلمية والفنية التي يحول دون قضائها اتصال اللغة بالدين لاستطعنا أن نُبدي في كلامه هذا رأيا نصاً . وفي رأينا أن حاجة العصر هي أشد ما تكون إلى أدب شرقي نقي من أقذار الرذيلة ومن سُموم الإباحة ، إلى أدب يكون عونا للشرق عامة ولمصر خاصة على نهضة خُلقية قوية تأخذ بناصر هذه النهضة السياسية التي تتحرك بها مصر والشرق اليوم . وهذه اللغة التي أنهضها الدِّين وعاشت بالقرآن ثلاثة عشر قرناً لا تستطيع الآن أن تقطع ما بينها وبين الدين والقرآن من غير أن تقتل نفسها أو تقتل أهلها ، وتُصبح مضروبا عليها الرّق والذُل لكل ما لا يمتُّ إليها بمودة ولا رحمة وما

حاجة الشرق بل ما حاجة أي شعب إلى لغة يُصبح أدبها باباً يدخل على الشعب منه العدو ، وكأساً يتجرّع الناس بها السموم ؟

ولو كان صاحب الكتاب يريد من النتيجة التي وصل اليها في قوله «فلتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل يُدرّس لفهم القرآن ، والحديث فقط وإنما هو علم يدرس لنفسه ويُقصد به قبل كل شيء الى تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام » ص٥٧ ـ لو كان يريد من هذا الكلام ظاهره لما كان بينه وبين أحد من رجال العربية خلاف ولكن عِلْمُنا بالنزعة التي ينزع اليها صاحب الكتاب فيما كتب وفيما يكتب تجعلنا نخشى أن يكون أراد بهذا الكلام غير ظاهره ، وأن يكون قد رمى به الى غرض آخر هو تحرير الأدب من قيود الأخلاق ، فلا يكون هناك تحرج خُلقي من معنى خسيس ما دام هذا المعنى يورده صاحبه في شكل فني يتذوقه ويلذه من ضعف أثر الأخلاق الفاضلة في نفسه . ولكن الأدب ينبغي ألاّ يستقل قط عن الأخلاق استقلالا يجعله لا يبالي أوافق رذائلها أم خالف فضائلها ، فإن الله قد خلق الانسان وحدة متماسكة لا أوصالا مفصولة . واذا كان الخُلق الكريم والعاطفة النبيلة والدِّين الصحيح ضرورياً للإنسان فلن يكون لمن يهَمه رقيُّ الإنسان بدٌ من محاربة كل ما يضعف ذلك فيه ، فناً كان أو غير فن ، أدباً كان أو تمثيلا أو تصويراً أو ما تشاء أن تسمي من الفنون .

وليس يخالطنا شيء من شك بعد ما قرأنا لصاحب الكتاب في « حديث الأربعاء » وفي غيره أنه ليس بالرجل الذي يهدي هذه الأمة الى أدب خاص بها ، يحتفظ بجميع عناصر القوة فيها ، ويتخلّص من جميع عناصر الضعف ، ويجاهد في سبيل ذلك جهده ، فإن هذا التخلص بعد ذلك الاحتفاظ هو ميدان تقدم ذلك الأدب الخاص الذي نريده لهذه الأمة وهو مِعراج ترقية . وإذا حكمنا على صاحب الكتاب وأشياعه بآثارهم فسيكون أثرهم في هذا كله سلباً يعطلون ما استطاعوا ويخدعون الناس عن ذلك كله إن استطاعوا .

حقيقة ضمير الغائب[1] في القرآن

"رد على طه حسين"

بقلم: الأستاذ محمد الخضر حسين

"النقد"

القاعدة النحوية في ضمير الغائب :

قال صاحب المحاضرة : « القاعدة النحوية أن ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدمه لفظاً ورتبة ، وأن يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث وفي الافراد والتثنية والجمع ، هذه القاعدة شاملة لا يقبل النحويون فيها استثناء ، فإن عرض ما يوهم تأخر المرجع عن الضمير تأوّلوا وتكلّفوا لأثبات أن هذا التأخير اللفظي لا يستلزم تأخر الرتبة ، وهم على كل حال لا يقبلون استثناء في قاعدة المطابقة بين الضمير ومرجعه » .

---

(١) مجلة الهداية الإسلامية الجزء الثاني من المجلد الأول عام ١٣٤٧ هجرية قدم المؤلف بحث « حقيقة ضمير الغائب في القرآن » بالكلمات التالية : « رحل الدكتور طه حسين مندوباً إلى مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة اكسفورد والقى هنالك محاضرة عنوانها : « ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن » وقد نشرت مجلة الرابطة الشرقية ملخص هذه المحاضرة عنوانها : « فإذا هي طائشة الوثبات كثيرة العثرات ، فرأينا من حق العلم علينا أن ننشر في هذه المجلة ما تراءى لنا فيها من اغلاط ، وللقراء الأذكياء القول الفصل ، وما خفي الحق عن باحث يتقفى أثره بذكاء وتؤدة .
وأشارت جريدة الأهرام في ١٢ سبتمبر ١٩٢٨ الى أن مندوبها رأى صورة من محاضرة الضمائر في القرآن وأراد الاطلاع عليها ولكن الدكتور قال له : إنه لا يشاء أن ينشرها باللغة العربية .

لم يوجد في القواعد النحوية منذ نشأت إلى يوم انعقد مؤتمر المستشرقين قاعدة تقول : إن ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور لفظاً ورتبة ، وإنما قال النحاة ـ كما قال ابن مالك في التسهيل ـ : الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب . ويعللون هذا الأصل بأن ضمير المتكلم والمخاطب تفسرهما المشاهدة وضمير الغائب عارٍ عن هذا الوجه من التفسير ، فكان الأصل تقديم معاده ليعلم المراد بالضمير قبل ذكره ، وأجمعوا بعد هذا على أن العمل على هذا الأصل غير واجب ، وسوَّغوا أن يكون الضمير عائداً إلى متأخر في اللفظ متى كانت مرتبته في نظم الكلام متقدمة ، فلم يقع بينهم اختلاف في صحة المثل السائر : « في بيته يؤتى الحكم » ، وما يضاهيه في احتوائه ضميراً يعود على متأخر في اللفظ متقدّم في الرتبة كما قال تعالى : ﴿ فأوجس في نفسه خيفةً موسى ﴾[1] ، وقال أرطاة بن سهية :

تمنَّت وتلك من سفاهة رأيها لأهجوها لما هجتني محاربُ

فـ« الحكم » في المثل و« موسى » في الآية و« محارب » في البيت قد وردت مفسرة لضمائر ذكرت قبلها ، ولم يجد النحاة فيها أو في أمثالها ما يخالف قاعدة مطردة حتى يحتاجوا فيها إلى تكلف وتأويل ، بل النحاة أنفسهم قرروا قاعدة صحة عود الضمير على ما كان متأخراً في اللفظ وأصل رتبته في نظم الكلام التقديم ، وشواهد هذه القاعدة في القرآن وكلام العرب بالغة من الكثرة ما يمنع أن يحوم حولها خلاف ، والذي جرى فيه الخلاف بينهم إنما هو الاتيان بالضمير مفسراً باسم يتأخر عنه لفظاً ورتبة نحو : « زان علمهُ محمداً » فالجمهور يذهبون الى فساد مثل هذا التركيب ، ويذهب الأخفش وابن جني وابن مالك إلى صحته ، ومن شواهدهم على هذا قول حسّان :

ولو أن مجداً أخلد الدهر واحداً من الناس أبقى مجدُهُ الدهر مطعماً

فالحقيقة إن النحاة لا يوجبون عود الضمير على متقدم في اللفظ والرتبة ، بل يجيزون عوده على متأخر في اللفظ وهو متقدم في الرتبة ، كما يجيزون عوده على متقدمه في اللفظ ورتبته التأخير نحو قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات ﴾[2] فمن الخطأ المكشوف قول المحاضر : « القاعدة النحوية أن ضمير

(١) هود ـ الآية ٦٧ .
(٢) البقرة ـ الآية ١٢٤ .

الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدمه لفظاً ورتبة » .

وقول طه : « هذه القاعدة شاملة لا يقبل النحويون فيها استثناء » حكم لا يطابق الواقع فقد عرفت أن المحاضر حرَّف القاعدة النحوية ولم يأت بها على وجهها الصحيح ، وما كان منهم إلا أن قالوا : « يمتنع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة » ، والفرق واضح بين هذه العبارة وبين أن يقال : يوجبون عود الضمير على مذكور يتقدمه لفظاً ورتبة .

ثم إن قاعدتهم الصحيحة ـ وهي أوسع نطاقاً من القاعدة المصنوعة في مؤتمر المستشرقين ـ يقبلون فيها الاستثناء ، وقد استثنوا بالفعل أبواباً من الكلام نطق فيها العرب بضمائر ترجع إلى متأخر عنها لفظاً ورتبة ، ولكثرة ما ورد من شواهدها أدخلها النحاة في مقاييس اللغة ولم يمنعوا أحداً من أن يصوغ الكلام على طرائقها ، وهذه الأبواب المستثناة يعرفها طلاب علوم العربية من قبل أن ينتقلوا إلى كتبها العالية ، وإليها يشير ابن مالك في كتاب التسهيل بقوله : « ويتقدم غير مَنويٍّ التأخير إن جرَّ برُبَّ ، أو رفع بنعم أو شبهها ، أو بأول المتنازعين ، أو أبدل منه المفسر ، أو جعل خبره ، أو كان المسمى ضمير الشأن عند البصريين أو ضميرَ المجهول عند الكوفيين » .

فالنحاة يستثنون من القاعدة القائلة : « يمتنع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة » ، هذه الأبواب التي سردها ابن مالك ، وهي مبسوطة في كتب النحو بشواهدها العربية وأمثلتها .

وما زعمه طه من أنهم لا يقبلون استثناء في قاعدة المطابقة بين الضمير ومرجعه على كل حال ، لا يستقيم مع إجازتهم إعادة الضمير على متأخر لفظاً ورتبة في باب « رُبَّ » ، وتصريحهم بأنه يلتزم في هذا الضمير الافراد والتذكير وإن كان مفسره جمعاً أو مؤنثاً ، ومن شواهدهم على هذا قول الشاعر :

ربه فتية دعوت إلى ما يورث المجد دائباً فأجابوا

زعم المحاضر أن في القرآن ضمائر خارجة عن القاعدة النحوية :

قال طه : « ولكن هذه القاعدة بجزأيها إن اطردت في الشعر والنثر ،

فهي لا تطرد في القرآن الكريم ، ذلك أن في القرآن الكريم ضمائر لا تعود إلى مذكور يتقدمها لفظاً ورتبة ، وفيه ضمائر يظهر أنها تعود إلى مذكور ولكنها لا تطابقه تذكيراً وتأنيثاً أو إفراداً وتثنية وجمعاً » .

قد أريناكم كيف أورد طه القاعدة بعبارة غير صادقة ، وفصلنا لكم القول في أنهم لم يوجبوا عود الضمير على متقدم لفظاً ورتبة ، ولم يقولوا سوى أن الأصل في مرجع الضمير أن يكون متقدماً في نظم الجملة ، وسوَّغوا بإجماع للمتكلم أن يخالف هذا الفصل ويأتي بالضمير راجعاً إلى متأخر لفظاً ورتبة ومتقدم في الرتبة متى شاء ، ومنهم من أباح له أن يأتي به راجعاً إلى متأخر في اللفظ على نحو ما مثلنا ، ورأى أن الشواهد التي ظفر بها من كلام العرب كافية لأن تجعله باباً مفتوحاً في وجه كل من يأخذ لسانه بالعربية الفصحى .

وإذا استبان لكم أن القاعدة التي وضعها المحاضر في مؤتمر المستشرقين وعزاها إلى علماء العربية لم يقلها أحد منهم فلا ضرر في أن تطَّرد أو لا تطَّرد ، ونعترف للمحاضر بأنها لم تطَّرد ولن تطَّرد في شعر ولا نثر ، كما أنها لا تطَّرد في القرآن الكريم .

أما القاعدة الصادقة وهي القائلة بامتناع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ، فهي بعد رعاية استثني منها ـ مطردة في القرآن الكريم حكماً مُسمَّطاً .

حصر هذه الضمائر في تسعة أنواع :

(النوع الأول والثاني والثالث) :

تحدَّث طه عن الضمائر التي يزعم أنها خارجة عن القاعدة النحوية ، وحصرها في أنواع تسعة فقال :

« الأول الضمائر التي يراد بها الذين تعودوا حوار النبي صلى اللّه عليه وسلم ومجادلته واستفتائه في مكة والمدينة من المسلمين وغير المسلمين . الثاني الضمائر التي يراد بها القرآن . الثالث الضمائر التي يراد بها النبي نفسه » ثم قال : « ويمكن التمثيل لهذه الأنواع الثلاثة بقوله تعالى : في سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه ﴾

فالواو راجعة إلى المشركين من أهل مكة وهم لم يذكروا ، وفاعل افترى راجع إلى النبي وهو لم يذكر ، ومفعوله راجع إلى القرآن وهو لم يذكر . ومن النوع الأول كل الآيات والجمل التي تبتدىء بقوله تعالى : ﴿ ويسألونك ﴾ ، ومن النوع الثاني قوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾[1] ، ومن النوع الثالث قوله تعالى : ﴿ عبس وتولى ﴾[2] .

وضع طه تلك القاعدة الهازلة وعزاها إلى النحويين ، ثم بنى عليها دعوى أن ضمائر الغيبة في القرآن ترد على خلاف القاعدة النحوية ، وأخذ يسوق على هذه الدعوى من الآيات ما يخيل به إلى السامع أنها خارجة عن قانون علماء العربية ، وإذا كنا على علم من الفرق بين وجوب عود الضمير على مذكور تقدم لفظاً ورتبة ، وهو القاعدة التي يعزوها المحاضر إلى علماء النحو ، وبين قولنا : « يمتنع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة إلا ما استثني » ، وهو القاعدة النحوية الصحيحة ، عرفنا أن هذه الآيات إنما هي خارجة عن القاعدة المصنوعة في مؤتمر المستشرقين حيث لم تعد فيها الضمائر على مذكور تقدم لفظاً ورتبة ، وهي غير مخالفة للقاعدة الصحيحة إذ لم يجيء فيها ضمير عائد على متأخر لفظاً ورتبة ، وقصارى ما يُقال فيها : إنها راجعة إلى ما استغني عن ذكره بما يدل عليه من قرائن في نفس اللفظ أو أحوال أخرى تحفُّ بمقام الخطاب ، وهذا الوجه من استعمال ضمائر الغيبة قد قرره النحاة والبيانيون ولم يروه منافياً لقاعدة من قواعدهم في حال ، فهذا ابن مالك يقول في كتاب التسهيل : « الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل ، وهو أما مصرح به بلفظه أو مستغنى عنه بحضور مدلوله حساً أو علماً ، أو يذكر ما هو له جزء أو كل أو نظير أو مصاحب بوجه ما » وهذا ابن الحاجب يقول في الكافية : « والمضمر ما وضع لمتكلم أو مخاطب أو غائب تقدم ذكره لفظاً أو معنى أو حكماً » . وهذا السكاكي يقول في كتاب المفتاح عند البحث عن الداعي إلى أن يكون المسند إليه ضمير غيبة : « أو كان المسند اليه في ذهن السامع » . وقال العلامة السيد في شرحه مبيناً حضور المسند اليه في ذهن السامع « وحضوره فيه إما لكونه مذكوراً لفظاً أو معنى ، وإما لكونه في حكم المذكور لقرائن الأحوال لفظيةً كانت أو معنوية » .

---

(١) القدر ـ الآية ١ .

(٢) عبس ـ الآية ١ .

وقال سعد الدين التفتزاني في الشرح المطول : « وقد يكون وضع المضمر موضع المظهر لاشتهاره ووضوح أمره ، كقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه ﴾ أي القرآن ، أو لأنه بلغ من عظم شأنه إلى أن صار متعقل الأذهان نحو : هو الحي الباقي ، أو لادعاء أن الذهن لا يلتفت إلى غيره كقوله في المطلع : زارت عليها للظلام رواق »

وقدساق النحاة من الآيات ومنظوم العرب ومنثورهم شواهد على أن ضمير الغيبة يصحُّ عوده على ما لم يتقدمه في اللفظ ، وإنما في ذهن السامع بقرائن الأحوال لفظية كانت أو معنوية ، ومن هذه الشواهد قول الشاعر :

وما أدري إذا يممت أمراً أريد الخيرَ أيهما يليني

فالشاعر لم يذكر إلا الخير ، وأتى بضمير المثنى راجعاً إليه وإلى الشر الذي يصاحبه في الخطور على الذهن غالباً . ومنها قول الشاعر :

وكل أُناسٍ قاربوا قَيْدَ فَحْلِهم ونحنُ خَلَعْنَا قيدَه فهو ساربُ

فمرجع الضمير في قوله « قيده » لم يتقدم في اللفظ وإنما عُلم من سياق الجملة قبله والمراد قيد فحلنا . ومنها قول الشاعر :

فإنك والتابين عروة بعد ما دعاك وأيدينا إليه شوارع
فكالرجل الحادي وقد تلع الضحى وطير المنايا فوقهن أواقع

فالضمير في قوله « فوقهن » يعود إلى الإبل المنبّه عليها لفظُ الحادي ، فإن الحادي يستدعي إبلاً محدوّة فأغنى ذلك عن ذكرها . ومنها قول أبي كبير الهذلي :

ولقد سريت على الظلام بمغشم جلد من الفتيان غير مثقَّل
ممن حملن به وهنَّ عواقدٌ حَبْلَ النطاق فشبَّ غيرَ مهبَّل

فالضمير في قوله « حملن » عائد إلى النساء ولم يجر لهن ذكر ، ولكن المراد مفهوم من لفظ « حمل » وما وقع فيه من سياق الكلام . ومنها قول لبيد :

حتى إذا ألقت يداً في كافر وأجنَّ عورات الثغور ظلامها

فانه أراد حتى إذا ألقت الشمس يداً في الليل إذ غربت ، ولم يجر للشمس ذكر في شعره . ومنها قول العباس بن عبد المطلب :

مِنْ قَبْلِهــا طبــت في الظــلال وفي   مستــودع حيث يخصف الورق

فإنه يريد من قبل الأرض أي قبل وجودك فيها . ولم يجر ذكر للأرض في كلامه .

(النوع الرابع) :

قال طه : « الرابع الضمائر التي تعود إلى الأفعال . وذلك حين يأمر الله بأمر أو ينهي عن شيء ثم يريد بعد ذلك تحسين ما أمر به أو تقبيح ما نهى عنه أو تأكيد الأمر والنهي ، ومثال ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : (ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك)[1] . وقوله تعالى في سورة المائدة : (اعدلوا هو أقرب للتقوى)[2] . وقوله تعالى في سورة الأنفال بعد أن بينّ أحكام الموالاة بين المسلمين والكافرين : (إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)[3] . والنحويون يرجعون هذه الضمائر عادة الى مصدر متصيد - كما يقولون - من الكلام السابق » .

يريد طه أن يضع في أذهان المستمعين إليه ان الضمائر في هذه الآيات واردة على خلاف القاعدة النحوية ، وهي إنما تخالف المقالة التي زوّرها عليهم في مؤتمر المستشرقين ، وقد استبان لكم أن تلك المقالة لا يعرفها النحاة ، والضمائر في هذه الآيات جاءت مطابقة لاستعمال عربي صحيح ، وهو ما قرره النحاة من أن مرجع الضمير قد يكون جزءاً من مدلول كلمة تقدمته ، وساقوا على هذه القاعدة شواهد من كلام العرب وأخرى من القرآن الكريم ، ومن هذه الشواهد قولهم : « من كذب كان شرّاً له » ، ففي « كان » ضمير يعود إلى الكذب الذي هو جزء من مدلول كذب . ومنها قول الشاعر :

إذا زُجِــرَ السـفيه جرى إليه   وخـالف والسـفيه إلى خلاف

فالضمير في جري عائد إلى السفه المفهوم من لفظ السفيه . ومنها قول القطامي :

---

(١) البقرة - الآية ١٤٩ .

(٢) المائدة - الآية ٨ .

(٣) الأنفال - الآية ٧٣ .

هم الملــوك وابنــاء الملــوك لهم   والآخــذون به والساقــة الأُول

فالضمير في قوله « به » عائد إلى الملك المستغنى عنه بذكر ما يحضره في ذهن السامع وهو لفظ الملوك . وعلى هذا النحو من الخطاب جاء قول الشاعر :

ومــن يك بادياً ويكن أخاه   أنــا الضحّــاك ينتســج الشمالا

فإن الضمير في قوله « أخاه » عائد إلى البدو الذي هو ضد الحضر وهو لم يذكر في النظم إنما دل عليه قوله « بادياً » .

ومن الآيات التي أوردوها مستشهدين بها على صحة هذا الاستعمال قولـه تعالى : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقـوى ﴾[1] . قولـه تعـالى : ﴿ ولا يحسبـنّ الـذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ﴾[2] فالضمير في قوله : ﴿ هو خـيراً لهم ﴾ راجع إلى البخل المستغنى عن ذكره بقوله تعالى : ﴿ يبخلون ﴾ ، فالنحـاة يقررون صحة استعمال الضمير راجعاً إلى المصدر الذي يدل عليه فعل أو وصف متقدم ، ويسوقون الآيات والأبيات شواهد على ما يقررونه ، لأنهم قرروا وجوب عود الضمير على مذكور يتقدم لفظاً ورتبة ، ولما اعترضتهم هذه الآيات وما يجري مجراها من الشعر أخذوا يتأولون ويتصيدون .

(النوع الخامس) :

قال طه : « الخامس الضمائـر المبهمـة ، وهـذه الضمائـر قسمان : أحدهما يعود إلى متقدم ولكنه لا يطابقه ، كقوله تعالى في سورة النســاء : ﴿ وآتـوا النســاء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً ﴾[3] فالهاء في « منه » ظاهـرة في الرجوع إلى الصدقات ولكنها لا تطابق الصدقات في الجنس ولا في العدد ، ولهذا قال الزمخشري في الكشاف : إن هذه الهاء بمعنى اسم الاشارة كأنه قال : فإن طبن لكم عن شيء من ذلك نفساً .القسم الثاني :ضمائر لا ترجع إلى متقدم ولكن يفسرها متأخر لفظاً ورتبة كقوله تعالى : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾[4] .

(١) المائدة ـ الآية ٨ .
(٢) آل عمران ـ الآية ١٨٠ .
(٣) النساء ـ الآية ٤ .
(٤) الأنعام ـ الآية ٢٩ .

ذكرنا في التمهيد أن بلغاء العرب لا يجمدون على رعاية الألفاظ بل يوجهون عنايتهم الكبرى إلى نقش صور المعاني في أذهان المخاطبين ، فتراهم ينسجون الكلام على رعاية ما سبق من الألفاظ في أغلب أحوالهم ، وقد يذهبون فيه إلى ما يطابق المعنى غير مبالين بالألفاظ حيث لا يتوقف حسن صياغة المعنى على التزام رعايتها ، فإذا دلوا على المعنى بلفظ لم يجدوا حرجاً في أن يتحدثوا عنه كأنه ذُكر بلفظ آخر مألوف الاستعمال عند تأدية هذا المعنى الذي صيغ من أجله الخطاب . وهذا مذهب من مذاهب البيان فسيح ، بسطه ابن جني في كتاب الخصائص تحت عنوان « فصل في الحمل على المعنى » وقال : قد ورد في القرآن وفصيح الكلام منثوراً ومنظوماً . وقال بعد هذا : والحمل على المعنى في هذه اللغة واسع جداً ، ومن صوره تصوير الجماعة في صورة الواحد ، ومن شواهد هذا التصوير قول العرب : « هو أحسن الفتيان وأجمله » ، أفردوا الضمير مع أن مرجعه فيما يظهر جماعة ، لأن هذا الموضع يكثر فيه استعمال الواحد ، ومن شواهده قول ذي الرمة :

وَمَيَّةُ أحسن الثقلين وجهاً وسالفةً وأحسنه قذالا

فترك رعاية اللفظ المنطوق به ، وبني كلامه على لفظ آخر مما يؤلف في هذا المكان فأفرد الضمير كأنه قال أحسن مخلوق .

وفي الحديث النبوي : « خير نساء ركبن الإبل خيار نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده [1] » فقد أتى بالضمير في قوله « أحناه وأرعاه » مفرداً ذهاباً إلى المعنى ، فإن قوله « خير نساء » في معنى خير من وجد أو خُلق . قال ابن الأثير : ومنه قولهم : « أحسن الناس خلقاً وأحسنه وجهاً » وهو كثير من أفصح الكلام .

ومن هنا نعلم بوجه مجمل أن القرآن إذا استعمل لفظ الجمع للدلالة على معنى ، وأتى في حديثه عن هذا المعنى بالضمير مفرداً ، فإنما سلك منهجاً يألفه فصحاء العرب ولا يجدون في نفوسهم حرجاً من أن يلفظوا به ، ولا في آذانهم نفوراً من أن يستمعوا إليه .

وعلى هذا تأويل قوله تعالى : ﴿ وآتو النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن

---

(١) وهو حديث صحيح . رواه أحمد والبخاري ومسلم رحمهم الله تعالى .

شيء منه نفساً ﴾ فإن المعنى الذي أريد بالصدقات ، قابل لأن يستعمل له لفظ غير جمع وهو الصداق أو ما أصدق ، فيكون الضمير في قوله « منه » عائداً على معنى الصدقات باعتبار اسم آخر شأنه أن يستعمل للدلالة عليه حتى كأنه قيل : وآتوا النساء صداقهن أو ما أصدقتموهن .

ولا يغيب عنَّا أن مراعاة الألفاظ المعبَّر بها عن المعنى أولاً ثم الاتيان بضمائر الغيبة على وفقها ، هو الذي يجري عليه العرب في أكثر مخاطباتهم ، وهو الذي يتتابعون عليه الواحد بعد الآخر ، وذلك ما أخذ علماء العربية أن يجعلوا مطابقة الضمير لمرجعه قاعدة متبعة ، ونعلم مع هذا أن استعمال ضمير الغيبة منظوراً فيه إلى المعنى ، كأنه عبرَ عنه بلفظ آخر يطابقه الضمير ، هو مسلك عربي فصيح وإن لم يبلغ مبلغ الوجه الأول في شيوعه بينهم ودورانه على ألسنة عامتهم ، وقلة ظهور هذا الاستعمال في خطب البلغاء وقصائدهم ، ثم قلة استباق ألسنة الجمهور إليه في مخاطباتهم لا يخدش في فصاحته بل لا ينزل به عن مكانة الوجه الشائع ، وإنما هو وجه ينتحيه الفصحاء في مقامات لا يجدون في انتحائه ما يخلّ بصورة المعنى ولا يبطىء بذهن المخاطب عن أن يدرك المراد كما يدركه عندما يؤتى بالضمير مطابقاً للفظ المنطوق به في نظم الكلام . وهو جدير بأن لا يكثر في مخاطبات العامة وأن لا تسبق إليه ألسنتهم لأنه لا يأخذ مأخذه في كل مقام ، ولا يجري معه الذهن إلى الغرض أينما وقع ، بل يحتاج إلى قوة من البلاغة يلاحظ فيه كيف يكون إرجاع الضمير إلى المعنى باعتبار اسم غير مذكور ، وإرجاعه إليه باعتبار اللفظ المذكور على سواء ، وسنبحث الوجه الذي حكاه المحاضر عن الزمخشري في صحيفة آتية ونعرض عليك في تأويل هذه الآية وجهاً آخر نراه قريباً ولا تراه إن شاء اللّه بعيداً .

وأما آية : ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا ﴾ التي أوردها المحاضر مثلاً لما ورد في القرآن من الضمائر المفسرة بمتأخر عنها لفظاً ورتبة ، فأسلوبها عربي شائع مألوف ، وقد قدمنا لك أن النُّحاة عندما يقررون قاعدة امتناع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة يستثنون منها أبواباً ، ومن هذه الأبواب ما صيغت فيه هذه الآية ، وهو أن يؤتى بالضمير أولاً ثم يخبر عنه بما يفسره ، ويحتجون على هذا بأقوال العرب وبهذه الآية نفسها . ومن شواهدهم عليه : هي النفس تحمل ما حملت » وقولهم : « هي العرب تقول ما شاءت » .

(النوع السادس) :

قال طه : « السادس الضمائر التي تقع في آيات التشريع كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود اللّه ﴾[1] فالألف في « يخافا » راجعة إلى الزوجين اللذين لم يُذكرا ، وأوضح مثال لهذا النوع آية المواريث في سورة النساء . فالضمائر التي تعود فيها إلى غير المذكور كثيرة » .

الضمير في قوله تعالى : ﴿ إلا أن يخافا ﴾ يعود إلى الزوجين المستغنى عن ذكرهما بحضورهما في أذهان المخاطبين من الحديث عن الطلاق المعبَّر عنه بقوله : ﴿ أو تسريح بإحسان ﴾ ، والبقاء على الزواج المعبَّر عنه بقوله : ﴿ فإمساك بمعروف ﴾ ، والصداق المذكور في قوله : ﴿ مما آتيتموهن ﴾ بل من الخطاب في قوله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ وقد بسطنا لك البحث في أن إعادة الضمير على ما يستغنى عن ذكره بما يسبقه من القول قاعدة عربية قائمة بنفسها ، ولا تصطدم مع أي قاعدة ما عدا القاعدة التي صنعها طه في مؤتمر المستشرقين وأضافها إلى النحاة وهم لا يعلمون .

وعلى نحو آية : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ وردت الضمائر في آية المواريث ، ولا شيء منها إلا وهو راجع إلى ما استغني عن ذكره مما ينبه على مكانه ويُلوح إليه .

(النوع السابع) :

قال طه : « السابع ـ الضمائر التي يُفهم مرجعها من النص » كقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابَّة ﴾[2] فالهاء راجعة إلى الأرض التي لم تذكر . وقوله تعالى لإبليس : ﴿ أخرج منها فإنك رجيم ﴾ فالهاء راجعة إلى الجنة التي لم تذكر » .

يريد طه أن يُلقي في آذان المستمعين إليه أن هذه واردة على خلاف تلك القاعدة التي ألصقها بالنحاة وصورها بقوله : يجب عود الضمير على مذكور يتقدمه

---

(١) البقرة ـ الآية ٢٢٩ .

(٢) النحل ـ الآية ٦١ .

لفظاً ورتبة ، والحقيقة أن النحاة قرروا قاعدة تجري عليها هذه الآيات بسهولة ورِفق وهي صحة عود الضمير الغائب على ما يحضر في ذهن المخاطب من مساق الكلام ، وقد ذكر هذه القاعدة ابن مالك وغيره ، وسقنا إليك من شواهدها ما لا يسعك إلا أن تتلقاه بإصغاء وقبول .

(النوع الثامن) :

قال طه : «الثامن ـ الضمائر التي تعود إلى « من » دون أن تطابقها جنساً أو عدداً ، والنحويون يقولون : إن الضمير يرجع إلى من باعتبار لفظها فيفرد ويذكّر ، وباعتبار معناها فيطابق هذا المعنى جنساً وعدداً ، ولكن رجوع الضمائر إلى الألفاظ مرة وإلى المعاني مرة أخرى لا معنى له ، فأنت لا تقول : حمزة أقبلت ، مراعاة لتأنيث اللفظ ، وإنما تقول : حمزة أقبل ، مراعاة لتذكير المعنى . ولو جاز إرجاع الضمائر إلى الألفاظ مرة وإلى المعاني مرة أخرى لأصبحت اللغة والنحو ضرباً من اللعب» .

الألفاظ التي تُستعمل للدلالة على العقلاء ثلاثة أنواع : أحدها ـ لفظ يراد به شخص معين كالأعلام ، والضمير الذي يكنّى به عن فرد معين لا يكون إلا كمرجعه مفرداً .

ثانيها ـ لفظ يرد في صيغة جمع التكسير أو أحد جمعي السلامة والضمير العائد إلى معاني هذه الجموع شأنه أن يكون كمرجعه جمعاً مطابقاً ، ويلحق بهذا القسم نحو الذين واللاتي .

ثالثها ـ ألفاظ تقال على المفرد مرة وعلى جمع مرة أخرى نحو « مَنْ » الموصولة ولفظ « مَنْ » إن أريد به شخص واحد معين ، فالضمير الراجع إليه لا يكون إلا مفرداً ، أما إذا لم يرد منه شخص واحد بل أُريد منه جماعة ، فهذا ما نطق العرب بالضمير الراجع إليه مفرداً تارة ، وجمعاً مرة أخرى . وهذا شأنهم معها فيما إذا أُريد منها جنس من يتحقق فيه معنى صلتها ، ومن شواهد عود الضمير عليها مفرداً وقد أُريد منها جماعة قول بعض شعراء الحماسة :

وإني لممن يبسط الكف بالندى ... إذا شنجت كف البخيل وساعده

فمَنْ هنا مستعملة في جمع وأعيد عليها الضمير مفرداً ، ومن شواهد عود الضمير عليها جمعاً قول قبيصة بن النصراني أحد شعراء الحماسة :

أحدِّث من لاقيت يوماً بلاءه وهم يحسبون أنني غير صادق

فالضمائر العائدة على « مَنْ » المستعملة في جمع تفرد في حال ، وتجمع في أخرى ، وهذا أمر واقع في كلام العرب غير مختص بضمائر الغيبة في القرآن ، بل الواقع أن هذا الحكم لا يختص بمن الموصولة ، ولكنه يتعدّاها إلى أسماء كثيرة يستعملها العرب لتدل على أفراد متعددة ويعيدون عليها الضمير إن شاؤ وا جمعاً ، وإن شاؤوا أعادوه مفرداً ، ومثال هذا لفظ « الجمع » نفسه فإنهم يتحدثون عنه حديثهم عن الجموع مرة ، كما قال أحد شعراء الحماسة :

وجمع بني قران فاعرض عليهم فإن يقبلوا هاتا التي نحن نؤ بس

ويجُرونه مجرى المفرد أُخرى كما قال آخر منهم :

قد صبحت معنُ بجمع ذي لجب قيساً وعبدانهم بالمنتهب

وُجد في اللغة هذا النوع من الكلم الذي يُطلق على أفراد متعددة وللمتكلم الخيار في أن يذهب فيه مذهب الحديث عن المفرد أو مذهب الحديث عن الجماعة ، ولم يبق للنحاة من عمل سوى أن يفرقوا بين الحالين ، فقالوا في حال إعادة الضمير عليه جمعاً : إنه محمول على المعنى ، وفي حال إعادته عليه مفرداً : هو محمول على اللفظ . ونحن نفهم من هذا أن المتكلم ينظر أحياناً إلى معنى « مَنْ » التي يراد بها جماعة فيجده ذا أفراد متعددة فيعيد عليها ضمير الجمع ، وينظر أحياناً إلى لفظ مَن فيجده خالياً من علامة الجمع المقتضية لأن يكون الضمير العائد إليها جمعاً ، فيفرد الضمير رعاية للفظها ، ولا يعنون بهذا أن الضمير يعود إلى اللفظ من حيث هو حروف ، فإن الضمائر إنما يكنّى بها عما يتحدث عنه وهو المعاني ، بل هو عائد إليه من حيث دلالته على المعنى المراد منه ، واعتبروا اللفظ في حال إفراد الضمير مع أن الضمائر لا تعود على الألفاظ من حيث إنها حروف ، نظراً الى أن اللفظ بخلوه من علامة الجمع ساعد على أن يجيء الضمير مفرداً ، وإذا وقفنا عند هذا الحد قلنا : إن العرب يحافظون على المطابقة بين الضمير ومرجعه ، والنُّحاة يشترطون هذه المطابقة

كما حافظ عليها العرب ، غير أن هذه المطابقة إما أن يراعى فيها المعنى يكنى عنه بالضمير ، وإما أن يراعى فيها حال اللفظ الذي عبر به عن المعنى أولاً . ومما نراه قريباً أن يقول باحث : إن المتكلم حين يفرد الضمير العائد إلى الألفاظ المستعملة في الجمع إنما ينظر إلى المعنى في صورة تقبل هذا الضمير وهو أن يلاحظ الأفراد المتعددة من حيث اجتماعها و انضمام بعضها إلى بعض حتى كأنها وهي في سلك المعنى الجامع بينها شيء واحد ، وإنما تستقيم هذه الملاحظة مع الألفاظ الخالية من علامات الجمع ، إذ هذه العلامات تمنع من أن تلاحظ هذه الأفراد في صورة شيء واحد .

ومجمل القول ان الألفاظ التي يراد منها جماعة ، كمن وجمع وفريق ، لا يجد العرب حرجاً في أن يعيدوا عليها ضمائر الجمع نظراً إلى ما دلَّت عليه من الأفراد المتعددة ، أو يعيدوا عليها الضمائر مفردة نظراً إلى أن اللفظ لا يتجافى عن هذه الضمائر وقابل لأن يلاحظ معه مجموع الأفراد في هيئة ما تقع عليه نظرة واحدة ، ومراعاة اللفظ والمعنى في تركيب واحد كما يجيء في بعض الأبيات طريقة عربية مألوفة ، ومن شواهدها :

لست ممن يكعْ أو يستكينون إذا كافحته خيل الأعادي

فقد أعاد الضمير على « من » في قوله : « يكع » مفرداً ، وأعاده عليها ضمير جمع في قوله : « يستكينون » .

الضمير العائد على الذي :

قال طه : « وأكثر من هذا أن عدم المطابقة ليس مقصوراً على « مَنْ » بل يتجاوزها إلى (الذي) مع أن (الذي) مفرد قطعاً فلا يصح أن يرجع الضمير إلى لفظه مرة وإلى معناه مرة أخرى ، فمن ذلك قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾[1] . وقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤ من بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا ﴾[2] .

---

(١) الزمر ـ الآية ٢٣ .

(٢) البقرة ـ الآية ٢٦٤ .

قد يُراد من نحو (الذي) شخص معين وهو في هذا الحال لا يعود عليه الضمير إلا مفرداً ، وقد يراد منه الجنس ليتناول الحكم به كلّ فرد يتحقق فيه معنى الصلة ، وهذا ما يذهب العرب في الحديث عنه إلى إفراد الضمير مرة ، وجمعه مرة أخرى ، وإذا أتوا بضمير الجمع فلأن « الذي » يتناول بوساطة دلالته على الجنس أفراداً متعددة ، فتحصل المطابقة بين الضمير ومرجعه من جهة المعنى ، فالإخبار عن الذي بما يُشار به إلى الجمع في آية : ﴿ والذي جاء بالصدق ﴾ وعود ضمير الجمعْ على « الذي » في آية : ﴿ كالذي ينفق ماله ﴾ إنما هو قائم على رعاية أن « الذي » مستعمل في جنس من يتحقق فيه معنى الصلة ، والجنس ذو أفراد لا تُحصى .

الضمير العائد على المعرّف بأل الجنسية :

قال طه : « بل لا يقتصر عدم المطابقة على (من) و (الذي) وإنما يتجاوزهما إلى أسماء مظهرة ، منها العام ومنها الخاص . فمن الأول : قوله تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ﴾[1] . ومن الثاني : قوله تعالى في سورة طه : ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال ربِّ اشرح لي صدري . ويسر لي أمري واحلل عُقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾[2] .

أما الآية الأولى فإن الإنسان مراد منه الجنس ، والجنس يتناول أفراداً كثيرة فصحَّ من هذا الوجه أن يُشار إليه بما يشار به إلى الجمع ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ والذي قال لوالديه أفٍّ لكما ﴾[3] إلى قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول ﴾ وقد أشار صاحب الكشاف إلى وجه الإخبار بأولئك عن قوله :« والذي قال » فقال المراد بالذي قال : الجنس القائل ذلك ، ولذلك وقع الخبر مجموعاً .

وأما آية ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ فمرجع الضمير فرعون وملأه الذين شأنهم أن يحضروا في علم السامع متى ذُكر فرعون ، إذ رئيس القوم كفرعون لا تقع

---

(١) الأحقاف - الآية ١٦ .
(٢) طه - الآيات ٢٤ - ٢٨ .
(٣) الأحقاف - الآية ١٧ .

صورته في الذهن غالباً إلا مصحوبة بما يحف به من رجال ، وقد بسطنا لك القول في أن الاتيان بضمير الغيبة لا يتوقف على أن يكون مرجعه مذكوراً لفظاً بل يكفي فيه أن يحضر في ذهن السامع ولو من غير طريق الألفاظ الموضوعة للدلالة عليه .

رأي المحاضر في الضمائر غير المطابقة :

قال طه : « فعدم المطابقة إذن ليس من خصائص الضمير ولا هو من خصائص الأسماء الموصولة ، وإنما هو أسلوب من أساليب القرآن ، إذا أمكن ضبطه وتحديده ، فقد أمكن حل مسألة الضمائر غير المطابقة أو التي لا مرجع لها ، ويتلخص هذا الاسلوب في أن القرآن يستعمل أحياناً أسماء عامة أو خاصة وهو يريد أن هذه الأسماء تدل على أصحابها أولاً ، وتُمثل جماعات أخرى ثانياً ، أي أن هؤلاء الاشخاص ممتازون لهم من المكانة في حياتهم الاجتماعية ما يجعلهم عنواناً لقومهم » .

قال طه هذا وأراد تطبيقه على الآية الأولى : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ بناء على أنها نزلت في أبي بكر الصديق ، وعلى الآية الثانية : ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ زاعما أن فرعون يمثل المصريين !

قد أريناك أن ليس في القرآن ضمير لا يطابق مرجعه ، وإن مرجع الضمير قد يكون مذكوراً ، وقد يُستغنى عن ذكره بما يدل عليه من قرينة لفظية أو غير لفظية ، والآية من هذا القبيل ، ولا يُشترط في مطابقة ضمير الجمع لمرجعه المذكور قبله أن يكون لفظه جمعاً ، بل يكفي فيه أن يكون مدلوله الجنس وهو يتناول أفراداً كثيرة ، والآية الأولى واردة على هذا السبيل ، ونزولها في أبي بكر لا يمنع من إرادة جنس الإنسان المتصف بالمعنى المحكي عنه ، فيتناول أبا بكر وسائر من يتحقق فيه ذلك المعنى .

عدم اكتفائه بهذا الرأي في دفع مشكلة عدم المطابقة :

قال طه : « هذا الحل واضح في نفسه ، وهو مفهوم من النحو المنطقي الصرف ، ولكنه لا يزيل المشكلة ، لأن مسألة المطابقة بين الضمير وبين مرجعه

المذكور لا تزال قائمة » .

ليس في الآيات إشكال ما دام العرب ينطقون بالضمير من غير أن يُذكر مرجعه في نظم الكلام ، وما دام علماء العربية يصرحون بجواز هذا الاستعمال ويسوقون عليه الشواهد الكثيرة ، وليس في الآيات إشكال ما دام العرب يجُرون الكلمات التي تدل على معان عامة ولم يكن في لفظها علامة جمع مجرى ما يجيء في صيغة جمع تكسير أو جمع سلامة فيعيدون عليها ما شاؤوا من ضمائر الجمع أو ضمائر الإفراد ، وما دام علماء العربية يذهبون في هذا الاستعمال إلى أنه عربي مبين ولا يرونه ناقصاً لشيء من قواعدهم ، وآفة طه في هذا كله إنما جاءت من ناحية تلك القاعدة التي اصطنعها بلسانه ورماها على النحاة ، وكتبهم تنادي ببراءتهم منها .

زعمه أن القرآن يستعمل ضمير الغيبة اسم إشارة :

قال طه : « إنه يرى أن القرآن نفسه يحل هذه المشكلة حلاً لا شك فيه ، ذلك أن هذه الآيات التي لم تتحقق فيها المطابقة والتي تبلغ نحو المائة قد ورد فيها اسم الاشارة سبعاً وأربعين مرة ، وورد فيها الضمير ثلاثاً وأربعين مرة . وإذن فالقرآن يستعمل في هذه الآيات الضمير واسم الاشارة على السواء ، وإذن فالضمير في هذه الآيات بمعنى اسم الإشارة . ونحن نعلم أن اسم الاشارة لا يلزم أن يرجع إلى مذكور يتقدمه لفظاً ورتبة ، وإنما يجب أن يرجع إلى المشار اليه وإن لم يطابقه عدداً وجنساً ، سواء ذكر هذا المشار أو لم يذكر » وقال : « إنه يرى أن هذه القاعدة يجب أن تطبق على كل الضمائر التي لا مرجع لها أو التي لا تطابق مرجعها بحيث تأخذ هذه الضمائر على أنها أسماء اشارات » .

لا مشكلة فيطلب حلها ، ذلك لأن الآيات التي أوردها المحاضر استوفت مراجعها وتحققت فيها المطابقة على الوجه الكافي في نظر البلغاء ، ودعوى أن الضمائر في هذه الآيات مستعملة بمعنى اسم الاشارة ، من الخواطر التي لا داعي اليها ، وإنما يحتاج إليها من يتوهم أن القاعدة النحوية توجب أن يكون مرجع الضمير مذكوراً يتقدم في اللفظ والرتبة ، ويتوهم أن المطابقة بين ضمائر الجمع ومراجعها لا تتحقق إلا أن يكون المرجع من صيغ الجموع ، وشيء من هذا لم يلتزمه العرب ولم يجعله

واضعو قواعد اللغة حكماً مسمطاً .

يقول طه : « ونحن نعلم أن إسم الاشارة لا يلزم أن يرجع إلى مذكور يتقدمه لفظاً ورتبة » وهذا القول من نوع ما يرمي به على غير روية ، والحقيقة أن اسم الإشارة قد يشار به إلى محسوس حاضر ، وهذا يستغني بالاشارة الحسية عن أن يتقدمه في الكلام ما يشار إليه أما إذا أشير به إلى أمر معقول أو شخص غائب عن حضرة الخطاب فهذا حكمه حكم ضمير الغائب في احتياجه إلى مرجع يفسره .

قال الرضي في شرح الكافية : واسم الاشارة لما كان موضوعاً للمشار إليه اشارة حسية ، فاستعماله فيما لا يدرك بالإشارة الحسية كالشخص البعيد والمعاني مجاز ، وذلك يجعل الاشارة العقلية كالحسية ، واسم الاشارة حينئذٍ يحتاج إلى مذكور قبله فيكون كضمير راجع إلى متقدم . وقد نقل العلامة السيد كلام الرضي هذا في حواشي الشرح المطول حكماً مسلماً .

وهذا أمر معقول بالبداهة لو كان طه ممن رزقوا التؤدة في البحث ، فلو قال قائل لقيت بالأمس ذلك ، مشيراً إلى شخص غير حاضر ولم يجر في الكلام ما يدل عليه ، لما أتى بشيء من الفائدة ولما عده السامعون إلا هاذياً .

وأكثر الآيات التي أوردها طه إنما كنّي بضمائرها عن معان معقولة كآية : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ أو أشخاص غائبين عن حضرة الخطاب كآية : ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ فلا مفر طه إذاً من أن يبتغي لهذه الضمائرمشاراً إليه قد تقدم ذكره ، إلا أن يدعي أن هذا النوع الجديد من أسماء الاشارة لايدخل تحت سلطان قاعدة قديمة ، وما هذا الادعاء من صاحب هذه المحاضرة ببعيد .

وإذا قال طه : أكتفي في اسم الاشارة بما يدل على المشار اليه ولو من غير صريح الكلام ، قلنا قد اكتفى علماء العربية في مرجع الضمير بمثل هذه الدلالة فيكون الخلاف بينك وبينهم في أنهم يسمون الهاء في نحو قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة ﴾[1] ضميراً ، وأنت تسميه اسم إشارة ، وتكون رحلتك إلى مؤتمر

---

(١) الأعراف ـ الآية ١٨٦ .

المستشرقين لم تثمر سوى أنك جئت إلى نوع من الضمير وقلت إني وضعت له اسماً جديداً لم يسمه به علماء العربية في القديم .

قال طـــــه : « فالضمير إذن في هذه الأنواع الثمانية مستعمل على أنه اسم اشارة . وقد أحس القدماء أنفسهم هذا فقاله الزمخشري في الكشاف كما قدمنا ، ورووا أن رؤ بة لما سئل عن الضمير في قوله :

« كأنه في الجلد توليع البهق »

ـ أجاب : « أردت كأن ذاك » .

ذكر صاحب الكشاف لأفراد الضمير في آية : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء منه ﴾[1] وجهين : أحدهما ما أوردناه فيما سلف من أن يكون الضمير راجعاً إلى الصداق الذي يجده السامع في ذهنه عند ذكر الصدقات ، لأنه في معنى وآتوا كل واحدة من النساء صداقها . وثانيها : أن يكون الضمير « جارياً مجرى اسم الاشارة كأنه قيل عن شيء من ذلك » ومعنى هذا فيما يظهر أن الضمير في قوله « منه » وهو مفرد ، كنّي به عن الصدقات وهو جمع ، أجراه له مجرى اسم الاشارة المفرد فإنه قد يشار به إلى الاثنين نحو قوله تعالى : ﴿ لا فارضٌ ولا بكرٌ عوانٌ بين ذلك ﴾[2] وقد يشار به إلى الجمع كقوله تعالى : ﴿ كل ذلك كان سيئُه عندَ ربكَ مكروهاً ﴾[3] فالذي يؤخذ من عبارة الزمخشري أن ضمير المفرد كُني به عن جمع إلحاقاً له باسم الاشارة في أنه يشار به إلى جمع فالاجراء يرجع إلى هذا الوجه وهو استعمال المفرد للجمع ، وهو مستقيم ولو ببقاء الضمير بحالة كناية عن شيء تقدّمه . فصاحب الكشاف لا يريد من قوله أجرى مجرى الاشارة أنه نقل عن معنام الذي هو مجرد الكناية عن شيء يفسره إلى معنى اسم الاشارة ، وإنما يريد أن هذا الضمير أعطي حكم اسم الاشارة الذي هو استعماله للجمع ، وإعطاء الكلمة حكم الأخرى لا يتوقف على أن توافقها في المعنى ، بل يكفي فيه أن يكون بين الكلمتين مشابهة في بعض الوجوه ، والمشابهة بين الضمير واسم الاشارة في الإبهام واحتياج كل

(١) النساء ـ الآية ٤ .
(٢) البقرة ـ الآية ٦٨ .
(٣) الاسراء ـ الآية ٣٨ .

مَنهما في استعماله إلى ما يوضح المراد منه .

ويدلك على أن الزمخشري إنما يريد بإجراءالضمير مجرى اسمالاشارة إعطاءه حكمه فقط ، ولا يقصد إلى أن يكون الضمير بمعنى اسم الاشارة أو اسم إشارة أنه بعد أن استشكل الاشارة بالمفرد المذكور في قوله تعالى : ﴿ عوان بين ذلك ﴾ إلى مؤنثين وهما بكر وفارض وذهب في دفع الاستشكال إلى أن المشار إليه في تأويل « ما ذكر » أو « ما تقدم » قال : وقد يجري الضمير مجرى اسم الاشارة في هذا .

ورؤبة لا يقصدبقوله : «أردت كأن ذاك »أنه استعمل الضمير اسم اشارة وإنما يقصد أنه أعاد ضمير المفرد على الخطوط إجراء له مجرى اسم الاشارة في استعماله لمتعدد ، وغيرخفي أن اسم الاشارة في هذا الموضع لا يختلف عن الضمير إلا بحكم عدم المطابقة .فقوله :« أردت كأن ذاك »لا يدل على أنه نقل الضمير إلى معنى اسم الاشارة ، وإنما هو تنبيه على اللفظ الذي نقل حكمه إلى الضمير ، وهذا اللفظ من حيث أنه يشير إلى ما تقدم ذكره لا يتميز عن الضمير الذي يُكنَّى به عن متقدم ، فصحَّ أن يوضع موضع الضمير عند بيان القصد إلى إجرائه مجراه في استعماله لما هو متعدد . وسيقوم لك على هذا من قول السعد شاهد مبين .

ثم إن ما يذكر به اسم الاشارة المفرد من عدم المطابقة أمر ظاهري ، والتحقيق أن العرب قد وضعوا ذاك أو ذلك ليشار به إلى المفرد وذاك مثلاً للمثنى ، وأولئك لما كان جميعاً ، فإذا وجدنا اسم الاشارة المفرد نحو « ذلك » مشاراً به إلى متعدد فإنما هو لضرب من التصرف في تصوير المعنى ، ذلك بأن تلاحظ المتعدد في صورة الشيء الذي يدلون عليه بكلمة مفردة . فأنت إذا أتيت في صدر كلامك بمثنى أو جمع مدلوله الذي هو الفردان أو الأفراد مذكوراً في الحضرة ، فيأخذ بهذا الذكر عنواناً آخر هو « ما ذكر » فيصح لمن يخاطب الأذكياء أن يلاحظه كأنه مصرح به في نظم الكلام ويشير إليه باسم الاشارة المفرد ذاك أو ذلك وقد أحس صاحب الكشاف نفسه بالحاجة إلى التأويل في اسم الاشارة المفرد حين يشار به إلى اثنين ، فقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ فإن قلت كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر ؟قلت: جاز ذلك على تأويل « ما ذكر » و« ما تقدم » للاختصار في الكلام . فالزمخشري يرى أن اسم الاشارة المفرد إذا استعمل في مثنى

أو جمع فعلى ضرب من التأويل ، فإذا جعل ضمير « منه » العائد على « الصدقات » في الآية الكريمة جارياً مجرى اسم الاشارة فلأن اسم الاشارة اشتهر باستعماله للمثنى والمجموع على ذلك الضرب من التأويل أكثر مما اشتهر به الضمير . وكذلك يقول السعد التفتازاني : يكنّى باسم الاشارة الموضوع للواحد عن أشياء كثيرة باعتبار كونها في تأويل « ما ذكر » و« ما تقدم » . وقد يقع مثل هذا في الضمير إلا أنه في اسم الاشارة أكثر وأشهر ، ولهذا قال رؤبة : « أردت ذاك »[1] .

وإذ كان اسم الاشارة المفرد إنما يستعمل للمثنى أو المجموع على ضرب من التصرف فلنذهب بالضمير المفرد إلى ذلك الضرب من التصرف من غير وساطة اسم الاشارة فنقول : إن الضمير في قوله تعالى « منه » عائد إلى الصدقات باعتبار العنوان الذي أخذته من ذكرها في صدر الجملة وهو « ما ذكر » .

النوع التاسع :

قال طه : « النوع التاسع ـ من هذه الضمائر ضمير الشأن كقوله تعالى في سورة الجن : ﴿ قل أوحي إليَّ أنه استمع نفر من الجنٌ ﴾[2] فالهاء في أنه لا ترجع إلى شيء ، وهي لا تشير إلى شيء أيضاً » ثم قال : « إن ضمير الشأن هذا قد فقد معناه وأصبح أداة لفظية يراد بها تقوية الجملة في القصص أو في الوعد لا أكثر ولا أقل ، وهذا الضمير شائع على هذا النحو في قديم الأدب وحديثه لا يدل إلا على تقوية الجمل وصبغها بشيء من الجلال » .

ألقى طه في صدر محاضرته تلك القاعدة المصنوعة وقال : إنها لا تنطبق على القرآن لأن فيه ضمائر لا تعود إلى مذكور يتقدمها لفظاً ورتبة ، وفيه ضمائر تعود إلى مذكور ولكنها لا تطابقه . وقال أنه حصر هذه الضمائر في أنواع تسعة . فالذي يقرأ المحاضرة من أولها حتى يصل إلى قوله : النوع التاسع من هذه الضمائر ضمير الشأن ، يسبق إليه بطبيعة البحث أن المحاضر يرى أن ضمير الشأن من الضمائر الواردة في القرآن على خلاف القاعدة النحوية التي لا تقبل استثناء . والواقع أن تلك

---

(١) حاشية الشمني على المغني .

(٢) الجن ـ الآية ١ .

القاعدة المزعومة ليس لها في العربية أصل ولا فرع أما ما يقوله الجمهور حقاً وهو أنه يمتنع عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة ، فقد وصلوه بالاستثناء كما أسلفنا ، ومن جملة هذه المستثنيات ضمير الشأن . ويقولون إذا قصد المتكلم إلى أن يستعظم السامع حديثه قبل الأخذ فيه افتتحه بالضمير المسمًّى ضمير الشأن ، ونصّوا على التزام إفراده وتذكيره إلا إذا وليه اسم مؤنث أو فعل موصول بعلامة مؤنث كقوله تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾[1] .

ولم يكن هذا الضمير مختصاً بالقرآن ولا بالقصص والوعد والوعيد ، بل هو شائع في كلام البلغاء يبنون عليه أقوالهم حيث يقتضي الحال عرضها في لفظ مجمل قبل إلقائها على وجه من التفصيل .

يقول طه : إن هذا الضمير لا يرجع الى شيء ولا يشير إلى شيء ، وهو إن حاول بهذا أن يجعله كحروف الصلة فمدفوع بأنه في صورة ضمير الغائب المذكر أو المؤنث ، وشأن ما يجيء في هذه الصورة أن يكنى به عن شيء ، وليس فيما ذهب إليه علماء العربية من أنه كناية عن الخبر الذي يأتي بعده ، من بأس .

زعمه أن النحو محتاج إلى وضع جديد :

قال طه : « فلا بد إذن من وضع النحو وضعاً جديداً ، ولكننا نلاحظ أن النحو ليس سيىء الوضع فحسب ، ولكنه قاصر عن الاحاطة باللغة العربية نفسها ، قواعده غير متقنة ، منها ما يضيق فيسرف في الضيق ، ومنها ما يتسع فيسرف في السعة » .

قد أدلينا إليك بالحجج المعقولة والشواهد المأخوذة من أفواه العرب أن ضمائر الغيبة في القرآن لم تجيء إلا على ما يجري عليه البلغاء في مخاطباتهم ، ولم يجيء إلا على ما تجد له عند علماء العربية أصلاً ثابتاً ، وليس في هذه الأصول ما ينبو عنه العقل أو يتجافى عنه الذوق ، واستبان لك أن المحاضر وضع لمحاضرته أساساً خرباً فكان كل ما بناه عليه متداعياً إلى السقوط متخاذلاً ، فلا بد إذن من الاعتراف بأن علماء العربية خدموا اللغة : فاستنبطوا القواعد وسردوا الشواهد ، وذهبوا في

---

(١) الحج ـ الآية ٤٦ .

البحث والاستدلال مذاهب بعيدة عن هذا اللغو الذي أجهد فيه المحاضر نفسه واقتحم به لجج البحار ليملأ به آذان أولئك المستشرقين . وحقيق بمن يتصور أن النحاة قالوا بوجوب عود الضمير على متأخر لفظاً ورتبة أن يقول : إن النحو قاصر عن الإحاطة باللغة العربية ، وحقيق به أن يقول في قواعده : إنها غير متقنة ، ولكنهم لم يقولوا هذا الذي نثره المحاضر في مؤتمر المستشرقين . فالذين يُقبلون على الكتب العالية لعلماء العربية ككتاب التسهيل لابن مالك وشرح أبي اسحاق الشاطبي للخلاصة وشرح ابن يعيش للمفصل ويطالعونها بذكاء وتثبت وإنصاف لا ينصرفون عنها إلا بإكبار وإعجاب ولا أُنكر أن في كثير من الكتب النحوية شيئاً من الأقوال الواهية والمذاهب الضيقة فإن هذا شأن كل علم معقولا كان أو مسموعاً ، والذي أعنيه أن هذه الكتب تحتوي القواعد التي يجري عليها الفصحاء من العرب ، فمن الميسور للباحث بإخلاص أن يقف عليها ويُميز منها تلك الآراء الضعيفة الحرجة ، ويخرجها في أسلوب حكيم .

يوجد في لغة الألمان مُثُل لما جاء في لغة العرب من الاتيان بضمير لا يرجع إلى مذكور في نظم الجملة ، فتجدهم يقولون : هي تمطر ، أو تبرق ، أو ترعد ، أو هو برد ، ولا يزيدون على ضمير الغائب والفعل ، فمن مبلغهم نظرية هذا المحاضر لعلهم يغيرون نحوهم ويسمون هذا الضمير اسم اشارة حتى لا يقذفهم المحاضر كما قذف علماء الأزهر بأنهم قوم لا يقبلون آراء المجددين ؟!.

زعمه أن النحو لا يكفي لتفسير القرآن :

قال طه : « إن علم النحو العربي لا يكفي لتفسير القرآن الكريم وتخريجه من الوجهة النحوية الصرفة » قال هذا ثم اقترح « أن يوضع للقرآن نحو خاص كما هو الشأن في الأبيات البيانية في اللغات الأوربية على اختلافها » وقال : إن هذا النحو الخاص نافع قيّم من جهتين : الأولى أن يزيل ما يعلق بنفوس بعض المستشرقين من الشك حين يقرؤون القرآن مستنيرين بالنحو القديم ، فيرون بينه وبين هذا النحو ضروباً من الخلاف فيعجلون ويقضون بأن في القرآن خطأً نحوياً والواقع أن القرآن لم يخطىء ، وإنما قصَّر النحويون حين وضعوا قواعد النحو فلم

يستوعبوا القرآن والشعر ولم يستقصوهما .الثانية :إن هذا النحو الخاص سيكون أساساً صالحاً لنحو آخر جديد للغة العربية كلها يعتمد على بحث أدق وأشد استقصاء من بحث المتقدمين » .

يقول المحاضر : إن النحو لا يكفي لتفسير القرآن الكريم ، ولهذا القول نصيب من الصحة لو صدق عليهم ظن المحاضر في تلك القاعدة التي عرفتم ما هي وكيف حملها إلى مؤتمر المستشرقين على غير أمانة ، فإن كان يقصد إلى شيء آخر غير ضمائر الغيبة فليأتنا به ويرينا كيف تقصر القواعد النحوية عن تأويله ، أما اقتراحه بأن يوضع للقرآن نحو خاص فرأي لا يخطر على بال أحد إلا أن تكون له حاجة يحاول الوصول إليها على هذه الوسيلة . القرآن نزل بلسان عربي مبين ، والقواعد النحوية قائمة على الاستشهاد به وبما يصدر عن البلغاء من منظوم ومنثور ، ولا نجد لعلماء العربية قاعدة قرروها شاملة من غير استثناء وفي القرآن ما ورد على خلافها ، وعلى فرض أن نجد في القرآن تركيباً لم نستطع ارجاعه إلى شيء من قواعدهم ، فإننا نحكم بأن ذلك الضرب من الاستعمال مطابق لاستعمال العرب وقد غفل عنه واضعو القواعد ولا يسوغ لنا في حال أن نذهب إلى أن هذا الاستعمال من خصائص القرآن ونعمل على أن نضع له نحواً خاصاً . ذلك ما لا يرضى عنه القائمون على أصول اللغة العربية حتى يحملوا في صدورهم قلباً كقلب هذا المحاضر ، ويضعوا نصب أعينهم الغاية التي وضعها نصب عينيه .

يزعم طه أن هذا النحو الخاص يزيل ما يعلق بنفوس بعض المستشرقين من الشك حين يرون ما بين القرآن وبين النحو ضروباً من الاختلاف ، ونحن نعلم أن المستشرقين الذين بلغوا أن يقرؤوا القرآن ليستنيروا بالنحو القديم هم من التمهل في الحكم وتقصي البحث من كتب متعددة لا يعلق بنفوسهم شك ، ولا يرون أن بين القرآن والنحو القديم ضروباً من الاختلاف . أما من يتصور القواعد مقلوبة رأسها على عقبها فلا حق له في أن يوضع له نحو غير الذي بناه علماء العربية فأحكموا بناءه .

يزعم المحاضر أن هذا النحو سيكون أساساً صالحاً لنحو آخر يعتمد على بحث أدق من بحث المتقدمين ، ولكن المثال الذي قدمه في هذه المحاضرة لا يصلح

شاهداً على أن في إمكان من هم إلى العقلية الغربية أقرب منهم إلى العقلية الشرقية أن يضعوا للغة الفصحى نحواً يداني المتقدمين فضلاً عن ان يكون أدق وأشد استقصاء منه ، ولا يفوت المحاضر أن طائفة من الغائبين عن علوم اللغة ، قد ضربوا أيمانهم على شمائلهم استحساناً منهم لما يقول فإن الذين يسارعون إلى تقليد كل من ينعق باسم الجديد وإن كان مبطلاً غير قليل [1] .

---

(١) لقد رأينا في أول هذا المقال كيف حاول السعي لعدم نشر هذا المقال باللغة العربية ، ولا شك أن القارىء أدرك سر ذلك بعد اطلاعه على هذا المقال ، وهو خشية الافتضاح من قبل علماء اللغة والأدب الفطاحل ، ولكن الله تعالى أبى عليه إلا الإفتضاح على يد العلامة محمد الخضر حسين جزاه الله خيراً وأجزل ثوابه .

الدكتور طه حسين وما يقرّره(1)

بقلم: الأستاذ عبّاس فضلي

القاضي بالمحاكم الأهلية

تفضل الأستاذ الدكتور طه حسين بإلقاء محاضرة عن تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي و انتهى إلى نتيجتين :

١ - أن لا تأثير للوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي والجاهلي منه على الأخص .

٢ - أن ما وجد من الشعر مشتملاً على مبادىء للوثنية أو اليهودية أو النصرانية إنما هو مدسوس على من نُسب إليهم ، وأنه لم يكن موجوداً في عصرهم .

وأرجَع هاتين النتيجتين إلى ما يأتي :

١ - إن الحكام المسلمين منعوا تداول كل شعر اشتمل على مبادىء هذه الديانات مما يخالف سنن الإسلام ومبادئه ومَحْوَ جميعه .

٢ - إن أهل الملل بعد سكون حركة الفتوحات واستتباب السلم وتيقظ الحركة الفكرية في ميدان الأدب والعلم قد دفعهم تعصُّبهم لشعراء ملتهم السابقين إلى التقول عليهم بما لم يقولوه ونسبة أشعار إليهم لم تكن من نسج بيانهم ولا هي من منتجات عقولهم .

---

(١) نقلاً عن كتاب : « تحت راية القرآن » تأليف مصطفى صادق الرافعي وقد علق عليه بقوله : « لقد نشرنا هذا المقال بحروفه لأنه كان سبباً في أن الدكتور طه حسين أسقط من كتابه ما كان قرره في الجامعة مما أشار إليه صاحب المقال حتى لتستطيع أن تضع يدك على مكان التمزيق من تلك المرقعة . . . ولم يردّ طه على هذا المقال ولكن ردت الطاء من طه . . . فكتب لأحد تلاميذه أو كتب أحد تلاميذه ، وهو وتلميذه كما قيل في حمار الأخطل : هو وذيل حماره سواء ! » .

وإننا نستميح الأستاذ الفاضل ونتقدم إليه بحق حرمة حرية البحث أن يتفضل علينا بالإجابة على ما تلجلج في صدورنا من أثر ما قرره حضرته ويفيدنا بما وسعه علمه الغزير عن المسائل الآتية :

١ ـ قرر حضرته أن لا أثر للوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي لأن العرب بعد الإسلام محوا جميع الأشعار التي تشتمل على مبادىء هذه الديانات أو على مبادىء تختلف مع الدين الإسلامي وتناقض أصوله : وهذه تهمة لا تغرب عن فطنته أنها على جانب من الخطورة لا يصح السكوت عليها على أنها من مقررات العلم المسلم بها ، لأن الأبحاث العلمية ليست أساسها المشاعر وقيام نزعات وميول خاصة عند من يقررها ، وإنما أساسها دائما اليقين الذي يطمئن إليه الباحث في بحثه ويقتنع به كل من يدلي إليه بهذا البحث .

وإذا كان الأمر كذلك فليتفضل علينا الأستاذ وليقل لنا :

مَن مِن ملوك المسلمين وحكامهم هو الذي أمر بوأد الشعر الوثني واليهودي والنصراني ومحوه ؟

ومَن مِن أعوان هؤلاء الحكام الذي تولى ذلك ؟

وكيف كانت طريقة المحو ؟

وهل كُتب لها النجاح في كل بلاد الإسلام ؟

وهل لم تجد لها في البلاد الأخرى ملجأ تلجأ إليه ؟

وهنا نستلفت حضرته إلى أن الشعر كان يتناقل بالرواية وتعيه صدور الحفاظ ، وأن هؤلاء الحفاظ كانوا على ما وصل إليه علمنا في أكثرية ممن يعرفون القراءة والكتابة ، وأنه إذا كان لحاكم أياً كان أن يمحو ما حوته بطون الكتب فكيف السبيل له أن يذهب بما وعته صدور الحفاظ من أهل هاته الملل وأن يعقل ألسنتهم عن أن ينقلوا إلى أهل ملتهم من بنيهم ومُعاشريهم ومخالطيهم وأصدقائهم وإلى غيرهم ممن لهم ضِلع معهم من صداقة أو صلة علمية ؟

وهل بعد هذا يمكننا أن نسلم بأنه لم يتسرب إلينا من شعر هاته الملل شيء

أصلا ؟ وهل بعد هذا يمكننا أن نسلم في راحة من الضمير أن ما نُسب إلى شعراء هاته الملل من الشعر المشتمل على مبادىء دياناتهم واعتقاداتهم ليس هو من شعرهم وأنه ملفق كله ولا يشتمل على أي مأثور من أقوالهم ؟

وإذا تجاوزنا وقلنا باحتمال الشك فيما نُقل إلينا من الأشعار المنسوبة إلى هؤلاء القوم ، فهل لا يحسن بالأستاذ أن يُبين لنا مميزات الشعر الجاهلي والأموي والعباسي بحيث يمكن التفريق بين كل منهم في كل فن من فنون الشعر ؟

وهل له أن يبين لنا أن هاته الفروق هي من الأصول الثابتة التي لم يخرج عليها أحد من أهل تلك العصور ؟

وهل لم يكن من بينهم - على ما نعهده في رجال الأدب من معاصرينا - من يميل إلى الغريب والمهجور ويتعمد التعقيد في العبارة أو يميل إلى الإبتذال ، وأنه لم يكن من بينهم المتعصب إلى القديم والثائر عليهم المتعشق لكل جديد ؟

وهل يحسن بالأستاذ أن يبين لنا ما طباع كل شاعر ممن نسب إليهم هذا الشعر ، كالأعشى وزهير وعبيد بن الأبرص وغيرهم من أصحاب المعلقات وشعراء الجاهلية ؟

وهل له أن يتنبأ لنا عما قام بنفسه وما كان يتملكه من الإحساس طول حياته ، في غضبه وحلمه ، وزهده وتفاخره ، وسرائه وضرائه ، وما تكيفت به نفسيته في حله وترحاله ، وصحته ومرضه ، وجده ومجونه ، وعبثه ولهوه ، وفرحه وحزنه ، وعبادته وعمله ، وشبابه وهرمه ؟

وأن يبين لنا وجه استحالة أن يصدر منه ما نُسب إليه من الشعر ؟ أظن - وليعذرني الأستاذ في ذلك - أن الوصول إلى شيء من هذا الذي بيّناه ليس هو بالشيء الهين إن لم يكن من المستحيل ، وبعبارة أخرى أنه يستحيل الجزم بحال من الأحوال بأنه لم يصدر من واحد من هؤلاء أي شعر مما هو منسوب إليه الآن .

وإذا كان الأمر كذلك كان من المستحيل أن يقرر بطريقة علمية وعلى وجه الجزم واليقين بعدم تسرب شعر أهل هاته الديانات إلينا ، وأن الموجود منه بين أيدينا متقوّل على أصحابه .

وهناك دليل آخر نسوقه إلى حضرته ، وهو أن ديناً يحث على نشر العلم ويزهو نبيُّه بالحض على طلبه يستحيل عقلاً أن يعمل على دثر آثار شعراء هاته الديانات لمجرد مخالفة مبادئهم لمبادئه ؛ فقد جاء في الكتاب العزيز ﴿ لكم دينكم ولي دينِ ﴾ كما دلت الآثار على أن المسلمين كانوا على فهم تام لهذا المبدأ إذ بينما يحرم دينهم الخمر ويلعن الرسول شاربها وحاملها وساقيها تراهم قد وسِعَتْ صدورهم ما ضمنه الشعراء عنها في أشعارهم ، بل زاد بهم التسامح حتى أن زعيم المتصوفة والكثير منهم أتوا بخمريات[1] في أشعارهم في حين أن بين هؤلاء من لا مطعن عليه في دينه ولا مطعن في أخذه بمبدأ تحليل[2] الخمر !

والأبلغ من ذلك تلك القصائد الكثيرة التي تضمنتها مجموعاتُ الأدب الكبرى والطبقات الوافية من كتبه المعتبرة ، كالأغاني والأمالي والعقد الفريد وغيرها مما هو صريح في مسائل الملامسة والغزل وما ورد في المساحقة ومسائل الإختلاط الشهواني ، والتعبير عن وسائل هذا بألفاظ هي غاية في الصراحة[3] ، وبالأخص في خروجها على آداب الدين ومبادئه وهي مع ذلك لم يمتنع تناولها ولا أمكن توقيف تيار تسرُّبها من قائليها إلينا مع طول الفترة التي تفصل بيننا وبينهم .

وسواء قلنا بأن هذه الأشعار وصلت إلينا بسبب تسامح المسلمين أو بسبب إستحالة عملية الوأد والمحو ، فالنتيجة المنطقية لذلك واحدة ، وهي أنه لا يمكن التسليم بحال من الأحوال بما أراد حضرته أن يصل إليه وهو أن جميع الشعر المنسوب إلى شعراء الملل غير الإسلامية في الجاهلية على الأخص هو شعر مدخول عليهم مدسوس بحكم التعصب ونعرة الإنتصار لأهل الملة .

هذا وإن مجرد القول بعدم وجود شعر لأهل الملل غير الإسلامية من شعراء الجاهلية وعصور الخلفاء الراشدين ودولتي بني أمية وبني العباس هو قول يناقضه الواقع . ويكفينا ما حكاه الأستاذ الفاضل في محاضرته بأن هناك مجموعة كبيرة إسمها

---

(١) غريب قول هذا الأستاذ المسيحي ، فإن الذين وسعت صدورهم تضمين الشعراء للخمر في أشعارهم ، والتحدث عن الخمريات هم مفلّسون من الدّين وإن ادّعوه بعدما حرّمها الإسلام . . .

(٢) و(٣) لا أدري ما هذا الخرق في زعم هذا الكاتب أنّه لا مطعن في دين من يقول بتحليل الخمر، مما هو كفر صريح

« شعراء النصرانية » وأن هناك طائفة أخرى منسوبة إلى شعراء أهل الملل والديانات الأخرى ، إذ الأصل في الناس إذا ما رووا أن يحكوا الصدق ، ولا يصح نسبة الكذب إليهم لغير علة ظاهرة وكل رواية لا تناقض العقل ولا تتنافى مع المشهور عن أخلاق من نُسبت إليه والمتعارف من عاداته وطباعه ووسطه الذي نشأ فيه وبيئته التي تربى في أحضانها ، لا يمكن ولا يصح أن يسلّم بالشك فيها ؛ كما أنه لا يتفق مع كرامة العلم واعتلاء عرش الأستاذية أن يتبرع الأستاذ بسرد التهم جزافا إلى طوائف وجماعات بغير حجة قائمة عليهم تبعث اليقين إلى كل من عرضت عليه من أهل الحصافة ، ومن باب أولى ان الأمانة تقضي بالتريث في الحكم بالإدانة في أية تهمة ، لأن من ألزم اللزوميات لمبادىء العلم رجوعها إلى قضايا يقينية وإلا فقدت قيمتها ، لأن ما يرتكن على قضايا تخمينية أو تصورية إنما يرتكن إلى أساس لا هو بالمأمون ولا هو محل للثقة والاعتبار .

وإذا كانت هذه هي المبادىء الأولية المسلّم بها في كل بحث علمي والواجب اتباعها عند الحكم على أية مسألة من المسائل ، فإن اتهام العرب من المسلمين أو حكام دولهم بأنهم محوا الشعر المشتمل على مبادىء لأهل الوثنية واليهودية والنصرانية تختلف عن مبادىء الدين الإسلامي ، هو قول لا يرتكن إلى شيء من الحقيقة اليقينية ، وكان أيضاً القول بتلفيق كل الموجود من شعر هؤلاء القوم مما هو منسوب إلى العصر الجاهلي أو الأموي أو العباسي هو الآخر قول لم يقم الدليل على صحته ، فضلا عن مخالفته لمقتضى المعقول الذي يجزم باستحالة منع تسرب شعر هؤلاء القوم .

وأظنني وقد وصلت إلى عكس ما ذهب إليه الأستاذ ولم يطاوعني لا ذمتي ولا ضميري على مشايعته في حكمه القاسي الذي حكمه ؛ قد بينت لحضرته مثار الشك في كل ما قرره ؟

طه حسين وصراعه مع أهل جيله

بقلم: الأستاذ أنور الجندي

- ١ -

الواقع أن أيسر سبيل لفهم الدكتور طه حسين: (نفسيته وعقليته وشخصيته) هي دراسة تعامله مع أهل عصره: مع أساتذته وأصدقائه وزملائه في الجامعة وفي الصحافة ومع تلاميذه، ولا ريب أن هذا التعامل يكشف عن الهدف الكامن في أعماق الرجل الذي كان يعطي هذه العلاقات قوتها أو ضعفها، وامتدادها أو انقطاعها.

ولقد كان معروفاً عن الدكتور طه أنه كان رقيقاً وأنيساً بأصدقائه وعنيفاً قاسياً مع من يختلفون معه، فهو نفّاع ضرّار، يعرف أن أقرب طريق إلى تحقيق هدفه هو رعاية من يحقق بهم رغباته وأهواءه ومن أبرز صور تعامل الدكتور طه ذلك التحول المفاجىء من النقيض الى النقيض ولكن ذلك ليس غريبا إذا فسرناه في إطار الغاية التي يهدف اليها.

ولا ريب أن محاولة فهم شخصية طه حسين الهامة والتعرف إلى أعماق طبيعته الخاصة، يمكن الوصول اليه ومعرفته عن طريق الذين اتصلوا به اتصالاً وثيقاً وعرفوه في أوقات الأزمات والمحن وأوقات الصفوة والطمأنينة، ذلك أن كتابات طه حسين تحاول ان تصوره دائماً بصورة الرجل الذي لا يُقهر، غير أن هناك من العبارات التي تجيء من وراء الوعي تكشف ذلك الساتر المتعالي وتظهر الحقيقة. فهو

الحريص طوال عمر العقاد ألا يقول عنه كلمة سوء بالرغم مما أخذه العقاد به في أكثر من مقال مما لو قال نصفه أو ربعه أي كاتب آخر لثار طه حسين ولم يستطع أن يهجو العقاد إلا بعد موته حين قال وبعد صدور كتاب عبقرية عمر بأكثر من ثلاثين عاماً أنا لا أفهمه . ولم يكن أحد أقرب إلى طه حسين ابان أزمة الشعر الجاهلي من تلميذه البار (وسكرتيره على نحو ما في فترة ما) زكي مبارك ومع ذلك فقد تحول عنه وتنكر له . وموقفه من تلميذه الدكتور نجيب البهبيتي كان كذلك .

أما موقفه من الدكتور محمد حسين هيكل فقد كان غريباً وعجيباً فبينما هو صداقة عميقة وود إذا هو خصومة عنيفة وجحود ، ثم صداقة هادئة فيها شيء أشبه بالتحامي والصمت وموقفه من إبراهيم عبد القادر المازني جدّ غريب وفيه جرأة المازني الذي لم يتوقف عن أن يجابهه بكلمة الحق في كل موقف وفيه حقد طه حسين وإعراضه خوفاً وتوقياً من الذين يعرفون غاياته وأهدافه .

(٢)

إن البؤرة الأساسية هي جريدة السياسة عام ١٩٢٢ وفيها اجتمع الدكتور هيكل رئيس التحرير وقائد الفكر الحر والدعوة إلى التغريب ومعه طه حسين ، والمازني وعبد اللّه عنان ، ومحمود عزمي ، وبدأت الحملة على الإسلام .

وفي الجامعة (في كلية الآداب) كان مع طه حسين ، أحمد أمين ، وأمين الخولي ، ومنصور فهمي ، ومصطفى عبد الرازق . .

وفي عالم الأدب والصحافة وراء ذلك عباس محمود العقاد ، وزكي مبارك ، ومصطفى صادق الرافعي ، ومحمد لطفي جمعة ، ومحمد الهياوي ، ومحمد أحمد الغمراوي وزكي أبو شادي وإسماعيل مظهر وسلامة موسى ، وإبراهيم المصري ، وداود بركات ، ومحمد غلاب ـ وفي دار العلوم محمد هاشم عطية .

وفي الأزهر : حسن الشقرا ، وعبد ربه مفتاح ، وعبد المتعال الصعيدي . هذا هو المسرح الذي تحرك فيه الدكتور طه حسين مع أهل جيله .

والذي نحاول أن نُقدم في هذا الفصل صورة مقربة له .

الدكتور محمد حسين هيكل هو الصديق الأكبر : ما من كتاب يصدر حتى يتبادلان حوله عبارات التقدير (من طه إلى هيكل ومن هيكل إلى طه) .

ظلت الصلة قائمة ومستمرة حتى بدا للدكتور هيكل ان يتخذ موقفاً من الغزو الثقافي والتغريب بعد أن ظهرت بوادره ، واشتدت حملته وعصفت بالقاهرة عاصفة التبشير المسيحي الذي تقوده الإرساليات ، هنالك وقع الخلاف وصدر كتاب (وجهة الإسلام) لخمسة من المستشرقين فانتقده هيكل وكشف عن موقف الغرب والإستشراق ، وقال هيكل : إن الغرب قد خدعنا عن نفسه حتى تكشف لنا بعد وقت طويل أنه إنما يهدف الى تدمير كل مقومات مجتمعنا .

هنالك بدأ الخلاف والتحول ، ذلك أن طه حسين أحسّ أن صديقه هيكل رأس مدرسة التجديد قد تخلى عن أمانته للفكر الغربي ، هنالك أخذ يناقشه ويغمزه ، (راجع المعركة كلها في كتابنا : المعارك الأدبية : معركة فقدان الثقة) أهم ما في الأمر قول طه حسين : لعل اختلافنا أن يكون ناشئاً من شيئين أحدهما : هذا الإهمال الذي أخذ به هيكل والذي يدفعه إلى المبالغة ويضطره إلى التقصير أحياناً . والثاني : أن هيكلاً رجل أديب ولكن اشتغاله المتصل بالسياسة قد أثّر في تصوره للأشياء وحكمه عليها بعض الشيء (فهو يسرف حين يسيء الظن بما يكتبه الأوروبيون عنا حين يمسون حياتنا الأدبية فما أظن أن (جب) وأمثاله يتخذون السياسة وأهواءها مقياساً لدراساتهم الأدبية) .

وكتب هيكل يرد على صديقه : وقد لاحظت يا أخي أن اشتغالي المتصل بالسياسة قد أثّر في تصوري للأشياء وفي حكمي عليها بعض الشيء وذكرت لذلك مثلين .أحدهما : أني أسرفت حين أسأت الظن بما يكتبه الأوروبيون عن حياتنا الأدبية بينما تظن أنت أن جب وأمثاله لا يأخذون السياسة وأهواءها مقياساً لدراساتهم الأدبية ويقول : « إن كان اشتغالي بالسياسة قد أثر في تصوري للأشياء وفي حكمي عليها فإنما كان أثره أن زادني تقليباً للأشياء وامتحاناً لها وتعمقاً في بحث ما تنطوي عليه وما ترمي إليه وإذا كانت الأهواء السياسية ليست هي التي توجه دراساتهم فدراساتهم يقصد بها في كثير من الأحيان إلى خدمة تلك السياسة وما أحسبك تخالفني يا صديقي في أن كتاب وجهة الإسلام الذي ألفه خمسة من كبار

المستشرقين المشتغلين بالأدب الحديث في بلاد الشرق المتخلفة إنما هو كتاب سياسي مداه بحث ما وصلت إليه أوروبا مما يسميه الأستاذ جب : « تغريب الشرق » وما يرجى لهذا التغريب في المستقبل من نجاح وأنا لا أُعيب هؤلاء العلماء بهذا بل أحسدهم عليه أعظم الحسد فهم به يخدمون أوطانهم ويخدمون العلم ويخدمون الحقيقة من ناحية سياسة بلادهم ومن ناحية الحضارة الغربية التي يريدون أن تظل المدنية الحاكمة في العالم . هذه الخدمة الجليلة التي يقومون بها لأوطانهم وللعلم ولحضارتهم حقيقة علمية يسر لي اشتغالي بالسياسة الوقوف عليها ، ولو أنك انقطعت للسياسة يا صديقي انقطاعي لها وأفنيت من تفكيرك ما أفنيت . إذن لوافقتني على هذه الحقيقة ولم تتهمني بالإسراف إذ علمتها » .

ولكن هل كان طه حسين لا يعرف هذه الحقيقة ، بالعكس ، إنه كان أعمق فهماً لها من هيكل وكان هو الحارس الديدبان للغرب إزاء كل قلم يتحدث بكلمة ما من شأنها أن تهز هذه الثقة في نفوس المصريين والعرب والمسلمين . وصمت طه حسين ولم يجب صديقه ولكن الدكتور هيكل وقد كُشف له وجه الحق لم يصمت وإنما أعلن رأيه في صراحة وعلى نحو لم يُعرف عن كثير ممن تحولوا عن معسكر التغريب فقد قال :

لقد خُيل إليَّ زمنا ـ كما لا يزال يخيل إلى أصحابي ـ أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى هذا النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أننا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله لكنني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية وأرى ما في الغرب منها غير صالح لأن أنقله . فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب وثقافتنا الروحية غير ثقافته . . الخ .

وكان هذا دليلاً على افتراق الطرق غير أن الدكتور هيكل لم يتوقف عن هذا بل انه سارع في نفس اللحظات التي اصدر طه فيها كتابه (هامش السيرة) وهو أول كتاب صدر له بعد الخلاف فأعلن رأيه واضحاً صريحاً .

قال هيكل : استبيح طه العُذر أن خالفته في اتخاذ النبي وعصره مادة لأدب الأسطورة وأشار إلى ما اتصل بسيرة النبي ساعة مولده وما روي عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبي ثم قال : لهذا وما إليه يجب في رأيي ألا تتخذ حياة

النبي مادة لأول الأسطورة وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب وما اندثر أو ما هو في حكم المندثر ، ومالا يترك صدقه أو كذبه في حياة النفوس والعقائد أثراً ما ، والنبي وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هي فلذة من هذه الحياة ، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً . أعلم أن هذه الاسرائيليات قد أريد بها إقامة « مثيولوجية إسلامية » لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة الى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه . وقد كان هذا غاية الأساطير التي وضعت عن الأديان الأخرى ، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين في جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام .

ثم قال هيكل : من أجل ذلك أود أن يفصل طه فيما قد يكتب من بعد من فصول تجري مجرى « على هامش السيرة » بين ما يتصل بالعقائد وما لا يتصل بها .

ولا ريب أن كلام هيكل هذا هو إتّهام صريح لطه في اتجاهه وتحميل له لمسؤولية من أخطر المسؤوليات وهو إعادة إضافة الأساطير التي حرر المفكرون المسلمون سيرة الرسول منها طوال العصور ، إعادتها إليها لخلق جو معين يؤ دي إلى إفساد العقول في سواد الشعب وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم في شأن الإسلام ونبيه ، وهذا الذي كشفه هيكل ما زال كثير يجهلونه وما زال المتابعون لحياة طه حسين وتحولاته يرون أن هذا أخطر تحول له وإن هذا التحول جاء بعد أن انضم إلى حزب الوفد وأمن الهجوم عليه وخدع الناس بأسلوبه وطارت الدعوات تقول : إن طه عاد إلى الإسلام وإنه يكتب حياة الرسول ولم يكن هذا صحيحاً على الاطلاق ، ولكنه كان تحولا خطيراً وفق أسلوب جديد لضرب الإسلام في أعز فلذات حياته وهي سيرة الرسول الأمين .

وهكذا كان خلاف طه حسين مع رأس المدرسة عندما اهتدى إلى الحق ووقعت الخصومة .

ولقد دمغه هيكل حين قال :لقد تحوّل طه الرجل الذي لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على إحيائها وهذا يثير كثيراً من التساؤل ، إذ أن طه وقد فشل في أن يثبت أغراضه عن طريق العقل والبحث

العلمي لجأ إلى الأساطير يُنمقها ويقدمها للشعب أظهاراً لما فيها من أوهام في الظاهر تفتن الناس .

(٣)

أما مع العقاد فإن الأمر يختلف ، كان العقاد كاتب الوفد الأول فكتب طه حسين : أنا أمقت المذهب السياسي للأستاذ العقاد مقتاً شديداً وأزدريه ازدراء لا حدّ له ، ولا أقرأ للأستاذ العقاد فصلاً مما ينشر في البلاغ ولولا أنها جُمعت في كتاب وانفصلت عن السُّخف السياسي الذي تنشره هذه الصحيفة لما قرأتها ولا نظرت فيها ذلك أن الاستاذ من أصحاب الألوان السياسية الظاهرة ، وأي لون سياسي وأي ظهور . هو سعدي مغرق في السعدية وهو كاتب من كتاب البلاغ الخ . ولقدتحول طه حسين بعد قليل إلى المذهب السياسي وإذا به يدخل حزب الوفد فيتغير إزاء العقاد تغيراً كبيراً .

يقول : « لقد هاجمت العقاد في غير موطِن من مواطن الخصومة : خاصمته في السياسة وخاصمته في الأدب ، أيضاً ولكن هذه الخصومة لم تنقص من مقدار العقاد في نفسي .

ثم يقول في خطاب في حفل تكريم العقاد :

تستطيعون أيها السادة أن تحبوا العقاد ما وسعكم الحب فلن توفوه حقه ، ذلك لأن العقاد هو الصورة الناطقة واللسان الخالد والمرآة الصافية المجْلوة التي حفظت صورة مصر الناهضة وأبقتها ذُخراً للأجيال المقبلة ثم يقول : ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه » .

وهكذا أهدى إمارة الشعر لزميله في حزب الوفد ، ثم عاد فأعلن أنه لم يبايع العقاد بإمارة الشعر .

ومن العجيب أن طه حسين يعود بعد وفاة العقاد فيعلن أنه لم يفهم كتابه عن عمر بن الخطاب وكان العقاد قد كتب فصلاً عن طه حسين قال عنه أنه لا يحسن إلا القصة وانه لا يحسن مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية وليس نصيبه في هذه المقاييس بأوفى نصيب وقد احتملها طه اذاك ولم يجُب .

وانبرى زكي مبارك يقول للعقاد :

هل يجوز لك أن تتهم الرجل في مفهومه للشعر وهو الذي أسبغ عليك إمارة الشعر !

(٤)

ولعل أضخم معاركه (وقد دارت من جانب واحد) كانت مع الدكتور زكي مبارك .

وأبرز مراحل هذه المعركة ما أطلقنا عليه في كتابنا (المعارك الأدبية) : معركة لقمة العيش حين عيّن زكي مبارك في الجامعة إبان وجود طه حسين خارجها فلما عاد وانتهى عقده رفض تجديده وكان زكي مبارك قد خالف طه حسين في أشياء كثيرة عدها طه حسين خروجاً منه على عقد الولاء والتبعية للفكر الغربي عامة والفرنسي خاصة فانتقم منه هذا الانتقام .

وكان الدكتور منصور فهمي قد وجّه نظر زكي مبارك إلى ضرورة اتخاذ أسلوب أكثر ملائمة مع طه حسين حتى يجدد عقده الذي يقترب من نهايته . يقول زكي مبارك : قلت لمنصور فهمي : أتظن أن الدكتور طه ينتهز الفرصة ويتشفى مني إنه أعقل من أن يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح فابتسم ابتسامة مرة وقال : أنت يا بُني تسرف في حسن الظن بالناس .

وتدخّل في هذا الموقف الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني . إلى الدكتور طه حسين بقلم إبراهيم عبد القادر المازني - (البلاغ - ٣١/ ١٢/ ١٩٣٢) .

إني أرى الدكتور طه قد خرج من زمرتنا معشر الأدباء والأحرار ودخل في زمرة الجاه والسطوة والسلطان ولست أعني أنه اكتسب لقباً جديداً أو صار بك أو باشا ولكني أعني أنه محسود في هذه الزمرة ، ولكني رأيت المناصب والألقاب تتقاضى ثمنها من الرجولة والمروءة والكرامة . ومن كرهي لهذه الطبقة التي اتصلت بها يا صاحبي وانقطعت عما عداها ألفيتني أشعر أن ما بيني وبينك من قرابة الأدب ونسبه يكاد ينفصم على الأيام . أيعزُ عليَّ يا صاحبي أن أقول إني أراهم عدوك ببعض ما فيهم فما كدت ترجع إلى الجامعة حتى صببت نقمتك على الدكتور زكي مبارك تلميذك القديم الذي كان حقك أن تفرح به ولكنك قطعت عيشه وحرمته وظيفته

الصغيرة في الجامعة لأنك صرت ذا سلطان وأصبح بقاؤه وطرده بين يديك وبوسعك أن تعاقبه على تجرئه عليك ، ولقد كنت أصدق أنك تفعل كل شيء إلا هذا فإني عهدتك رجلاً عظيم المروءة واسع الصدر كريماً فلما كان منك ما كان مع زكي مبارك صعقت ولا زلت من هذا كالمضروب على أم رأسه وأُقسم لقد فجعتني ودفعتني إلى الكفر بالخير في هذه الدنيا وأقسم مرة أخرى أنك لمسؤول لا عما أصاب زكي مبارك أو يصيبه بل عما أصابني أنا في نفسي من التحول وما يضطرم فيها من الثورة إذن أنت من أصحاب السلطان يا صاحبي وممن يملكون أن يقطعوا أرزاق العباد أو يصلوها فلست اليوم بالأديب الذي عرفته وأحببته وإنما أنت رجل يُدني ويقصي ويرزق ويحرم ويُطعم العيال أو يجيعهم ، ويضرب اليد التي ترتفع باللقمة إلى الفم فتطيرها وتوقعها على التراب لتلتقطها الكلاب والقطط ويأباها على أخيه الإنسان وزميله الأديب وإني لأحدث نفسي أحياناً بأني لو كنت أقول الشعر في هذه الأيام لرثيت طه فإنه يخيل إلي إنه قد مات طه الذي عرفته وأحببته وأكبرته وجاء غيره الذي أنكره .

ولقد فتح زكي مبارك ملف طه حسين مرة واحدة وبدأ بذاك الهجوم العاصف :

(١) لقد ظن طه حسين أنه انتزع اللقمة من يد أطفالي . لو جاع أطفالي لشويت طه حسين وأطعمتهم من لحمه ولكن لن يجوعوا ما دامت أرزاقهم بيد اللّه .

(٢) إني أعرف ما تكره مني ، أنت تكره مني الكبرياء وكيف أتواضع وقد أعانني اللّه على بناء نفسي ، وكيف وقد أقمت الدليل على أن الشاب المصري خليق بعظمة الاعتماد على النفس . وهل رأيت رجلاً قبلي أتمّ دراسته في أوربا وهو مثقل بتكاليف الأهل والأبناء .

(٣) إن من العجيب في مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغاني وفصول من سيرة ابن هشام . إن الأستاذية في الأدب العربي عبء لا ينهض به إلا الأقلون وهي تفرض الاطلاع الشامل على خير ما أبدع العرب في خمسة عشر قرناً وهي تفرض البصر الثاقب بأصول الأساليب وهي تفرض العناء المطلق في التعرف إلى فحول الكُتّاب والخطباء والشعراء وطه حسين ليس من كل أولئك في كثير أو قليل .

(٤) دلوني على رأي واحد ينكره طه حسين ، أنا لا أعرفه إلا رجلاً ينهب آراء المستشرقين ثم يدّعيها لنفسه . إن للدكتور طه مزية واحدة هو القدرة على تلخيص الحكايات والأقاصيص .

لقد ادعى طه حسين أن القرآن لا يصلح سنداً في حقيقة تاريخية ومضى يقول :

للتوراة أن تحدثنا وللقرآن أن يحدثنا فلما كشف الناقدون عواره وبينوا انه نهب هذا الكلام الخاطىء من المبشرين وهدّدته الحكومة بالعزل أعلن في الصحف (أشهد أني أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) : طه حسين

فأين كانت شجاعة العلماء وأين كان التحقيق العلمي . إن أعظم أديب في لغة العرب رجل ينهب آراء المبشرين في القرآن ثم يذيعها باسم الابتكار والتحقيق العلمي .

(٥) كنت أصاوله على صفحات البلاغ وكان هو يدبر لي المكايد في الظلام حين عجز عن حرب البينات والبراهين ، لقد عرف طه حسين انه لن يستطيع ان يواجهني في ميدان النقد الأدبي لأن وسائله في ذلك ضعيفة جداً وقد مرّت عليه أعوام لم يقرأ فيها كتاباً كاملاً .

(٦) ابتدأت أناوش الدكتور طه حسين حين ثبت أنه كالطبل الأجوف وأنه لا يعرف من تاريخ الأدب العربي إلا قشوراً عديمة المحصول وكنت كلما هاجمته تخاذل وضعف وخشي عاقبة النضال . ثم اتفق أنني عُينت في الجامعة المصرية فبدا له أن يتشجع ويناوشني ظناً منه أني أخاف من المناوشات احتفاظاً بمنصبي في الجامعة ودفعاً لمغبات القتال فأمهلته قليلاً وتركته يصول في مناوشتي ويجول وكذلك أمليت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة يوم عُين نجيب الهلالي وزيراً للمعارف وكان يعرف الصلة التي بينه وبين نجيب الهلالي . ورأى فريق من زملائي أن أتسامح مراعاة للظروف فأقسمت لأقذين مشروع حياته ولأجعلنه مثلاً في الآخرين وكذلك كتبت المقال الذي يذكره القراء والذي أبكى طه حسين بالدمع الثخين : مقال (طه حسين بين البغي والعقوق) راجع كتابنا المعارك الأدبية : معركة لقمة العيش .

(٧) لقد ذهبت فأتمت دراستك في باريس وذهبتُ أنا فأتممت دراستي في باريس وذهبت أنت على نفقة الجامعة ومضيت أنا متوكلاً على اللّه فأنفقت ما أدخرت ، واتصلت بالمسيو كازانوفا ففرض عليك آراءه فرضاً ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون إلا نسخة من آراء ذلك الأستاذ واتصلت انا بالمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائي فرضاً ، واتصلت بيني وبينه الخصومة فآذاني إيذاء شديداً لقد كنت رئيساً لتحرير جريدة الأفكار وكانت تدافع عن مبادىء الحزب الوطني وكان يُشرف عليها عبد اللطيف الصوفاني فكنا نختلف ونختصم كل صباح لأني كنت آبى أن أكتب غير ما أراه من التعليقات السياسية ، وأنت اليوم رئيس تحرير جريدة وفدية (الوادي) فهل تدري ماذا تصنع ؟ تدخل إلى مكتبك فلا تكتب سطراً قبل أن تتصل تلفونياً بهذا أو ذاك لتتلقى الوحي ، ثم تكتب ما يُلقي عليك ، ثم مضيت فانتهبت آراء المستشرقين وتوغّلت فسرقت حجج المبشرين الخ .

وخرجت أنا من الجامعة فاشتغلت بالتدريس والصحافة الأدبية وجمعت من المال الحلال ما أتممت به دراستي في باريس وبعت عدداً من المؤلفات، وخرجت أنت من الجامعة فانزويت في بيتك وأخذت تبحث عن سيد وطالت حيرتك في تخير سيدك الجديد فكنت تراه تارة من هؤلاء وتارة من هؤلاء ، ورأيت أخيراً أن مائدة الوفد أشهى من غيرها وأمتع فذهبت وقدمت إليها نفسك وهددت الدكتور هيكل بكشف اسرار الأحرار الدستوريين .

(٨) كان يُعلن أن الأدب العربي يرجع إلى أصول فارسية ويونانية ثم عاد فغير رأيه وقال إن الأدب العربي كان قوة خطيرة بين الآداب القديمة وإنه طارد أدب الفرس واليونان والرومان .

ولعل القراء يذكرون أن الدكتور طه أخذ يُبدي ويعيد منذ سنين ليثبت أن العرب لم يكن لهم نثر فني وأنهم لم يجيدوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وان اول كاتب في اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسي الأصل قال الدكتور طه هذا الكلام ونشره في المقتطف وكنت أعرف أنه سرقه من المسيو مرسيه فكشفت هذه السرقة في ترفق وكان كلام مسيو مرسيه قد نُشر منذ زمان في مجلة مجهولة يندر ان يهتم بها المصريون وهي المجلة الأفريقية التي تصدر بالفرنسية في مدينة الجزائر ، ما اللذي

وقع بعد ذلك ، أخذ الدكتور طه يتراجع ويتقهقر ، انتهز فرصة ظهور كتاب ابن المعتز ثم كتب كلاماً نقض به ما بناه منذ سبع سنين (البلاغ - ١٩٣٥) .

وقد علمت أن هجوم طه حسين على زكي مبارك في محاولة القضاء عليه إنما هو في الحقيقة بمثابة عقوبة لزكي مبارك أنه خرج من زمرة خُدام الثقافة الفرنسية يوم رأى له رأياً في اللغة العربية والإسلام ؛ حتى قال طه حسين لرجال الجامعة كيف صيرتم زكي مبارك دكتوراً وهو رجل مشاغب .

نعم لا بد أن يكون الرجل مصقولاً ، ماضياً مع العُرف والاتجاه ! وإلا فلا مكان له في الجامعة .

(٥)

أما الدكتور علي العناني فقد أخرجه طه حسين من الجامعة لانه عارض طه حسين في رأيه وأخذ عليه القول بوجوب تخلي الأديب عن العاطفة الدينية والقومية وقال إنه رأي فاسد لأن الأدب إذا خلا من هاتين العاطفتين يفقد كل معانيه ومميزاته وتصبح الأمة التي يوجد فيها هذا النوع مقفرة من الأدب كل الإقفار (النهضة الفكرية ٩ مايو ١٩٣٢) .

وقال إن النهضة الفكرية في يد رجلين أحدهما ملفق في العالم طاغية في الافتراء ملحد في دين اللّه ، دسّاس من غير خجل ، هدّام من غير تحرج ، وفي غير بناء (يقصد طه حسين) والآخر خال من كل معرفة بإدارة الجامعة وبعيد عن كل تجربة في ذلك لأنه ما تثقف في جامعة ولا أُتيحت له فرصة مكنته من زيارة جامعة (يقصد لطفي السيد) .

ويقول : ما نعرفه من أنه كثيراً لا يعتمد في أبحاثه على النقل دون كبير تجرد ودون تحرّج في اقحام شيء من عنده فيما ينقله وهو يرمي بهذا عادة إلى جحود النقل وإنكاره وإظهار المنقول في مظهر البحث المبتكر الظريف .

(٦)

يقول الدكتور اسماعيل أدهم أحمد : الدكتور طه يُلبس أهواءه صورة البحث

العلمي . وهو يميل مع هواه فتميل على إظهار ذوقه وتتجلى شخصيته بأغراضها وأهوائها في نقداته وتستطيع منها أن تستكشف عواطف الدكتور وميوله وأهوائه وأغراضه .

ويقول فتحي غانم : إن طه يحتمي وراء لغته وهي بينَ بين ، وهي لغة ليست قديمة كل القدم وليست جديدة كل الجدة ، يلاحظ إنها لا تقطع في شيء أبداً بل هي مرنة للف والمداورة .

ويقول عبد الحميد جودة السّحار : إن طه حسين يشبه السقاء فهو يحمل أبطال قصصه على ظهره ويقف منهم كناظر المدرسة ولا يسمح لهم بالكلام إلا بإذنه .

ويقول محمود عبد المنعم مراد : إن طه حسين في مقدمة قصة (المعذبون في الأرض) يقول :

لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول لأنني لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعترف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لي القواعد والقوانين مهما تكن ولا أقبل من القارىء مهما ترتفع منزلته أن يدخل بيني وبين ما أحب أن أسوق من الحديث ، وإنما هو يخطر لي فأمليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأه فليقرأه ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه .

ثم يعلق قائلاً : إنه يضع نفسه فوق النقد ولا يحب أن يسمعه ولا يعترف به ولا يريد أن يقيم له وزناً ولماذا ! لأنه يريد أن يكون حراً فيما يكتب ويذيع على الناس وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبي ، ألم يكن ذلك على حساب غيره من الأدباء القدماء والمحدثين على السواء . يخيل إليّ أن الذي ألجأ طه إلى هذه الثورة الغاضبة على النقاد والقراء هو إحساسه في ذلك الموضع من كتابه انه يتعرض للنقد فأراد أن يقطع الطريق على هؤلاء النقاد الفضوليين،ولا أعرف في التاريخ كله كاتباً مهما تبلغ عبقريته يستطيع أن يقول للناقد : قف من أنت ولن يستطيع طه بهذا الكلام الذي ساقه أن يمنع قارئاً أو ناقداً من أن يبدي إعجابه بما كتب أو سخطه عليه (المصري - ٣٠ يناير ١٩٥٣) .

ويقول إبراهيم المصري : بمثل هذا الأسلوب الشبيه بنقيق الضفادع يحاول طه حسين أن يتزعم الحركة الأدبية في مصر ويبسط عليها نفوذه وسلطانه ويحمل منها علم التجديد والفكر العصري وليعلم الدكتور طه إنه إذا كان قد أثر في أبناء الجيل الماضي فليس في وسعه بالغاً ما بلغ حذقه أن يؤثر في أبناء الجيل الجديد . وليس عندنا من الوقت ما نضيعه في مطالعة ترهاته (البلاغ ٢١ يونية ١٩٣٤) .

وقال سيد قطب : إن طه خبيث على ما به من طيبة وأجاب طه حسين فقال: الكاتب الأديب يخطىء كل الخطأ ويتبرع بالإساءة إلي حين يظن أني خبيث على رغم ما أظهر من الطيبة فلست أدري أطيب أنا ام خبيث ولكن الذي أعرفه أني لا أحب الخُبث ولا اتخذه سبيلاً .

ويعلق فتحي غانم في قول طه حسين : أنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى في الأدب لأني لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو .

وقال فتحي غانم : هذا هو أدب طه حسين ، فوضى لا شعور .

وقال الأستاذ عبد الله كنون : ان اسم كتاب على هامش السيرة منقول من الفريد اورشلم الأستاذ بجامعة اكسفورد صاحب كتاب على هامش سيرة المسيح .

(٧)

اما الاستاذ إبراهيم عبد القادر المازني فله مع طه حسين قصة طويلة : بدأها بنقد قصصه المترجمة :

« اقرأ للأستاذ قصصه التي ترجمها ، هل كان همه نقل الفصاحة الأفرنجية إلى قراء اللغة العربية أو نقل الصور الفاضلة في صورها المصونة ، إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للخونة وتصوير الخلاعة والمجون في صورة جذّابة ، ليقضي بهذه الترجمة حق الاباحية لا حق اللغة ، ولا حق الفضيلة وكان طه حسين يقول : إنه ممن خلق الله لهم عقولاً تجد من الشك لذة ومن القلق والاضطراب رضا .

وعندما ادعى طه حسين انكار شخصيات من التاريخ الأدبي وشك فيها كتب

المازني يقول : إنه سيجيء يوم يوضع طه نفسه في ميزان التشكيك .

يزعمون أن رجلاً اسمه الدكتور طه عاش في عصر في أوليات القرن العشرين وانه صاحب هذه الكتب المختلفة التي نسبوها إليه ونحلوه اياها ، ولكن كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحملني على التردد بين رأيين أحدهما: أن يكون هناك أناس كثيرون يتسمون طه حسين وثانيهما: أن يكون هذا اسماً استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه ، ذلك أنه على ما روي ازهري النشأة والأزهر هذا جامعة إسلامية كبيرة يلبس الجبة والقفطان والعمامة أو ما يماثل ذلك فهو على هذا شيخ ويقولون إنه كان في صدر ايامه يكتب في صحيفة اسمها الجريدة وتقول ان هناك ثلاثة : الشيخ طه ، وطه حسين الأفندي ، والدكتور طه حسين الخ . . الخ .

وعندما أصدر عزيز أباظة ديوانه (أنات حائرة) كتب الدكتور طه حسين مقدمة للديوان ، فنشر المازني مقالاً في البلاغ هاجم فيه المقدمة وقال إن الدكتور طه قد خسره الأدب ولم تربحه الحكومة . وقد أثارت هذه العبارة ثائرة الدكتور طه الذي وجه إلى رئيس تحرير البلاغ خطاباً ضمنه نوعاً من النقد على أسلوب الرمز والإيماء واعتذر عن ذلك بأنه لا يتحدث إلى القارىء بقدر ما يتحدث إلى المازني نفسه قال :

أراد الأستاذ المازني أن يُثني على ديوان شاعرنا المدير ، أو مديرنا الشاعر الأستاذ عزيز أباظة فلم يستطع أن يصل إلى غرضه دون أن يُقدم بين يدي مقاله برثاء لي واشفاق على أن الأدب قد خسرني وأن الحكومة لم تكسبني ولأني كتبت في تصوير هذا الديوان كلاماً لا محصول وراءه ولا يُعرف له رأس من ذنب .

وأنا استأذنك في أن أشكر للاستاذ رثاءه لي واشفاقه علي فذلك أقل ما يُنتظر من أديب مثلي لا يكتب إلا ما وراءه محصول وما يتبين رأسه من ذنبه وأريد أن أؤكد أنني آسف أشد الأسف لأن الاستاذ عزيز أباظه لم يطلب إليه هو كتابة هذا التصدير ، إذن لكان له المحصول كل المحصول ولكان له رأس كقمة الجبل وذنب كالذي خوف به المنجمون المعتصم حين همّ بفتح عمورية .

وآسف أشد الأسف لأن الحكومة لم تكل إلى الأستاذ عملي في وزارة المعارف

وفي جامعة فاروق . اذن لكسبته الحكومة والأدب جميعاً والأستاذ المازني يعرف أن لأبي العلاء قصة مع الشريف المرتضى وأظنه يأذن لي في أن أسرق من هذه القصة شيئاً فالسرقة في الأدب مباحة ولا سيا حين تكون في العلن لا في السر ، وهي حينئذ أشبه بالسطو ولست أسرق من قصة أبي العلاء أو لست أسطو عليها الا بمقدار ، فأنا أرجو أن يقرأ الأستاذ سورة الفلق وان يقرأ مطولة لبيد ومطولة طَرفة وعينية سويد بن أبي كاهل التي مطلعها :

بسطت رابعة الحبل لنا فبسطنا الحبل منها ما اتسع

ورائية الأخطل ومطلعها :

ألا يا سلمى يا هند نبي بدر وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

ولامية المتنبي التي مطلعها :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا وحسن الصبر ذمّوا لا الجمالا

سيقول القراء أنني ألغز بهذا الكلام ولكني اعتذر اليهم فإني لا أكتب لهم وإنما أكتب للاستاذ المازني ، وأنا أسلك في ذلك طريقة الأستاذ نفسه فمن المحقق انهم لم يفهموا عنه ما قال أمس لأنهم لم يقرؤوا التصدير الذي لا محصول وراءه والذي لا رأس له ولا ذنب ولأن أكثرهم لن يقرأه لأن الكتاب ليس معروضاً للناس واحبب إلي بأن أستقيل وأفرغ للأدب ولكني أود أن أستيقن قبل ذلك بأن الحكومة ستضع الأستاذ المازني مكاني لترى أيكتب كلاماً كالذي أكتبه أم يكتب كلاماً خيراً منه .

وجاء الدكتور زكي مبارك فألقى بدلوه في المعركة ولكن من ناحية تفسير الغوامض وكشف الأسرار فقال :

« مناوشة عنيفة ثارت بين الدكتور طه والاستاذ المازني على صفحات جريدة البلاغ وهي مناوشة تمُثل التجني والتظالم على أعنف ما يكون بغي الرجال على الرجال وسنقف من هذه المناوشة موقف القاضي العادل فقد ساءنا أن يتقارض هذان الرجلان الظلم والعدوان بلا ترفق ولا استبقاء بعد أن ظلاّ صديقين

حيناً من الزّمان وأصل القصة أن عزيز أباظة مدير البحيرة أصدر مجموعة شعرية سماّها (أنات حائرة) مع تصدير بقلم الدكتور طه حسين فلما بدا للأستاذ إبراهيم المازني أن يتحدث عن هذه المجموعة بدأ بالهجوم على صاحب التصدير فغضب الدكتور طه وكتب رداً أراد أن يدفع به العدوان بما هو أقسى من العدوان . ثم قال زكي مبارك إنه سيفسر للقارىء هذه الرموز ولخّص زكي مبارك كلمة المازني في أربعة عناصر :

ان الدكتور طه خسره الأدب ولم تكسبه الحكومة .

ومعنى هذا أنه يتولى عملاً لم يخلق له وان الدكتور طه يضيع نفسه في مناصب تشغله وتستنفد جهده ووقته فإذا كتب جاء بكلام لا محصول من ورائه ولا يُعرف له رأس من ذنب والافضل ان يستقيل الدكتور ويريح نفسه من العناء الباطل وهو عمله في الحكومة ويتفرغ للأدب .

وانه لا يمكن للدكتور طه أن يزود نفسه بالتحصيل أو التجويد حين يكتب وهو مشغول ليله ونهاره بأعمال كل واحد منها كاف للارهاق .

ونسارع فنذكر ان الاشارة إلى سورة الفلق منْصبة على آية ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ وان الإشارة إلى مطولة لبيد تتجه إلى هذين البيتين :

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بينها علاّمها
وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظها قسامها

وانه يريد من مطولة (طرفة) هذين البيتين .

فلو كنت وغلا في الرجال لضرني عداوة ذي الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عني الأعادي جُرأتي عليهم واقدامي وصدقي ومحتدي

أما عينية سويد فقد أشار الدكتور طه إلى هذين البيتين :

رب من انضحت غيظا قلبه قد تمنى لي موتاً لم يطع
وتراني كالشجي في حلقه عسراً مخرجه ما ينتزع

وأراد من رائية الاخطل هذين البيتين :

تنق بلا شيء شيوخ محارب　　وما خلتها كانت تريش ولا تبرى
ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت　　فدل عليها صوتها حيّة البحر

ومن لامية المتنبيء أراد هذين البيتين :

أرى المتشاعرين غروا بذمي　　ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض　　يجد مراً به الماء الزلالا

وما اردت تبليغ هذه التعاريض إلى الاستاذ المازني وإنما اردت منفعة القراء والشر يتسم بالخير في بعض الأحايين .

(١) كان يستطيع أن يقول إنه (يستعير) قصة أبي العلاء مع الشريف و (يستعير) هذه اللقطة المطلوبة في هذا الموقع ، ولكنه قال إنه (يسرق) لينـدد بالاستاذ المازني ولم يكتف بذلك بل جعل سرقته علنية وهي (حينئذ اشبه بالسطو كما قال)

(٢) صور الأستاذ المازني بصورة الحاسد لمن كتب تصدير الديوان .

(٣) صوره بصورة من يعجز عن عمل المستشار الفني لوزارة المعارف ويعجز عن إدارة جامعة فاروق (راجع المعركة كلها في كتابنا : المعارك الأدبية) .

(٨)

أما الأستاذ أحمد أمين صديق طه حسين ومريده والقاضي الذي وجهه طه حسين إلى دراسات الأدب فإنه قد دُفع مع أستاذه وصديقه إلى حلبة الصراع ، وذلك حين جنح ذات يوم إلى القول بأن جماعة من الكتاب تسلحوا بالشجاعة ثم شعروا أنهم أصيبوا في سمعتهم وكان الرأي العام قوياً مسلحاً فتغلب وانتقم وظن طه حسين أن أحمد أمين يعنيه فكتب يقول : أخالفك أشد الخلاف وأنكر عليك أعظم الانكار ، إن ذلك الرأي بعيد كل البعد عن أن يصور الحق والثاني أن رأيك يمسني وأؤكد لك انه يحفظني كل الاحفاظ ويؤذيني كل الايذاء إلخ .

ومع توفيق الحكيم كانت معركة عاتية بعد صداقة طويلة ومودة غالية وكان طه حسين بين مَن عرّفوا بأهل الكهف حين ظهورها ولكنه كان أقوى ممن كتب عنهـا معجباً بها فقال : إن أهل الكهف حدث ذو خطر ، لا أقول في الأدب المصري وحده بل أقول في الأدب العربي كله وأقول هذا من غير تحفظ ولا احتياط .

ثم وقع الخلاف بين الرجلين تحت تأثير بعض عوامـل السياسـة والكبـريـاء الشخصي وكتب طه حسين نقده للحكيم في عنف تحت عنوان (الأديب الحائـر) حين أرسل توفيق يقول لهم :(انني لا اسمح لأحد أن يخاطبني بلسان التشجيع فما أنا في حاجة إلى ذلك ، فإني أعرف منذ أمد بعيد ماذا أصنع ولقد أنفقت الأعوام أراجع ما أكتب قبل أن أنشر وأذيع ، كما اني لست في حاجة إلى أن يملي علي ناقد قراءة بعينها فإني من زمن طويل أعرف ماذا أقرأ وما أخالك تجهل أني قرأت في الفلسفة القديمة والحديثة وحدها ما لا يقل عما قرأت أنت) .

وأجاب طه حسين بعد أن أخرج هذا أيضاً من زمرة الولاء :

أسأل اللّه أن يقيني وإياه شر الغرور فهو مهلك للنفوس حقاً ، وليعلم توفيق أني لن أحفل به إلا يوم يخرج كتاباً لنا نقرؤه ويومئذ سأعلن رأيي في الكتاب سواء رضي توفيق أم سخط .

ومع سلامـه موسى كان الموقف عجبـاً فهؤلاء هـم دعـاة التغـريب ورجالـه ومدرسته وعصابته يختلفون ويجعل الله بأسهم بينهـم شديدا كتب طه حسين يقول :

إن الأستاذ سلامه موسى ليس من أصحاب الألوان السياسية الظاهـرة فقـد يكون سعدياً وقد يكون حراً دستورياً وقد يكون وطنياً وقد يكون اتحادياً ولكنه على كل حال لا يُعلن رأيه السياسي أو لا يتكلف إعلانه ولا يتخذ لنفسه لوناً .

وهو من أنصار الجديد وهو يعلم أني أرى رأيه وأشاركه فيه دون تحفظ ولا احتياط ولكن نصرة الجديد قد اضطره إلى شيء من الاسراف ، فهو مسرف في ازدراء الأدب العربي القديم والغض منه ، وهو مسرف أيضاً حين يقول إن الأدباء المصريين لم يكن لهم شأن في حركة الاستقلال ولم يقودوا الأمة في هذه الحركة .

وقال سلامه موسى في رده : لقد اتهمني الدكتور طه بالشعوبية أو كاد وكأنه نسي كفاحي من أجل الشعب ، ضد فاروق الفاسق ، هذا الفاروق الذي وقف طه حسين نفسه في حرم الجامعة وفي منبرها يخاطبه بالصوت العالي بقوله : يا صاحب مصر ، إن أدب الملوك والأمراء والباشوات هو الذي يدعو إليه طه حسين .

أما الأستاذ الرافعي فان المعركة بين طه حسين وبينه طويلة ممتدة منذ وقت بعيد قبل كتاب (الشعر الجاهلي) ومن بعده وقد ألّف فيه كتاباً كاملاً (تحت راية القرآن) يرد به على أفكاره ثم لم يفلته من بعد في مقالات كثيرة .

ومن أهم ما عنى به الرافعي التعليق على (انعام) طه حسين بامارة الشعر على العقاد قال طه حسين : ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه .

وقال الرافعي : ليس لدي الآن نص كلام الدكتور طه حسين ولا أنا أذكره بألفاظه بحروفها ولكن الذي أذكره أني حين قرأته لم أبحث بين ألفاظه عن يقين المتكلم واقتناعه وحججه وأدلته ، بل بحثت فيه عن سخرية طه بالعقاد وبالشعراء جميعاً في أسلوب كأسلوب تلك المرأة العربية في قصتها المشهورة حين قالت لرجال قومها في أبيات مشهورة :

وإن انتمـوا لم تغضبـوا بعـد هذه فكونـوا نسـاء لا تعاب من الكحل

غير أن طه في سخريته كالذي يقول : فإن لم تثبتوا ان فيكم من استطاع ان يخلف شوقي فاصغروا واصغروا حتى يكون العقاد هو أميركم .

بقي ان نتساءل لماذا لم تأت الشهادة يوم كان الدكتور عميداً لكلية الآداب وكان يومئذ حراً لا يستذله الاكراه ولماذا جاءت الشهادة وهو يحترف الصحافة . وترى لو كان العقاد من الحزب الوطني أو من الأحرار الدستوريين أو اتحادياً أو شعبياً ـ أتكون قولة طه يومئذ وهو في انسلاخه الثاني وانقلابه وفدياً ـ أفتكون إلا رداً سياسياً على العقاد وشعره ، ونفرة سياسية من هذا الشعر وعقاده ؟

(٩)

ومما يكشف عن موقف طه حسين من أهل عصره وجيله موقفه من أحمد زكي باشا استاذه القديم في الجامعة والرجل الذي اعترف بفضله عليه في البحث والدرس حين هاجمه بعنف في شأن الدور الذي قام به العرب في الحضارة والنهضة .

يقول أحمد زكي باشا . دُهشت حينما رأيتك تقول عني « أحمد زكي هو الذي أذاع في ألناس منذ سنين فكرة أن العرب سبقوا إلى كل شيء ولا يكاد يوجد بين الشعوب شعب سبقهم إلى شيء » هذا كلامك ومعاذ اللّه يا ولدي ، أن يكون صدر مني هذا القول ، بل هي حماقة بعض كُتّاب الجرائد الهزلية وهي تهرف بما لا تعرف وتختلق القول اختلاقاً لذلك قابلتها بصمت الاحتقار ، أنك حضرت أكثر دروسي في الحضارة الاسلامية بالجامعة المصرية فهل سمعت مني هذا القول أو ما يدانيه ، وها هم تلاميذي الكثيرون الذين كانوا معك بهذا المعهد ، وها هم تلاميذي بالمدرسة الخديوية الذين استمعوا إلى محاضراتي الكثيرة في نادي المدارس العليا بالقاهرة فهل سمع أحد مني مثل هذا القول الهراء أو ما يدانيه ، أنا أعلم أنك تعلم ، أن العلم أمانة ، وعهدي بك أنك حريص عليها ، فهل من الأمانة أن تنسب لأستاذك مثل هذا القول الهراء وهو حي يُرزق » الخ وهذا الرد يحمل عدة معاني :

١ ـ إن طه حسين يعتمد على مصادر ليست أساسية وهي الجرائد الهزلية .

٢ ـ إنه حاقد على كل ما يُكتب عن العرب ولا يطيق الحديث عنه .

٣ ـ انه يتجنى على أساتذته والعلماء بغير بيّنة أو دليل .

٤ ـ أنه كحاطب ليل لا يتوقف عن الهجوم بغير دليل .

(١٠)

روى الأستاذ محمد الهيهاوي : للأستاذ عباس خضر قصة سرقة طه حسين قال :

أن الدكتور طه سرق منه وهما طالبان معاً في الأزهر مجموعة المتون وهي مجلد

يجمع عدداً من المتون المؤلفة في مختلف العلوم واتهمه صراحة بأنه أخذهـا فأنـكر ولكن حدث عندما كانوا خارجين من الجامع أن انشغـل الشيخ طه بلبس حذائـه فسبقطت المجموعة من حيث كان يخبئها ، حكى لي الهبياوي ذلك لما سألته عن قوله لطه حسين في إحدى مقالاته « ألا تذكر مجموعة المتون » .

أعجبتني مقالة كتبها الهبياوي في جريدة المنبر التي كان يرأس تحريرهـا يدل عنوانها على موضوعها « كلية الآداب جائعة عريانة ودار العلوم هي الغذاء والكساء » ذلك عندما قامت دعوة إلى ضم دار العلوم إلى كلية الآداب وكان طه حسين عميداً لهذه الكلية .

(١١)

روى أحمد حسين الطماوي في حديث مع الدكتور محمد صبري السربـوي قوله :

دخلت أنا والدكتور طه امتحان الليسـانس في عام واحـد وعندمـا ظهـرت النتيجة ذهبت فلم أجد اسمي ولا اسمه وفي اليوم التالي وجدت اسمه محشوراً بين السطور فذهبت إليه وأبلغته وقد أثنى علي كثيراً لهذا الصنيع ويمضي الدكتور صبري قائلاً : إن حشر اسم طه حسين بين السطور أثار الكثير من الدارسين المصريين وقد قام جلال شعيب بكشف الحقيقة فقال لنا : إن طه حسين ذهب إلى الأساتذة وهـم مجتمعون واستدر عطفهم وذكرهم بأنه على أبـواب الـزواج بفـرنسية وأنـه غريب وأعمى فرثوا له ومن هناك كان كره طه حسين الشديد لجلال شعيب .

وفي كتاب سامي الكيالي عن طه حسين : يقول طه حسين في مقدمة رسالته للدكتوراه ليسمح لي بأن أعتذر عن أسلوبي الفرنسي إذا ما بدا بلا ريب في كثير من المواضع ركيكاً أو خاطئاً وكذلك عن الأغلاط المطبعية التي قد تقع في هذه الرسالة فما كنت إلا غريباً وأعمى .

وقد واجهت الدكتور صبري بما كتبه في طه حسين عن نفسه في هذه الفترة وأثبته سامي الكيالي في كتابه مع طه حسين وأورده كامل زهيري في مقال له بعنوان الشيخ في السربون في جريدة الجمهورية : كانت حياتي بباريس مقسمة بين ثلاثة

معاهد أو أربعة : السربون وقد كنت أحضر دروس التاريخ القديم تاريخ اليونان على جلوتز ، وتاريخ الرومان على بلدك والأدب القديم على لانسون واللغة والاجتماع على دوركايم وديكارت على ليفي بريل واللاتيني على مارنا والثورة على أولار والبيزنطي على شارل ديل والتاريخ الحديث على سينبوس والجغرافيا على ديمانجون وجالوا .

وقال الدكتور صبري بعد أن أمعضه هذا الكلام وتوعد : « إن هذا الكلام لا يسكت عليه لأن طه حسين لم يدرس على كل هؤلاء فان دارس التاريخ لا بد أن يتخصص إما في التاريخ القديم أو تاريخ العصور الوسطى أو التاريخ الحديث . طه حسين كان متخصصاً في التاريخ القديم فكيف درس تاريخ الثورة الفرنسية وهو تاريخ حديث على أولار وكيف درس البيزنطي على شارل ديل والدكتور طه حسين كان قليل التردد على السربون لعاهته ولا أذكر أبداً إنني رأيته يستمع لأولار ولا لديمانجور على سبيل المثال وكون انه استمع إلى محاضرة أو محاضرتين لأستاذ من الأساتذة لا يعني هذا أنه درس عليه ومن ثم لا يعقل أنه تتلمذ على هؤلاء الأساتذة الكبار . وإلا فإنني استمعت إلى عشرات الأساتذة فهل أدعي أنني درست على كل هؤلاء إن ما درسه طه حسين هو اللغة اللاتينية لتعينه على فهم التاريخ القديم . أما الذين نقلوا نقل مسطرة عن طه حسين كالكيالي وكامل زهيري فان معلوماتهما قاصرة بالنسبة للدراسة في السربون » .

قال الدكتور محمد محمد حسين :

« طه حسين الذي تشهد كتبه بأنه لم يكن إلا بوقاً من أبواق الغرب وواحداً من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير يروج لثقافاته ويُعظمها ويُؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلاديهم ، طه حسين لم يمَلّ من الكتابة عن جامعة البحر الأبيض المتوسط ، الذي زعم لمصر أنها جزء من البحر الأبيض المتوسط في مقومات شخصيتها وليست جزءاً من نجد واليمن والبحرين والعراق والسودان .

طه حسين الذي لم يتصور العرب في وهمه أمة ، لأن قوام الدول في زعمه المنافع المادية ولأن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين

ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول .

(مستقبل الثقافة ص ١٩)

(١٢)

طه حسين يزعم للعرب أن السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم ولكن السبيل هو أن يذوبوا في الغرب وأن ينخلعوا من أنسابهم ويعلقوا من تربتهم ليذوبوا في تربة الغرب ولذلك فهو يهلك أموالهم في ترجمة شكسبير التي ترجمت من قبل أكثر من مرة ليحابي بها بطانته وحزبه فيغدق عليهم مما تحت يده ، بل هو يهلك أموالهم في ترجمة ما لعن به أجدادهم وما سفه به أسلافهم وسفه دينهم وافترى على نبيهم .

يروي الدكتور زكي مبارك إبان علاقته بالدكتور طه حسين هذه الواقعة :

تكلم الدكتور طه بالتليفون يقول : تعال يا دكتور زكي بسرعة ، أسرعت إلى مقابلة الدكتور طه وكانت داره جوار داري يوم كان يقيم بمصر الجديدة .

قال الدكتور طه : هل تعرف يا دكتور زكي لوكاندة الكلوب المصري ؟

قلت : أعرف ـ قال : هناك هندي مسلم حضر معي مؤتمر المستشرقين وأنا داعيه إلى الغداء ولكنه تعب في الوصول لأنه غريب .

مضيت إلى الكلوب المصري وقلت للاستاذ : أنا حاضر لمصاحبتك إلى منزل الدكتور طه حسين واسمي زكي مبارك قال : تشرفنا يا دكتور ولكنك زنديق واستاذك زنديق ولن آكل لقمة في بيت أحد من الزنادقة ولو قضيت الحياة بأن أموت من الجوع ورجعت فأخبرت الدكتور طه بما وقع .

فقال : نحن أدينا الواجب .

(البلاغ الاثنين ٢٩ ربيع الأول ١٣٦٧)

(١٣)

ويبقى بعد هذا الحشد من أهل عصره وجيله عدد قليل ، لا يكاد يمثل ظاهرة ولاء ولا مدرسة فكرية ولا تقدير ، هم أولئك الذين يخافون طه حسين على مراكزهم

ومناصبهم وأوضاعهم وقد حاولت أن أتعرف منهم على وجهة نظرهم فكانوا يخشون الافصاح بها حتى لا تتأثر أوضاعهم في الجامعة أو في مجتمع اللغة أو في وزارة المعارف أو في إدارة الثقافة في الجامعة العربية وروى الكثيرون عبارات وكلمات لن يزيد ايرادها شيئاً نصل به إلى أكثر مما وصلنا عن طريق هذه الوثائق المكتوبة .

إن الخطر كل الخطر أن ينظر الناس إلى طه حسين من خلال ما جمعه في كتب وانتقاه مما كتبه في الصحف خلال خمسين عاماً ، إن هذا الذي اختاره بنفسه لا يمثل الحقيقة ولا نصف الحقيقة ولا ربع الحقيقة ، إن هناك في بطون الصحف الكثير مما يوحي بالحقيقة الكامنة في اعماق طه حسين والتي لم يظهر عليها أحد والتي يمكن معرفتها من الدلائل والوثائق والشواهد التي حاولنا أن نقدمها في هذا الفصل وهي تحتاج إلى تحليل واسع لا يتسع له هذا البحث : أقدم هذا كله للذين ما زالت تخدعهم العبارات الرنانة والكلمات البراقة وأوهام البطولة والبلاغة .

(١٤)

وإذا كان هذا هو شأن طه حسين مع أهل جيله فإن الأمر كان كذلك مع الجيل اللاحق فقد رأينا كتابات فتحي غانم التي توالت تحت عنوان (طه حسين عقبة في طريق القصة) وتلك المعارك التي اندلعت بينه وبين من سموا أنفسهم تلاميذه : عبد الرحمن الشرقاوي وابراهيم الورداني فهاجموه فلما تعالم عليهم قالوا له : وفوق كل ذي علم عليم .

وأشار موسى صبري إلى تجربة طه حسين في العمل مع جريدة الجمهورية يوم وضع اسمه في قائمة رؤساء التحرير . وفرض أن يُشرف على مواد الجريدة وفي أمرين وقعت الأزمة : (١) في شأن فرنسا (٢) وفي شأن الاغريق . ذلك أن هذين الأمرين هما مصدر عقيدته التي عاش لها يقول : أذكر مرة أن المانشيت الرئيسي في الصفحة الأولى (كان ديجول في أزمة) . وغضب طه حسين وقال إنه إن وضع اسمه على الجريدة يحمله مسؤولية ما ينشر فيها وهو لا يطلع عليه .

وقال الأصح أن تقول ديجول في حرج ! . . .

وقال موسى صبري : إن ابراهيم الورداني كتب مقالاً وصف في سطر منه

الأدب اليوناني القديم بأنه أدب الأساطير والخرافات والعفاريت (وأن ذلك جعل الدكتور طه حسين ممهداً للثورة والانفعال). وعندما نقل إليه الخلاف بين بعض الأدباء كتب مقالاً عنيفاً هاجم فيه رؤساء تحرير الجمهورية بعنوان بين السخف والجد ، وأعلن فيه أنه ليس مسؤولاً عما تنشره الجمهورية وكانت ليلة عصيبة وكانت وجهة نظري أن واجب الدكتور طه حسين يقتضيه أن يقدم استقالته ما دام غير راض ومستنكر لما نُشر وأنه ليس من اللائق أبداً أن يعلن في الجريدة أنه غيرمسؤول وهذا يعني أمام القراء أن المسؤولين عن التحرير منقسمون على أنفسهم وتدخل صلاح سالم وقدم حلاً وسطاً وهو أن ينشر مقال الدكتور طه حسين وفي قلبه إشارة داخل برواز بأن رئيس التحرير الفعلي (أي موسى صبري) سيرد على المقال ونشر الرد على طه حسين بما يكشف عن فساد خطته ، يقول موسى صبري : « وهكذا اتسعت المعركة وجاوزت كل حد تخيلناه ، وعلى الرغم من أنها جرتنا إلى ألفاظ جارحة وعبارات قاسية فقد عرضت قضية هامة من قضايا النشر في الصحف اليومية » وتلك قصة لها مجال آخر ولكنها هنا تكشف أن طه حسين قد لقي عنتاً[1] من أهل الجيل الذي ظن أنه جيل أتباعه وتلاميذه ، أشد مما لقي من زكي مبارك والمازني .

ولم يتخل طه حسين إلى آخر أيامه عن الدفاع عن تبعيته للغرب ولليونان فقد حمل ذلك على أعناق القراء في كل عصر ومكان[1] .

---

(١) وبمناسبة الكلام على صراع طه حسين مع اهل جيله ننقل الحادثة التالية الطريفة نقلا عن كتاب طه حسين في ميزان الاسلام :

لقد حمل طه حسين على شوقي بك انه في رثائه لحافظ وفي آخر قصائده كان يقصد طه حسين حين يقول :

قد كنت أوثر ان تقول رثائي	يا منصف الموتى من الأحياء
ووددت لو اني فداك من الردى	والكاذبون المرجفون فدائي
الناطقون عن الضغينة والهوى	والموغرون الموتى من الأحياء
من كل هدام ويبني مجده	بكرائم الأنقاض والأشلاء
ما حطموك وإنما بك حطموا	من ذا يحطم رفرف الجوزاء

والضمير هنا في (الكاذبون والمرجفون والهدام الذي يبني مجده) عائد الى طه حسين .

الدكتور محمد حسين هيكل

١٣٠٥-١٣٧٦هـ = ١٨٨٨ - ١٩٥٨م .

كاتب ، صحفي ، مؤرخ ، من اعضاء المجمع اللغوي ومن كبار رجال السياسة بمصر .

حصل على الدكتوراه في الحقوق من جامعة باريس وله مؤلفات عدة . . من اشهرها :

- حياة محمد
- في منزل الوحي
- ثورة الأدب
- الصديق ابو بكر
- الفاروق عمر

الحضارة الغربيّة
في ميزان طه حسين ومحمّد إقبال ومفكّري الغرب

بقلم: محمود مهدي الإستانبولي

تتحدى الحضارة الغربية الإسلام ظُلماً وعدواناً ، وغدا كثير من مقلديها يصرحون بأن الإسلام استنفد أغراضه . ولم تعد البشرية بحاجة إليه ، وما على المسلمين اليوم إلا أن يُولوا وجوههم قبل المغرب ، فينهلوا من حضاراته التي بهرت العالمين ، إذا كانوا يريدون أن يعيشوا حياة متمدينة وسعيدة .

ولما كانت هذه القضية مصيرية تهدد أجيالنا بالخطر والذوبان والضياع . . . فقد رأيت أن أختار الدكتور طه حسين الذي تولى كِبَر هذه الدعوة في أوائل هذا القرن العشرين وأذكر آراءه وحججه ثم أتبع كل ذلك بشهادات أديب مسلم كبير تصدى لهذه الحضارة الغربية وأوضح زيفها وفشلها وإفلاسها مع بيان مبلغ حاجة الغربيين للإسلام ، وكم خسروا بمحاربتهم له ، وقد جاء رحمة للعالمين وهو يتحدى حضارات العالم كلها في القديم والحديث . فضلاً عن أن تتحداه !

كتب طه حسين في كتابه : « مستقبل الثقافة في مصر » يدعونا بكل إصرار إلى الإرتماء في أحضان الحضارة الغربية ، ومعنى ذلك التخلي عن تراثنا الإسلامي الذي أعزنا اللّه تعالى به ، فأصبحنا خير أمة أخرجت للناس ، سدنا العالم من المحيط إلى المحيط بأقل من قرن من الزمن ، وغدونا أُمراءه وأساتذته ، فأنشأنا أعظم حضارة إنسانية لم يشهد التاريخ لها مثيلاً باعتراف المنصفين من علماء الغرب . كما أنشأنا المدينة الفاضلة لأول مرة في تاريخ البشرية ، مما حقق حلم العلماء والفلاسفة من

أقدم القرون إلى يومنا هذا .

قال الدكتور طه حسين :

« . . . لكن السبيل إلى ذلك ليست في الكلام يرسل إرسالاً ، ولا في المظاهر الكاذبة ، والأوضاع الملفقة وإنما هي واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عِوَج ولا إلتواء . وهي واحدة فذة ليس بها تعدد . وهي أن نسير سيرة الأوربيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، وما يُحب منها وما يُكْرَه ، وما يُحمد منها وما يُعاب . ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع[1] » .

وقد أراد هذا الدكتور أن يُضلل قراءه ويخدعهم إذا لم يكن هو قد ضلل نفسه وخدعها ، فلم يستطع أن يُفرق بين نظام (إيديولوجية) الغرب ، وبين تقنيته (التكنولوجيا) فشتان ما بينهما فنحن بغنى عن الأولى ، وبحاجة إلى الثانية ، فقال ، وهو يلوم ويخطّىء من يُفرق بين ما سبق :

« من أراد جيشاً أوربياً قوياً ، فقد أراد تربية أوربية ، وتعليماً أُورُبيّاً يهيئان الشباب لتكوين الجيش القوي العزيز » .

ثم يقول بعد قليل وهو يريد البرهنة على أن الحضارة الغربية قد قبلها المسلمون فعلاً وساق على ذلك المثال الآتي وهو مضحك ومبك معاً ! :

« وقد دخل الراديو في الأزهر الشريف وقام صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر يتحدث إلى المسلمين في أقطار الأرض جميعاً »[2] .

ثم يكرر طه حسين تحريضه على اعتناق الحضارة الغربية بحماسة فيقول :
« . . أريد أن نصارح أنفسنا بالحق وأن نبرئها من النفاق وأن نقبل على هذه الحضارة الحديثة باسمين لا عابسين . . »[3] .

---
(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ١٨
(٢) مستقبل الثقافة في مصر .
(٣) مستقبل الثقافة في مصر .

ولـم يكتف بهـذا التـأكيد ، بل راح يضرب الأمثـال على عدم الخشية على شخصيتنا الإسلامية من الأخذ بهذه الحضـارة : « خيرهـا وشرهـا . . » من تاريخ جدودنا ، ومن سلوك اليابانيين فيقول :

« . . فليس على حياتنا الدينية بأس من الأخـذ القـوي بأسباب الحضـارة الأوربية لأن أكثر مما كان عليها بأس حين أخذ المسلمون بقـوة بأسباب حضـارة الفرس والروم[1] .

وقال أيضاً :

« كلا وليس على الشخصية المصرية خطر من الحضارة الحديثة كما لم يكن على الشخصية اليابانية خطر من الحضارة الحديثـة . ولسـت أدري لمَ تضيع شخصية المصريين إذا ساروا وراء سيرة الأوربيين ولا تضيع شخصية اليابانيين[2] :

وللرد على طه حسين أقول :

أولاً : إن المسلـميـن الأولين لـم يأخذوا من الفرس والروم حضارتهم بدليل أن لكل حضارة من هذه الحضارات مميزاتها وخصائصهـا . وإذا كان أجدادنـا قد أخذوا ببعض علوم من ذكر ، فليس معنى ذلك أنهم أخذوا « بأيديولوجيتهـم » ولا يخفى أن العلوم النافعة هي مشاعٌ بين الشعوب ، وهي تراث مشترك قد ساهم فيه كل منهم بنصيب وخاصة المسلمون منهم .

ثـانياً : ومثـل ذلك اليابـانيون ، فإنهـم اكتفـوا بتقنية الغـرب دون « إيديولوجيته » على الرغم من « أيديولوجيتهم » المتهافتة !

ومصداق ذلك ما جاء في رسالة « نحو التربية الإسلامية الحرة » :

« لقد أبت اليابان البوذية والهند البرهمية ، بل ألحتـا على أن يكون التعليم والثقافة مصطبغتين بصبغتيهما الحضارية الخاصة ، وفلسفتهما العريقة في القـدم ، خاضعين للأسس الفكرية والجـذور العميقـة التـي تؤ منـان بهـا وتعضـان عليهـا بالنواجذ »[3] .

---

(١) ١/ ٥٩ . المصدر السابق .

(٢) ١ / ١٤ . المصدر السابق .

(٣) الأستاذ أبو الحسن الندوي ص ٤٠ .

وقد استمعت منذ شهور إلى حديث من إذاعة لندن من قِبَل أحد أساتذة جامعة هيئة الأمم المتحدة ، يستغرب فيه عمل اليابانيين باقتصارهم على نقل تقنية الغرب دون « إيديولوجيته » وحض على تشجيعهم على قبولها ، وقد كتبت إلى هذا الأستاذ مؤنباً ، فكان مما قلته له :

« إن من العيب والعار معاً ، بل من الخيانة أيضاً أن ينساق علماء الغرب وراء مطامع المستعمرين وغاياتهم الهدامة ، لتضليل الشعوب وخداعهم ليسيروا وراء مركبة الغرب الضالة وأيديولوجيته المنهارة » .

ثم قلت له : « فماذا في هذه الايديولوجية غير إضطهاد الشعوب الضعيفة ، والفساد والهدم والفسق وإنفاق ملايين الدولارات يومياً للتسابق في التسلح ليقضي أحد المعسكرين على الآخر ، ولو بفناء العالم ، مما يترفع عنه حتى المجانين ، بينما كثير من الشعوب يتضورون جوعاً ويعيشون بين براثن الجهل والفقر والمرض ! »

وختمت رسالتي لهذا الأستاذ بقولي : « إن مما يضاعف في الجريمة أن يصدر مثل هذا الإغراء بالأيديولوجية الغربية من أستاذ في جامعة جمعية الأمم المتحدة التي تزعم أنها أنشئت للسلام وخدمة الشعوب وخاصة الفقيرة منها !! » .

ومن المضحك والمبكي معاً أن يزعم طه حسين أن الإنتقادات الموجهة للحضارة الغربية من الأوربيين أنفسهم ، أراد قائلوها تزهيد المسلمين وغيرهم بها ليقتصروا على الانتفاع بها ! فكان مما قاله :

« وإذا قال الأوربي لنا إن حضارته مادية بغيضة ، فنحن خليقون أن نظن به إحدى إثنتين : فإن كان صادقاً علمنا أنه يريد المزيد من هذه الحضارة المادية البغيضة ، وإن كان كاذباً ، علمنا أنه يريد أن يزهدنا في هذه الحضارة ، ليستأثر بها من دوننا وليحتفظ لنفسه بحسناتها ومزاياها ، وليمكننا نحن في حضارتنا الروحية التي تجعلنا عبيداً له[1] »

يا للجهل والعار !إن وصف هذا الدكتور حضارة الإسلام بالروحية فحسب إما جهل منه أو إفتراء . وكل ذلك قبيح ، ولو كان حقاً ما يقول لم تُنفق الدوائر

(1) ١ / ٦٨

الإستعمارية ملايين الدولارات سنوياً لمحاربة هذا الدين خشية منه بعدما لمسوه من حيويته وما غرسه في نفوس أتباعه من حب الجهاد حتى باتوا يحبون الموت كما يحب خصومهم الحياة . بعد الإستعداد فقال تعالى : (وَأَعِدوا لهم ما اسْتَطَعتم من قوة !! . . . .)[1] .

وبفضل هذه التربية امتد الإسلام من المحيط الأطلسي غرباً حتى وصل إلى فرنسا وإسبانيا وإلى المحيط الكبير شرقاً ، فوصل إلى الصين ، ومن القفقاس الروسية شمالاً إلى البحر الهندي جنوباً ، وقضى على إمبراطوريتي روما وفارس بسرعة عجيبة ، وهما كالمعسكر الشرقي والغربي المعاصرين !

وقد اطلعت أخيراً على رسالة من ملك إنكلترا والغال (فرنسا) إلى الخليفة هشام الثالث يتوسل إليه بها أن يقبل بعثة من البنات في مدارس بلاده (الأندلس) للدراسة فيها وتعلم الأخلاق الإسلامية وقد وقّعها باسم خادمكم جورج[2] .

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المحافل

ومما سبق ندرك أن المسلمين إذا تمسكوا بإسلامهم وعملوا به لا يكونون عبيداً كما قال طه حسين ، بل سادة وأساتذة البشرية ، وقوله بأن حضارتنا روحية فحسب ، جهل وظلم وخيانة !!

ولله درّ القائل :

إذا ما الجهل خيَّم في بلاد رأيت أسودها مُسخت قرودا !

وقد غاب عن ذهن هذا الدكتور أن الحضارة الغربية هي نفسها التي جعلت من الأوربيين عبيداً للمادة ، لبعدها عن الإسلام ، توجه سياستهم ، بدلاً من أن يوجهوها ، بشهادة كثير من مفكريهم ، وإلا فما هذه الحروب المستعرة والمستمرة التي يشنونها بينهم ، أو يثيرونها بين الشعوب الأخرى ، إلا من أجل تحقيق مطامعهم الجشعة والمدمرة ومن أجل تصريف الأسلحة الحربية ، حتى جعلوا من أرضنا الجميلة جحيماً لا يطاق !

أعود مرة أخرى إلى كلمة طه حسين الأولى ، فقد جاء فيها « أن نسير سير

(١) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

(٢) راجع كتاب دور المساجد في التثقيف العلمي للأستاذ محمد الشاذلي الخولي .

الأوربيين ونسلك طريقهم ، لنكون لهم أنداداً ، ولنكون لهم شركاء في الحضارة »
فهل يا ترى إذا صنعنا ما ينصحنا به ، نصبح حقاً : أنداداً وشركاء للغربيين ؟!

لا شك أنه يقول لنا : « نعم » .

ولكن الغرب كله يقول : « لا » .

وذلك بناء على المبدأ الإستعماري القائل : « الغرب غرب والشرق شرق ولن يجتمعا !»

ومثله المبدأ الآخر : « غربيون وبرابرة !»

هل يريد منا أنصار الدكتور دليلاً على ذلك ؟

هناك دلائل ، لا دليل ، فها هم أولاء زنوج أمريكا في الولايات المتحدة التي تزعم أنها نصيرة حقوق الإنسان وحامية الحرية ، قد صنعوا ما نصح به هذا الدكتور ، وحصلوا على أعظم الشهادات العلمية ، حتى اعتنقوا ديانة الغربيين ، وحذوا حذوهم وحاربوا إلى جانبهم ، فلا يزالون مضطهدين من قبلهم ، وقد أفنت أمريكا أكثرهم وهم أصحاب البلاد الأصليين بأبشع الصور وأوحش الأساليب . ومثلهم زنوج جنوب أفريقية فقد استخدم معهم الغربيون مختلف الأعمال الهمجية للفتك بهم ، وقد أعطوهم أخيراً الإستقلال على الرغم من أنوفهم ، بعد ذهاب ملايين الضحايا . وشعار « ممنوع دخول الكلاب والزنوج » لا يزال مسجلاً في لافتات كبيرة في كثير من مطاعم أمريكا وإنكلترا .

وما لنا نذهب بعيداً وها هي ذي مصر الشقيقة نفسها وطن طه حسين قد أخذت بقسط وافر بالحضارة الأوروبية حتى في كثير من تقاليدها، ـ ويا للأسف ـ ونصبت التماثيل والأصنام في ساحات القاهرة والإسكندرية ووضع كثير من أهلها القبعات الأجنبية ، ونالوا أرقى الشهادات العلمية والمهنية ، وأسسوا الجامعات والمصانع المختلفة ، فهل غدوا شركاء وأندادا للغربيين ؟! وهل تخلى عنهم الإستعمار إلا بالقوة ، ومثل مصر سورية والعراق وغيرها فهل من يعتبر ؟!

لقد كنت وعدت القراء في أول هذا المقال بأني سأتحدث عن أديب وعالم كبير من المسلمين يخالف طه حسين في دعوته الهدامة ، وهو الدكتور محمد إقبال[1] غفر اللّه تعالى له وأجزل ثوابه أجر ما دافع عن الإسلام وأوضح مزاياه للشرقيين والغربيين معاً ، فلم تغره الحضارة الغربية ببهرجتها الخادعة ومظاهرها الكاذبة كما فعلت في غيره ! وقد عاصره طه حسين (توفي عام ١٣٥٧ هـ) واطلع على أقواله وآرائه وأدبه القوي ، ولكن شتان بين الشخصيتين فأحدهما ذاب في بوتقة هذه الحضارة والآخر حاربها محاربة لا هوادة فيها وأوضح ما تخفي بين طياتها من أخطار ومفاسد وضلالات .

عاش الدكتور إقبال الحضارة الغربية وأمضى في الغرب سنين طويلة سائحاً في أقطارها ، دارسا في جامعاتها ، فهو يحذّرنا منها بأقوال تنبض بالحياة وتفيض بالقوة ، تثير الهمم الضعيفة وتوقظ النفوس النائمة وتنبه الشخصيات المغفلة ، والجاهلة كما ترد على الدعوات الباطلة وتكشف عما يختفي وراء ما يُسمى مدنية الغرب وتعاليمه من آثام وشرور وأخطار ، حتى تبدو أمام الإسلام كالقزم الممسوخ ، فضلاً عن أن تتحداه !!

قال الشاعر إقبال يصف الحضارة الغربية[2] :

بطالة وعُري وسُكر واختلاس !

تلك هي فتوحات الحضارة الغربية

قوم محرومون من الهداية السماوية !

تقدُّمهم مقصور على الكهرباء والبخار .

---

(١) لهذا الشاعر كتاب : « تجديد الدِّين » فيه كثير من الإنحراف ، وقد حدثني الأديب « الفراتي » أنه لا يعتقد أن هذا الكتاب لإقبال ، بل مدسوس عليه ، فنتمنى ذلك وأقواله القوية في هذا المقال مخالفة لما جاء في الكتاب المذكور .

(٢) نقلاً عن كتاب رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي . .

ويستنكر هذا الأديب ذلك الإسراف الغربي في تقديس العقل إسرافاً جعل القلوب من الحكمة خواء ، فتتنكر النفوس لقيم الحياة الروحية ، فيقول :

الحب غائب من قلب الغربي ، وقلبه كالأفعى يلدغه !

إنه عاجز عن إخضاع عقله للإلهام .

ذلك الذي يكشف عن مجرى الأفلاك !

لم يستطع أن ينفذ إلى « العالم الجواني » عالم أفكاره ضل في متاهات عقله .

فلم يستطع أن يُفرِّق بين الخير والشرّ ، ذلك الذي إقتنص شعاع الشمس ؟ عجز عن الوصول إلى النور ليبدد ظلام الحياة .

وقد وصف الشاعر إقبال قلب الغربي الكافر بقوله :

إنما الكافر حيران له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كوناً تاهت الأفلاك فيه !

لقد رأى هذا الأديب أن الرجل الغربي الحديث قد طغت عليه نتائج نشاطه العقلي الصرف ، فلم يعد يفتش بروحه ، وأصبح لا يكاد يُحس حياة الباطن الجواني ، ويُنكر كل ما هو غيبي ، ويراه وهماً فهو في مجال الفكر يعيش في نزاعٍ مع غيره دائماً ويجد نفسه في أغلب الأحيان عاجزاً عن ضبط أنانيته وشهواته ، مأخوذاً بسحر المادة ، يتكالب عليها تكالباً لا يعقبه إلا الحسرة والشقاء .

المسلم هو باني العالم الجديد :

قال الدكتور إقبال تحت العنوان السابق « إنّ الحضارة الغربية قد مثلت دورها ، ونثرت كنانتها ، وقد شاخت وأينعت وحان قطافها وإن العالم القديم الذي حوّله مقامرو الغرب إلى حالة الفساد والمقامرة منهار قريباً . والإنسانية تتمخض بعالم جديد .

ويعتقد إقبال أن هذا العالم الجديد لا يحسن تصميمه إلا من بنى للإنسانية البيت الحرام بالأمس ، وورث إبراهيم ومحمداً صلى اللّه عليهما وآله وسلم ، في قيادة العالم وإرشاده فيهيب محمد إقبال بهذا المسلم النائم ، وينشده باللّه أن يقوم ، ويمسح النوم من عينيه ، فقد ظهر الفساد في البر والبحر ، وعاث الأوروبيون في الأرض الفساد وخربوا العالم وملؤوه ظلماً وظلمات وشروراً ، وويلات ، وليست هذه الأرض إلا بيتاً تُرفع من بيوت اللّه !! جعلها مسجداً وطهوراً ، وأذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولكن الأوروبيين قد حولوها إلى خمارة وبيت فسق ودعارة ومكان نهب وغارة ، وقد آن لباني البيت الحرام ، وحامل رسالة الإسلام ، أن يقوم ويُصلح ما أفسده الأوروبيون ، ويعيد هذا البيت إلى قواعد إبراهيم ومحمد ويبني العالم من جديد[1] .

وقبل الخاتمة ، فإني أؤكد نداء الدكتور محمد إقبال بوجوب الحفاظ على الشخصية الإسلامية ، إستعداداً لقيامها بالدور المنقذ للعالَم من شرور المدنية الغربية ، مع الإنتباه إلى وجوب الإهتمام بتقنيتها (التكنولوجيا) التي باتت تشكل خطراً عليها وعلى العالم نتيجة سوء إستعمالها لحرمان الغربيين من النزعة الإنسانية والنفحة الإلهية ، وأعيد ما قلته سابقاً أن هذه التقنية التي نحض عليها هي حق مشاع وتراث البشرية المشترك ، وقد كان لجدودنا المسلمين أعظم دور في إبداعها وتطويرها بشهادة كثير من علماء الغرب المنصفين وأختتم هذا البحث بكلمة سامية لرسالة الأديب كتبها شاعر الإسلام محمد إقبال ومن خلالها نلمس الأخطار والنكبات التي سببها طه حسين وأمثاله للشباب المسلم عن طريق العبث برسالة الأديب لتحقيق أغراض إستعمارية إستشراقية ربما كشف التاريخ عنها في المستقبل : « إنّ الأدب موهبة كبيرة من مواهب اللّه سبحانه وقوة عظيمة يحدث به صاحبه إنقلاباً في المجتمع ونهضة فكرية ويضرب بها الأوضاع الفاسدة الهدامة ويملأ القلوب حماسة وغضباً . ويشعل البلاد ناراً ، ويملأ النفوس قلقاً وإضطراباً وتذمراً من الشر ، وتطلعاً إلى الخير ، فلا بدّ أن يكون في قلم الأديب والشاعر التأثير الذي هو أشبه

(١) عن كتاب إقبال لأبي الحسن الندْوي .

بعصا موسى ، فيؤدي رسالته في العالم .

ولقد كان إقبال شديد الإيمان بأن للدين الإسلامي الأهمية العظمى ، والأثر الفعال في توجيه حياة الفرد والجماعة على السواء ، وفي هذا المعنى يقول :

« إنّ الدِّين في أعلى صورة ، ليس أحكاماً جامدة ، ولا كهنوتية ولا أفكار مخدرة ، ولا يتيسر إلا بالإسلام (الصحيح) تهيئة الإنسان المعاصر لحمل العبء الثقيل الذي يحمله إياه تقدم العلوم في عصرنا . والإسلام وحده يرد إليه الإيمان والثقة اللذين ييسران إكتساب شخصيته في هذه الدنيا والإحتفاظ بها في الآخرة ، ولا بدّ للإنسان (المسلم) من الارتقاء إلى تصور جديد لماضيه ومستقبله ، ليستطيع التغلب على المجتمع المتنافر المتصادم ، ويقهر هذه المدنية التي فقدت وحدتها الروحية بالتصادم الباطني بين الدِّين والمطامع السياسية »[1] .

لقد رأى محمد إقبال أن الرجل الأوربي الحديث قد طغت عليه نتائج نشاطه العقلي الصرف ، فلم يعد يعيش بروحه ، وأصبح لا يكاد يحس حياة الباطن والجواني ، وينكر كل ما هو غيبي .

ويراه وهماً ، فهو في مجال الفكر يعيش في نزاع مع غيره دائماً ، وهو يجد نفسه في أغلب الأحيان عاجزاً عن ضبط أنانيته وشهواته ، ومأخوذاً بسحر المادة يتكالب عليها تكالباً لا يعقبه إلا الحسرة والشقاء وكان مما قاله :

« لقد رأت أوربة بعينها النتائج المخوفة لمثلها الإقتصادية والعلمية . . ولكن وأسفاه! لم يستطع عبّاد القديم الذين سمعوا حقائقه أن يقدروا الإنقلاب الذي كان يثور في الضمير الإنساني » .

وكل أدب استُغلّ لجمع المادة أو إرضاء الأغنياء والأثرياء أو إثارة الشهوات أو على الأقل كان أداة للهو والتسلية ، والتذوق بالجمال والتغني به ، فهو أدب ضائع مظلوم استعمل لغير ما خُلق له ، ولغير ما وُهب له » .

---

(١) عن رسالة رواد الوعي الإنساني للدكتور عثمان أمين ١٦٥ ـ ١٥٦

ويعتقد محمد إقبال أنّ الأدب لا يصل إلى الذُروة العليا حتى يستمد حياته وقوته من أعماق القلب الحي ويُسقى بدمه . .

***

أطلعنا فيما سبق على رأي كل من الدكتور طه حسين ، والدكتور محمد إقبال في الحضارة الغربية ، والبون الشاسع بينهما وقد طلب بعض القراء حكماً حيادياً يوازن بين هذين الرأيين ، وبيان الصواب منهما .

ومع أن الحق بدهي ، وهو ظاهر كالشمس ، فإننا نلبي هذا الطلب ، ونختار الحَكَم من علماء هذه الحضارة أنفسهم ، وذلك إقتصاراً للطريق وأوضح للدلالة بأن يشهد عليها شاهد من أهلها .

والشهود في ذلك كثيرون ـ ولله الحمد ـ يمكن تأليف كتاب ضخم من أقوالهم فنختار بعض ما هو في متناول أيدينا حرصاً على الوقت .

كتب الدكتور أحمد العسال ، وقد زار أمريكا لدراسة المنظمات والهيئات الإسلامية هناك :

«لعلّ أفضل ما يوضح المناخ الإجتماعي والفكري والنفسي في أمريكا ، ما رأيته في إجابة في التلفاز « لجراهام بل » الواعظ النصراني الشهير ، حين كتبت إليه إمرأة تحتل مكاناً مرموقاً في المجتمع ، تشكو له ضيقها بحياتها ، وتبرمها بواقعها ، وكان مما قالته له : « إنني أملك من المال ومن وسائل الحياة ومُتعها بحيث لا أطلب المزيد » ، ثم قالت : « وأُصارحك أنه لولا الخمر الذي تُعينني على الهروب من الواقع ما طُقت هذه الحياة ، ولما استطعت الإستمرار فيها »[1] .

وتقول الإحصائيات الأمريكية : « إنّ نسبة الطلاق في أمريكا تزيد على نسبة ٤٠٪ من مجموع الزيجات ، ومعنى ذلك إضطراب أحوال الأُسرة وعدم استقرارها ».

---

(١) مجلة الطالب المسلم التي تصدرها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ع ١ . ص٢٤ باختصار .

وتقول أيضاً : إن مرض الجنون يفتك بعدد من أفراد الشعب الأمريكي يزيد على أي وباء آخر من الأوبئة الفتاكة . ومعنى ذلك أنّ نوع الحياة الذي تقدمه الجاهلية المعاصرة المسماة حضارة ، لا يتلاءم مع فطرة الإنسان ولا يُسعدها .

وجاء في هذه الإحصائيات كذلك : « إنّ نسبة الجريمة في إرتفاع مستمر ، وإن وسائل الإعلام ، والتلفاز بصفة خاصة من العوامل المؤثرة في إرتفاع نسبة الجريمة » .

وتقول : « إنّ نسبة الجنوح الاجرامي عند الأطفال والمراهقين أصبح يُشكل خطراً على مستقبل الأمة ، وإنّ من أهم أسباب هذا الجنوح غياب الأم عن البيت لانشغالها في العمل ، وعدم وجود من يرعى الأطفال ويُنشئهم التنشئة الصالحة ، لأن المحاضن لا يمكن أن تغني عن غياب الأم عن البيت . وهذا كله رغم الرفاهية الظاهرية التي يعيش فيها الشعب الأمريكي »[1] .

يقول « فون باين » مستشار الرايخ الألماني سابقاً : « إننا نقف على حافة الهاوية ، ذلك لأننا تعلقنا بأهداب العلم ، وظنناه كل شيء ، حتى استعبدنا هذا العلم ، وبالغنا في الآلة ، ولم تبق إلا بارقة أمل وحيدة في النجاة ، وهي أن نُؤمن أن هذا الكون له خالق ، وأن الخالق قد وضع له سنناً وقوانين ، فإن سرنا على هداه ، سخّرنا العلم ، وسخّرنا الإختراع ، ونجونا ولم نسقط في الهاوية[2] .

وقال : « ول يورانت » الكاتب الأمريكي في كتابه : « مباهج الفلسفة »: «وثقافتنا سطحية ، ومعرفتنا خطرة ، لأننا أغنياء في الآلات ، فقراء في الأرض ، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني ، وانتزع العلم منا الأسس السامية لأخلاقنا . عندنا مئة ألف سياسي ، وليس عندنا رجل حكيم واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل ، ولكننا لا نعرف أين نذهب ، ولم نُفكّر في ذلك . أو هل نجد السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة . إننا

(١) مقرر علم التوحيد للصف الثالث الثانوي ص ٢٤ للأستاذ محمد قطب
(٢) رسالة الطالب ص ١٤ .

نهْلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة ، ولن ننجو منها بغير الحكمة !!» .

ودعا الكاتب الروسي ألكسندر سولجنتسين الفائز بجائزة نوبل لعام ١٩٧٠ في خطاب ألقاه في حفلة توزيع الشهادات على الطلاب المتخرجين من جامعة هارفرد :

دعا هذا الكاتب الكبير إلى نهضة روحية ، وقال : « إن الحياة الروحية قد نفدت دعائمهـا في الشرق والغرب على السـواء ، وإنّ المادية بدأت تجتـاح الحياة الخاصة ، وأخذت أجهزة التلفاز والموسيقى المزعجة تساهـم في جعـل نمـط الحياة الغربية أكثر الأشياء بعداً عن المثالية التي ينشدها العالم .

وأضاف : إن قوى الشرّ بدأت هجومها الحاسم ، وباستطاعـة كلّ منـا أن يشعر بوطأتها ، ومع ذلك ، فإن شاشتنا الصغيرة وإعلاناتنـا تزخـر بالإبتسامـات المزيفة واختتم هذا الكاتب خطابه بالقول : أن العالـم الغربـي كان بالأمس على مفترق الطرق ، ثم دعاه إلى تجديد شعوره بواجباته نحو الخالـق ، وقـال : « إن الطريق الوحيد الذي بقي للعالم هو التّطلع إلى فوق : إلى السماء[1] ».

وما أصدق ما قاله العالم الكبير الكسيس كارليل في كتابه القيّم : « الإنسان ذلك المجهول »

« إنّ الحضارة المعاصرة تجد نفسها في موقف صعب ، لأنها لا تلائمنا ، لقد أُنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية . ، إذ أنها تولّدت من خيالات الإكتشافات العلمية وشهـوات النـاس وأوهامهـم ورغباتهـم ، وعلى الرغـم من أنهـا أُنشئـت بجهودنا ، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا ».

هذه بعض شهادات علماء الغرب بالحضـارة الغـربية بالإضافـة إلى شهـادة الدكتور محمد إقبال ، والغريب أن بعض المغفلين والجاهلين يزعمون أنها تتحدى الإسلام ـ هذا الدِّين العظيم الإلهي الذي أنشأ حضارة دمشق وبغداد والأندلس ، وكان سبباً في إنقاذ الغرب من إنحطاطه ، وهو كفيل أيضـاً أن ينقـذه مرة أخـرى

(١) مجلة الجمهور ٢٢ حزيران ١٩٧٨ .

بإعتراف كثير من مفكريه وعلمائه .

وقبل أن أختتم هذا الموضوع ، استصرخ ضمائر العلماء والمسؤولين عن الإسلام ، للمسارعة إلى عرضه على العالم عامة والغرب خاصة حسب أرقى وسائل الإسلام ، فهو كما رأيناه يعيش في القلق والضياع والتمزق والفراغ السحيق ، فيسارع إلى تقبله وخاصة بل تنقيته من الخلافات المذهبية والبدع التي شوهت جماله وعاقت إنتشاره والله سبحانه الموفق .

وقبل الخاتمة ، إني أبعثها صريحة ومدوية ، إن الإسلام ـ هذا الدِّين العظيم ـ حضاري إلى منتهى الحضارة ، فلا ينبغي أن يفهم من كلامنا السابق أننا خصوم الحضارة ، فإنها نور عظيم وشعلة متوهجة ، غير إننا نلوم من يدعونا لاعتناقها وللأخذ بها بعجزها وبفجرها كما ألّح طه حسين ، وهي التي ضلت الطريق بسبب حرمانها من العقيدة الإلهية والقيم الروحية ، حتى أصبحت الجرم الهائل الذي خرج عن مداره ، فيوشك أن ينهار ، وقد قالت إحدى المفكرات الأمريكيات : « أمريكا مخدرة السرعة والقوة والنمو العادي كالمدمن على الكحول أو الهيروويين[1] » وقال (ألفين طافلر) « إنّ أمريكا قطار بلا سائق يسير بسرعة جنونية ، في منحدر مظلم ، وركابه متجهون إلى الوراء ، وأعينهم معصوبة !!» وما قلناه عنه بصفتنا مسلمين قاله عالم غربي هو كارل ياسبرز فكان مما قاله :

« إنّ الإنسان الحديث في المجتمع « الوجودي »، « الوضعي » « الجدلي » قد أوغل في الظلام ، حين أعرض عن العقل وكفر بالله ، فضلّ ضلالاً بعيداً ، وأضحى بلا روح ، حين اغترب عن نفسه ونضبت آماله ، فاستبدت به الهواجس والهموم . وواجبنا في هذا العصر الذي يسوده الخرق والجموح أن ندعوه إلى الثقة بالعقل والإيمان بالغيب ، ومجاوزة « الزماني » للتطلع على الأبدي : تلك هي السبيل إلى « تأنيس » الإنسان ، أي تلطيف سره ، وتفريج كربه ، وتحويل مقامه من « الغربة » إلى « الخلوة » ومن الوجود الزائف إلى الوجود الأصيل : « إننا نريد أن نستوثق من بقاء شيء أبدي ، حتى في أبشع ضروب اليأس والدّمار . . . وفي البأساء والضراء ، نريد أن نتأمل أصل الإنسان[3]»

ومما سبق ندرك أن الحضارة في تيه وخطر ، فلا بدّ لها من موجه ومنقذ ، وهادٍ . وهنا يفرض الإسلام نفسه بموجب ما يطالب به العالم « يا سبرز » وأمثاله من الإيمان بالله العظيم وبالخلود . . وذلك بعدما أفلست نُظم الغرب كلها من

---

(١) مجلة الدوحة س ٥٤٤٥

(٢) في كتابه : «صدمة المستقبل.

(٣) : الإيمان الفلسفي »، باريز ١٩٥٣ ص ٢٨

ديمقراطية ورأسمالية وشيوعية ، كما أفلست قبلها النازية والفاشية ، وقد اعترف كبار المفكرين والساسة بذلك ، ووقف أكثرهم حيارى بسبب عدم إطلاعهم على الإسلام واعترف آخرون بأنه المنقذ الوحيد لهذه الحضارة، واعتنقه الكثيرون منهم.

وإذا وقعت الواقعة وانهارت الحضارة ، وفنيت البشرية نتيجة الحرب الذرية والنترونية والهيدروجنية ، فليس الغربيون وحدهم المسؤ ولين عن هذا المصير الرهيب ، بل دعاة الإسلام ومفكريه أيضاً ، ولعل تبعتهم تكون أعظم ، ما دام لديهم الحل والعلاج ، وقد إخذ الله تعالى منهم المواثيق أن يبيّنوا الحق للناس ولا يكتمونه !!

أجل إن الإسلام نفسه يفرض نفسه على الغرب أكثر من أي عهد مضى ، والتقاعس عن ذلك خيانة دينية !

ولكن كيف نتقدّم بالإسلام إلى الغرب خاصة والعالم عامة كمخلّص ومنقذ ، وموجه ؟!

هل يكون ذلك على مستوى الأفراد غالباً ؟!

إني لا أكتم القراء أن المسلمين ـ ويا للأسف ـ أصبحوا حجاباً يحجبون الناس عن الإسلام بسبب تخلّفهم وبعدهم عن الإسلام الحق ، فإن من يود إنقاذ الحضارة ، عليه أن يكون أرفع منها !

زد على ذلك أنّ الإسلام الذي يمارسه المسلمون اليوم ليس هو الإسلام الحق بسبب ما لحق به من بدع وخرافات واختلافات مذهبية متناقضة وواسعة النطاق في تحليل وتحريم الحكم الواحد مما لا يقول به عاقل فضلاً عن رب العالمين القائل : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافاً كثيراً !! ﴾ .

وقد نهى سبحانه عن الإختلاف في آيات عديدة كقوله :﴿ ولا تكونوا من المشركين من الذين فرّقوا دينهم ! وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون ﴾

وكقوله : يخاطب رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم :﴿ إنّ الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، لست منهم في شيء !! ﴾

وكل ذلك كان من أهم حجب نصر الله تعالى عنا الذي وعدنـا به في آيات عديدة كقوله : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

ومن المؤسف ـ والمؤسف جداً ـ أن يعتقد الجهلاء وقاصري النظر أن هذه الخلافات المذهبية هي دليل على خِصب الشريعة مستدلين بحديث موضوع . « إختلاف أُمتي رحمة »!! ومفهومه مدّمر معناه أن إتفاق المسلمين نقمة ! ألا ساء ما يفترون !

وقد كان هذا الإختلاف سبباً في النزاع بين المسلمين وقتالهم ! كما كان سبباً في نفور غير المسلمين منا .

أعود بعد هذا الإستطراد إلى القول بوجوب عرض الإسلام بعد تنقيته وإعادته إلى جماله الأول من نَبْعَيْهِ الفَيَّاضَيْنِ : الكتاب والسنة حسب أرقى وسائل الإعلام الحديثة من أفلام سينمائية ومسلسلات تلفازية بالإضافة إلى الكتب والمجلات الإسلامية الراقية والجذّابة بمختلف اللغات .

وكم أتمنى من إذاعات الحكومات الإسلامية الإهتمام بالدعوة للإسلام ليل نهار أسوة بالدول الإستعمارية التي تعمد إلى الإفساد في الأرض .

ويجب أن نذكر بهذه المناسبة أنّ تقصير المسلمين بهذه الدعوة جلب لهم النكبات نتيجة جهل الغربيين واعتباره عدواً لهم نتيجة الدعاية المضادة ضده من الصهاينة والمبشرين والمستشرقين والمستعمرين ، حتى غدوا يسارعون للتبرع من أجل قتال المسلمين وإفنائهم بموجب نداء : « أعطونا دولاراً نقتل لكم به مسلماً »!!

وأختم موضوعي بعبارة لمفكرة اميركية ، ففيها عبرة لأولي الألباب :

« لو وجد للإسلام دعوة ذكية منظمة في الغرب لانتشر فيه قبل نهاية هذا القرن ! وأملأ الفراغ الهائل الذي يعيشه الغربيون . فهو يختلف عن غيره من الأديان الأخرى بإنسجامه مع طبع الإنسان ورغبته الفطرية في الطهارة والطمأنينة الغيبية ، ويختلف عن بقية الطرق المشعوذة بإثبات وجوده عبر القرون ، وبانتماء هذا العديد الكبير من سكان المعمورة إليه »

فتساءل زوجها الذي كان يستمع إلى حديثها :

فماذا ينتظر المسلمون ؟!

فرددت هذه المفكرة .

نعم ! ماذا ينتظرون[1] .

(١) المصدر السابق ص ٣٠

محمد إقبال

محمد إقبال علم من أعلام الإسلام في هذا العصر ، وقائد من قادة الفكر في الشرق ، وهو رائد من رواد الوعي الإنساني ، وشاعر عميق يغوص على المعاني العميقة ، فيحسن تناولها وسبكها ، ويجليها للناس ببيانه الألمعي وشعره الناصع وتشبيهه الرائق ـ فيجعل كتبه على غزارة مادتها وعمق موضوعها ـ روضة غناء تسرّ الناظرين .

درس في لندن وألمانيا وحصل على أرقى الشهادات وفي سنة ١٩٠٨ حصل على درجة في القانون ولما عاد إقبال إلى وطنه إشتغل بالشعر والسياسة وانتخب هذا الشاعر الكبير عضواً في المجلس التشريعي بالپنجاب ، ثم ذهب إلى لندن ـ سنتي ١٩٣١ ـ ١٩٣٢ ـ للإشتراك « في مؤتمر المائدة المستديرة » .

واعتبر رئيساً لحزب مسلمي الهند ، ورئيساً لجمعية حماية الإسلام .

ومحمد إقبال أول من نادى بضرورة إنفصال المسلمين في الهند عن الهندوس ووجوب مقام دولة خاصة ، ثم ومنذ أعلن هذه الفكرة سنة ١٩٣٠ أصبحت الهدف الأول الذي جاهد مسلمو الهند لتحقيقه ، إلى أن تمّ لهم إنشاء دولة « باكستان » في أغسطس سنة ١٩٤٧[1] .

---

(١) عن رسالة «روّاد الوعي الإنساني من الشرق الاسلامي» للدكتور عثمان أمين ـ ملخصاً ـ .

مـع الخوف تعيش أمريكا[1]

إعـداد : منير نصيف

الجريمة تجتاح امريكا . . الجريمة بكل انواعها في كل مكان . . في المدن ، في الريف في الضواحي الهادئـة ، في عدد كبـير من الـولايات الامـريكية في الشمال والجنوب . . في الشرق والغـرب . . جرائـم من كل نوع . . قتـل ونهـب ، سطـو واعتداء ، سرقات بالاكراه واغتصاب تحت تهديد السلاح . . ومع الخطر المتزايد الذي يهدد حياة الناس في اكبر واغنى دولة في العالم انطلقت موجة من الانذار في المدن وضواحيها . . اطلقتها اجهزة الامن التي تقع عليها مسؤولية حـماية ارواح النـاس وممتلكاتهم بعد الـزيادة المخيفـة في معـدلات الجريـمة طبقـا لاحصـائيات مكتـب التحقيقات الجنائية .

وخرج المدنيون يشاركون رجال الشرطة في مقاومة هذه الموجة من الجريمة ، وركب الرجال سياراتهم الخاصة وراحوا يطوفون بها الشوارع بحثا عن هؤلاء الذين اشاعوا الرعب في قلوب الملايين حتى اصبح الخـوف من ان يقـع احدهـم ضحية للجريمة اكبر من الخطر الذي يتهدده فعلا . . . ولو ان احدا لا يستطيع ان ينكر ان الخوف له ما يبرره ، فقد تعدت الجريمة في اكثر من خمس وعشرين مدينة امريكية كل الأرقام التي سجلت على مدى السنوات العشر الاخيرة .

---

(١) أنظر التعليق رقم (١) صفحة ٢٧ من المقدمة.

جريمة كل ٢٤ دقيقة

هكذا تقول الصحف الامريكية وهي تنقل لنا آخر ما سجلته الاحصائيات، وتقرأ مجلة تايم الاسبوعية مثلا فتجد ان هناك جريمة قتل ترتكب كل ٢٤ دقيقة في مكان ما بالولايات المتحدة وفي كل عشر ثوان يتعرض بيت للسطو وكل سبع دقائق تغتصب امرأة. . احصائيات اخيرة عن بعض ما وصلت اليه الجريمة في الشهور الاولى من هذا العام

ثم تنقل لنا مجلة «إيس نيوز اند وورلد ريبورت» أرقاما اخرى اكثر دقة وتفصيلا لأنها مستقاة من مكتب التحقيقات الجنائية خلال عام ١٩٧٩ تقول ان جريمة خطيرة ترتكب كل ثانيتين ونصف وحادث سرقة كل ثلاث ثوان وسطو كل عشر ثوان وجريمة عنف كل ٢٧ ثانية وسرقة سيارة كل ٢٩ ثانية واعتداء على اشخاص لأي سبب أو بلا سبب كل ٥١ ثانية واغتصاب كل سبع دقائق وجريمة قتل كل ٢٤ دقيقة.

حكم الارهاب

وفي تحذير وزير العدل الامريكي وارن بيرجر، نرى الصورة المخيفة التي يعيشها الامريكيون فقد قال في شهر فبراير من هذا العام وفي اعقاب قيام رئاسة جديدة وحكومة جديدة في امريكا: «ان هناك حكما من الارهاب يسود المدن الامريكية» ثم يتساءل: «السنا رهائن داخل حدود بلادنا المستنيرة المتحضرة؟»

ويقول مدير شرطة مدينة هوستون بولاية تكساس الامريكية: «الخوف من الجريمة يهدد تدريجيا بشل الحياة في المجتمع الامريكي. . لقد سمحنا لانفسنا بالتحلل والتفسخ الى الحد الذي اصبحنا فيه نعيش مثلما تعيش الحيوانات. فنحن نعيش وراء قضبان حديدية تحمينا من وصول اللصوص الينا، ومجموعة من الاقفال المثبتة في الأبواب وأجهزة الانذار، ثم نرقد على الفراش وبجوارنا مسدس محشو بالرصاص وبعد هذا نحاول ان نحصل على شيء من الراحة. . يا للسخرية!»

ورئيس شرطة هوستون يعرف عن اي شيء يحدث لانه هو نفسه يحتفظ بعدة مسدسات محشوة بالرصاص في غرفة نومه!

تجارة السلاح

وقد راجت تجارة السلاح والسلاح المضاد في الأونة الاخيرة بصورة لم تعرفها امريكا من قبل : . . فقد اقبل المواطنون على شراء المسدسات والبنادق والتدرب على اطلاقها. . واقبلوا في نفس الوقت على شراء الاقفال الفولاذية لاحكام اغلاق ابوابهم، واقتنوا كلاب الحراسة، وثبتوا اجهزة الانذار في النوافذ وهي تصرخ عند اقتراب اي يد اليها من الخارج. . . حياة تذكرهم بايام اجدادهم الرواد الاوائل، باستثناء طبعا ما توصل اليه العلم الحديث.

ثم هناك بعد ذلك هذا الشعور العام بان الشرطة اصبحت عاجزة عن حمايتهم، فراحوا ينقلون ممتلكاتهم الى الخزائن الخاصة في البنوك. . وعندما امتلأت كلها، راحوا يعدون قوائم خاصة باسماء «الزبائن» الجدد الذين ينتظرون دورهم للحصول على خزانة.

الجريمة امريكية

وكما نقول ان هذه السيارة امريكية، أصبح مألوفا أن تقرأ ايضا ان الجريمة امريكية وتقول «تايم»: «ان هناك بعض الحقيقة في قول تشارلز سيلبرمان المأثور: «الجريمة امريكية تماما كما كان جيسي جيمس امريكيا». . . وجيسي جيمس كان يجسد الجريمة في ابشع صورها، وتشارلز سيلبرمان هو الكاتب الأمريكي مؤلف كتاب «العنف الاجرامي والعدالة الجنائية».

هل صحيح ان البوليس اصبح غير قادر على مجابهة الزيادة المستمرة في الجريمة والجواب عند البوليس نفسه بالايجاب! لماذا؟ لان الخط الأزرق الرفيع الذي يمثل حماية رجال الأمن، يزداد رفعا، فالمشاكل التي تواجه حكام بعض الولايات لموازنة ميزانياتهم تضطرهم اضطراراً الى تخفيض قوات الأمن في عدد كبير من المدن الهامة.

فمثلا في مدينة كليفلند بولاية اوهايو عجز في عدد رجال الشرطة يقدر باكثر من الف رجل. . والنتيجة في مثل هذه الحالة ليست في حاجة الى ايضاح. . ولعل اهم ما فيها ان المجني عليهم ينتظرون فترة اطول بكثير قد تحمل معها خطرا محدقاً، قبل ان يصل رجال الشرطة لنجدتهم!

إحم نفسك

وفي ديترويت ارتفعت الجريمة بمعدل اربعة عشرة في المائة، خلال الشهور الستة الاولى من العام الماضي ومع هذا فقد اضطرت الولاية الى الاستغناء عن خدمات ٦٩٠ رجلا من رجال الشرطة ضمن برنامج يهدف الى توفير مبلغ ٢٧ مليون دولار عجز في الميزانية. . وكانت النتيجة ان بدأ المواطنون الامريكيون يعملون فيما بينهم على مواجهة هذه الموجه المتزايدة من الجرائم التي يتعرضون لها، فقامت في الجزء الغربي من المدينة مثلا خمسون جمعية او ناد شعاره «إحم نفسك» كما قام السكان في الوقت ذاته بتنفيذ برامج للمراقبة في المنطقة، فقد اصبح هناك شعور متزايد بالعزوف عن الاتصال برجال البوليس والابلاغ عن اي جريمة تقع، «ولماذا نبلغ عن الجرائم ما دمنا لا نجد منهم المساعدة التي نتوقعها»،

والامريكي العادي يستخدم المواصلات العامة سيارات الاوتوبيس او مترو الانفاق، ولكن لم يعد هذا حاله الآن، اذا غابت الشمس ولف الظلام المدينة، اسرع يبحث عن سيارة تاكسي خاصة تعيده الى بيته او تذهب به الى حيث يشاء. . . لم يعد يطمئن الى جاره الذي يجلس معه في نفس السيارة العامة او يقف على مقربة منه في محطة المترو تحت الارض ثم الملابس التي توحى بأن صاحبها ليس فقيراً على الأقل، لم تعد هي المفضلة في الليل. . اي بدلة او اي فستان عادي يؤدي الغرض في السهرات العامة والخاصة. . في مدينة نيويورك اكبر مدن امريكا من حيث الكثافة السكانية واكبرها مسرحا للجريمة لا يحمل الناس في جيوبهم اكثر مما يكفيهم ثمنا لوجبة الغداء والمواصلات. . . تقول زوجة احد رجال الاعمال في حي ما نهاتين: «لقد اهديت زوجي ساعة ثمينة في عيد ميلاده، ولكنه لم يضعها حول معصمه مرة

واحدة، لأنه يعلم ان عمله لا يسمح له بالعودة الى البيت في ساعة مبكرة من المساء».

الدافع واحد . . . ولكن

والجريمة في امريكا لها دوافعها، وهي لا تختلف كثيرا عنها في اي بلد آخر. . فقط هناك عوامل اخرى تساعد على تعقيدها وانتشارها. . وارتفاع نسبة العاطلين عن العمل من الاسباب الاساسية التي تدفع إلى الجريمة ، ولانه يعيش في مجتمع رأسمالي تعلم منه انه لكي يأكل فلا بد له ان يعمل. . وانه لا بد ان يعمل اكثر اذا كان حريصا على ان يعيش في مستوى افضل. . فهو يعرف تماما ماذا يعني بقاؤه عاطلاً بلا عمل. . وفي اغلب الاحيان نجده قد انسلخ عن اسرته، وخرج الى الشارع. . وفي هذا البحر الذي تتلاطم فيه امواج الحياة نراه يقف مع نفسه لاول مرة. . وهي وقفه حائرة قصيرة لا يلبث ان يخرج منها وقد استقر رأيه: «لا بد ان اعيش» ولكن كيف؟

السنارة والسمكة :

وتتلقفه الأيدي المدربة ويتعلم. . . انها ابسط مما كان يتصور او هكذا يصورونها له. . . شيء قريب الشبه بصيد السمك من البحر. . انهم يبحثون عن الطعم ثم يضعونه في السنارة ويلقون بها في الماء وينتظرون. . وقد يحالفهم الحظ وقد يطول انتظارهم فاذا نفذ صبرهم القوا بأنفسهم مع السنارة ليمسكوا بالسمكة التي تحوم حولها. ويفلح البعض في الامساك بها ويغرق البعض بعد ان تفلت منهم!

وبين القاء الطعم وصيد السمك، قد يحدث شيء لم يكن في حسابهم، ويضطرون الى القتل!

بماذا يقتلون؟ بالسلاح! بالمسدسات والبنادق التي اطلقت على رئيس امريكا الجديد في قمة الموجة التي تجتاح البلاد وعلى حرسه ورجاله في قلب المدينة وفي أرقى احيائها. . ويقتلون بالسكاكين . . ولعل هذا السلاح الذي يباع بغير قيود لكل من يطلبه، هو العامل المؤثر في هذه الظاهرة الخطيرة التي تفزع امريكا اليوم. . وقد كان

ريجان نفسه الذي تعرضت حياته للخطر، وما زال من اشد المعارضين لاصدار تشريع يقضي بالحد من بيع الاسلحة للمواطنين رغم الحقائق التي تؤكد ان الجريمة في امريكا قد اصبحت اليوم اكثر وحشية، ولا عقلانية، ولا هدف، الأمر الذي ضاعف من موجة الخوف والقلق التي يعيشها الامريكيون، فمثل هذا التشريع قيد على الحرية، اية حرية؟.

مذبحة السود

وكان القرار الوحيد السريع الذي اتخذه رئيس امريكا الجديد في اعقاب حوادث ذبح الاطفال السود بمدينة اتلانتا بولاية جورجيا، حيث يشكل الزنوج ستين في المائة من مجموع سكانها.. فعندما بلغ عدد الجثث التي اكتشفها البوليس اكثر من عشرين جثة لاطفال ابرياء القى بهم القدر في طريق سفاح مخبول، امر ريجان بالاستجابة فورا الى طلب المدينة اعتماد مبلغ مليون ونصف دولار الى جانب مليون دولار من الاعتمادات الفيدرالية، للانفاق على التحقيقات التي تجريها سلطات الولاية لحل لغز هذه الجريمة التي هزت ضمير الامة.

لقد اصبح الامريكيون يتصورون ان هذه الجرائم التي اصبحت بلادهم مسرحا لها لا تقع إلا في امريكا.. انها جرائم موجهة ضد كل واحد منهم... لقد اصبح المواطنون كلهم وبلا استثناء معرضون لها. لهذا وقف المواطنون جميعاً صفاً واحداً لمقاومتها انهم في حرب ضد هذا العدو المجهول. ولكن كيف يحاربون ومن هو العدو؟

نصائح البوليس

ويجيب رجال الامن على الشق الأول: «اذا كنت تسير وحدك في ساعة متأخرة بالليل، وفجأة ظهر لك شبح وسط الظلام واحسست بالة حادة تلتصق بضلوعك من الخلف وصوت يأمرك بان تعطيه حافظة نقودك، فافعل دون تردد.. لا تقاوم، اعطه كل شيء، مالك وساعتك واية مجوهرات اخرى تكون في حوزتك.. هذه هي نصيحة البوليس لك اذا كنت لا تريد ان تموت. حتى لو كنت تحمل مسدسا، لا

تحاول ان تستخدمه، لأنك لو حاولت وتحركت اصابعك الى جيبك، فسوف تكون حياتك قد انتهت، وحتى لو كنت تجيد الجودو او الكاراتيه. . أنت ميت ميت ، فلا تقاوم. . . فالرصاصة اسرع من اي حركة تقدم عليها. . لا تحاول مفاوضة من يهاجمك للاحتفاظ ببعض ما تحمل، فكلما احس بانك تعرقل مهمته، ازداد عنفا، لا تصرخ. . لا تقم بأي حركة مفاجئة وانت تمد يدك الى جيبك لتخرج منه ما تريد ان يأخذه قل له انك تنوي ان تفعل ما تريد ان تفعله قبل ان تحرك ساكنا، ولا تنس دائما ان تخرج من بيتك وفي جيبك بعض المال، لان بعض هؤلاء المهاجمين سوف يتملكهم الغضب نتيجة خيبة الأمل التي اصابتهم وهم يخرجون بلا شيء من هذه المغامرة، وربما قتلوك على اية حال».

الأمة خائفة

وفي دراسة جديدة تحت عنوان «تقرير فيجي» عن أثر الجريمة على الحالة النفسية للامريكيين اجريت على اكثر من الف شخص من جميع انحاء الولايات المتحدة. . خرج الدارسون بنتيجة هامة، وضعوها في هذه الصورة الجديدة «لأمة خائفة». وهذه بعض ملامح الصورة.

● اربعة من كل عشرة مواطنين يشعرون انهم معرضون للقتل والاعتداء والسرقة والاغتصاب. وهو شعور دائم يلازمهم في حياتهم اليومية.

●● الخوف من الجريمة ينتاب كل طبقات المجتمع في كل مكان بغض النظر عن أية حدود جغرافية. . ٥٢٪ في المدن الكبيرة يعيشون في خوف دائم وتهبط هذه النسبة الى ٤١٪ في المدن الصغيرة والى ٣١٪ في الضواحي الصغيرة والمناطق الريفية.

● ٥٢٪ من مجموع عدد الذين استجوبوا خلال هذه الدراسة يمتلكون اسلحة للدفاع بها عن انفسهم.

● تسعة من بين كل عشرة مواطنين يغلقون ابواب منازلهم بالضبة والمفتاح، ويتعرفون على كل زائر قبل ان يفتحوا له الباب ويسمحوا له بالدخول.

● وسبعة من بين كل عشرة يغلقون ابواب السيارات من الداخل اثناء قيادتهم لها، وستة من بين كل عشرة يتصلون تليفونيا باصدقائهم او اقاربهم الذين كانوا في زيارتهم ليطمئنوهم على وصولهم الى بيوتهم سالمين.

● اكثر من نصف الذين اجريت عليهم هذه الدراسة يحرصون دائماً على الخروج بملابس عادية بسيطة لا تلفت اليهم انظار المجرمين.

● ٦٣٪ يؤيدون منح البوليس سلطة اكبر تسمح لهم باستجواب المشتبه فيهم ولكن ثقة السود الامريكيين في الشرطة اقل بكثير من ثقة المواطنين البيض.

● اكثر من النصف لا يمانعون في فرض مزيد من الضرائب، بشرط ان تذهب هذه الأموال لدعم حماية الشرطة لهم.

● الغالبية العظمى تنادي بفرض عقوبات رادعة والسجن مددا طويلة للذين يرتكبون جريمة من جرائم العنف، بينما يطالب اثنان من كل ثلاثة بالحكم بالاعدام، ويقول التقرير في النهاية: «ان امريكا تعيش اليوم في قبضة خوف جديد... تزداد ضغطا مع الوقت.. الخوف من ان تقع ضحية لجريمة.. الخوف من الاصابات الجسمانية.. الخوف من ضياع ما يملكون.. ان الامريكيين اليوم يعيشون في خوف من بعضهم بعضا!»

الجريمة لماذا؟

يقول بعض الاخصائيين في علم الجريمة ان هذا الشعور الذي اصبح يسيطر على الأمريكيين ليس ظاهرة، وانما هو نتيجة حتمية لاسلوب الحياة في هذا البلد الحضاري الكبير فالاسرة مفككة... والابناء ينسلخون عنها في سن مبكر، قبل ان يبلغوا العشرين في اغلب الحالات... وهي فترة خطرة حرجة في سن الشباب الذي يجد نفسه فجأة قد اصبح حرا بعيدا عن نفوذ الوالدين.. وفي هذه الحرية المبكرة يضل الشباب الطريق أو تنحرف نسبة كبيرة منهم

والانسلاخ عن الأسرة يعني بالتالي الخروج على المجتمع الذي يعيش فيه

والنتيجة شعور بالضياع والوحـدة. . والانسـان في وحدتـه يتحـول الى حيوان او يتحول الى عبقري. . فهو في الحالتين يريد ان يثبت وجوده. محاربة الانحراف إذ لا بد ان تبدأ في المجتمع الصغير الذي ينشأ فيه ثم المجتمع الكبير الذي سيخرج اليه ويواجه العالم. . إذا استطاع الامريكيون الابقاء على الصلة القوية التي تربط افراد الاسرة الواحدة، نجحوا في القضاء على الجريمة التي زلزلت ضمير امة تعيش في قمة الحضارة والتقدم. (نقلاً عن مجلة العربي العدد ٢٧٢ ـ يوليو ١٩٨١)

طه حسين يشيد بفضل اليهود على العرب

بقلم : الدكتور فؤاد حسنين علي

قال هذا الكاتب المنصف في مطلع مقدمته لترجمة كتاب « شمس الإسلام تشرق على الغرب » ما فتىء كثيرون من الأوربيين الذين يعنون بنشأة الثقافات يزيفون التاريخ ، فيجملون القبيح ويشوهون الحقائق مدفوعين بعامل الهوس القومي والجنون الوطني والتعصب الديني ، وجارى الغربيين بعض أذنابهم من الشرقيين فأنكروا على العرب فضلهم ونسبوا كل ما بلغه العالم من حضارة ورقي إلى اليونان وذهب هؤلاء الحانقون على العرب بعيداً فافترضوا باطلاً وقالوا زوراً وافتروا بهتاناً وادعوا أن العرب من التفاهة والغباء بحيث إن الفضل في تجويدهم للعربية شعراً ونثراً يرجع الى اليهود ، وقد تغاضت السيدة الدكتورة « سيجريد هونكه » مؤلفة هذا الكتاب عما صدر عن هؤلاء الشرقيين من أخطاء أو وقعوا فيه من هفوات ، وشغلت نفسها بأبناء جنسها من الأوربيين ، وذلك لأنها كما تقول في مقدمة كتابها :

إن موقف أوربا من العرب منذ نزول الوحي المحمدي موقف عدائي بعيد البعد كله عن الإنصاف والعدالة ، والتاريخ وقتذاك كان يملى ويصنع ، ولم يكن المملي هو الضمير بل التعصب الأعمى . إن مثل هذا الوضع كان مفهوماً في عصر كان فيه الشعور السائد هو إغماط حق كل فرد يخالف الأوربيين عقائدياً ، ومما يؤسف له حقاً أن هذه النظرة القديمة التي كان مبعثها الظن في أن الإعتراف للعربي بالفضل خطر يهدد العقيدة المسيحية ، وما زالت قائمة إلى اليوم ، والتعصب الديني ما زال جاداً في إقامة الحواجز بين الأوربيين والشعوب الأخرى . لذلك ينظر الغربي إليهم وكأنهم مجرمون وثنيون وسحرة . . إن هذا الكتاب يهدف أيضاً إلى تقديم شكر كان يجب أن يقدم إلى العرب منذ عصور قديمة ، فالألمان يدينون للعرب بالشيء الكثير

وليست اللغة الألمانية بمستثناة . . . »

فإذا كانت العربية لم تهن على بعض العلماء الأحرار في ألمانيا فأبناء العروبة أسبق إلى رد حق العرب المسلوب إليهم ولا سيما أن نفراً من الحانقين من الأوروبيين ضلوا وحاولوا أن يضلوا الآخرين . فمثلاً يحلو للدكتور طه حسين أن يتحدث عن اليهود واليهودية إذا ما عرض للغة العربية وأدبها . ويحلو له الحديث عن اليونان إذا ما تعرض للحضارة العربية الإسلامية ، وقد تكررت منه هذه النغمة وذكرها أكثر من مرة ولم يسكت إلا بعد أن تغيرت الأوضاع في العالم العربي . ففي الجامعة المصرية كان يحلو له التشدق بهذا الرأي فيما يلقيه على مستمعيه من محاضرات وقد سجلت له صحيفة الجامعة المصرية في عددها الأول من سنتها الثالثة عام ١٩٢٥ محاضرة هي حلقة من سلسلة محاضراته تحدث فيها عن اليهود وما لهم من أثر فعال لا في الحياة العربية فقطبل في الحياة الأدبية أيضاً ، ويستطرد فيقول : « وبعد ذلك كله يمكننا أن نخلص إلى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود :

١ ـ أن اليهود أثروا في الأدب العربي أثراً كبيراً جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

٢ ـ أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر في الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب .

٣ ـ أن اليهود انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب ».

وانتقلت الجامعة الأهلية إلى الدولة وانتقل معها الدكتور طه فأخذ يكرر نفس الآراء ويدعو لها وأبى إلا أن يذيع دعواه خارج الجامعة فأصدر « في الشعر الجاهلي » ولما صادرته الدولة عام ١٩٢٦ أعاد نشره مهذباً بعض التهذيب تحت عنوان « في الأدب الجاهلي » عام ١٩٢٧ .

وفي تلك الفترة أعد الصهيوني إسرائيل ولفنسون (المشرف على البعوث

الإسرائيلية إلى أفريقيا الآن) رسالة تحت إشراف الدكتور طه موضوعها « تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام » قدم لها الأستاذ المشرف بمقدمة جاء فيها :

« والموضوع في نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جداً في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمة العربية فليس من شك في أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيراً قوياً في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز ، وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفي أنها قد استحالت من المحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية ».

وهذه الرسالة التي نال بها إسرائيل ولفنسون لقب الدكتوراه من الجامعة المصرية والتي استحق صاحبها من المشرف عليها أن ينعته بقوله : « فإذا كان عالمنا الشاب قد وفق إلى الخير في هذا الكتاب الذي قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه ، والذي أقدمه أنا الآن إلى القراء سعيداً مغتبطاً فتوفيقه مضاعف ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، ووفق بعبارة موجزة إلى أن يبسط تاريخ اليهود في البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره ، بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً في كتاب كانت اللغة العربية في حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة ».

وإني أوافق السيد المشرف في أنه ظفر بهذا البحث اللذيذ ، لكن أحب أن أقول له إن هذا البحث حلقة من حلقات كتب الدعاية الصهيونية التي كانت الشعبة الثقافية للمؤتمر الصهيوني بإشراف (مارتن بوبر) تدعو إلى نشرها ، وما نقله إسرائيل ولفنسون في رسالته من آراء كان القصد منه إطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء في المصادر الأجنبية التي يجهلها القارىء العام في الشرق . ثم أي شيء من اللذة ومن الدقة في البحث ما يذكره الباحث ، ويقره المشرف ، في رسالته ص ١٢ (فيقول) :

« لم يظهر شيء من النبوغ والعبقرية في يهود بلاد العرب مطلقاً ولم تشتهر من

بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقي الفكري ، وإن كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب إلى المدينة من بقية العرب ، هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخي العرب وعلماء الإفرنج ».

ليس الأمر كما يعتقد المشرف أو يريد أن يعتقد فهذه الرسالة التي أشرف عليها مشحونة بالأخطاء التي لن تصدر عن طالب مبتدىء في البحث وهي صدى لهذه الآراء التي كثيراً ما رددها في الجامعة فضلاً عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة ، والسيد المشرف لا يعرف العبرية وأخذ بالنتائج التي ينسبها الباحث إلى هذه المراجع العبرية دون التحقق منها ودون الإستنارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات ، والأمانة العملية كانت تقتضي غير هذا !!

إن البحث العلمي يجب ألا يصبغ بصبغة القومية المتعصبة ، كما لا يتخذ وسيلة من وسائل الدعاية السياسية أو الكسب المادي الرخيص ، ويجب أن يسمو عن كل هذا وينظر إليه كقضية عالمية .

والحقيقة التي يجب أن يؤمن بها الجميع أن الباحث لن يخلط بين المثل العليا التي ينشدها وبين الحقيقة ، وبخاصة إذا علمنا أن ما جاءنا عن اليونان أو ما يعرفه أولئك الأوربيون أو أتباعهم عن اليونانية لا يكاد يتعدى المسائل السطحية بخلاف الحال مع الشرق العربي وحضاراته وما انحدر لنا منها . فالشرق العربي هو مركز الموجات الثقافية العارمة التي أدت إلى هذه الأحداث التاريخية العالمية ، والتي غيرت وجه الوجود فنقلته من البدائية إلى الإنسانية ومن الأنانية إلى الإيثار . ففي مصر بزغ فجر الضمير ومنها أخذ اليهود ما أخذوا [١] ، وفي بابل وأشور شريعة حمورابي وفيها الشيء الكثير من هذا التراث الذي نقله واضعو سفر التثنية ، ولما عاد اليهود من السبي نقلوا معهم عن العرب البابليين الشيء الكثير مما نجده في كتابهم المقدس [٢]

---

(١) من الأدب العبري للدكتور فؤاد حسنين علي، ١٩٦٣، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالمية.

(٢) التوراة. عرض وتحليل للدكتور فؤاد حسنين علي. القاهرة ١٩٤٦.

وعند المعينيين السبئيين العمارة وهندسة الري والتجارة ، وقصة ملكة سبأ والدور الذي تلعبه في تاريخ الإسرائيليين وحياتهم الإقتصادية لا يخفى على أحد [1] . ومن هذه الأقطار العربية مجتمعة خرجت فكرة الدين التوحيدي فظهر « إخناتون » وتلاه سائر الأنبياء الذين دعوا إلى اليهودية والمسيحية والإسلام ، واستتبع ظهور هذه الديانات تفتق العقل البشري فأنتج أدباً وشعراً ونثراً وقصصاً وفلسفة وحكماً وأمثالاً والترانيم الدينية . وطوف الخيال العربي وجاءنا بالأساطير الخالدة وكان من نتائج هذه الثورات العربية العقلية والروحية أن رمت العروبة ببعض أبنائها شعوب العالم القديم من شرقيين وغربيين فحطموا مخلفاتهم العفنة البالية وأقاموا على أنقاضها هذه الدول الفتية التي جاءت بالمعجزات . فالعرب لا اليونان أو اليهود هم الذين بعثوا العالم من حالة الجمود إلى حياة أفضل مكنته من التحكم في مصائر الكون فأطلق العربي الأفكار من عقالها وجردها من جمود رجال المعبد اليهودي والكنيسة المسيحية فظهرت طائفة القرائين حيث أنكر أولئك التلمود وتعاليمه ، كما انكمش سلطان الكنيسة وتوارت وراء البهور . وقد مهد هذا التطور بدوره إلى ظهور حركة الإصلاح الديني وبعث النهضة العلمية .

ومما عاون العرب على الإضطلاع بهذه الرسالة تسامحهم ومبادئهم الإنسانية التي أزالت الفوارق بين الشرق والغرب كما أنهم لم يمكنوا اللون من أن يكون عاملاً من عوامل التفرقة والتمييز العنصري والحط من القيم الإنسانية .

إن العرب يؤمنون سواء في الجاهلية أو الإسلام بالحقوق الإنسانية كاملة غير منتقصة لكل فرد من أفراد المجتمع البشري . فالدين الإسلامي الذي ثبت أسس

---

(١) التاريخ العربي القديم . تأليف نيلسون . فرتز هومل . ل . ، ردودو كاناكيس وأدولف جرومان . ترجمه واستكمله الدكتور فؤاد حسنين علي . القاهرة ١٩٥٨ .

(٢) وهذا نص الحديثين السابقين :
ـ إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم رواه مسلم والنساكهاني عن أبي هريرة .

ـ يا أيها الناس ! ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى رواه أحمد وشدده صحيح

هذه المبادىء يقرر في صراحة ووضوح : « ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » ، و« إن اللّه لا ينظر إلى وجوهكم بل إلى أعمالكم » لذلك نجح العربي في تحقيق ما عجز عنه اليوناني والفلسفة اليونانية أعني مذهب « الإنسانية » Humanism .

إن هذا المذهب لم يقو ولم ينتصر إلا بفضل العرب ، ولم تعرفه أوربا إلا في العصور الوسطى وعلى يد العرب ، وبعد أن تتلمذت أوربا على العرب في العصر الإسلامي حيث بلغ العرب مكانة إجتماعية لم تدانهم فيها الشعوب الأخرى ، كما شرع الإسلام لمعتنقيه وغيرهم تشريعات أخرجتهم من الظلمات الى النور .

إن الحانقين على العرب والإسلام والناسبين التراث العربي إلى اليونان واليهود يضللون أنفسهم وغيرهم والعكس هو الصحيح . العرب هم أصحاب الفضل على اليونان واليهود ، ولست أنا فقط الذي يقرر هذا بل يشاركني نفر من الأوربيين المنصفين مسيحيين كانوا أن يهوداً هذا الرأي . فالتاريخ اليهودي يحدثنا أن العرب أحسنوا معاملة اليهود عندما كانوا يهربون من وجه الطغاة من حكامهم في فلسطين أو فزعاً من إضطهاد اليونان والرومان ، فقد نزل أولئك اليهود الجزيرة العربية فوجدوا أهلاً وسهلاً ، فهذه القبائل اليهودية التي كانت تنزل يثرب وخيبر ووادي القرى ، وفد أفرادها على العرب بعد أن أفقدتهم القرون التي مرت بهم منذ زوال دولتهم ولغتهم المقدسة ، تذوق اللغة العبرية وتجويدها حتى أصبح من المألوف لدى اليهود أن يعبر عن أفكاره وشعوره في لغة ركيكة هي خليط من العبرية والكلدانية واليونانية فحالت ظروفه هذه دون خلق آداب عبرية ، فما كان أولئك اليهود بمستطيعين قول الشعر أو إجادة النثر ، فغيرّ نزولهم بين العرب هذه الأوضاع وبخاصة أن العربي معجب بلغته معنى بها نثراً وشعراً حريصاً على المحافظة عليها فصيحة نقية .

أخذ اليهود عن جيرانهم العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير ، فلما رحل بنو قينقاع والنضير وقريظة ويهود خيبر ووادي القرى وغيرهم الى العراق والشام وفلسطين كانوا يتكلمون لغة عربية ويتأدبون بأدب عربي ويتطبعون بطباع عربية كلها شجاعة ووفاء وكرم وإباء ، يقولون الشعر في مختلف فنونه

ويعبرون عن خواطرهم في لغة هي لغة أهل الحجاز . نزل أولئك اليهود في أوطانهم الجديدة فأثروا في أبناء ملتهم تأثيراً قوياً ، ولم يمض نصف قرن من الزمن على تحرير العرب ليهود فلسطين والعراق وغيرهما حتى أصبح في استطاعتهم التحرير في اللغة العربية .

ولم يقف أثر العرب والعربية في اليهود عند اللغة وآدابها بل تعدى العربية الأدبية إلى عربية القرآن الكريم والحرص على المحافظة على كتاب الله ، وهذه ظاهرة جديدة لم يكن لليهود بها عهد في عصورهم القديمة حتى في فلسطين ، وإبان قيام دولتهم وحياة لغتهم العبرية المقدسة ، وقد حببت هذه الظاهرة إلى اليهود إقتفاء أثر العرب ومجاراتهم في طريقة دراسة القرآن الكريم ، وحاول اليهود الحرص على نطق أسفار العهد القديم نطقاً صحيحاً ، فدفعهم هذا إلى التفكير في إعجام أسفارهم وإعرابها مقلدين العرب وناقلين عنهم .

وتأثر اليهود بالعرب أيضاً فأوجدوا ما يعرف في الأدب العبري بالشعر العبري الحديث أو (البيوتيم) فهذا الفن صورة من الشعر العربي وزناً وقافية .

ولم يقف الأثر عند الشعر بل تعداه إلى النثر فبينما نجد يهوذا بن قريش (آخر القرن التاسع وأوائل العاشر م) يستشهد كثيرا في مؤلفاته بالشعر العربي إذ بابن جناح القرطبي وأمثاله ينسجون على منوال نحويي العربية ولغوييها [1] كما ترجم العالم اليهودي الحريزي مقامات الحريري الى العبرية وقلدها فأدخل فناً جديداً في الأدب العبري لم يكن معروفاً من قبل . كذلك الأمثال العربية وجدت طريقها مع البيان والبديع إلى اليهود ولغتهم فقد وضع يهوذا بن تبون مثلاً كتابه المشهور « حكم العرب » وترجمت أسرة تبون وغيرها كثيراً من أمهات الكتب العربية سواء في الفلسفة أو الطب أو الرياضيات أو القصص الشعبية إلى العبرية ، وليس هذا بمستبعد فالعرب ليسوا هم أصحاب فكرة المعزل (جيتو) فقد فتحوا أمام اليهود دور العلم على

---

(١) التوطئة في اللغة العربية للدكتور فؤاد حسنين علي . القاهرة ١٩٤٠ .

مصراعيها ولم يفرقوا بينهم وبين غيرهم لذلك استطاع اليهود القيام بدور الرواة من الشعراء إذ انسابوا في بعض البلاد المسيحية وأخذوا إلى جانب بعض العلماء العرب يلقنون الأوربيين ما انتهت إليه معرفتهم [1]

ويحدثنا التاريخ اليهودي أن الإسلام أحسن معاملة اليهود حتى أولئك الذين اضطر النبي والخلفاء الراشدون إلى إجلائهم عن قلب الجزيرة العربية تأميناً لرسالة الإسلام وأتباعه ، أقطعهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب الأراضي الواسعة بالقرب من الكوفة وعلى ضفاف الفرات مما دفع المؤرخ اليهودي الشهير « جريتز » إلى الإشادة بعدالة العرب وإنسانيتهم في كتابه « تاريخ اليهود » [2]

« إن تاريخ اليهود في بلاد العرب في القرن السابق للنبوة المحمدية وإبان حياة الرسول صفحة ناصعة في التاريخ اليهودي »

وذكر في موضع آخر :

« لقد وزع عمر أراضي اليهود على المسلمين المحاربين ، وعوض اليهود المطرودين - وهذه هي العدالة - أخرى بالقرب من الكوفة على الفرات حوالي ٦٤٠ م . حقاً رب ضارة نافعة . إن سيادة الإسلام نهضت باليهود من كبوتها » [3]

وإذا تركنا الخلال العربية الإجتماعية جانباً ، هذه الخلال التي بوأت العرب هذه المكانة الممتازة والتي جعلتهم أهلاً ليكونوا رسل حضارة وثقافة للناس كافة ، وقابلنا بين الإسلام وتعاليمه وبين اليهودية ، أدركنا الفرق الشاسع إجتماعياً وعقائدياً بين الملتين ، لذلك سرعان ما وجدنا المرأة اليهودية مثلا تفضّل الإلتجاء إلى المحاكم ، الشرعية الإسلامية للفصل في قضايا الأحوال الشخصية . وقد هدد هذا الوضع الجديد المجتمع اليهودي بالزوال فقرر علماء التلمود تغيير بعض أحكامه

---

(١) من الأدب العبري لنفس المؤلف .

(٢) H. Graets: Volkstumliche Greschichte der juden 1. 111 Bânde.

(٣) نفس المرجع السابق .

مجاراة للشريعة الإسلامية لكن تغيير بعض الأحكام التلمودية لم يقف عند هذا بل زعزع العقيدة في قدسيته وصحة ما جاء فيه وبخاصة تلك الأحكام التي لا تستند على نص قوي في الكتاب المقدس .

وكانت النتيجة المحتومة لهذه الحركة الإصلاحية أن ظهرت في سوريا جماعة من اليهود النازحين من الحجاز ، والذين اعتادوا حياة أفضل من تلك التي يحيونها تحت ظلال التلمود ، فرفضوا العمل بتعاليمه وبذلك مهدوا لظهور فرقة القرائين .

هذه هي بعض حسنات العرب على اليهود ، فالعرب هم الذين أهدوهم العربية بعد أن كانوا يرطنون خليطاً لا شرقيّاً ولا غربياً ولا سامياً ولا هندياً أوربّياً ، والعرب هم الذين هذبوا ذوقهم اللغوي ، ورفعوا مستواهم الأدبي فمكنوهم من خلق ملكة أدبية .

وثالثاً وليس أخيراً احتذى اليهود حذو المسلمين مع القرآن الكريم فعنوا بدراسة كتابهم وشرعوا في وضع نحو للغتهم صيانة لها من اللحن والضياع .

هذه هي الحقيقة العلمية أسوقها للدكتور طه وتلميذه الدكتور إسرائيل ولفنسون .

في خطبته التي ردّ بها على خطاب الرئيس السادات أثناء زيارته لمصر منذ عام تقريباً ، أشاد الصهيوني إسحاق نافون رئيس إسرائيل بطه حسين وكرّس جزءًا كبيراً منها لمدح جهوده العلمية والأدبية والتاريخية ، !! وأثنى على عقلية (عميد الأدب العربي وانفتاحه !!) وذكر في أثناء ذلك ان طه حسين عندما حل ضيفاً على الوكالة اليهودية في إسرائيل كنت أنا المرافق له وصحبته لزيارة مستعمرة رمات غان وعندما سمع الشرح عن الحياة في المستعمرة وكيف يعيش اليهود فيها خاطبني قائلاً : متى سنصبح مثلكم »[1] وبعد الزيارة وجه لي دعوة لزيارة مصر ما كنت لأستطيع القيام بها لولا مبادرة السلام ».

(١) قال طه حسين هذا الكلام في الثناء على اليهود واغتصابهم للأراضي العربية التي طردوا منها الشعب الفلسطيني وكان ينبغي له لو لم يكن أداة من أدوات الإستعمار - أن يحذر العرب من خطر الصهيونية ويكرس قلمه للدفاع عن حقوق الأمة العربية ، ولكنه لم يفعل .

فكاهات ونوادر

شعر طه هو طه الشعر

تحت راية القرآن للكاتب الإسلامي الكبير : مصطفى صادق الرافعي ، وهو كتاب ضمّ مقالات الأدب العربي في الجامعة المصرية ، والرد على كتاب : « في الشعر الجاهلي » للدكتور طه حسين ، وإسقاط البدعة الجديدة التي يريد دعاتها تجديد الدِّين واللغة والشمس والقمر .

نريد أن نسجل في هذه المقالات كلمتين كبيرتين ، فإننا إنما نكتبها لجيل سينتهي وأجيال ستبتدىء ، ولقد رسخ في يقيننا أن الله تعالى ما أشهر أستاذَ الجامعة بهذه الفضيحة التي نشرها في آفاق الأرض ملكُ الرعد . . . إلا ليجعله خزياً لقوم ملحدين ، وعبرةً لقوم منافقين ، ومثلاً عند قوم مؤمنين ، وما لغير حكمة وتقدير كانت الفضيحة مدخرة حتى تُفتح هذه الجامعة الكبرى لتبدأ تاريخ العلم العالي في مصر ويرتقي طه منصبه فيها وقد ملىء غروراً وزهواً واستطال وبذخ وتوافرت له العلل من نفسه ومما حوله ورفعته في طويل أرادت أن يكون حبال المعالي وأراد الله أن يكون من حبال المشانق . . . فلو هو سقط هذه السقطة في غير هذه الجامعة لوقع بالجناحين اللذين بهما ارتفع ، ولكنها الجامعة التي قالوا إنها أكبر من جبال الالب ، فلما تمت صنعة الجبل في بضعة أشهر[1] وأراد القدر أن يُعلن في الناس مبلغ علوه وارتفاعه لم يكن القياس إلا طه حسين يتدحرج من أعلاه إلى أسفله . . .

إن للأقدار مقاييس عجيبة لا يراد بها الكميةُ ولكن الكيفية ، ولا يُطلب منها تحديد الشيء في ذاته ولكن تحديده في عواقبه ، ويكون القياس على هذا اليوم الذي

---

(١) كانت هذه الجامعة مصنوعة لم تقمها أسبابها ، وإنما جاءت تلفيقاً بغير رجالها وفي غير وقتها ولغير طلبتها ، وهذا من أكبر أسباب سقوطها ، فما هي إلا دار وموظفون وقانون وأسماء وكلام قضى سنة كاملة ينتظر معانيه ، فلينتظر .

نحن فيه مثلاً ولا يراد به إلا مقدار ما سيكون في غد أو بعد غد أو أي الأزمنة مما يُستقبل ، ويأتي رجل كأبي جهل فيكون في أول الإسلام قياساً للكفر والتعصب في الكفر واللجاج في التعصب ، ولكن كل ذلك في مَرَدِّه ليشدَّ النبوَّة ويقيمها على طريقها ويسددها فيه ؛ كأن الأقدار تبني بناءً فإذا سألتَ ما الأساسُ ؟ قيل لك أوله هذه الحُفرة . .

والأستاذ طه حسين هو حفرةُ اليوم ، وكان لا بدّ من حفرة إذ لم يكن بُدّ من أساس ، فالله أعلم ماذا يبلغ هذا الأساس وماذا يحمل ؛ أما الحُفرة فأمرها إلينا نتولاها كيف شئنا بعد أن غارت وانخسفت ، وإنه من أجل ذلك نفيض فيما نكتبه ولا نزال نتبسط في الشرح ونتسع في تحليل نفسية طه وإيراد معايبه وبيان أغلاطه وأسبابها ، ومن أجل ذلك نسجل هاتين الكلمتين كما أشرنا آنفاً ، إذ هما عندنا باب من القول على حدة .

فالكلمة الأولى هي للدكتور طه حسين في حديث له مع جريدة « الأنفورماسيون » ترجمته السياسة . قال والإشارة في حديثه لحضرات علماء الدين : « قيل لهؤلاء البسطاء . . إني أطعن في الإسلام ، فشهروا الحرب عليَّ جميعاً ؛ على أني أقول عالياً إنه ليس في كتابي كلمة يمكن أن تؤول ضد الدِّين ، والعبارة الوحيدة التي يمكن أن أُنتقد من أجلها تضع النصوص المقدسة بعيدة عن قسوة المباحث التاريخية . . . »

والكلمة الثانية للأستاذ الشيخ عبد ربه مفتاح من علماء الأزهر في مقالة نشرها الكوكب ، وهي قوله والخطاب لطه حسين : « وكيف تزعم أيها الدكتور أن بعض العلماء أثار هذا الأمر - أمر كفركَ - وها أنذا أصرح لك - والتبعة في ذلك عليَّ وحدي - بأن العلماء أجمعين وعلى بكرة أَبيهم يحكمون عليك بالكفر ، وبالكفر الصريح الذي لا تأويل فيه ولا تجوُّز ؛ وأتحداك وأطلب منك بإلحاح أو رجاء أن تدلني على واحد منهم « وواحد فقط » يحكم عليك بالفسوق والعصيان دون الكفر ؛ أجل إني وأنا من بينهم أتهمك بالكفر وأتحمل تبعة هذا الإتهام وعليك تبرئة نفسك من هذا الإتهام الشائن والمطالبة بما لك من حقوق نحوي » أ . هـ .

نسجل هاتين الكلمتين للعلم والتاريخ والأدب ، ثم ليعلم الناس مبلغ

مصيبة الجامعة في أستاذها الذي كله مصائب ، فالأعين ممتدة إليه في هذه البلاد ولا يستحي أن يظن نفسه في أرض قفر ، والأمة كلها تُوقِّر علماءها وتفزع إليهم في أمر دينها وتراهم من رحمة اللّه بها ولا يخجل هو أن يسميهم (البسطاء) وهو يعلم أنها كلمة عامية لا يراد بها في لسان العامة إلا البلاهة والغفلة وما إليهما ، وكل العلماء إجماع على كفره الصريح حتى لا تأويل ولا تجوُّز ولا مطمع في حكم دون الكفر ، ثم هو تبلغ به الوقاحة أن يدعي أنه ليس في كتابه (كلمة) يمكن تأويلها ضد الدين ، مع أنه لا يُهدم دينٌ من الأديان بأنكى ولا أخبثَ من الطريقة التي انتهجها في كتابه وأدارها على إسقاط هيبة الدِّين وأهله في نفس الطالب الناشىء ثم الشكُّ فيه ، ثم التأدي بهذا الشك إلى الإنكار منه ، ثم التأدِّي بالإنكار إلىَ الهدم ؛ وهذه درجات يركب بعضها بعضاً كما ترى .

وتاللّه ما رأيت رجلاً أعجب من هذا الأستاذ ، ولكن كلامه إنما هو صورة فكره ، وفكرُه مظهر أخلاقه ؛ وحسبُكَ من أخلاقه هذا العناد وهذه المكابرة وهذا الكذب وهذه السُّخرية كأنه ليس في الأمة كلها إلا هو وحده يعقل ويفهم ، وإذا نحن تابعناه على منطقه فكل الشهود الذين رأوا اللِّص بأعينهم وشهدوا على جناية يده هم اللصوص ، واللصُّ وحده هو البريء ! فإن قيل له إن في هميانك ألف درهم مسروقة ، ووضعوا أصابعهم عليها ، قال : وليس فيها واحد يمكن أن يُقال إنه مسروق . . . فإن كان فيها فإنما ذلك إبعاد للأموال المقدسة عن قسوة المباحث المنحرفة .

ألا ليت شعري لهذه الجامعة ما الذي يمنعها أن تُعلِّم هذا المنطقَ البديع في دروس الحقوق ؛ فإنها بذلك تخدم حرية الفكر والعمل ، وإنها بذلك ترحم كثيراً من اللصوص والمجرمين وأهل الكبائر والصغائر مما تدعوها إليه الإنسانية وتحمده لها بتلك الألسنة ؟

وأيم اللّه لو أمكن لصاً من نوابغ اللصوص أن يكون أستاذاً لقانون العقوبات وأمكن مزوِّراً أن يدرس القانون المدني والنظام المادي ـ أن يكون أستاذاً للقانون الدولي لما فعل كلٌّ واحد منهم في درسه إلا شبيهاً بما فعل طه حسين في درس الأدب ، فلِمَ تأتي الجامعة بالرجل المُلحد يحكم بكفره ألفُ عالم فتعهد إليه بدرس

الفن العربي الذي معجزته القرآن ، ولا تأتي باللص والمزوِّر . . يتناولون القوانين ويفتحون فيها باب الرحمة بمفتاح ديكارت ؟ وهل هذا إلا جنس واحد بعضه من بعض ؟ فإن قالت الجامعة : إن أستاذها ليس ملحداً ولا كافراً ولا زنديقاً ، قلنا : وهذا أشد خزياً ومقتاً ، فأيُّما أقرب إلى الصدق والسّداد : قولُ رجل أو رجلين أو ثلاثة لا سابقة لهم في الدّين ولا صلة لهم بعلومه ، أم قولُ ألفِ عالِم يحملون ألف شهادة دينية وعلى مقدمتهم شيخ الجامع الأزهر ؟!

إنهما اثنتان عَقِمَتْ أُمّ المنطق فلم تلد لهما ثالثة : فإما إباحة الخلط في كل علوم الجامعة وتركُ الطلبَة أحراراً في التفكير والإقتناع وفي الشك واليقين ، فلا يُؤخذ أحدهم بحفظ شيء لا يراه صحيحاً ، ولا يُسأل ما رأيُ فلان في كذا بل ما رأيك أنت . . . ولا يحُاسَب على خطأ ولا صواب ، لأنه لا خطأ ولا صواب في مذهب الشك ، بل هو كله كالدائرة المُفرغة ليس لها أطراف ، وإنما لهـا المحيط لو شئتَ لقطعتَ العمر كله دائراً فيه بلا نهاية ولا غاية معينة ، وإن كان في باب المساحة لا تزيد رقعته على دائرة ثَوْر السّاقية .

هذه واحدة ،والثانية محقُ البدعة التي جاء بها طه حسين في الأدب، والبراءةُ من كتابه السخيف وإعلانُ فساده من الجامعة ذاتها ، فإن التهمة ليست على طه إلا بأنه في الجامعة ، فالتهمة على الجامعة نفسها وهي وحدها المتَّهَمة بالإلحاد والجهل والخلط وفساد التأويل والاستهزاء بالأمة وإصغار علمائها وأدبائها ، لأنها هي وحدها الراضية بالكفر ، المُعينة عليه ، المشارِكة فيه ، والمقرَّةُ للجهل الداعية إليه المحققّة له .

كان الفيلسوف أرسطو يرى بعض الرأي فيُنكَر عليه ، لأن أفلاطون يذهب خلاف مذهبه ، فكان يقول : إذا اختلف أفلاطون والحق فأيهما أحق أن يُتَّبع ؟ ونحن نقول للجامعة : إذا اختلف أفلاطونك . . . والدينُ ثم التاريخُ ، ثم العقل ، ثم الفهم ؛ فأي الفريقين أحقُ بالإتباع ؟ وفيم نحن أيتها الجامعة إلا في بيان سقَطِه وغلطه ، وناهيك بهما سَقَطاً وغلطاً لولا أنك في فلسفتك على شبيه مما يقول « أناتول فرانس » في فلسفة القوانين إذ يقول : إن الإجتماع قائم على أصلين : الأول : أن السرقة محرمة ، والثاني : أن ثمرة السرقة مقدسة لأنها من حرية

العمل : فأنت كذلك ترين أن الأدب قائم على أصلين : الأول : أن الخطأ جهل مردود ، والثاني : أن ثمرة الخطأ علم مقبول لأنها من حرية الفكر !

والآن نظهرك أيها القارىء على سر من أسرار الخطإ في أستاذ الجامعة ، وإليه يرجع أكبر السبب في كَلال ذهنه وتعقد فهمه وتهافُت آرائه وأنه إذا تعاطى القول في الأدب لم يتمكن من معنى صحيح ولم يُصِبْ غرضاً واقعاً ولا يزال دائباً يلوذ بأطراف الكلام حتى كأنه لا يفكر إلا بنصف عقل ، فلا يخرج نصف كلامه إلا من لغو وعبث وخطأ ، ولا يزال يعتريه ما يعتري كلَّ من اتخذ الخلاف مذهباً فيُحيل أكثر الكلام عن جهته ويجعل الخطأ صواباً والصواب خطأ ، ويستلب الرأي من أهله ويفسده عليهم في ظاهره أو باطنه ، ثم لا يرضى إذا فرط منه الجهل أن تُبيِّن له العلم ، وإذا وقع في الغفلة أن تكشف له عن الحقيقة ؛ فإن فعلتَ طار الغضب في رأسه فزلزله عليك زلزالاً فجره تفجيراً وجعله بركاناً فملأه نيراناً وبذلك تميز في أمثاله ومَهَر ، وبان وظهر ، وغَلَب وقهر ، وكان والله سُبّة لأدباء هذا العصر ، فكل ما في الرجل من قوة وجرأة فإنما هو مما فيهم من جُبن وإنكماش . . . –

أما ذلك السر فهو أن طه لما عَرف من نفسه ضعف المخيلة ، ورأى أنه لا يدرك ما يتعرض له ولا ينفذ إلى حقيقته ، عَدَل في الأدب عن طبيعة الشعر إلى طبيعة المنطق ؛ إذ كان الأصل في هذا المنطق الإتساع في الكلام وهو من مميزات الأستاذ وخصائصه ؛ غير أن المنطق أيضاً لا يستقيم إلا بالقريحة النفّاذة وهذه القريحة من بعض أسبابها الطبيعةُ الشعرية ، فلما خذلته هذه الطبيعة في المنطق كما خذلته في الشعر ، عدل إلى طبيعة الجدل وهو فن من الكلام قاعدته الأشكال والمقاييس ، وبناؤه على التنظيم والترتيب ، ومادته الثرثرة والإستطالة ، وأعظم مقوِّماته اللجاج والإصرار، ولا يُسأل فيه ما الحقيقة ولكن ماذا تريد أن تكون الحقيقة ، ولا ما اليقين ولكن ما ظنُّك باليقين ولا يُقال فيه ما البرهان ولكن ما الإعتراض ، ولا ما النص ولكن ما التأويل وكل ذلك إن لم تقم به الجرأة والحماقة ولم يكن سبيله من السخرية وعدم المبالاة ومن الشك والوساوس وما جرى هذا المجرى ، لم يستوِ منه شيء لصاحبه وخرج منه مخذولاً لا هو في حجة ولا مغالطة .

. . فطه حسين مُكرَهٌ على طريقته في الأدب إكراهاً ما دام يُريد أن يكون شيئاً

مذكوراً ، وإنما كان سبيل مثله أن يتبع غيره ويقلد ويحتذي ولا يستنكف أن ينزل على رأي من هو أذكى منه ولا يأنف أن يدخل في قوانين الناس ؛ فلما أبى ذلك وغلبته طبيعته وأراد أن يبتدع وما فيه من الإبتداع شيء ، كان كل عمله أن يفسد عمل غيره ، ولا طريقة إلى ذلك إلا أن ينقاد إلى الظن ، ولا سبيل لإتباع الظن إلا الشك ، ولا بُرهان على الشك إلا من غاية صاحبه ، وهذه الغاية راجعة إلى الطبع والخلق وحالة الفكر ؛ وكما يكون الشك أول اليقين في أهل الطباع السليمة والأفكار القوية والأذهان المرْهَفَة ، يكون آخر اليقين في ذوي الطباع المضطربة والأذهان البليدة .

فطه رجلٌ عالم فاضل ، تراه من أحسن أدبائنا إذا وقف عند الحفظ والمراجعة ، يُقابل بين تواريخ الأمم ويستخرج ما فيها من أنواع المشابهة والمباينة ويعمل في ترتيبها وتصنيفها ، وإذا وقف عند العقل فأخذ يجمع الحواشي والمتون والتعاليق ويضم مسألة إلى مسألة وكلاماً إلى كلام في أي علم شاء مما يحُسن إنتحاله ، ولكنك تراه من أسخف الأدباء إذا حاول التجديد والإبداع ، ثم من أضعفهم إذا تعاطى ما ليس في طبعه ولا قوته مما يحتاج إلى الطبيعة الشعرية والذهن الحاد والرأي والإستنباط ، ولا أدل على ذلك من كتابه الشعر الجاهلي ، ثم من القصص التي نقلها عن الفرنسية ، فقد كنت أقرأ هذه القصص واحدة بعد واحدة ، وهي لأعلام البيان الفرنسي ، فلا أراها إلا كعظام الموتى ليس فيها غير المادة الفطرية ونظام الهيكل وهيئته ، ولو كانت كذلك في أصل لغتها لم يكن الأدب الفرنسي إلا فضولاً وكان أدباء فرنسا أضعفَ الأمم خيالاً وأبعدهم من الشعر ومعانيه ولقد نقل خلاصة من رواية الزنبقة الحمراء لأناتول فرانس - وهي من أبلغ كتب هذا العبقري العظيم - فجاء بها كلاماً جافاً لا ماء فيه ولا رونق له . وما ينقصها من أنواع للنقص أن تكون من تأليف طه حسين لا من ترجمته !

ولست أدري كيف يأتي لمن لا يكون الشعر من طبيعته أن يكون ناقداً أدبيًّا أو أستاذاً للأدب ، وفي أي أمة نجد مثل هذا ؟ وهل كل من عرف الحساب عرف منه الهندسة ؟ لا نظن أحداً يزعم ذلك أو يكابر فيه إلا طه ، فإنه وحده يعرف من

جدول الضرب . . . علوماً كثيرة منها الهندسة والجبر وحساب المثلثات والطبيعة والكيمياء وكل ما دخله العدد ، ما دام الحساب هو العدد ، وتراه لا يجادل في شيء بما أوتي من قوة إلا في إثبات أن الناقد الأدبي لا يجب أن يكون شاعراً ، وإن المعرفة بالشعر ليست ضرورية فيه كضرورة الأداة في الصنعة لمن يتصرف بها ؛ ولو أن الشعر كان جَدَلاً وقياساً وقواعد وحدوداً لما نازع في أمره ، لكنه يعلم أنه الذوق والقريحة وهما من أسرار السموات ، ويعلم أن الشمعة إن كانت نوراً فنورها غير أشعة رنتجن ، فلا هَمّ له من ثَمة إلا أن يزعم أن النقد الأدبي منطق وعلم وتأمُّل وفلسفة ، وفي بعض هذا كلُّ وسائل النقد ، وكل هذا بعضُ مواهبه هو فيما يدعي .

ولقد رأيت كلمة بليغة للآمديّ كأنما كتبها للرد على أستاذ الجامعة منذ أكثر من ألف سنة ، أو لعله كان لهم في زمنهم طه كما لنا في زمننا ، وكان ذلك (الطاها) يظن أن رِجْله برقُ الأرض تَطوي أقاصيها في بعض خطوات فقال له الآمدي : « ولعلكَ أكرمك اللّه اغتررتَ بأن شارفتَ شيئاً من تقسيمات المنطق وجُمَلاً من الكلام والجدال ، أو علمت أبواباً من الحلال والحرام (هذه نسيها طه . . .) أو حفظت صدراً من اللغة ، أو اطلعت على بعض مقاييس العربية ؛ وإنك لما أخذت بطرف نوع من هذه الأنواع بمعاناة ومزاولة ومتصلِ عناية فتوحدتَ فيه وميزت ، ظننت أن كل ما لا تلابسه من العلوم ولم تزاوله يجري ذلك المجرى ، وأنك متى تعرضت له وأمررت قريحتَك عليه نفذتَ فيه وكشفت عن معانيه ؛ هيهات ! لقد ظننت باطلاً ورمت عسيراً ، لأن العلم أيَّ نوع كان لا يدركه طالبه إلا بالإنقطاع إليه ، والإكباب عليه ، والحرص على معرفة أسراره وغوامضه ثم قد يتأتى جنس من العلوم لطالبه ويسهل ، ويمتنع عليه جنس آخر ويتعذر ؛ لأن كل أمرىء إنما يتيسر له ما في طبعه قبوله وما في طاقته تعلمُه ؛ فينبغي أصلحك اللّه أن تقف حيث وُقف بك ، وتقنع بما قسم لك ، ولا تتعدى إلى ما ليس من شأنك ولا صناعتك » إنتهى .

وقد كان أحد أصدقاء طه يجادلنا فيه ذات يوم ، فرّد علينا ما وصفناه به من أنه لا حظّ له في الشعر ولا يدّ له فيه ، وقال : إن له فيه يداً ورجلاً . . . وإنه غير منسلخ من الشعر بل هو في جلد شاعرين معاً ، وإنه قد انبثت خواطره في كل معنى وافتتح

للناس طريقة الأدب الحديث التي جمع فيها بين بلاغة اليونان والفرنسيس والعرب ، فذهب في شعره بمحاسن هذه الأمم الثلاث ؛ ودلَّنا على أبيات كان نظمها في استقبال العام الهجري وقال إنها نُشرت في بعض أعداد المقطم من زمن ، فكتبنا إلى من جاءنا بها ، فما منها إلا المعنى البكر والأسلوب النادر واللفظ الموسيقي ، وفيها الحلاوة والطلاوة ولها رفيف وعليها ماء ، حتى لو تُليت على شجرة جافة لاخضرَّت ثم هي بعدُ آيةٌ في الدلالة على القريحة الصافية والبلاغة المتمكنة والطبع البدوي السَلس الرقيق الذي عرفه هو في كتابه بأنه يُعرض عن تكرار الحروف ، فقال لا فُض فُوه ، وبتعبير المذهب الجديد : لا أحوجه اللّه إلى تركيب أسنان .

مالي وللبـدر أطلـب ردَّه (كذا)[1]	بـل ما لأفـلاك السماء ومالي
لا دَرَّ دَرُّ المالَ لو لم يُدَّخَرْ	لبنـاء مكرمـة وحسـن فعال
لا در در المال لو لم يدخر	إلا لذات الطـوق والخلخال
لا در در المال لو لم يُدخر	إلا لنيل مراتـب الإجلال
والأغنياء على الملاهـي عكّف	صرعـى اللواحـظ والهـوى الختّال

ولا ريب عندنـا أن هذه الأبيات من قصيدة طويلـة ذهبـت بقيتهـا في إحـدى الزلازل ، لأنه بعد هذا الشعر لا يكون إلا الرجـم وانقضـاض الشهـب وتمـزُّق الأرض ؛ أفلا ترى الشيخ يقول « بل ما لأفلاك السماء ومـالي » فهـذا نذير بأنهـا توشك أن تنقض عليه وتُتبعه شهاباً رصداً . وتأمل البيت الرابع فإنه من فرط سموه وإبداع معناه والتعميق فيه قد فسد ، لأن الشاعر يلعن المال إن لـم يدخر إلا لنيل مراتب الإجلال فهل مراتب الإجلال إلا العـلا والمكارم ، وهل يدخـر المال إلا لهذا ؟ أم تكون المراتب هي الرتب والنياشين ؟ وإذن فما كلمة « الإجلال » إلا سمو آخر لإفساد المعنى إذ رُتَبُ الإجلال هي رتب العظماء في كل أمة ، فيا صاحب هذا السمو إن كان ذلك شعرك فقد سلّمنا لك ما تدعي من أن الكثرة المطلقة في الشعر الجاهلي منحولة بل كل الشعر الجاهلي مكذوب موضوع لما فيه من التوليد والسُّخف والركاكة ، وأنه لا يمثل الحياة الجاهلية . وإنما جاءك الدليل على هذا الرأي من أنك

(١) كذا ، رأيناها منشورة ، وظاهر أن أصلها مالي وما للبدر .

لو كنت أنت في ذلك العهد وجاءت إليك القبائل تستكثر بك من وقائعها وأشعارها ، وجاءك الرواة يحملون عنك والقُصّاص لتخلق لهم ذلك الخلق ـ لوضعت على فحول الجاهلية من نمط أبياتك هذه جزالة وقوة وإحكاماً وذهاباً في فنون الشعر ، فَعضل شعرُك بأهل النقد والتمييز ، ولا تُجريه في شعر إلا أشبهته وامتزجت به إمتزاج الماء الصافي بالماء الصافي وإن كانا من نبعين مختلفين فلا يعرف بعد إمتزاجهما من هنا وأيهما من ثمَّ ! . . .

إني واللّه أستحيي لطه حسين أن يكون هذا شعره ثم يتكلم في الشعر فإن هذا الكلام الركيك ما فَصَل عن نفسه إلا وبينهما شبه في الجفاء والغلظة والإضطراب والتخرق ؛ وما يسقط الأستاذ أكثر ما يسقط في كتابه الشعر الجاهلي إلا من هذه العلة الشعرية في ذهنه ، ومن تلك العلة الفلسفية في رأيه فما هو الشاعر ولا هو فيلسوف ، ولكن كتابه قائم على الشعر وإدراكه وتمييزه وتصحيح نسبته إلى فحولِ كبار أئمة هذا الفن ، وعلى الفلسفة في التاريخ وتناولها الأشياء والحوادث والأشخاص من جهة عللها وأسرارها ، فلا جَرْمَ تهافتَ وتعثر وأحال وتناقض بحيث لا يصيب في واحدة إلا أخطأ في عشر .

ولم يكن بِدعاً أن يجيء كتابه على مقداره فيغلب عليه الضعف ويفسده التعسف وتنزعه النزعات الخبيثة لا يكون كتابه في حاجة إليها ولكنها من حاجة نفسه فلا يزيد على أن يفتضح بها ؛ ومن أغربها قوله في صفحة ٧٤ إذ نقل من الأغاني عن عبد العزيز بن أبي نهشل قال : إنه قال لي أبو بكر بن عبد الرحمن وجئته أطلب مَغرَماً : يا خال ، هذه أربعة آلاف درهم وأنشد هذه الأبيات الأربعة وقل سمعت حسّاناً ينشدها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ! فقلت : أعوذ باللّه أن أفتري على اللّه ورسوله ، ولكن إن شئت أن أقول سمعت عائشة تنشدها فعلت . قال : لا ، إلا أن تقول سمعت حسّان ينشدها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ! فأبى عليّ وأبَيتُ عليه ، فأقمنا لذلك لا نتكلم عدة ليال . فأرسل إليّ وقال : قل أبياتاً تمدح بها هشاماً وبني أمية وأجعلها في عكاظ واجعلها لأبيك . . . الخ .

قال أستاذ الجامعة المتّبع مذهب ديكارت : فانظر إلى عبد الرحمن كيف أراد صاحبه على أن يكذب وينتحل الشعر (كذا) على حسّان ، ثم لا يكفيه هذا الإنتحال حتى يذيع صاحبه أنه سمع حساناً ينشد هذا الشعر بين يدي النبي صلى اللّه عليه وسلم ؛ كل هذا بأربعة آلاف درهم ؛ ولكن صاحبنا كره أن يكذب على النبي صلى اللّه عليه وسلم - بهذا المقدار - واستباح أن يكذب على عائشة » أ هـ .

فهل تجد أنت في القصة مساومة أو ما يشير إليها حتى يكون الرجل المسلم لم يكره الكذب على النبي صلى اللّه عليه وسلم إلا لقلة الثمن ؟ وهل فرق في الكذب بين أن يكون بأربعة آلاف أو بعشرة أو أقل أو أكثر إن لم يكن الإيمان هو الذي منع الرجلَ منه للحديث الصحيح عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : « من كذب عليّ عامداً متعمداً فليتبوأْ مقعدَه من النار» غير أن فقه الرواية أن نفس طه في جشعها وتكالبها على المال حلالاً وحراماً ، وفي رقة دينها وإيمانها . هي التي أوحت إليه هذا التعليل السخيف البارد ، فحسب أنه لو كان هو المسؤول أن يكذب لقال للسائل : يا هذا ، إن الكذب على عائشة بكذا وعلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بكذا ؛ فإذا لم تبذل إلا أربعة آلاف فلا أكذب إلا على عائشة . . .

والرواية في عبارتها صريحة واضحة لا لبس فيها[1] . ولكن طه كما وصفنا ثمرةٌ لم تنضج إلا مُرة شديدة المرارة ، فليست تُذاق أبداً إلا دلت على نفسها وتركت طعماً من مرارتها ينبيء عنها ، ولو أن الجامعة المصرية أُلحقت من أجل ذلك بشركة السكر . . . لأفلست الشركة في إحلاء هذه الثمرة ولا تحلو !

ويقول في صفحة ٥٦ « في عصبية قريش على الأنصار » إنه كان من قريش من يتجاوز الإقتصاد في العصبية إلى شيء يشبه العطف على الأنصار والرثاء لهم ، ولعل الزبير بن العوّام كان من هؤلاء العاطفين على « الأنصار » الراثين لهم الحافظين لعهدهم والراعين لوصية النبيّ صلى اللّه عليه وسلم فيهم ، فقد يحدثنا - كذا - الرواة أنه مرّ بنفر من المسلمين فإذا فيهم حسان وهم غير حافلين بما يقول ، فلامهم على ذلك وذكّرهم موقعَ شعر حسان من النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وأثّر ذلك في نفس

---

(١) في الأغاني في خبر عمر بن أبي ربيعة من رواية أخرى أن الأبيات التي قيلت هي لعمر ، فإذا صحت هذه كانت الرواية التي استدل بها طه مكذوبة فلا دليل فيها . وسبيل « الديكارتي الصحيح » في مثل هذا أن يسقط الروايتين أو يذكرهما معاً ، أما « الديكارتي المزور » فسبيله ما رأيت في عمل الشيخ .

حسّان فقال يمدحه . واحب أن تلتفت إلى أول هذا الشعر . فهو حسن الدلالة على ما أريد أن أثبته من دخول الحزن على نفوس « الأنصار » لهذا الموقف الجديد الذي وقفته منهم قريش ، وأول الشعر هو :

أقام على عهد النبي وهديِهِ حواريُّه والقولُ بالفعل يُعْدَلُ
أقام على منهاجِه وطريقِهِ يوالي وَليَّ الحقِّ والحقُّ أعدل

طه : فأنظر إلى هذين البيتين في أول المقطوعة كيف يمثلان ذكر حسان لعهد النبي صلى اللّه عليه وسلم وحزنَه عليه وأسفَه على ما فات « الأنصار » من موالاة النبي لهم وإنصافه إيَّاهم ». إنتهى .

وبعد صفحة واحدة قال : كما كان الزبير من هذه الفئة القرشية التي كانت تعطف على « الأنصار » ذكراً لعهد النبي صلى اللّه عليه وسلم أو احتفاظاً بمودة الأنصار ليوم الحاجة . . . ».

والخبر من الأغاني في ترجمة حسّان ، وعبارته أن الزبير مرَّ بمجلس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وحسان بن ثابت ينشدهم من شعره وهم غير نشاطٍ لما يسمعونه منه ، فجلس معهم الزبير فقال : ما لي أراكم غير آذنين لما تسمعونَه من شعر إبن الفُريعة ، فلقد كان يعرض لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه ولا يشتغل عنه بشيء فقال حسان وأنشد الأبيات .

فانظر كم في أسباب الدلالة التاريخية بين قول الأغاني إنه مر بمجلس من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقول طه مر بنفر من المسلمين وهذا الخبر قد مرَّ على كل علماء الأدب والتاريخ الإسلامي فما فِطن أحد إلى دلالته على حزن الأنصار وعطف الزبير عليهم « ليوم الحاجة » ، إلا أستاذ الجامعة وحده ؛ فأين فيه ذكر الأنصار وحزنهم على ما فاتهم ، وإنما يتكلم حسان عن نفسه وإياها أراد بقوله « وليّ الحق » إذ كان يتولاه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهو رجل شاعر كل مجده في إقبال الناس عليه ونشاطهم لكلامه إن كانوا من قومه الأنصار أو من غيرهم .

وأين النّص يا أستاذ الجامعة على أن ذلك المجلس من الصحابة كان من قريش ، فإنه إذا جاز أن يكون من الأنصار فقد بطُل ما جئت به ؛ إذ يكون قومُ

حسَّان هم الذين لم ينشطوا لسماعه ، ثم كم من الفرق بين أن يكون سامع الشعر غير ناشط له وبينَ أن يكون غير « حافل » به ؛ ثم أين النص على أن ذلك المجلس كان في تاريخٍ بعينه مع أنه يجوز أنه كان في زمن عمر بن الخطاب بعد أن استقرت الأمور ولم يبق شيء من الخلاف بين قريش والأنصار ، أو بعد ذلك بزمن بعيد ؛ فإن الزبير قتل في سنة ست وثلاثين للهجرة . وإذا علمتَ أن الزبير هو ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريُّه وصفيُّه وقد شهد معه المشاهد كلها فلا تسألني أنا عن معنى قول الأستاذ « ليوم الحاجة »، ولكن سل رجلاً مُلحداً زنديقاً لا يظن أن في النفوس نفساً مؤمنة ، لأن الإيمان عنده خدعة من خدع السياسة كإسلام نابليون في مصر !

وعجيب من طه بعد أن عرفت شعره ومبلغ فهمه للشعر أن تراه يقول في صحيفة ٩٩ : « وكل هذا الشعر إذا نظرت فيه سخيفٌ سقيم ظاهر التكليف بيِّن الصنعة . . . ».

وفي صحيفة ١٠٣ « ويروي لنا إبن سلام شعراً آخر ليس أقل من هذا سُخفاً ولا تكلفاً ولا انتحالاً . . . »

وفي صحيفة ٤١٥ : وقال دولة سعد باشا للُورد لويد : يحسن استشارة لندن ؛ فقال اللورد : أنا لندن في المسائل الحاضرة ! وأنا أقول كذلك للرافعي ولغير الرافعي : أنا الشعر ، أنا الجامعة . . . ![1] .

---

(١) تحت راية القرآن .

عَصبيَّة طه حسين على الإسلام

قيلت لي عبارة لم أصدّقها ولا أزال في ريب منها ، وأرجو أن تكون حديثاً مفترىً وكذباً صُراحاً ، وأن يكون طه بريئاً منها براءة الذئب من دم إبن يعقوب ؛ إن الدم ليس غريباً من الذئب ، وليس الذئب إلا طبيباً دموياً ؛ ولكن ابن يعقوب له دم غير دماء الناس ، وقد كان لا بد لهذا الدم الزكي أن يُنشأ به ذلك الفكر النبوي المُلْهَم فيستنقذ مصرَ وأهلها من المجاعة والقحط ؛ فلو أن الذئب وَلَغَ فيه لقتل به أمة كاملة ، وبهذا كانت براء الوحش من ذلك الدم كأنها فضيلةٌ نقلته من طبع الذئاب إلى طباع أهل النُسُك من عباد اللّه المقرَّبين وجعلت تهمته مثلاً مضروباً في الظلم دائراً في الأفواه باقياً في ميراث بني آدم من الحكمة والبلاغة ، وعاد الذئب ـ وإنه لذئب بعدُ ـ كأنما استُشْهد وكأنما وقعت عليه التهمة فقتلته في سبيل اللّه فأصبح قدّيساً اخضرَّت أظفاره من ريح الجنة فأنبتت ورق الريحان وانقلب ما كان سَفَكَه من الدم فنبت منه الورد ،وبدا الذئب القدِّيس في التاريخ كأنه طاقة زهر فيها الأخضر والأحمر ، وفيها أوراق الياسمين البيضاء من أنيابه وأضراسه . .

وطه حسين إن لم يكن ذئباً ، ولكننا نرجو أن يرحمه اللّه ببراءته من تهمة كتهمة الذئب تعدو على النبوة وتمزق بأظفارها أديم الإسلام ؛ وقد علمنا أن كان لبريئاً منها ، ولكن يقال واللّه أعلم إن المبشرين وجدوا في كتاب « الشعرْ الجاهلي » ما كانوا يحومون حوله فلا يصلون إليه[1] وما قضوا في البحث عنه ستين سنة تحت شمس

---

(١) بعد نشر هذه المقالة بشهرين جاء في مجلة الفتح الإسلامية التي يحررها بعض علماء الأزهر الشريف ما يأتي :

ليقل لنا طه حسين كم يتقاضى من رجال التبشير ، أو بعبارة أدق : من رجال الدول الغربية من أجر على دعايته تلك لهم وعمله لصالحهم وجهاده من أجلهم هذا الجهاد الطويل العنيف الذي لا يرهب فيه أمة بأسرها . . . إن ذلك الأجر لا بد أن يكون عظيماً جداً كما يتحدث به الناس في أنديتهم الخ ، الخ .

المشرق يلتمسون بعضه في كلام عالم من العلماء المسلمين أو رجل ذي منصب فيهم أو أديب له شهرة ومكانة ، فأصابوه اليوم في دروس أكبر جامعة في أكبر مملكة إسلامية ، وأصابوه من أستاذ كبير مصرٍ عليه معاند فيه تؤ يده الجامعة وتحميه وتدفع من ورائه وتنصره ، وإن خَذَلَت فيه الأمة كلها ، وإن سفَّهت كل أهل العلم وأهل الأدب ، وإن أهانت دين الأمة والحكومة تأييداً ـ زعموا ـ لحرية الفكر ، لا يبالون أكان هو الفكر الناضج الصحيح أم الفكر العاجز المستهلك الذي يشبه أفكار الصبيان في إقامة ما يبنونه على شاطىء البحر من قصورهم الشاهقة في أملاكهم الواسعة . . . أو أفكار البنات تبني ما يلذن من الدُّمى والعرائس ، أو أفكار طه حسين فيما زعم في القرآن والنبوة .

لقد ضاعت الثقة بهذه الجامعة فكأنها لا تفهم أن كلام طه ليس برهاناً واحداً عند المبشرين ، ولكنه برهان عليه براهين ، فهو في نفسه دليل ونسبته إلى الجامعة دليل ، ومجيئه من بلاد الأزهر تقوية للدليلين معاً ، وإصرار الجامعة عليه خاتمة للأدلة ؛ ألا ليت شعري ما تملك الجامعة أن تصنع إذا ترجم المبشرون خلاصة هذا الكتاب وشرحوه وبسطوه ونقلوه إلى الإنجليزية والفرنسية والسنسكريتية والصينية واليابانية وغيرها ، وطبعوا منه الملايين ـ ولهم المطابع الكبيرة ، ولديهم الأموال الطائلة المحبوسة على محاربة الإسلام ، وفي أيديهم الدعوة العريضة ـ وأذاعوا في أقطار الأرض أن الجامعة المصرية الإسلامية لحكومة مصر قررت في دروسها أن القرآن وضعٌ إنساني فيه الخرافة وفيه الكذب ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم رجل سياسي فلا نبوة ولا رسالة[1] . وأن أئمة المسلمين يكذبون في تأويل تاريخهم ويؤ يدون هذا التاريخ بقول الزور والانتحال ، ويستشهدون لقرآنهم وحديث نبيهم ـ وهما أصلا الدين كله ـ بشعر لفقوه تلفيقاً ونسبوه إلى أشخاص خلقوهم خلقاً ، وأن هذا الكذب مرتفع ممتد يرتقي في عصورهم وأجيالهم إلى زمن الخلفاء الراشدين ، وأن ورود الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وما يُؤْثر من كلام أصحابه عن شيء اسمه امرؤ القيس وغير أمرىء القيس لا يوثَق به ؛ إذ لم يكن من هذا شيء ؛ فالأحاديث الصحيحة كذب ، وأسانيدها التي حققها العلماء

(١) أسرعت الجامعة بعد هذه المقالة فجمعت نسخ كتاب طه ومنعت بيعه لكنها اشترتها منه شراء ، فجعلت لعلمة ثمناً ثم لما ظهر لها أنه جهل دفعت فيه ثمناً آخر . . .

حفظوها وتناقلوها وأجاز بها بعضهم بعضاً زمناً بعد زمن إنما هو تواضُعٌ على الكذب من هذه الأمة .

وحسبكم بأمة يمضي زهاء أربعة عشر قرناً ويكون عديدها ألف مليون وتنبثّ في أقطار الأرض كلها ثم لا ينبغ فيها رجل يعرف الصحيح ويفطن له ويستعلن به للناس ويقرره ويعلمه إلا رجلاً واحداً هو العلامة حجة المبشرين . . . الدكتور طه حسين !

ما عسى أن تفعل الجامعة المصرية في هذا البلاء الداهم وهذه الفتنة الآكلة ، وكيف لها بسد الثُلْمَة إذا إنفجرت وانبثق منها هذا الشر العظيم ، وهي إلى اليوم كأنها مأخوذة لا تعي ، ومسحورة لا تفهم ، وعميد الآداب فيها رجل أعجمي لا يزال من العربية في المنزلة التي يقال له فيها : إذا نقلت النقطة من تحت الباء إلى فوق صارت نوناً . . . فما رأينا هذه الجامعة تبرأت من هذا الكتاب ولا انتفَتْ من نسبته إليها ، ولا تزال تحسبه كتاباً في الشعر الجاهلي . . . وهو كتاب في التنكيل بالإسلام ، وهو في موضوعه أشبه بالسلسلة صفحاته حلقاته ، فلا تستهيننّ بحلقة فتقول إنما هي واحدة وإنما هي ضئيلة ولا خطر لها ، فإنه ليس الشأن في حلقة حلقة ولا في صفحة صفحة ، بل في إتصال بعض ذلك ببعضه واجتماع جملته من أجزائه وتفرّق أجزائه على جملته . وعلم الله ما كتبنا هذه المقالات إلا لنقنع الجامعة بجهل شيخها وفساد رأيه ومرض نيته ، ثم لنردّ عليه هذا الغِلّ الذي في قلبه للمسلمين ، وهذه السخرية التي في لسانه وقلمه لدينهم وأئمتهم وعلمائهم ، وهو على ذلك ضعيف الفهم سخيف التقليد ، وهو في غاية تحصيله رجلٌ حافظ كالأوراق المجموعة من كتاب إلى كتاب ، وفي غاية عمله رجل جريء يقع في الأشخاص وفي المعاني ، ويستوحِل في كل وَحْلٍ ، وقد لبسه عقله الناقص الأهوج فلا يثبت ولا يتحرج ولا تسوءه السيئة من نفسه ولا تسره الحسنة من أحد ؛ وما زلنا نذكر له كلمة غريبة لو خلق الله منها شيئاً بعد موت طه لجاء منها طه نفسُه مرة أخرى . فقد لقيناه في جريدة السياسة عند رئيس تحريرها وقلنا له فيما قلنا : إنك لست بالعقل العام ولا الحقيقة الكلية فيسوغ لك أن تظن أن ما لا تفهمه أنت لا يفهمه أحد ، وإن الناس خُلقوا على درجات قد يبعد أعلاها من أسفلها حتى ليكون العالم من عالم أذكى منه بموضع كموضع الجاهل من العالم ؛ ورويناه له قصة إمام عصره بهاء الدين العاملي حين اجتمع له

العلماء في مجلس وفيهم علامة الشام الإمام البوريني ، فبدأ البهاء يتكلم في التفسير بكلام صريح واضح فهمه كل من في المجلس من عالم وغير عالم ، ثم دقق حتى لم يفهمه إلا العلماء ، ثم علا حتى لم يفهمه إلا البوريني وحده ، ثم غمض غموض السرّ في حقائق المعقولات حتى لم يفهمه ولا البوريني ، فما كان من جواب الأستاذ الأديب المهذب طه حسين إلا هذه الجملة بحروفها « دا مغفّل لازم » . .

أما والله إن المغفل هو الذي يحسب أن سنن الكون تنشىء له أمة جديدة بكتاب ككتاب الشعر الجاهلي ، وتفسد له أمة قديمة بمجموعة كمجموعة قصص السياسة ، ثم لا يعلم أن الفاسق الفاجر يكون من الهوان على الله بحيث لا يجعل الله أمره في هذه الأمة المسلمة يزيد شيئاً على حانة في شارع في مدينة .

كلما نظرنا في كتاب الشعر الجاهلي لم نزدد إلا يقيناً بأن هذا الأستاذ الذي يسبّح بمذهب ديكارت هو أشدّ الناس خروجاً في كتابه على هذا المذهب ، فإنه لا يكتب ولا يفكر إلا لغرض واحد يبتغي له وسائله وأسبابه بكل ما استطاع ، وهو توهين أمر الإسلام وصدعه من مفاصله وتفكيك العُقَد المحكمة التي يتماسك بها في تاريخه ، وناهيك به دائباً يجمع من هنا وهناك ، من أثينا إلى مكة . . . !

فالأستاذ لا يبحث كما يدعي وكما هو الأصل في مذهب ديكارت ، وإنما يقرّر تقريراً ، وشتان بين بحث يراد منه ما ينتجه من غير تعيين لنتيجة محتومة ، وبين تقرير النتيجة التي يساق لها البحث وتجمع لها الأدلة ؛ فإن الأول يصلح على التجرّد من الأسباب التي تؤثر في الرأي كالعاطفة والعصبية وغيرهما ، وأما الثاني فزَعْمُ التجرد فيه حماقةٌ وسخرية ، لأن النتيجة المعينة لا تجاذب إلا مقدّماتها . وهذه المقدمات لا تستدعي إلا أسبابها ، وهذه الأسباب لا تقوم إلا بأحوال مقررة منها الرأيُ والعصبية والميلُ والهوى ونحوها ؛ وذلك ما حمل طه في إقتحام هذه الخطة وركوب هذا النهج ، على ما فعل من تحريف النصوص وإرادتها لما ليس فيها ؛ وعلى ذلك الخبط من سوء الفهم وفساد الإستنتاج ؛ ومن أجل ذلك تناول الدِّين بالتكذيب والرد وتعصَّبَ تلك العصبية الحمقاء في تأويله وسياق أدلته ، وجعل الشبهة حجة والحجةَ شبهة ليستوي له أن يخالف الإجماع ، فإذا خالفه نقضه ، فإذا نقضه وظن أنْ قدْ تهيأ له نَسقٌ تاريخي ولو مزوراً مكذوباً عاد بالهدم على التاريخ وعلى الأسباب الطبيعية

الواشجة فيه وكسر كل قياس كان العلماء يقيسون عليه ، فيتم له بذلك ما يسميه هو وأمثاله جديداً وهو من السخف بحيث ترى .

ولسنا نتحرج أن نُنبه هنا إلى أصل هذا الجديد الذي يزعمونه ويتشدّقون به ، فكل فاسق ؛ وكل ملحد ؛ وكل مقلد أحَدَ هذين ، وكل متهوس بإحدى هذه العلل الثلاث ـ هو مجدد إذا جرى في انتحال الأدب العربي وتعاطيه مجرى التكذيب والرد والنقيصة والزراية عليه وعلى أهله والخبط ما بين أصوله وفروعه ، على أن لا يستخرج من بحثه إلا ما يخالف إجماعاً ، أو يعيب فضيلة ، أو يغضّ من دين ، أو ينقض أصلاً عربياً جزلاً بسخافة إفرنجية ركيكة ، أو يحقر معنى من هذه المعاني التي يعظمها الجامدون أنصار القديم من القرآن فنازلاً ؛ وبالجملة فالتجديد أن تكون لصاً من لصوص الكتب الأوربية ، ثم لا تكون ذا دين ؛ أولا يكون فيك من الدين إلا اسمك الذي ضرِب عليك فلا حيلة لك فيه ولا تستطيع أن تستدرج منه إلا في أولادك المساكين كما فعل أبو مرغريت الشيخ[1] . . . ثم لا حاجة للجديد بإلحادك وزيغك إلا إذا طبعتَ بأحدهما أو كليهما مسائل التاريخ الإسلامي والأدب العربي ؛ وأفسدت الخالص بالممزوج ؛ وحقرت الناس والمعاني ، وكنت حراً طليقاً من قيود السماء والأرض إذا صدرت أو وردت ؛ فتقول على قدر عقلك ، ثم تعقل على قدر زيغك ، ثم تزيغ على قدر ما أنت قادر !

أما إن بحثت وقايست وتعقلت وكنت أذكى الناس وأبلغ الناس ؟ ثم كنت لا تستخرج من التاريخ والأدب إلا ما يزينهما ويزيدهما ويكشف عن أسرارهما وحقائقهما الصحيحة ،ولم تكن لصّ كتب أوروبية ومذاهب أوروبية ـ فالويل لك ؛ فما أنت إلا قديم ؛ وما أنت إلا نفس حجرية ولو قدّسك المسلمون تقديس الكعبة وحَجَرها ؛ وإن العصر لفي غنى عنك وعن كتبك وآرائك لأن خمسة أو ستة ـ أو خمسين أو ستين ـ هم العصر وهم الأمة وهم من التاريخ المترامي إلى المستقبل كالقطار : فيه ما فيه من عربات تحمل من العروض على أجناسها وأنواعها ومن الناس على درجاتهم وطبقاتهم ، ولكن الخمسة أو الستة هم وحدهم عربة الآلات والبخار وفحم نيوكاسل . . .

---

(١) وهو أبو «البرت » أيضاً ، فكأنه مادة من مواد التحول الأجنبي في هذه الأمة وإخراج أبنائها على غير دينهم ولغير وطنهم ، لا أكثر الله من أمثاله ، ولا جعل في مرآته غير خياله .

بلى أيها المجددون ، غير أنه ليس على الأرض معصوم من الخطإ ، وغير أننا نعرف أن غلطة العالم تدلك على علمه كما يدل صوابه . وأن شبهة الجاهل تدل على جهله كما يدل خطؤه ؛ إذ كان الأول متحرزاً يتوقى جهدَه ، وكان الثاني متحمقاً يسترسل جهده ؛ فعلى قدر قوة الشبهة وضعفها ، وبحسب نوع الغلطة وشكلها ، يُعرف نوع الفكر وتتبين حالة العقل ؛ وبهذين تعرف صفة النفس ، وبالنفس لا بغيرها يقوم التاريخ الإنساني .

فتعالوا نسألكم لو أن عيسى عليه السلام كان معه مائة ألف من أمثال الخواجة المجدد سلامة موسى[1] أيكون معه إلا مائة مكابر سخيف يفسدون عليه ولا يُغْنُون في أمره ما يغني رجل واحد من أولئك الصيادين الذين كانت في أنفسهم الصافية روحُ الماء العذب !

ولو أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان معه خمسمائة ألف من أمثال الشيخ المجدد طه حسين ، أفيرُدُّون عليه ما ردّ عربي واحد قلبُه روحُ سيفه ؟

أرأيتم الآن أيها الفضلاء جداً . . . أن الأمم في غنى عنكم ، وأن حاجتها كلَّ الحاجة إنما هي إلى إيمانها وقديمها ، وأنكم لا تنزلون منها ومن تاريخها وأسباب تاريخها إلا منزلة الثرثرة في المعنى الصريح من المعنى الصريح ، وأن مَثَلكم معها كمثل حادثة تاريخية عظيمة أخذت ما أخذت من الناس وتركت ما تركت فيهم حتى إذا مضت لسبيلها وصارت حديثاً في الأحاديث جاء رجل متسكع مُتَلكع فاحتسى ألف كأس من الخمر وأحرق ألف دخينة من التبغ[2] وأضرم النار وروح النار على دماغه ليخرج من دماغه رواية تمثيلية في تلك الحادثة تزخرفها بالكذب وتزينها بالفلسفة وتزيدها بالتحليل والمنطق وتجملها بالخيال والشعر ، ثم لا تكون مع هذا كله في جنب الأصل إلا مَلهاة وهزؤاً وسخرية ليس فيها إلا حسام لا يقطع ، وبطل لا يمنع ، ونار لا تحرق وبحر لا يُغرق ؟

أتظنون أن التجديد لا يقوم إلا بالهدم ، وهل يبلغ ما أنتم فيه من الحماقة

---

(١) رجل مسيحي يترجم لبعض الصحف والمجلات، وكما يستطيع أن ينشر فيها يستطيع أن يزعم لقرائها، فلا قدرة له من جديد، ولكنها القدرة على نشر ما لا يستحق أن يقرأ؛ وما المصيبة به إذا حققت إلا مصيبة صحفية لا غير، فمثله يحسن أن يسمى جريمة من جرائم البشر!

(٢) وضعنا كلمة الدخينة للسيجارة، وجمعها دخائن.

وضعف البصر بعواقب الأمور وأسرار الأشياء أن تقولوا إن البناء الجديد لا يقوم إلا بعد هدم القديم وإزاحة أنقاضه وإقرار الجديد في موضعه ؟ أهو بناء من الطوب والحجارة والأخشاب ترفعون هذا وتضعون هذا ، أم هو بناء بالكلام على أرض من الورق فكل ما جاء ليبني بَنى وكل ما جاء ليهدم هدم ؟ أفلا تعلمون أن القديم لا يهدم البتة لأنه هو الذي يُبدع الجديد ويشقه ؛ فإن هُدم في أمة من الأمم زال الجديد بزواله ولم يبق من الأمة إلا بقايا لا تستمسك على حادثة ولا تقر على صدمة . وأن سنَّة الكون في الجديد أنه ترميم في بعض نواحي القديم وتهذيب في بعضها وزُخرُف في بعضها الآخر ، وإلا لوجب أن يتجدد التركيب الإنساني والتركيب العقلي ، وهو ما لم يقع ولن يقع منه شيء .

فالشأن في الجديد أن تتصل المادة الجديدة بالقديم فإذا هو هو ، ولكن ببعض الزيادة أو بعض الزينة أو بعض القوة ، وكل ذلك لإحداث بعض المنفعة ، فالرجل المجدِّد لا يوجد نفسه أيها الفضلاء جداً ، وما هو من الهوان على الكون ونواميسه وعلله بحيث يقول سأكون فيكون ؛ ولو أن كل أسود في مطعم أو حانة كأسود بني عبس لفسدت الأرض ولم يبق للشجاعة تاريخ يحُفظ ، ولو أن كل لون أحمر يقول أنا الورد لما بقي للورد معنى إلا أن يكون خجلاً في وجه الدنيا . .

المجدد أيها الفضلاء جداً لا تخرجه للأمة إلا أقوى عناصر القديم متى إجتمعت فيه صحيحةً متظاهرة يمد بعضها بعضاً ، فإنّ من انتهى إلى غاية من الغايات كان هو الحرِيّ أن يستشرف لما بعدها وأن يأتي بما لا يستطيع مَن دونه ، ولكن الشرط أن يكون قد بلغ هذه الغاية ، وما يبلغها إلا إذا كان مهيئاً بوسائلها ، ولن تأتي له هذه الوسائل على أتمها وأكملها إلا إذا شاءت الحكمة الإلهية أن تُنفخ شيئاً في أساليب الحياة والنظام القديم .

فالذي يحصل من كل ما تقدم أن لا جديد إلا حيث تُبدع الحكمة شيئاً ثم تتصل نواميس الحياة النفسي بهذا الشيء فإذا هي تفعل به ما اقتضته الحكمة ما نسميه هدماً أو بناء ؛ فأنت إذا كنت مجدداً في اللغة مثلاً وكانت فيك العناصر الكافية لإجتماع قوة من قوى الناموس العام فلا بد أن تُبدع شيئاً غير موجود لا يستطيعه غيرك كما تستطيعه أنت ، فإذا أبدعت وإستحدثت رأيت القديم نفسه هو الدليل على أنك

جددت فكنت بشهادته مجدداً ، وهي شهادة كما ترى لا تنالها بأنك « محرر » صحيفة أو مترجم مجلة أو ملخِّص من بعض آراء الفلاسفة ، بل من حياة عصرك وطبيعته وقوانين وجوده ، إذ تكون أنت زيادةً في العصر وآيةً في الطبيعة وكلمـةً جديدة في قوانين الأمة[1] .

كأن هذا بعيد عن موضوعنا ، ولكن كيف نصنع وموضوعنا طه حسين ، وهو رجل كشبكة الصائد : كلها عيون وخروق ، وبين كل خرق وخرق عُقدة . . .

رأينا عصبية طه على الإسلام تلبس ثلاثة وجوه : أولها : عقيدته في القرآن وأنه من وضع الذي جاء به لا من وحي ولا تنزيل ولا معجزة .

وثانيها : رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم وأنه رجل سياسي فلا نبوة ولا رسالة .

وثالثها : عمله في توهين أمر الأئمة من الصحابة فَمنْ بعدهم وَقياسُهم في الإنسانية وأهوائها وشهواتها على قياسٍ من نفسه وطباعه . . .

---

(١) ذلك أصل الجديد في زمننا ، فهو راجع إلى العامية والإلحاد والتهور والفساد الأوروبي وما جرى هذا المجرى ، ويقابله من معنى القديم : العربية والإسلام والفضائل الشرقية وما اتصل بها ، أما الجديد فيما عرف من تاريخ الأدب العربي فكان أن الرواة لم يكونوا يحملون الشعر إلا للمثل والشاهد ، فلا حجة لهم من كلام المحدثين ولا رواية إلا من الشعر القديم وحده إلى آخر المائة الأولى ، وبهذا انصرفوا عن بشار وأبي نواس وطبقتهما وتجنبوهم في الرواية .

قال ابن الأعرابي : إنما أشعار هؤلاء المحدثين كأبي نواس وغيره مثل الريحان : يشم يوماً ويذوي فيرمى به . وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر : كلما حركته إزداد طيباً . وأنشده رجل شعراً لأبي نواس أحسن فيه ، فسكت ، فقال الرجل : أما هذا من أحسن الشعر ؟ فقال بلى ، ولكن القديم أحب إلي . ومثل هذا كثير، ومرجعه إلى قوة الشعر القديم في لغته وسبكه ، وأنه مادة الإستشهاد وديوان التاريخ وكتاب المعاني ، ثم استمروا على ذلك وعاد كل قديم في هذا المعنى أقوى من كل جديد ، لأن العصور الأدبية كانت ذاهبة إلى التدلي والضعف ، فلما تأخر الزمان صار التعصب للقديم نفاسة على الشعراء المعاصرين وحسداً لهم حتى قال ابن شرف القيرواني المتوفى سنة ٤٦٠ :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئاً ويرى للأوائل التقديما
إن ذاك القديم كان جديداً وسيغدو هذا الجديد قديما

وهي حجة فلسفية منطقية كما ترى ، ومن كل ذلك تعلم أن « الجديد والقديم » لم يكونا قديماً إلا في الشعر فقط ، أما اليوم ففي اللغة والدين بآثارهما ، وهذا هو العجيب !

فأما القرآن فقد أفردنا له مقالاً افتضح به أستاذ الجامعة أشد فضيحة وأخزاها ، ونزيد عليه هنا أن الأستاذ يقول في صفحة ٨٥ في الرد على المستشرق هوار الذي زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ من شعر أمية بن أبي الصلت واستعان به في نظم القرآن « من الذي يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآني كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم ، وكان من اليسير أن يعرفه النبي صلى الله عليه وسلم ـ تأملوا ـ كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي ؛ ثم كان النبي وأمية متعاصرين ، فلِمَ يكون النبي هو الذي أخذ من أمية ولا يكون أمية هو الذي أخذ من النبي »

وهذه العبارة ناطقة برأي قائلها ، حتى كأنه يقول إن القرآن لا ينقصه إلا أن يُكتب عليه « تأليف فلان » ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره .

ويقول في صفحة ١٨ في بيان أن القرآن ليس في حاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيها عند العرب : « نخالفهم أشد الخلاف ، لأن أحداً لم ينكر عربية النبي فيما نعرف . . . »

يعني إذا لم ينكر أحد عربيته لم ينكر صحة كلامه ؛ ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره .

ثم يقول في صفحة ٧٦ عن علماء الموالي وعلماء العرب : « وأرادوا هم ـ علماء العرب ـ أو الموالي ، أو أولئك وهؤلاء ، أن يدرسوا القرآن درساً لغوياً ويثبتوا صحة ألفاظه ومعانيه ، ولأمرٍ ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب ، فحرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات القرآن بشيء من شعر العرب يُثبت أن هذه الكلمة القرآنية عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها » إنتهى .

والرجل يكرّر هذا المعنى ويطيل فيه ، ولا يفهم أن الإستشهاد بالشعر لا يراد منه إثبات عربية القرآن ولا مطابقة ألفاظه لألفاظ العرب ، ولا هو من شك في العربية ولا « من أمر مّا . . . » وإنما يراد به إتخاذ القرآن سبباً في جمع مادة اللغة وشواهدها ، كما كان هو السبب في وضع العلوم العربية كلها ؛ أفترى وضع النحو

كان لإثبات أن القرآن ليس فيه لحن ، أم كان لإقامة الألسنة الزائغة حتى يسهل عليها الأداء والقراءة ؟ ثم يراد من تقييد تلك الشواهد وجمعها وتدوينها تفسير كلمات القرآن ليفهمها من يجيئون بعد العرب كما فهمها العرب أنفسهم ؛ وظاهر أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالنص على معاني الكلمات عندهم ، ولا ثقة بهذا النص إن لم يكن عليه دليل من شعرهم ، إذ هو وحده المحفوظ عنهم ، وهو كان متن اللغة والخبر والأثر ، ولعمري لولا صنيع العلماء في جمع هذه الشواهد لقام ألف زنديق يضيفون إلى مطاعنهم في القرآن أن فيه خطأ في اللغة ؛ فانظر أين هذه الحكمة مما يخبط فيه أستاذ الجامعة .

ويقول في صفحة ٩١ : « إن اليونان يقدسون الإلياذة والأوديسا ويعنَون بجمعها وترتيبها وروايتها وإذاعتها عناية المسلمين بالقرآن الكريم » .

ولم نفهم شيئاً من هذا الكلام ، لأنه يحتمل كل شيء ، ولو فسَّرَ لنا فسرّنا له وأريناه مبلغ جهله وسوءِ أدبه !

وأما رأيه في النبي صلى الله عليه وسلم فمن أعجب ما عجبنا له أنه ما من عالم أو كاتب مسلم يذكره صلى الله عليه وسلم إلا صلى عليه أو وضع رمز الصيغة ولو هذا الحرف « ص » وترى كتاب المسيحيين يأخذون بهذا الأدب في كتبهم العربية ، لأن المسلمين يقرؤونها ؛ أما أستاذ الجامعة فكأنه لا يتولى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يحسّ عظمته ولا أثره ، فقد ذكره في كتابه مراراً تفوت العدّ فلم يتأدب معه ولا مرة واحدة ، فلا بعقيدة المسلمين أخذ ، ولا بمجاملة المسيحيين إقتدى ، بل طريقته هي طريقة المبشرين بعينها ، تُشعرك وقاحة الكاتب وغرورَه وإنتثار عَقدِه ، مع أنهم قالوا إن هذه الصلاة من الرجل المسلم إنما تكون دليلاً على خلوص نيته وقوّة عقيدته ، وأنه لا شوب فيها ولا شرك ، وعلى أن بشاشة الإيمان قد خالطت قلبه ؛ ولكن رجُل الجامعة قد تجرَّد من دينه منذ الصفحة الأولى ، وقد والله صدق فيه الحديث : « رَغِمَ أنفُ رجُل ذُكِرْتُ عنده فلم يُصَلِّ عليّ » فما أنفٌ أرْغَمُ اليوم من أنف طه حسين كمداً وذلاً وخزياً ولعنة .

والأستاذ يكذب الحديث الصحيح ويتهكم به كما رأيت في بعض ما مر ، وما نظن أحداً يسلم من تكذيبه ، بل هو يقول في صفحة ١٢٨ : « فأنا لا أقدّس أحداً

من الذين يعاصرونني ولا أبرئه من الكذب والإنتحال ».

فإذا كان هذا من رأيه فيمن يعاصرونه ويعرفهم حق المعرفة ، وفيهم أستاذه وصديقه وأبوه وأمه ، فكيف به فيمن لا يعرفهم إلا من الكتب ؟ بل هو يكاد يصرح في صفحة ١٠١ أن كل شخص لا يعرفه فأكبر الظن عنده أنه من أشخاص الأساطير لم يوجد قط ؛ قال : « نحن لا نعرف مَن سَعْدٌ ومن مالك ومن زيدُ مَناة ؛ فأكبر الظن عندنا أنهم أشخاصُ أساطير لم يوجدوا قط ».

فهل تعرف يا أستاذ الجامعة أولئك الذين ألفوا كتب التاريخ ؟ وإذا كنت لا تعرفهم فليس ما يمنع أن يكونوا أشخاص أساطير ؛ وإذن فالكتب قد أَلَّفَتْ نفسَها . . . إذ لو قلت : إن غير أولئك ألفوها قلنا لك : وهؤلاء لا تعرفهم ! فلا تزال تدور في محالٍ ا. أخذنا بقياسك الفاسد ورأيك السقيم !

قالوا : سعدٌ ومالكٌ وزيدُ مَناة وفلان وفلان ، وفسروهم وأخبرونا خبرهم ؛ فإن قلنا إننا لا نعرفهم ولم نثبتهم عياناً فيجوز لذلك أن يكونوا رجال أساطير - صدق هذا على كل ما كان قبلنا ، وسيصدق علينا وعلى تاريخنا إذا جاء من بعدنا وورثْنا الدنيا ، فلا يكون العلم التام إلا الجهل التام ، وحسبك بهذا جهلاً ممن يقول به . ثم إنه ليس في الطبيعة الإنسانية تواطؤ على نمط واحد من الخُلق ، فإن وُجد الكذب وُجد معه الصدق ، وإن كانت الغفلة كان التحرُّز ، وإن عُرف التلفيق عُرف النقد والتمحيص ، وما قطُّ وُجدت أمةٌ يجْمعُ كل أدبائها وعلمائها على الكذب .

ولقد إمتازت الأمة الإسلامية دون كل الأمم بعلم الرواية وشروطه الكثيرة ، كما بسطنا الكلام عليه في الجزء الأول من تاريخ آداب العرب ؛ فإن كان عندنا الكذابون والوضّاعون ومن لا ثقة بهم فإن عندنا الناقدين والمصححين والثقات ؛ ولكن ما أنت صانع في رجل كطه حسين جَهْله أوسعُ من علمه ، ولسانه أوفى من عقله ، ولا يدري إلى الآن أنه متى صار التاريخ إلى الطريقة الجدلية فلا حاجة إلى إطلاع ولا فكر ولا علم ، وكلُّ عاميّ هو مؤرخ ، إذ حسْبه من العلم أن يقول فيما لم يكن إنه كان ، وفيما كان : يجوز أنه لم يكن ؛ وعجيب أن تكون هذه هي طريقة أستاذ الأدب في الجامعة وأن يكون رجال هذه الجامعة من الغفلة بحيث يظنون هذا علماً أو تجديداً في العلم . . .

ويقول في صفحة ٤٨ يعني النبي صلى اللّه عليه وسلم أولَ أمره مع قريش : « ولم يكن يطمع في ملك ولا تغلب ولا قَهْر ، أو لم يكن ذلك في دعوته ».

وهذه العبارة الأخيرة يقلد فيها دهاة السياسة في لغتهم العملية التي يجعلون لكل جملة منها بابين ،غير أن طه سدّ في عبارته البابين والنافذة أيضاً . . . فإن معناها صريح أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أولّ أمره لم يكن يطمع في ملك أو كان يطمع ، ولكنه كتم ذلك فلم يُظهره في دعوته التي دعا بها الناس إلى اللّه ؛ وإذن يا شيخ الجامعة فقد كان للدعوة بطن وظَهر ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت من عنده هُوَ لا من عند الله ، وليتأمل القراء شناعة ما يخرج من هذا القياس من إنكار النبوة والرسالة ، ونعوذ بالله ونتوب إليه ونستغفره .

ثم يقول في صفحة ٥٠ : « إن النبي صلى اللّه عليه وسلم كان يحرّض على الهجاء ويثيب عليه أصحابه، ويتحدث أن جبريل كان يؤ يد حساناً ».

وهذا الجهل مما تضيق به الصدور فإن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكن به الهجاء ولا الإقذاع ، وإنما كانت تلك سُنّةً عربية إضطرته إليها طبيعة العرب لحماية أعراض المسلمين ، فقد كان من هذه السُنّة عند العرب أنه إذا سكت المشتوم صدّق الشاتم فجرى كلامه مجرى التاريخ الصحيح ، ثم كانت معارك الألسنة لا يسكت فيها إلا الذليل فسكوته ذل ، ولا يُغلب فيها إلا العَيّ فعيُّه ذل آخر ، وكل ذلك من أمرهم فلم يكن بدّ من المصير إليه ليتَعلّمُه العرب فلا يؤثّر هجاء قريش أثره فيهم ويكون سبباً لنفرتهم ولتوهين أمر المسلمين عليهم[1] . وما كان جبريل يؤ يد حساناً في الهجاء ، ولكن في الكفاح عن نبيه كما ورد في الحديث « إن اللّه ليؤ يد حساناً ما كافحَ عن نبيه » العبارة بهذه اللفظة (الكفاح) تُفهِم معاني كثيرة ليس منها معنى الهجاء ، وكأنه صلى اللّه عليه وسلم كُشف له أن طه حسين سيدَّعي عليه ويغض منه فقيّد غرضه بها ليقول للناس : انظروا فإنه . . . وافهموا فإنه . . .

(١) كأن أستاذ الأدب في الجامعة لا يحفظ القرآن ولم يتل قوله تعالى:﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾. فهؤ لاء الذين انتصروا من بعد ما ظلموا هم شعراء النبي صلى اللّه عليه وسلم فليس هجاؤ هم هجاء ولكنه إنتصار من ظلم حاق بهم فتأمل هذا فإنه من أدق معاني الأدب .

وأما عصبية الرجل على أئمة المسلمين فقد مر من ذلك نُبَذ ، وانظر كيف يقول في صفحة ٥١ عن أبي سفيان في فتح مكة : « فنظر فإذا هو بين اثنتين : إما أن يمضي على المقاومة فتفنى مكة ، وإما أن يصانع ويصالح ويدخل فيما دخل فيه الناس « وينتظر . . » لعل هذا السلطان « السياسي » الذي انتقل من مكة إلى المدينة ، ومن قريش إلى الأنصار ، أن يعود إلى قريش وإلى مكة مرة أخرى ؛ قال : وألقى الرماد على هذه النار التي كانت متأججة بين قريش والأنصار وأصبح الناس جميعاً ـ في ظاهر الأمر ـ إخواناً مؤتلفين في الدين » إنتهى نصاً .

وقد طال « إنتظار » أبي سفيان في رأي طه المأفون حتى قام حفيده يزيد بن معاوية فانتقم من غزوة بدر في وقعة الحَرَّة كما قال في صفحة ٥٥ وفي هذه الصفحة يقول « إن يزيد صورة صادقة لجده أبي سفيان في السخط على الإسلام وما سَنّه للناس من سنن[1] » .

فأبو سفيان والصحابة أو أكثرهم منافقون في رأي الجامعة المصرية ، لأنهم لم يكونوا إخواناً مؤتلفين في الدين إلا ـ في ظاهر الأمر ـ وأبو سفيان مع ذلك من كتّاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد شهد معه حنيناً والطائف وفُقِئت عينه في هذه ، وهو القائل لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد غزوة حُنين : والله إنك لكريم فِداك أبي وأمي ، والله لقد حاربتك فنِعْمَ المحاربُ كنت ، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت أفهذا كلام منافق ينتظر ويتربص ؟

على أن الذي ما يُقضى العجبُ منه أن رأي طه حسين هذا هو بعينه ونصه رأي الزنادقة ومذهبهم ، فقد زعموا أن الصحابة كانوا منافقين في حياة رسول صلى الله عليه وسلم : أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجرّاح وجلّةَ المهاجرين وخيارَ الأنصار .

فكيف يتفق كل هذا في كتاب الجامعة ، وهل الذي فيها أستاذ للآداب أم هو أستاذ للكفر والزندقة ؟

---

(١) هذا أيضاً من جهل الشيخ بالتاريخ ، فقد جعل ميراث أبي سفيان في أولاده السخط على الإسلام والإنتقام منه والحمق في ذلك ، مع أن المعروف في التاريخ أن معاوية إنما ورث حلمه الذي يضرب به المثل من أبيه أبي سفيان ، حتى أنه لما قتل حجر بن عدي وجماعته بعد أن ثاروا عليه في خبرهم المشهور أرسلت إليه عائشة أم المؤمنين تشفع فيه وفي أصحابه ، فبلغه رسولها وقد قتلوا ، فقال لمعاوية « أين غاب عنك حلم أبي سفيان » فتأمل قول من عرفوا الرجل وعاشروه ، وقول أستاذ الجامعة !

فلسفة كمضغ الماء

قالوا : إن هذه الجامعة إنما أنشئت للبحث العلمي لا للعلم في نفسه ، إذ العلم قليله وكثيره عِلم وجيِّدُه ورديئه عِلم وما صَحَّ فيه وما تشابه منه كل ذلك ، علم ؛ أما البحث العلمي فمداره على التحقيق والتمحيص ، فهو فوق العلم لأنه سببه وغايته والواسطة إليه ، والبحث يتناول الباطل كما يتناول الحق لأنه بحث ، ولذلك وضع ، وبذلك مادته ، فلو أطبق الناس جميعاً على رأي من الآراء أو مذهب من المذاهب ثم قام أستاذ في هذه الجامعة فنقض ذلك الرأي وذهب خلاف ذلك المذهب ، كان له أن يفعل ما وسعه وأن ينقض وأن يخالف ، وهو مصيب وإن أخطأ ، وقريب من الحقيقة وإن بَعُد ، وعالم وإن جَهِلَ الجهلة التي لا يلعن ما قبلها إلا ما بعدها .

قالوا : فإنه إنما يبحث ليهتدي إلى شيء ، فإن اهتدى فقد اهتدى ، وإن ضلَّ شَفَعَ له أنه مجتهد ، وأنه لم يُسْلَب الرأي الصحيحَ إلا برأي ظن الصحةَ غالبةً عليه .

ومعنى هذه الفلسفة أن مضغ الماء كمضغ الخبز : كلاهما يحتاج إلى الأسنان الحادة والأضراس الطاحنة والأنياب الشَّكِسة ، ما دام الذي يمضغ الماء أستاذاً في الجامعة ، وما دام المضغ عنده يسمى بحثاً ؛ إذ العبرة به وحده إن تعاقل وإن تحامق ، وإن صدق وإن كذب ؛ وما الجامعة إلا مصنع ومختَبَر تكشف فيه آراء وتصنع فيه آراء ، وتزور فيه آراء ، والأستاذ في الجامعة يقول ما يشبهه رأياً وعقيدةً وعلماً وجهلاً ، ويمضي في « البحث » على ما يخيّل له حقاً أو باطلاً ؛ فما رآه هو الصحيحَ فلا صحيح غيره ولا صحيح من قبله أو بعده .

فيا أيها الناس . . . وحيثما كنتم فولُّوا وجوهكم شَطره : وجعل اللّه البيتَ

الحرامَ قياماً للناس وجعل اللّه الجامعة الحرام قياماً للناس !

على أنه إن صح شيء من ذلك أو قارب أن يصح فقد وجب أن لا يتولى التدريس في الجامعة إلا رجل لا يوازن به أحد في علمه الذي يتولاه ، ويكون من أيسر صفاته أنه فوق كل صفة معروفة في نظرائه وأنداده ، قد تم من حيث يتمون وزاد عليهم أشياء ليست في المواهب المعروفة ، بل تقع في أقصى ما يبلغ العقلُ الإنساني عند الأفق القريب من الوحي والإلهام ؛ فإن ظفرتْ الجامعة بمثل هذا العقل الفذّ كان لها أن تقول ما هي قائلة وأن تزعم ما شاء لها الزعم وهي في ذلك آمنة أن يُرد عليها لأنها حينئذ تتكلم بما لا يسمو إليه كلام آخر ، وتأتي الناس بما فيه زيادة على الناس ؛ ويكون ذلك من حجتها عليهم ، فيسكت المتكلم ، وينقطع المكابر ، ولا يبقى إلا التسليم للأقوى ، على الأصل الذي بنيت عليه الطبائع كلها .

ولقد يتفق للجامعة المصرية مثل هذا الأستاذ ـ الذي يأكل الأساتذة ـ تجده في علم كالقانون أو الطب أو الفلسفة ونحوها مما تَعاوَرَهُ العلماء من أجيال بعيدة وفرغوا منه تدويناً وتعليقاً وشرحاً وتحقيقاً ولم يبق إلا مثل ما بقي مما تتفاوت به العقول وتختلف القرائح في حدة الذكاء وقوة الملاحظة من رأي يزاد عليه أو ينقص منه ؛ ولكن أين مثل ذلك في تاريخ الأدب العربي وهو علم لا يزال يتخلّق ، ولا يزال كالجزائر البركانية : تظهر الجزيرة بحالها في البغتة والفَجأة وتخسف الأخرى في مثل ذلك ، وما علة ما يظهر إلا علة ما يخسف ، ولكن لا بدّ أن يقع الحدَثُ ثم تجيء الفلسفة والتعليل بعد ذلك .

ومن العجيب أن أستاذ الجامعة الدكتور طه حسين لم ينتهج إلا الطريقة التي لا تلتئم مع طبيعة هذا التاريخ ، فهو يبحث دائماً عن العلة في أحد شيئين : إما في غير معلولها ، وذلك خطأ كبير ؛ وإما في معلولها بعد أن يغيره على ما يتوهم ، وذلك شر من الأول ؛ ومثل هذا إن سُمي بحثاً وسمي فلسفة في التاريخ لا يمكن البتة أن يسمى تاريخاً ، ولا يخرج منه إلا كلام مستفيض هو على كل حال كلام قائله وعلى قدر من عقله وذكائه وإطلاعه وطريقة فهمه ، لا بحسب التاريخ ورجاله وعلله ؛ فيكون الأستاذ كأنما يدرس فناً من الكلام بعض مادته من التاريخ ؛ لا فناً من التاريخ بعضُ مادته من الكلام .

وهذه الطريقة التي تسمى علمية هي في التاريخ أجهل الطرق ؛ لأنَّها تختلف فيما تقرره بإختلاف الرجال والأزمنة ، مع أن التاريخ شيء ثابت لا يختلف ولا يمكن أن يُخْلَق مرة أخرى ، لا بإنشاء الجامعة المصرية ولا بأمر وزارة المعارف . . . ومتى ولد التاريخ لم يهرم ولم يمت ؛ ثم تلك الطريقة هي أيسر الطرق وخاصة على من كان قليل الإطلاع ، فإنك لا تتقيد فيها بمعروف تعرفه ولا بمنكر تنكره ، إلا ما شئت وشاءت لك غفلة من حولك ، ثم إنك تركب إليها كل أسلوب فإذا جميع الطرق تؤدي إلى غايتها ، لأنها لا غاية لها إلا توهمته غايةً وقلتَ إنه غاية .

والتاريخ نوعان : أحدهما طُوِي عليه الدهر وقد وقع وانقطع فلا تغني فيه هذه الطريقة شيئاً ، والآخر تطوى عليه أدمغةُ مؤلفي الروايات ومن ينسجون في العلم على منوالهم . . . ولا أفْيَدَ في كشف أسرار هذا النوع وإظهار حقائقه . . . من هذه الطريقة !

فالبحث في تاريخ الأدب على الأصل العلمي الذي أُنشئت له الجامعة - كما يقولون - إنما ينتهي بهذا التاريخ إلى أن يكون فناً من الكذب تلبسه الجامعةُ صفتَها العلمية فيصبح كذباً صحيحاً ، وهذا نصف الشرفيه ، أما النصف الآخر فإنه متى جرى مجرى الصحيح وتناوله الناس بهذا الإعتبار لم يبق إلا أن تكون الكتب العربية التي بين أيدينا كذباً محضاً ، وهذا ما يرمي إليه الدكتور طه حسين كما بيناه فالجامعة تقيم له الأساس ثم هو يبني ، هذا إذا سكتت الجامعة عنه وظلت تَتَحَنَّفُ بهذا السكوت الفلسفي[1] . وقد حضرتني الآن أرجوزة صغيرة أحب أن أهديها لصاحبنا الدكتور طه حسين ليتقاصر قليلاً ، فإنه لن يخرق الأرض ولن يبلغ الجبال طولاً ، وما هو إلا كما هو :

يا عجباً (طه) أديب العصر
أصبح مثلَ إنجلترا في مصر
أسطولهُ يراعةٌ في شِبْرِ
وبحره زجاجةٌ من حبر

(١) كان سكوت الجامعة فلسفياً ، فانقلب سكوت الخزي بعد أن انفضح أستاذها وانفضحت به !!

ومِلكهُ مترٌ بنصف متر
في مجلس للدرس بل للهترْ[1]
يجلس فيه مثلَ ضَبِّ الجَحْر
معقّداً من ذَنَب لظهر
تعقيدَ من (قد) خُلقوا للمكر
وهبطوا الدنيا لأمرٍ نُكْرٍ
يحتكُّ في كل أديب حرٍّ
يخيفه بالشّتم أو بالشرّ
كأن فيه رُوح حرف جرّ . . .
يا ويحه من واهـم مفترٍّ
يُفزِّع الليث بوجه الهر . . .
إسفنجة جاء لشرب البحر
وشمعة ضاءت لشمس الظُّهر
والشيخُ طه في إنتقاد الشّعر
ثلاثة مضحكةٌ لَعَمري !

(حاشية) بعد كتابة هذه الكلمة ، تلقيت كتاب الدكتـور طه حسـين « في الشّعر الجاهلي » فتجـاوزت المقدمـة وقـرأت الفصـل الـذي سماه : « مـرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس في القرآن » فيا عجباً ، إنه واللّه لتهكم شديد من القَدَر أن لا يكون مقر الجامعة إلا قريباً من مستشفى الأمراض العقلية[2] .

وسنقرأ هذا الكتاب فهو الجامعة التي رفعنا أسئلتنا إليها . . .

---

(١) الهتر : السقط والخطأ من الكلام .

(٢) قلت : كانت الجامعة المصرية قبل أن يُفرد لها بناء خاص في الجيزة تقوم في « قصر الزعفران » بالعباسية .

المجدد الجريء

بقلم : الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال كليلة : واحذر يا دمنة مصارع الجرأة في الرأي وما يكون مثله من الرجل الحَمق إذا تكلمت حماقته في لسانه ، فإن الرأي ميزان لغته على الوفاء والنقص مما يوزن فيه لا من اليد التي تزن به ، فإن هو ترك لما يُلقى عليه أبان فصدق وحدد ، وإذا عبثت به اليد إمالة أو تعويجاً أبان فكذب وغش ، وإن الجرأة هي علم الجاهل حين يكون له علم ، وجهل العالم حين يكون للعالم جهل ؛ وقد قالت الحكماء : إن هذه الجراءة كانت امرأة فتزوجها العلم وتحفى بها وبالغ في إكرامها ورعايتها وفلسف لها الحياة ما شاء ، فلما ولدت ولدت له الحمق ، فقال : واسوأتاه ! نزع الولد إلى أمه الخبيثة ، وسبقت حكمة اللّه أن لا يخلق حياً إلا من اثنين ، كي تلد الأمهات . النعمة مضاعفة والمصيبة مضاعفة أو لينقص شيء من شيء آخر . وما يخرج النقيضان ولا المتجاذبان إلا من اثنين . ثم إنه بت عقدة الجراءة وطلّقها ، فخلف عليها الجهل ، وكان بعلاً سيئاً عنيفاً جعل يمكر في أذاها كل حيلة ويغلظ عليها بكل سوء ويعسفها عسف الأجير دابته ، فلما ولدت ولدت له السُّخرية ، فقال : وامصيبتاه ! جاءت نعلٌ طباق نعل .

ثم شب الحُمق والسُّخرية معاً ، فتشاتما يوماً وتغالظا وأبت عليهما الطباع إلا أن يكون لكل منهما القهر والغلبة ، ففزع كلاهما إلى أبيه وجاء به ، فذهب العلم يحتج ومضى الجهل يخاصم ، فأقبلت الجراءة على صوتهما وقالت : ويحكما ! فيم هذا النزاع ؟ ثم أرادتهما على الصلح ، فالتفت الجهل إلى العلم وقال : يا أخي يا أبا الحمق ! . . . قال العلم : لا غرو يا أبا السخرية . . . فإنما هي الجراءة اللئيمة ولدت لي وولدت لك فجمعتنا بولديها وجعلتني أخا سوء وأبا سوء وعم سوء ! .

قال كليلة : وما أشبهك يا دمنة بالرجل الجريء الذي طَوَّعتْ له الجرأة وسولت له أنه أعلم الناس ، فذهب يؤتيهم علمه وزعم لهم أن البناء ثمر .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه وقعت بمدينة كذا زلزلة فتصدّع أكثر دورها ، فجاء أصحابها بالمهندسين فشدوها بعُمد غليظة من الخشب ليصلحوا البناء من فوقها وهو ثابت لا ينهار ، فهبط المدينة شيخ جريء أحمق ، فرأى الدور من كثرة أعمدتها كأنها قائمة على شجر ، ورأى البنائين يعملون أعمالهم ، فقال لبعض وجوه المدينة : إن بلدكم هذا إلى يوم الناس هذا لم ينزل به عالم غيري فيما أرى ؛ وإن لكم عندي رأياً إن تأخذوا به جاءتكم هذه الدور جديدة كيوم نشأت : فإنكم تفسدونها بهذا الإصلاح وتغرمون فيها الغرامة الكثيرة ولا تزيدون على هدمها ؛ فاجمع لي الناس لأعرفكم ما تصنعون . قال : فشاع ذلك عنه وتعالمه أهل المدينة ، فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا : هذا رجل عالم وما يكون ذلك له.رأياً إلا من خبرة وتجربة وعلى بصيرة ونظر ، فلا يوحشن أنفسكم منه سوء ظن به حتى تأتوه وتسمعوه وتعرفوا ما عنده .

ثم إنهم اجتمعوا للرجل وقالوا له : أيها الحكيم ، قد رأيت ما صنعت الزلزلة ونحن في سنة شديدة جمعت علينا بين قحط الأرض وارتفاع السعر وخراب البناء ، فلعل اللّه قد بعثك إلينا رحمة من هذه الثلاثة الآكلة . قال : فإني إن شاء اللّه ما رجوتم ، وإني فَيئَة لكم مما أُصبتم به ، تلوذون بعلمي ورأيي ، ولكن اتقوا الجهل من بعدي وتعلموا واعتبروا ؛ فإن ذا العلم حقيق أن لا يعدم في كل خطب حيلة ، وإن ذا الجهل خليق أن لا يجد في أي خطب حيلة .

ولم يزل يعظهم بهذا وشبهه حتى ضجوا ، فقال قائلهم : أصلحك اللّه ! متى أقمنا الدور فرغنا لك فتعظنا وتعلمنا ، أما الآن فهلم رأيك الذي وعدتنا . قال : فاسمعوا ويحكم ! أما رأيتم شجرة ألقت ثمرها ثم جاءت به من قابل ؟ قالوا : كل الشجر يفعل ذلك . قال فما رأيتم للشجر جذوعا متى قطعت نبتت وبسقت فروعها وأثمرت ؟ قالوا : ثم ماذا ؟ قال : أخزاكم اللّه ! فكيف عميتم عن الرأي وذهبتم عن الحيلة ! فما تنظرون هذه الجذوع التي تحمل بيوتكم ؟ فلو قد

نشرتموها بالمناشير لتلقي ما فوقها من هذه الدور الخربة لنبتت واللّه من قابل تحمل بيوتاً جديدة صفراء وحمراء وألواناً شتى . . .

* * *

نحن لا نرى في علم الأستاذ طه حسين وأمثاله إلا الجراءة ، وهي خلة من خلال المجانين ، فإنها أقرب إلى التهور والحُمق ما دام صاحبها لا يضبط على رأيه ولا يأخذ على نفسه ولا يتوقى ولا يفهم شيئاً على الأصل الذي كان عليه بل على الأصل الذي يريد هو أن يكون عليه ، وفصل ما بين المجنون الجريء والمجدد الجريء . . . إن جراءة المجنون من عمل أعصابه المريضة ، وجراءة المجدد من عمل نفسه المريضة ، وأمراض النفس كثيرة ، منها التقليد ، ومنها حب الصيت والشهرة والمحمدة ، ومنها الغرور والإستطالة والتعنت ، ومنها الكفر والإلحاد ؛ فإذا رأيت مجدداً من أصحابنا فثق أنك منه بإزاء رجل مريض النفس ؛ ولا يقذفن في رَوعك أنه فيلسوف أو علامة أو أديب ، فهذه الصفات وأشباهها لا قيمة لها البتة إذا عُريت من الخُلق الذي يقوم به أمر الأمة وتصلح الأمة عليه من دين وأدب وفضيلة . والقوة المدمرة التي تعمل في نقض النظام تفتك في كل معنى بسلاحه الذي هو أقطع فيه ، فهي كما تظهر في أهل الفسق والدعارة واللصوصية وأهل الظلم والتعسف ، تظهر بمقادير أُخرى في بعض الفلاسفة والعلماء والأدباء ؛ لأن هذه القوة تلون الرذائل كما تلون الأثمار ، وانظر ما الفرق بين ثمرة كالحة مرة وأخرى ناضرة مرة ، أو بين حمراء وصفراء تستويان في كراهة المذاقة ولؤم الطعم ، أو بين عالم مفسد برأيه ولص مفسد بعمله ، أو بين فاجر ساقط النفس وبين أستاذ لئيم النفس ؟ أما إنها كلها أسلحة تعمل عملاً متشابهاً وإن اختلفت في أنواع التمزيق ومقاديره . وليس يشفع في إرادة الشر إنه جاء من رجل عالم أو أديب أو مدرس في الجامعة المصرية ، كما لا يزيد فيه مجيئه من فاجر أو عيار أو متشطر أو سفاح ؛ إذ هو هو في جميعهم ، وإنما هؤلاء وأولئك أساليب إنسانية ليس غير .

وقد أصبح طه حسين في زعمه حرّية الرأي كالحيلة على القانون : تقع معها الجريمة ثم تكون بها البراءة ، وكم من لص ومزوّر وفاتك وأشباههم قد برأتهم المحاكم كما برأّتِ الجامعة المصرية طه حسين في أسلوب واحد ، لمكان الحيلة لا

لموضع البراءة ؛ وكم من غفلة جازت على القانون ما دام قائماً على إيجاد المجرم أولاً ثم يجيء القاضي في المحل الثاني ، وكان الوجه أن يقوم على رد الناس عن الجريمة قبل وقوعها ؛ وهذا فرق ما بين القانون والدِّين : فالدين قانون الأمة كلها وقانون الفضيلة الإنسانية عامة ، وهو العقل العام للخلق ؛ أما القانون فهو للمجرمين وللرذيلة خاصة ، وهو العقل الخاص لبعض الخلق ؛ وإذا أهملوا الأول وغَنُوا عنه بالثاني دفعوا بالأمة كلها في سبيل الإجرام والرذيلة : ومن ثُم تعرف مكان علماء الدين الأمة وهم هم الذين يعمل طه وأمثاله في تحقيرهم وتهوين أمرهم حماقة وجهلاً وسوء نظر وسوء دِخلة .

يعتذرون لطه بحرية الرأي ، وكأنهم لا يعلمون أن بعض الحرية في التقييد وبعضها في السلب ، وأنه إذا تعارضت منفعة الفرد في إطلاق الحرية له ومنفعة الأمة في حدّها أو سلبها وجب « نزع ملكية » هذه الحرية ولو على الوجه الذي تُؤخذ به دور الناس لتطريق شارع . . .

وهذا كله يوضح لك غفلة الجامعة المصرية غفلة تحتاج إلى غسل عينيها بمحلول مطهّر . . . فالأُمة تنظر إلى الجامعة على أنها منها ، والجامعة تنظر إلى جمالها في مرآة من وجه طه حسين ؛ فكل ما رأته الأمة شمالا رأته هي في وجه طه يمينا ، وما من هذا العكس بُدٌّ ما دام النظران مختلفين ، والعكس ينشيء الغلط ، فمن الطبيعي في أحد النظرين أن تكون الجامعة موضع غلط الأمة وفي النظر الآخر أن تكون الأمة موضع غلط الجامعة .

قلنا إن علم طه حسين جرأة ، فهو لا يأتي بكلام فصل بل بكلام جريء ، وذلك إن كان غلطاً لكنه غلط الجهل لا غلط العلم ، فلا عذر منه ولا يجوز الإحتجاج له ؛ إذ كان العالم الحقيقي لا يعرف الجراءة ولا يتعاطاها ، فإن وجدت من أمره ما تحمله عليها فاعلم أنها جراءة أدلته وقوة منطقه وشدة يقينه ، فإن خلا من هذه وأصبته جريئاً فهو الجاهل المغرور المتوقح الذي لا يعتمد على قوته وعلمه بل على حماقته وشره وعلى ضعف الناس وغفلتهم ؛ وما رأينا قوة طه وأمثال طه إلا من هذه الناحية ، فهم كالثعابين تخيف بالوهم وإن لم تلدغ . وإن كان السُّم قد فرغ من

أنيابها؛ ولولا أن هذا من أمرها وأمر الناس للعب الصبيان بها واتخذوها حبالا !

أنظر كيف يجهل أستاذ الأدب في الجامعة المصرية هذا الجهل الغريب : قال في صفحة ١٧ وهو يريد القرآن .

« كان كتابا عربيا لغته هي اللغة العربية الأدبية التي كان يصطنعها ـ كذا ـ الناس في عصره » أي في العصر الجاهلي .

وفي صفحة ٣٥ : « ولست أنكر أن اختلاف اللهجات كان حقيقة واقعة بعد الإسلام ، ولست أنكر أن الشعر قد استقام للقبائل كلها رغم هذا الإختلاف ؛ ولكني أظن أنك تنسى شيئاً يحسن أن لا تنساه ، وهو أن القبائل بعد الإسلام قد اتخذت للأدب لغة غير لغتها وتقيدت في الأدب بقيود لم تكن لتتقيد بها لو كتبت أو شَعَرتْ في لغتها الخاصة ؛ فلم يكن التميمي أو القيسي حين يقول الشعر في الإسلام يقوله بلغة تميم أو قيس ولهجتهما ، إنما كان يقوله بلغة قريش ولهجتها » .

ثم جاء الشيخ بمثل من أدب اليونان ، ثم قال : « وكذلك فعل العرب بعد الإسلام : عدلوا في لغتهم الأدبية عن كل ما كانت تمتاز به لغتهم ولهجتهم الخاصة ، إلى لغة القرآن ولهجتها ».

ثم ضرب مثلا من موطنه الجديد . . . فرنسا ، ثم قال : « وأنا أشعر بالحاجة إلى أن أضرب مثلا آخر قد يَدْهش له الذين يدرسون الأدب العربي لأنهم لم يتعودوا مثله من الباحثين عن تاريخ الأدب ؛ ذلك أن في لغتنا المصرية العصرية لهجات مختلفة وأنحاءً متباينة من أنحاء القول ، فلأهل مصر العليا لهجاتهم ، ولأهل مصر الوسطى لهجاتهم ، ولأهل القاهرة لهجتهم ؛ ولأهل مصر السفلى لهجاتهم ؛ وهناك إتفاق مطّرد بين هذه اللهجات وبين ما للمصريين من شعر في لغتهم العامة ، فأهل مصر العليا يصطنعون أوزانا لا يصطنعها أهل القاهرة ولا أهل الدلتا ، وهؤلاء يصطنعون أوزانا لا يصطنعها أهل مصر العليا ؛ وهذا ملائم لطبيعة الأشياء ، فما

كان للشعر أن يخرج عما ألف أصحابه من لغة ولهجة في الكلام ؛ ومع هذا كله فنحن حين ننظم الشعر الأدبي أو نكتب النثر الأدبي والعلمي نعدل عن لغتنا ولهجتنا الاقليمية إلى هذه اللغة واللهجة التي عدل إليها العرب بعد الإسلام ، وهي لغة قريش ولهجة قريش » إنتهى خلط طه .

وقد أثبت في كلامه أن لغة القرآن هي « اللغة الأدبية » التي كان ينتحلها العرب في العصر الجاهلي ، فإذا كان ذلك وكان في العصر الجاهلي لغة أدبية للعرب فكيف ينكر طه على الشعر الجاهلي أن يكون متفق اللهجة ، وكيف يجزم أن عدم إختلاف اللهجات فيه دليل على أنه موضوع مكذوب كما مر بك في موضعه ، وكيف يتناقض هذه المناقضة المكشوفة ؟

على أن هذه « اللغة الأدبية » وهم سخيف من أوهام المستشرقين تبعهم فيه طه لأنه رجل مقلد سروق ؛ فإن اللغة الأدبية لا تنشأ ولن تستقيم إلا إذا كانت مكتوبة مدونة متدارسة ، إذ الكتابة قيد من التغيير والتبديل ، وهي نص في عموم الإحتذاء والمحاكاة ، لأنها في مكان ما هي في كل مكانٍ غيره .

ولو لم تكن في مصر لغة واحدة مكتوبة متدارسة هي العربية الفصحى لما كان لها شعر أدبي ولا نثر أدبي ، ومن هنا يريد الذين في قلوبهم أمل من المستعمرين ، والذين في قلوبهم مرض من المجددين ، أن يجعلوا العامية لغة الكتابة والدرس ، لأنها متى دُوِّنت وتدارسها النشء محت الفصحى محواً وأتت على كتبها وآدابها ودينها ، وقد كتبنا في هذا فلا نطيل به . .

فهل يستطيع رجل الجامعة أن يأتينا بدليل أو شبهَ دليل على أن القبائل في العصر الجاهلي أو بعد الإسلام كانت تكتب وتدرس في باديتها باللغة الأدبية التي يزعمها ، حتى نصدق أنه كانت لكل قبيلة لغتان كما لنا في مصر ؟

والعجيب أن يخلط طه هذا الخلط وهو قد قرأ الجزء الأول من « تاريخ آداب العرب » وذكره في كتابه ، فكيف ذهب عنه أن الرواة لم يكونوا يعبثون بالعربي الذي ينطق بلحن غير لحن قومه ولا يعدُّونه حجة في اللغة ، وأن العربي القُح السليم

الفطرة لم يكن يستطيع أن يقيم لسانه إلا بلحن واحد ولهجة واحـدة ، حتـى أن سيبويه لما اختلف مع الكسائي في مسألة « ظننت أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي أو فإذا هو إياها » وجاءوا بالأعراب الذين كانوا بباب يحيى البرمكي ورشوهم على أن يوافقوا الكسائـي في جواز اللغتـين ـ لم يزيدوا على أن قالـوا في الموافقة : إن القول ما قال الكسائي . فلما رأى سيبويه ذلك منهـم قال ليحيى : مُرْهُم أن ينطقوا فإن ألسنتهم لا تَطُوعُ به ! . . .

ولا بأس هنا أن ننقل هذه العبارة من الجزء الأول من « تاريخ آداب العرب » في صفحة ٣٤٨ : (*) .

ومهما جهدت بالأعرابي أن ينطق بغير لحن قومه وإن كان أفصح منه فإنه لا يستطيع إلا من ضعف ، لأن تقليده في الصواب كتقليده في الخطأ ، واللغة إنما تُؤخذ عن السليقة وهي سُنّة واحدة ؛ قال الأصمعي : جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال : يا أبا عمرو ، ما شيءٌ بلغني عنك تجيزه ؟ قال : وما هو؟ قال : بلغني أنك تجيز : ليس الطيبُ إلا المسكُ . قال أبو عمرو : نمت وأدلج الناس اليس في الأرض حجازي إلا وهوينصب،ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع ، ثم قال : قُم يا يحيى ـ يعني اليزيدي ـ وأنت يا خلف ـ يعني خلف الأحمر ـ فاذهبا إلى أبي المهدي « أعرابي الحجاز » فلقناه الرفع فإنه لا يرفع ، واذهبا إلى أبي المنتجع « أعرابي تميم » فلقناه النصب فإنه لا ينصب . قال : فذهبنا فأتينا أبا المهدي فإذا هو يصلي ، فلما قضى صلاته التفت إلينا وقال : ما خطبكما ؟ قلنـا : جئنـا نسألك عن شيء من كلام العرب . قال : هاتيا . فقلنا : كيف تقول : ليس الطيب إلا المسكُ ـ بالرفع ـ فقال : تأمراني بالكذب على كبر سني ! فقال له خلف ليس الشراب إلا العسلُ بالرفع قال اليزيدي فلما رأيت ذلك منه قلت : ليس ملاك الأمر إلا طاعةُ اللّه والعمل بها ـ بالرفع ـ فقـال : هذا كلام لا دَخَـلَ فيه . ثم أعادهـا بالنصب ، فرفعا ثانية ، فقال : ليس هذا لحني ولا لحن قومي . قالا : فكتبنا ما

(*) الطبعة الأولى .

سمعنا منه، ثم أتينا أبا المنتجع فلقّنّاه النصب وجهدنا به فلم ينصب وأبى إلا الرفع » إنتهى .

وقد كان هذا منهم في أواخر القرن الثاني واللغةُ إلى ضعف وإضطراب ، فأين تجد هذه اللغة الأدبية التي يهذي بها طه ؛ وانظر ما يبلغ الفرقُ بين قول إمام العربية أبي عمرو « ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع » وبين قول أبي مرغريت . . . « ولم يكن التميمي أو القيسي حين يقول الشعر في الإسلام يقوله بلغة قيس أو تميم ولهجتهما » فأيهما أقرب الى العلم والصدق : من كان في زمن العرب وحكى عنهم أم من يكون بينه وبين العرب جهله وحماقته وأربعة عشر قرنا في الموتى ؟

ومما هو في هذا السبيل من كتاب طه ؛ وهو أعجب مما تقدم ، قوله في صفحة ١٠٣ : « والرواة أشد إنخداعاً حين يتصل الأمر بالبداية إتصالا شديداً ؛ وذلك في هذه الأخبار التي يسمونها أيام العرب أو أيام الناس، فهم سمعوا بعض هذه الأخبار « بعضها فقط . . » من الأعراب ، ثم رأوها تُقَصُّ مفصلة مطولة فقبلوا ما كان يروى منها على أنه جدّ من الأمر ورووه وفسروه وفسروا به الشعر واستخلصوا منه تاريخ العرب ، مع أن الأمر فيه لا يتجاوز ما قدّمناه ؛ فليست هذه الأخبار إلا المظهر القصصي لهذه الحياة العربية القديمة ، ذكره العرب بعد أن استقروا في الأمصار فزادوا فيه ونمّوْه وزينوه بالشعر كما ذكر اليونان قديمهم . . . فحربُ البسوس وحرب داحس والغبراء وحرب الفجار وهذه الأيام الكثيرة التي وُضعت فيها الكتب ونُظم فيها الشعر ليست في حقيقة الأمر - إن استقامت نظريتنا - إلا توسيعا وتنمية لأساطير وذكريات كان العرب يتحدثون بها بعد الإسلام » . إنتهى .

ولعلنا لم نر في كتاب طه كلمة تدل على العقل إلا قوله في هذه العبارة : « إن استقامت نظريتنا » وتعليقَه الرأي على هذا الشرط ، وهو شرط بليغ ، ثم هو بعيد عما يأخذ فيه طه من معَاسف الرأي ومَعَاميه ، ، وهو كذلك من أدب العلم : إذ لا حُكم إلا بيقين ، فإن كان الشك تُرك الحكم معلقا ؛ غير أن طه لم يتجاوز هذا العقل بعشرة أسطر حتى هاج به داؤه واعترته النوبة فإذا هو يقول :

« وكل ما يروَى من أيام العرب وحروبها وخصوماتها وما يتصل بذلك من الشعر خليق أن يكون موضوعاً ؛ والكثرة المطلقة منه موضوعة من غير شك » فهذا رجل معتوه يسخر من نفسه كما ترى ؛ وكلامه إلى السماجة أقربُ منه إلى العلم ، وكأن في هذا الرجل طبعا غير طبع الإنسان ، ففضله بكثرة عيوبه لا بكثرة محاسنه . كم يوما من أيام العرب تعرف أيها الرجل ؟ وفي كم كتاب هي ؟ وكم ديواناً وُضع فيها من الشعر ؟ وما هي ؟ وأين هي ؟ وما الذي وقفت عليه منها حتى تقطع على كل ذلك بأنه من عمل القُصاص وأنه زيادة وتوسعة في الأساطير ؟

إن أيام العرب هي حروبهم ومغازيهم ، ولو لم يصح لهم شيء من كل ما رُوي عنه لصحت أخبار هذه الأيام وحدها ؛ ففيها نعيمهم ومصائبهم ، ومنها حياتهم وموتهم ، ولها محامدهم ومثالبهم ؛ وهي عندهم مادة التاريخ السياسي ، ولذا كان ذكرها في ألسنة شعرائهم ؛ إذ كان شاعر القبيلة كأنه وزير الخارجية فيها على أنه لم تُوضع قصيدة واحدة ـ لا صدقاً ولا كذبا ـ في وصف يوم من هذه الأيام وقصة ما جرى فيه ، وإنما كانوا يذكرون أيامهم في الفخر والمهاجاة فيومئون إليها ويشيرون إلى مواضع الذم أو المدح لا يعدون ذلك ؛ وبهذا استطاع الرواة والعلماء أن يستخرجوا أسماء هذه الأيام ويستشهدوا على بعض ما كان فيها من شعر النقائض ، وهو ما يكون بين شعراء القبائل في الهجاء والفخر ، يقول أحدهم فينقض عليه الآخر ؛ وأنت تراها في شعر جرير والفرزدق والأخطل والطرماح وغيرهم من الإسلاميين . كما تراها في شعر الجاهلية ، مما يُثبت أنها تاريخ يتوارثونه بينهم ؛ وماذا تُورث القبيلة أبناءها إلا أنسابها وأخبار سيوفها ومكارم أجوادها وأقوال شعرائها ؟ وقد قال الأول :

ولو أن قومي أنطقتني رماحُهم ... نطقتُ ، ولكنَّ الرماح أجرَّتِ

فهذه الرماح هي الألسنة التاريخية التي تكتب في الدم ذلك الشعر الأحمر ، وإذا لم يكن للقبيلة حروب ووقائع لم يكن لها بأس ولا فيها نجدة ولا عندها مَنَعة وسقطت بذلك أنسابها وذهبت مكارمها وقلَّ شعرُها : إذ كانت هذه الثلاث هي مادّة

الشعر المأثور فيهم الدائر على أفواههم ، وكانوا قوما كأن حياتهم ثمرٌ من زرع القتل .

قال إبن سلام : « وإنما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويُغار عليهم ؛ ولذلك قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلل شعر عُمان والطائف .

ومع كل هذا فقد سقط أكثر الشعر وأكثُر الخبر ، ولم تكن الأيام من علم القصّاص ، بل محّصها العلماء وتناقلوها وكانت تُقرأ عليهم وكانوا يميزون بينها وبين الأقاصيص المولّدة ؛ قال الجاحظ يذكر ما صنع الناس من أخبار عمرو بن وُدّ فارس قريش الذي قتله علي بن أبي طالب : « قرأت على العلماء كتاب الفِجار الأول والثاني والثالث وأمر المطيبين والأحلاف ومقتل أبي أزيهر ومجيء الفيل وكل يوم جمع كان لقريش ، فما سمعت لعمرو هذا في شيء من ذلك ذِكراً ».وكانت قصة عمرو كقصة عنترة : مما يضعه العامة ولا يذهب عن العلماء أنه موضوع لا خطر له .

وكل ما يعرف من أيام العرب أنواع ثلاثة : فمنها أيام قديمة وهي قليلة جدا ، كيوم خزاز ، وأخبارها موجزة ؛ ومنها أيام وقعت بعد الإسلام ، كيوم الوقيظ ، كان في فتنة عثمان بن عفان ، ويوم الهراميت ، كان في أيام عبد الملك ، ويوم الصريف ، كان في أيام الرشيد ، وكل ذلك يروون أخباره ويذكرونه في شعرهم ؛ ومنها أيام جاهلية ، وهي المادة العظمى بين هذين الطرفين الدقيقين ، وترجع إلى ما قبل الإسلام بستين أو سبعين سنة أو حواليها ، وأبعدها لا يتجاوز في تاريخه مائة سنة ، وهي رواية جيلين يلقيها الأب إلى إبنه أو الجدُّ إلى حفيده ، على أن كل ما يُعرف منها على إيجاز أخباره لا يوفي سبعين يوما ؛ وقد نصُّوا على أن كبارها ثلاثة : يوم شعب جبلة وكان قبل الإسلام بسبع وخمسين سنة ؛ ويوم ذي قار ؛ وقد شهده النبي صلى الله عليه وسلّم[1] ؛ ويوم كلاب ربيعة ، ولم نقف على تاريخه ، فلو كانت هذه الأيام أساطير وأقاصيص وكانت « كثرتها المطلقة موضوعة من غير شك » كما يتوهم أستاذ الجامعة ، لجعلوا هذه الثلاثة في حد الثلاثين ما داموا يريدون أن يتكثروا ويكذبوا في تعظيم العرب .

---

(١) وذكره عليه الصلاة والسلام فقال : « هذا أول يوم إنتصر فيه العرب على العجم وبي نصروا ».

وأما بعد : فإنا نتجاوز عما بقي لنا على أستاذ الجامعة في كتابه وحسابه ـ وهو كثير ـ فقد أعسر أشد العسر ، بل أنْفَضَ ، بل أفلس ؛ والذي نرجوه أن يكون قد علم كيف يعلم وعقل كيف يعقل ، وأن يكون قد استيقـن أنـه إذا كان معنـا لـم يزدنا ؛ وإذا كان علينا لم ينقصنا ، وإنما نفسـهُ ينقص ونفسَهُ يزيد !

وكفى بالمرء جهلا إذا أُعجب برأيه ، فكيف به معجَباً ورأيهُ الجهلُ بعينه ؟

سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلا اللّه واللّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، ونستغفر اللّه مما جمح فيه القلم أو طغى به الفكر ، وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين .

أسلوب طه حسين (١)

بقلم: مصطفى صادق الرافعي

لم ينفرد الأستاذ طه حسين بانتحال الجديد والتجديد، ولا هو أول من زعم ذلك أو حامَى عنه أو كَابَرَ عليه، فقد سبقه آخرون، لكنه أول من اجترأ على الأدب العربي بالمسخ والتكلّف، وقال فيه بالرأي الأحمق، وأداره على الوهم البعيد، وتناوله من حيث يأخذه علماً ليتركه جهلاً وهو يحسب أنه آخِذُه جهلاً وتاركه علماً، ثم كان أول من استعمل الركاكة في أسلوب التكرار كأنه يمضغ الكلام مضغاً، فنزل به إلى أحط منازله، وابتلى العربية منه بالمكروه الذي لا صبر فيه، والمرض الذي لا عِلاج منه، فصار ذلك له طبعاً بالإدمان عليه، فلا يأتي بالجملة الواحدة إلا انتزع منها الإنتزاعات المختلفة، ودار بها أودارت به تعسُّفاً وضعفاً وإخلالاً بشروط الفصاحة وقوانين العربية، والآفة الكبرى أنه كان يحتسب ذلك إبداعاً منه في الأسلوب وإحكاماً في السبك وطريقة بين المنطق والبلاغة!

وإن من عجزَ أن يعلوَ لا يعجز أن يسفل، بيد أنّا لم نجد ولم نعرف غير هذا الأستاذ أحداً يرضى لنفسه أن يُتَدح بالعيب، ويتحسَّن بالقبح، ويرفع المنازعة مما لا نزاع إلا فيه، فكان يزعم أنه لا ينساغ لأديب أن يرد عليه هذه الطريقة، وأنه هو لا يحصي من قلّدوه فيها، حتى رميناه في جريدة السياسة بهذه الكلمة التي تراها فجعل من بعدها يتحفظ على نفسه ويتوقى التكرار بجهده، وقد أثبتنا الكلمة لأنها ستأتي الإشارة إليها، ثم لأنها مما تحسن أن يحفظ للتاريخ ليعرف مَن بعدنا كيف كان

(١) من كتاب «تحت راية القرآن».

« جديدٌ » مَن قبلهم . . . وترى الكلمة على طريقة السؤال والمداراة وفي وجه غير النقد أو التصريح ، لأن الأستاذ كان يتولى « صحيفة الأدب » في جريدة السياسة الغرّاء ويقوم على كل ما ينشر فيها فكان لا يُجيز إلا ما أراد نشره أو وقع من نفسه موقعاً ، وليس مع رأيه في ذلك رأي البتة ، فاحتلنا عليه بتوجيه الخطاب وجهةً لا ينفر منها إن لم يأنس إليها ، ولا يُنكرها إن لم يقرّها ، وجازت عليه الحيلة فوقع فيها ثم فطن لها من بعدُ ، نبّهه صديقٌ كنا حكيناها له فأسرّها في نفسه .

إلى الأستاذ الفاضل الدكتور طه حسين .

عرفنا أنك تدعو إلى نمط جديد في الكتابة تنتقل به أساليب الإنشاء أو تتغير به رسوم هذه الأساليب أو تَعْفُو طرائق هذه الرسوم ، وأن هذا مما تبعث عليه سنّة التطور لأنه فصْلٌ ما بين القديم والحديث ، ثم هو هو الذوق الأدبي الجديد الذي تزعمه والذي يختلج إليه الطبع في هذا الزمن وتقتضيه ضرورة العلم والإتساع فيه ، والأدب والتحقق به ، واللغة والرغبة في إحيائها .

وقد كشف لنا الأستاذ الفاضل ومَن يجاهدون في سبيله ويكتبون على طريقته أو يحتذونها ـ عن حقيقة ذلك النمط وعرضوا أمثلة ، وحققوا معنى مصاحبة الطبع ومفارقة التكلف في هذه اللغة الفصحى التي لا يولد أحد فيها ولا ينشأ أحد عليها . . . وبيّنوا كيف يكون الكاتب حضريّاً في رأيهم وكيف يتسمّح لهذا الذوق ويترفق فيه ، ويتظرف به ، وكل ذلك بما كتبوا ويكتبون من هذه المقالات السائغة اللينة الحلوة . . . التي تُسرع في تلاوتها إلى الطبع بأشدّ مما تُسرع كتابتها إلى المطبعة ، غير أني حفظك اللّه رجل قد جعل اللّه فيما جعل من محنتي وبلائي أني دائب على الإستقراء لهذه اللغة والتتبع لأساليب الكلام فيها ، مما يسمح أو يلتوي . ومما يأبى أو ينقاد ، ومما يتسهل أو يتوعّر ، ومما يؤمن به عصر ويكفر به عصر آخر ، لأن فلسفة ذلك باب من أبواب كتاب أضعه، ولكني في كل ما قرأت من بدء إتصال الرواية بالعرب إلى اليوم لم أُصب مثل هذا الأسلوب الذي تكتب به . كقولك في صدر قصة للمُعلمين التي نشرتها السياسة اليوم « نعم قصة المعلمين »، فللمعلمين قصة وللمعلمين قضية ، وكنا نحب ألا تكون للمعلمين قصة وألا تكون للمعلمين قضية ، لأننا نربأ بمقام المعلمين عن أن تكون لهم قصة أو قضية ، ولكن أراد اللّه ولا

مرد لما أراد اللّه أن يتورط المعلمون في قصة ، وأن يتورط المعلمون في قضية ، ليست قضيتهم أمام المحاكم وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تصل إلى المحاكم وليست قصتهم مفزعة مُهلعة (كذا ،كذا) وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تكون مفزعة مهلعة ».

فهذه عشرة أسطر صغيرة[1] دار المعلمون « فيها عدد أيام الحسوم . . . وحكيت « القصة » ست مرات ، وكان « للقضية » ست جلسات ، غير ما هناك من مفزعة ومهلعة قد أفزعت وأهلعت مرتين وغير ما بقي مما هو ظاهر بنفسه ، ولا ريب أن الأُستاذ إما أن يكون قد نحا بهذا نحواً لا نعرفه وقصد إلى وجه لم نتبيّنه ، فهو يدلنا عليه لنُجريه فيما أجرينا من أساليب البلاغة ونؤ رخ له في الذوق الجديد ، وإما أن يكون عند ظننا به في إعتبار هذه الكلمات رُقىً وطلاسم للتسخير بقوتها وروحانيتها . . . فإذا قرأ المعلمون هذه المقالة عشر مرات إنحلت المشكلة وجاءهم الرزق وهم نائمون ، ولكن يبقى يا سيدي أن تختم الكلام بعد هذه الهمهمة والغمغمة بقولك . الوحَى الوحَى العجل العَجَلَ الساعةَ الساعةَ . . . والسلام .

(١) أسطر الجريدة .

أسلوب طه حسين (١)

إبراهيم عبد القادر المازني

والآن ما رأينا في أسلوب صديقنا الدكتور طه حسين . الحق أن هذا موضوع يدق فيه الكلام . تناولت القلم فكتب به الشيطان ما يأتي :

الدكتور طه حسين رجل أنيس المحضر ذكي الفؤاد جريء القلب تعجبك منه صراحته ويعلق بقلبك إخلاصه ووفاؤه ! ويثقل عليك إعتداده بنفسه .

ولما كان قد ألف أن يملي كتبه ورسائله ومقالاته فإذا كتبه وأحاديثه حين يجد في مستوى واحد كائناً ما كان ذلك المستوى ، فلست تفتقد في أحاديثه ما تجده في كتابته من الخصائص والثبات ويندر في غيره مثل ذلك . ومن شأن الإملاء أن يحول دون مط الكلام وأن يجعل الجمل قصيرة فلا تطول مسافة ما بين أولها وآخرها وأن يغري بالتكرير والإعادة إلى حد ما . إذن أنا أخرجها من عالم الكتابة . نعم ولست أراها إلا خطباً مدونة . وقد صدق في قوله « إني ما كتبت فصلاً إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص محتاج إلى إستئناف العناية به والنظر فيه - إني أقدر أنه سيتاح لي من الوقت وفراغ البال ما يمكنني من إستئناف تلك العناية وهذا النظر إذا فرغت منه ونشرته السياسة وعرضت لغيره في مثل الحالة العقلية التي عرضت له فيها مقدماً أن أستأنف العناية به والنظر فيه مستحيياً أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح . والأيام تمضي والظروف تتعاقب مختلفة متباينة أشد الإختلاف وأعظم التباين ولكنها كانت تحول دائماً بيني وبين ما كنت أريد من تجديد العناية وإستئناف النظر ».

---

(١) «قبض الريح» ص ٢٠.

ولا شك أن أظهر عيب في مقالات الدكتور هو التكرار والحشو وما إليها من سبيل وعندنا أن علة ذلك ليست فقط أنه يملي ولا يراجع بل الأمر يرجع في اعتقادنا إلى سببين جوهريين :

أولهما : إن ما أُصيب به في حياته من فقد بصره كان له تأثير لا نستطيع أن نقدر كل مداه في الأسلوب الذي يتناول به موضوعاته . وليس يخفى أن المرء إذا أحيل بينه وبين المرئيات ضعف أثرها في نفسه ولم تعد الكلمة الواحدة تغني عن إحضار الصورة المقصودة إلى ذهنه بالسرعة والقوة الكافيتين ، فلا يسعه فيما يعتقد إلا الإسهاب ومحاولة الإحاطة ومعالجة الإستقصاء والتصفية .

وثاني هذين السببين :أنه أستاذ مدرس وقد طال عهده بذلك التعليم مهنة تعود المشتغل بها التبسط في الإيضاح والأطناب في الشرح والتكرير أيضاً وبعبارة أجلى تضطر المدرس إلى تجنب العمق والغوص وأن يكتفي ما وسعه الإكتفاء بما لا عسر في فهمه ولا عناء في تلقيه وتلك آفة التدريس ».

مُسَلَّمٌ لفظًا لا معنى..

كنت أوردت في المقال الذي عنوانه « قال دمنة . . . » مثَل الخطيب الزنديق الذي غرَّه الضعف من نفسه طيشاً ولؤماً ،كما غرته القوة من الناس حلماً وتكرماً ، فطاش ولؤُم بمقدار ما تغافلوا وكرموا وَزعم له شيطانه أن الكفر لن يكون في مثل هؤلاء الجامدين كفراً إلا في المسجد الجامع ، وعلى المنبر ، وفي يوم الجمعة . ولما أوفى دمنة على مهوى المثل وأنشأ ينحدر إليه ، كانت بقية الصحيفة مقطوعة من نسختي ، فقلت لعل في القراء من تكون عنده نسخة غيرها فيعارض عليها ويأتينا بما يكمل هذا النقص ، فلم يتمه أحد إلى اليوم وقد كاد ينسلخ الشهر !

ثم إن جريدة السياسة اليومية نشرت مقالاً لطه حسين يرمي فيه علماءنا بالجمود والجهل ، ويُغري بهم نواب الأمة وشيوخها ، ويخرجهم مخرج المتطفلين على هذه الأمة وعلى التاريخ والعصر ، وكأنه حسب ـ أصلحه اللّه ـ أن البرلمانيين نسخ من نفسه أخرجتها مطبعة الجامعة . . . أوكأنه لا يعلم أن نفسه هذه كتاب مهما تجهد الأبالسة في نشره لا تنتشر منه في أمة يكون فيها الأزهر وعلماؤه والعربية وأدباؤها أكثر من عشر نسخ نصفها في الجامعة المصرية وحدها . . .

ثم خرجت السياسة الأسبوعية وفيها مقال آخر للشيخ « أبي مرغريت » في فلسفة العلم والدِّين والجمع بينهما ؛ فلم يعد يسعني في الدين وهو ميثاق ، ولا يجمل بي في الأدب وهو أمانة ، إلا ان أجد بقية مثل الخطيب ؛

قال الشاعر : كلا يا أمير المؤمنين ، ما ليلى التي أنسب بها إلا قوسي هذه سميتها ليلى . . . ؛ لأن الشاعر لا بد له من النسيب .

فيا ليلى يا ليلى

« كلٌ يغني على ليلاه » متخذاً

ليلى من الناس أو ليلى من الخشب . . . !

فنفضت بيتَ كتبي نفضاً حتى أصبت القسيمة الضائعة من تلك الصحيفة ، فإذا فيها ما نسخته :

قال دمنة : فلما كانت الجمعة والتقى الناس لأداء المكتوبة ، جاء الخطيب ـ وكان رجلاً ضريراً ـ فشق المسجد حتى صعد المنبر ، فتنحنح وسعل ، وقال : أيها الناس ، لقد وقع في قلبي الرثاءُ لكم ، وداخلتني الشفقة عليكم ، فما أغشكم بعد اليوم ولقد غششت من قبل إذ كنت لا أقول ما أعلم ، فلن أجمع على نفسي بين ما ترونه كفراً وما أراه غشا ؛ لقد كنت أقول لكم : « يا عباد الله » وإنما أنتم عباد أنفسكم ، فإن رجلاً عربياً وُضع لكم شرعاً وكتاباً لفق فيه من خرافات الأعراب الذين يبولون على أعقابهم ، ثم مضى لسبيله فتوهمتم ديناً وإلهاً ، وتعبدتم لهذا وتعلقتم بذاك ، فوهْمكم تعبدون ، وأنفسكم تؤلهون ، وزعمتم أن الوحي كان ينزل كلاماً ، ولو نزل كلاماً للمهتدين لنزل حجارة على الكافرين . . .

ولما انتهى إلى هذه الكلمة من قوله ، أصابته حصاة في وجهه ، حَصَبَه بها رجلٌ من عرض الناس ، فقال : ها ! كأنكم توهمونني أن السماء ترد علي بهذه الحصاة ، ولكن من أين جاءت ؟ جاءت من ناحية الباب لا من ناحية السقف ، وليس أحد على الباب ، وليس أحد إلا في المسجد ، فمن المسجد أصبت ، وهذا هو المنطق .

فرماه أحدهم بنعل صكت وجهه ، فقال : وهذا دليل آخر ، فما كانت السماء لترسل نعالاً ؛ وهذه النعل كما أتحسسها نعل « مطينة » وليس في السماء طين فمن أين جاء الطين ؟ جاء من الأرض ، وكانت النعل في قدم أحدكم فالتاث بها فمنكم أصيْتُ ، وهذا هو المنطق .

فتصايح الناس وقالوا : أيها الشيخ ، إن أول الغيث قطر وينسكب ، وهذا هو المنطق . . .

ثم انهمرت عليه نعالهم حتى ملأت جوف المنبر ودفنوه فيها دفناً ، ثم تركوه وتركوها له ومشوا حفاة يرون أنهم يغبرون أقدامهم في سبيل اللّه .

قال دمنة : ثم إن شيخاً كان معهم فخالفهم إلى المسجد وتسور المنبر حتى علاه ، فكشف عن وجه الخطيب المسكين وكان في برزخ بين الدنيا والآخرة ، فتنفس حتى ثابت إليه روحه ، ثم قال له : أيها الغبي ، لقد كنت عالماً تكفر في نفسك وفي رأيك ، فتركوا لك رأيك ونفسك ولم يضطروك إلى ما تكره وخَلاَكَ ذَمّ ؛ ولكنك كنت رجلاً حمقاً مخذولاً ، لا تعرف موضع رأسك من مواضع رؤوس الناس ، فلما أبيت إلا أن يكون على كل عنق مثل وجهك الدميم ، وأبيت إلا حملهم على كفرك ، وجعلت باطلك أمير حقوقهم ، وأبيت إلا أن تسمى فيهم رأساً وما يعرفونك إلا ذيلاً ، كان منهم ما رأيت ، فعرفوك أيها العالم العظيم قيمة علمك ، إذ أهدوا إليك مكتبة عظيمة كل « مجلداتها » نعال . . .

فقال الخطيب : ولكنهم أهانوا المسجد وانتهكوا حرمته وأبطلوا الصلاة . . .

فقال الشيخ : يا رفيع ! ما أراك الساعة تتكلم إلا بلسان من نعل . . . قم أخزاك اللّه ! فلو أنهم عرفوك بهذا الثقل لأهدوا إليك مكتبة أخرى من الحجارة !

* * *

قرأنا ما كتب طه في العلم والدين ، فإذا منزلة الأستاذ في العلم كمنزلته في الأدب ، وهو مقلد فيهما جميعاً لا يصحح شيئاً على وجهه ، لأن ملكة التمييز فيه ضعيفة ، ومن ضعفها ما استطال على الحقائق غروراً ومكابرة وجرأة ، يحسب في ذلك تغطية لجهله وخطئه ، إذ كان في منصب علمي كبير وليس معه من وسائل العلماء في حدة الذكاء وصحة الإستنباط ، ولا من أخلاقهم في الأناة والتثبت ، ولا من أوصافهم في الإقرار والتسليم إذا توجت الحجة وقام الدليل ، بل هو ما ترى من خبط إلى هوج إلى حمق الى ثورة كثورة السكارى في الهذيان والعربدة . . .

ولقد يقتلع المرء جبلاً من الأرض يمتلخه من عروقه فيفرغ منه ، ولا يقتلع

غلطة من نفس طه وإن شهد الملأ من الناس على أنها غلطة وعلى أنه لا يقوم فيها عذر ؛ حدثني فلان قال : ناظرت هذا الشيخ طه يوماً ، فلما ضيقت عليه وانقطع وصار بين التسليم أو البهت ، قال : لا أريد أن أقتنع ! . . . وانظر أنت أي رأي يستقيم في هذه الدنيا مع « لا أريد أن أقتنع » وهي كلمة تأكل الأدلة والبراهين كما تأكل النار الحطب : كلما ازدادت من الأكل إزدادت من الجوع .

مهد طه حسين لرأيه بأن أعلن لشيخ الأزهر ولعلماء الدين أنه مثلهم مسلم ، ثم قال : « والفرق بيني وبين الشيوخ أني مسلم حقاً أفهم الإسلام على وجهه » :

فيا أرض أبلعي ، فهذا مستنقع لا رجل ؛ أهو مسلم حقاً وشيخ الأزهر والعلماء مسلمون « لا حقاً » وهم لا يفهمون الإسلام على وجهه مثل طه لأنهم لم يكذبوا القرآن ولم ينكروا النبوة مثل طه ! . . .

لا يستقيم الكلام على ما تفهم من أوضاع اللغة العربية إلا إذا كان لطه شيء خاص يسميه إسلاماً ؛ فمن ثم تنشأ الفروق الكثيرة بينه وبين شيخ الأزهر والعلماء ، وهذا الشيء الخاص على ما يظهر هو حرية الفكر والرأي ، يفهم على قدر ضعفه ويعمل على قدر ميله ؛ فيخطىء والخطأ عنده إسلام ، ويضل والضلال إسلام ، ويفجر والفجور إسلام ، ويكفر والكفر إسلام ، ويسب الإسلام وذلك إسلام أيضاً ! .

ليت شعري إلى كم يتنطع هؤلاء المساكين في معنى حرية الفكر والرأي ، فإسمع يا طه :

قال دمنة : ثم إن هذه الدجاجة كانت تزعم لنفسها حرية الفكر ، وتنسى أن للفكر شروطاً كثيرة لم تجتمع لها ، وأن حرية الفكر في مثلها هي حرية الجناية عليها وحرية الجناية منها ، فرأت جملاً بازلا كالقصر العظيم يقوده طفل صغير ، فهالها ما رأت من عظمه وقوته ، ووقع من نفسها ما علمت من لينه ومطاوعته ، فقالت للدجاج : إني قد فكرت في الترفيه عنا ، فستتخذ لنا خادماً قوياً نمتهنه في أعمالنا ، وهو على قوته وديع ساكن ، وعلى دعته لبق منصرف ؛ ثم إنها ذهبت فأخذت في منقارها زمام الجمل وجاءت به تقوده ، فلم يكد يضع خفه في تلك التماريد

« الأقفاص » حتى هشمها وتفلق البيض وهلكت الفراريج وطاح الدجاج في كل ناحية ، وفهمن من مصيبتهن ما لم يفهمن من عقولهن ؛ وهذا كله على أن الجمل لم يضع إلا رجله في بيت الدجاج ، فكيف لو ذهب وجاء فيه كما يفعل الخادم في الخدمة . . . ؟

ثم قال طه : « إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة ، وكما ينظر إلى الفقه ، وكما ينظر إلى اللباس ، من حيث أن هذه الأشياء كلها ظواهر إجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتقع الجماعة في تطورها . وإذن فالدين في نظر العلم الحديث ظاهرة كغيره من الظواهر الإجتماعية ، لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحي ، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وإن رأى « دوركايم » أن الجماعة تعبد نفسها ، أو بعبارة أدق ، أنها تؤله نفسها « يريد أنها تخترع الإله بفكرها ثم تعبده ، فهي تعبد فكرها وتؤله نفسها ، وأن النصيحة أن يقال الحق للناس ، وهو أن الدين في ناحية والعلم في ناحية أخرى وليس إلى لقائهما سبيل . . . وأن العلم لا يقبل تأويلاً ، فهو إذا زعم لك أن الأرض كرة وإنها تدور حول الشمس لن يقبل منك أن تؤوله أو تحوله عن وجهه ، كما أنه لن يقبل منك أن تؤول أو تحول قواعد الحساب وأصول الرياضة . . وإذن فالتأويل يتناول نصوص الدين وحدها ، وهؤلاء المؤولون يفسدون نصوص التوراة والقرآن ويحملونها غير معناهما ، ليوفقوا بينهما وبين العلم ؛ هم يأتون بتوراة جديدة وقرآن جديد ، وهم يفهمون التوراة والقرآن (لا يذكر إلا التوراة والقرآن ، أما الإنجيل فيظهر لنا إنه في شفاعة زوجه المسيحية . . .[1]) فهما لو سئل عنه السلف من المسلمين واليهود «أما النصارى ففي شفاعة . . . » لأنكروه أشد الإنكار .

ثم يرى طه أن من الممكن أن يكون الإنسان ذا دين يؤمن بما لم يثبته العلم قال :« فكل أمرىء منا يستطيع إذا فكر قليلا أن يجد في نفسه شخصيتين ممتازتين

---

(١) هي سيدة فرنسية عاقلة تكمل عقل زوجها وتعينه برأيها فإذا اتفق له وأحسن فهو منها ، ولو أنها كانت تعرف العربية لكانت لجاماً لهذا الرجل ،نشر طه في السياسة يوماً أنها ذهبت به إلى مدينة لورد في فرنسا ، وهذه المدينة تحدث فيها كل سنة معجزة في شفاء المرضى ، فرجت السيدة أن تقع المعجزة لطه غير أنه هناك غلبت عليه شقوته فبدأ ينتقد ويكفر ، فردت كلامه إلى خلقه وقالت له أبق هذا لنفسك ؟ فأطرق وسكت ، والأمة كلها اليوم تقول لطه « أبق هذا لنفسك » .

إحداهما: عاقلة تبحث وتنتقد وتحلل « يعني وتكفر » وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس ، والأخرى: شاعرة تلذ وتألم وتفرح وتحزن وترضى وتغضب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل ، وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجنا وتكويننا ، لا نستطيع أن نتخلص من إحداهما ؛ فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عالمة باحثة ناقدة ، وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى ؟ وأنا أؤكد أن هذا اللون من الحياة النفسية وحده هو الذي يكفل السلم بين العلم والدين ، وهو أيسر على المسلم منه على اليهودي والنصراني . فأما أن تقف موقف المؤولين فتغير النصر وتحمله ما لا يطيق ، فإنك لا تنصر الدين ولا تؤيده ، وإنما تفسده وتنزله عند إرادة العلم ، وتعترف بأن السلف كله كان خاطئاً حين فهم الكتاب على غير ما نفهم وعلى غير ما يفهم العلم . . . مالك لا تدع للعلم حركته وتغيره ، وللدين ثباته واستقراره ؟ إنك إنما تجعل الدين هزؤاً وسخرية بإخضاعه لهذا النوع من العبث الذي يسمى تأويلاً ، وخير من هذا النحو من العبث وإفساد النصوص الإلحاد الصريح ».

إنتهى كلام طه بحروفه ، وتلك خلاصة مقاله لم ندع منها إلا الحشو وإلا ما هو زيادة في الكفر أو ما لا طائل تحته ، وأنت تراه يدير الكلام على نفسه ويقيم لنفسه المعاذير مما فعل في دروس الجامعة ومما سيفعل ؛ فإن مقاله هذا مصارحة للأمة كلها بالعداء ، وإصرار على ما أنكرته منه ، وإعلان إليها أنه لن يتغير ، وإنه سيجحد ملء نفسه وعقله ، وأنه مرصد لها ولدينها ، ثم يزعم للناس أنه مع ذلك مسلم مؤمن ! والمقال بجملته تفسير وتوجيه وتعليل لكفر الرجل بحجة العلم يريد أن يثبت فيه أنه من الممكن أن يكون مثله كافراً أشد الكفر على إعتبار أنه عالم يبحث بعقله ، ثم لا يمنع ذلك أن يكون مؤمناً أقوى الإيمان على اعتبار أنه شاعر يحتوي الإيمان في شعوره .

أستاذ الآداب والقرآن

لقينا أديب من أدباء النصارى ، فقال : ويحكم أيها العلماء والأدباء الذين أقاموا الدنيا على رسالة الشيخ علي عبد الرازق[1] ، فإن هذه الرسالة لا تعد شيئا مذكورا بجانب كتاب « الشعر الجاهلي » .[2]

ترى طه يُزهي في كتابه بأنه ممن خلق الله لهم عقولاً تجد من الشك لذة ، وفي القلق والاضطراب رضا (ص ٥) وأنه من فئة (حسبك أنهم يشكُّون فيما كان الناس يرونه يقيناً ، وقد يجحدون ما أجمع الناس على أنه حق لا شك فيه) (ص ٦)

فهو لا يعدّ نفسه من أولئك الذين قال اللّه فيهم : ﴿ ولكنّ اللّه حبّب إليكم الإيمانَ وزينه في قلوبكم وكرّه إليكم الكفرَ والفُسوق والعِصيان ﴾ بل كرّه اللّه إليه الإيمان وزين في قلبه القلق والاضطراب والشك ولو نعلم أن كتابه وإلحاده حديث بينه وبين نفسه أو بينه وبين مثل « كازانوفا[3] » لأهملناه ، ثم لما كان حكمه عندنا إلا ما قال اللّه تعالى ﴿ من أبصر فلنفسه ومن عَميَ فعليها ﴾ ولكن كتابه دروس ألقاها

(١) رسالة شهيرة اسمها : « الإسلام وأصول الحكم » ويخيل إلينا أن بعض الناس لهم قوة على تنويم ابليس تنويماً مغناطيسياً . . . فالأستاذ البليغ الذكي الشيخ علي عبد الرازق نوّم إبليس وتلقى بعض آرائه . أما طه فنوّمه إبليس .

قلت : كان لكتاب « الإسلام وأصول الحكم » حديث بين أهل العلم وأهل السياسة في سنة ١٩٢٥ ـ قبل حديث كتاب طه حسين بنحو عام ـ وقد ثارت ثائرة العلماء من مشيخة الأزهر ونسبوه إلى ما يشبه الكفر ثم دارت الأيام دورتها ، ورضي عنه أهل السياسة ، فاستردّ اعتباره ، وعاد كما كان : عالماً من العلماء ورجلاً من رجالات الإسلام !! .

(٢) يا له من تعبير سمج وسخيف وخاطىء ، فكلا الكتابين كفر ، ومتى كان الكفر تسبيحاً ؟!!! (م . م) .

(٣) رجل مستشرق واسع العلم في مادته ولكن لا قيمة له ولا لرأيه في الأدب العربي ، وقد جاءت به الجامعة المصرية لتدريس اللغات السامية فكانت له مع طه حسين أحاديث في الوسوسة . . وستأتي الإشارة إليه في بعض هذه المقالات .

في الجامعة ، على طلبة يقول هو إنهم زهاء مائتين ؛ فلقد أَمِرَ أَمْرُهُ إذن[1] بقوة هذه الجامعة، وأصبحت الجامعة هي المتهمة بإزاغة عقيدة مائتي طالب ، وصارت في معناها العلمي كمستشفيات المبشرين في معناه الطبي . . . ومن ثم وجب على أئمة الدين أن يحيطوا عقائد أبنائنا وإخواننا ، وأن يَزَعُوا الجامعة ويردُّوا جِمَاحها ويكسروا شِرَّتها ، وإلا شرَكوها في الإثم وأعانوها عليه ، وقد أبلغنا فاللهم أشهد ، وإنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب !

ولننظر الآن في حماقة طه وأكاذيبه التي زعمها في القرآن ، ووقاحته العجيبة فيما يكتب جهلا بأساليب الكتابة وذوقها واسترسالا مع طبعه الأحمق السفيه .

يقول في صفحة ٢٦ « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ؛ ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة . . . قال : ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية ، والتوراة والقرآن من جهة أخرى » . انتهى . . .

فانظر هذه الوقاحة في قوله « للقرآن أن يحدثنا » كأنه زَعْمٌ زاعم له أن يقول وأن لا يقول ؛ وإذا لم يكف النص في كتاب سماوي تدين به الأمة كلها لإثبات وجود المنصوص عليه فما بقي معنى لتصديقه ، وما بقي إلا أن يكون القرآن كما يزعم المستشرقون أساتذة طه حسين وأولياؤه كلاما من كلام النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، ومن نظْمه وعمله كما نقل عن هذا الخرف المسمى ، كليمان هوار ، فهو يدخله ما يَدخل كلامَ الناس من الخطإ والغفلة والحيلة والكذب ، فله أن يزعم ما شاء ولكن ليس علينا أن نصدق أو نطمئن، وإذا هو ذكر اثنين من الأنبياء ، وإذا هو ورد فيه قوله تعالى ﴿ وإذ يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيل ﴾ فذلك غير كاف في رأي استاذ الجامعة المصرية لإثبات أن إبراهيم وإسماعيل شخصان كان لهما (وجود تاريخي) ، ولا أنهما هاجرا إلى مكة ورفعا قواعد البيت الحرام وبنيا الكعبة ؛ وإذن فالقصة في رأي استاذ الجامعة المصرية من الأساطير الموضوعة ومما يلتحق بحيل

---

(١) أي عظم شأنه وصار أمره أمراً .

الروائيين التي يشدون بها المعاني الاجتماعية ، والسياسية ، والتاريخية ، ويؤتى بها في الرواية على أنها من الكذب الفني توصلا إلى سبك حادثة أو تقرير معنى أو شرح عاطفة .

أولا يعلمُ أستاذ الجامعة أن النصوص واردة بأن العرب لا يعدون اليهود منهم[1] وإن كانت الدار واحدة واللغة واحدة ، فما حاجتهم إلى حيلة روائية سخيفة وهم لم تفصَّل طباعهم على طباع طه حسين . . . ليكذبوا وينافقوا وهم يعلمون أنهم كاذبون منافقون ، على حين أنهم مستيقنون أن اليهود أهل كتاب وعلم فلا يقبلون من أمة جاهلة أن تضع لهم التاريخ» . ثم كيف دخل هذا الكذب واندست هذه الحيلة في القرآن ؟ نبئوني « بعلم » إن كنتم صادقين .

يقول الأستاذ صفحة ٢٨ : « فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ، ونهضة دينية وثنية ؛ وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد العربية وحدة سياسية وثنية مستقلة . . . قال : وإذا كان هذا حقاً ، ونحن نعتقد أنه حق ، فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تحُدِّث عنها الأساطير ، قال : وإذن فليس ما يمنع قريشا من أن تتقبل هذه « الاسطورة » التي تفيد أن الكعبة من تأسيس اسماعيل وإبراهيم . . . كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة « أسطورة » أخرى صنعها اليونان تثبت أن روما متصلة بإينياس بن بريام صاحب طروادة » .

انتهى كلام الجامعة المصرية ، ومعناه الصريح أن قريشاً قبلت هذه الأسطورة الخرافية التي تثبت أن الكعبة من بناء إسماعيل وإبراهيم ، فأخذها مَنْ وَضَع القرآن عن قريش لأنه منهم ؛ وبذلك تجزم الجامعة المصرية أن في القرآن كذباً وتلفيقاً ، لأن الأسطورة كما يقول أستاذها صفحة ٢٩ «حديثة العهد ظهرت قبل الإسلام واستغلّها الإسلام لسبب ديني » أي فهي كذب صريح يعلم الإسلام أنه كذب ، ويتغفّل به

(١) تجد النص على هذا في الأغاني وغيره ، وقد كانت العداوة طبيعة مستحكمة بين العرب واليهود ، ونص القرآن عليها بعد الإسلام ، وكان اليهود قلة فيهم ، قال الجاحظ : جاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة إلا ما كان من ناس من اليمانية ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة ومعظم اليهودية إنما كانت بيثرب وحمير وتيماء ووادي القرى في ولد هارون دون العرب . فتأمل .

العربَ لسبب ، فماذا بقي من هذا الدين الذي يتناول الخرافة المخترعة قبل الإسلام بقليل ويوردها في كتابه على أنها منزلة من السماء وأنها وحيٌ يُوحَى ؟

وتماما على هذه الخرافة يقول أستاذ الجامعة في صفحة ٨٠ « فهو ـ يعني القرآن ـ يذكر التوراة والإنجيل ويجادل فيهما اليهود والنصارى ، وهو يذكر غير التوراة والإنجيل شيئاً آخر هو صُحف إبراهيم ، ويذكر غير دين اليهود والنصارى ديناً آخر هو ملة إبراهيم . هو هذه الحنيفية التي لم نستطع إلى الآن أن نتبين معناها الصحيح ؛ وإذا كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله ، وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله ولم يكن أحد قد احتكر ملة ابراهيم (تأمل) ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها ، فقد أخذ المسلمون يردون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم » .

انتهى . ولكن أهُمُ المسلمون الذين زعموا هذا أم نزل ذلك في قرآنهم في قوله تعالى ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ إلى آيات أخرى ؟

فإذا كان ذلك من فعل المسلمين فالقرآن كذلك من صُنعهم عند أستاذ الجامعة ؛ وهذا الأستاذ يشير (بالحنيفية) التي لم يفهم معناها الصحيح إلى ما ورد في الحديث من قوله صلى اللّه عليه وسلم : بُعثتُ بالحنيفية السمحة السهلة ؛ وقد تكررت هذه اللفظة في الحديث ، فكيف سمعها العرب ورواها العلماء ولم يفهموها ، وكيف يكون ذلك وهي مبنية على آيات كثيرة وردت في القرآن ، مثل قوله تعالى ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ وقوله : ﴿ ومَنْ أحْسَنُ ديناً ممن أسلم وجهه للّه وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ إلى آيات كثيرة كلها نص قاطع في أن معنى الحنيف إنما هو الذي مال عن الشرك والتشبيه والتجسيد مما يزعمه اليهود والنصارى والمشركون ، والحنف في اللغة : الميل ، وكان العرب يقولون في كل ما تعبد واعتزل الأوثان ، إنه تحَنّفَ ، وكلٌ من حج واستقبل البيت سمُّوه حنيفاً ؛ لأنه بيت إبراهيم ، ثم توسَّع الإسلام في الكلمة على سنته في الألفاظ الإسلامية المعروفة ؛ فالمعنى الصحيح للحنيفية أنها الشريعة النقية التي لا شَوْبَ فيها من الإلحاد والشرك ، والتي تعدل بالناس إلى الله وتوجه الخَلق إلى الخالق

وحده . وانظر كيف يقول الله : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ﴾ ثم يزعم أستاذ الجامعة أن قصة إبراهيم « حيلة » في إثبات الصلة بين اليهود والعرب ، وبين الإسلام واليهودية وبين التوراة والقرآن . . . فهل في الجهل أوسع من هذا ؟

والعجب أن شيخ الجامعة مع كل هذا الخلط وكل هذه الحماقة يقول في صفحة ١٢٦ : « القرآن وحده هو النص العربي القديم الذي يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ويعتبره مشخّصاً للعصر الذي تُلي فيه » فأين الشك الذي ابتلي به هذا الرجل ، وكيف يستطيع على قاعدته في البحث والتحليل « ووضع علم المتقدمين كلّه موضع الشك » أن يثبت هذا القول ؟ وهل هو يجهل انه كان قبله بزمن بعيد قوم « يجدون في الشك لذة وفي القلق والاضطراب رضا » وقد شكوا - كما قال طه - في نص القرآن وقالوا إنه وقع فيه نقص وزيادة وتبديل ؟ فإذا أخذ طلبة الجامعة المصرية بقاعدة الشك التي يقررها أستاذهم ويريد أن ينشئهم عليها فهل يصدقون طه حسين أم يصدقون هذه الفرقة ، وما الذي يجعل طه أصدق منهم أو يجعلهم أكذب منه ما دام الأمر إلى الشك والتعسف ؟

يعتقد الأستاذ أن القرآن يمثل العصر الجاهلي « ويشخّصُه » ، وأنه أصدق مرآة للحياة الجاهلية - ص ١٦ - وأن العصر الجاهلي القريب من الإسلام لم يَضِعْ ، وإنا نستطيع أن نتصوره تصوراً واضحاً قوياً صحيحاً ، بشرط أن لا نعتمد على الشعر ، بل على القرآن من ناحية والتاريخ والأساطير . . . من ناحية أخرى - ص ٨ - ومعنى هذا الخلط مضافاً إلى ما تقدم وإلى قوله في ص ٨٣ : « ليس يعنيني أن يكون القرآن تأثر بشعر أمية - بن أبي الصلت - أو لا يكون » ان القرآن عند هذا الرجل كتاب أشبه بالكتب التي يضعها المؤلفون فتكون تمثيلاً للعصر الذي وُضعت فيه لأنها صادرة عن فكر متأثر بالأسباب الكثيرة التي أنشأت العصر نشأته الخاصة به والمميزة له ، مؤثرة بهذه الأسباب عينها فيما يضعه ويؤلفه ، كما ترى في إلياذة هوميروس مثلاً ؛ وإذن فلم يبق معنى لما ورد فيه من أنه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ ، ويلتحق هذا ومثله بالأساطير التي « استغلها الإسلام لسبب ديني » ، وتكون هذه هي عقيدة الجامعة المصرية في القرآن لا عقيدة طه حسين وحده ، ما دامت الجامعة تدرس هذا وتقرّه وتمتحن الطلبة فيه وتجيزهم عليه .

هل يدري طه حسين معنى قوله تعالى ﴿ من بين يديه ﴾ ومعنى قوله ﴿ من خلفه ﴾ ؟ وهل يفهم هذه البلاغة المعجزة التي يسحر لها البلغاء ؟ إن معناها يا أستاذ الجامعة أن القرآن لا يشخص عصراً ولا يمثله ، بل هو كتاب كل عصر ، وهو الثابت على كل علم وكل بحث وكل اختراع واستكشاف على مدى الأزمنة في أيها جاء مما سيستأنفه التاريخ ؛ وهذا معنى ﴿ من بين يديه ﴾ وأيًّا ذهب مما يطويه الماضي ، وهذا معنى ﴿ من خلفه ﴾ ؛ وليس يخفى عليك أن العصور يصحح بعضها بعضاً ويكشف بعضها خطأ بعض ، وقد يتقرر في زمن ما يثبت بعد أزمان طويلة أنه كان خطأ فقوله : ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ من الكلمات التي لا تخطر بفكر إنساني يُظَنُّ أنه يشخِّص العصر الجاهلي ، بل هي عِلم من لا يعلم غيره أن ستجدُّ أمور وتحدث علوم وتُمحِّصُ تواريخ وتنشأ مخترعات ، فلو فهم الجاهل لما تكلم إلا الفاهم ؛ وقد قال الله في أشباه طه حسين ﴿ وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ﴾ .

ولقد عجبت لأستاذ الجامعة كيف يعتمد في تصوّر العصر الجاهلي على التاريخ والأساطير وهو الذي يقول بالشك ؛ وكيف تصح عنده الأساطير ويصح التاريخ العربي دون الشعر الجاهلي ؛ وهل جاء هذا الشعر إلا من الطريق التي جاءت منها الأساطير والتاريخ أي بالرواية والاسناد من الحفظ والتلقين ؟ وإذا جاءت ثلاثتها من طريق واحدة وكان الكذب والوضع قد دخلها جميعها ونص العلماء على أشياء من ذلك في الأبواب الثلاثة ؛ فكيف يكون العصر الجاهلي في اثنين منها دون الثالث مع أن الوضع فيهما أيسر من الوضع في الشعر ؛ إذ هما كلام كالكلام لا مؤونة فيه ولا تعب ولا صناعة ولا كذلك الشعر ، وخاصة ما يوضع منه على ألسنة فحول الجاهليين .

إنما جاء أستاذَ الجامعة هذا العلم الغريبُ من جهله بالشعر وصناعته وأغراضه ، فهو يحسب أن الشعر الجاهلي لا يكون جاهلياً ولا تصحّ نسبته إلى الجاهلية إلا إذا مثَّل الحياة الدينية عند العرب ؛ ولقد ذكر القرآن اليهود والنصارى والمشركين والصابئة ولم يذكرهم الشعر الجاهلي ، بل هو كما يقول ص ١٨ : « يُظهر حياة غامضة جافة بريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي . . . » فالقرآن عنده لذلك أصحُّ تمثيلاً ، والشعر لذلك عنده غير صحيح ، قال في ص ١٩ : « وقريش

كانت متدينة قوية الإيمان بدينها ؛ ولا يمثل لها الشعر الجاهلي من ذلك إلا قليلاً »
فليذكر لنا الأستاذ شعراء قريش من عهد امرىء القيس وليقل لنا متى كان الشعر في قريش وقد نصوا على أنها أقل القبائل شعراً وشعراء في الجاهلية ، ثم ليذكر لنا هذا الباحث المحقق . . . كيف مثل الشعر الإسلامي الحياة الدينية الإسلامية ، وأين هذا في شعر جرير والفرزدق والبُحتري والمتنبي ؛ وهل يحسب أستاذ الجامعة أن القرآن يجري مجرى الشعر في الوضع والسبب والغاية ؟ ألم يعلم طه حسين إلى سنة ١٩٢٦ أن القرآن نزل بشريعة تنسخ الشرائع ، ودين يتمم الأديان وعبادة تمحو العبادات ؛ فكان لا بدّ من ذكر كل ذلك فيه بإجمال حين يجمُل وتفصيل حين يُفصِّل وقَصص حين يقص وبرهان حين يحتج وقياس حين يقايس ، وأنه ما هو عاطفة شاعر ولا وصف كاتب ولا حكاية مؤ رخ ولا حيلة قاصّ روائي ، ولا هو بعلم على قياس فكر طه حسين مدرس الجامعة المصرية . . .

لقد تناولتُ الآن هذا الكتاب الكريم عندما انتهيت في الكتابة إلى هذه الكلمة وسألت اللّه أن يخرج لي آية تشير إلى طه حسين وغروره وحماقته وتخاليطه ، ثم فتحته على هذه النية فواللّه لقد خرج قوله تعالى : ﴿ إن الذين لا يؤ منون بالآخرة زيّنا لهم أعمالهم فهم يَعْمهون ﴾ ويا أسفا ثم يا أسفا - ثلاث مرات ؛ كما يقول الفرنسيون - لو فهم طه ما في قوله : ﴿ زينا لهم أعمالهم ﴾ إذن لأكل نصف أصابعه عضاً من الندم !

القرآن يا شيخ الجامعة يقارع أدياناً فهو يذكرها ويصفها ويحتج عليها ،

فماذا يقارع الشعر الجاهلي ليذكر الأديان والشعور الديني القوي ؟ وهذا على أنك لم تحُط بهذا الشعر ولا بأكثره ولا بكثيره ، وعلى أن ما انتهى إليك في الكتب إنما هو ما اختاره الرواة والعلماء للّغة والفن والصناعة ، لا للتاريخ ، ولا للبحث التاريخي ، ولا « تشخيص » عصر من العصور ولو هم أرادوا ذلك وفطنوا له لجاءتك كتب وافرة مصنفة وتاريخ تام محفوظ ولكنهم أهملوا من أمر الشعر في اتصاله بالتاريخ وأسبابه ومعانيه مثل الذين أهملوا في ذلك من أمر اللغة ، كما كانت تقتضيه طبيعة عصرهم وعلومهم ؛ أفليس الحَمل على هذا المعنى أقربَ إلى العقل من ذلك الهذيان ؟

وفي ص ٢٠ من كتاب طه حسين ترى الجهل المركّب تركيباً مزجياً كبعلبك ومعد يكرب . . . فهو يزعم أن القرآن يمثل للعرب حياة عقلية قوية في الجدال الديني والفلسفي ، لأنه وصفهم بشدة الخصام ؛ قال : « وفيم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون ؟ في الدّين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة . . . فيها حياتهم » فيا فضيحة الجامعة المصرية في جامعات الأمم ! ألا يتفضل أستاذها على الأدب والتاريخ فيذكر لنا مجلساً واحداً من هذه المجالس العربية الفلسفية وما دار فيه من البحث والتحقيق والجدل والخِصام والمحاورة في معضلات الفلاسفة التي ينفقون فيها حياتهم ، لنصدّق أن معنى اللَّدد والخصام الواردين في القرآن صفةً للعرب إنما هو الحوار في مسائل الدين والجدال في معضلات الفلسفة ؛ أمِن حُجَجهم الفلسفية كانت تلك الحجارةُ التي نص التاريخ على أنهم كانوا يقذفون بها النبي صلى الله عليه وسلم حتى يُلجئوه إلى الحائط ، وذلك الترابُ الذي كانوا ينثرونه على رأسه ؛ أم قولهم : شاعر وساحر وكذاب ومجنون ، ونحوها مما يدخل في باب الحُمق والسفاهة والاستهزاء ؛ ومتى كانت هذه من صفات الفلاسفة يا شيخ الجامعة ؟ أم كان من حججهم الفلسفية حين عرض نفسه على قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام ويتلو عليهم القرآن أن اتّبعوه عمُّه عبدَ العُزّى يقول من ورائه : يا أيها الناس لا تسمعوا منه فإنه كذاب ؛ أو كانت مجالسهم العلمية والدينية الفلسفية حين كان صلى الله عليهم وسلم يجلس فيدعو الناس ويتلو عليهم القرآن ثم يقوم فيأتي عالمهم ومتكلمهم النضر بن الحارث فيخلفه في مجالسه ويقص على الناس من أخبار ملوك فارس ويقول : والله ما محمد بأحسنَ حديثاً مني ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتَتَبَها كما اكتتبتُها ؟

إن معنى الخصام واللد أنهم سفهاء ،أهل تكذيب وعِناد ومكابرة وتأبٍّ على من يريد هدايتهم وإرشادهم ، لا يمكن صرفهم عن رأي يكون فيه الهوى ، كما لا يمكن مثل ذلك في الجاهل الأحمق المصرِّ المبتلى بالاستهتار والشك ، فإن أصل الألد في اللغة الشديد الَّلد ، أي صفحة العنق ، فلا يلوي عنقه في الصراع ، وذلك من أكبر الأدلة على وثاقة تركيبه الجسماني ،فإن عنق المصارع ثُلث المصارع . ولقد كانت هذه الطباع الجاهلة الحمقاء المكابرة من أوضح الأدلة على إعجاز القرآن : لأنه مع إصرارها بلغ منها ، ومع عنادها أثَّرَ فيها ببلاغته : فلو كانوا كما زعم طه « أصحاب

علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لينٌ ونعمة » لما كانت هدايتهم شيئاً يذكر في باب المعجزة ،أو لسنا نرى اليوم في الأمم المتحضرة الرقيقة ذات النعمة الفاشية من ينقادون أسهل انقياد وأسرعه لكل ذي مذهب ، حتى لعبادة الشيطان في أميركا بلاد كل شيء ذهبي . . . ؟

وكيف يكونون « أصحاب عيش فيه لين ونعمة » وهم أنفسهم حين اجتمع أشرافهم من قبائل قريش ليكلموا النبي صلى اللّه عليه وسلم ويخاصموه حتى يعذروا فيه قالوا له فيما قالوا : « قد علمتَ أنه ليس أحد من الناس أضيقَ يداً ولا أقل ماء ولا أشد عيشاً منا » ولما نزل قوله تعالى : ﴿ ثم لتُسألُن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الزبير بن العوام : عن أي النعيم نُسأل يا رسول اللّه ؟ إنما هما الأسودان التمر والماء ! فقال صلى اللّه عليه وسلم :« أما إنه سيكون » فيا سبحان الله ! جهل بالأدب وجهل بالتاريخ وجهل باللغة وجهل بالشعر ؛ ثم يكون من هذا كله علم الجامعة المصرية !

والطامة الكبرى في صفحة ٢٢ إذ يزعم الأستاذ أن وجود سورة في القرآن تسمى سورة الروم دليل على أن العرب لم يكونوا في عزلة سياسية ، بل هم أصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة ، وقد أخذت ذلك من قوله تعالى : ﴿ ألم غُلبت الرومُ في أدنى الأرض وهم من بعد غَلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ كأنه يعنى أن هذا التاريخ كان معروفاً في أهل السياسة من العرب وفي وزارة خارجية قريش . . . فأخذه القرآن عنهم كما زعم الرجل في إبراهيم وإسماعيل ، وغفل أستاذ الجامعة الذي لا يفهم عن قوله تعالى ﴿ وهم من بعد غَلَبهم سيَغْلبون ﴾ فلم يدر أن هذا إنباء بالغيب يدخل في باب المعجزة لا في باب التاريخ ولا في السياسة . فذِكر الروم في القرآن وما يجري مجراها من قصص الأمم إعجاز من النبي الأمي في هذه الأمة الأمية ؛ فهو بذلك دليل على جهل تلك الأمة وبداوتها لا على علمها وحضارتها ؛ ولن يكون القرآن دليلا على علم العرب وحضارتهم ومعرفتهم بالتاريخ واتصالهم بالسياسة كما يقرر طه حسين في الجامعة إلا إذا كان القرآن كلام النبي الذي جاء به لم يكن وحياً ولا تنزيلا ؛ فلتنظر الجامعة أين يذهب أستاذها الخبيث في قوله في ص ٢٣ « وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن قد ظهر في أمة جاهلة همجية »[1]

---

(١) قال الجاحظ : ليس في الغلبة على مكة رغبة ، لولا ذلك لغزاها أهل اليمن وغيرهم ، وليس بها مشتى =

وهل نصدق طه فيما يستنتج بفكرة العقيم من أن العرب كانوا أمة متحضرة راقية « وكانوا أصحاب علم ودين وسياسة متصلة بالسياسة العامة » أو نصدق النبي صلى الله عليه وسلم في قوله ؛ « إنا أمة أمية لا نحْسُبُ ولا نكتب » ومن أين تجيء الحضارة ويأتي العلم وتستقيم السياسة مع جهل (الأمة) بالكتابة والحساب ؟

إن طه حسين هذا مجموعة أخلاق مضطربة وأفكار متناقضة وطباع زائغة ، وما من عالم في الأرض إلا وأنت واجد آراءه قائمة بمجموع أخلاقه أكثر مما هي آتية من صفاته العقلية ؛ ولذلك قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الحديث الصحيح : « إن أخوف ما أخاف على أمتي كلُّ منافق عليم اللسان » وطه رجل أرسلوا لسانه وقلبه إلى أوروبا ، فرجع بلسانه وترك قلبه هناك في خرائب روما . . . فيجب أن يكون نفاقه وثرثرته مقصورَين على نفسه ، ويجب أن تحمي الجامعة طلبتها منه ، ويجب أن ينهض علماؤنا في إلزام هذه الجامعة أن تعلن براءتها من آراء أستاذها حتى لا يزيغ به أحد فتبقى قيمته وقيمة آرائه كما هو في نفسه وأهْوِن به ، لا كما هو بالجامعة وأعْظِم بها .

وإذا كان عميد كلية الآداب لا يُحسن من العربية شيئاً ولا يفقه من هذه المباحث شيئاً ولا هو من دين الأمة في شيء فماذا نقول في الأستاذ الأديب الذكي البليغ مدير الجامعة الذي اسمه أحمد[1] .

= ولا متصيف لأنهم يتبردون بالطائف ويتدفون بجدة، وجواثا عين بالبحرين ، وليس بمكة شيء يداني تلك . وليس بها منتزهات وإنما بها تجار والتجار يحقرون ؛ يقول : هم عند الناس في حد الضعف ، ولا يستجيز ملك أخذ الذي به يتعيشون ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك وهم قوم ليس عندهم امتناع . وإذا أخرجوا علقوا عليه المقل ولحاء الشجرة حتى يعرفوا فلا يقتلهم أحد ؛ فأين القوة والسياسة والحضارة والعلم والفلسفة ؟

(١)قلت : يعني احمد لطفي السيد باشا .

الجامعة المصرية بأساتذتها في قفص الإتهام[1]
قد تبين الرشد من الغي[2]

قبل أن يجري القلم في هذه الكلمة نصحح قولاً جئنا به في بعض ما كتبناه ، فقد ظننا أن أستاذ الجامعة أخذ فكرة الشك في شعر الجاهلية عن المستشرق مرجليوث ، ولكن أحد الفضلاء نبهنا إلى أنه قَبلَ جُحا قد كان أبو دلامة . . . فإن هذه الفكرة من آراء مستشرقي الألمان ، وهي مبسوطة بكثير من أدلة طه حسين في كتاب « الشعر العربي قبل الإسلام » المطبوع في باريس سنة ١٨٨٠ ، فيسرُّنا والله أن نباهي الأمم كلها بجامعتنا المصرية التي جاءت في تاريخ الدنيا بمعجزة فوق المعجزات ، إذ ظفرت لتدريس الآداب العربية بأستاذ عظيم تُسرَق آراؤه وتُنشر في أوروبا قبل أن يولد هو في مصر ببضع سنوات . . .

وما زالت بلادنا هذه مُرَزَّأة مسكينة لا تبرح الأقدار تمسها في كنوزها الغالية وترميها بالمتلصصة من آفاق الأرض ، فما كفى أوروبا أن تسرق آثار ملوكها وفراعنتها بعد موتهم ، بل اجترأت كذلك فسرقت آراء الفرعون العظيم طه حسين قبل ولادته . . .

أما بعد أيتها الجامعة فإنما نخاطبك ونكتب لك وحدك ، وإياكِ نعني ، وعلى قدركِ ما أجملنا وفصّلنا ؛ لأنك مؤتمنة على عقائد أبنائنا ونراك خائنة ، وفيك مَثابة العلم ونراك جاهلة ، وإليك الرأي في هذا الأدب ثم لا يَسِفّ ولا يسقط في الرأي غيرك ، وقد كان الظن بك أن للعلم حرمةً عندك وللأمانة موضعاً فيك ، وأنك تعلمين الفرق بين علم مفروغ منه وعلمٍ قد بُدىء فيه ، وبين العقل العام الذي يجتمع

(١) الجامعة المصرية في قفص الإتهام !! (م.م)

من صواب العلماء جميعاً وبين العقل الخاص الذي يحمله كل عالم وكل جاهل ، وكنا نرجو بذلك أن تدركي أن الأدب لا يلبس ثياب طه حسين ولا يحيا بحياته ولا يموت بموته ، وأن هذا الرجل هو مرآتك في الأمة ، فهو رادُّك إلى طبعه وخُلقه ، ومثِّلك بجهله وحمقه ، ودامغُك بزيغه وإلحاده ، فتَعَالَتِ به حتى فضحك جهله ، وأمنت له حتى لبسك كفره ؛ ثم أنت بعد ذلك لا خطأً نفيت ولا صواباً أتيت ، بل ذهبت بنفسك ؛ غروراً منك بأن اسمك الجامعة ، وتعصباً لباطل أستاذك الملحد واستكباراً في الأرض ومكراً لسيء . فكنتِ ما كنتِ ، إلى صلابة وعناد ، وإلى شدة ونكاية ، وملتِ إلى ناحية الإزدراء بالأمة والتهكم بدينها والتحقير لعلمائها وأدبائها ، كأنه ليس في كل أولئك عالم ولا أديب ، وكأن مجموعة الأمة المصرية لا توزن عندك « بابن الجامعة البكر » لأن قلبك يزيد فيه حتى يصير جبلاً ، وينقص من الأمة حتى ترجع حصاة ، والميزانُ ميزان قلبك ؛ ثم هو في يدك المتصلة بهذا القلب ؛ فسبحان الله ! كأننا لا نجادلك في العلم والأدب ولكن نعذلك في العشق والهوى ، وأضيعُ شيءٍ ما تقول العواذل ! فما بِك إلا الخلاف والمكابرة والإصرار وإعتدادُ كل سيئة من سيئات المحبوب حسنةً من حسنات المحب . . .

فلقد صار لنا أن نفهم أن الأمر عندك إنما هو بين أشخاص أو أمزجة ومصالح تجعل علماء الدين في مصر بأسمائهم وألقابهم وإجازتهم كأنهم صفحة مكتوبة تقرأ وتُرْمى في سلة المهملات ، أما طه وحده فهو الحي العالم القادر المتكلم الإبن البكر الذي تجعله شهادة السوربون كأنه الآية الناسخة ، ثم لا تكون الآية المنسوخة إلا الأزهر الشريف ، على حين لا يكون الخلاف إلا دينياً وفي كتاب الله .

وصار لنا أن نفهم أن هذه التي تسمى الجامعة المصرية لا تبالي حُسْنَ أثرها على الأمة أو سوء أثرها عليها ، ولا تعبأ بسمعة تمدح أو تذم كأنها هي وحدها مركز المخ من الجسم المصري ، أما سائر الناس والطبقات فجلْد وعظم وأدوات وشيء كالصنعة فيما تَغِله على صاحبها ، أو نحو من هذا التشبيه أو قريب من نحوه ، فإن سقط رجل فيها كطه حسين ونبذته الأمة كلها، لم يكن للجامعة همّ إلا أن تشدّه إلى كرسيه ولو بالجبال ، وتثبته ولو بالمسامير ، كأنما وظيفته في الجامعة أن لا يتركها وحَسْب . . .

أما العلم والأدب فكل كلام هو علم وأدب ما دام قائله « إبن الجامعة البكر »

وما دام التمييز مفقوداً والأهواء ملتبسة ، إذ البغية عندهم كما وضح لنا وللناس جميعاً أن يجد أستاذ الأدب عيشه لا أن يجد الأدب أستاذه ، والأمران مختلفان جداً كما ترى وبينهما بعدٌ باعدٌ لا تقريب فيه .

نسأل الجامعة سؤ الاً مكشوفاً لتجيبنا عنه إن استطاعت أن تجيب بعد ذلك السكوت منها :

من الذي يصلح من رجالها والقائمين عليها أن يكون حكَماً فيما شَجَرَ بينها وبين الأدباء من خلاف ؟ فهم يرمون أستاذها بالجهل في تاريخ الأدب ويهدمون عليه دروسه وينقضون آراءه ؛ وذلك إما حق فينفذ وإما باطل فيُرَدّ ؛فمن عساه يقول هذه الكلمة الفاصلة من أساتذة الجامعة ورجالها ؟ ومن هو هذا الذي يرى في نفسه قوة هذا العلم ويكون من أهله بهذا الموقع ، وما عَلِمْنا أن في الجامعة الأصمعيَّ ولا أبا عبيدة ولا الجاحظ ولا من فيه من هؤلاء وأمثالهم رائحة ، وليس في الأرض كلها من يقول إن عالماً بالقانون هو من أجل ذلك عالم بالأدب ، وإن فيلسوفاً في العقليات هو بفلسفته مؤرخ للشعر وللكتابة ، وما كل من يحسن شيئاً يحسن كل شيء .

ولقد ادعى الأدباء والعلماء وجاؤوا بالبينة وساقوا الحجج وأثبتوا للجامعة إلحاد شيخها وضعف رأيه وسوء فهمه وعقم إستنباطه ، وأنه على ذلك نَزْرُ المادة يتوسع فيها بأشياء من نفسه يسميها التحليل والمنطق ، لا بالأسباب التي تكون المادة نفسها مما يسمى بالنصوص والعلل ونحوها . قد أُقيمت الدعوى فأين القاضي ؟ أتريد هذه الجامعة أن تتهزأ بالعلماء والأدباء جميعاً ، وأنْ تتغفل الأمة كلها فتضع لطه حسين لحية كثة على عارضيه وفورة بيضاء على رأسه وتخرجه للناس يقول : نحن قاضي الجامعة ، فتحت الجلسة وحكمنا أن طه حسين لم يلحد في دين اللّه ولن يلحد فيه ، ولم يخطىء في تاريخ الأدب ولن يخطىء ، ولم ولن عشر مرات على بياض . . . ليضع فيها طه حسين ما شاء كلما شاء

أيتها الجامعة ! لا نسألك إنصافاً ولا بعضاً من الإنصاف ، ما دمت تخصين أستاذك بالمراعاة وبفضل من المراعاة ، ولكن ويحك ما أنت صانعة في تاريخ الأدب ، ومن الذي ورَّثكِ إياه أو وقفه عليك حتى يكون علمك هو العلم وحده ،

وأية قوة هذه التي تجعل الغلطة منك ذات عنصر ليس في الغلطحتى لا يطمع أحد في تنبيهك إليها أو حسابك عليها ، وفي هذا القياس من الذي يجعل حديدك ذهباً ، وثلجك البارد لهباً ، وحطبك عُودَ النّد ، وجَزْرَك أعلى المدّ ، سبْحانكِ بيدك الخير ، وأستاذكِ ولا غير ، وورثت ملكَ سليمان « بِعفريت » وملكت حرارة الشمس في علبة كبريت . . .

أما إنه عزيز علينا والله أن يجري بنا القول إلى هذا المعنى ، ولكن الكلام لا مَقَادَة له إلا من الواقع ، وما كان لنا أن نرى في المرآة قَفاً عريضاً ثم نقول في وصفه تبارك الله ما أبدع سحرَ العين ، وما أحلى نَدَى الابتسام على ورق الشفتين ، وهذا الخد ، قافية في شعر الورد ، وذاك الفم على وزن الدم ، ويا عليل الطرف أين منك الدوا ، وما هذا الحاجب إلا « حاجب » محكمة الهوى . . .

* * *

وبعد فلندع الجامعة في أستاذها ولتسخر من الأمة ما شاءت ، ولكنا نريد أن نُفهمها أن السماجة كل السماجة في أستاذها أنه يزعم في كتابه تصحيحَ الحياة الأدبية الإسلامية ، وقد علم أنه ما كان فيها ولا شارك أهلها ولا أحاط بأسبابها ، ولا هو يتولاها بالذهن اللطيف والبصيرة النافذة والطبع الشعري وما يشبه أفكار أهلها ومنازعهم وأغراضهم ، بل يزعم في غرور أيِّغرورأنه تجرد من العاطفة والدين ليدرس ويستثبت ويحقق ، وهو لو كان على علم وبصر وكان قد توفر على ما هو بسبيله من هذا الأدب للبس ولم يتجرد . فكان يكسو فكره وخياله عواطف العرب وأذواقهم وعاداتهم وطبائع عصرهم ، ويقارب أذهانهم الحِداد وقرائحهم القوية ، ثم يقول بعد ذلك في تاريخهم وتاريخ أدبهم وينكر ويثبت . فإنه أحرى أن يقبل منه ؛ إذ يكون كأنه اتصل بالحادثة التي يؤ رخها بمثل ما يردّه العيان والمشاهدة على من عاين وشاهد ، وكأنه شارك فيها بإيجادٍ وخَلق ؛ فمن ثَمّ لا يقول فيها من هو أصدق منه أو أقرب إلى الصدق ، ويكون فيما يحكيه أو يصفه أو يستنبطه كأنه بقية دهر تصف دهرها ، فما ثَم إلا القبول منه والمصير إلى قوله ورأيه ، وينزل عصره منه منزلة الفتى الناشىء الذي يسمع لقصة الهرم الفاني الذي يقصها عن نفسه .

من أين للفكر المستفاد من عصرنا هذا عصر الشك والإلحاد أن يستبطن خفايا

العصور المؤمنة الغالية في إيمانها ، ومن أين للعقل الذي تنشئه أسباب التخنث ويقوم على النعمة واللين والحياة الوادعة أن يمضي في أسرار الأعصر المخربة المدمرة البالغة في جبروتها ؟ وليت شعري عن أستاذ الجامعة إذ يجانس فكرُه الغربي الأوروبي ذلك الفكرَ الشرقي العربي حتى يقع التمازُجُ بينهما . هل يكون كلا الفكرين إلا سبّاً للآخر ونقضاً عليه ؛ كما ظهر في كتابه الذي سبَّ تاريخَ الأدب به وسبه به تاريخُ الأدب ؟ .

أنت يا راكب السيارة وممتطي القطار تزعم أن الحمق أشد الحمق أن تمتطي الناقة أو تركب الجمل فتُزري عليهما وتحقر شأنهما وتقول فيهما ما يبلغ لؤمُ القول ، ثم تتجاوز بهذه السمة إلى أهل الناقة والجمل، ثم تتعداهم إلى عصرهم فتقول عصر البطء والبلادة والقلة وضياع الوقت والإسراف في إنفاق العمر وكيت ؛ ولكن أيها الأحمق غامر بنفسك مرة في الصحراء وارتمِ هناك بين العرض والطول الملتبسين في خيط واحد ، ثم أجمع شواهدك وحججك واستعرضها حجة حجة ودليلاً دليلاً فإنك سترى الجمل يهدم عليك ذلك المنطق كله ببعرة . . . وستتعلم هناك منطقاً آخر تؤمن فيه أشد الإيمان بأن الناقة والجمل ليسا من الحيوان ، بل هما الكوكبان اللذان خلقهما الله بقدرته لتلك السماء من الرمل .

إن أقوى أسباب الخطإ في تاريخ الأدب شيئان : ضعف الفكر عن النفاذ في إدراك الأسرار التي انطوى عليها ذلك التاريخ ، وضعف المادة التي تجمع لك صور التاريخ وتعيِّن أجزاء هذه الصورة وتحقق أوضاع هذه الأجزاء ؛ أما الفكر فلا نفاذ له إلا أن يكون فكرَ شاعرٍ كاتب بليغ على أصل من الفلسفة والذكاء الشفّاف والعلم العربي ، وأما المادة فلا قيمة لها ما لم تكن من الإتساع بحيث تتناول عصراً عصراً ورجلاً رجلاً وما نقص من ذلك ، فالنقص في التاريخ بحَسَبه وعلى مقداره .

ولنضرب مثلاً بأستاذ الجامعة ، فقد صنع فصولاً في أبي نواس جعل فيها هذا الشاعر الماجن الخليع المتخنث دينا لعصره ومذهباً للحياة في زمنه فقال إنه كان عصر شك وإلحاد وزندقة ؛ وغَفل عن قول الأصبهاني جامع شعر أبي نواس : « إن تعاطيه لقول الشعر كان على غير طريق الشعراء ، لأن جل أشعاره في اللهو والغزل والمجون والعبث كأشعاره في وصف الخمر ولغة النساء والغلمان . وأقل أشعاره

مداثحه ، قال : وليس هذا طريق الشعراء الذين كانوا في زمانه ».

فإذا كان هذا النص صريحاً قاطعاً في أن شعراء زمن أبي نواس كانوا على غير طريقته فكيف يكون الزمن نفسه على طريقته ؟.

وما دمنا في طه حسين فلنضرب به هو مثلاً ، فقد جاء في كتابه الشعر الجاهلي بمخزيات كثيرة من الإلحاد والتهكم بالدين ، فإذا مضت ألف سنة ثم جاء أديب في مثل فكره وفهمه العجيب فوقف على كتابه أو نبْذٍ منه ، أفلا يقطع بهذا الدليل إذا لم يجد غير هذه المادة من التاريخ أن الجامعة المصرية كانت في سنة ١٩٢٦ معهد كفر وإلحاد ، ثم ينساق به الفكر إلى الأمة المصرية فيستنبط أنها كانت بقَضِّها وقَضيضها أمةٌ كافرة ملحدة ، لأن الجامعة هي أكبر مدارس الحكومة ، والحكومة أقوى مظاهر الأمة الدستورية ؛ ولكن هذا الأحمق ـ مقدَّما وسلفاً . . . ـ إنما يقع في هذا الخلط الشنيع من ضعف إستجماعه لمادة التاريخ وإن كان سديد الرأي صحيح القياس ؛ فلو هو اطلع على برقيات المعاهد الدينية المذيلة بأسماء جميع علمائها ، وعلى قرار علماء الأزهر ، وعلى احتجاج الشعب المصري ، وعلى ما كتبه الأساتذة الكبار ، وعلى مقالاتنا الضعيفة أيضاً ، لعلم من كل ذلك فضيحة الجامعة فتغير رأيه ، فتغير حكمه ، فتغير التاريخ الذي يجيء به ويؤلفه .

لا جرم كانت المادة المحفوظة هي التي تنشىء التاريخ إنشاء على حَسْبها فلا تجزي عنها الفلسفة ولا الفكر ولا مذهب ديكارت ولا مذهب طه حسين ؛ إذ هي وحدها سبيلنا إلى ما لا يمكن أن نلحق به أو يرجع إلينا ، أما إتهام الرواية والجرح والتعديل وما كان من الإنتحال بزيادة أو نقص ولسبب وغير سبب ، فهذا وما يجري مجراه عمل الفكر الذي أفيضت عليه تلك المادة لا الذي انحسرت عنه ، فعلى قدر ما يعجز المؤرخ عن إستيعاب المادة يكون عجز فكره ، ويدخل رأيه من الخلل والإضطراب والنقص بمقدار ما عسى أن يكون في تلك المواد التي سقطت عنه من الإحكام والضبط والزيادة وغيرها من أسباب الرأي ، ولن يسلم مؤرخ الأدب من ذلك ولن يكون لفكره نفاذ ولن يكون رأيه رأياً إلا إذا أزاح هذه العلة بالإطلاع والجمع والإستقصاء ؛ وذلك ما نبهنا إليه الجامعة في غير موضع من كلامنا ، لتعلم أن المطلب بعيد والطريق وعر ، وأن تاريخ الأدب ليس مقالة إلى مقالة ولا فكرة إلى

فكرة ، ولا هو من باب الكلام الصحفي ، ولكنه مادة إلى مادة وتحقيق إلى تحقيق ؛ فلتعاير كتاب أستاذها بهذا المعيار ، ولتبحث فيه عن المادة قبل الرأي ، فإنها ستراه كله خلطاً أحدثه تمازجُ عصرين متناقضين ، أحدهما : عصرنا هذا بما فيه مما يعرف الأستاذ عياناً وتصديقاً ، والآخر : عصر العرب بما كان فيه مما لا يعرف إلا بعضه وهماً وتكذيباً ، لأنه لا ينساغ في طبيعته المعتلة الزائعة التي أفسدتها العقلية الأوروبية .

ومتى سُلط الفكر التاريخي بالمشاهدة على الوهم وبالتصديق على التكذيب وكان لا يجري في ذلك إلا بميل وهوى ، لم يبق من التاريخ شيء فإن بقي شيء لم يكن تاريخاً بل عملاً كتابياً يُكَدُّ فيه الذهن ويُعْنَتُ الخاطر لغرض من الإبداع أو الإغراب أو التفلسف أو التضليل ونحوها من الأغراض العقلية أيها كان إلا غرضَ التاريخ .

وأنظر كيف يصنع هذا الخلط ، قال أستاذ الجامعة في صفحة ٥٢ : وفي الحق أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يكد يدع هذه الدنيا ـ هذا تعبير المبشرين ، كأنه حازها ثم تركها ، أما التعبير الإسلامي فهو : لم يكد يلحق بربه ، أو بالرفيق الأعلى ـ حتى اختلف المهاجرون من قريش والأنصار في الخلافة أين تكون ولمن تكون ، وكاد الأمر يفسد بين الفريقين لولا بقية من دين ، كذا ، كذا ، بقية فقط في أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وحزم نفر من قريش ، ولولا أن القوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش « وهذا كذب على التاريخ ، فما هي إلا أن أذعنت الأنصار وقبلوا أن تخرجُ منهم الإمارة ، وظهر أن الأمر قد استقر بين الفريقين ، وأنهم قد أجمعوا على ذلك لا يخالفهم فيه إلا سعد بن عبادة الأنصاري الذي أبى أن يبايع أبا بكر وأن يبايع عمر وأن يصلي بصلاة المسلمين وأن يحج بحجهم ، وظل يمثل المعارضة قوي الشكيمة ماضي العزيمة حتى قُتل غيلة في بعض أسفاره ، قتلته الجن فيما يزعم الرواة » إنتهى .

ثم قال في صفحة ٧١ : « وأعجب من هذا أن السياسة نفسها قد اتخذت الجن أداة من أدواتها « نهنىء الجامعة » . . . وأنطقتْها بالشعر في العصر الإسلامي نفسه ، فقد أشرنا في الفصل السابق إلى ما كان من قتل سعد ابن عبادة ، ذلك

الأنصاري الذي أبى أن يذعن بالخلافة لقريش ، وقلنا إنهم تحدثوا أن الجن قتلتـه ، وهم لم يكتفوا بهذا الحديث وإنما رووا شعراً قالته الجن تفتخر فيه بقتل سعد بن عبادة هذا :

قـد قتلنـا سيد الخز رج سعـدَ بنَ عباده
ورمينـاه بسهميـ ـن فلـم نخطـىء فؤاده

إنتهى كلام الشيخ . وسنقف هنا وقفة نبين لك فيها ضلالة هذا الرجل وخلطه وتعمُّده الكذب وقلة تحفظه وأخذه على نفسه فيما يقوله ويراه ، وستطَّلع من ذلك على دخيلة نفسه الخبيثة وتعلم يقيناً أن غايته تحقير الإسلام وتهوين أمره ، وأنه كالمكرَه على أن يسوق كلامه مَساق الشبهة مع أنه في سعة من التاريخ ونصوصه واللغة وأساليبها ، وأنه دائماً يتبع طريق الزنادقة في جعل الكلام مقدماتٍ فاسدة ثم الإمساك عن النتيجة الآتية منها فلا يصرح بها بل يدع الطالب يستخرجها بفكره ، ليجعل ذلك من عمله فيكون ألصق به وأشد تأثيراً في نفسه وعقله ، ويخرجه ذلك إلى أن يعتقد ما انتهى إليه ويتأدَّى به الشكل إلى التهمة ، وتُسلمه التهمة إلى ما لا يَسلَم عليه إيمان ولا يصح به يقين .

طه حسين يصور سعدَ بن عبادة كما تفهم أنت من موقف كموقف الحزب الوطني في البرلمان مثلاً ، فهو يمثل « المعارضة » وظل يمثلها إلى أن قُتل ، أي سنة خمس عشرة للهجرة على بعض الأقوال وبعد وفاة أبي بكر رضي اللّه عنه بنحو سنتين ، والمعارضة إنما كانت معارضة حين نشأت مسألة الخلافة ، فما بقاؤها بعد أن استوثق الأمر ، وهل تسمَّى بعد إجماع الأُمة عصياناً وخروجاً أو معارضة يمثلها رجل سياسي ؟ ثم يقول إن سعداً هذا كان لا يصلي بصلاة المسلمين . . الخ ، فهل يفهم القارىء من هذه التعمية إلا أنه كان يصلي بصلاة النصارى أو اليهود ، مع أن صريح المعنى فيها أن الرجل كان يصلي بصلاة المسلمين لم يغير ولم يبدِّل ، ولكنه يصلي وحده في بيته لا مع الجماعة في المسجد ، ثم يقول إن الجن قتلته غيلة في بعض أسفاره ، والرجل لم يُقتل وإنما سار إلى الشام وأقام بحوران إلى أن مات فوجدوه ميتاً على مغتَسله ، ولم يختلف المؤرخون في ذلك ، وإنما يذهب شيخ الجامعة إلى جعل القتل سياسياً لمكان « المعارضة » حتى يحسن التلفيق ، وهذا أفضح لجهله ،

فما حاجة المسلمين إلى قتل رجل ضعيف مغترب وقد استقر الأمر وبويع أبو بكر ثم بويع عمر ومضت سنتان على ذلك ولم يُقتل ، ولا فتنةَ ولا خلافَ ولا شيءَ مما يدعو إلى القتل غيلة ؟ ثم يقول إن السياسة التي قتلته أنطقت الجن بذينك البيتين ، وأنهم تحدثوا وروَوا ؛ وكل ذلك جهل من الأستاذ ؛ والخبر أن قريشاً وضعت فيما وضعت من الشعر بيتاً نحلته الجن في سعد بن عبادة وسعد بن معاذ ، فزعموا في أول الإسلام أنهم سمعوا صائحاً يصيح ليلاً على جبل أبي قُبيس :

إن يُسْلِمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحْ محمدٌ بمكة لا يخشى خِلافَ مُخَالِفِ

لِمَا كان لهذين الرجلين من الشأن والخطر في قومهما ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم استشارهما في غزوة الخندق دون سائر الناس ؛ فلما كانت هذه من أولية سعد زعم ابنُ سيرين في قَصصه أنه لما مات بالشام عُرِف خبر موته في المدينة « بالتلغراف . . . » ولا تلغرافَ يومئذ إلا من الجن ، فزعم أنهم لم يشعروا بموته بالمدينة حتى سمعوا قائلاً من بئر وأنشد البيتين ؛ فأنت ترى لطفَ الصنعة في هذه الرواية ورقتها وحسنَ سبكها ، فإن الصائح الأول قبل إسلام سعد كان على ظهر جبل ، والصائح الآخر بعد موته كان في قعر بئر . . وكل ذلك تعظيم لشأن سعد ، ولا سياسةَ ولا قتلَ ولا زندقة . وإنما قيل في الشعر - قد قَتلنا - لأن عبارة ابن سيرين في ذلك أن الرجل كان قائماً يبول فاتكأ فمات ، فهذه الفجاءة هي ما يسمونه قتلاً من الجن ، وهي كثيرة في أخبارهم ؛ ولا يذهبنَّ عنك أنه إذا صح أن الرجل قتلته السياسة فما قتله إلا عمر بن الخطاب ، وما أشنعها تهماً أخزى الله قائلها !

ويبقى بعد كل هذا أن شيخ الجامعة قد جانب الفكر وترك التحليل في هذه الحادثة ، مع أنه كثيراً ما يقول في كتابه : « وفِقهُ هذه الرواية « كيْت ذيْت » فما باله غفر الله له ؟ ونحن نقول له إن « فِقه هذه الرواية » أن سعد بن عبادة كان سيد الأنصار وأجْوَدَهم وصاحبَ رايتهم في المشاهد كلها ، وكان غيوراً حتى ورد فيه الحديث : « إن سعداً لغيور وإني لأغْيَرُ من سعد والله أغْيَرُ منا وغيرةُ الله أن تؤتَى محارِمُه » وكان يرمي بهمَّته بعيداً ، حتى كان من دعائه : « اللهم هَبْ لي مجداً ، لا مجد إلا بفَعَال ، ولا فَعَال إلا بمال ، اللهم إنه لا يُصلحني القليل ولا أصلح عليه » . فهذه كلها أخلاق الرجل وطباعه ، فلما لحق النبي صلى الله عليه وسلم بربه طمع في

الخلافة لمكانته وسابقته ، وكان وقتئذ مريضاً لا يُسمَع صوته ، حتى إنه لما اجتمعت له الأنصار قال لابنه : لا أقدر لشكواي أن أسمع القوم كلهم ، ولكن تلقَّ مني قولي فأسمعْهُمُوه ، فكان يتكلم ويحفظ الرجل قوله فيرفع صوته فيُسمعُ أصحابَه ، فلعل هذا المريض لو كان صحيحاً لصح رأيه ولم تغلبه الفلْتة الجاهلية ودخل فيما دخل الناس فيه ، وهو إن كان قد غضب بعد أن تولاها أبو بكر فما غضب على المسلمين كافة ولكن على الأنصار بخاصتهم ، لأنهم قومه الذين خذلوه ؛ وإذا كان هذا كان الزعم أنه « يمثل المعارضة » زعماً مضحكاً .

ثم يبقى قول أستاذ الجامعة « ولولا أن القوة المادية كانت إذ ذاك إلى قريش » وما ندري من أين جاء بهذا إلا أن يكون سخافة من سخافاته ، كأنه خيل إليه أن الأنصار لو كانوا يملكون القوة المادية لذهبوا بالخلافة ، فلما ذهبت بها قريش كان ذلك نصاً على أن القوة كانت فيهم .

وهذا الأستاذ والله في حاجة شديدة إلى طبيب يحميه الإستنتاج كما يُحمَى المريضُ الأطعمةَ الغليظة ، ونحن نشير عليه أن يرحم نفسه فلا يحمل ذهنه على النوع الدقيق من معاناة الفكر ، فإن لم يرحمها فليرحمنا . . .

كيف تكون القوة المادية في قريش ، وفي خبر إختلاف الأنصار معهم أن الحباب ابن المنذر قال : يا معشر الأنصار ، ملكوا على أيديكم فإن أبوا عليكم ما سألتموه فأجلوهم عن هذه البلاد ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، فإنه بأسيافكم دان لهذا الدين مَن دان .

أفيكون هذا كلام الأنصار ومنطقَ أسيافهم ومبلغ عزيمتهم ثم تكون القوة المادية إلى قريش ولا تذعن الأنصار إلا خوفاً ورهباً من هذه القوة لا رغبة ولا إسلاماً ولا إيماناً ولا إرادةَ وجه الله ولا تأثراً بعاطفة ؟ ثم ما معنى « القوة المادية »، أكانت وزارة الحربية في قريش ، أم كانت في أيديهم مصانع الذخيرة . . . أم كان سلاحهم السيوفَ والرماح وسلاح الأنصار العصي والنبابيت . . . . ؟

طه حسين في دمشق[1]

بقلم: علي الطنطاوي

دعا رئيس الجامعة السورية في الأسبوع الماضي إلى المحاضرة التي سيلقيها الدكتور طه حسين حول : (بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية) وكانت الدعوة ببطاقة من جنس بطاقات الأعراس ، سماه فيها (عميد الأدب العربي) على وزن (عميد كلية الآداب) . ورأى الناس هذا اللقب ، ورأوا الأزمة المصطنعة في توزيع البطاقات وسمعوا طبول الدعاية الضخمة التي قُرعت لهذه المحاضرة ، فحسبوا أنهم سيلقون فيها ليلة العمر ، فتسابقوا إليها ، وازدحموا عليها ، وبيعت البطاقة بليرة[2] ، وظنوا أن الدكتور سيريهم السُّها ، ويكشف لهم أميركة ، فإذا هو يريهم القمر ، ويكشف لهم إسبانية ، وإذا هو يبدأ (على عادته دائماً) بهذا اللت[3] والعجن ، وأنه . . . « جاء ليتحدث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية ، وما كان يجب أن يتحدث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية ، وإن كان يسعده أن يتحدث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية لأنه ليس من السهل ولا من الميسور الحديث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية ، وإنه يجد المشقة والعسر في الحديث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية ، ولكن هذه المشقة وهذا العسر يحتُملان في سبيل الحديث عن بعض خصائص الشعر العربي القديم في سورية . . »! الخ ! الخ . . .

وبعد هذا الدهليز الملتوي المتلف الذي يمتد ميلاً ، أوصلنا إلى دار من ثلاث

(١) (المسلمون) ٣٤ شوال ١٣٣٤ الموافق أيار ١٩٥٥ .

(٢) تعادل اليوم مائة ليرة ! .

(٣) تعبير فصيح ومنه اللات أخت العزى .

غرف ، فقال كلاماً معاداً ، مكرراً ، موجوداً في كل كتاب من كتب الأدب المؤلفة لصفوف البكالوريا .

ولحن لحنات في الإلقاء ، وجاء (على عادته أيضاً) بأحكام قائمة على الوهم ، مبنية على الباطل ، فتوهم أن عدي بن الرقاع ، لم يقل بيته المشهور :

يزجي أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

إرتجالاً ، ولكن بعد طول الروية والبحث والحذف والتصحيح ، ودليل طه أن طه نفسه لا يستطيع أن يأتي بمثل هذا التشبيه البارع إرتجالاً ، فيجب أن يكون عدي الشاعر المطبوع مثل طه ، ونسي طه أنه لا يستطيع أن يأتي بمثل ذلك ولو بحث وفكر ، وأن أسلوبه أسلوب علمي خالٍ من كل مزايا الأساليب الأدبية ، الحافلة بالصور ، المليئة بالتشبيهات والإستعارات . وما دام قد (ثبت) أن عدياً لم يأت بهذا البيت الواحد إلا بعد الروية ، فقد (ثبت) قياساً عليه أن شعر عدي كله شعر روية وبحث ، وما دام شعر عدي شعر روية وبحث ، فالشعر الشامي كله شعر بحث وروية وإعداد .

وهكذا صدر الحكم الطاهوي :

تخيل حبة ، فبنى منها قبة ، والقبة ولدت قباباً ، والقباب (شكلت) مدينة ، وما كانت المدينة قط إلا في هذا الخيال السقيم .

وهذه مصيبة طه حسين ، بدأت معه من يوم خلع عمامته الأزهرية ، وخلع معها عقله ودينه ، فأظهر من (آثاره) ما تستر الهرة أمثاله من (آثارها . .) حين نشر ذلك الخزي الذي سماه كتاب (الشعر الجاهلي) ، ولا تزال معه إلى اليوم الذي إشتهر فيه ، حتى خلع عليه رئيس الجامعة السورية ، لقب سراج البيان ، وضياء البلاغة ، وعميد الأدب العربي .

وما لقيت أحداً ممن سمع المحاضرة إلا أحس أنه خُدع بهذه الدعاية[1] وأن المحاضرة تافهة الموضوع ، فارغة من المعاني ، وإن إلقاء المحاضر (على جودته) إلقاء نمطيٌ ، بلهجة واحدة ، ونغمة مستمرة ، لا يظهر عليه أثر الحياة ، ولا تتبدل

(١) دعاية فصيحة مسموعة وإن كان القياس دعاوة !

رنته في إستفهام ولا تقرير ، ولا مفاجأة ولا تعجب ، وأن محطاته كلها واحدة ، تنتهي بشدة على الحرف منكرة ، وقلقلة في غير موضع قلقلة . . .

ولكن كل واحد من السامعين ، كان يخشى أن يصرح بما أحس به ، بعد هذه الدعاية المسرحية التي كانت للمحاضرة ، فيُتهم بعدم الفهم ، ولو كانت هذه المحاضرة كلمة أُلقيت في حفلة شاي ، بمناسبة عارضة ، لكان للرجل بعض العذر ، ولكنه موضوع أعده من أكثر من سبع سنين ، وقد خبّر به صديقي الأستاذ سعيد الأفغاني سنة ١٩٤٧ ، وقال إنه يريد أن يحاضر به في دمشق ، وخبرني الأستاذ الأفغاني بهذا من سنين !!

ولا عجب أن يجيء هذا من طه حسين ، ولكن العجب من أهل الشام ، يدَعون الكفء القدير من أهل بلدهم ، ويجّنون ، بكل قادم عليهم ، فيرجعونه إلى حيث لا تحمله أجنحته ، فيوماً ترتج البلد ، ويطير العقل منها ، لأن طه حسين جاء يحدثها بما يعرفه كل مدرس للأدب في الثانوي ، وكل طالب للأدب في الجامعة ، ويوماً تقيم مهرجاناً لأبي ماضي ، ويوماً تبتدع عيداً قومياً ، لإحياء ذكرى هذا المأفون إبن سرجون ؟

فمتى يعقل الشاميون ؟!

علي الطنطاوي

أديب كبير نشأ في دمشق ودرس في مدارسها وجامعتها وحاز على شهادة الحقوق له مؤلفات عديدة منها : « رجال من التاريخ ».

وقد رددت عليه في قسم منها ، واعترف لي ببعض ما قلته ، ولكنه ـ ويا للأسف ـ لم يصحح ذلك في الطبعات الجديدة ، ولعله يحتج بضيق الوقت . وليس ذلك بعذر مشروع خشية عن قرّائه . . .

جهالات طه حسين

بقلم : الأستاذ مصطفى صادق الرافعي [1]

إلى الاستاذ الفهامة الدكتور طه حسين

يسلم عليك المتنبي ويقول لك :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفتُه من الفهم السقيم!

ولقد رووا أن كيسان مستملى أبي عبيدة كان يكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ؛ وكنت أحسب الخبر موضوعاً يُتملح به للظرف والنكتة ، أو معدولاً به عن جهة إلى ناحية المبالغة ؛ ولكني رأيت فيك دليلاً على أنه إن لم يكن صحيحاً فليس بعيداً وإن لم يكن واقعاً فليس يمتنع : أكتب إليك فتفهم غير ما تقرأ ، وأحدثك فتحسب غير ما تسمع ، وأراك إذا انتقدت كلامي دارت بك الأرض حول نفسك فأخذتك الغشية ولم يبق في الألفاظ ولا في المعاني ولا في الأساليب ولا في الشعر ولا في النثر إلا صورة تمر بسرعة دوران الأرض فلا تتبين منها شيئاً ولا تفهم منها شيئاً !

هن ثلاثة أيها الفاضل : فإما طبيعة في النفس مبنية على المكابرة والمراء لا تبالي معها أن تحذف العقل وتُسقط الخُلق وتمتهن الكرامة وتقول هذا الذهب حجر وهذا

---

(١) تحت راية القرآن .

الحجر ذهب وتمضي في تعليل ذلك وإقامة الدليل عليه والدفع عنه، ثم اللجاج والسفسطة وإثبات المنفي ونفي الثابت كما يفعل كل أهل الجدل في غير طائل ولا منفعة إلا غلبة ثرثرة على ثرثرة؛ وإما طبعٌ في الكتابة مستوخم بارد تجذب إليه أصول ضعيفة في الخيال والفكر فلا يرتفع ارتفاعاً سامياً وإنما يُسفّ ويخبط. وإما عقلٌ لا كالعقول ونسأل الله السلامة. فما من واحدة من هذه لك بُدّا.

قرأت يا سيدي ما كتبته عن «رسائل الأحزان» مما أتسمح في تسميته نقداً: والمتُّ بالغاية التي أجريْت اليها كلامك، وما كان يخفى عليَّ ان في الحق ما يُسمى تعسفاً، وفي النقد ما يُدعى تهجُماً، وفي المنطق ما يُعرف بالمغالطة، وفي كل صناعة ما هو انتحال ودعوى وتلفيق؛ وإلا ففيم يخالف بعض الناس على بعضهم، وكيف ترى الرجل الذي لا بأس بعقله يكون عليه الدَّين مؤكداً بالأيمان والوثائق حتى لا سبيل إلى إنكاره ثم ينكره ويحلف على ذلك ويكابر فيه كأن الذي حلف به عندما أخذ منك غيرُ الذي يحلف به عندما أنكر عليك، ثم يديرك معه على كل أساليب الباطل ويمرّ بك في كل قضايا المغالطة وإن في دمه ولحمه ما لو شق عنه لأنطقه الله بأنه كاذب! ولعمري لقد كنت تكتب غير ما كتبت لولا أنك سمعت مني ما سمعته في تخطئتك والرد عليك حين قام الجدال بينك وبين الاستاذ هيكل، ورأيتك وقتئذ تكاد تبتلعك ثيابك، وكان كلامي منك كالماء يسقي شجرة الحنظل المر فما يزيد إلا مرارة؛ ولو عقلت أيها الشيخ لعرفت أني أغضبتك عامداً متعمداً، وأفرطت عليك حتى اقتلعت نفسك من المجلس اقتلاعاً، وما أردت بذلك إلا أن أعرف مبلغ إنصافك، وأمتحن هذه الحرية التي تدّعيها في كل ما تكتب: فإنه ليس ينفعني أن تُثني علي، وليس يضرني أن تجهد في ذمي، ولا أنا أحفل بشيء من ذلك، وما أحسبك تظنني ألتوي في يدك أو ألين لغمزاتك: فقد بلغ من إنصافك حين تغضب أن تنفس عليَّ كلمة واحدة من اللغة فلا تذكرني بها، فقلت فيما علقت على كتاب الأستاذ هيكل «أنكرت عليه استعمال كلمة مهوب بالواو لا بالياء ونبهني «بعض الأدباء» إلى أن هذا الاستعمال صحيح فرجعت إلى المعاجم»؛ فمن الذي نبهك وردك إلى المعاجم؟ ولماذا لم تذكر إسمه وحقدت عليه حتى في الصواب الذي

تعترف به، وأنت قد اندرأت عليه طعناً في ثلاثة أنهر من الصحيفة التي تقول فيها هذا القول: «أفيشق عليك أن تذكر لي حسنة واحدة في كلمة كنت لا تعرفها، ثم تسمي نفسك بعد هذا ناقداً حراً منصفاً وتريد أن يقبل الناس منك ويستمعوا لك ولا يعرفوا الذهب ذهباً صحيحاً حتى ينظروا «دمغتك» عليه، ولا الجوهر جوهراً كريماً حتى يسمعوا شهادتك فيه..؟

ثم أنزلت نفسك منزلة دون هذه وكنت والله أرفعك عنها، فقلت: «كنت أصف العقاد في فصل مضى بشدة الغموض أحياناً، وقد رضي الأستاذ الرافعي عن هذا الفصل وأنبأني أنه لم يرضَ عن شيء مما كتبت كما رضي عن هذا الفصل» ولكن كيف أنبأتك هذا النبأ، بل متى تفهم دقائق الكلام وأغراضه وتكون حكماً في سياسة المعاني وأساليب الفكر؟ لقد كتبت اليك «إنه لم يُعجبني شيء مما قرأت لك ما أعجبني ما كتبته في هذا الأسبوع والذي قبله» أي انتقادك من انتقدت: فلاناً وفلاناً وفلاناً والعقاد جميعاً لا العقاد وحده كما تزعم، وهذا هو ظاهر اللفظ، ولكن ما باطنه أيها الفهامة، فإنه يقال إن للكلام ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً لو كنت تعرف هذا أو تفهمه؛ أفلا تسأل نفسك لمَ لم تعجبني كل الفصول التي كتبتها في الأدب وتاريخه وأنت تتخبط منذ سنتين وتكتب في كل أسبوع مرة؛ فإن سألتها فهل تستخرج من ذلك إلا أن هذه الفصول هي في رأيي خلط مخلوط تركب فيها الشطط ثم تعتسف الطريق ثم تضع التاريخ كما تخلقه أنت لا كما خلقه الله، وتصول على الأموات الذين لا يملكون دفعاً ولا رداً ولا جواباً؛ فاذا استخرجت هذا فهل ينتج لك إلا أن إعجابي عن أنفسهم وأن يردوك الى الطريقة المسلوكة والنهج القاصد إن كانوا على شيء مما يُسمى به الكاتب كاتباً والأديب أديباً، ولم يكونوا بهذا الجبن الهالع المخزي الذي ميز أبا حيّة بسيفه الخشبي... وجعله بطل المعركة، وأنت تعرف القصة بعد[1].

---

(١) كان أبو حية هذا رجلاً أعرابياً به لوثة، وكان له سيف من الخشب يسميه «لعاب المنية» والدكتور طه حسين كان يعتقد ان قلمه لعاب المنية...

ثم رأيتك تنحط في منزلة دون المنزلتين مما يدل على بُعدك عن الإنصاف وذهابك عن حقيقة النقد ، فتزعم ان « كل جملة من جمل الكتاب تبعث في نفسك شعوراً قوياً أن الكاتب يلدها ولادة وهو يقاسي في هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع ، كذا وكذا ، لقد نبغت في الخيال بعد أن قرأت « رسائل الأحزان » ، وستنبغ أكثر من هذا بعد أن تقرأ « السحاب الأحمر »[1] الذي أهديتك إياه ، على أني لو أردت ان آخذ معك في كتابتي هذا المأخذ لجعلتك تتلوى من الكلام المؤلم على مثل أسنان الإبر ، ولاستقبلتك بما لا تدري معه أين تذهب ولا كيف تتوارى ، كالإعصار الذي يأخذ عليك الجهات الأربع من آفاقها ، أفأنت تقوم لي في باب الاستعارة والمجاز والتشبيه ؟ ولكني أدع هذا الآن ، فحدثني من أين علمت أني أكتب على هذه الهيئة ؟ لعلك أخذت هذا المعنى البذيء من قولي لك « أتظن أني أكتب هذه الكتابة وأنا نائم ؟ إلا اني أُتعب نفسي لتجديد الآثار الفنية في البيان العربي » هذه هي كلماتي بالحرف الواحد ، فأنا لا أكاد أنسى ما أقول ولا ما يقال لي .

ولقد كتبت رسائل الأحزان في ستة وعشرين يوماً فاكتب أنت مثلها في ستة وعشرين شهراً ، وأنت فارغ لهذا العمل وأنا مشغول بأعمال كثيرة لا تدع لي من النشاط ولا من الوقت إلا قليلاً ، ها أنا أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها ، وإن لم يكن الأمر عندك في هذا الأسلوب الشاق عليك إلا ولادة وآلاماً من آلام الوضع كما تقول فعلى نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله . . . وإني لأتحداك وأنا أخبر الناس بما تطيق وما لا تطيق . وسبحان من خلق النسر خلقة والديك والرومي خلقة أخرى . . .

ومنزلة رابعة هي أحط وأدنى من كل هذه الثلاث ، فقلت : « أنا أعلم أن الأستاذ الرافعي قد تكلف مشقة لا تكاد تعدلها مشقة في وضع هذا الكتاب وهو تكلّف العناء في طبعه ونشره ، وأنفق مالاً في هذا الطبع والنشر ، فقد يكون من الإسراف في القسوة أن نعرض لعمل كهذا فيه مشقة وعناء ومال فنعلن أنه غير جيد . . . الخ الخ » .

---

(١) هو الكتاب الذي وضعناه تكملة لرسائل الأحزان ، فكلاهما في فلسفة الجمال والحب .

فما أنت والمال والطبع والنشر ، ولكن اعلم ان هذا الكتاب لم يمض على صدوره أربعون يوماً معدودة حتى رد كل ما أنفق عليه غرشاً غرشاً ، وسل كل طابعي الكتب العربية وكل المؤلفين هل اتفق لهم حادث واحد مثل هذا ؟ الا عُد عن هذا الأسلوب ، أسلوب شفقة الضرة على الضرة ، وأبق مثل هذا الكلام لكتبك وأمثال كتبك .

إني والله ـ على إعجاب كان بك ـ أصبحت مستيقناً أن الله تعالى لم يهبك إلى اليوم قلم الكاتب ، ولا أودعك دهاء السياسي ، ولا خصك بفهم الحكيم ، وكيف يكون لك من ذلك وأنت تصف رئيس تحرير السياسة[1] في ظرف ولطف . . . بأنه يزدري القراء ويزدري الناس ويتخذ هذا قولاً ومذهباً وفلسفة ؛ ففي أي شيء يكون عمل الرجل في الجريدة الكبرى في أمة هي أشد الأمم حاجة إلى من يتألفها ويتولى إرشادها وهدايتها بأخلاق كأخلاق الأنبياء ، تتسع كلما ضاقت الصدور ، وتنعطف كلما نفرت القلوب ، ولا ترى في الناس طبيعة تزدرى ولكن خطأ يُستصلح ؟

عساك تحسب هذا مني دهانا ومصانعة لرئيس التحرير ، فسل أديب هذا العصر الأمير شكيب أرسلان ماذا كتبت له منذ سنة خلت في ردِّي على بعض كتبه ، وهل أثنيت له على غير الدكتور هيكل ، وهل وصفت غيره بالذكاء وعمق الفكر وحسن الوصف وبلاغة التعبير ، على حين لم تكن بيني وبينه شابكة ولم يكن رآني ولا رأيته إلا مرة واحدة جاء فيها إلى طنطا مع الأستاذ الجليل لطفي السيد ؛ ولكن الانصاف يا سيدي إن لم يكن فوقه إلا الحق فذلك لأنه هو أساس الحق ؛ ولقد أخبرتك أن هذه الحرية التي تزعمونها في الكتابة والنقد إن لم تكن مقيدة بالإنصاف وقواعده فهي سخافة ودعوى ؛ وطلبت مني هذه القواعد ولعلي أكتبها لك يوماً إن شاء الله .

ولننظر الآن في نقدك « رسائل الأحزان » والعلة في أنك لا تفهمها :

فأما النقد فليس هناك إلا أنك لا تفهم كما تدعي على نفسك ؛ وماذا عليَّ من ذلك ولقد قلت لك إن الذي لا تفهمه أنت يفهمه سواك ، وإن الله خلق رؤوساً

---

(١) كان طه انتقد في السياسة رئيس تحرير السياسة فكتب فصلاً هو آية من الآيات في الحمق .

غير رأسك وعقولاً غير عقلك ، وإنه ليس من أحد يعترف أنك مقياس للعقل الإنساني في الأرض ، فمسخت هذا كله وزعمت أني قلت لك « لم تتخذ نفسك مقياساً للناس » ثم رددت على هذه الكلمة بقولك « أني اتخذ نفسي مقياساً لنفسي » ففسر لي أصلحك الله كيف تكون نفسك مقياساً لنفسها ؟ أليس المقياس آلة لقياس غيره ، فكيف يأتي لك أن تكون نفسك التي تقيسها غير نفسك التي تقيس عليها ؟ ام أنت ستلجأ الى أصول البلاغة وتحمل العبارة على التجريد ؛ فلم لا تفهم الكلام البليغ على هذه الأصول بعينها ؟ وما هذا التحذلق وما هذا التداهي ؟ ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾.

وأما انك لم تفهم فلست أرد عليك بفلان ممن فهموا الكتاب وأعجبوا به وأثنوا عليه ، وأنت تعرفهم وتُذعن لهم وتبالغ في تقديمهم ، ولا أرد عليك بأن الطلبة فهموه ، ولا بأن النساء فهمنه ؛ وانظر ماذا كتبت مجلة السيدات في مصر وماذا كتبت مجلة منيرفا في سورية : فإنك لا تطمع في سطر واحد من مثل هذه الكتابة . لا أرد عليك بهذا ولا بنحوه ، ولكني أقول لك إن العسكري روى عن الأنصاري قال : « قلت لبعض الكتَّاب - كتاب الخراج وأشباههم من رجال الديوان - : ما فعل ابوك بحماره ؟ قال : باعِهِ ! قلت : فلمَ تقول باعِهِ ؟ قال : « وأنت لمَ تقول بحماره ؟ فقلت أنا جررته بالباء . قال : فمن الذي جعل باءك تجر وبائي أنا . . . لا تجر « يعني الباء التي في فعل باع »

أليس هذا فهماً يا دكتور ، وقد اجتهد الرجل في القياس وانتهى إلى هذه النتيجة ؛ فما عسى أن تقول ، ولمن نشكو مثل هذا الفهامة ؟ إلى السلطان ؟ إلى أهل اللغة ؟ إلى الأطباء ؟ . . . ولكن هل كان فهمه أن الباء في « باعه » حرف جر مما يفسد مقاييس النحو ويُكره اللغة على أن تتسع لحكمه وتطرد على قياس فهمه ؟ وأنت أفلا ترى معي ومع الناس أن سوء الفهم وخطأ الفهم وعدم الفهم ، كل ذلك في مرده الى معنى واحد هو سُقم الفهم ؟

إنك لتجمع الكتب وتحفظ التاريخ وتدرس الأدب ، فهل نفعك ذلك في قول الشعر حتى ذهب ديوان طه حسين بديوان المتنبي . . . ؟ وأنت تدرس البلاغة وتعرف قواعدها وأمثلتها ، فهل أعانك ذلك في قطعة بليغة يعرفها لك الناس ويتناقلونها ويرونها من البيان في موقع ومن الجمال في منزلة ؟ وهل جئت قط في كتابتك بشيء من

الوصف ، أو قضى لك الناس بخيال ابتدعته أو مجاز اخترعته ؟ وهل كتبت شيئاً في الحب والجمال وفلسفتها وأوصافها ؟ فهذا كله من بعض العلة في أنك لا تفهم « رسائل الاحزان » إن صح قولك انك لا تفهم !

وعلة أخرى : لم تكرر الكلام دائماً في غير حاجة إلى التكرار مع أن أصحابك يرون هذا من أقبح العيوب ويقولون إن المذهب الجديد . . . قائم على الأسلوب التلغرافي ، فإذا كتبت فقدر أنك سترسل المقالة بالتلغراف وتدفع أجرة إرسالها ؛ لقد كنت أفلست من زمن بعيد يا دكتور لو حققوا معك هذه القاعدة وأرسلوا مقالاتك بالتلغراف : . . ولكن لم تلتزم هذه الطريقة حتى أصبح كالشعوذة المطبعية ان تكتب ستة أنهر وهي ثلاثة بعد حذف المكرر والحشو ؟

كنت أقرأ مقالة افتتاحية في السياسة ومعي أديب ؛ فدفعتها إليه وقلت : لمن ترى هذه المقالة ؟ فنظر فلم يجد عليها توقيعاً ، فقلت له : لا يجب ان يكون التوقيع في ذيل المقالة بل قد يكون في أثنائها ! قال : فأين هو ؟ قلت : اسمع ، هذا هو التوقيع .

« فعلوا هذا ، نعم فعلوه ، فعلوه ، فعلوه ، أقسم لقد فعلوه ، فعلوه . . . »

أفمن يكتب هذا الهراء ونحوه يرتقي به الفهم إلى دقائق المجازات والاستعارات والكناية والإشارة ونحوها مما قامت عليه هذه اللغة في بيانها وبديعها ، وما لو حذف منها لتعطلت من كل محاسنها ولما صحَّ ان يكون فيها كلام معجز ولا مقبول البتة ؟ .

ما العلة في هذا وما السبب في أنه لا يتفق لك أبداً خيال رائع ، ولا تبدع شيئاً مما يبدعه الكتاب في كل الأمم ، إلا مرة واحدة أردت ان تصف المرأة الجميلة في رواية « الإغواء » منذ أسابيع . فقلت : « صورتها ، حركاتها ، ألفاظها ، زيها ، مذهبها في الحوار والكلام : هي فتنة تتحرك » .

فتنة تتحرك لا أعرف لك في كل كلامك أحسن ولا أبدع من هذه الكلمة ، وأنت تعرف من أين أخذتها وإن كنت لم تحسن السرقة ، وإلا فما قولك حين تكون هذه (الفتنة) نائمة ؟ افتريد أن أدل قراءك في أي رسالة من رسائل الأحزان ، وصف الألفاظ والحركات والزي والمذهب في الجدال والشكل والدل وأنها فتنة خلقت امرأة[1] ؟

(١) تجد ذلك في الرسالة الرابعة من رسائل الأحزان .

تقول في نقدك : « يجب ان أكون منصفاً (كذا كذا) فأنت تستطيع أن تقطع كتاب الرافعي جملاً جملاً ، وأن تجد من هذه الجمل طائفة غير قليلة « اسمعوا . . . اسمعوا » فيها شيء من جمال اللفظ يخلبك ويستهويك « تنويم مغناطيسي بالبلاغة » ، وفيها معان قيمة لا تخلو من نفع ؛ ولكن المشقة كل المشقة في أن تصل هذه الجمل بعضها ببعض وتستخرج منها شيئاً » .

إذن فالمشقة عليك ليست في الفهم ولكن في صلة الجمل بعضها ببعض ، وأظن هذه المشقة بعينها هي التي تجعل من طبعك تكرار الكلام دائماً في غير طائل ولا منفعة ؛ وإذن فمن سبيلك أن تحسن فهم كتب التاريخ والحوادث وحدها دون سواها مما لا يقع في الذهن متصلاً بعضه ببعض ، وإذن فلك مذهب لا ينبغي أن نعرض له كما لا ينبغي لك ان تجعله قياساً تقيس عليه !

ثم كيف يكون في الكتاب « معان قيمة » وجمل تستهوي وتخلب وهي مع ذلك طائفة غير قليلة ، مع أنك تصرح قبل هذا الكلام بنصف سطر ابيض . . . - يعني مباشرة بالكلام الذي تفهمه - فتقول : « أتممت الكتاب ولم تفهم منه شيئاً » ؟ لا بد أن لك منطقا خاصا بك إذا كانت المقدمة فيه أنك أتممت كتاباً برأسه لا تفهم منه شيئاً فالنتيجة من هذه المقدمة إن في الكتاب طائفة غير قليلة تستهوي وتخلب وفيه معان قيمة أيضاً . . . !

وهل هذا أقبح في التناقض أم قولك « ورأيي في الكتاب أني لا أفهمه ، فلا « أستطيع » أن اقول إنه جيد او رديء ؛ بل « أستطيع » ان اقول إني لم أفهمه ، وإذن « فلا يمكن » أن يكون جيداً . . . »

فأية الاستطاعتين هي الكاذبة المردودة ؟ وإذا كنت لا تفهمه وكان من أجل ذلك (من أجل ذلك وحده) لا يمكن « يعني يستحيل » أن يكون جيداً ، أفلا يعد هذا اعترافاً منك بما أنكرته من أنك تعتبر نفسك مقياساً للعقل الإنساني في الأرض المؤمنة بالله وكتابه وسنة نبيه ؟

ألا يرى القراء كيف يتهافت الشيخ كأن في جوفه شيئاً يغلي على شيء يتضرم وكيف تقول « لا يمكن » إلا إذا كنت أنت الممكن كله يا مولانا . . . ؟

ألا ليت شعري كيف يجمع الكلام العالي بعضه إلى بعض ويستخرج منه شيئاً وهو يراه ملء كتاب ، إذ كان لا يستطيع جمع كلامه هو في مقال صغير حتى ينفي عنه

مثل هذا التناقض العجيب الذي يأتيك بسطر مؤمن يلعنه سطر كافر ؟

أنا لا أقول إن الاستاذ طه ليس شيئاً في فضله وأدبه وعلمه ، بل هو عندي أشياء كثيرة ، بل هو مكتبة تنطق كتبها ، ولكنه لم يلابس صناعة الشعر ولا اساليب الخيال ، ولا أخذ نفسه في ذلك بمزاولة ولا عمل ، فليس له أن ينقد هذه الصناعة ولا أن يقول في هذه الأساليب إلا بعد أن يجيء بمثل ما يكتب أهلها ، فإن لم يكن ذلك في طبعه ولا في قوته ولم يستوله شيء منه فلا يغرنه أن يكون مؤرخاً ، ولا يخدعنه أن يكون منطقيا ، ولا يحسبن فهم شيء هو فهم كل شيء . ولو كان الأمر موضوعاً في الأدب على الاتساع في الكلام والقدرة على القول الكثير صواباً وخطأ ، لما كان أكبر أديب هو أكبر الأدباء ، ولكن أكبر الثرثارين . . .

ويقول الأستاذ إنه يفهم القرآن وكذا وكذا ولا يفهم كتابي ، وأنا لا أُصدق من هذا شيئاً وأين حقائق البلاغة المعجزة في القرآن ممن إذا انتقّد بيت شوقي :

يا لطفُ أنت هو الصدى* من ذلك الصوت الرخيم[1]

فهم أن الشاعر يقول إن ارسطو كان ذا صوت رخيم . . . وأورد على ذلك انه لا هو ولا شوقي سمع هذا الصوت . . . علم اللّٰه لو تقدم صاحب هذا القول إلى الامتحان في الأزهر وفَسرَ لهم في البلاغة هذا التفسير لأعطوه « المكعب » كما يقول الأزهريون ، والمكعب عندهم هو الصفر في درجات الامتحان !

أيفهم هذا حقائق البلاغة في القرآن ودقائق الإشارات التي فيه وقد قال صاحب المثل السائر وهو من كبار المجتهدين في علوم البلاغة ومن أبلغ كتاب الدهر : « كنت أقرأ في اليوم ختمة ، ثم في الشهر ، ثم في السنة ، ثم ها أنا أقرأ في ختمة واحدة منذ كذا وكذا سنة ولم أفرغ منها ، وكلما أعدت النظر ظهر لي ما لم يكن ظهر من قبل » .

هذه هي أصول البيان العربي المعجزة ، وهذه هي طريقة فهمه ، فخذ أو فدع !

إن المجاز وهو أساس البيان يمنعك أن تفهم إلا بالقرينة والعلاقة ، فلا يطلق لك الفهم بل يقيده بهما ، ولا يترك لك أن تقول أفهم ولا أفهم بل إحدى اثنتين :

---

[1] هذا البيت من قصيدة قالها شوقي في تقريظ كتاب ارسطو الذي ترجمه الأستاذ الكبير احمد لطفي السيد بك مدير الجامعة اليوم (قلت : يعني سنة ١٩٢٦) .

إما أن تقر للكلام وإما أن تقر على نفسك .

وقد كان العرب أصحاب أذهان حديدة ، وكانوا لا يكتبون ، فاضطرهم ذلك الى الإبداع في ألفاظهم وطيٍّ المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة والاكتفاء باللمحة الدالة والإشارة الموجزة والكناية الرائعة والتفنن في أساليب القول على وجوه شتى ومذاهب كثيرة ؛ فليس يتولى هذا البيان العربي إلا الذهن الدقيق والفطنة الحادة والبصيرة النفادة ، وإلا من جرى مجرى العرب أنفسهم ، ينزعه طبع أو يجذبه أصل ؛ فإن لم يكن هناك فأبعدَهُ الله والسلام !

هل قصص القرآن.. أساطير؟[1]

بقلم: الأستاذ أحمد محمد جمال

لا شك أن طه حسين هو أول من تجرأ على القرآن ووصف بعض قصصه بالأساطير والمخالفة للحقيقة وقد رأينا تفصيل ذلك فيما سبق وخاصة عند الكلام على كتابه « الشعر الجاهلي » وها هي ذي نتائج هذه الوقاحة والجرأة على القرآن تظهر في مؤلفات بعض الكُتّاب نذكر منها كتاب « نقد الفكر الديني » لصادق العظيم وقد رد عليه الكثيرون .

وننشر فيما يلي رداً مفعماً للأستاذ محمد جمال على كاتب وصف قصص القرآن بالأساطير ، ونحن ننشر هذا المقال الذي يتضح لأول وهلة أنه خارج عن موضوع هذا الكتاب ، وهو في الحقيقة شبه رد على طه حسين ما دامت الأفكار مشتركة ، وما دام الكاتب ثمرة سيئة من ثماره .

وإن دلّ ذلك على شيء ، فإنما يدل على أهمية كتابنا هذا لتطلع عليه الأجيال الجديدة كي لا تتأثر بآرائه المنتشرة في جميع الأوساط .

تناول بعض الكتاب العصريين قصص القرآن الكريم بالدراسة والنقد، وهو لا اعتراض عليه من حيث المبدأ والفكرة . . فالقرآن ميّسر للفهم والتفكير ، ولا نرى رأي الذين يمنعون التصدي للدراسات القرآنية إلا لطائفة خاصة من العلماء والفقهاء . وإنما نرى أنه يجب على الذي يود أن يتعرض أو يتفرغ لفهم القرآن وتدبره، والإدلاء بدلوه في تفسير قصصه وأحكامه . . أن يتزوّد بالزاد اللازم ، وأن

(١) المجلة العربية العدد ٢ رجب ١٣٩٦ تموز ١٩٧٦

يتسلح بالسلاح الحاسم لهذا الميدان، من معرفة بأصول اللغة العربية وبلاغتها ، وعلوم القرآن، والمأثور من التفسير ،وقبل ذلك : اليقين الراسخ بأن القرآن كلام الله العليم الحكيم . . وأن باطلاً من الحكم أو كاذباً من القصص، او خاطئاً من اللفظ لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه.

ومما يؤسف له أن بعض الكتاب العصريين اهتموا بالدراسات القرآنية ، وألّفوا فيها أو كتبوا المقالات والأبحاث في بعض المجلات ،وهم غير متزوّدين بالزاد اللازم، ولا متسلحين بالسلاح الحاسم ، ولا منطوين على اليقين المكين. .

* * *

ونعرض هنا ـ بإيجاز ـ لزعمات بعض هؤلاء الكتّاب والمؤلفين في الدراسات القرآنية : بأن : «في القرآن أنباء عن الماضين صحيحة . . كان بعضها مجهولاً . وكان بعضها أساطير . . مثل تاريخ عاد وثمود ، وسد مأرب ، ونوح وإبراهيم » أو كما يقول آخر : «إن المشركين عندما وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين لم يكن ذلك منهم كذباً أو ادعاءً، بل كان نتيجة شبهة قوية وعقيدة ثابتة لديهم . كما أن القرآن نفسه لم يَنف وجود الأساطير فيه . حتى إن ما جاء في القرآن من قوله﴿وقالوا أساطير الأوّلينَ اكْتتَبَها فَهيَ تُمْلىٰ عليه بُكْرَةً وأصيلاً ، قُل أنْزَلَهُ الذي يعْلمُ السرَّ في السمواتِ والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾[1] لا ينفي وجود الأساطير في القرآن ، وإنما ينفي أن تكون هذه الأساطير من اكتتاب محمد، وثبت أنها من عند الله . . . وعلى ذلك إذا قلنا إن في القرآن أساطير لا نعارض نصاً من القرآن! . »

* * *

ثم يناقض الكاتب نفسه ، فيزعم « أن القول بالأساطير في القرآن إنما كان في الجزء المكي منه بسبب البيئة الجاهلية في مكة ، ثم انقطع ذلك في الجزء المدني منه لأن بيئة المدينة كانت مثقفة بفضل اليهود الذين هم أهل الكتاب ! » .

أفليس معنى هذا، أن المكيين وصفوا قصص القرآن بأنه اساطير لأنهم جهلاء بالتاريخ، وأن المدنيين سكتوا عن هذا الزعم الباطل لأنهم مثقفون؟ وإذا صحّ

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥ .

ذلك ـ وهو صحيح باعتراف الكاتب نفسه ـ فكيف يصح أن يزعم هو بأن هذه القصص القرآنية أساطير وأوهام ومفتريات تأريخية اقتداءً بالمشركين المكيين الجهلاء، ما دام اليهود المثقفين سلّموا بها؟.

أما قوله إن القرآن لم ينفِ وجود الأساطير فيه ، وإنما نفى اكتتاب محمد لها ، وأثبت روايتها من عند الله ،فهو على جراءته وبذاءته في حق الذات الإلهية المقدسة ـ قول مردود، فالله عز وجل يقول في القرآن:

﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربُّكم قالوا أساطيرُ الأوَّلين، ليَحمِلوا أوزارَ هم كاملةً يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضِلّونَهُم بغير عِلْمٍ ،ألاَ ساءَ ما يَزِرون﴾[1].

﴿ إذا تُتلىٰ عليه آياتُنا قال أساطيرُ الأوّلين . سَنَسِمُهُ على الخُرطُوم﴾[2]

فهل أفصح رداً على زعم المشركين وجود الأساطير في القرآن ـ وهو زعم المؤلف ـ من ما عقب به القرآن على هذا الزعم من أنه أوزار، ساءت من أوزار، وإضلال بغير علم، وما عقب به أيضاً من أن جزاء هذا الزعم الباطل وسمٌ بالنار على أنف[3] صاحبه يوم الحساب ؟.

والعجيب ان الكاتب أورد آية أخرى تؤكد نفي القرآن لوجود الأساطير فيه ، ولكنه تجاهلها أو لم يفطن الى الحجة الدامغة فيها ، أو عميت بصيرته دون بصره عنها !. هذه الآية هي قوله تعالى :﴿قل أنزله الذي يعلم السرَّ في السموات والأرض ﴾.. بعد قوله تعالى : ﴿ وقالوا أساطير الأولين ﴾ .

ألا يكفي دحضاً لذلك الزعم الباطل ، أن يقال : إن الذي أنزل قصص القرآن هو اللّه سبحانه يعلم السر في السماوات والأرض . . وماذا بعد السر عن علم يطلبه الباحثون عن المعجزات الخوارق ، والباحثون عن الأنباء الصِّحاح ؟.

***

(١) سورة النحل الآية ٢٤ و ٢٥

(٢) سورة القلم الآية ١٥ و ١٦ .

(٣) وقال الصّحابي الجليل ابن عباس في تفسير : (سنسمُه على الخرطوم) : سنسمه بالسيف ، فنجعل ذلك علامة على أنفه ما عاش فقاتل يوم بدر فخطم بالسيف .

ويزداد الكاتب جرأة وبذاءة فيقول :

إن القرآن ببنائه القصة الدينية على بعض الأساطير قد جعل الأدب العربي يسبق غيره من الآداب العالَمية ، في جعله القصة الأسطورية لوناً من ألوان الأدب الرقيق الرفيع ، ويكفينا فخراً ان كتابنا الكريم قد سنَّ السنن وقعّد القواعد وسبق غيره في هذا الميدان !! .

* * *

ما شاء اللّه . . وما أعظم ما فتح به الشيطان على الكاتب العبقري ! وما أكذب هذا الفخر وأبطل هذه الدعوى بسبق القرآن لجميع الأدباء والشعراء والقُصّاص إلى حبك الأساطير والأوهام . .

* * *

ويستمد الكاتب في تهجماته على القصص القرآني ، وسلكه في منهج القصص الإنساني : عن تفسير الإمام الرازي بعض طعون المبطلين وشبهاتهم حول قصة الهدهد وسليمان عليه السلام ، كسؤالهم كيف خفي على سليمان نبأ الملكة ، مع ما يُقال من أن الجن والشياطين كانوا في طاعته ، ومن أين للهدهد معرفة اللّه ووجوب السُّجود له إلخ . . . ويعقب على ذلك بأن المسألة لا تحتاج إلى أن يقف الرازي وغيره من المفسرين هذا الموقف الحائر أمام هذه الشُبهات والطعون . . فكل ما في الأمر انها مجرد قصة . . وأنه من الملاحظ في القصص الحديث أن تُسنَد بعض الأدوار الرئيسية إلى الحيوانات كالكلب « لاسي » الذي اضطلع بالبطولة في قصة (لاسي يعود إلى منزله) ، وكتاب (كليلة ودمنة) .

وردنا عليه :

أولاً ـ إن الرازي وغيره من المفسرين لم يقفوا حيارى أمام هذه القصص ، وإنما أوردوا شبهات الملحدين وطعون المبطلين ، وردوا عليها في تفاسيرهم .

ثانياً ـ إن القول بأنه كيف غاب عن سليمان نبأ ملكة سبأ ، وهو من هو ملكاً وسلطاناً . . شبهة تافهة لأن اللّه سبحانه لم يقل عن سليمان أنّه أوتي علم الغيب جميعه ، بل أورد القرآن في هذه القصة نفسها أن سليمان احتاج ـ في إحضار عرش الملكة ـ إلى علم رجل من حاشيته . . .

ثالثاً ـ ما الذي يمنع عَقَدياً أو عقلياً أن يكون اختيار اللّه لهدهد كاشفاً لنبأ الملكة ومنكراً لما هي وقومها عليه من شرك ووثنية ؟ . . بل هو حجة اللّه على خَلقه من البشر على أن المخلوقات كافة حتى الطير مدينة للخالق القادر على خلقها ورزقها . . كما هو تبكيت للمشركين من البشر بما يريهم ـ سبحانه ـ من معرفة الطير لبارئها وتوحيدها له ، مصداقاً لما قرره القرآن في هذه المسألة نفسها كقوله : ﴿ وإنْ مِن شيءٍ إلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكن لا تَفقَهون تسبيحَهم ﴾[1] : ﴿ أَلَم تَرَ أنَّ اللّه يُسَبِّحُ لَهُ مَن في السمواتِ والأرض والطير صافاتٍ كُلٌّ قد عَلِمَ صلاتَه وتسبيحَه ﴾[2]

* * *

أما مقارنة الكاتب لقصص القرآن بكليلة ودمنة . . وقصة الكلب لاسي ، فهو زعم مفضوح . . لا يحتاج إلى تعقيب . .

* * *

ويواصل الكاتب الجريء طعناته لقصص القرآن باسم حرية الفن ، وبلاغة الأسلوب ، وتنوع الأداء ، وعدم الالتزام بالواقعية فيقول :

« إن القرآن في هجومه العنيد على أخلاق اليهود إنما يشن عليهم بذلك « حرب أعصاب » لا أكثر ولا أقل . إنها الحرية الفنية أيضاً التي تدفع بالأديب إلى أن يلاحظ الواقع النفسي أكثر من ملاحظته لصدق القضايا وصحتها » إلخ .

ومعنى هذا أن القرآن الكريم ـ وحاشاه ـ قد علّم ساسة الاستعمار الظالم ، وتجّار الحروب السياسية والعسكرية فن الدعاية الكاذبة والإعلام المفترى . . في سبيل كسب المعارك والقضايا إزاء الأعداء والخصوم ! وهو ما يُعرف اليوم « بحرب الأعصاب » التي ألصقها المؤلف بالقرآن في فضحه لأخلاق اليهود . . .

ومعنى هذا أيضاً أن اليهود براء من نقض العهود ، وخيانة المواثيق ، والمتاجرة بأحكام التوراة بأثمان قليلة ، ومعاندة أنبيائهم ، واغتيالهم للبعض منهم ، وأخذهم

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

(٢) سورة النور الآية ٤١ .

الربا ، وأكلهم السُّحت وغير ذلك من شجايا السوء التي سجلها القرآن عليهم . . وإنما هي « حرب أعصاب » يشنها القرآن عليهم لا أقل ولا أكثر !! .

وهو كلام لا ندري كيف نرد عليه . . بل هو في الواقع لا يحتاج إلى رد ، وإنما يحتاج الى فضح قائله بالإشارة إليه كمكذب بآيات اللّه ، ومُنكر لواقعية القصص القرآني ، وكفى ! .

ومن سهوات المؤلف العقلية الغارقة انه رأى في توجيه القرآن الخطاب إلى اليهود بالمنِّ عليهم ، وتذكيرهم بنعمة اللّه على أسلافهم في قوله: ﴿وإذ أنجيناكم من آل فرعون﴾ مظهراً من مظاهر تجوز القصص القرآني في ذكر الحقائق التأريخية ، إذ يُصور ما حدث لأجدادهم في زمن موسى وقبله، وبالصيغة التي تدل على الحضور والمشاهدة ، كأن الأمر واقع بهم الآن .

وقد فاته في هذه السهوة السّادرة ، أن يدرك أن نجاة اليهود الحضور في عهد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام من آل فرعون ، حقيقة واقعية تأريخية ، منبثقة عن نجاة أسلافهم ، الذين عايشوا فرعون على ذُل واستعباد إذ لو لم ينج « الأصل » لانقرض « النسل » !! . .

ونعود ـ في الختام ـ إلى الكاتب الأول ، فنسأل : هل يعني أن قصص عاد وثمود وحدهما هي الأساطير ؟ . أم أن قصص سد مأرب ونوح وإبراهيم أساطير أيضاً ؟! .

فإن كانت الأولى ـ أي أن عاداً وثمود كانتا أسطورتين ، وهذا هو زعم اليهود والنصارى ، لأنهما لم تردا في التوراة والإنجيل ـ فقد جاءت قصصهما في القرآن الكريم في أكثر من عشرين سورة منه ، ولا يعقل أن تتكرر قصة بهذه الصورة ثم تكون أسطورة ! .

وإن كان يعني الثانية مع الأولى ـ أي أن قصص عاد وثمود وسد مأرب ونوح وإبراهيم كانت اساطير، فهي دعوى أكثر بطلاناً من السابقة، لأن العرب الجاهليين

الذين افتروا على القرآن بأنه «أساطير الأولين» عرفوا تأريخ إبراهيم عليه السلام، واعتنق بعضهم ديانته، وكان البيت- أي الكعبة- رمزاً خالداً يذكرهم دائمًا بإبراهيم الذي بناه. وبذلك لم يزعموا أن قصص إبراهيم وأولاده من الأنبياء عليهم السلام- كانت أساطير.

«الأساطير هي الأباطيل»

والأساطير- في معاجم اللغة وفي كتب تفسير القرآن الكريم- هي الأباطيل، أو ما يُلفق من حكايات خيالية عن القرون الغابرة.

ويُؤكد هذا المعنى القرآن الكريم نفسه-ولو لم تقرره معاجم اللغة فرضاً أو جدلاً -لأنه يرد على زعم الجاهليين بما يُنقض دعواهم، ويُكذب زعمهم ويُقرر عكس ما يفترون.

- فمرة يقول القرآن الكريم﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم؟ قالوا أساطير الأولين ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم ألَا سَاءَ ما يَزِرون ﴾

وتارة يقول﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين- سنسمه على الخرطوم. .﴾.

وثالثة يقول﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلاً - قل أنزله الذي يعلم السِّر في السموات والأرض. .﴾.

فتعقيب القرآن الكريم على «الزعم» بأن القرآن الكريم أساطير الأولين: بأنه وزر وإضلال للآخرين بغير علم- وبأن جزاء زاعمه وسم بالنار على أنفه يوم القيامة- وأخيراً تعقيبه: بأن الذي أنزل القرآن الكريم أحكاماً وأمثالاً وقصصاً: هو الله سبحانه الذي يعلم السر في السموات والأرض . . دليل أن كلمة « أساطير» تعني الأباطيل، وأن القرآن الكريم هو الحق والصدق والخير اليقين . .

ويؤيد هذا المعنى (الأساطير) أن دعوى المشركين بأن القرآن الكريم أساطير جاءت في القرآن نفسه بأسلوب آخر كقوله تبارك وتعالى : ﴿ أم يقولون افتراه﴾ أو قوله : ﴿ أم يقولون افترى على اللّه كذباً ﴾ وكان تعقيب القرآن واحداً في المعنى ، وإن اختلف التعبير : ﴿ قل فَأْتُوا بِعَشْر سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ ، كما رد عليهم رداً غير مباشر في ختام سورة يوسف ، وبعد الإشارة إلى الرسل السابقين ومواقف أقوامهم ـ بقوله عز وجل : ﴿ لقد كان في قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لأولي الألباب .. ما كان حديثاً يُفْتَرَى ، ولكن تَصْديقَ الذي بين يديهِ وتفصيلَ كلِّ شيءٍ ، وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾[1] .

ويزيد الأمر توضيحاً وتأكيداً في تقرير معنى « الأساطير » أنه « الأباطيل » ما أثبته المفسرون والمحدثون من أسباب لنزول هذه الآيات . . .

* * *

وبعد . . فلو أن القول : بأن قصص القرآن أساطير ، جاء على ألسنة أعداء الإسلام ، من مستشرقين ووثنيين ـ لكان الأمر هيناً ويسيراً ، فهو افتراء عدو ، واتِّهام حاسد ، ومكر حقود . ولكن أن يأتي هذا الزعم أو الرأي الباطل على ألسنة كتاب منسوبين إلى الإسلام ، وبأقلامهم وفي كتبهم . . فهو الأمر الجلل الذي لا يُسكت عليه ، ولا يُغض عنه ـ لأن صدوره من كُتاب مسلمين[2] ، ونشره بين أيدي الناشئة والشباب في البلاد الإسلامية يمهد السبيل الى تصديقه واعتقاده والتسليم به .

---

(١) سورة يوسف الآية ١١١ .

(٢) لذا يجب تعقب أعداء الإسلام ـ ولو كانوا مسلمين بالهوية ـ فتفنيد آرائهم المارقة وتكذيبها لإنقاذ الأجيال من سمومها هو ما حداني الى إعداد هذا الكتاب . وللّه الفضل والمنة .
وقد كنت أظن أن نتاج طه حسين وثماره قليلة أمثال يوسف العظم الذي أشرت اليه في أول هذا المقال وقد رد عليه الأخ المجاهد العالم والمؤرخ محمد عزة دروزة في كتابه القيم : « الإسلام والملحدون » جزاه اللّه خيراً . ومثل العظم الكاتب الذي ردّ عليه الأستاذ أحمد محمد جمال .
ولكن تبين لي أخيراً أن ضحايا طه حسين كثيرون ، وذلك أثر ما اطلعت عليه في كتاب ذكرى طه حسين من أقوال انصاره الذين اشادوا بفضله ، وتكلمت على ذلك مفصلاً في المقدمة وكل ذلك يثبت الضرورة الماسة لكتابي هذا الذي يكشف الستار عن حقيقة طه حسين .

أحمد محمّد جمال

- عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعودية
- استاذ الثقافة الاسلامية بجامعة الملك عبد العزيز
- عضو اتحاد المنظمات الاسلامية العالمية .
- عضو اللجنة برابطة العالم. بعض مؤلفاته :

١ ـ على مائدة القرآن ـ اربعة أجزاء

٢ ـ استعمار وكفاح

٣ ـ مكانك تحمدي دراسة عن المرأة والأسرة

٤ ـ الطلائع : ديوان شعر

٥ ـ الاسلام أولاً ـ محاضرة ، وهو في الرد على القائلين : العروبة أولاً !

الخاتمة

" أمّا بعد .. فإني أتهم الأدباء "

لا شك أن القراء المنصفين بعد دراسة كل ما تقدّم من البحوث والردود من قبل كبار العلماء والأدباء على الدكتور طه حسين، تحققوا من مبلغ إفحامهم له، حتى أنه لم يبق منه شيء، أو لم يبق له شيء إلا الزندقة والكفر والنفاق والجهل والطعن بالقرآن والعبث باللغة العربية، إرضاء للمستعمرين.

يا لها من مفاجأة لم تكن بالحسبان، بعد كل ذلك النقد اللاذع الذي وجهه من ذكرنا لأفكار طه حسين الهدامة والسخيفة ولضيعة المزري والزيب أن تقام في مصر حفلة تأبين اشترك فيها نصف كبير من الشعراء والكتاب والاعباء العلم، فكالوا له الثناء كيلاً بلا حساب، وأشادوا به وبآثاره.

إن هؤلاء المحتفلين بنظري بعد كل ما سبق من البراهين الساطعة والحجج القاطعة على جهله وزندقته وانحرافه نوعان.

إنني أضع هذا النوع من الأدباء في قفص الإتهام في محكمة الحق والتاريخ، لاستخدامهم الأدب، وكيلهم الثناء كيلاً لعدو العروبة والإسلام، ولو بتضليل الأجيال بعدما ثبتت ادانته وجرائمه بأقوال شهود عدول، لا يعدون بجانبهم شيئاً مذكوراً، انما هم مقالات مرتزقة.

وسيرهم في طريق الغواية والالحاد الذي رسمه لهم طه حسين.

وقد صح فيهم قول الشاعــر:

سقط الفــكر في النفــاق السياسي ... وصــار الأديب كالبهلوان

يتعاطــى التبخــير، يحتــرف الرقص ... ويدعونــا لنصر السلطان

ذبــح الشعــر.. والقصيدة صارت قنينــة تشتــرى ككل القيان
جردوهــا من كل شيء.. وأدموا قدميهــا باللف والدوران
ما هو الشعــر؟ لن تلاقــي مجيباً هــو بــين الخبول والهذيان
قنعــوا بالحياة شمســاً ومرعى واطمأنــوا للماء والغدران
إن أقسى الأشياء للنفس ظلماً قلم في يد الجبــان الجبان
أيهــا الغاضــب الكبير تأمل كيف صار الكُتّــاب كالخرفان
إنّ أقسى الأشياء للنفس ظلّماً قلم في يد الجبــان الجبان!

٢ - ونوع وقع في شراك طه حسين وخُدع به وصدّق آراءه، وتبين نفسه بعدما سبق من الأدلة والبراهين على جهله وضلاله، فذهب ضحية، وكل ذلك تحت تأثير الغزو الفكري وعملية غسل الدماغ التي يعدها المستعمرون والمبشرون عن طريق أبواقهم ودعاياتهم... وإلا كيف يمكن تقدير طه حسين فضلاً عن محبته بعد الفضائح والجرائم الموجهة إليه من قبل أدباء كبار وعلماء أكفاء جردوه من كل مزية واعتبار مما اطلعنا عليه في هذا الكتاب .

إنّ هؤلاء الأدباء أو أشباه الأدباء الأبجار هم ثمر ومن ثمار طه حسين وضحية من ضحاياهم خدرهم الاستعمار ليعمدوا إلى التدمير حسب القاعدة الاستعمارية الحديثة:

«يجب اقتلاع شجرة الإسلام ببعض من غصونها» تخلصاً من التحسس من الأجنبي وليعملوا من وراء مستعار لمحاربة الإسلام، وما هم بمبالغين مآربهم، فهم كما قال الشاعر:

كناطــح صخــرة يومــاً ليوهنها فلــم يضرّهــا وأدمــى قرنــه الوعل

ويحسن في خاتمة هذا البحث أن أذكر الأدباء المشتركين بتأبين طه حسين بكلمة قيّمة للدكتور إقبال عن رسالة الأديب الحق، ليدركوا عظيم تبعتهم:

«كل أدب استُغل لجمع المادة، أو ارضاء المتنفذين والأغنياء، او الإثارة الشهوات، او على الأقل اتخذ أداة للهو والتسلية، وتذوق الجهال والتغني به، فهو أدب ضائع استُعمل لغير ما خلق له، وغير ما وهب له...[1]»

---

(١) ديوان اقبال

خاتمة المطاف

أكتفي بهذا القدر بعد هذه الرحلة الطويلة مع الدكتور طه حسين وناقديه، ولا شك أن القراء دهشوا من المعارك الحامية الوطيس التي انتصر فيها هؤلاء العلماء والأدباء الناقدون علىٰ هذا الخصم اللدود للإسلام وللحقيقة، والتاريخ: (بل نقذف بالحقّ علىٰ الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق، ولكم الويل مما تصفون[1].)

ولا شك أنّ هذه الردود قد زوّدت القراء بمناعة ضد كل غزو وفكري وثقافي يقوم به المستعمرون والمستشرقون لمحاربة حقيقة الاسلام التي يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يخفونها ويحرفونها، ويثيرون حولها الطعون والافتراآت الكاذبة والمفتعلة.. كل ذلك بباعث من الحقد والخوف من الإسلام، الذي نزل رحمة للعالمين، وبنية تنفير المسلمين من دينهم ليضعفوا شخصيتهم ويذوبوا في الغرب ويصبحوا نهباً مقسماً، فهم كذلك يعمدون إلىٰ تسميم ينابيع الاسلام وتعكيرها.

ولا ريب أن المسلمين سيقفون موقف الحذر والسخرية. أمام كل هذه المؤامرات والأفكار الخاطئة والمضللة، وخاصة تقديس الحضارة الغربية والإعلان بأن الإسلام قد استنفذ أغراضه بعد تحدي هذه الحضارة له. وكل ذلك يتطلب المثابرة علىٰ دراسة الإسلام من قرآن وسنة وفهمه فهماً عميقاً لحسن عرضه والدعوة إليه وعدم الاغترار بهذه الحضارة[2] وقد ألفت بحثاً ضخماً في هذا الموضوع لا يزال مخطوطاً يسرّ الله تعالىٰ طبعه، أثبت فيه زيف هذه الحضارة وضلالها وشدة حاجتها للإسلام لتوجيهها وإنقاذها من السقوط والانهيار نتيجة إلحادها[3] فضلاً أن يدعي أنصارها تحديها للإسلام!

---

(١) الأنبياء. الآية ١٨

(٢) التي اطلع القراء على بعض مساوئها في هذا الكتاب.

(٣) وحرمانها من المثل الروحية والعاطفة الإلهية، والعقيدة الإسلامية.

وقد أدرك كثير من الغربيين هذه الحقيقة وسارعوا إلى دراسة الإسلام واعتنقه كثير منهم وتنبؤوا بأنه سيكون دين الغرب في العصر المقبل وأعلنوا عن عجز البشر عن وضع القوانين لأنفسهم لعدم قدرتهم على الإحاطة والشمول وعن إدراك الفطرة الإنسانية . . وما أروع ما قاله كريس موريسون : إن الحاجة مُلحة أن نقوي من صلتنا وعلاقتنا بالله ، وإن الإلحاد نوع من الأنانية حيث يحاول (الإنسان) أن يجلس على كرسي الإله بمحاولته وضع القوانين لنفسه[1] .

وقد يقول بعض السذَّج : ما بال المصنف أحيا من الرميم هذه المعارك بعدما يزيد على نصف قرن عليها ، وخاصة أن طه حسين قد انتقل إلى الدار الآخرة منذ سنوات ، والله سبحانه سيحاسبه على عمله . . .

لقد نسي هؤلاء المعترضون أنّ هذا الدكتور إذا مات ، فإن مؤلفاته لم تمت بعدُ! فلا تزال تعيث في الأرض الفساد ، بل زاد الاهتمام بها ، بسبب طبعها من جديد في مجموعات ضخمة وبإخراج جميل ، وأقبل عليها كثير من شبابنا وشاباتنا مدفوعين بشهرته الواسعة ، ومخدوعين بأسلوبه الرنّان الطنّان[2] ، وسعة الدعاية له من مختلف الجهات المشبوهة كما ذكرنا ذلك في مقدمة الكتاب ، بينما رقدت الردود الكثيرة عليه في كهف سحيق من الإهمال والنسيان .

فهل من الوعي في شيء أن نهمل كل ذلك ، وندع الذّئب يفتك بالغنم ، وقد كنا رأينا فيما سبق شدة حملاته على الإسلام وتضليله للمسلمين . .

ولا بدّ لي في هذه الخاتمة من مناقشة مقال نشره سعيد الأفغاني الأستاذ بكلية الآداب بجامعة دمشق سابقاً في مجلة العربي الكويتية بعد وفاة طه حسين بعنوان «دعوة إلى مراجعة كتابي : (حديث الأربعاء) و(في الشعرِ الجاهلي) إنصافاً لطه حسين»

أولاً : فها أنذا ألخص بعض ما جاء فيه مما له علاقة بهذا الكتاب وأرد عليه .

غريب أمر هذا الأستاذ ، فلو سلمنا جدلاً بوجوب مراجعة هذين الكتابين السابقين ، وحسّنا ظننا بمؤلفهما كما يشتهي ، فهل تنتهي المشكلات ويصح إنصاف

---

(١) «العلم يدعو للإيمان»

(٢) الطنين : صوت الذباب : قاموس

هذا الدكتور؟! وقد رأينا فيما سبق من مناقشة كتبه الأخرى من الطامات والضلالات والكفريات ما يدل على جهله وسخفه وانحرافه، مما لا داعي لإعادة الكلام عليه، فيكفي القارىء أن يتذكر ما جاء فيها، ويعيد النظر فيه.

ثانيا: يقول هذا الأستاذ في مطلع مقاله:

«يشهد الرعيل الأول من أئمة الأدب في عصرنا: مصطفى صادق الرافعي، وأحمد أمين وطبقة كل منهما أنّ الدكتور طه حسين قوي الأساس في العربية، سليم النشأة فيها، مكنته ثقافته الأزهرية وملكته الخاصة أن يتذوق بلاغة أدبها غاية التذوق.»

وهذا الكلام مخالف للحقيقة، بل هو شهادة زور علىٰ مصطفى صادق الرافعي وطبقته أمثال ابراهيم عبد القادر المازني والخضر حسين وشكيب ارسلان وغيرهم.

وقد رأينا فيما تقدّم في هذا الكتاب مبلغ سخرية هؤلاء الأدباء بطه حسين وأسلوبه!

وإن ننس لا ننسىٰ ما جاء في مقال العلامة محمد الخضر حسين في بيان ضعف هذا الدكتور وجهله في العربية! فضلاً عن قوة إحساسه فيها!

وما أروع ما قاله الأديب الكبير محمود محمد شاكر: «إن الدكتور طه حسين كما نقول، ونكرر ونعيد: رجل لا بصر له بالشعر، ولا قدرة له علىٰ الاستنباط وليس الأدب من عمله، ولا الكتابة فيه ما يحسن[1].

ثالثاً: اعتراف طه حسين للأستاذ الأفغاني أنه في كتابه: «حديث الأربعاء» كان قد قرر أن الحجاز كانت مصدّر المجون إلىٰ البلاد العربية على عهد الدولة الأموية، وأن كتاب الأغاني تكفل تصوير ذلك كله.. أما الآن فقد تبين لي أن ذلك كله (كلام فارغ)، وأن مصدر المجون الحقيقي كان بلاط الأمويين في دمشق، لا حواضر الحجاز»

لا أدري ما الفرق لدينا إذا قال طه حسين أن مصدر المجون كان بلاد الشام،

---

(١) في كتابه «المتنبي» ٢/ ١٦٨

لا حواضر الحجاز. . . في حين طعن الناقدون لهذا الكتاب حين الكلام على نقده وأوضحوا مبلغ خطره على الشبان والشابات في تشجيعهم علىٰ اقتراف الرذائل بمختلف أنواعها:

ولا شك أن الافغاني لا يعبأ بمثل هذا النقد، طالما اعتاد تدريس هذا الأدب الماجن السفيه، على طلابه وطالباته في كلية الآداب مما يثير غريزتهم ويلهبها ويعيثها فتنة في الأرض وفساداً كبيراً، ما دام بنظره ونظر أمثاله يدل علىٰ خيال خصب وصراحة محببة.

والحق أن هذه الجريمة الشائعة لا يحمل وزرها الاستاذ سعيد وحده وإن كنا لم نسمع عنه أنه أنكرها كما هو المفروض عليه، وكثيراً ما ذكرته بها كما ذكرت غيره من الأساتذة، وأعلنت ذلك صراحة في مهرجان الغزالي الذي عقد في دمشق منذ سنوات الوحدة وقلت: «إن أبا حامد دعا إلى لزوم تنقية الأدب قبل تدريسه للطلبة، وقد سبقه إلىٰ ذلك بعض فلاسفة اليونان قديماً، وأعلن هذه الحقيقة حديثاً المربي الأمريكي الشهير: جون ديوي.

وحجة أساتذة كليات الآداب السخيفة أن تدريس هؤلاء الأدباء الماجنين والفسقة، لا بدّ منه للاطلاع على أسرار اللغة وتقوية الأسلوب العربي والخيال المجنّح.....

ويبطل دعواهم أنّ لأغلب الشعراء الماجنين، أدباً متزناً وجاداً وخصباً بالوصف والخيال، يقوم مقام غيره، . . كما أن هناك أدباء عظاماً لهم أدب رفيع مهذّب خصب الخيال والوصف كالشافعي وابن حزم وابن القيم وغيرهم كثير. .

ولكن ما العمل؟! وشعار أغلب كليات الآداب في العالَم العربي «من لم يكن فاسقاً وسفيهاً من الأدباء فلا يدخلن علينا»! مما يدل علىٰ أن هناك مؤامرة مدمرة تدبرها دوائر الاستعمار والصهيونية لغسل أدمغة طلبتنا من الفضيلة ومكارم الأخلاق ودفعهم نحو الرذيلة والفسق تمهيدا للسيطرة عليهم. وقد جاء ذلك صريحاً في أحد بروتوكولات صهيون ورقمه[١٥].

«يجب علينا أن نُحَطِّم كل عقائد الإيمان، وقد نشرنا في كل الدول أدباً مريضاً

فذراً مدمّراً للنفوس»

وأذكّر هؤلاء الأساتذة في كليات الآداب الذين يدرسون الأدب الماجن بكل صراحة مكشوفة، بقوله تعالىٰ في وصف المؤمنين: ﴿ وإذ مرّوا باللغو مرّوا كراماً!!» فأين خطر هذا اللغو المنهي عنه من وصف الخمر واللواطة والزنا وصفاً مكشوفاً مثيراً كأن الطلبة في «ماخور» مما يثير الجلمود ويهدر الفضيلة ويخُرّج الزنادقة والإباحيين[1] . . .

رابعاً: ذكر الأستاذ سعيد أن طه حسين قد «حذّر من الاتكاء علىٰ ما أملىٰ من فصول في «حديث الأربعاء» لأنه أرسلها: أحاديث في صحف سيارة، لا تمهل الكاتب أن يقرر ويبحث وقرّر حاجتها إلىٰ إعادة النظر. .»

لا أدري كيف انطلت هذه الحيلة علىٰ هذا الكاتب، حتى تبناها في الدفاع عن المؤلف، وهي لا تخفىٰ علىٰ الواعين، فإن هذا الكتاب المدمر طبع بضع طبعات في حياة طه حسين، فلماذا لم يعد النظر فيه خلال السنين الطويلة التي عاشها بعد إصداره ؟!

وأقول مثل ذلك في كتاب: «في الشعر الجاهلي» الذي زعم أنه تبرأ منه أيضاً

خامساً: قال الأستاذ الأفغاني في مقاله:

«في مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة، في دورته الحادية والأربعين عام (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥) استمعنا إلىٰ حديث عن طه حسين وقد مضى علىٰ وفاته عام كامل، ألقاه الدكتور محمد خلف الله، وعقّب عليه عدد من الزّملاء الأعضاء، منهم الأستاذ محمود الحوفي، وكان تعقيبه شهادة أداها بأن طه حسين رجع عن نظريته في انتحال الشعر الجاهلي، وهو الزعم الذي أدار كتابه (في الأدب الجاهلي) على تأييده، وسمع منه هذا الرجوع غير واحد من الأساتذة.»

في كلام الأستاذ الأفغاني سذاجتان تضافان إلىٰ سذاجاته السابقة :

(١) يحتج دعاة الأدب الماجن بسماع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لقصيدة «بانت سعاد» الشهيرة، وما فيها من وصف تقاطيع المرأة. . . فنقول للرد عليهم:
إن قصيدة «بانت سعاد» وإلقاء الشاعر كعب بن زهير لها أمام الرسول صلي الله عليه وآله وسلم لم=

أ ـ لنفرض أن الدكتور رجع عن نظريته في انتحال الشعر الجاهلي، فهل هذا الكتاب لا يحتوي إلا علىٰ هذه الفكرة؟! وقد كنا ذكرنا حين الكلام علىٰ نقده، ما جاء فيه من ضلالات مدمرة وتكذيب للقرآن في مواضع عدة، مما جاء مفصلاً حين الكلام علىٰ نقده في هذا الكتاب، فليرجع إليه القارىء إذا شاء.

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ ... إن كان في القلب إخلاص وإيمان!

هل يكفي من طه حسين مجرد قوله بالرجوع عن دعوة انتحال الشعر الجاهلي أمام شخص أو شخصين، كأن القضية من البساطة والسهولة بمكان، ألم يكن يجب عليه أن يُعلن عن ذلك علىٰ رؤوس الأشهاد ويؤلف رسالة صغيرة علىٰ أقل تقدير في هذا الرجوع، ويمنع طبع كتابه المذكور؟! إن للتوبة شروطاً في الإسلام، فلا يكفي فيها مجرد الرجوع عنها فحسب[1]، فهلا تاب كما تاب الإمام أبو الحسن الأشعري توبة نصوحاً؟!

قال الحافظ مؤرخ الشام أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي المتوفىٰ سنة ٥٧١ في كتابه «التبيين» تحت عنوان: «رجوع أبي الحسن

= يصبح كل ذلك، فهي ضعيفة السند كما قال المحدثون، ضعيفة المتن أيضاً، فليس من المعقول أن يجرأ أحد على إنشاء مثلها أمامه، مع ما فيها من التغزل بالمرأة ووصف حركاتها وتقاطيع جسمها.

والغريب أن الذين يثبتون مثل هذه القصيدة، يستشهدون بمواقف الصحابي الجليل ابن عباس بهذا الشأن، ولا نعلم فيما إذا كان صح ذلك عنه، ولنفرض صحته، فإن الرسول هو قدوتنا وإمامنا، وقد كان يستنكر ذلك. فعن أبي سعيد الخدري قال: بينا نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالعَرْج (وادٍ في الحجاز) إذ عرض شاعر يُنشد، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خذوا الشيطان، أو ـ أمسكوا الشيطان ـ لأن يمتلىء جوفُ أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً.» رواه مسلم.

وعن عائشة قالت: ذُكر عند رسول الله الشّعر، فقال: «هو كلام، فحسنه حسن، وقبيحه قبيح.». رواه الدارقطني وسنده حسن.

ومما يؤسف له ويبعث في النفس الأسى أنّ مثل هذه القصيدة جرّأت الكثيرين على نظم أمثالها، والاستدلال بها وتدريسها للناشئة أدباً مريضاً.

وقد يحتج أنا سار الأدب الماجن باستدلال الصحابي الجليل بمثله، ولا نظن أن ذلك يثبت عنه، ولو صحّ فرضاً فإن قدوتنا هو الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومهما كان من قصيدة «بانت سعاد» فأين هي من أشعار أبي نواس وبشّار وأضرابهما مما يترفع عنه، فضلاً عن تدريسه وتحليله، من لديه ذرة مروءة وحياء!!

١ ـ بالأسلوب الذي رضي به الأفغاني

الأشعري عن الاعتزال إلىٰ عقيدة السلف» قال أبو بكر إسماعيل بن أبي محمد بن إسحق الأزدي القيرواني المعروف بابن عزره: «إن أبا الحسن الأشعري كان معتزلياً، وأنه أقام علىٰ مذهب الاعتزال أربعين سنة!، وكان لهم إماماً. ثم غاب عن الناس في بيته خمسة عشر يوماً، فبعد ذلك خرج إلىٰ الجامع في البصرة فصعد المنبر بعد صلاة الجمعة وقال:

«من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا أبو الحسن الأشعري . . . يا معاشر الناس، ! إني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأني نظرت، فتكافأت عندي الأدلة، ولم يترجح عندي حق علىٰ باطل، ولا باطل علىٰ حق ، فاستهديت الله تبارك وتعالى، فهداني إلىٰ ما أودعته في كتبي هذه، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده، كما انخلعت من ثوبي هذا! (وانخلع من ثوب كان عليه ورمىٰ به، ودفع الكتب إلىٰ الناس) إهـ .

هذه هي التوبة النصوح، وتتكون من ثلاثة عناصر: التوبة، والندم على ما فات وإصلاح ما أفسد، وبيان ذلك مفصلاً للناس في قول الله تعالى:

﴿إنّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البيِّنات والهدىٰ من بعدما بيناه للناس في الكتاب، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون! إلا الذين تابوا، وأصلحوا، وبينوا، أولئك أتوب عليهم!! وأنا التواب الرحيم﴾ [٢]

سادساً ـ قال الأفغاني :

«لئن تخلىٰ طه حسين عن خطأ الأحكام في كتابيه السابقين، إن فيهما من عذوبة البيان والحماسة لانتهاج منهج في البحث مستمر الأثر فيما أُقدر حتى سنوات قادمات . . .»

وهذه سذاجة رابعة من الأستاذ سعيد! وحض مباشر وغير مباشر للأجيال علىٰ أدب طه حسين في هذين الكتابين علىٰ الرغم مما اشتملا عليه من كفر وضلال وفسق ولواطه وخمريات! مع العلم بتأثير القدوة والإغراء والتقليد نتيجة عذوبة بيان طه حسين ، الأمر الذي يعرفه حتى العامة من الناس! وقد أدركه الجاهليون فخشوا

---

(١) بالأسلوب الذي رضي به الأفغاني.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٩.

تأثير القرآن أن يقوم بعملية غسل المخ، فنهوا أتباعهم حتى عن سماعه على حد قوله تعالىٰ في وصفهم: ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن! والغوا فيه لعلكم تغلبون[1]﴾.

وما أعظم ما قاله سبحانه تعالى في كتابه الكريم: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره! إنكم إذاً مثلهم، إنّ الله جامعُ المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً[2])

سابعاً ـ قال الأفغاني: «لكن كثيراً من الناس يقرؤون في غير أناة ولا روية، لقد حذر هو نفسه على ما أصدره من أحكام، واعترف في غير غمغمة بحاجة بحوثه إلى إعادة النظر، ولكن الببغاويين أتباع كل جديد رائج في غير تبصر ولا إعمال عقل(!) فلا يتريثون في قراءة، ولا يتوقفون لتفهم، بل يمضون في اتخاذ آراء من هنا، وهناك فيضلون ويُضلون».

إن هذا الكلام تعدى حدود السذاجة وأترك للقراء تسميته بما يرون! وذلك لاتهامه كبار العلماء والأدباء الذين أتينا علىٰ ذكرهم وعلىٰ ردودهم المفحمة فيما سبق من هذا الكتاب، وقد تصدوا لطه حسين في حياته وبعد موته، فأتوا بالحجج الدامغات والبيِّنات الواضحات، فزعم أنهم يقرؤون في غير أناة ولا روية، فهم كالببغاوات، لا يتوقفون لفهم، بل يمضون في اتخاذ آراء من هناوهناك، فيضلون، ويُضلون.

لا أدري كيف أرد علىٰ هذا الكلام للأفغاني، فإني أخشى من الخروج عن حدود الأدب، وهو معروف بكبره وغروره، ويشهد معي بذلك كثير ممن زاملوه في كلية الآداب، ولا شك أنّ نتيجة ذلك الجهل والطمس علىٰ البصيرة...

وقد اتهم هذا الكاتب صاحبه طه حسين إلىٰ جانب اتهام ناقديه بأقبح النعوت، بالجذبة حيناً وبالخداع حيناً آخر وذلك لكونه يكتب للناس خلال نصف قرن تقريباً بحوثاً تحتاج إلىٰ إعادة نظر، كأنها في الذرّة وغزو الفضاء..! وهو طالما

---

(1) سورة فصلت، الآية ٢٦

(1) النساء: ١٤٠

(2) سورة الآية

دبّج المقالات الكثيرة في الدفاع عن آرائه والرد علىٰ خصومه!! أليس ينطبق عليه بعد تراجعه المزعوم عن كتبه قول الأستاذ سعيد أنه ممن لا يتريثون في كتابه، ولا يتوقفون لفهم، بل يمضون في اتخاذ آراء من هنا وهناك. . . .

ثامناً ـ قال الأفغـــاني:

«أفيجوز في شرعة الحق والانصاف، أن نظن أن طه حسين بعد هذا كله طوال تلك الأعوام التي قاربت الخمسين، قد ظل جامداً علىٰ رأيه الذي رآه في أول شبابه، بعد كل ما بينوا له، فأين حصافته إذاً، وأين فهمه وإنصافه، وكل الذين عرفوه، شهدوا له بهذه الفضائل. . . وهي شهادة حق»

لا أدري كيف أرد على هذا الكلام، ولا كيف أصف كاتبه! فإن طه حسين ـ كما يعلم الجميع ـ بقي قرابة نصف قرن جامداً على آرائه التي رآها في أول شبابه بعدما بينّ له كبار العلماء والأدباء خطأه وضلاله، حتى إذا أدركه الغرق، قال بينه وبين نفسه، أو بينه وبين فئة قليلة مزعومة إني رجعت عن بعض ما قلته، ولا يحذّر من إعادة طبع كتبه. . .

فهل من يفعل ذلك يقال عنه: إن لديه حصافة وفهم وإنصاف؟! نعم قد يكون له حصافة وفهم. . . في الاسلوب اليهودي، فقد جاء في «بروتوكول» صهيون رقم ٧: «إن أعمال الدبلوماسي لا يجب أن تطابق كلماته ولا بد من استخدام الصحافة لتكوين رأي عام خاطىء تتسلط علىٰ اقناعه بما تريد!»

ثم أخذ الكاتب يفتري على الحقيقة علىٰ كل من عرف طه حسين بأنهم شهدوا له بالفضائل السابقة، وقد عرفنا فيما سبق من الردود عليه من قبل فريق من كبار العلماء والأدباء بأن طه حسين محروم من الحصافة والفهم والانصاف! ولا أدري كيف يكون له مثل هذه الصفات السامية وهو قد ضلل الكثيرين بآرائه الخاطئة ثم يرجع عن بعضها بعد خمسين عاماً بهذا الأسلوب الخادع الخالي من الحصافة والفهم والانصاف، ودون أن يعلن للناس، كما يعلن الصادقون المخلصون: أنه كان خاطئاً، وما أصدق ما وصف به الأديب الكبير محمود محمد شاكر الأفغاني «وعَجب

---

(١) لقد شهد طه حسين على نفسه فضلاً عن شهادة الآخرين وذلك في مواطن كثيرة من كتابه «الأيام» «باضطراب العقل». قاله الدكتور زكي مبارك في مجلة الرسالة ١٩٤١.

أمر الأستاذ سعيد الأفغاني في حرصه علىٰ تأويل الكلام بما لا وجه له، ولا أصل!!»[1]

تاسعاً: وأخيراً أدرك الكاتب الأفغاني الصباح فسكن عن الهراء الصراح وختم مقاله بقوله وهو يشيد بالدكتور ويرسل له الرحمات فيقول:

«لدعوة الحق الخلود، ولحامليها التحية، وعلىٰ طه حسين الذي أنصف نفسه قبل أن ننصفه، رحمه الله»

لو كان الأفغاني شاعراً لذكرته بقول الله تعالى ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون.. ﴾ الآيات[2].

ولكنه ليس بشاعر ويظهر أنه ـ مما سبق ـ لا يحمل رسالة الأديب أيضاً! ولا أدري كيف يستحق طه حسين دعوة الخلود هذه والتحية، وقد اطلع القراء علىٰ حكم العلماء والأدباء فيه وفي ضلاله، وقد رأينا في مقال سابق كيف اتفق المستعمرون والصهاينة علىٰ وجوب ترويج آراء طه حسين لتضليل الناشئة وانحلالها، وذلك وفقاً «لبروتوكول» رقم(٢)وفيه«إن الصحافةهي القوة التي نحصل بها علىٰ بلبلة الرأي العام بدسّ آراء الهدم ليتبناها كُتّاب مغرورون ضائعون، حاقدون متفسخون، فيثيرون الغوغاء بتوليد الضجر، والتعبئة الناقمة ومن خلال ذلك أحرزنا نفوذاً وبقينا وراء الستار...»

ولا أدري ما هي دعوة الحق التي جاء بها طه حسين وطلب لها الأفغاني الخلود، وقد اطلع عليها القراء وعرفوا ما فيها من طامات وكفريات ووقاحات وسخافات وإباحيات كما رأينا ذلك في شهادات العلماء والأدباء.

وأنهي هذه الخاتمة في الرد علىٰ الأستاذ الأفغاني الممتلىء كبراً وغروراً بكلمة حول قضية رجوع طه عن رأيه في الشعر الجاهلي كتبها الدكتور محمد الدسوقي وقد عمل كأمين سر طه حسين بعد اختلافه مع أمين السرّ السابق، وهو أصدق من الأفغاني حديثاً بحكم هذه الأمانة.

---

(١) في كتابه «المتنبي»

٢ ـ سورة الشعراء: الاية ١٢٥

شهادة الدكتور محمد الدسوقي

طه حسين والشعر الجاهلي*

● كتب الاستاذ سعيد الافغاني في عدد يناير سنة ١٩٧٧ من مجلة العربي كلمة بعنوان «انصافاً لطه حسين» أشار فيها الى ان طه حسين رجع عن رأيه في الشعر الجاهلي ،فلم يعد لديه منحولا ،وانه من ثم يعد مصدرا لدراسة الحياة العربية في العصر الجاهلي . وعقبت على ما ذهب اليه الاستاذ الافغاني في عدد مايو سنة ١٩٧٨ وذكرت ان العميد لم يرجع عن رأيه في هذا الموضوع وان دراسة عصر ما قبل الاسلام لا سبيل اليها عن طريق الشعر الجاهلي وأن القرآن الكريم هو المصدر الصحيح لدراسة هذا العصر، بيد أن الاستاذ الافغاني في حوار القراء في عدد اكتوبر ٧٨ حاول ان يؤكد ان العميد رجع عن رأيه ، وأن الواجب يفرض عليه ان يصحح ما وقعت فيه من خطأ وفاء للتاريخ واقراراً للحقيقة . .

والحقيقة ان الحجة التي اعتمد عليها الاستاذ سعيد وهو العالم المدقق المحقق ـ لا تعد دليلا مقنعا في موضوع خطير أثار جدلا حاميا بين المفكرين والباحثين، فهذه الحجة رواية نقلها عن الدكتور الحوفي، وهذا رواها عن المرحوم الاستاذ ابراهيم مصطفى الذي قال انه سمع من العميد سنة ١٩٥٠ انه رجع عن رأيه في الشعر الجاهلي، وان العميد صرح بهذا بعد أن أهديت اليه مؤلفات تصور الحياة

العربية من خلال الشعر الجاهلي، وان الاستاذ مصطفى طلب من العميد ان يعلن رجوعه عن رأيه فابتسم وقال: لا لا لا. !

هذه الرواية ـ ولا مطعن في صحتها ـ يتخذها الاستاذ الافغاني حجته في رجوع العميد عن رأيه، وعلل رفضه لاعلان رجوعه بأنه كان يأمل الاعلان عنه بعد تراخي الزمن ونفاد الطبعة رحمة بالناشر! وكان العميد بهذا التعليل يخاف شيئا ما يحول بينه وبين الجهر بما انتهى اليه في قضية الشعر الجاهلي، وما كان العميد في القضايا العلمية وغيرها يعرف الخوف أو الغمغمة، وانما كان يعرف الشجاعة والصراحة والوضوح.

لقد رافقت العميد في العقد الأخير من عمره وقرأت له كثيرا من المؤلفات العربية القديمة والمعاصرة وجاء ذكر الشعر الجاهلي أكثر من مرة، فما سمعت منه الا شكه في هذا الشعر وطعنه في صحته. وقد قال لي يوما: انه لا يعيد النظر في مؤلفاته عند اعادة طبعتها غير انه اضاف الى هذا: ان هناك كتابا واحدا أريد أن أغير فيه بعض الآراء وهو «مستقبل الثقافة في مصر»، فقد انتشر التعليم وأصبح مجانا في جميع مراحله كما قويت الصلات العلمية والادبية بين البلاد العربية على الرغم من الخلافات بين بعض حكامها. وهذا يعنى أن كتاب «في الادب الجاهلي» لا رجوع عما اشتمل عليه من آراء.

وبعد فان موقف طه حسين من الشعر الجاهلي ،... لا يمكن الجزم بأنه عدل عنه اعتمادا على كلمة قالها في مناسبة اهداء بعض المؤلفات اليه، ثم يلزم الصمت اكثر من عشرين عاما دون أن يكتب عن رأيه الجديد، ولذا اكرر ما أومأت اليه آنفا من أن العميد لم يرجع عن رأيه في الشعر الجاهلي. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

العربي العدد ٢٤٣ شباط ١٩٧٩ الدكتور محمد الدسوقي طرابلس الغرب

وفي الختام وبعد سماع شهادة الدكتور محمد الدسوقي، أستميح الأستاذ الأفغاني وأهديه عبارة له وردت في شهادته الزائفة: «... لكن الببغاويين وأتباع كل جديد رائج في غير تبصر ولا إعمال عقل! في قراءة ولا يتوقفون، بل يمضون في اتخاذ آراء من هنا وهناك، فيضلون ويُضلون». ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ربَّنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

محمود مهدي الإستانبولي

يحدثونك . . . عن ذكرياتهم

● يقول الأديب الراحل الدكتور طه حسين:

في عام ١٩٣٢ طلب مني وزير المعارف أن أزوره في مكتبه . . ذهبت اليه وفي اثناء الزيارة قال لي وزير المعارف: يا طه حسين . . باعتبارك عميداً لكلية الآداب، نريد منك أن تقدم اقتراحاً للجامعة بمنح الدكتوراه الفخرية لعدد من كبار الأعيان والوجهاء!! ولكنني على الفور قلت لوزير المعارف: يا باشا . . عميد كلية الاداب ليس عمدة لتصدر اليه الأوامر . . في هذه اللحظة بدأ الغضب في صوت وزير المعارف وقال الوزير: «طيب . . أنت لاتسمع الكلام . . وسنرى من ينفذ كلامه . .» وفعلا . . عرض الأمر على مجلس كلية الاداب، ورفض المجلس منح الدكتوراه الفخرية للأعيان. ثم جاءت مناسبة أخرى:

يقول طه حسين: جاء الملك فؤاد بعد صدامي مع الوزير لكي يزور الجامعة وكلياتها وقبل وصوله سألني زملائي - باعتباري عميدا للكلية - هل نلقي محاضرات خاصة بمناسبة زيارة الملك؟ قلت لا كل محاضرة كما هي، وكل استاذ في محاضرة كما هي، وكل استاذ في محاضرته المعتادة، وحينما وصل الملك ودخل أول قاعة للمحاضرات فوجيء بالطلبة يستمعون الى محاضرة عن النظام الدستوري فغضب الملك . . وكانت النتيجة ان تحرك ضدي البرلمان، والملك والحكومة، وفصلت من عملي كأستاذ عندما فتحت الحكومة ملف كتاب «في الشعر الجاهلي» وأصبحت في الشارع وليس في بيتي رغيف خبز واحد . . وصار أخي ينفق علي . .

هل مات طه حسين؟!..

دخل علينا يوماً أحد الاساتذة الغيورين، ونحن في عهد الدراسة في أوائل الثلاثينات، وكنا يومئذ في ثانوية عنبر، وقد ساءت الأوساط العلمية والأدبية انحرافات طه حسين وضلالاته، فقال هذا الأستاذ
لقد مات الدكتور طه حسين!

فسرّنا في باديء الأمر بهذا الخبر المفاجيء، ولكننا استغربنا، إذ لم نسمعه من غير أستاذنا

فسألنا: وكيف ذلك!؟

فقال: «لقد ظهرت كتب ومقالات عديدة من كبار العلماء والأدباء في الرد عليه، فألقمته حجراً بل أحجاراً. وبهُت الذي كفر، وغدا في عداد الموتى من الأحياء!» ولكن طه حسين عاد إلى الحياة في الخمسينات وما بعدها.... فكيف ذلك؟

إن ردود هؤلاء العلماء والأدباء السابقة التي كان يتطاير منها الشرور اللهب، قد طواها الزمن واختفت في المجلات القديمة التي من شأنها الاختفاء كما اختفت معها الكتب أيضاً نتيجة عدم إعادة طبعها بسبب الدعاية القوية التي كانت الدوائر الاستعمارية والصهيونية والتبشيرية تُسلط أضواءها المفتعلة نحوها بمختلف وسائل الاعلام والغزو الفكري والثقافي، حتى قلدته رئاسة الجامعة المصرية، ووزارة المعارف، ومنحته لقب: «عميد الأدب العربي».

والأنكى من كلّ ذلك أنه بعد موته ـ الموت الطبيعي ـ وهو غاية كل حي ـ ازداد النشاط على طبع آثاره في مجموعات ومجلدات براقة غزت الأسواق، وغدت من أُمنيات الكثيرين من المغفلين والمغرورين . . وأخذت تفتك بهم فتك الذئب بالماشية، وتعمل عمل النار في الهشيم . .

- ٣ -

ولم يعد أحد يُفكر بالردّ عليها باعتبار أنه تمّ كل ذلك في أواخر الثلاثينات كما سبق وذكرنا

(وكفى الله المؤمنين القتال)

ولكن أين هذه الردود؟، فهي ليست متوافرة في الأسواق!

وقد نبّه القرآن العظيم الى خطورة آثار الإنسان بعد موته كي يكون . على حذر ويحسب لها حسابها . .

(إنا نحن نحيي الموتى، ونكتب ما قدّموا وآثارهم، وكلّ شيء أحصيناه في إمام مُبين) (يس : ١١)

- ٤ -

قد يقول قائل :

أين كنت لما كان طه حسين حياً منذ سنوات قريبة؟!

لماذا لم تُخرج كتابك إلى الميدان في عهد ما ليقول رأيه فيه؟!

سؤال محرج

ولكن عُذري في ذلك: إنني انتهيت من إعداده فقط منذ سنوات قد تكون عشرة، وكتبت إلى بعض المسؤولين والغيورين في خارج سورية لطبع هذا الكتاب ، فلم يتيسر ذلك

والآن قد كُتب له الظهور بتوفيق الله تعالى وعونه، فجمعت فيه أغلب ردود العلماء والأدباء على هذا الدكتور، التي تيسرّت لي، آملاً أن أحصل على الباقي في الطبعات الآتية إن شاء الله تعالى .

وسيرى القارىء بعد مطالعة هذا الكتاب أنّ طه حسين قد مات حقاً مع آرائه الضالة المضلة، وقد أثبت كبار العلماء والأدباء زيفها وفسادها

(وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً)

الفهرس

كتب للمؤلف

- دين الغد باللغتين العربية والانكليزية
- غارة الاستعمار والتبشير على العالم الاسلامي
- مجلة المعلمات في خمسة مجلدات
- أطفالنا ضحايانا (انتقاء)
- التضامن الاجتماعي الاسلامي
- نقد تقارير ساطع الحصري
- عبقرية الاسلام في التربية.
- أنا مؤمن بالله. لماذا؟
- لفتة الكبد في تربية الولد (تعليق)
- دمشق المريضة.
- دولة الاسلام
- رسالة بالانكليزية عن الاسلام
- حوار بين الفلاسفة حول تأسيس الأخلاق.

كتبُ لِلمؤلّف

طبع المكتب الإسلامي -

- كيف تتعلم الاسلام بدون معلم
- كيف حجّ النبي صلى الله عليه وسلم
- عظمة الإسلام - سلسلة تحت الطبع -
- السبيل إلى أسرة أفضل .
- نقائص الأطفال
- رياض الأطفال
- تحفة العروس أو الزواج الإسلامي السعيد
- التربية الجنسية
- المنهج الإسلامي الجديد للتربية والتعليم (تعليق) .
- كتب ليست من الإسلام

